مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية

محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

دراسة وتحقيق

د. ناصر بن سليمان السعوي — د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي

د. صالح بن عبد العزيز التويجري — د. خالد بن عبد العزيز الغنيم

د. محمد بن عبد الله الخضيري

أساتذة العقيدة والمذاهب المعاصرة

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

د. خالد الغنيم

الجزء الرابع

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية

محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

دراسة وتحقيق

د. خالد بن عبد العزيز الغنيم

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

الجزء الرابع

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – بالرياض

تمت مناقشة الأطروحة بتاريخ : ٢٤/ ٨/ ١٤٢٣هـ

وقد حصل الباحث علىٰ درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الثانية

المقدمة

وتشمل :

١- خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ورموزها .

٣- منهج التحقيق .

مقدمة الجـــزء الرابع

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فهذا الجزء الرابع من دراسة وتحقيق كتاب : «مدارج السالكين» لابن القيم - رحمه الله - ، والذي يبدأ من أول منزلة : الذكر ، إلىٰ آخر منزلة : التمكُّن ، وهذه مقدمة مختصرة لنصيبي في التحقيق أقتصر فيها علىٰ ذكر ما يتعلق بعملي من : خطة البحث ، وموضوعات الدراسة ، وعدد النسخ الخطية ، ورموزها التي اعتمدتها في التحقيق ، ومنهج التحقيق الذي سرت عليه.

*** خطة البحث :**

المقدمة : وتشمل علىٰ بيان :

أ - خطة البحث ومنهجي فيه.

ب - النسخ الخطية ، وذكر رموزها.

ج - منهجي في التحقيق.

القسم الأول : الدراسة. وتتضمن :

معارضات الإمام ابن القيم للهروي في كتاب منازل السائرين. جمع وعرض.

القسم الثاني : التحقيق. ويتضمن :

*** تحقيق الكتاب ويشمل :**

١- المقابلة بين النسخ الأصلية.

٢- عزو الآيات القرآنية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية.

٤- عزو الآثار.

٥- عزو النقول إلىٰ مصادرها.

٦- بيان معاني الكلمات الغريبة.

٧- التعريف بالبلدان.

٨- الترجمة للأعلام غير المشهورين.

٩- التعريف بالملل والطوائف.

١٠- التعليق علىٰ المسائل التي تحتاج إلىٰ تعليق.

١١- الخاتمة.

*** وصف النسخ الخطية :**

تم تحقيق هذا الجزء من كتاب مدارج السالكين لابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - من قوله : منزلة الذكر إلىٰ قوله : باب المكاشفة. من تسع نسخ خطية، وهي متفاوتة في تاريخ كتابتها ، وعدد أوراقها وتمامها وجودتها وإليك بيان ذلك :

النسخة الأولىٰ : نسخة (تشستربتي) بدبلن عاصمة إيرلندا؛ وهي مصورة علىٰ فلم في جامعة الإمام برقم [٣٦٢٧] ، وقد رمزت لها بالحرف [ش].

وهذه النسخة هي التي اخترتها أصلاً لأسباب منها :

١- قدم كتابتها.

٢- أنه كتب عليها أنها قوبلت علىٰ الأصل.

٣- تمامها وعدم خرمها إلا كلمات يسيرة.

٤- جودة كتابتها ووضوح خطها.

٥- وجود التعليقات وبيان المبهمات غالباً ووضع العناوين للمنازل.

٦- جودتها في تخليص المعنىٰ المراد عند اختلاف النسخ وموافقتها للنص الصحيح عند الإشكال غالباً.

٧- موافقتها غالباً في سياق المنازل لمتن كتاب : «سوريا» التي اعتمد عليها الزملاء الثلاثة السابقين فيها نقص كبير؛ لذا جعلت هذه هي الأصل الذي قابلت عليها جميع النسخ.

النسخة الثانية : نسخة سوريا ، في معهد التراث العربي في حلب كتبت سنة ٧٤١ هـ- فلم رقم ٤٨ ، ٤٩ ونسختها الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب أيضاً تصوف رقم ٦٩٦ ، وقد رمزت لها بالرمز (س).

النسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [٨٧٤] تصوف؛ وهي مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب القومية ، وقد رمزت لها

بالرمز (أ).

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [٢٠٥٣١]؛ وقد رمزت لها بالرمز (ب).

النسخة الخامسة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٠٣] تصوف قولة؛ ورمزت لها بالحرف [ق].

النسخة السادسة : نسخة أصلية في جامعة الإمام في مجلدين رقمهما [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨]؛ وهي التي رمزت لها بالرمز (ج).

النسخة السابعة : نسخة مصورة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأصلها من مكتبة أحمد الراشد في الغاط ، وأرقامها : [١٠٨٧٣ ، ١٠٨٧٤ ، ١٠٨٧٥] ، وهي التي رمزت لها بالرمز (غ).

النسخة الثامنة : نسخة المعهد العلمي بمدينة حائل تحت رقم [٨] ، وهي التي رمزت لها بالرمز (ح).

النسخة التاسعة : وهي المجلد الأول في المعهد العلمي بحائل علماً أنه لا صلة بين المجلد الأول والثاني ، وهي في المعهد العلمي رقمت بنفس الرقم للمخطوطة السابقة أي رقم [٨] ، وقد رمزت لها بالرمز (م).

علماً أنني قد أضفت رمزاً عاشراً وهو رمز (ط) ، وأعني بذلك المطبوعة؛ وهي طبعة دار الكتاب العربي بتحقيق الشيخ / محمد حامد الفقي ، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر رحمه الله تعالىٰ.

لما في ذلك من الفائدة ، حتىٰ يطلع القارئ ، وتتضح له الفروق بين المخطوط والمطبوع ، حيث يوجد فيها أخطاء مطبعية ، وتصحيف لبعض الكلمات ، وسقط جمل؛ بل أحياناً أكثر من سطر.

وبعد هذا الوصف فإنه يمكن القول علىٰ سبيل الإجمال أن هذه الرموز يمكن تقسيمها إلىٰ قسمين من حيث كثرة الاتفاق وقلة الاختلاف :

فالقسم الأول : ويشمل س ، ش ، م ، ج ، ق حيث تتفق كثيراً.

والقسم الثاني : ويشمل ط ، أ ، ب ، غ ، ح حيث تتفق غالباً. وبالنظر في التحقيق فيما سيأتي يتبين ما سبق ذكره وأكثر.

*** منهجي في التحقيق :**

فقد قمت بالمقابلة بين النسخ التي حصلت عليها ، وأثبت النص الصحيح متبعاً في ذلك منهجاً ألخصه بما يلي :

١- اعتمدت نسخة (شستربتي) أصلاً.

٢- لا أغير نصها إلا إذا غلب علىٰ الظن أن غيرها أصح منها وثبت ذلك عندي - بعد التأمل - فأثبته مع الإشارة بالهامش إلىٰ ذلك ، وإذا كان فيها نقص فإني أضعه في الأصل بين معكوفين هكذا [ ] مع الإشارة إلىٰ ذلك في الهامش.

٣- أثبتُّ الفروق بين النسخ في الهامش مع فروق المطبوعة والتي رمزت

لها بـ (ط).

٤- بالنسبة للأخطاء في الآيات فإني أذكرها صحيحة في الأصل دون الإشارة إليه في الهامش.

٥- قمتُ بعزو الآيات التي مواضعها (اسم السورة ورقم الآية) وأجعل ذلك في أصل الكتاب بعد الآية أو الآيات مباشرة بين المعكوفين والآيات التي يتكرر ورودها في مواضع متقاربة فقد أغفل العزو إليها في المواضع اللاحقة القريبة لعدم الحاجة لذلك.

٦- قمتُ بتخريج الأحاديث والآثار من كتب السنة فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، فإني أكتفي بهما غالباً وأعزوه إلىٰ موضع واحد من مواضع وروده، وربما أخرجه غيرهما أحياناً، وإن لم يكن في الصحيحين أو في أحدهما فإني أخرجه من كتب السنة الأخرىٰ ما أمكن مع ذكري لبعض من حكم عليه بصحة أو حسن أو ضعف.

٧- قمتُ بالتعليق علىٰ ما يحتاج إلىٰ تعليق.

٨- وأما الزيادات التي تسبق النصوص أو تلي الأعلام مثل: سبحانه، تعالىٰ، رضي الله عنه، ونحوها من الفروق التي لا تغير المعنىٰ فإني أثبت ما في المخطوطة الأصل ولا أضيف عليها ما كان في النسخ الأخرىٰ ولا أشير إليها في الهامش لكثرة الاختلاف فيها مع كونها لا تضر بالمعنىٰ.

٩- قمت بتوثيق النصوص التي ينقلها المؤلف إلىٰ مصادرها ما أمكن ذلك.

١٠- قمت بالتعريف بما يلزم التعريف به كالأعلام والأمكنة والفرق والمصطلحات والكلمات الغريبة ويكون التعريف بذلك في أول وروده غالباً. وقد أترك ذلك قصداً ؛ لأن المؤلف سيذكره فيما بعد ويبسط الحديث عنه ، فأرىٰ تأخيره. وهذا قليل.

١١- في ذكر المراجع في الهامش قد أذكر المرجع مختصراً فأقول مثلاً (الاقتضاء) وأقصد (اقتضاء الصراط المستقيم) أو أذكره بوصف لا يلتبس بغيره فأقول مثلاً تفسير ابن كثير. وإذا قلت انظر : كتاب (الطبقات) فالمقصود (الطبقات الكبرىٰ) للشعراني، وإذا قلت (الرسالة) فالمقصود (الرسالة القشيرية).

١٢- قمت بوضع مسمىٰ لكل مترلة قبل الحديث عنها بين معكوفين. علماً أن مخطوطات الكتاب يوجد فيها هذا العنوان ، ولكن علىٰ جانب المخطوطة ، كما أنه يوجد اختلاف بينها فتارة بلفظ مترلة وأخرىٰ بلفظ باب ، وقد يوجد هذا الاختلاف في المخطوطة الواحدة فوضعته بلفظ واحد وهو (مترلة) لأجل مناسبة التسمية في متن : (منازل السائرين).

١٣- قمت بوضع عناوين جانبية لمحتوىٰ النص.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

د. خالد بن عبدالعزيز الغنيم

القصيم - بريدة

القسم الأول
الدراسة

وتتضمن :

معارضات الإمام ابن القيم للهروي في كتاب منازل السائرين (جمع وعرض) .

تمهيد

قبل الحديث عن معارضات ابن القيم للهروي لعلي أقدم بمقدمة موجزة حول التعريف بالهروي رحمه الله، وأنقل بعض ما قيل عنه، وذلك ليعلم أن الإمام ابن القيم - رحمه الله - لم يكن متحاملاً عليه فيما عارضه به؛ بل كان منصفاً؛ بل إنه يذكر لكلامه عدة احتمالات معتذراً له في بعض الأحيان.

الإمام الهروي :

*** نسبه ومولده ووفاته :**

الإمام الهروي نسبه ومولده ووفاته

هو الإمام الحافظ أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن علي بن جعفر بن منصور بن متَّ الأنصاري الهروي الملقب بشيخ الإسلام. ولد في شعبان سنة ٣٩٦هـ وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٨١ هـ في مدينة هراة وهي المدينة التي ولد فيها (١).

*** بعض ما قيل عنه :**

تكلم كثير من العلماء عن الإمام الهروي - رحمه الله - وأثنوا علىٰ جهوده في نصرته للسنة، والرد علىٰ أهل البدع، وبينوا ما جرىٰ له بسبب ذلك من

---

(١) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٥٠ -٦٧، وشذرات الذهب ٣/ ٣٦٥-٣٦٦، وشيخ الإسلام عبدالله الأنصاري ص١٣-٩٣، والمنهج الأحمد ٢/ ١٥٧.

محن عظيمة ، ومن ذلك قوله المشهور : «عرضت علىٰ السيف خمس مرات ، لا يقال لي : ارجع عن مذهبك ، ولكن يقال لي : اسكت عمن خالفك ، فأقول لا أسكت» [١]. وغير ذلك من النقول التي تبين إمامته ومنزلته.

وليس القصد هنا بيان ذلك ، وإنما أريد الوقوف علىٰ بعض ما قيل عن أخطائه وزلاته وذلك حتىٰ يعذر ابن القيم - رحمه الله - فيما سأذكره عنه فيما بعد فإليك شيئاً من ذلك :

قال في تذكرة الحفاظ : «قلت : تخرج به خلق كثير ، وفسر القرآن مدة وفضائله كثيرة ، ورأيت أهل الاتحاد يضمون كلامه في منازل السائرين ، ويدعون أنه موافقهم ، ذائق لوجدهم ، ورامز لتصوفهم الفلسفي ، وأنىٰ ذلك وهو من دعاة السنة وعصبة آثار السلف ، ولا ريب أن في منازل السائرين أشياء من محط المحو والفناء ، وإنما مراده بذلك الفناء : الغيبة عن شهود السوىٰ ولم يرد عدم السوىٰ في الخارج. وفي الجملة هذا الكتاب لون آخر غير الإنموذج الذي أصفق [٢] عليه صوفية التابعين ، ودرج عليه نساك المحدثين والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم» [٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «وأما أبو إسماعيل الأنصاري

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٤.

(٢) أصفق : أي اجتمعوا عليه. انظر : لسان العرب ٢/ ٤٥٢.

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٤ و ١١٨٥.

صاحب (منازل السائرين) فليس من كلامه شيء من الحلول العام؛ لكن في كلامه شيء من الحلول الخاص في حق العبد العارف الواصل إلىٰ ما سماه هو: (مقام التوحيد)» .

وقال في موضع آخر : «وقد وقع في ذلك طائفة من الصوفية حتىٰ صاحب (منازل السائرين) في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذا الحلول»[١].

وقال في منهاج السنة : «وقد ذكر في كتابه (منازل السائرين) أشياء حسنة نافعة ، وأشياء باطلة. ولكن هو فيه ينتهي إلىٰ الفناء في توحيد الربوبية ، ثم إلىٰ التوحيد الذي هو حقيقة الاتحاد»[٢].

ولعله من المناسب بعد هذا أن نختم الحديث بما قاله الإمام ابن القيم عن الهروي من الثناء عليه ، فمما قاله فيه - رحمه الله - بعد حديثه عن أهل وحدة الوجود : «لكن صاحب المنازل بريء من هؤلاء وطريقتهم ، وهو مكفّر لهم؛ بل مخرج لهم من جملة الأديان ، ولكن ذكرنا ذلك؛ لأنهم يحملون كلامه عليه ، ويظنونه منهم» [٣].

وقال أيضاً في الدفاع عنه : «وصاحب المنازل - رحمه الله - كان شديد الإثبات للأسماء والصفات ، مضاداً للجهمية من كل وجه ، وله كتاب

(١) الفتاوى ٥/ ٤٨٥ و ٥/ ٢٣٠.

(٢) منهاج السنة النبوية ٥/ ٣٤٢.

(٣) المدارج ١/ ٢٢٩.

(الفاروق) استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها لم يسبق إلىٰ مثله ، وكتاب (ذم الكلام وأهله) طريقته فيه أحسن طريقة. وكتاب لطيف في أصول الدين يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقررها. وله مع الجهمية المقامات المشهودة ، وسعوا بقتله إلىٰ السلطان مراراً عديدة ، والله يعصمه منهم ، ورموه بالتشبيه والتجسيم ، علىٰ عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث ، الذين لم يتحيزوا إلىٰ مقالة غير ما دل عليه الكتاب والسنة»[1].

وقال أيضاً في الرد علىٰ من حمل كلامه علىٰ غير مراده وبعد بيانه للمعنىٰ الحق : «وهذا المعنىٰ حق. وهو أولىٰ بهذا الإمام العظيم القدر مما يظنه به طائفة الاتحادية والحلولية وإن كانت كلماته المجملة شبهة لهم ، فسنته المفصلة مبطلة لظنهم»[2].

ومن خلال ما تقدم من النقول يتبين لنا أنّ سبب دفاع ابن القيم عن الهروي وهو تبيان مراده الصحيح ، وذكر الاحتمالات لكلامه ما وجد لذلك سبيلاً ، حيث إن أهل الباطل حاولوا جاهدين في ضم الإمام الهروي إلىٰ صفهم ، وجعلوه ناطقاً بلسانهم ، ومعبراً عن معتقداتهم ، وأنه يقول بالاتحاد.

ويدافع ابن القيم ضد ذلك، بعد وقوفه علىٰ بعض شروحهم لكتابه المنازل[3] ،

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٢) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٣) انظر : المدارج ١/ ٢٦٤ و ٢٦٥.

ولما عرفه ويعرفه عن الإمام الهروي - رحمه الله - حيث يقول: «والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه، واعتراض كلامه لما فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحة يقظة ومناماً؟»[1].

* الدافع من ذكر هذه المعارضات:

١ - إن المتصفح لكتاب مدارج السالكين يجد هذه المعارضات كثيرة جداً وهي متفاوتة في موضوعها، وموزعة في الكتاب قد يتعذر جمعها في وقت يسير، فكان هذا دافعاً من الدوافع علىٰ جمعها وترتيبها ومعرفتها والاطلاع عليها.

٢ - كثرة وتناقض الأقوال حول شخصية الهروي بين مادح وذام ومتوسط، وإخراج مثل هذا العمل بمنهجية علمية يزيل الإيهام ويكشف الالتباس ويساهم في تبني العدل والصدق في الحكم علىٰ المقالات والأشخاص.

٣ - أن المتحدث عن الهروي ذو معرفة وبصيرة بالهروي نفسه، أضف إلىٰ ذلك ما عرف عن ابن القيم من علم وتقوىٰ وعدل وإنصاف، كما أنه من أبرز وأجود من تحدث عن التصوف وأخطائه وشطحاته والحكم عليه.

---

(١) المدارج ١/ ٥٢، وانظر مزيداً من الثناء عليه والاعتذار له في المدارج ١/ ١٩٨ و ٢/ ١٣٧ و٢٤٩ و ١/ ٢٥٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٣/ ٢٣٤ و ٢٣٥.

ويتضح من عرض هذه الأسباب أن المقصود من ذكر هذه المعارضات ليس الطعن والتحقير للإمام الهروي ، وإنما كما أسلفت لبيان وجه الصواب ، والحذر من الزلل ، والاستفادة من أقوال ابن القيم وتصويباته ، والوقوف عليها مجتمعة ومرتبة في موضع واحد.

* معارضات ابن القيم للهروي :

معارضات ابن القيم للهروي

بالنظر إلىٰ مجموعة معارضات ابن القيم للهروي فإننا نجد أنها كلها ترجع إلىٰ أن تكون معارضات صريحة لا يذكر ابن القيم - رحمه الله - للهروي أي احتمال لكلامه ، أو معارضات مشفوعة بذكر ما قد يحتمله. وهذه المعارضات علىٰ أقسام وهي :

أولاً : معارضات عامة علىٰ الهروي.

ثانياً : معارضات علىٰ المنازل.

ثالثاً : معارضات في التفريق والتقسيم والتعبير.

رابعاً : معارضات في مباحث متعددة.

وقبل البدء بعرض هذه المعارضات أحب أن أنبه أن هذا التقسيم لا يلزم منه عدم التداخل بين هذه الأقسام المذكورة ، فقد تكون واحدةً من المعارضات لها صلة بأكثر من قسم ، ولا يعني ذلك عدم ذكرها في الأقسام الأخرىٰ بل قد ترد المعارضة في أكثر من قسم وذلك نظراً لتنوع النقد

والمعارضة علىٰ كلمة واحدة (١) إلا أن هذا ليس بالكثير.

أولاً: معارضات عامة على الهروي

أولاً : معارضات عامة علىٰ الهروي :

وأنبه في هذا الموضوع أنني أذكر هذه المعارضات مكتفياً بها وقلَّما أعقب أو أعلق ، وربما اكتفيت أحياناً بقولي : قد لا يوافق ابن القيم فيما ذكره عن الهروي ، وذلك إشارة إلىٰ أن الأمر لا يحتمل فيه الاعتذار للهروي.

قال ابن القيم عن الهروي : «فرحمة الله علىٰ أبي إسماعيل. فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد ، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم : إنه لمنهم. وما هو منهم. وغرّه سراب الفناء ، فظن أنه لجُة بحر المعرفة ، وغاية العارفين ، وبالغ في تحقيقه وإثباته ، فقاده قَسْراً إلىٰ ما ترىٰ..» إلىٰ أن قال : «وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد ، وإن كانت عبارته موهمة؛ بل مفهمة ذلك ، وإنما أراد بالجحد : في الشهود ، لا في الوجود أي يجحده أن يكون مشهوداً ، فيجحد وجوده الشهودي العلمي ، لا وجوده العيني الخارجي...» (٢).

وقال - رحمه الله - علىٰ قول الهروي في اللطيفة الثالثة من لطائف أسرار التوبة : «هذا الكلام - إن أخذ علىٰ ظاهره - فهو من أبطل الباطل ، الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين ، لنُسب

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٢ - ٤١٠ ، في معارضته على باب التلبيس.

(٢) المدارج ١/ ١٤٨ و ١٤٩ ، وانظر : كلام المؤلف عن الفناء وأقسامه والممدوح منه والمذموم ١/ ١٥٤.

إلىٰ لازم هـذا الكـلام. ولكـن مـن عـدا المعـصوم ﷺ فمـأخوذ مـن قولـه ومتروك...» [١].

وقال أيضاً بعد ثنائه عليه : « ولكنه - رحمه الله - كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات : فإنه لا يقدم علىٰ الفناء شيئاً. ويراه الغاية التي يشمّر إليها السالكون ، والعَلَم الذي يؤمُّه السائرون. واستولىٰ عليه ذوق الفناء ، وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده. واتسعت إشاراته إليه ، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه ، علماً وحالاً وذوقاً ، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية ، بادياً علىٰ صفحات كلامه. وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصولهم من نفي الصفات» [٢].

وقال في تقديره لشيخ الإسلام (الهروي) ، وتقديم الحق عليه : «شيخ الإسلام حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله ثم نبين ما فيه» .

إلىٰ أن قال : « والذي أوجب للشيخ هذا القدر : الاسترسال في القدر ، والفناء في شهود الحقيقة الكونية، فإنه من الراسخين فيه الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم، وهو شديد في إنكار الأسباب ، وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمة

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٧.

(٢) المدارج ١/ ٢٦٤ ، وانظر ١/ ٤٦٤.

أعلام، ولولا أن حَقَّ الحقِّ أوجب من حقِّ الخلق لكان في الإمساك فسحة ومتسع»[١].

ثانياً: معارضات علىٰ المنازل:

ثانياً: معارضات على المنازل

تحدث ابن القيم - رحمه الله - عن المنازل، وبيَّن الأولىٰ والأحسن في ترتيبها وأن الناس متفاوتون في حصرها؛ بل وفي الكلام عليها، كما بين أن بعض المقامات يكون جامعاً لمقامين أو أكثر... إلىٰ آخر ما ذكره - رحمه الله -.

ولكن له كلام خاص، ومعارضات صريحة حول هذا الموضوع معترضاً بها علىٰ الهروي في كتابه منازل السائرين وإليك أمثلة علىٰ ذلك:

١ - معارضات في العدد:

معارضات في العدد

تحدث الهروي في أول كتابه منازل السائرين وبيّن أنه جعله مائة مقام مقسومة إلىٰ عشرة أقسام[٢].

وعلىٰ هذا وأمثاله قال ابن القيم في كتابه المدارج: « ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها، كلٌ يصف منازل سيره وحال توكله»[٣].

---

(١) المدارج ٢/ ٣٧ و ٤٤، وانظر: ٣/ ٣٩٤ و ٤٠٠.

(٢) انظر: منازل السائرين ٥.

(٣) المدارج ١/ ١٣٥.

وقال أيضاً : «فالأولىٰ الكلام في هذه المقامات علىٰ طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام... فكلام أئمة الطريق علىٰ هذا المنهاج...» إلىٰ أن قال : «فإنهم تكلموا علىٰ أعمال القلوب ، وعلىٰ الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم»[1].

كونها منزلة أو ليست منزلة

٢ - كونها منزلة أو ليست منزلة :

اعترض ابن القيم علىٰ الهروي في عدة مواضع من كتابه بسبب وصف الهروي للمنزلة بأنها من منازل السائرين. ومخالفة ابن القيم له بنفي ذلك ، أو أنها ليست من المنازل المطلوبة المرغوبة ، ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما يلي :

*** اعتراض علىٰ كونها منزلة :**

لما قال الهروي في المنازل : «ومن منازل : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ منزلة الحزن».

قال ابن القيم معترضاً : «وليست من المنازل المطلوبة : ولا المأمور بنزولها، وإن كان لا بد للسالك من نزولها. ولم يأت (الحزن) في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً...» إلىٰ أن قال : «فالحزن ليس بمطلوب ، ولا مقصود ، ولا فيه

(١) المدارج ١/ ١٣٨ و ١٣٩ ، وانظر أيضاً ١/ ٤٣٣.

فائدة...»[١].

وقال عن منزلة الهيمان : «وليس ذلك من مقامات السير ، ولا منازل الطريق المقصودة بالنزول فيها للمسافرين ، خلافاً لصاحب المنازل حيث عدَّ ذلك من أعلىٰ المنازل وغاياتها ، وعبر عنه بمنزلة « الهيمان » ولهذا ليس له ذكر في القرآن ، ولا في السنة ، ولا في لسان سلف القوم....» [٢].

وفي منزلة (المراد) قال : «وفي الحقيقة فكل مريد مراد... إلىٰ أن قال : وإن منهم من اكتفىٰ عن ذكر مقام المراد بمنزلة الإرادة؛ لأن صاحبها مريد ومراد»[٣].

- وقال عن منزلة الدهش : «وليست من منازل السلوك خلافاً لأبي إسماعيل الأنصاري حيث جعلها من المنازل : بل من غاياتها»[٤].

وقال عن باب التلبيس : «لعمر الله لقد كان في غنية عن هذا الباب ، وعن هذه التسمية ، ولقد أفسد الكتاب بذلك...»[٥].

*** اعتراض علىٰ كونها ليست بمنزلة :**

وهذا النوع لم أجد له إلا مثالين فقط :

---

(١) المدارج ١/ ٥٠٥ و ٥٠٦ ، وانظر : منازل السائرين ٢٥.

(٢) المدارج ٣/ ٧٩ ، ومنازل السائرين ٩٦.

(٣) المدارج ٢٤٥٢ و ٢٤٥٣، ومنازل السائرين ٧٣.

(٤) المدارج ٣/ ٧٥ ، منازل السائرين ٩٥.

(٥) المدارج ٣/ ٤٠٠ ، منازل السائرين ١٣٠.

أحدهما : يوافق فيه الهروي من وجه ويخالفه من وجه آخر حيث يعلق علىٰ قول الهروي في حديثه عن النوع الأول من أنواع النفَس «وهي الظلمة التي قالوا : إنها مقام».

فقال ابن القيم - رحمه الله - : «والشيخ كأنه لا يرىٰ ذلك مقاماً...» إلىٰ أن قال : «والتحقيق في ذلك : أن له وجهين : هو من أحدهما : ظلمة ووحشة. ومن الثاني : مقام. فهو باعتبار الحال وباعتبار نفسه ليس مقاماً. وباعتبار المآل وما يترتب عليه وما فيه من تلك الحكم والفوائد المذكورة فهو مقام. وبالله التوفيق»[1].

المثال الثاني : ذكره لمنزلة لم يتحدث عنها الهروي ولم يعدها منزلة من منازل السائرين - في كتابه المنازل - وهي منزلة (المروءة) وابن القيم ذكرها من منازل السائرين وتكلم عنها بعد منزلة الفتوة وقبل منزلة الانبساط [2].

* * *

٣ - معارضات في الاستدلال والتفسير :

معارضات في الاستدلال والتفسير

ومما يتصل بالمعارضات علىٰ المنازل، معارضاته في الاستدلال والتفسير، فتجده يقول تعليقاً علىٰ استدلال الهروي : وما أبعد الآية من استشهاده ، أو

---

(١) المدارج ٣/ ١٩٠ ، ومنازل السائرين ١٧٠.

(٢) المدارج ٢/ ٣٥١ - ٣٥٤ ، وانظر : منازل السائرين ٦٢.

يقول : ليته لم يستشهد بهذه الآية. ونحو ذلك .

* ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما يلي :

- قال في منزلة الهيمان : «وقد تكلف له صاحب المنازل الاستشهاد بقوله تعالىٰ :﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] وما أبعد الآية من استشهاده. وكأنه ظن أن موسىٰ ذهب عن تماسكه لما ورد عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهي ، فأورثه ذلك هيماناً صعق منه ، وليس كما ظنه ، وإنما صعق موسىٰ عند تجلّي الرب تعالىٰ للجبل واضمحلاله وتدكدكه من تجلي الرب تعالىٰ...» (١).

- وقال في منزلة الذكر حينما قال الهروي : «قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [سورة الكهف : ٢٤] يعني : إذا نسيت غيره ، ونسيت نفسك في ذكرك ، ثم نسيت ذكرك في ذكره ، ثم نسيت في ذكر الحق إياك كل ذكر».

قال تعليقاً علىٰ ذلك : «ليته - قدس الله روحه - لم يقل(٢) ، فلا والله ما عنىٰ الله هذا المعنىٰ ، ولا هو مراد الآية ، ولا تفسيرها عند أحد من السلف ولا من الخلف.

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: افعل كذا وكذا حتىٰ

---

(١) المدارج ٣/ ٧٩ ، منازل السائرين ٩٦.

(٢) ما زال الكلام لابن القيم ويقصد لم يقل كلامه السابق من أن ذلك هو المعنى.

تقول : إن شاء الله ، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متىٰ ذكرتها ، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية . وهو الصواب»(١).

- وقال في (باب السكر) قال الله تعالىٰ حاكياً عن موسىٰ كليمه : ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وبعد بيان مراد الهروي من الآية قال : «وهذا المعنىٰ لم يعبر عنه في القرآن ولا في السنة ، ولا العارفون من السلف بالسكر أصلاً. وإنما ذلك في اصطلاح المتأخرين ، وهو بئس الاصطلاح ، فإن لفظ السكر والمسكر من الألفاظ المذمومة شرعاً وعقلاً ، وعامة ما يستعمل : في السكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله» إلىٰ أن قال : «فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات ، ولا سيما في قسم الحقائق ، ولا يطلق علىٰ كليم الرحمن اسم السكر في تلك الحال ، والاصطلاحات لا مشاحة فيها. إذا لم تتضمن مفسده...»(٢).

- وقال في منزلة الانبساط : «وقد غلط صاحب المنازل حيث صدرها بقوله تعالىٰ : ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وكأنه فهم من هذا الخطاب : انبساطاً بين موسىٰ وبين الله تعالىٰ. حمله علىٰ أن قال : ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾.... وكل هذا وهم ، وفهم خلاف المقصود. فالفتنة ههنا : هي الامتحان والاختبار...

---

(١) المدارج ٢/ ٤٣١ ، منازل السائرين ٧٠.

(٢) المدارج ٣/ ٣٠٥ و ٣٠٦ ، منازل السائرين ١٢.

والمعنىٰ : أن هذه الفتنة اختبار منك لعبدك ، وامتحان تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، فأي تعلق لهذا بالانبساط؟ وهل هذا إلا توحيد ، وشهود للحكمة ، وسؤال للعصمة والمغفرة؟ وليس للعارف في هذه المنزلة حظ مع الله. وإنما هي متعلقة بالخلق»[1].

– وقال في منزلة القلق عن صاحب المنازل : «واستشهد عليه بقوله تعالىٰ حاكياً عن كليمه موسىٰ ﷺ : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه : ٨٤] فكأنه فهم إنما حمله عليها القلق ، وهو تجريد الشوق للقائه وميعاده.

وظاهر الآية : أن الحامل لموسىٰ علىٰ عجله : هو طلب رضىٰ ربه ، وأن رضاه في المبادرة إلىٰ أوامره والعجلة إليها...»[2].

– وقال صاحب المنازل في باب الاتصال : «قال الله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [سورة النجم : ٨ و ٩] آيس العقول فقطع البحث بقوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾» ثم قال ابن القيم – رحمه الله – : «كأن الشيخ فهم من الآية : أن الذي دنىٰ فتدلىٰ ، فكان – من محمد ﷺ – قاب قوسين أو أدنى هو الله عز وجل. وهذا – وإن قاله جماعة من المفسرين – فالصحيح أن ذلك هو جبريل – عليه السلام –» ثم ذكر ستة عشر وجهاً في الدلالة علىٰ أن المقصود به جبريل – عليه السلام – ، ثم قال تعليقاً علىٰ قوله (آيس العقول)

---

(١) المدارج ٢/ ٤٥٣ و ٣٥٥ ، منازل السائرين ٦٢.

(٢) المدارج ٣/ ٥٩ ، ومنازل السائرين ٩٢ و ٩٣.

والتي ذكرها بعد قوله تعالىٰ ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ : «يعني : أن العقول لا تقدر أن تثبت علىٰ معرفة اتصال هو أدنىٰ من قاب قوسين. وهذا بناء علىٰ ما فهمه من الآية ، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري ، حتىٰ صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنىٰ من قوسين. فإنه دنو عبد من عبد ، ومخلوق من مخلوق»(١).

وقد تكرر الاعتراض عليه في الاستدلال والتفسير في عدة منازل ، يعلق فيها ابن القيم فيقول : إن هذا سببه تعلق صاحب المنازل بإشارة الآية لا بالمراد منها ، أو يقول : جعل ذلك بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير ، ونحو ذلك من العبارات. ومن هذه المنازل التي خالف فيها ابن القيم للهروي «منزلة الرضىٰ ، والشوق ، والعطش ، والأنس ، والذوق ، والمعاينة ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والوجود ، والجمع»(٢).

* * *

معارضات في ترتيب المنازل

٤ - معارضات في ترتيب المنازل :

تقدم قبل قليل عند الحديث علىٰ المعارضات في عدد المنازل اختيار ابن القيم - رحمه الله - : أن الأولىٰ الحديث عن هذه المنازل واحدة واحدة من

---

(١) المدارج ٣/ ٣١٩ - ٣٢٢ ، ومنازل السائرين ١٢٢.

(٢) انظر : الإحالة على ما سبق حسب ترتيبها ٢/ ١٧٨ ، ٣/ ٥٥ ، ٦١ ، ٢/ ٤٢١ ، ٣/ ٨٩ ، ٢٤٥ ، ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤ ، ٤١٠ ، ٤١١.

غير تقييد بعدد أو ترتيب.

ولكن لما كان الهروي - رحمه الله - قد تحدث عن هذه المنازل مرتباً لها ومقدماً بعضها علىٰ بعض علىٰ حسب ما يراه، كان ذلك سبباً في الاعتراض عليه وتبيين وجه الصواب في ذلك: فقد عارضه ابن القيم - رحمه الله - في تقديمه للتوبة علىٰ المحاسبة وبين أن المحاسبة قبل التوبة؛ بل إنها بين محاسبتين، محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها[1].

وكذلك عارضه بقوله: إن الجمع والفناء غاية مقام السالكين. وبين أن الصواب أن التوبة هي الغاية[2].

كما تكرر معارضته للهروي في تقريره أن الفناء أعلىٰ المقامات، في حديثه عن الشهود والبقاء، وأنه أعلىٰ من الفناء، وأن المكاشفة فوق المشاهدة[3]. وكذا في حديثه عن الرضا وأنه فوق الفناء خلافاً للهروي؛ بل خالفه في ترتيب درجات الرضا، وبين أن الدرجة الأولىٰ وهي الرضا بالله رباً أعلىٰ شأناً وأرفع قدراً من الدرجة الثانية وهي الرضا عن الله[4].

ومثل هذه المخالفة ذكرها في درجات الصبر؛ بل وعارضه في قوله: إن

---

(١) المدارج ١/ ١٣٣، منازل السائرين ١٣ - ١٦.

(٢) انظر: المدارج ٣/ ٢١٢ و ٢١٣ و ٤٣٤ و ٤٣٥، منازل السائرين ص١٢٨ و١٣٤.

(٣) انظر: المدارج ٣/ ١٨٣ - ١٨٥ و ٢٣٢ - ٢٣٤، منازل السائرين ص١٢٨ و١٢٩.

(٤) انظر: المدارج ٢/ ١٨٠ و ١٨٣، منازل السائرين ص٥١ و ٥٢.

الصبر من أصعب المنازل علىٰ العامة. حيث قال في الرد عليه : «بل الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين ، وهم أحوج إلىٰ منزلته من كل منزلة ، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها ، وحاجة المحب إليه ضرورية»(١).

وتحدث عن التوكل ، وبين أنه أعلىٰ وأرفع من التفويض ، وأنه قبل الإنابة ، ونقد الهروي بقوله : إنه أوهىٰ السبل عند العامة. حيث قال : «بل هو أجل السبل عندهم وأفضلها وأعظمها قدراً»(٢).

وتحدث عن العلم والمعرفة ، وبين أن العلم مقدم علىٰ المعرفة خلافاً للهروي ، وقد تكرر ذلك مراراً(٣).

وقد يطول بنا الحديث لو تتبعنا هذه المعارضات بضرب الأمثلة والاستشهاد ولعلي باختصار أشير إلىٰ البقية إشارات سريعة فأقول ، ومنها :

- تحدث عن التوحيد وبين أنه أولىٰ المقامات أن يبدأ به(٤).

- نقد قوله : الذوق أبقىٰ من الوجد(٥).

---

(١) انظر : المدارج ٢/ ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٨ و ١٦٩ ، منازل السائرين ص٤٩ و ٥٠.

(٢) انظر : المدارج٢/ ١٢٧ ، وانظر : ١/ ١٣٤و ٢/ ١٣٩ ، منازل السائرين ص٤٣ - ٤٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٢٣٧ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٤١٧ - ٤٢١.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٣٤ ، وذكره صاحب المنازل في آخر كتابه.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٩٠ ، منازل السائرين ٩٩.

- بَيَّن أن المحبة أعلىٰ من الفناء[١].

- خالفه في منزلة الحياة. في الحياة الثالثة وأنفاسها حيث جعل الأول هو الأعلىٰ[٢].

- بيّن أن القصد والعزم متقدم علىٰ كل المنازل[٣].

- نقد قوله : الإلهام فوق مقام الفراسة ، وبين أن خاص كل منهما فوق عام الآخر ، وأن الفرق الصحيح أن الفراسة تتعلق بنوع كسب وتحصيل ، وأما الإلهام فموهبة مجردة لا تنال بكسب ألبتة[٤].

- نقد قوله : إن الرجاء أضعف منازل المريدين[٥].

- رد علىٰ قوله : إن الشكر من أضعف السبل[٦].

* * *

معارضات في علل المنازل

٥ - معارضات في علل المنازل :

الحديث عن علل المنازل حديث طويل ، إذا أردنا تتبع المنازل والوقوف علىٰ معارضات ابن القيم للهروي في هذا الموضوع تفصيلاً ، وهذا ليس هو

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٣٤ - ٤٠ ، ومنازل السائرين ص١٢٧ و ١٢٨.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٢٩٠ و ٢٩٢ منازل السائرين ص١١٧.

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٣٤ ، منازل السائرين ص٦٤ و ٦٥.

(٤) انظر : المدارج ١/ ٤٥ ، منازل السائرين ٨٢.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٤١ ، منازل السائرين ٣٣.

(٦) انظر : المدارج ٢/ ٢٤٩ ، منازل السائرين ٥٣.

المقصود هنا ، وإنما المقصود بيان المعارضات علىٰ علل المنازل إجمالاً ، وأما التفصيل فقد تقدم البعض منها ، وسيأتي بقيتها في أثناء عرض بقية المعارضات. وما أكثر معارضة ابن القيم للهروي عند قوله : «وهي من منازل العامة» أو قوله : «وهي من أوهىٰ السبل» أو قوله : «وهي من أصعب المنازل» ونحو ذلك من المعارضات التي مبناها علىٰ أن هذه المنزلة معلولة. ولابن القيم - رحمه الله - كلاماً جامعاً بيّن فيه أن المنازل عللها ثلاث ، وضرب مثالاً لوجود هذه العلل في حديثه عن التوكل. وهذه العلل هي :

الأولىٰ : أن يترك ما أمر به من الأسباب استغناءً بالتوكل عنها. وقال : فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة لا توكل عبودية وتوحيد.

العلة الثانية : أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه.

العلة الثالثة : أن يرىٰ توكله منه ، ويغيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل ، وإقامة الله له في مقام التوكل[١].

وقد صنّف الهروي كتاباً في علل المقامات[٢] بيّن فيه العلل التي تلحق أغلب المنازل[٣].

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٤٧٧ - ٤٨٠.

(٢) طبع هذا الكتاب ضمن كتاب شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري ص٢٩١ - ٢٩٥ ، وطبع قبل ذلك في دمشق سنة ١٩٥٦م انظر المرجع السابق ١٠٧.

(٣) ولابن القيم : رد على ابن العريف الذي تأثر بكلام الهروي في علل المقامات ، انظر : طريق الهجرتين ص٣٨٠ - ٥١٣.

وقد اطلع ابن القيم علىٰ هذا الكتاب وسجل رداً مجملاً عليه ، حيث قال بعد بيانه لهذه العلل الثلاث : «فهذه العلل الثلاث هي التي تعرض في مقام التوكل وغيره من المقامات ، وهي التي يعمل العارفون بالله وأمره علىٰ قطعها. وهكذا الكلام في سائر علل المقامات وإنما ذكرنا هذا مثالاً لما يذكر من عللها، وقد أفرد لها صاحب المنازل مصنفاً لطيفاً ، وجعل غالبها معلولاً ، والصواب : أن عللها هذه الثلاثة المذكورة : أن يترك بها ما هو أعلىٰ منها ، وأن يعلقها بحظه ، والانقطاع عن المقصود. وأن لا يراها من عين المنة و محض الجود. وبالله التوفيق»[1].

* * *

(١) المدارج ٣/ ٤٨٠.

معارضات في التفريق والتقسيم والتعبير

ثالثاً : معارضات في التفريق والتقسيم والتعبير :

شرح ابن القيم - رحمه الله - المنازل وفي أثناء شرحه يأتي بكلمات صريحة تبين عدم رضاه عما ذكر الهروي في كلامه ، سواء في لفظ هذه الكلمات وما فيها من سوء تعبير ، أو إطلاقها علىٰ عمومها من دون تقييد ، أو تقسيمه وحصره لهذه الأقسام ، والواقع أن هناك أقساماً أخرىٰ لم يذكرها أو ضد ذلك ، كأن يقسم والأمر واحد لا ينقسم ، أو يذكر تعريفاً ثم يعارضه بأن هذا ليس بحد كامل يحصل به التفريق. ونحو ذلك : وكل هذه المعارضات يجمعها الخطأ في التفريق والتقسيم والتعبير ، وقد تكررت هذه المعارضات بأنواعها وإليك المثال عليها :

معارضات في التفريق

١ - معارضات في التفريق :

تكرر الخلاف وتنوع بين الهروي وابن القيم - رحمهما الله تعالىٰ - في التفريق بين شيئين ، والخلاف في وضع حد وتعريف لمصطلح من المصطلحات ومن ذلك ما يلي :

- خالف ابن القيم الهروي في التفريق بين التحديث والإلهام ، وبيّن أن التحديث أخص من الإلهام . وأما الهروي فيقول : « الإلهام هو مقام المحدثين» (١).

(١) المدارج ١/ ٤٤ و ٤٥ ومنازل السائرين ٨٢.

- وخالفه في أسرار التوبة حينما قال: «أولها أن ينظر الجناية والقضية»(١).

فقال ابن القيم: «فإنما الذي يشهده عند قيام الحجة عليه: ملاحظة الأمر لا ملاحظة القدر. فجعلُ صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبيّن؛ بل هو من ملاحظة الجناية والأمر»(٢).

- وخالفه في حد الاعتصام به. حيث قال: «الاعتصام به الترقي عن كل موهوم» أي الترقي من شهود ما سوىٰ الله بالنفع والضر ونحوهما إلىٰ الله تعالىٰ.

وقال ابن القيم في حده: «وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه»(٣).

- وخالفه في حد اليقظة، فقال صاحب المنازل: «هي القومة لله وهي اليقظة من سنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة».

وقد عرفها ابن القيم بقوله: «انزعاج القلب لروعة الانتباه» وأجاب عما ذكره الهروي بقوله: «وهذا الذي ذكره هو موجب اليقظة وأثرها، فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبه. أوجب له ملاحظة نعم

---

(١) المدارج ١/ ٢٠٤، ومنازل السائرين ١٤.

(٢) المدارج ١/ ٢١٨، ومنازل السائرين ٢٠.

(٣) المدارج ١/ ٤٦٢ - ٤٦٤.

الله الباطنة والظاهرة» [١].

- وخالفه في التفريق بين التوكل والتفويض إذ قال صاحب المنازل عن التفويض : «وهو ألطف إشارة وأوسع معنىٰ من التوكل ، فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده. وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه».

فرد عليه بقوله : «وما قد ختم به في التوكل يرد عليكم نظيره في التفويض سواء ، فإنك كيف تفوض شيئاً لا تملكه البتة إلىٰ مالكه؟ وهل يصح أن يفوض واحداً من آحاد الرعية الملك إلىٰ ملك زمانه». إلىٰ أن قال : «فالذي نذهب إليه : أن التوكل أوسع من التفويض وأعلىٰ وأرفع» [٢].

- وخالفه في تعريفه للرضىٰ فقال : «هذا المعنىٰ الذي ذكره الشيخ فرد من أفراد الرضىٰ ، وهو الرضىٰ بالأقسام والأحكام الكونية التي لم يؤمر بمدافعتها» [٣].

- وخالفه في التفريق بين السكينة والطمأنينة حيث قال بعد ذكره للفرقين الذين ذكرهما الهروي. فقال : «والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران سوىٰ ما ذكر» [٤]. ومفادهما : الأول : أن الطمأنينة أقوىٰ، والثاني : أن الطمأنينة أعم.

---

(١) المدارج ١/ ١٤٠ و ١٤١ ، ومنازل السائرين ١١.

(٢) المدارج ٢/ ١٣٧ - ١٣٩ ، ومنازل السائرين ٤٥.

(٣) المدارج ٢/ ١٨٠ ، ومنازل السائرين ٥١.

(٤) المدارج ٢/ ٥١٥ ، ومنازل السائرين ٨٥.

- وخالفه في معنىٰ الخشوع بقول صاحب المنازل : «الخشوع : خمود النفس ، وهمود الطبائع لمتعاظم ، أو مفزع» .

فقال : «والحق أن الخشوع معنىٰ يلتئم من التعظيم ، والمحبة ، والذل ، والانكسار» (١).

- وبين مقصود الهروي في التفريق بين الرغبة والرجاء وأن الرغبة سلوك وطلب والرجاء طمع في مغيب عنه يحتاج إلىٰ تحقيق. ثم قال : «هذا معنىٰ كلامه وفيه نظر. فإن الرغبة أيضاً طلب مغيب ، هو علىٰ شك من حصوله ، فإن المؤمن يرغب في الجنة وليس بجازم بدخولها. فالفرق الصحيح : أن الرجاء : طمع. والرغبة : طلب فإذا قوي الطمع صار طلباً» (٢).

- فرَّق الهروي بين الفرح والسرور وقدَّم السرور علىٰ الفرح. وتتبعه ابن القيم بأمثلة مضادة لما ذكر حتىٰ قال : «فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلىٰ أحوال الدنيا وأحوال الآخرة. فلا يظهر ما ذكره من الترجيح» (٣).

- وحصل الخلاف بينهما أيضاً في تعريف المكاشفة حيث يقول الهروي : «المكاشفة : مهاداة السر بين متباطنين ، وهي في هذا الباب بلوغ ما وراء

---

(١) المدارج ١/ ٥٢٢ ، ومنازل السائرين ٢٨.

(٢) المدارج ٢/ ٥٦ ، ومنازل السائرين ٣٥.

(٣) المدارج ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ ، ومنازل السائرين ١٠٤.

الحجاب وجوداً».

ويقول ابن القيم في تعريفها : المكاشفة الصحيحة : علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالىٰ في قلب العبد. ويطلعه بها علىٰ أمور تخفىٰ علىٰ غيره»[1].

- وقال الهروي في تعريفه للبقاء : «اسم لما بقي قائماً بعد فناء الشواهد وسقوطها» .

وقال ابن القيم : «والبقاء : أوضح من هذا الحد الذي ذكره. ولكن لما كان مراده. البقاء الذي هو صفة العبد ومقامه قال : هو اسم لما بقي بعد فناء الشواهد. وهذا عام في سائر أنواع ما بقي العبد متصفاً به بعد فناء الأدلة والآثار التي دلت علىٰ الحقيقة»[2].

- وخالفه في حد التفريد حينما قال : «التفريد : اسم لتخليص الإشارة إلىٰ الحق ثم بالحق ، ثم عن الحق» ، فبيَّن أن هذا الحد هو للتجريد وبيَّن الفرق بينهما بقوله : «والفرق بينهما أن التجريد انقطاع عن الأغيار ، والتفريد : إفراد الحق بالإيثار ، فالتفريد متعلق بالمعبود ، والتجريد متعلق بالعبودية»[3].

واعترض عليه في حد الجمع حيث قال الهروي : «الجمع : ما أسقط التفرقة» .

---

(١) المدارج ٣/ ٢٢١ - ٢٢٣ ، ومنازل السائرين ١١٣.

(٢) المدارج ٣/ ٣٨٤ ، ومنازل السائرين ١٢٩.

(٣) المدارج ٣/ ٤٢١ ، ومنازل السائرين ص١٣٢ و ١٣٣.

فقال ابن القيم: «هذا حدٌّ غير محصل للفرق بين ما يحمد وما يذم من الجمع والتفرقة» إلىٰ أن قال: «ويراد بالجمع: الجمع بين الإرادة والطلب علىٰ المراد المطلوب وحده.. وهذا هو الجمع الصحيح...وأما جمع يزيل التفرقة بين الرب والعبد والخالق والمخلوق، والقديم والمحدث، فأبطل الباطل...»[1].

* * *

معارضات في التقسيم

٢ - معارضات في التقسيم:

من المعروف عن ابن القيم - رحمه الله - إبداعه في التأليف وجودة طريقته في التبويب والتقسيم وذكر الأوجه والقيود، والتفصيل في ذلك. فمن الطبيعي إذن حصول المخالفة بينه وبين الهروي، بل قد تكون المخالفة سببها الاختلاف في المعنىٰ زيادة علىٰ التقسيم والتقييد فمن ذلك ما يلي:

- قال صاحب المنازل في باب التفكر: «وهو ثلاثة أنواع: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال».

وقال ابن القيم: «قلت الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة»[2].

---

(١) المدارج ٣/ ٤٢٧، ومنازل السائرين ١٣٤.

(٢) المدارج ١/ ١٤٦ ومنازل السائرين ١٧.

- وقد خالف ابن القيم الهروي في عدة مواضع حول تقرير الهروي : تجريد المعاملة لله بعدم أخذ المعاوضة وطلب المثوبة وبين ابن القيم أن هذا يكثر في كلام أهل التصوف وبيّن أن هناك طائفة : تمدحهم علىٰ ذلك حيث أن هذا أعلىٰ درجات العبودية. وطائفة أخرىٰ : تجعل هذا الكلام من شطحاتهم وتحتج بأحوال الأنبياء والصديقين ودعائهم وسؤالهم الجنة والنجاة من النار.

ثم حقق في ذلك وقال : «الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه... فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلىٰ وجه الله الكريم... وهذا هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون... وكذلك النار أعاذنا الله منها فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه ، والبعد عنه : أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم...» إلىٰ أن قال عن كلام أهل التصوف : «وهذا لا ينكر علىٰ الإطلاق ، ولا يقبل علىٰ الإطلاق ، وهو موضع تفصيل وتمييز» ثم أحال علىٰ ما ذكره في أول كتابه في بيان طرق الخلق وطريق أهل الاستقامة (١).

ثم ذكر أقسام الناس وأنهم أربعة أقسام :

١ - من لا يريد ربه ، ولا يريد ثوابه ، وهم أعداؤه.

٢ - من يريده ويريد ثوابه ، وهم خواص خلقه.

(١) انظر : المدارج ١/ ٧٨ - ٩٧.

٣ - من يريد من الله ولا يريد الله ، وهو حال الجاهل بربه.

٤ - أن يريد الله ولا يريد منه ، (وهو محال) ، وهذا هو الذي يزعم بعض المتصوفة أنه مطلوبهم (١).

- وعارض قول الهروي في باب حرمات الله : «ولا مشاهداً لأحد. فيكون متزيناً بالمراءاة» فبين أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان :

مشاهدة لا تبعث عليه ولا تعين الباعث؛ بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها ، كمشاهدة المريض ، أو مشرف علىٰ هلكة يخاف وقوعه فيها ، أو مشاهدة عدو كالحال في صلاة الخوف ، أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم؛ فهذا رياء محمود.

والرياء المذموم : أن يكون الباعث قصد التعظيم والمدح والرغبة فيما عند من ترائيه أو الرهبة منه (٢).

- قال الهروي في باب اللحظ : «الدرجة الثالثة : ملاحظة عين الجمع ، وهي توقظ لاستهانة المجاهدات ، وتخلص من رعونة المعارضات ، وتفيد مطالعة البدايات» وقال في باب الصحو : «والصحو: مقام صاعد عن الانتظار، مغن عن الطلب...» وابن القيم - رحمه الله - علق علىٰ هذا ، وأبان أن الطلب

---

(١) هذا خلاصة كلام ابن القيم ، وانظر كلامه في : المدارج ١/ ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٢/ ٧٥ - ٨٤ و٣/ ٥٧ - ٤٠٧.

(٢) انظر : المدارج ٢/ ٨٤ و ٨٥ ، وانظر : منازل السائرين ٤٠.

لا يفارق العبد ما دامت الحياة ، وأن العبد لو أتىٰ بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلىٰ الله. وقال : «وتقسيم السائرين إلىٰ الله : إلىٰ طالب ، وسائر ، وواصل ، أو مريد ومراد : تقسيم فيه مساهلة لا تقسيم حقيقي ، فإن الطلب والسلوك والإرادة لو فارق العبد : لانقطع عن الله بالكلية»(١).

- وعندما تكلم الهروي عن الرغبة قائلاً : «وتمنع صاحبها من الرجوع إلىٰ غثاثة الرخص» عارضه ابن القيم قائلاً : «وهذا موضع يحتاج إلىٰ تفصيل ليس علىٰ إطلاقه ، فإن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» إلىٰ أن قال : «الرخصة نوعان :

أحدهما : الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصاً ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، عند الضرورة...» ثم قال : «ففعل هذه الرخصة أرجح وأفضل من تركها.

النوع الثاني : رخص التأويلات واختلاف المذاهب ، فهذه تتبعها حرام ينقص الرغبة ، ويوهن الطلب ، ويرجع بالمترخص إلىٰ غثاثة الرخص»(٢).

- وذكر للرجاء عدة فوائد بعد قول الهروي عنه : «وإنما نطق به التنزيل لفائدة. وهي كونه يبرد حرارة الخوف» فقال ابن القيم : «بل لفوائد كثيرة أُخر مشاهده فعدَّ منها إظهار العبودية وأن الله يحب ذلك من عباده وأن الخوف

---

(١) المدارج ٣/ ١١٧ ، وانظر : ٣/ ٣١٦ ، ومنازل السائرين ١٠١.

(٢) المدارج ٢/ ٥٧ و ٥٨ ، ومنازل السائرين ٣٥.

مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف... وغير ذلك»(١).

- وفي منزلة الثقة عارضه علىٰ قوله: «الدرجة الثالثة: معاينة أزلية الحق، ليتخلص من محن القصود، وتكاليف الحمايات، والتعريج علىٰ مدارج الوسائل» فقال: «وهذا ليس علىٰ إطلاقه، فإن مدارج الوسائل قسمان: وسائل موصلة إلىٰ عين الرضىٰ، فالتعريج علىٰ مدارجها - معرفة وعملاً وحالاً وإيثاراً - هو محض العبودية ولكن لا يحمل تعريجه كله علىٰ مدارجها، بحيث ينسىٰ بها الغاية التي هي وسائل إليها»(٢).

- وعارضه بقوله: «الدرجة الثانية: الانبساط مع الحق. وهو أن لا يحبسك خوف، ولا يحجبك رجاء، ولا يحول بينك وبينه آدم ولا حواء».

فقال ابن القيم - رحمه الله - علىٰ هذا معترضاً: «ولم يكن لأحد من البشر في منزلة القرب والكرامة والحظوة والجاه، ما لرسول الله ﷺ من ربه - تبارك وتعالىٰ -، وكان أشد الخلق لله خشية وتعظيماً، وحاله كلها مع الله تشهد بتكميل العبودية، وأين درجة الانبساط من المخلوق من التراب إلىٰ الانبساط مع رب الأرباب؟ نعم لا يُنكر فرح القلب بالرب تعالىٰ وسروره به، وابتهاجه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلىٰ لقائه: إلا كثيف الحجاب، حجري

---

(١) انظر: المدارج ٢/ ٥٠ - ٥٢، ومنازل السائرين ٣٤.

(٢) انظر البقية في: المدارج ٢/ ١٤٥ و ١٤٦، وانظر: منازل السائرين ٤٧.

الطباع. فلا بهذا الميَعَان ، ولا بذاك الجمود والقسوة»[١].

* * *

٣ - معارضات في التعبير :

معارضات في التعبير

اعترض ابن القيم - رحمه الله - علىٰ كثير من الكلمات التي أطلقها الهروي فوصفها ابن القيم بالتعقيد، أو أنها باللغز أشبه من البيان ، أو بالعجمة، أو بسوء التعبير؛ بل أحياناً يتمنىٰ أنه لم يتكلم بها ، أو لم يسم هذه التسمية ونحو ذلك :

- قال ابن القيم في منزلة الاعتصام : «وأما قوله : بعدم الاستحذاء له تعظيماً» فالشيخ لكثرة لهجه بالاستعارات عبّر عن معنىٰ لطيف عظيم بلفظه «الاستحذاء»» إلىٰ أن قال : «فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ، ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به : بالاستحذاء وحقيقته : موافاة العبد علىٰ حضرته وقدّامه» ثم قال : «وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية»[٢]. ومثله قال في منزلة الذوق : «وأحسن من التعبير بالاتصال : التعبير بالقرب. فإنها العبارة السديدة التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام ».

- وقال في منزلة الصبر علىٰ قول الهروي : «الدرجة الأولىٰ : الصبر عن

---

(١) المدارج ٢/ ٣٥٧ - ٣٥٩ ، ومنازل السائرين ٦٣.

(٢) المدارج ١/ ٤٦٦ و ٤٦٧ ، وانظر : ٣/ ٩٧ ، ومنازل السائرين ٢١.

المعصية بمطالعة الوعيد : إبقاء علىٰ الإيمان ، وحذراً من الحرام ، وأحسن منها : الصبر عن المعصية حياء» فقال ابن القيم : «وأحسن من ذلك : أن يكون الباعث عليه وازع الحب ، فيترك معصيته محبة له...»(١).

- وعلّق علىٰ قوله في منزلة الشكر : «وهو أيضاً من سُبل العامة» بقوله : «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل ، إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل»(٢).

- وعارضه علىٰ قوله : « وذوق المسامرة» بأن قال بعد بيان مراده من هذه الكلمة : «لكن الأولىٰ العدول عن لفظ المسامرة إلىٰ المناجاة فإنه اللفظ الذي اختاره رسول الله في هذا... إلىٰ أن قال : فلا تعدل عن ألفاظه ﷺ ، فإنها معصومة ، وصادرة عن معصوم ، والإجمال والإشكال في اصطلاحات القوم وأوضاعهم. وبالله التوفيق»(٣).

- وقال عن قوله في منزلة الصفاء «ويطوىٰ خسة التكليف» : «في هذا اللفظ قلق وسوء تعبير ، يجبره حسن حال صاحبه وصدقه ، وتعظيمه لله ورسوله ، ولكن أبىٰ الله أن يكون الكمال إلا له» .

ثم قال أيضاً : «ليت الشيخ عبر عن هذه اللفظة بغيرها. فوالله إنها لأقبح من

---

(١) المدارج ٢/ ١٦٤ ، ومنازل السائرين ٥٠.

(٢) المدارج ٢/ ٢٤٩ ، ومنازل السائرين ٥٣.

(٣) المدارج ٣/ ٩٩ ، وانظر : ٣/ ١٤ ، ومنازل السائرين ٩٩.

شوكة في العين، وشجىٰ في الحلق، وحاشا التكاليف أن توصف بخسّة أو تلحقها خسة، وإنما هي قرة عين، وسرور قلب، وحياة روح، صدر التكليف بها عن حكيم حميد، فهي أشرف ما وصل إلىٰ العبد من ربه وثوابه عليها أشرف ما أعطاه الله للعبد»[1].

- وأطلق نحواً مما تقدم في منزلة السرور حيث قال: «وفكّ رق التكليف» فقال ابن القيم - رحمه الله -: «قوله: (وفك رق التكليف) عبارة قلقة، غير سديدة، ورق التكليف: لا يفك إلىٰ الممات، وكلما تقدم العبد منزلاً شاهد من رق تكليفه ما لم يكن شاهده من قبل. فرق التكليف: أمر لازم للمكلف ما بقي في هذا العالم»[2].

- وقال الهروي في باب الانفصال: «ووجوهه ثلاثة أحدها: انفصال هو شرط الاتصال، وهو الانفصال عن الكونين بانفصال نظرك إليهما وانفصال توقفك عليهما، وانفصال مبالاتك بهما» فقال ابن القيم علىٰ هذا: «وهذه العبارة التي ذكرها الشيخ - في بادي الرأي - لا تخلو عن إنكار حتىٰ يبين معناها والمراد بها، فإن (الكونين) عبارة عن جميع ما خلقه الله في الدنيا والآخرة. ويعبر عنهما بعالم الغيب وعالم الشهادة، وفيها الرسل والأنبياء، والملائكة والأولياء، فكيف ينفصل عنهم، ولا ينظر إليهم، ولا يقف بقلبه

---

(١) المدارج ٣/ ١٥٠ و ١٥٤، ومنازل السائرين ١٠٣.

(٢) المدارج ٣/ ١٦٥، ومنازل السائرين ١٠٤.

عليهم، ولا يبالي بهم؟» (١).

- وعلق علىٰ قوله في باب الجمع: «والتنافي من الإحساس بالاعتلال» فقال: «ولا يخفىٰ ما في هذه العبارة من العجم والتعقيد» وكذلك قوله: «والتنافي من شهود شهودها» (٢).

- وعارضه أيضاً في منزلة السكر وبين أن هذا المعنىٰ لم يعبر عنه في القرآن، ولا في السنة (٣).

- وقال عن باب التلبيس: «ليته لم يسم هذا الباب (بالتلبيس) واختار له اسماً أحسن منه موقعاً»، وقال أيضاً: «وقد أخطأ في هذا الباب لفظاً ومعنىٰ.

أما اللفظ: فتسميته فعل الله، الذي هو حق وصواب وحكمة ورحمة وحُكمُه الذي هو عدل وإحسان. وأمره الذي هو دينه وشرعه (تلبيساً) فمعاذ الله، ثم معاذ الله، من هذه التسمية، ومعاذ الله من الرضىٰ بها، والإقرار عليها، والذب عنها والانتصار لها، ونحن نشهد بالله أن هذا تلبيس علىٰ شيخ الإسلام، فالتلبيس وقع عليه، ولا نقول: وقع منه، ولكنه صادق لبس عليه» (٤).

---

(١) المدارج ٣/ ٣٣٠، ومنازل السائرين ١٢٣.

(٢) المدارج ٣/ ٤٣٠، ومنازل السائرين ١٣٤.

(٣) انظر: المدارج ٣/ ٣٠٥، ومنازل السائرين ١٢٠.

(٤) المدارج ٣/ ٣٩٢ و ٣٩٤، ومنازل السائرين ١٣٠، وسيأتي مزيد لذلك في الحديث عن الأسباب.

- وقال عن النوع الثالث من التلبيس «تلبيس أهل التمكين علىٰ العالم» : وهذا أيضاً من النمط الأول ، مما ينكر لفظه وإطلاقه غاية الإنكار ، ويجب علىٰ أهل الإيمان محو هذا اللفظ القبيح ، وإطلاقه في حق الأنبياء ، وكيف تتسع مسامع المؤمن ليسمع أن الأنبياء لبسوا علىٰ الناس بأي اعتبار كان؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! بل الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - كشفوا عن الناس التلبيس الذي لبسوه علىٰ أنفسهم ، ولبسه عليهم طواغيتهم ، فجاؤوا بالبيان والبرهان...»[1].

- وقال عن النوع الأول من التوحيد بعد قول الهروي : «ويوجد تبصير الحق» قال : «ومراده التبصير التام الذي لا تختلف عنه الهداية ، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية «إلىٰ أن قال : «فلو قال الشيخ : ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره لكان أحسن»[2].

- وعلق علىٰ قوله في باب الوجود : «والثالث : وجود مقام اضمحلال رسم الوجود فيه بالاستغراق في الأولية» فقال - رحمه الله - : «وهذا كلام فيه قلق وتعقيد ، وهو باللغز أشبه منه بالبيان»[3].

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٦ ، ومنازل السائرين ١٣١.

(٢) المدارج ٣/ ٤٩٢ و ٤٩٤ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

(٣) المدارج ٣/ ٤١٧ ، ومنازل السائرين ١٣٢.

رابعاً: معارضات في مباحث متعددة

رابعاً: معارضات في مباحث متعددة:

ترجع هذه المعارضات المتعددة إلىٰ أصلين كما ذكر ذلك ابن القيم - رحمه الله -، وهما إنكار الأسباب وجعل الفناء في توحيد الربوبية هو الغاية، حيث يقول: «والشيخ ممن يبالغ في إنكار الأسباب، ولا يرىٰ وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية، وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب: يرجع إلىٰ هذين الأصلين. وقد عرفت ما فيهما، وأن الصواب خلافهما، وهو إثبات الأسباب والقوىٰ. وأن الفناء في توحيد الربوبية ليس هو غاية الطريق؛ بل فوقه ما هو أجل منه وأعلىٰ وأشرف.

ومن هاتين القاعدتين عرض في كتابه من الأمور التي أنكرت عليه ما عرض» (١).

وإذا كانت هذه المعارضات ترجع في الحقيقة إلىٰ أصلين، فلا يمنع ذلك من تقسيمها إلىٰ مباحث متعددة، فإن تكرار الاعتراض والخلاف، وتنوع المباحث سبب يدعو إلىٰ تقسيم هذه المعارضات تقسيماً آخر لتتميز عن غيرها وإليك بيان ذلك والتمثيل له.

معارضات في الفناء والجمع

١ - معارضات في الفناء والجمع:

قبل البدء في الحديث عن الفناء والجمع يحسن بنا أن نتعرف علىٰ معاني

---

(١) المدارج ١/ ٥٢٠.

الجمع والفناء ، حتىٰ نتمكن من معرفة مقصود الهروي في كلامه عنهما ، وبالتالي نعرف مقصود ابن القيم في اعتراضه علىٰ الهروي في كلامه حولهما. ولعل من الأنسب أن يكون الحديث لابن القيم نفسه حيث عرف بهما فقال عن الفناء : «فاعلم أن الفناء مصدر فني يفنىٰ فناءً إذا اضمحل وتلاشىٰ وعُدم»(١).

وذكر أقسامه فقال : وهذا الاسم يطلق علىٰ ثلاثة معان : أحدها : الفناء عن وجود السوىٰ : وهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثمَّ غير الله. الثاني : الفناء عن شهود السوىٰ : وهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ، ويعدونه غاية ، وهو الذي بنىٰ عليه أبو إسماعيل الأنصاري كتابه ، وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه.

وليس مرادهم فناء وجود ما سوىٰ الله في الخارج؛ بل فناؤه عن شهودهم وحسهم (٢).

وهذا النوع من الفناء ينتهي إلىٰ الجمع وعدم التفرقة (٣).

قال ابن القيم عمن غاب بمعبوده عن عبادته ، وبمشهوده عن شهوده : «وقد يسمىٰ حال مثل هذا سكراً واصطلاماً و محواً وجمعاً ، وقد يفرقون بين معاني

---

(١) المدارج ١/ ١٥٤.

(٢) المدارج ١/ ١٥٣ – ١٥٥ بتصرف.

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٥٨ و ١٥٩.

هذه الأسماء»[١].

الثالث من معاني الفناء : الفناء عن إرادة السوىٰ ، وهو الفناء المحمود ، وهو الفناء بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به ، والطلب منه، عن حب ما سواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه[٢].

وأما عن الجمع فقد عرفه بقوله : «الجمع في اللغة : الضم ، والاجتماع الانضمام ، والتفريق ضده. وأما في اصطلاح القوم : فهو شخوص البصيرة إلىٰ من صدرت عنه المتفرقات كلها. وهو ثلاثة أنواع : **جمع وجود** وهو جمع الزنادقة من أهل الاتحاد ، **وجمع شهود** ، **وجمع قصور**»[٣].

وقد بيّن ابن القيم - رحمه الله - صلة الجمع بالفناء عند حديثه علىٰ جمع الشهود وأن أصله الاستغراق في توحيد الربوبية وهو رؤية تفرد الله بأفعاله مع عدم مشاهدة التفرق في المحبة والبغض والأمر والنهي والموالاة والمعادات فلا يشهد التفرقة في الجمع[٤].

---

(١) المدارج ١/ ١٥٥.

(٢) المدارج ١/ ١٦٦ و ١٦٧.

(٣) المدارج ٣/ ٥٠٧ ، وانظر مزيداً عن الفناء والجمع في منزلة الفناء والجمع والوجود والتوحيد وانظر أيضاً : الاستقامة لابن تيمية ٢/ ١٤٢ و ١٤٣ ، ومجموع الفتاوى ١٠/ ٣٧٧ - ٣٤٣ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص٦٧ و ٣٦٥.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٥٨ و ١٥٩.

- وقد عارض الهرويَّ حول تقريره للفناء فقال : «لم يَرِدْ في الكتاب ، ولا في السنة ، ولا في كلام الصحابة والتابعين. مدح لفظ الفناء ولا ذمه ، ولا استعملوا لفظه في هذا المعنىٰ المشار إليه البتة ، ولا ذكره مشايخ الطريق المتقدمون. ولا جعلوه غاية ولا مقاماً. وقد كان القوم أحق بكل كمال ، وأسبق إلىٰ كل غاية محمودة ، ونحن لا ننكر هذا اللفظ مطلقاً ، ولا نقبله مطلقاً» (١).

- وعارضه بوصفه للمحبة بأنها عقبة فقال : «ولما كانت منازل المحو والفناء غاية عند صاحب المنازل جعل المحبة عقبة ينحدر منها إليها.

وأما من جعل المحبة غاية : فمنازل المحو عنده أودية يصعد منها إلىٰ روح المحبة ، وليس بعد المحبة الصحيحة إلا منازل البقاء ، وأما الفناء والمحو : فعقبات وأودية في طريقها عند هؤلاء. والله أعلم» (٢).

- وعارضه في الدرجة الثالثة منها عند قوله: «وهي قطب هذا الشأن» فقال: «وصاحب هذه المحبة الثالثة : قد ارتقىٰ عن هاتين الدرجتين ، وأُخذ منه ، وغُيِّبَ عنه وهذا مبني علىٰ أصله في كون الفناء غاية وقد عرفته» (٣).

وكثيراً ما يؤكد ابن القيم - رحمه الله - مع معارضته للهروي علىٰ أن قصده

---

(١) المدارج ٣/ ٣٧٧ و ٣٧٨ ، وانظر : منازل السائرين ١٢٧ و ١٢٨.

(٢) المدارج ٣/ ٣٤ ، ومنازل السائرين ٨٨.

(٣) المدارج ٣/ ٤١ ، ومنازل السائرين ٩٠.

الفناء في الشهود لا في الوجود، ومع هذا يحذّر من هذا الفناء، ويبين أن البقاء أكمل منه، وأنه لا يعطي كمالاً، ولا فيه معرفة ولا عبودية »(١).

- ويصف الهرويَّ بأنه يدندن حول بحر الفناء، فقال تعليقاً علىٰ قول الهروي في باب الاتصال: «الدرجة الثالثة: اتصال الوجود» عارضه فقال: «وبعدُ فالشيخ يدندن حول بحر الفناء، وكأنه يقول: صاحب هذا الاتصال قد فني في الوجود بحيث صار نقطة انحل تعينها، واضمحل تكوينها، ورجع عودها علىٰ بدئها ففني من لم يكن، وبقي من لم يزل، فهناك طاحت الإشارات، وذهبت العبارات، وفنيت الرسوم»(٢).

وعارضه في منزلة الرضىٰ في الدرجة الثالثة منها عند قوله: «الرضىٰ برضىٰ الله فلا يرىٰ العبد لنفسه سخطاً ولا رضىٰ... وإسقاط التمييز ولو أدخل النار» فقال بعد بيان مراده من هذا الكلام: «إن هذا حال يعرض لا مقام يطلب ويشمّر إليه» إلىٰ أن قال: «والكمال وراء ذلك، وهو أن يكون فانياً عن إرادته بإرادة ربه منه، فيكون باقياً بوجود آخر غير وجوده الطبيعي، وهو موجود مطهر كائن بالله ولله ومع الله»(٣).

ويصف الهروي بأنه لا تأخذه في الفناء لومة لائم، فقال في منزلة الذكر

---

(١) المدارج ٣/ ٣٩٢ و ٤٣٠ و ١/ ١٤٩ و ١٥٠ و ٤٦٦ و ٤٧٥.

(٢) المدارج ٣/ ٣٢٦ و ٣٢٧، ومنازل السائرين ١٢٣.

(٣) المدارج ٢/ ٢٤٠ و ٢٤١، وانظر ٢/ ٢٨٨ و ١٣٥، ومنازل السائرين ٥٢.

بعد قول الهروي» ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع الذكر «قال : «فيقال سبحان الله! أي افتراء في هذا؟ وهل هذا إلا شهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؟ فإنه إذا شهد نفسه ذاكراً بجعل الله له ذاكراً وتأهيله له ، وتقدم ذكره للعبد علىٰ ذكر العبد له فاجتمع في شهوده الأمران. فأي افتراء هٰهنا؟ وهل هذا إلا عين الحق ، وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؟.

نعم الافتراء : أن يشهد ذلك به وبحوله وقوته لا بالله وحده. لكن الشيخ لا تأخذه في الفناء لومة لائم ، ولا يصغىٰ فيه إلىٰ عاذل. والذي لا ريب فيه : أن البقاء في الذكر أكمل من الفناء فيه والغيبة به» (١).

- وقال بعد ذكره لجمع أهل وحدة الوجود وجمع الموحد : «وشيخ الإسلام مراده بالجمع الجاذب إلىٰ عين الجمع : أمر آخر بين هذا وبين جمع أهل الوحدة وعين جمعهم. لا هو هذا ولا هو هذا ، فهو دائر علىٰ الفناء لا تأخذه فيه لومة لائم ، وهو الجمع الذي يدندن حوله...» (٢).

- وعارضه في منزلة الرغبة عند قوله في الدرجة الثالثة : «رغبة أهل الشهود...» فقال : «يشير الشيخ بذلك إلىٰ حالة الفناء التي يحمله عليها همة نقية من أدناس الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الحق ، بحيث لا يبقىٰ معه بقية من

---

(١) المدارج ٢/ ٤٣٦ و ٤٣٧ ، ومنازل السائرين ٧١.

(٢) المدارج ٣/ ٢٤٣ ، وانظر: ٣/ ١٨٣ و ٤٦٤ و٢/ ٤٤ و ٤٣٧ ، وانظر : منازل السائرين ١٣٤ و ١٣٥.

تفرقة؛ بل قد اجتمع شاهده كله وانحصر في مشهوده ، وأراد بالشهود ههنا شهود الحقيقة»[١].

- وعلق علىٰ قوله في منزلة الشكر في الدرجة الثالثة بقوله: «القسم الثالث: أن يشهده تفريداً ، فإنه لا يشهد معه نعمة ولا شدة» إلىٰ أن قال : «وذلك مقام الجمع عندهم... وحقيقته : اصطلام يرفع إحساس صاحبه برسمه ، فضلاً عن رسم غيره ، لاستغراقه في مشهوده وغيبته به عما سواه ، وهذا هو مطلوب القوم.

وقد عرفت أن فوقه مقاماً أعلىٰ منه ، وأرفع وأجل ، وهو أن يصطلم بمراده عن غيره ، فيكون في حال مشاهدته واستغراقه : منفذاً لمراسيمه ومراده ، ملاحظاً لما يلاحظ محبوبه من المرادات والأوامر»[٢].

فغالب كلام ابن القيم - رحمه الله - حول الإشارة إلىٰ الفناء الذي يقصده الهروي - وأنه لا يقصد فناء الوجود - كما يقرر أن هذا الفناء ليس هو الغاية ، وأن هناك ما هو أعلىٰ وأرفع منه ، وهو أن يكون فانياً عن إرادته بإرادة ربه منه. ومن مجمل كلامه - رحمه الله - حول حديثه عن الفناء ما نختم به الحديث عن الفناء وهو قوله : «وكيف يكون ذلك أعلىٰ مقامات السالكين ، وغاية مطلب المقربين ، ولم يأت له ذكر في القرآن ولا في السنة ، ولا يعرفه إلا

---

(١) المدارج ٢/ ٥٩ ، ومنازل السائرين ٣٦.

(٢) المدارج ٢/ ٢٥٦ ، وانظر : ٢/ ١٥١ و٥١٨ ، ومنازل السائرين ٥٤.

النادر من الناس ، ولا يتصوره أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة ، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه ولا عرفوا المراد منه إلا بترجمة...» إلىٰ أن قال : «فصار المتأخرون – أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة – أعرف بمقامات السالكين ومنازل السائرين ، وغاياتها من أعلم الخلق بالله بعد رسله؟»[1].

معارضات في المشاهدة والمعاينة

٢ – معارضات في المشاهدة والمعاينة :

ساق الهروي عبارات متنوعة وكثيرة ، تفيد بظاهرها أن السالك ينتهي إلىٰ الفناء والمشاهدة والمعاينة لله تعالىٰ ، وابن القيم – رحمه الله – يبين ويؤكد أن هذا غير ممكن في هذه الحياة الدنيا ، ويحاول في نفس الوقت صرف كلام الهروي إلىٰ معنىً آخر وهو الترقي إلىٰ مقام الإحسان، مع جزمه – رحمه الله – أن المشاهدة من مقاصد القوم؛ بل ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم.

– قال في منزلة اليقين : «الدرجة الثالثة حق اليقين.... ثم الفناء في حق اليقين».

– وعلق ابن القيم علىٰ ذلك فقال : اعلم أن هذه الدرجة لا تنال في هذا العالم إلا للرسل – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –، فإن نبينا محمد ﷺ

(١) المدارج ٣/ ٤٣٦ ، وانظر مزيداً من مفاسد الفناء في المدارج ١/ ١٥٦ – ١٥٨ و ٣/ ٤٣٩ و١٨٣.

رأىٰ بعينه الجنة والنار، وموسىٰ - عليه السلام - سمع كلام الله منه بلا واسطة وكلمه تكليماً، وتجلىٰ للجبل وموسىٰ ينظر فجعله دكاً هشيماً. ثم قال: نعم يحصل لنا حق اليقين من مرتبة، وهي ذوق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان، المتعلقة بالقلوب وأعمالها... إلىٰ أن قال: وأما في أمور الآخرة والمعاد، ورؤية الله جهرة عياناً، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة، فحظ المؤمن منه في هذه الدار: الإيمان. وعلم اليقين وحق اليقين: يتأخر إلىٰ وقت اللقاء»(١).

وقال: «وإياك وترهات القوم، وخيالاتهم ورعوناتهم، وإن سموك محجوباً. فقل: اللهم زدني من هذا الحجاب الذي ما وراءه إلا الخيالات والترهات والشطحات...»(٢).

- وعلق علىٰ قوله في منزلة الفناء: «الدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء حقاً شائماً برق العين...» فقال: «قوله: «شائماً برق العين» الشائم الناظر من بُعد. وبرق العين: نور الحقيقة. وقد تقدم التنبيه علىٰ استحالة تعلق هذا النور الخارجي. وإنما هو أنوار القرب والمراقبة والحضور مع الله»(٣).

- وقال في منزلة الشوق تعليقاً علىٰ قوله: «ومذهب هذه الطائفة إنما قام

---

(١) المدارج ٢/ ٤٠٤، ومنازل السائرين ٦٩.

(٢) المدارج ٢/ ٥١٩.

(٣) المدارج ٣/ ٣٧٧، ومنازل السائرين ١٢٨.

علىٰ المشاهدة..» قال : «وقوله فإن مذهب هذه الطائفة – الذي هو الفناء – يريد أن الفناء إنما قام علىٰ المشاهدة فإن بدايته – كما قرره هو المحبة التي هي نهاية مقامات المريدين والفناء : إنما يكون مع المشاهدة ، ومع المشاهدة لا عمل للشوق.

فيقال : هذا باطل من وجوه... ثم ذكر هذه الوجوه ومنها – الثالث : أنه لا سبيل في الدنيا إلىٰ مشاهدة تزيل الشوق ألبته ، ومن ادعىٰ هذا فقد كذب وافترىٰ ، فإنه لم يحصل هذا لموسىٰ بن عمران ، كليم الرحمن عز وجل فضلاً عمن دونه ، فما هذه المشاهدة التي مبنىٰ مذهب هذه الطائفة عليها ، بحيث لا يكون معها شوق؟ أهي كمال المشاهدة عياناً وجهرة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم» (١).

– وقال الهروي في منزلة العطش : «الدرجة الثالثة : عطش المحب إلىٰ جلوة ما دونها سحاب علة ، ولا يغطيها حجاب تفرقة ، ولا يعرج دونها علىٰ انتظار» فقال في أثناء شرحه :«... وأما الحجاب الذي بين الله وبين خلقه – وهو حجاب النور – فلا سبيل علىٰ كشفه في هذا العالم ألبتة ، ولا يطمع في ذلك بشر» إلىٰ أن قال علىٰ قوله : «ولا يعرج دونها علىٰ انتظار» «.. وهذا عندي وهم بيّن ، فإنه لا غاية لجمال المحبوب ، وكمال صفاته بحيث يصل

---

(١) المدارج ٣/ ٥٥ و ٥٦ ، ومنازل السائرين ٩١.

المشاهد لها إلىٰ حالة لا ينتظر معها شيئاً آخر...» [1].

- وعلق علىٰ قوله في الدرجة الثالثة من منزلة الدهش: «صولة شوق العيان علىٰ شوق الخبر» قال: «فمرداه بها أن المريد في أول الأمر سالك علىٰ شوق الخبر في مقام الإيمان، فإذا ترقىٰ عنه إلىٰ مقام الإحسان، وتمكن منه بقي شوقه بشوق العيان، فصال هذا الشوق علىٰ الشوق الأول.

فإذا كان هذا مراده، وإلا فالعيان في الدنيا لا سبيل للبشر إليه ألبته. ومن زعم خلاف ذلك فأحسن أحواله: أن يكون ملبوساً عليه، وليس فوق الإحسان للصديقين مرتبة إلا بقاؤهم فيه، فإن سمىٰ ذلك عياناً فالتسمية الشرعية المخلصة التي لا لبس فيها: أولىٰ وأحرىٰ...» [2].

- وقال في الدرجة الثالثة من منزلة الهيمان عند قوله: «بحر الكشف»: «وأما (بحر الكشف) الذي أشار إليه: فهو انكشاف الحقيقة لعين القلب، ولا تعتقد أن للسالك وراء مقام الإحسان شيئاً أعلىٰ منه، بل الإحسان مراتب وأما الكشف الحقيقي للحقيقة فلا سبيل إليه في الدنيا ألبتة. والقوم يلوح لأحدهم أنوار هي ثمرات الإيمان... فيظنونها نور الحقيقة ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم...» [3].

---

(١) المدارج ٣/ ٦٥ و٦٦، ومنازل السائرين ٩٤.

(٢) المدارج ٣/ ٧٨، ومنازل السائرين ٩٦.

(٣) المدارج ٣/ ٨١، ومنازل السائرين ٩٧.

- وعارض قول الهروي : «مشاهدة معاينة» في الدرجة الثانية من منزلة المشاهدة. فقال : «فهذه المشاهدة عنده فوق مشاهدة المعرفة؛ لأن تلك من لوائح نور الوجود ، وهذه مشاهدة الوجود نفسه ، لا بوارق نوره ، فهي أعلىٰ؛ لأنها مشاهدة عيان ، والعيان والمعاينة أن تقع العين في العين. وقد عرفت أن هذا مستحيل في الدنيا ، ومن جوزه فقد أخطأ أقبح الخطأ ، وتعدىٰ مقام الرسل....»(١).

- وعارضه في منزلة المعاينة فقال : «فقوله في الدرجة الثانية :«إنها معاينة عين القلب ، وهي معرفة الشيء علىٰ نعته» لا يريد به معرفة علىٰ نعته الذي هو عليه في الخارج من كل وجه ، فإن هذا ممتنع علىٰ معرفة ما في الآخرة من المخلوقات... فكيف بمعرفة رب الأرض والسماء؟...» إلىٰ أن قال : «قوله : «والمعاينة الثالثة : عين الروح. وهي التي تعاين الحق عياناً محضاً» إن أراد بالحق : ضد الباطل – أي تعاين ما هو حق ، بحيث ينكشف لها كما ينكشف المرئي للبصر – فصحيح. وإن أراد بالحق : الرب تبارك وتعالىٰ فإن لم يحمل كلامه علىٰ قوة اليقين ، ومزيد الإيمان ، ونزول الروح في مقام الإحسان وإلا فهو باطل ، فإن الرب – تبارك وتعالىٰ – لا يعاينه في هذا الدار بصر ولا روح»(٢).

---

(١) المدارج ٣/ ٢٩٩ ، ومنازل السائرين ١١٥.

(٢) المدارج ٣/ ٢٥٦ ، ومنازل السائرين ١١٦.

وأكد علىٰ هذا المعنىٰ مراراً وبين أنه لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، كما أن أرباب الفناء والشهود والمعاينة لا تأخذهم في تقريره لومة لائم ، فقال - رحمه الله - في منزلة الفناء : «... كما تقدم تقريره مراراً ، ونحن لا تأخذنا في ذلك لومة لائم ، وهم لا تأخذهم في كون ذلك في العيان لومة لائم» (١).

معارضات في التوبة

٣- معارضات في التوبة :

تقدم الحديث عن التوبة من حيث الترتيب ، وتقديم الهروي للفناء علىٰ التوبة ، وهنا سيكون الحديث عن مفهوم التوبة ، وما تعرض له الهروي من خطأ وبيان وجه الصواب من خلال كلام ابن القيم حيث يقول في تعليقه علىٰ حقائق التوبة التي ذكرها الهروي ومنها «طلب أعذار الخليقة» فقال : «وأما طلب أعذار الخليقة ، فهذا له وجهان ، وجه محمود ، ووجه مذموم حرام. فالمذموم : أن تطلب أعذارهم نظراً إلىٰ الحكم القدري ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر – وقال : أظن هذا مراد صاحب المنازل – وهذا القدر ينتهي إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلىٰ القدر ، الفاني في شهوده».

إلىٰ أن قال : «وهذا الشهود شهود ناقص مذموم ، إن طرده صاحبه. فعذر أعداء الله وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعذارهم... وليست هذه

(١) المدارج ٣/ ٣٨١.

موافقة لله؛ بل موافقته لوم هذا. واعتقاد أنه لا عذر له عند الله...»[١].

ثم بين المعنىٰ الثاني وقال : «المعنىٰ الثاني : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم في إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر إلىٰ الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر في حقك لا في حق ربك فهذا حق... ».

ثم قال في مخالفته : «فهذا المعنىٰ الثاني – وإن كان حقاً – لكن ليس هو من شرائط التوبة ولا من أركانها ، ولا له تعلق بها ، فإنه لو لم يُقم أعذارهم في إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئاً من توبته ، فما أراد – أي : الهروي – إلا المعنىٰ الأول ، وقد عرفت ما فيه...»[٢].

- ونقد قوله في سرائر حقيقة التوبة حينما قال : «ونسيان الجناية» فقال : «والصواب : التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال : إذا أحس العبد من نفسه... رقيقة من العجب ونسيان المنة... فذكر الذنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدته مِنّة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه... وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه... فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أَوْلىٰ به وأنفع...»[٣].

- وكذلك قوله : «التوبة من التوبة» فقال : «فإن التوبة من أعظم الحسنات

---

(١) المدارج ١/ ١٨٨ ، ومنازل السائرين ١٣.

(٢) المدارج ١/ ١٩٦ و ١٩٧.

(٣) المدارج ١/ ٢٠١ و ٢٠٢ ، ومنازل السائرين ١٤.

والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات؛ بل هي كفر ، إن أخذت علىٰ ظاهرها ، ولا فرق بين التوبة من التوبة ، والتوبة من الإسلام «ثم بين مرادهم بذلك فقال : «ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة ، فإنها إنما حصلت له بمنّة الله ومشيئة...» إلىٰ أن قال : ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي التوبة ولا جزءاً منها ولا شرطاً لها؛ بل هي جناية أخرىٰ عرضت له بعد التوبة ، فيتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولىٰ».

وقال أيضاً : «هذا كلام غير معقول ، ولا هو صحيح في نفسه ، بل قد يكون في التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك وقد لا يشعر به ، فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها...» (١).

وقال في موضع آخر : «ثم إن هذا غير ممكن ألبتة ، فإنكم إذا جعلتم رؤيته لثبوته علة يتوب منها ، فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضاً علة توجب عليه توبة وهلم جرا. فلا ينتهي الأمر إلا بسقوط التمييز جملة ، والسكر والطمس المنافي للعبودية ، فضلاً عن أن يكون غاية للعبودية...» (٢).

٤ - معارضات في العلم والحال :

معارضات في العلم والحال

تتركز معارضته في العلم والحال ، علىٰ رفض تقريره أن العلم يُشغل عن

---

(١) المدارج ١/ ٢٠٣ ، ومنازل السائرين ١٥.

(٢) المدارج ١/ ٢٧١.

السلوك ، وأن لا يتعلق في السير بدليل ، وأن الحال حاكم على العلم ، وما يتصل بهذا من كلمات مجملة تحتمل أكثر من معنىٰ.

- قال تعليقاً علىٰ قوله : «والصعود عن منازعات العقول ، وعن التعلق بالشواهد» : «قوله : «وعن التعلق بالشواهد» كلام فيه إجمال ، فالشواهد : هي الأدلة والآيات ، فترك التعلق بها انسلاخ عن العلم ، والإيمان بالكلية ، والتعلق بها وحدها دون من نصبها شواهد وأدلة : انقطاع عن الله ، وشرك في التوحيد ، والتعلق بها استدلالاً ، ونظراً في آيات الرب ، ليصل بها إلىٰ الله هو التوحيد والإيمان...» [1].

- وحذّر ابن القيم - رحمه الله - من تهوين أمر العلم والاستدلال حينما قال في تعليقه علىٰ قول الهروي في منزلة (الفتوة) «أن لا تتعلق في السير بدليل» فقال : «والقوم عاملون علىٰ الكشف الذي يحصل بنور العيان ، لا علىٰ العلم الذي ينال بالاستدلال والبرهان ، وهذا موضع غلط واشتباه ، فإن الدليل في هذا المقام شرط وكذلك العلم».

إلىٰ أن قال : «ثم إنه يخاف علىٰ من لا يقف مع الدليل ما هو أعظم الأمور وأشدها خطراً وهو الإنقطاع عن الطلب بالكلية ، والوصول إلىٰ مجرد الخيال والمحال ، فمن خرج عن الدليل ضل سواء السبيل» [2].

(١) المدارج ٣/ ٥٠٢ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٣٤٧ و ٣٤٨ ، ومنازل السائرين ٦٢.

- ونبه علىٰ أن العلم لا يشغل عن السلوك بل يعين عليه، في أثناء شرحه لقول الهروي في منزلة الوقت «فالعلم يشغله في حين، والحال يحمله في حين» فقال: «... وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين: أن العلم عندهم يشغل عن السلوك، ولهذا يعدون السالك من سلك علىٰ الحال ملتفتاً عن العلم. وأما علىٰ ما قررناه، من أن العلم يعين علىٰ السلوك، ويحمل عليه ويكون صاحبه سالكاً به وفيه، فلا يشغله العلم عن سلوكه...»(١).

- وعارض الهروي في باب الجمع عند قوله: «فأما جمع العلم: فهو تلاشي علوم الشواهد في العلم اللدني صرفاً...» فبين أن العلم القائم علىٰ الشواهد والأدلة هو العلم الحقيقي فقال: «ونحن نقول: إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة هو العلم الحقيقي، وأما ما يدعىٰ حصوله بغير شاهد ولا دليل: فلا وثوق به، وليس بعلم...» وقال: «وأما دعوىٰ وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال: فليس بصحيح» إلىٰ أن قال: «فالعلم اللدني: ما قام الدليل الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله علىٰ لسان رسله وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود، وقد انبثق سد العلم اللدني، ورخص سعره حتىٰ ادعت كل فرقة أن علمهم لدني...»(٢).

- وقال في باب التجريد عند قوله: «تجريد عين الجمع عن درك العلم»

---

(١) المدارج ٣/ ١٣٥، ومنازل السائرين ١٠٢.

(٢) المدارج ٣/ ٤٣١ و ٤٣٢، وانظر أيضاً: ٣/ ٤١٦ و٤٧٦، ومنازل السائرين ١٣٤.

قال : «ولعمر الله إن ذلك ليس بكمال ، وهو أصل من أصول الانحلال ، فإنه إذا تجرد من العلم وما يوجبه ، فقد خرج من النور الذي يكشف له الحقائق ويميز له بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، فالكشف وشهود الحقيقة إذا تجرد عن العلم : فقد ينسلخ صاحبه عن أصل الإيمان وهو لا يشعر»(١).

- وحذّر رحمه الله من تقديم الحال علىٰ العلم فقال تعليقاً علىٰ قوله في باب التهذيب : «الدرجة الثانية : تهذيب الحال وهو أن لا يجنح الحال إلىٰ علم» فقال «أما جنوح الحال إلىٰ العلم فهو نوعان : ممدوح ومذموم ، فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلىٰ ما يأمر به ، وتحكيمه عليه ، فمتىٰ لم يجنح إليه هذا الجنوح كان حالاً مذموماً ، ناقصاً مبعداً عن الله ، فإن كل حال لا يصحبه علم : يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان» إلىٰ أن قال : «واعلم أن المعرفة الصحيحة : هي روح العلم ، والحال الصحيح : هو روح العمل المستقيم ، فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم : فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة... فمتىٰ عارض الحال حكم من أحكام العلم ، فذلك الحال : إما فاسد وإما ناقص ، ولا يكون مستقيماً أبداً. فالعلم الصحيح ، والعمل المستقيم : هما ميزان المعرفة الصحيحة ، والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما»(٢).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٢٠ ، وانظر : ٢/ ٤٢٠ ، ومنازل السائرين ١٣٣.

(٢) المدارج ٢/ ٩٩ و ١٠٠ ، ومنازل السائرين ٤٢.

- وقال في منزلة الدهش عند قوله: «الأولىٰ دهشة المريد عند صولة الحال علىٰ علمه...»: «يعني أن علمه يقتضي شيئاً، وحاله يصول عليه بخلافه، فهذا غايته: أن يكون معذوراً إن لم يكن مفرطاً، فإن الحال لا يصول علىٰ العلم إلا وأحدهما فاسد، إما الصائل أو المصول عليه، فإذا اقتضىٰ العلم سكوناً، فصال عليه الحال بحركته: فهي حركة فاسدة. غاية صاحبها: أن يكون معذوراً لا مشكوراً. وإذا اقتضىٰ العلم حركة، فصال الحال عليه بسكونه: فهو سكون فاسد»(١).

٥ - معارضات في التوحيد:

معارضات في التوحيد

المخالفات في التوحيد لها ارتباط وثيق في المخالفات في مسائل الفناء. ولكن كما أسلفت: لكثرة الخلاف فيها وتنوعه وأهميته، فصلتها عن الفناء وجعلتها قسماً مستقلاً.

وقد أكد ابن القيم - رحمه الله - هذه الصلة مع الفناء بقوله:

«وقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع، وجاء بما يرغب عنه الكمّل من سادات السالكين والواصلين إلىٰ الله. فقال: «الفكرة في عين التوحيد: اقتحام بحر الجحود».

وهذا بناء علىٰ أصله الذي أصّله، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء، فإنه لما

---

(١) المدارج ٣/ ٧٥ و ٧٦، وانظر: أيضاً ٢/ ٢٨٨ و ٣٦١، ومنازل السائرين ٩٥.

رأىٰ أن الفكرة في عين التوحيد تُبعِدُ العبد من التوحيد الصحيح عنده؛ لأن التوحيد الصحيح عنده : لا يكون إلا بعد فناء الفكر والتفكر». وقال أيضاً : «والفكرة تدل علىٰ بقاء رسم ، لاستلزامها مفكراً ، وفعلاً قائماً به. والتوحيد التام عنده. لا يكون مع بقاء رسم أصلاً. كانت الفكرة عنده علامة الجحود واقتحاماً لبحره ، وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب...» (١).

- قال الهروي في حد التوحيد : «التوحيد : تنزيه الله تعالىٰ عن الحدث» فقال ابن القيم : «هذا الحد لا يدل علىٰ التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وينجو به العبد من النار ، ويدخل به الجنة ، ويخرج من الشرك، فإنه مشترك بين جميع الفرق ، وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقربه...»(٢) إلىٰ أن قال : «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ، ونزلت به كتبه : فوراء ذلك كله وهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد» (٣).

- وقد بين الهروي أنواع التوحيد عنده فقال : «والتوحيد علىٰ ثلاثة أوجه : الوجه الأول : توحيد العامة ، الذي يصح بالشواهد. والوجه الثاني : توحيد الخاصة. وهو الذي يثبت بالحقائق. والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم. وهو

---

(١) المدارج ١/ ١٤٧ ، وانظر : منازل السائرين ١٨.

(٢) المدارج ٣/ ٤٤٤ ، ومنازل السائرين ١٣٥.

(٣) المدارج ٣/ ٤٤٩.

توحيد خاصة الخاصة»[(١)].

وقد عارضه ابن القيم بذلك كما تقدم قبل قليل بذكر أقسام التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، وتكلم هنا بعد كلام الهروي السابق ، وبين أن أكمل الناس توحيداً هم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم - ثم قال : «فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ، ودعوا إليه ، وجاهدوا الأمم عليه... فهذا هو توحيد خاصة الخاصة ، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٣١][(٢)].

وقال عن التوحيد الأول : « قوله : «وهذا توحيد العامة ، الذي يصح بالشواهد» قد تبين أن هذا توحيد خاصة الخاصة ، الذي لا شيء فوقه ، ولا أخلص منه ، وأن الخليلين أكمل الناس فيه توحيداً ، فليهْنَ العامةَ نصيبهم منه»[(٣)].

- وأما عن قول الهروي: «يصح بالشواهد» فقال ابن القيم - رحمه الله - : «أي بالأدلة والآيات والبراهين ، وهذا مما يدل علىٰ كماله وشرفه : أن قامت

(١) منازل السائرين ص١٣٥ ، وانظر : المدارج ٣/ ٤٨٠.

(٢) المدارج ٣/ ٤٨١ و ٤٨٢.

(٣) المدارج ٣/ ٤٨٥ ، ومنازل السائرين ١٣٥.

عليه الأدلة ، ونادت عليه الشواهد ، وأوضحته الآيات والبراهين ، وما عداه فدعاوىٰ مجردة ، لا يقوم عليها دليل ، ولا تصح بشاهد....» [١].

- ونقد قوله : «ويجب بالسمع» فقال : «والحق : أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع والقرآن علىٰ هذا يدل ، فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية علىٰ التوحيد ، ويبين حسنه وقبح الشرك عقلاً وفطرة ، ويأمر بالتوحيد وينهىٰ عن الشرك ، ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال ، وهي الأدلة العقلية. وخاطب العباد بذلك خطاب من استقر في عقولهم وفطرهم حسن التوحيد ووجوبه ، وقبح الشرك وذمه...» [٢].

- ونقد قوله : «ويوجد بتبصير الحق» وقد تقدم الحديث عنه في المعارضات في التعبير.

- وعارضه بقوله : «وينمو علىٰ مشاهدة الشواهد» فقال : «وهذا أيضاً يحتاج إلىٰ أمر آخر ، وهو الإجابة لداعي الحق ، فلا يكفي مجرد مشاهدة الشواهد في نموه» إلىٰ أن قال : «وقد تضمن كلام الشيخ ما دلت عليه النصوص ، واتفق عليه الصحابة والتابعون : أن الإيمان والتوحيد ينموان ويتزايدان ، وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذي فارقوا به الجهمية والمرجئة»[٣].

---

(١) المدارج ٣/ ٤٨٥ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

(٢) المدارج ٣/ ٤٨٨ وانظر : ٣/ ٤٩٠ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

(٣) المدارج ٣/ ٤٩٤ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

التوحيد الثاني عند الهروي

* التوحيد الثاني عند الهروي :

قال الهروي في المنازل : «وأما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة وهو إسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول، وعن التعلق بالشواهد وهو أن لا تشهد في التوحيد دليلاً ، ولا في التوكل سبباً ، ولا للنجاة وسيلة....» [1].

وكان لابن القيم - رحمه الله - من هذا الكلام وقفات ومعارضات فمن ذلك :

- عارض قوله : «وهو إسقاط الأسباب الظاهرة» وسيأتي الحديث عنه في معارضاته في الأسباب قريباً إن شاء الله.

- وقوله أيضاً : «وعن التعلق بالشواهد» وقد تقدم الحديث عنها في معارضاته في العلم والحال.

-ونقد قوله : «وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً» فقال : «ليس بصحيح بل الواجب : أن يشهد الأمر كما أشهده الله إياه ، فإن الله سبحانه نصب الأدلة علىٰ التوحيد ، وأقام البراهين وأظهر الآيات ، وأمرنا أن نشهد الأدلة والآيات ، وننظر فيها ونستدل بها...» إلىٰ أن قال : «فكيف لا يشهدها دليلاً عليه؟ هذا من أبطل الباطل؛ بل التوحيد -كل التوحيد- أن يشهد كل شيء دليلاً عليه ،

---

(١) ومنازل السائرين ص١٦ و ١٣٧.

مرشداً إليه ، ومعلوم أن الرسل أدلة للتوحيد ، فكيف لا يشهدهم كذلك؟ وكيف يجتمع الإيمان بهم وعدم شهودهم أدلة للتوحيد»[١].

- وله معارضة علىٰ قوله : «ولا في التوكل سبباً ولا للنجاة وسيلة... إلىٰ أن قال : وتسلك إسقاط الحدث» وسيأتي الحديث عنه في معارضاته في الأسباب.

* التوحيد الثالث عند الهروي :

التوحيد الثالث عند الهروي

قال : «وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه واستحقه بقدره، وألاح منه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته ، وأخرسهم عن نعته ، وأعجزهم عن بثه...»[٢].

- قال ابن القيم - رحمه الله - علىٰ قوله : «وأخرسهم عن نعته ، وأعجزهم عن بثه » «فيقال : أفضل صفوة الرب تعالىٰ : الأنبياء ، وأفضلهم : الرسل ، وأفضلهم : أولوا العزم ، وأفضلهم : الخليلان - عليهما الصلاة والسلام - ، وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين. والذي ألاحه الله إلىٰ أسرارهم من ذلك : هو أكمل توحيد عرفه العباد ، ولا أكمل منه وليس وراءه إلا الشطح والدعاوىٰ والوساوس وهم - صلوات الله وسلامه عليهم - قد تكلموا بالتوحيد ، ونعتوه

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٢ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) منازل السائرين ١٣٧.

وبينوه وأوضحوه وقرروه، بحيث صار في حيز التجلي والظهور والبيان – إلىٰ أن قال: – وكيف يقال: إن أعرف الخلق، وأفصحهم وأنصحهم: عاجز أن يبين ما عرَّفه الله من توحيده، وأنه عاجز عن بثه؟ فما هذا التوحيد الذي عجزت الأنبياء والرسل عن بثه، ومنعوا من النطق به. وعرفه غيرهم؟ هذا كله إن أريد بهذا[١] التوحيد القائم بذات الحق تعالىٰ لنفسه» ثم قال: «فأما إن أريد به التوحيد، الذي هو صفة العبد وفعله... فصفة العبد وفعله لا يعجز عن بثها، ولا يخرس عن النطق بها. وكل ما قام بالعبد فإنه يمكنه التعبير عنه وكشفه وبيانه»[٢].

– وقال أيضاً عن الكلام السابق وعن قوله: «ما وحد الواحد من واحد» «إن أريد به ظاهره... فهذا قول النصارىٰ بعينه؛ بل هو شر منه... بل عند الاتحادية: الموحِّد والموحَّد واحد وما ثم تعدد في الحقيقة» «وإن أريد به: هو الذي وفقهم لتوحيده، وألهمهم إياه، وجعلهم يوحدونه فهو الموحد لنفسه، بما عرَّفهم به من توحيده، وبما ألقاه في قلوبهم وأجراه علىٰ ألسنتهم: فهذا المعنىٰ صحيح. ولكن لا يصح نفي أفعالهم عنهم».

ثم بين ذلك فقال: «فلا يقال: إن الله هو الموحد لنفسه. لا أن عبده يوحده. هذا باطل شرعاً وعقلاً وحساً: بل الحق أن الله سبحانه وحد نفسه بتوحيد قام

(١) هكذا في تحقيق الزميل د. محمد الخضيري وفي المطبوعة (إن أريد به كلهم التوحيد).

(٢) المدارج ٣/ ٥١٢ و ٥١٣.

به. ووحده عبيده بتوحيد قام بهم بإذنه ومشيئته وتوفيقه ، فهو الموحد لنفسه بنفسه ، وهم الموحِّدون له بتوفيقه ومعونته وإذنه..» [١] .

– وعارضه علىٰ قوله : «إسقاط الحدث وإثبات القدم» فقال : «وقوله : «والذي يشار إليه علىٰ ألسنة المشيرين : أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم» فإن أريد : إسقاطه من الوجود : فمكابرة للعيان ، وإن أريد : إسقاطه من الشهود : فليس ذلك بمأمور به ، ولا هو كمال. فضلاً عن أن يكون هو توحيد خاصة الخاصة. فما هذا الإسقاط للحدث الذي هو نهاية التوحيد ، وأعلىٰ مقاماته؟ وهل الكمال إلا أن يشهد الأشياء علىٰ ما هي عليه ، كما هي في شهادة الحق سبحانه؟ «إلىٰ أن قال : «فهذا الكلام لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد. ولا أشار إليه القرآن الذي تضمن أعلىٰ مراتب التوحيد؛ بل القرآن – من أوله إلىٰ آخره – يدل علىٰ خلافة» [٢].

– وعارضه عند كلامه عن النوع الثالث من التوحيد: «ثم لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة». فقال : «يا لله العجب! ما هذا السر الذي ما تكلم الله به ، ولا أشار إليه رسوله ، ولا نالته إشارة ، ولا قامت به عبارة ، ولا أشار إليه مكون ، ولا تعاطاه حين ، ولا أقله سبب؟!! فهذه العقول حاضرة. وهذه المعارف. وهذا كلام الله ورسوله؛ بل سائر كتب الله ، وكلام سادات العارفين

---

(١) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٦ ، ومنازل السائرين ١٣٨.

من الأمة ، فما هذا الحق المحال به؟ وعلىٰ من وقعت هذه الحوالة؟ فإنكم أحلتم بما لا ينطق عنه لسان. ولم تشر إليه عبارة. ولا تعاطاه حين ، ولا أقله سبب» وقال أيضاً : «فعلىٰ من أحلتم بهذا الحق المجهول الذي لا سبيل إلىٰ العلم به ، ولا التعبير عنه ، ولا الإشارة إليه؟!! وأين قوله : «ما وحد الواحد من واحد» من قوله تعالىٰ : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران :١٨] (١) .

- وقال أيضاً في الرد علىٰ التوحيد الثالث عند الهروي : «ثم يقال : فهذا الذي ذكرته – في هذه الدرجة – هل هو توحيد ، ووصف للتوحيد : أم ليس بتوحيد؟ فإن لم يكن توحيداً فهو باطل. وإن كان توحيداً فقد وحدت الواحد».

وقال في ختام كلامه عن هذا التوحيد : «وأيضاً فإذا كان توحيده لنفسه هو التوحيد ، وما عداه فليس بتوحيد. فمعلوم : أن توحيده لنفسه هو الذي أرسل به رسله... وهذا عندك هو توحيد العامة فأين هذا التوحيد الذي وحد به نفسه ، ولم ينطق به لسان ولم تعبر عنه عبارة ولم يقله سبب» (٢).

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – الأبيات الثلاثة المنسوبة للهروي والمذكورة في آخر كتابه المنازل ، وبين ابن القيم مراد الهروي منها في أكثر

(١) المدارج ٣/ ٥١٧ و ٥١٨ ، ومنازل السائرين ١٣٨.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٨.

من موضع في كتابه المدارج[1] ، وقد تقدم في أول الحديث عن معارضاته في التوحيد الإشارة إلىٰ هذه الأبيات وهو قوله : «وهذا بناء علىٰ أصله الذي أصلّه، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء... إلىٰ أن قال : وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب :

مـا وحَّـدَ الوَاحـدَ مـن واحـد إذْ كـلُّ مـن وحَّـده جاحـدُ
توحيـدُ مـن ينطـق عـن نعتـه عاريـة أبطلهـا الواحـدُ
توحيـدُه إيَّـاه توحيـدُه ونعـت مـن ينعتُـه لاحِـدُ»[2]

وقال أيضاً : «في هذا الكلام من الإجمال والحق والإلحاد ما لا يخفىٰ»[3] .

وقال : «وأيضاً فإن هذا الكلام الذي اشتملت عليه هذه الأبيات : لا يستقيم علىٰ مذهب الملحدين ، ولا علىٰ مذهب الموحدين. أما الموحدون ، فهم يقولون : إن الرسل والأنبياء والملائكة والمؤمنين يوحدون الله حق توحيده ، الذي يقدرون عليه ، وأما الملحدون ، فيقولون : ما ثمَّ غير في الحقيقة. فالله – عندهم – هو الوجود المطلق الساري في الموجودات. فهو الموحِّد والموحَّد. وكل ما يقال فيه فهو عندهم حق وتوحيد» [4].

---

(١) المدارج ١/ ١٤٧ و ٣/ ٥١٣ و ٥١٤.

(٢) المدارج ١/ ١٤٧ ، ومنازل السائرين ١٣٩ .

(٣) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٩.

وقد أثنىٰ ابن القيم علىٰ الهروي ومن ذلك ما ذكره في هذا الموضوع بعد ذكره لهذه الأبيات ، وبيان المراد منها ، وحمل كلام الهروي علىٰ أحسن معنىٰ محتمل فقال : «وهذا المعنىٰ حق وهو أولىٰ بهذا الإمام العظيم القدر مما يظنه به طائفة الاتحادية والحلولية ، وإن كانت كلماته المجملة شبهة لهم ، فسنته المفصلة مبطلة لظنهم»[1]. وأثنىٰ عليه بكلام آخر تقدم ذكره في ترجمة الهروي في أول هذه المعارضات.

بل إنه قال في مجمل اعتذاره للهروي : «علىٰ أنه لو أراد الإلحاد الذي هو باطل وضلال : لكان له وجه صحيح ، وهو أن نعت المخلوقين له من عند أنفسهم إلحاد ، والتوحيد الحق : هو ما نعت الله به نفسه علىٰ ألسنة رسله ، فهم لم ينعتوه من تلقاء أنفسهم ، وإنما نعتوه بما أذن لهم في نعته به ، وقد صرح سبحانه بهذا المعنىٰ ، في قوله : ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات : ١٥٩ - ١٦٠] فنزه نفسه عما يصفه به العباد إلا المرسلين فإنهم لم يصفوه من عند أنفسهم...»[2].

معارضات في الأسباب

٦ - معارضات في الأسباب :

هذه المعارضات والتي تدور حول موضوع الأسباب ونفيها ، تضم مباحث كثيرة ، ومهمة ، ودقيقة ، حيث إنها تتطرق للحديث عن التوكل ، وبيان أن

---

(١) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٢) المدارج ٣/ ٥٢١ و ٥٢٢.

التوكل لا يمنع من الأخذ بالأسباب؛ بل هو من الأسباب ، وكذلك تتعرض للحديث عن القضاء والقدر ، وبيان أن الأمر إذا كان قد قدره الله فإن ذلك أيضاً لا يمنع من الأخذ بالأسباب. فليس ذلك مسوغاً لترك الأسباب وتعطيلها ، وغير ذلك من المسائل المهمة التي تحدث عنها الإمام ابن القيم - رحمه الله ، وأطال الحديث عنها.

وقبل أن نخوض في هذه المعارضات ، يحسن أن أنقل كلاماً جامعاً لابن القيم يبين فيه الحق نحو الأسباب والعمل بها وعدم تعطيلها ، وذلك لأهميته والحاجة إليه. حيث يقول معلقاً علىٰ قول من قال : «الالتفات إلىٰ الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب - أن تكون أسباباً - تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية : قدح في الشرع ، والتوكل معنىٰ يلتئم من معنىٰ التوحيد والعقل والشرع»(١).

فقال - رحمه الله - : «وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح وتقييد ، فالالتفات إلىٰ الأسباب ضربان. أحدهما : شرك. والآخر : عبودية وتوحيد. فالشرك : أن يعتمد عليها ، ويطمئن إليها ، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود. فهو مُعرِض عن المسبِّب لها. ويجعل نظره والتفاته مقصوراً عليها» ثم بيَّن الضرب الثاني من الالتفات إلىٰ الأسباب بقوله : «وأما إن التفت إليها التفات امتثال

(١) المدارج ٣/ ٤٩٩.

وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها ، وإنزالها منازلها : فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلىٰ المسبب.

وأما محوها أن تكون أسباباً : فقدح في العقل والحس والفطرة ، فإن أعرض عنها بالكلية : كان ذلك قدحاً في الشرع وإبطالاً له»[١].

ثم بيَّن حقيقة التوكل عند الموحد فقال : «فالموحد المتوكل : لا يلتفت إلىٰ الأسباب بمعنىٰ أنه لا يطمئن إليها ، ولا يرجوها ولا يخافها فلا يركن إليها. ولا يلتفت إليها – بمعنىٰ أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها – بل يكون قائماً بها ، ملتفتاً إليها ، ناظراً إلىٰ مسببها سبحانه ومجريها»[٢].

ثم أكد – رحمه الله – علىٰ عدم تعطيل الأسباب فقال : «وما سبق به علم الله وحكمه حق ، وهو لا ينافي إثبات الأسباب ، ولا يقتضي إسقاطها».

ثم قال ردّاً علىٰ من خالف : «فمن نظر إلىٰ الحدوث بغير الأسباب : لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق؛ بل كان شهوده غيبة ، ونظره عمىٰ ، فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها ، فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره»[٣].

– ثم بين العلل التي تتقىٰ في الأسباب فقال : «والعلل التي تتقىٰ في

(١) المدارج ٣/ ٤٩٩.

(٢) المدارج ٣/ ٥٠٠.

(٣) المدارج ٣/ ٥٠٠.

الأسباب نوعان :

أحدهما : الاعتماد عليها ، والتوكل عليها ، والثقة بها ، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ وبين ذلك.

الثاني : ترك ما أمر الله به من الأسباب ، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك»[١] ، ثم ختم كلامه ببيان ما يجب على العبد فقال : «بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله... فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ، ولا تُحصِّل له فلاحاً ، ولا توصله إلى المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً ، ويفرّغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل ، واعتماداً على الله وحده»[٢].

وهذا الكلام لابن القيم – رحمه الله – هو في الحقيقة معارضة للهروي في حديثه عن الأسباب والتوكل ، ويتبين هذا من خلال تتبع كلام الهروي عبر هذه المعارضات.

– وأولها تسميته الأسباب تلبيساً حيث قال ابن القيم على هذا : «قد عرفت أن هذا الباب مبناه على محو الأسباب ، وعدم الالتفات إليها والوقوف معها ، ولهذا سمى المصنف نصبها تلبيساً» ثم قال : «ونحن نقول : إن الدين هو

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٠ و ٥٠١.

(٢) المدارج ٣/ ٥٠١.

إثبات الأسباب، والوقوف معها، والنظر إليها والالتفات إليها، وإنه لا دين إلا بذلك، كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة: مبناها علىٰ إثباتها، لا علىٰ محوها، ولا ننكر الوقوف معها. فإن الوقوف معها فرض علىٰ كل مسلم لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك، والله تعالىٰ أمرنا بالوقوف معها» ثم بين هذا الوقف بقوله: «بمعنىٰ أنا نثبت الحكم إذا وجدت، وننفيه إذا عدمت، ونستدل بها علىٰ حكمه الكوني. فوقوفنا معها - بهذا الاعتبار - هو مقتضىٰ الحقيقة والشريعة» إلىٰ أن قال: «فقف مع الأسباب حيث أمرت بالوقوف معها، وفارقها حيث أمرت بمفارقتها»(١).

- وعارضه في بيان المقصود من الأسباب عند قوله في باب التوكل: «ومعاطاة السبب علىٰ نية شغل النفس بالسبب مخافة، ونفع الخلق، وترك الدعوىٰ» فقال: «فيقال: إذا كانت الأسباب مأموراً بها ففيها فائدة أجل من هذه الثلاث، وهي المقصودة بالقصد الأول، وهذه مقصودة قصد الوسائل - فبينها وقال - وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خلق له العبد وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض وله وجدت الجنة والنار»(٢).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٧ و٤٠٨ و٤٠٩، وانظر: ٣/ ٣٩٤ و٣٩٨ و٤٠٢، ومنازل السائرين ١٣٠ و١٣١.

(٢) المدارج ٣/ ١٣٠، ومنازل السائرين ٤٤.

- وعارضه عند قوله في اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة : «أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة» فقال : «هذا الكلام - إن أخذ علىٰ ظاهره - فهو من أبطل الباطل...» ثم حمل كلام الهروي علىٰ أحسن المحامل معتذراً له فيقول : «علىٰ أن له محملاً آخر مبنياً علىٰ أصول فاسدة، وهي أن إرادة الرب تعالىٰ هي عين محبته ورضاه، فكل ما شاءه فقد أحبه ورضيه، وكل ما لم يشأه فهو مسخوط مبغوض، فالمبغوض المسخوط هو ما لم يشأه والمحبوب المرضي هو ما شاءه»[(١)].

ثم تكلم بكلام طويل حول كلام الهروي السابق، فتحدث عن أفعال العباد، ومسألة التحسين والتقبيح، وأقسام الناس في الأسباب والقوىٰ والطبائع، وبيَّن اختلاف أرباب السلوك في هذا، وفرق بين المحبة والمشيئة، وتكلم عن الرضا بالقدر، وأنه ليس علىٰ إطلاقه مع ذكره لأقوال المخالفين في ذلك والرد عليهم»[(٢)].

- وعارضه في باب التوحيد عند قوله : «لأن الموحد قد رفض الأسباب كلها» فقال : «يقال له : هذا الرفض لا يخرج عن الكفر تارة، والفسق تارة، والتقصير تارة، فإن الله أمر بالقيام بالأسباب. فمن رفض ما أمره الله أن يقوم به

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٧ و ٢٢٨، ومنازل السائرين ١٤.

(٢) المدارج ١/ ٢٢٧ - ٢٥٧ و ٢/ ١٤٦.

فقد ضادّ الله في أمره ، وكيف يحل لمسلم أن يرفض الأسباب كلها»[١] .

- وعارضه بقوله عن التوحيد الثاني : «وهو إسقاط الأسباب الظاهرة» بعد أن ذكر لكلامه احتمالين قال : «وعلىٰ التقديرين : فهو غير مخلص ، فإذا أريد بالإسقاط : التعطيل والإهمال : فمن أبطل الباطل ، وإن أريد العزل عن ولاية الاقتضاء ، وإسناد الحكم إلىٰ مشيئة الرب وحده : فلا فرق بين الأسباب الظاهرة والباطنة ، وإن أريد : الأسباب التي لم يؤمر بها العبد. فليس إسقاطها من توحيد الله في شيء ، ولا في القيام بها مبطلاً له ولا منقصاً»[٢].

وقال أيضاً : «وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد؛ بل القيام بها واعتبارها وإنزالها في منازلها التي أنزلها الله فيها : هو محض التوحيد والعبودية ، والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية الجبرية»[٣].

- وبمثل هذا الكلام رد علىٰ قوله : «فيكون شاهداً سبق الحق بعلمه وحكمه...» فقال : «فأي وسيلة يشهد هناك؟ وأي سبب؟ وأي دليل هذا الذي يدندن الشيخ حوله»[٤].

---

(١) المدارج ٣/ ٤٧٨ ، وانظر : ٣/ ٤٩٩ و٥٠٠ ، وانظر : علل المقامات المطبوع ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩٢.

(٢) المدارج ٣/ ٣٩٥ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٣) المدارج ٣/ ٤٩٥.

(٤) المدارج ٣/ ٥٠٤ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

- ومثله أيضاً علىٰ قوله : «ويسلك سبيل إسقاط الحدث» حيث قال : «فإن أراد بإسقاط الحدث : أنه يعتقد نفي حدوث شيء ، فهذا مكابرة للحس والشهود ، وإن أراد : إسقاط الحدث من قلبه ، فلا يشهد حادثاً ومحدثاً - وهذا مراده - فهذا خلاف ما أمر الله ورسوله به ، وخلاف الحق»(١).

- وعارضه في منزلة الصدق عند قوله : «وإن كان العبد كُسي ثوباً معاراً ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحوال : زور ، وأصفىٰ قصوده : قعود».

فقال : إن هذا الكلام يراد به أمران ، فذكر الأمر الأول منهما ثم قال : «هذا معنىٰ صحيح : ما أظن الشيخ قصده ، وإنما أظنه قصد معنىٰ آخر»(٢).

ثم ذكر هذا المعنىٰ الثاني وهو أن يتيقن العبد : أن وجوده ثوب معار؛ بل كل ما نسب إليه فهو عارية من الله ، فإذا اعتقد العبد أنه هو الفاعل فهذا ذنب؛ لأن الفاعل في الحقيقة هو الله وحده. فقال ابن القيم - رحمه الله - علىٰ هذا المعنىٰ : «والصواب : أن هذا ليس بذنب ، ولا هو مقدور للعبد ولا مأمور به ، والكمال في حقه : أن يشهد الأمر كما هو عليه ، وأنه فاعل حقيقة ، كما أضاف الله إليه الفعل في كتابه كله ، والله هو الذي جعله فاعلاً ، فإذا شهد نفسه فاعلاً حقيقة ، وشهد فاعليته بالله ، ومن الله لا من نفسه : فلا ذنب في هذا الشهود ولا زور بحمد الله» . وقال أيضاً : «وهو نظر بمجموع عينيه إلىٰ السبب ،

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٥ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٢٨٤ ، ومنازل السائرين ص٥٦ و ٥٧.

والمسبب ، والشرع والقدر ، والخلق والأمر ، وأنه متىٰ شهد نفسه عاصياً مخالفاً مذنباً : كان عاصياً بهذا الشهود؛ لأن الفاعل فيه غيره. وهذا مناف للعبودية أشد منافاة ، وهو من سير القوم إلىٰ شهود الحقيقة الكونية ، واعتقادهم أنه غاية السالكين» (١).

- وعارضه عند قوله عن حقائق التوبة : «وطلب أعذار الخليفة» فقال : «وأما طلب أعذار الخليقة ، فهذا له وجهان ، وجه محمود ووجه مذموم حرام فالمذموم : أن تطلب أعذارهم ، نظراً إلىٰ الحكم القدري ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر وهذا القدر ينتهي إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلىٰ القدر الفانين في شهوده ، وهو - كما تقدم - درب خطر جداً ، قليل المنفعة لا ينجي وحده» ثم قال : «وأظن هذا مراد صاحب المنازل؛ لأنه قال بعد ذلك :«مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ، لصعوده من جميع المعاني إلىٰ معنىٰ الحكم».

ثم قال أيضاً : «وهذا الشهود شهود ناقص مذموم إن طرده صاحبه ، فعذر أعداء الله ، وأهل مخالفة رسله ، وطلب أعذارهم : كان مضاداً لله في أمره ، عاذراً من لم يعذره الله ، طالباً عذر من لامه الله وأمر بلومه ، وليست هذه موافقة لله؛ بل موافقته لوم هذا واعتقاد أنه لا عذر له عند الله» (٢).

---

(١) المدارج ٢/ ٢٨٥.

(٢) المدارج ١/ ١٨٤ و ١٨٨ ، ومنازل السائرين ١٣.

وبيّن الوجه المحمود بقوله : «المعنىٰ الثاني : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم في إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك والنظر في ذلك إلىٰ الأقدار... فتعذرهم بالقدر في حقك لا في حق ربك فهذا حق»(١).

- وقال في منزلة الرجاء عند قوله : «لأنه معارضه من وجه واعتراض من وجه آخر» فقال : «... وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل ، فإن الراجي ليس معارضاً ، ولا معترضاً ؛ بل راغباً ، راهباً ، مؤمِّلاً لفضل ربه ، حسن الظن به ، متعلق الأمل ببره وجوده...».

وقال أيضاً : «والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه؛ بل هو من أقوىٰ الأسباب...» إلىٰ أن قال : «فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له ، المرضي له ، فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه؛ بل اقتضىٰ عبوديته ، وحصول أحب التصرفين إليه ، وهو سبحانه وتعالىٰ لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده ، حتىٰ يكون رجاؤه مبطلاً لذلك» ثم قال أيضاً : «وأما كون الرجاء اعتراضاً علىٰ ما سبق به الحكم : فليس كذلك؛ بل تعلقاً بما سبق به الحكم ، فإنه إنما يرجو فضلاً وإحساناً ، ورحمة سبق بها القضاء والقدر ، وجعل الرجاء أحد اسباب حصولها ، فليس الرجاء اعتراضاً علىٰ القدر ولا معارضة للقدر؛ بل طلباً لما سبق به القدر»(٢).

---

(١) المدارج ١/ ١٩٦.

(٢) المدارج ٢/ ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٦ ، ومنازل السائرين ٣٤.

- وعارضه بقوله : «إن التوكل في طريق الخاصة عمىٰ عن التوحيد ورجوع إلىٰ الأسباب» فقال : «فقوله : إن التوكل في طريق....» خطأ محض؛ بل التوكل : حقيقة التوحيد ، ولا يتم التوحيد إلا به ، وقد تقدم في باب التوكل بيان ذلك»(١).

- وعارضه عند قوله : «المتوكل - وإن رفض الأسباب - واقف مع توكله» فقال: «فيقال : إن وقف مع توكله امتثالاً لأمر الله ، وأداءً لحق عبوديته معتقداً : أن الله هو الذي مَنَّ عليه بالتوكل ، وأقامه فيه ، وجعله سبباً موصلاً له إلىٰ مطلوبه ، فنعم الوقوف وقف وما أحسنه من وقوف.

وإن وقف معه اعتقاداً أن بنفس توكله وعمله يصل ، مع قطع النظر عن فضل ربه وإعانته ، ومَنّه عليه بالتوكل : فهو وقوف منقطع عن الله» (٢).

- وعارضه أيضاً عند قوله : «إن التوكل بدل من الأسباب التي رفضها ، فالمتوكل متنقل من سبب إلىٰ سبب» فقال : «يقال له : إن كانت الأسباب التي رفضها غير مأمور بها. فالتوكل المجرد خير منها. وإن كانت مأموراً بها ، فرفضه لها إلىٰ التوكل معصية وخروج عن الأمر» (٣).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٧٨ ، وانظر : علل المقامات ٢٩٢.

(٢) المدارج ٣/ ٤٧٩ ، وانظر : علل المقامات ٢٩٢.

(٣) المدارج ٣/ ٤٧٩ ، وانظر : الإحالة السابقة على علل المقامات ، وانظر أيضاً : قول ابن العريف والرد عليه في كتاب التحفة العراقية ٣٣٦ ، وطريق الهجرتين ص٣٨٥- ٣٩٨.

- وعارضه عند قوله : «ولا في التوكل سبباً» فقال : «يريد : أنك تجرد التوكل عن الأسباب ، فإن أراد تجريده عن القيام بها : فباطل كما تقدم. وإن أراد تجريده عن الركون إليها ، والوقوف معها والوثوق بها : فهو حق. وإن أراد تجريده عن شهودها : فشهودها علىٰ ما هي عليه أكمل ، ولا يقدح في التوحيد بوجه ما»(١).

- وعارضه في باب التوكل عند قوله : «وغض العين عن التسبب ، اجتهاداً في تصحيح التوكل» فقال بعد بيان معنىٰ كلامه : «وهذا الذي أشار إليه : مذهب قوم من العباد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد... فدرجتهم ناقصة عن العارفين ، ومع هذا فلا يمكن بشراً ألبتة ترك الأسباب جملة... فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً»(٢).

- وعارضه في باب التوكل أيضاً عند قوله : «لأن الحق قد وكل الأمور إلىٰ نفسه ، وأيأس العالم من ملك شيء منها» فقال : «جوابه : إن الذي تولىٰ ذلك أسند إلىٰ عباده كسباً وفعلاً وإقداراً ، واختياراً ، وأمراً ، ونهياً ، استعبدهم به ، وامتحن من يطيعه ممن يعصيه ، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه وأمر بتوكلهم عليه... وأخبر :أنه يحب المتوكلين... وأخبر أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه ، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه... فانظر إلىٰ هذا الجزاء الذي حصل

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٣ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ١٣٣ و ١٣٤ ، وانظر: ٢/ ١٨ - ١٢٠ ، ومنازل السائرين ٤٤.

للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل علىٰ أن التوكل أقوىٰ السبل عنده وأوجبها إليه، وليس كونه وكل الأمور إلىٰ نفسه بمناف لتوكل العبد عليه؛ بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلىٰ نفسه «ثم بين ذلك بقوله: «لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً علىٰ من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يجد بداً من اعتماده عليه، وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه، والتوكل ينشأ من هذين العلمين»[1].

* * *

(١) المدارج ٢/ ١٢٨ و ١٢٩، وانظر: ٢/ ١٣٦ و ١٣٧، ومنازل السائرين ٤٤.

ختام هذه المعارضات

* ختام هذه المعارضات :

تبين مما تقدم أن ابن القيم - رحمه الله - مع حبه للهروي وتقديره له ، إلا أنه لا يقدم علىٰ الحق شيئاً ، فمع اعتذاره للهروي في مواضع كثيرة ، وثنائه عليه يقول : «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله ، ثم نبين ما فيه» (١).

ومع هذا كله فإنه لا يدّعي العصمة لنفسه من الخطأ؛ بل يدعو من اطلع علىٰ كلامه ممن عنده علم أن يرشده ويبين الحقّ.

وحول هذا سيكون ختام هذه المعارضات حيث يقول ابن القيم - رحمه الله - في ختام أحد ردوده علىٰ الهروي : «وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع ، فمن كان عنده فضل علم فليجُدْ به أو فليعذر ، ولا يبادر إلىٰ الإنكار» (٢).

وقال بعد ثناء علىٰ الهروي ومعارضة : «ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأىٰ في كلامنا زيغاً ، أو نقصاً وخطأ ، فلْيُهْدِ إلينا الصواب ، نشكر له سعيه ، ونقابله بالقبول والإذعان والإنقياد والتسليم، والله أعلم وهو الموفق» (٣).

---

(١) المدارج ٢/ ٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٥٢.

(٣) المدارج ٢/ ١٣٧.

وقال في ختام كتابه المدارج : «فيا أيها القارئ له ، لك غنمه وعلىٰ مؤلفه غرمه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله ، ولا تلتفت إلىٰ قائله؛ بل انظر إلىٰ ما قال لا إلىٰ من قال... »(١).

* * *

(١) المدارج ٣/ ٥٢٢.

القسم الثاني

تحقيق كتاب مدارج السالكين

من أول منزلة الذكر إلى آخر منزلة التمكن

فصل

[منزلة الذكر]

منزلة الذكر

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الذكر»[١].

وهي منزلة القوم الكبرىٰ ، التي منها يتزودون ، وفيها يتجرون ، وإليها دائماً يترددون.

والذكر منشور الولاية ، الذي من أعطيه اتصل ، ومن منعه عزل ، وهو قوت قلوب القوم ، الذي[٢] متىٰ فارقها صارت الأجساد[٣] لها قبوراً. وعمارة ديارهم ، فمتىٰ[٤] تعطلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق[٥] ، ودواء أسقامهم ، الذي متىٰ فارقهم انتكست منهم القلوب ، والسبب الواصل ، والعلاقة التي كانت[٦] بينهم وبين علام الغيوب.

---

(١) الذكر : يجيء لمعانٍ كثيرة منها التلفظ باللسان ومنها الصلوات ، ومنها الشكر ، وغيرها. ويقصد به عند السالكين : الخلاص من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق. انظر : معجم اصطلاحات الصوفية ٢٧٧ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٥٣ و ١٥٤.

(٢) في ج ح ق : «التي».

(٣) سقط من ح ب م إلى قوله : «بورا».

(٤) في الجميع عدا م : «التي إذا».

(٥) في ط : «الطريق».

(٦) «كانت» ساقطة من م.

إذا مرضْنَا تَدَاوينا بذكرِكُمُ فنتركُ الذِّكرَ أحياناً فننتكِسُ[١]

من فوائد الذكر

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به[٢] المصيبات. إذا أظلهم البلاء، فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلىٰ المذكور؛ بل يعيد[٣] الذاكر مذكوراً.

وعلىٰ[٤] كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة؛ بل هم مأمورون[٥] بذكر معبودهم و محبوبهم في كل حال قياماً، وقعوداً، وعلىٰ جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً: ازداد[٦] لمذكوره محبته[٧] وإلىٰ

---

(١) لم أجده وذكره ابن القيم في كتابه الوابل الصيب ١٥٤.

(٢) «به» ساقطة من ق وفي م: «المصائب».

(٣) في الجميع عدا م ش: «يدع».

(٤) في ط: «وفي».

(٥) في ط ب ح أ: «يأمرون».

(٦) في أ: «لمذكور» وفي البقية عدا ق: «المذكور».

(٧) في البقية عدا أ م: «محبة إلى».

لقائه[1] اشتياقاً ، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه : نسي في جنب ذكره كل شيء ، [وحفظ الله عليه كل شيء] [2]. وكان له عوضاً من كل شيء. به يزول الوقر عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتنقشع الظلمة عن الأبصار زين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين ، فاللسان الغافل : كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري[3] - رحمه الله -[4] : « تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، و[5] الذكر ، وقراءة القرآن. فإن وجدتم ، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق » .

وبالذكر يصرع العبد الشيطان ، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

---

(١) في ط زيادة «واو».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، واسم أبيه يسار من أهل بيسان فسبي ، فهو مولى الأنصار ، ولد الحسن في خلافة عمر وحنكه عمر بيده ، كان - رحمه الله - كثير العلم والعمل. توفي سنة ١١٠هـ. انظر : البداية والنهاية ٩/ ٢٦٦ و ٢٦٧ ، وصفة الصفوة ٣/ ٢٣٣-٢٣٧ ، وحلية الأولياء ٢/ ١٣١-١٦١.

(٤) في ق : «ففقدوا الحلاوة» وفي ج : «تفقد الحلاوة». وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ٢٢٤.

(٥) في ط زيادة : «في».

قال بعض السلف : إذا تمكن الذكر من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صُرِع[1] - كما يُصرع[2] الإنسان إذا دنا منه الشيطان - فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا؟ فيقال : قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن[3] الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه.

فصل

الذكر في القرآن على عشرة أوجه

وهو في القرآن علىٰ عشرة أوجه :

الأول : الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني : النهي عن ضده من الغفلة والنسيان[4].

الثالث : تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع : الثناء علىٰ أهله ، والإخبار بما أعدَّ [الله][5] لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس : الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

---

(١) في ط : «صرعه» وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص٢٢٥ ، وانظر الوابل الصيب ص١٨٥ و١٨٦ ، وآكام المرجان في أحكام الجان ٢٤٣.

(٢) في ق ج زيادة : «الشيطان» ثم سقط من ج قوله : «إذا دنا منه الشيطان».

(٣) في أ : «عنه».

(٤) في أ زيادة : «النهي لا ضده من الغفلة» وهي غير ملائمة.

(٥) الزيادة من أ ب ط.

السادس: أنه [1] جعل ذكره سبحانه لهم [2] جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولوا الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتىٰ عدمته كانت كالجسد بلا روح.

فصل [3]

الاستدلال والتفصيل على أن الذكر يأتي على عشرة أوجه

في تفصيل ذلك:

أما الأول [4]: فقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]، وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفيه قولان [5]:

---

(١) «جعل ذكره» ساقطة من ق.

(٢) «لهم» ساقطة من ج.

(٣) «فصل» ساقطة من أ. وفي ش كتب في الهامش: «بلغ والحمد لله».

(٤) في س: «قوله» وط: «فكقوله».

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٢.

أحدهما : في سرِّك وقلبك.

والثاني : بلسانك بحيث تسمع نفسك.

وأما النهي عن ضده[1] فكقوله : ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2] [الحشر :١٩]. وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه. فكقوله : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال : ٤٥].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم. فكقوله : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥].

وأما خسران من لها عنه فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩].

وأما جعل[3] ذكره لهم جزاء لذكرهم[4] [له] فكقوله : ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة : ١٥٢].

---

(١) في س : «فلقوله».

(٢) في ط زيادة : «وقوله».

(٣) في ق : «الذكر».

(٤) الزيادة من م وهي في ط.

وأما الإخبار [عنه](١) بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن(٢) المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سرُّ الطاعات وروحُها.

الثاني: أن المعنىٰ: أنكم إذا ذكرتموه ذَكَرَكُم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل، وعلىٰ الأول مضاف إلىٰ المذكور.

الثالث: أن المعنىٰ: ولذكر الله أكبر من أن تبقىٰ(٣) معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تم الذكر: محق كل(٤) معصية وكل خطيئة؛ هذا ما ذكره المفسرون(٥) وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - (٦) يقول: معنىٰ الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين: من فوائد الصلاة

(١) الزيادة من أ غ ح ج وهي في ط.

(٢) «لأن المقصود بالطاعات» ساقطة من غ أ ب.

(٣) في البقية عدا س «يبقى».

(٤) في ط أ غ ج ب: «كل خطيئة ومعصية».

(٥) انظر مثالاً لذلك في زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ١٣٩ و ١٤٠.

(٦) في ط: «في قوله» وانظر قوله في: مجموع الفتاوى ١٠/ ٧٥٣. وهذا هو القول الرابع كما ذكره المفسرون.

إحداهما: نهيها عن المنكر.

والثانية: اشتمالها علىٰ ذكر الله، وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وختم به الحج بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وختم به الجمعة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] ولهذا(١) إذا كان خاتمة الحياة الدنيا، و[إذا كان](٢) آخر كلام العبد أدخله [الله](٣) الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولوا الألباب والعقول، فكقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:

---

(١) سقط من أ ب غ م ط قوله: «إذا».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س.

(٣) الزيادة من ح أ غ ب ق.

١٩٠-١٩١]. وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها، فإنه سبحانه قرنه بالصلاة، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه؛ بل هو روح الحج، ولُبّه ومقصوده، كما قال [النبي][1] ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار: لإقامة ذكر الله»[2]. وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وفي أثر إلهي يقول الله تعالىٰ: «إن عبدي - كل عبدي - الذي[3] يذكرني وهو ملاق[4] قِرْنه»[5] سمعت[6] شيخ

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س م.

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عائشة - رضي الله عنها - ٦/ ٦٤، وأبو داود في السنن، كتاب المناسك، باب في الرمل رقم (ح١٨٨٨) ٢/ ٤٤٧، والترمذي في كتاب الحج، باب ما جاء كيف ترمي الجمار حديث (٩٠٢) وقال حسن صحيح ٣/ ٢٤٦، والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي المستدرك وبذيله التلخيص للذهبي ١/ ٤٥٩.

(٣) في س: «للذي».

(٤) في س ش: «ملاقي».

(٥) الحديث رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (١١٩) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوي، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث الواحد. ومعنى قوله: وهو ملاق قرنه، إنما يعني عند القتال، يعني أن يذكر الله في تلك الساعة». سنن الترمذي ٥/ ٥٧٠ (ح٣٥٨٠).

(٦) في م ج: «وسمعت» والأنسب ما أثبت.

الإسلام[١] ابن تيمية - رحمه الله - يستشهد به ، وسمعته يقول : المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال ، كما قال عنترة[٢] :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها ... أشطان بئر[٣] في لبان الأدهم[٤]

وقال الآخر :

ذكرتك والخطِّيُّ يخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة[٥] السمر[٦]

وقال الآخر[٧] :

---

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني ، ولد بحران سنة ٦٦١هـ ثم انتقل به والده إلى الشام سنة ٦٦٧ وتوفي - رحمه الله - في قلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. انظر : الأعلام ١/ ١٤٠ ، والبداية والنهاية ١٤/ ١٣٥-١٤٠ ، وكتاب حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لمؤلفه محمد بهجت البيطار.

(٢) هو عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك العبسي ، من الشعراء المشهورين ، ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، توفي قبل الهجرة. انظر : الأعلام ٥/ ٢٦٩ ، والبداية والنهاية ٢/ ٢٢٠.

(٣) في س : «تبر».

(٤) اللبان : الصدر ، والأشطان : جمع شطن وهو حبل البئر. ويقصد أن الرماح في صدر فرسه كأنها الحبال الطويلة. انظر: البيت في شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ١٨٢.

(٥) في س : «المثقفة» ومعنى المثقفة أي الرماح. والخطِّي : الرمّح. انظر مختار الصحاح ص١٨٠.

(٦) البيت ذكره المؤلف في كتابه روضة المحبين ٢٧٢ ، وذكره صاحب كتاب مغني اللبيب وقال في هامشه ص٥٥٧ البيت لأبي عطاء السندي أفلح بن يسار.

(٧) في س ط : «قال آخر».

ولقد ذكرتك والرماح شواجر نحوي وبيض الهند تقطر من دمي[١]

وهذا كثير في أشعارهم، وهو مما يدل علىٰ قوة المحبة؛ فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال - التي لا يهم المرء غير نفسه - يدل علىٰ أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها، وهذا دليل [علىٰ][٢] صدق المحبة والله أعلم[٣].

فصل

الذاكرون هم أهل السبق

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روىٰ[٤] مسلم في صحيحه من حديث العلاء[٥] عن أبيه[٦] عن أبي هريرة[٧] - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ

---

(١) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ١٩١ وفيه نواهل بدلاً من شواجر، ومني بدلاً من نحوي، وجمهرة أشعار العرب ٢١٩.

(٢) الزيادة من أ ب غ ح.

(٣) سقط من س: «والله أعلم».

(٤) هو الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ولد عام ٢٠٤ وقيل ٢٠٦هـ، وهو صاحب الصحيح المشهور بصحيح مسلم، توفي - رحمه الله - سنة ٢٦١هـ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٣٣-٣٥.

(٥) أبو نصر العلاء بن زياد بن مطر العدوي البصري، روى عن أبيه زياد وأبي هريرة وعمران بن حصين وغيرهم، وروى عنه قتادة ومطر الوراق وحماد بن زيد وغيرهم، انظر: تهذيب التهذيب ٨/ ١٦١، والتاريخ الكبير ٦/ ٥٠٧.

(٦) هو زياد بن مطر العدوي سمع عمر وروى عنه ابنه العلاء وحميد بن هلال. انظر: التاريخ الكبير ٣/ ٣٧١، والجرح والتعديل ٣/ ٥٤٣.

(٧) هو الصحابي الجليل عبدالرحمن بن صخر الدوسي، وقد اختلفوا في اسمه وهو من أكثر

يسير في طريق مكة[1] فمر على جبل[2] يقال له[3]: جُمدان[4] فقال: «سيروا هذا جُمدان سبق المفردون». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[5].

والمفردون: إما الموحدون، وإما الآحاد الفرادى[6].

وفي المسند مرفوعاً من حديث[7] أبي الدرداء - رضي الله عنه -: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها[8] في درجاتكم، وخير

الصحابة رواية للحديث عن النبي ﷺ، توفي - رضي الله عنه - سنة ٥٩هـ وقيل غير ذلك. انظر: البداية والنهاية ٨/ ١٠٣-١١٥، والإصابة ٤/ ١٦٣ (٥١٣٢).

(١) سقط من ج: «فمر».

(٢) في أ س غ ط ح: «جبال».

(٣) جمدان: جبل بالحجاز بين قديد وعسفان من منازل بني سليم. معجم ما استعجم للأندلسي ٢/ ٣٩١.

(٤) في ج: «وقال».

(٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/ ٢٠٦٢ رقم (٢٦٧٦).

(٦) في ح: «الأفراد» وفي ش: «الفراده» ولعل الصواب ما أثبت، وفي هامش ش: «قال ابن الأعرابي بشدّه إذا تفقه واعتزل الذاكر وخلا وحده مراعياً أمر الله ونهيه...» ثم كلام غير واضح ثم قال: «وقيل غيره»، وانظر هذا المعنى في: شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٣٥٣.

(٧) هو الصحابي عويمر بن عامر - على خلاف في اسمه واسم أبيه - ابن قيس الأنصاري الخزرجي، أسلم يوم بدر، وقد اختلفوا في وفاته والأصح أنه مات في خلافة عثمان - رضي الله عنهما -. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٤٦.

(٨) سقط من م: «وأرفعها في درجاتكم».

لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا[١]: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله [عز وجل]»[٢][٣].

وروى[٤] شعبة عن[٥] أبي إسحاق قال: سمعت[٦] الأغر قال: أشهد على أبي هريرة[٧] وأبي سعيد - رضي الله عنهما -، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ

---

(١) الواو ساقطة من ب.

(٢) الزيادة من أ ب ح س وهي في المسند لأحمد.

(٣) رواه أحمد في المسند ٦/ ٤٤٧ بلفظ: «ألا أخبركم»، والترمذي في السنن كتاب الدعاء الباب السادس من فضل الذكر حديث رقم (٣٣٧٧) ٥/ ٤٥٩، وابن ماجه في السنن، كتاب الأدب باب فضل الذكر حديث (٣٧٩٠) ٢/ ١٢٤٥، وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٩٦، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ١٧٢ و ١٧٣ (ح٢٨٨٦)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، مجمع الزوائد ١٠/ ٧٦.

(٤) أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي العتكي الواسطي وهو أول من جرّح وعدّل توفي سنة ١٦٠هـ. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢ - ٢٢٨ (٨٠).

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن مسلم العبري الكوفي المعروف بالهجري، روى عن عبدالله بن أبي أوفى وأبي الأحوص وغيرهم، قال ابن حجر وأكثر ما يجيء هذا في الروايات بكنيته أبو إسحاق الهجري. تهذيب التهذيب ١/ ١٤٣ و١٤٤، والجرح والتعديل ٢/ ١٣١ و ١٣٢.

(٦) الأغر هو أبو مسلم سمع أبا هريرة وأبا سعيد وروى عنه أبو إسحاق الهمداني، قال عنه ابن حجر في التقريب: الأغر أبو مسلم المديني نزيل الكوفة ثقة من الثالثة وهو غير سلمان الأغر. انظر: التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٤٤، وتقريب التهذيب ١/ ٨٢.

(٧) هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل من فقهاء الصحابة، شهد

قال[1]: لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2]. وهو في صحيح مسلم.

من فوائد الذكر وشرفه

ويكفي في شرف[3] الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما[4] في الصحيح عن[5] معاوية: «أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه[6] فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «أما[7] إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل - عليه السلام - فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»[8].

مع الرسول ﷺ ثنتي عشرة غزوة، وروى عنه أحاديث كثيرة، مات سنة ٤٤هـ وقيل ٦٤هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٨٥ و ٨٦، والبداية والنهاية ٩/ ٣ و ٤.

(١) في ق: «فقال».

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر حديث رقم (٢٧٠٠) ٣/ ٢٠٧٤.

(٣) في ق: «الذاكر».

(٤) في ق: «وفي».

(٥) هو الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، أسلم عام الفتح، وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، توفي - رضي الله عنه - سنة ٦٠ من الهجرة. انظر: البداية والنهاية ٨/ ١١٧-١٤٣.

(٦) «الباء» ساقطة من أ غ ح ب.

(٧) في ق: «أما أنا».

(٨) رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم (٢٧٠١) ٣/ ٢٠٧٥.

وسأل أعرابي رسول الله ﷺ : «أي الأعمال أفضل؟ » فقال : « أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[1].

وقال له رجل : إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ ، فمرني بشيء[2] ، أتشبث[3] به ، فقال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» [4].

وفي المسند وغيره من حديث جابر[5] ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : «يا أيها الناس ارتعوا [6] في رياض الجنة » ، قلنا : يا رسول الله ، وما

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - بلفظ : «أي الأعمال أحب» صحيح ابن حبان ٢/ ٩٣ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٧٧ وقال رواه الطبراني بأسانيد وفي هذه الطريق خالد بن يزيد بن عبدالرحمن بن مالك وضعفه جماعة ، ووثقه أبوزرعة الدمشقي وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، ورواه البزار من غير طريقه إلا أنه قال : «أخبرني بأفضل الأعمال وأقربه إلى الله» وإسناده حسن وقد صححه الألباني ، انظر : مشكاة المصابيح ٢/ ٧٠٢ (ح٢٢٧٠).

(٢) في ط س م غ ب أ : «بأمر».

(٣) « به» ساقطة من ق.

(٤) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٨٨ ، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٩٢ ، والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي صحيح ، المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٩٥.

(٥) هو جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري ثم السلمي صحابي ابن صحابي غزا تسع عشرة عزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين. تقريب التهذيب ١/ ١٢٢ والإصابة ١/ ٢٢٢ و ٢٢٣.

(٦) الرتع : جاء مفسراً في رواية الترمذي : «قلت : وما الرتع يا رسول الله؟ قال : سبحان الله

رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»[1].

وقال[2]: «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله[3] فلينظر[4] كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[5].

وروى النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ[6] أنه قال [له][7]: «اقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن

والحمد ولا إله إلا الله والله أكبر ٥/٥٣٢ (٣٥١٠).

وقال ابن الأثير: أراد برياض الجنة ذكر الله وشبه الخوض فيه بالرتع في الخصب. النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٩٤.

(١) الحديث رواه الحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مستدرك الحاكم ١/ ٦٧١، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٩٨، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٩٨، وعبد بن حميد في مسنده. انظر: المنتخب من مسند عبد بن حميد ص٣٣٣ رقم(١١٠٨) وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١٢١ والحديث عن جابر فيه عمرو بن عبدالله مولى عفرة بنت رباح منهم من وثقه ومنهم من تكلم فيه. انظر: المجروحين لابن حبان ٢/ ٨١، ومجمع الزوائد ١٠/ ٨.ورواه الترمذي عن أبي هريرة وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ مقارب وقال: هذا حديث حسن غريب ٥/ ٥٣٢(ح٣٥٠٩) و(٣٥١٠).

(٢) الواو ساقة من م ق.

(٣) «عند الله» ساقطة من أ ب.

(٤) «كيف» ساقطة من ج.

(٥) هو إكمال الحديث المتقدم.

(٦) في ط زيادة: «ليلة الإسراء».

(٧) الزيادة من أ ح ج ب.

غراسها : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر»[1].

رواه الترمذي[2] ، وأحمد[3] وغيرهما.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ - رضي الله عنه - ، عن النبي ﷺ : «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»[4]. ولفظ مسلم :

---

(١) رواه الترمذي في السنن كتاب الدعوات ، الباب التاسع والخمسون رقم الحديث (٣٤٦٢) ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود ، سنن الترمذي ٥/ ٥١٠ ، وأحمد في المسند ٥/ ٤١٨ ، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٧٣ رقم (١٠٣٦٣). وقال الهيثمي رواه الترمذي باختصار «لاحول ولا قوة إلا بالله» ورواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبدالرحمن بن إسحاق أبو شيبة الكوفي وهو ضعيف ١٠/ ٩٤ ، وأورده الهيثمي بلفظ مقارب ثم قال : رواه أحمد والطبراني ثم أورد رواية أخرى بنحو ما ذكر وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة لم يتكلم فيه أحمد ووثقه ابن حبان : مجمع الزوائد ١٠/ ١٠٠.

(٢) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي أحد أئمة الحديث وهو صاحب السنن المعروفة ولد سنة ٢٠٩ وقيل ٢١٠هـ وتوفي عام ٢٧٩هـ.
انظر: البداية والنهاية ١١/ ٦٦ و ٦٧، والأعلام ٧/ ٢١٣، ومعجم المؤلفين ١١/ ١٠٤ و١٠٥.

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أحد الأئمة ثقة حافظ فقيه مات سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. انظر : تقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٢٤ ، وصفة الصفوة ٢/ ٣٣٦-٣٥٩.

(٤) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله عزّ وجلّ ٧/ ١٦٨ ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد ١/ ٥٣٩ (٧٧٩).

«مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لايذكر الله فيه مثل الحي والميت». فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر.

وفي اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحي، والغافل بمنزلة الميت. فتضمن اللفظان: أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات.

ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيانُ ذكرِ الله موتُ قلوبِهِمْ وأجسامُهمْ قبلَ القُبورِ قُبورُ
وأرواحُهم في وحشة من وليس لهم حتّىٰ النُّشورِ نُشورُ(١)

وكما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور الدوارس(٢)
وأرواحهم في وحشة من حبيبهم ولكنها عند الحبيب(٣) أوانس(٤)

وفي أثر إلهي: [يقول الله تعالىٰ](٥): «إذا كان الغالب علىٰ عبدي ذكري

---

(١) النشور: هو البعث والحياة بعد الموت. انظر: النهاية في غريب الحديث ٥/ ٥٤.

(٢) قال في لسان العرب: «درسته الريح تدرسه درساً أي: محته» ٦/ ٧٩.

(٣) في ج: «الحبيب».

(٤) لم أجدها.

(٥) الزيادة من الجميع عدا ق.

أحبني وأحببته»[١]. وفي آخر: «فبي فافرحوا، وبذكري فتنعموا»[٢].

وفي آخر: «ابن آدم، ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، وأدعوك وتهرب[٣] إلىٰ غيري، وأُذهِبُ عنك البلايا، وأنت معتكف علىٰ الخطايا، يا ابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني»[٤].

وفي آخر: «ابن آدم، اذكرني[٥] حين تغضب، أذكرك حين أغضب وارض بنصرتي لك، فإنَّ نُصرتي لك خير من نصرتك لنفسك»[٦].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن الحسن بلفظ: «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي» ثم قال هذا الحديث خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن لمكان محمد بن الفضل وعبدالواحد، وما يرجعان إليه من الضعف. حلية الأولياء ٦/ ١٦٥.

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية عن محمد بن النضر الحارثي قال: قرأت في بعض الكتب ايها الصديقون بي فافرحوا وبذكري فتنعموا. حلية الأولياء ٨/ ٢١٧، وذكره أيضاً في موضع آخر وفيه سمعت صالح بن عبدالجليل يقول فذكره بلفظ وبقربي فتنعموا. حلية الأولياء ٩/ ٢٥٥.

(٣) في ب: «فتهرب».

(٤) ورد بلفظ: «أخلقك وأرزقك وتعبد غيري» ذكره أبو يعلى في كتاب الإرشاد في معرفة علماء الحديث لأبي يعلى ٣/ ٩٥٠. والحديث في إسناده نوفل بن سليمان الهنايء قال عنه ابن حجر ضعيف الحديث. انظر: لسان الميزان لابن حجر ٦/ ١٧٥ (٦١٩). وقد ذكره المؤلف في كتابه روضة المحبين ٤٤٠، وزاد المعاد ٢/ ٤٠٩ و٤١٠.

(٥) في غ م كرر: «ابن آدم اذكرني».

(٦) ذكره أبو نعيم في الحلية بسنده عن طلق بن حبيب قال: مكتوب في الإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب ولا أمحقك فيمن أمحق...» ٣/ ٦٥.

وفي الصحيح : في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالىٰ : «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(١).

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتاب : الوابل الصيب(٢) ورافع الكلم(٣) الطيب [وذكرنا هناك أسرار الذكر ، وعظيم(٤)نفعه ، وطيب ثمرته ، وذكرنا فيه](٥) أن الذكر ثلاثة أنواع :

- ذكر الأسماء والصفات ومعانيها ، والثناء علىٰ الله بها ، وتوحيد الله بها.
- وذكر الأمر والنهي ، والحلال والحرام.
- وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي.

ومثله عن أبي إدريس عائذ الله ٥/ ١٢٤ . وذكره عن خالد بن معدان وأوله قال الله تعالى : «يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي» الحلية ٥/ ٢١٥.

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ، وقوله جل ذكره : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ٨/ ١٧١ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله تعالى ٣/ ٢٠٦١ (٢٦٧٥).

(٢) «كتاب» ساقطة من أ غ ح ب. وانظر : الوابل الصيب ص٩١ وما بعدها.

(٣) في ب : «العلم».

(٤) في ط : «وعظم».

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من : أ.

وأنه ثلاثة أنواع أيضاً[1] :

ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان ، وهو أعلاها.

وذكر بالقلب وحده ، وهو في الدرجة الثانية.

وذكر باللسان المجرد ، وهو في الدرجة الثالثة[2] .

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -[3] : «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف : ٢٤] يَعني : إِذَا نَسِيتَ غَيرَهُ ، وَنَسِيتَ نَفسَكَ فِي ذِكرِكَ ، ثُمَّ نَسِيتَ ذِكرَكَ فِي ذِكرِكَ[4] ، ثُمَّ نَسِيتَ ذِكرَ الحَقِّ إِيَّاكَ كلَّ ذِكرٍ».

ليته - قدس الله روحه - لم يقل : يعني[5] فلا والله ما عنىٰ الله هذا المعنىٰ ولا هو مراد الآية ، ولا تفسيرها عند أحد من السلف والخلف[6].

وتفسير الآية ، عند جماعة المفسرين : أنك[7] لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا

(١) «أيضاً» ساقطة من أ غ ح ب.

(٢) انظر الوابل الصيب ص١٨٧-١٩٠.

(٣) انظر منازل السائرين ٧٠.

(٤) «ذكرك» ساقطة من م والبقية «ذكره» والمثبت كما في ش وقد وافقت كتاب المنازل.

(٥) «يعني» ساقطة من أ غ س ط ح وفي ق : «لم يقله» والمثبت أصح.

(٦) في ط : «ولا من».

(٧) « لا » ساقطة من ق.

تفسير قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾

حتىٰ تقول : إن شاء الله. فإذا نسيت أن تقولها ، فقلها متىٰ ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوَّزه ابن عباس[1]، وتأوَّل عليه الآية ، وهو الصواب.

فغلط عليه من لم يفهم كلامه ، ونقل عنه : أن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق ثلاثاً ، أو قال : نسائي الأربع طوالق ، ثم بعد سنة يقول : إلا واحدة ، أو إلا زينب ، أن هذا الاستثناء ينفعه.

وقد صان الله عن هذا من هو دون غلمان ابن عباس بكثير ، فضلاً عن البحر حَبْر الأمة وعالمها ، الذي فقهه الله[2] في الدين وعلمه التأويل وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة ، عن العلماء بالأفهام القاصرة. ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً ، وإن ساعد الله أفردنا[3] له كتاباً.

والذي أجمع عليه المفسرون : أن أهل مكة سألوا [النبي ﷺ][4] عن الروح، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، فقال : «أخبركم غداً»

---

(١) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث وقيل: خمس توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٦٥هـ وقيل سبع وقيل ثمان وهو الصحيح. الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٩٠-٩٤.

وقوله بجواز الاستثناء ولو بعد عام إذا نسي ، ذكره ابن كثير في تفسيره ٣/ ٨٤ ، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٧٧.

(٢) «الله» ساقطة من م.

(٣) في أ ب : «عليه كتاباً» وفي ق : «ساعدنا الله».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م .

ولم يقل : إن شاء الله[1] فلبث الوحي أياماً . ثم نزلت هذه الآية. قال ابن عباس ومجاهد[2] والحسن[3] وغيرهم : معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ويجوز الاستثناء إلىٰ سنة.

[4] وقال عكرمة[5] - رحمه الله - : واذكر ربك إذا غضبت.

وقال الضحاك[6] والسدي[7] : هذا في الصلاة.

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره وفيه : «ولم يستثن» بدلاً من : « ولم يقل» ١٥/ ١٩٢ ، ودلائل النبوة للأصبهاني ٢/ ٢١٦.
وقال روى ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ثم ذكره. وذكره ابن حجر في الفتح ٢/ ٧١٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٧٦ و ٣٧٧.

(٢) أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي ثقة إمام في التفسير وفي العلم مات سنة ١٠٤هـ ، وقيل غير ذلك وله ثلاث وثمانون سنة. تقريب التهذيب ٢/ ٢٢٩ (٩٢٢).

(٣) هو الحسن البصري وتقدمت ترجمته ص٢٥٣١.

(٤) الواو ساقطة من ق.

(٥) أبو عبد الله عكرمة بن عبدالله البربري المدني مولى ابن عباس أصله من البربر من علماء التابعين ، وثقه سائر أئمة الحديث ، مات سنة ١٠٧هـ. انظر : تقريب التهذيب ٢/ ٣٠ (٢٧٧) ، وتهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٣ - ٢٧٣ (٤٧٥).

(٦) هو أبو القاسم ، ويقال: أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني ، حملت أمه به سنتين ووضعته وله أسنان ، وكان - رحمه الله - إماماً في التفسير ، مات سنة خمس وقيل: ست ومائة. انظر : البداية والنهاية ٩/ ٢٢٣ ، وتقريب التهذيب ١/ ٣٧٣.

(٧) هو المفسر أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة الحجازي ثم الكوفي ، أخرج

أي[1] : إذا نسيت الصلاة فصلها متىٰ ذكرتها.

وأما كلام صاحب المنازل : فيحمل علىٰ الإشارة ، لا علىٰ التفسير ، فذكر - رحمه الله - أربع مراتب :

أحدها[2] : أن ينسىٰ غير الله ، ولا ينسىٰ نفسه؛ لأنه ناسٍ لغيره ، ولا يكون ناسياً إلا ونفسه باقية ، يعلم[3] أنه ناس بها لما سوىٰ المذكور.

الثانية : نسيان نفسه في ذكره ، وهي التي عبر عنها بقوله : «وَنَسِيتَ نَفسَكَ[4] فِي ذِكرِكَ».

وفي هذه المرتبة : ذكره معه لم ينسه.

فقال في المرتبة الثالثة : «ثُمَّ نَسِيتَ ذِكرَكَ فِي ذِكرِهِ» وهي مرتبة الفناء[5] ثم

له مسلم وأصحاب السنن ولقب بالسدي لأنه كان يقعد في سدة باب الجامع توفي سنة ١٢٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٤-٢٦٥ (١٢٤).

(١) «أي» ساقطة من غ ، وانظر الأقوال السابقة في الدر المنثور ٥/ ٣٧٧ و ٣٧٨ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٤.

(٢) في ط : «إحداها».

(٣) في م : «تعلم».

(٤) في ش : «ونسيت في نفسك ذكرك» والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٥) الفناء في اللغة : الهلاك والزوال. انظر : مختار الصحاح ٥١٣ ، والمصباح المنير ٤٨٢.

والفناء في اصطلاح الصوفية : يأتي على ثلاثة أنواع كما ذكرها ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهي :

الأول : الفناء عن عبادة ما سوى الله .

قال في المرتبة الرابعة : «ثُمَّ نَسِيتَ فِي ذِكرِ الحَقِّ إيَّاكَ كُلَّ ذِكرٍ». وهذا الفناء بذكر الحق عبده (١) عن ذكر العبد ربه.

فأما المرتبة الأولىٰ : فهي أول درجات الذكر.

وهي : أن تنسىٰ غير المذكور ، ولا تنسىٰ نفسك في الذكر.

وفي هذه المرتبة : لم يذكره (٢) بتمام الذكر ، إذ لتمامه مرتبتان فوقه.

إحداهما : نسيان نفسه ، وهي المرتبة الثانية ، فيغيب بذكره عن نفسه ، فيعدم إدراكها بوجدان المذكور.

الثانية : نسيان ذكره [في ذكره] (٣) كما سئل ذو النون - رحمه الله - (٤) عن الذكر؟ فقال : غيبة الذاكر عن الذكر ، ثم أنشد :

والثاني : الفناء عن شهود ما سوى الله .

والثالث : وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق.

انظر : الاستقامة ٢/ ١٤٢ و١٤٣ ، ومجموع الفتاوى ١٠/ ٣٣٧-٣٤٣. وانظر : مزيداً عن ذلك في معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ٣٦٥ و ٣٦٦ ، واللمع للطوسي ٥٤٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٤٧٩ و٤٨٠.

(١) في م ق : «عنده».

(٢) في ح : «لم يذكر» و م : «تذكره».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذي النون المصري ، أسند أحاديث كثيرة ، وقد توفي بالجيزة في يوم الإثنين سنة خمس وقيل: ٢٤٦هـ. انظر : صفة الصفوة ٤/ ٣١٥ - ٣٢١ (٨٣٩) ، والطبقات الكبرى للشعراني ص١٠٢-١٠٤.

لا لأنِّي أنْساكَ أُكثِرُ ذكْراكَ ولكنْ بذاكَ يجْرِي لِسَاني[١]

وهذه هي المرتبة الثالثة.

ففي الأولى[٢]: فني عما سوىٰ المذكور، ولم يَفْنَ عن نفسه.

وفي الثانية: فني عن نفسه دون ذكره.

وبقي بعد هذا مرتبة رابعة، وهو[٣] أن يفنىٰ بذكر الحق سبحانه له عن كل ذكر، فإنه ما ذكر الله إلا بعد ذكر الله له. فذكر الله للعبد سابق علىٰ ذكر العبد للرب، ففي هذه المرتبة الرابعة يشهد[٤] صفات المذكور سبحانه، وذكره لعبده، فيفنىٰ بذلك عن شهودها من العبد.

وهذا الذي يسمُّونه[٥] وجدانَ المذكور في الذِّكر والذاكر، فإن الذاكر وذكره والمذكور ثلاثة أشياء[٦]، فالذاكر وذكره قد اضمحلاَّ وفَنِيا، ولم يبق غير

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ٢٢٤، وكتاب الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين ٤٠٤.

(٢) في ق: «ففي الأول والثاني».

(٣) في ط م: «وهي».

(٤) في م: «تشهد».

(٥) قالوا عن الوجود: هو إدراك حقيقة الشيء، وهو أصفى مراتب الشهود، فالوجود: وجدان الحق ذاته بذاته، ولهذا تسمى حضرة الجمع حضرة الوجود.

انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٧٤ و ٣٧١. وانظر معاني الكشف في الدرجة الثانية من منزلة الطمأنينة.

(٦) «ثلاثة أشياء» سقطت من م.

المذكور وحده، ولا شيء معه سواه. فهو الذاكر لنفسه بنفسه، من غير حلول ولا اتحاد[1]؛ بل الذكر منه بدأ وإليه يعود.

وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله به صار العبد[2] ذاكراً له، وذكر بعده به[3] صار العبد[4] مذكوراً كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال فيما يروي عنه نبيه[5] ﷺ: **«من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**[6].

والذكر الذي[7] ذكره الله به، بعد ذكره له: نوع غير الذكر الذي ذكره [به][8]

---

(١) **الحلول نوعان**: الأول حلول خاص وهو أن اللاهوت حل في الناسوت. والثاني: حلول عام: وهو أن الله بذاته في كل مكان، والاتحاد نوعان: الأول: اتحاد خاص: وهو أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا وصارا شيئاً واحداً. والثاني: اتحاد عام وهو أنه عين وجود الكائنات تعالى الله عن ذلك. انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/ ١٧١ و ١٧٢، وانظر المدارج ٣/ ٤٤٥، والمعجم الفلسفي ٧٦ و ٢١٢.

(٢) سقطت من م إلى قوله: «مذكوراً».

(٣) «به» ساقطة من ج، ح.

(٤) «العبد» ساقطة من ق.

(٥) في م: «نبينا».

(٦) الحديث تقدم تخريجه ص٢٥٤٨.

(٧) «الذي» ساقطة من أ.

(٨) الزيادة من الجميع.

قبل ذكره له ، ومن كَثُف[1] فهمه عن هذا فليجاوزه إلىٰ غيره. فقد قيل :

إذا لم تَستطِعْ شيئاً فَدَعْه وجَاوِزْه إلىٰ ما تستطيعُ[2]

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يوماً[3] فقلت له[4] : إذا كان الرب سبحانه يرضىٰ بطاعة العبد ، ويفرح بتوبته ، ويغضب من مخالفته ، فهل يجوز أن يؤثر المحدث في القديم حباً وبغضاً وفرحاً وغير ذلك فقال لي[5] : الرب سبحانه هو الذي خلق أسباب الرضىٰ والغضب والفرح ، وإنما كانت بمشيئته وخلقه ، فلم يكن ذلك التأثر[6] من غيره؛ بل من نفسه بنفسه ، والممتنع أن يؤثر غيره فيه ، فهذا محال.

وأما أن يخلق هو أسباباً ويشاؤها ، ويقدرها تقتضي رضاه و محبته وفرحه وغضبه[7] ، فهذا ليس بمحال ، فإن[8] ذلك منه بدأ وإليه يعود.

---

(١) معنى كثف في اللغة أي: غلظ. انظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٥٢ ، ومختار الصحاح ٥٦٤.

(٢) القائل هو عمرو بن معدى كرب. انظر: شعر عمرو بن معدى كرب تحقيق مطاع الطرابيشي ١٤٨.

(٣) «يوماً» ساقطة من ق.

(٤) «له» ساقطة من م.

(٥) «لي» ساقطة من أ غ ح م.

(٦) في ج : «التأثير».

(٧) في م : «وغضبه وفرحه».

(٨) في م سقط : «فإن ذلك» وفيها : «فإنه منه».

فصل

الفرق بين الغفلة والنسيان

قال : «وَالذِّكرُ : هُوَ التَّخَلُّصُ مِنَ الغَفلَةِ والنِّسيَان»[١].

والفرق بين الغفلة والنسيان ، أن الغفلة : ترك باختيار الغافل[٢]. والنسيان : ترك بغير اختياره ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ولم يقل ولا تكن من الناسين ، فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف[٣] فلا ينهىٰ عنه.

درجات الذكر : الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : الذِّكرُ الظَّاهِرُ مِن[٤] ثَنَاءٍ أَو دُعَاءٍ أَو رِعَايَةٍ» يريد[٥] بالظاهر : الجاري علىٰ اللسان ، المطابق للقلب. لا مجرد الذكر اللساني ، فإن القوم لا يعتدون به.

فأما ذكر الثناء فنحو : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده[٦] ، ونظائر ذلك.

وأما ذكر الدعاء فنحو : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) منازل السائرين ٧١.

(٢) في ج : «العاقل».

(٣) في س «التكلف» وفي ج : «التكليف ولا ».

(٤) «من»ساقطة من ط أ ب ح غ.

(٥) في ح : «يريد الظاهر» .

(٦) «سبحان الله وبحمده ونظائر ذلك»ساقطة من الجميع عدا س.

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣]. و «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[١] ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية فمثل قول الذاكر : الله معي ، الله ناظر إليَّ ، الله[٢] شاهدي ، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ، ولحفظ الأدب مع الله ، والتحرز من الغفلة ، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة ، فإنها متضمنة للثناء علىٰ الله والتعرض للدعاء والسؤال[٣] أو التصريح به.

كما في الحديث : «أفضل الدعاء الحمد لله»[٤] قيل لسفيان

(١) الحديث رواه الترمذي في السنن الكبرى ، كتاب الدعوات ، باب ٩٢ ، حديث رقم (٣٥٢٤) وقال : هذا حديث غريب ، وقد روى هذا الحديث عن أنس من غير وجه ، سنن الترمذي ٥/ ٥٣٩ و٥٤٠ ، والحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي قلت : عبدالرحمن لم يسمع من أبيه ، وعبدالرحمن ومن بعده ليسوا بحجة. المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٥٠٩.

(٢) «الله» ساقطة من ج.

(٣) في البقية عدا س : «والتصريح».

(٤) الحديث أوله: «أفضل الذكر» رواه الترمذي في السنن ، كتاب الدعاء ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة. وقال : هذا حديث حسن غريب إلا من حديث موسى بن إبراهيم ٥/ ٤٦٢ (٣٣٨٣) ، والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٩٨ ، وابن ماجه في كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين ٢/ ١٢٤٩ (٣٨٠٠).

بن عيينة[١] كيف جعلها دعاء؟[٢] ، قال : أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت[٣] لعبدالله بن جُدعان[٤] يرجو نائلة :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك؟ إن شيمتَك الحباءُ

إذا أثنىٰ عليك المرءُ يوماً كَفَاه من تعرضه الثناء[٥]

فهذا مخلوق [و][٦] اكتفىٰ من مخلوق بالثناء عليه[٧] من سؤاله ، فكيف برب العالمين[٨].

(١) أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي مولى هلال الكوفي ، سكن مكة ، وكانت ولادته سنة ١٠٧هـ ، وروى عن الزهري وعمرو بن دينار ، وروى عنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم ، مات سنة ١٧٨هـ. انظر : الجرح والتعديل ٤/ ٢٢٥-٢٢٧ ، والتاريخ الكبير ٤/ ٩٤و٩٥ ، وحلية الأولياء ٧/ ٢٧٠-٣١٨.

(٢) «دعاء» ساقطة من ج.

(٣) هو أمية بن أبي الصلت عبدالله بن أبي ربيعة الثقفي شاعر جاهلي أدرك النبي ﷺ ولم يؤمن به، مات بالطائف بعد أن رثى قتلى بدر سنة ٣ من الهجرة.
البداية والنهاية ٢/ ٢٢٠-٢٢٩ ، ومعجم الشعراء في لسان العرب ٦٧.

(٤) هو عبدالله بن جدعان التيمي قرشي مشهور، يجتمع مع أبي بكر الصديق في عمرو بن كعب، مات قبل الإسلام. انظر : الإصابة ٤/ ٤٧ ، البداية والنهاية ٢/ ٢١٧و ٢١٨.

(٥) انظر: مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ١٤١، وبهجة المجالس ٢/ ٥٩٤. وفتح الباري ١١/ ١٤٧.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س و في هامش ش زيادة غير واضحة ومنها : : «كريم لا يغيره صاحبه عن الخلق الجميل».

(٧) «عليه» ساقطة من ج.

(٨) في ط زيادة : «والأذكار النبوية».

ومتضمنه أيضاً لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان [والله أعلم] (١).

فصـــل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الذِّكْرُ الخَفِيُّ (٢)، وَهُوَ الخَلَاصُ مِنَ القُيُودِ، وَالبَقَاءُ مَعَ الشُّهُودِ، وَلُزُومُ المُسَامَرَةِ» (٣).

يريد بالخفي ههنا: الذكر بمجرد القلب بما يعرض له من الواردات، وهذا ثمرة الذكر الأول.

ويريد بالخلاص من القيود: التخلص (٤) من الغفلة والنسيان، والحجب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه.

والبقاء مع الشهود: ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتىٰ كأنه يراه.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س وم.

(٢) في أ زيادة: «الحقيقي وهو شهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكرك له ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع الذكر» وهو ليس من كلام الهروي.

(٣) انظر كلامه في: منازل السائرين ٧١ وفيه: «وهو الخلاص من الفتور» بدل من القيود.

(٤) في ح: «والتخلص».

ولزوم المسامرة [وهي](١) لزوم مناجاة القلب لربه، تملقاً(٢) تارة، وتضرعاً تارة، وثناء تارة واستعطافاً تارة(٣)، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب. وهذا(٤) شأن كل محب وحبيبه.

كما قيل:

إذا ما خَلَونَا والرَّقيبَ بمجلس ... فنحن سُكوتٌ والهوىٰ يتكلَّمُ(٥)

فصـــل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الذِّكرُ الحَقِيقِيُّ. وَهُوَ شُهُودُ ذِكرِ الحَقِّ إِيَّاكَ، وَالتَّخَلُّصُ مِن شُهُودِ ذِكرِكَ، وَمَعرِفَةِ افتِرَاءِ الذَّاكِرِ في بَقَائِهِ مَعَ الذِّكرِ»(٦).

---

(١) الزيادة من ج ق، وفي ط أ غ ب: «هي».

والمسامرة في اللغة: هي الحديث بالليل. مختار الصحاح ٣١٢، وعند الصوفية: هي عتاب الأسرار عند خفي التذكار، كتاب اللمع ٤٢٦. وقال الكاشاني: «محادثة الحق للعبد في سره». معجم اصطلاحات الصوفية ١٠٢.

(٢) التملق: التودد إليه والتلطف له. انظر: مختار الصحاح ٦٣٢.

(٣) في الجميع عدا س ج م: «واستعظاماً».

(٤) في س ج ق: «وهذه».

(٥) في هامش ج كتب: «بلغ». القائل هي جارية الرشيد التي اشتراها من المدينة وشطره الأول كذا:

تكلم منا في الوجوه عيوننا

انظر: البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٠.

(٦) منازل السائرين وفيه: «مع ذكره».

إنما سمي هذا (الذكر) في هذه الدرجة حقيقياً؛ لأنه منسوب إلىٰ الرب تعالىٰ، وأما نسبة الذكر للعبد فليست حقيقية[1]، فذكر الله لعبده هو الذكر الحقيقي، وهو شهود ذكر الحق عبده وأنه ذكره فيمن اختصه وأهّله للقرب منه ولذكره.

فجعله[2] ذاكراً له، ففي الحقيقة: هو الذاكر لنفسه، بأن جعل عبده ذاكراً له، وأهّله لذكره[3]، وهذا المعنىٰ هو الذي[4] أشار إليه في باب التوحيد بقوله:

توحيدُه إيَّاه توحيــدُه ... ونعتُ مــن ينعتُه لاحد[5]

أي هو الذي وحد[6] نفسه في الحقيقة، فتوحيد العبد منسوب إليه حقيقة ونسبته إلىٰ العبد غير حقيقة[7] [له][8] إذْ ذلك[9] لم يكن به[10] ولا منه وإنما هو مجعول فيه، فإن سمي (موحداً ذاكراً) فلكونه مجرىٰ ومحلا لما أجرىٰ فيه،

(١) في أ ج: «حقيقة».

(٢) سقط من م إلى قوله: «وهذا المعنى».

(٣) في ق: «اذكره».

(٤) «الذي» ساقطة من م.

(٥) المنازل ١٣٩.

(٦) في ق: «وحده».

(٧) في ط س ب: «حقيقية».

(٨) الزيادة من ج.

(٩) في البقية عدا س م ق: «إذ ذاك».

(١٠) في أ: «له» بدلاً من: «به».

كما يسمىٰ أبيض وأسود، وطويل وقصير، لكونه محلاً لهذه الصفات لا صنع له فيها، ولم توجبها[١] مشيئته ولا حوله ولا قوته.

هذا مع ما يتصل بذلك من استيلاء القرب[٢] والفناء عن الرسم[٣]، والغيبة بالمشهود عن الشهود وقوة الوارد، فيتركب من ذلك ذوق خاص: أنه ما وحد الله إلا الله، وما ذكر الله إلا الله وما أحب الله إلا الله[٤]. فهذا حقيقة ما عند القوم

فالعارفون[٥] منهم أرباب البصائر أعطوا – مع ذلك – العبودية حقها، والعلم حقه، وعرفوا أن العبد عبد حقيقة من كل وجه، والربُّ ربٌّ حقيقة من كل وجه، وقاموا[٦] بحق العبودية بالله لا بأنفسهم، ولله لا لحظوظهم[٧]، وفنوا بمشاهدة معاني أسمائه وصفاته عما سواه، وبما لَهُ محبةً ورضىٰ عما به كوناً ومشيئة: فإن الكون كله به، والذي له هو محبوبه ومرضيه فهو له وبه[٨].

---

(١) في ط: «توجيهاً».

(٢) «القرب» ساقطة من ق.

(٣) قال في مختار الصحاح ٢٤٣: الرسم الأثر ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض.
وقال الكاشاني: الرَسم هو الخلق وصفاته لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله. معجم اصطلاحات الصوفية ١٦٧.

(٤) سقط من م: «وما أحب الله إلا الله».

(٥) «فالعارفون» ساقطة من ق وفيها: «فإن».

(٦) في س: «أقاموا».

(٧) في ق: «لا لحظوظ».

(٨) في غ ج بدون: «الواو».

والمنحرفون فنوا بما[١] به عما له، فوالوا أعداءه وعطلوا دينه، وسووا بين محابه ومساخطه، ومواقع رضاه وغضبه، والله المستعان.

قوله: «وَ[٢]التَّخَلُّصُ مِن شُهُودِ ذِكرِكَ».

يعني بفناء شهود ذكره [لك][٣] عن شهود ذكرك له، وهذا الشهود يريح العبد من رؤية النفس، وملاحظة العمل. ويميته ويحييه: يميته عن نفسه، ويوصله بربه، ويفنيه ويبقيه[٤]، ويقتطعه من نفسه ويوصله بربه، وهذا عين الظفر بالنفس.

قال بعض العارفين: انتهىٰ سفر الطالبين[٥] إلىٰ الظفر بنفوسهم.

قوله: «وَمَعرِفَةِ افتِرَاءِ الذَّاكِرِ فِي بَقَائِهِ مَعَ الذِّكرِ»[٦].

يعني أن الباقي مع الذكر يشهد علىٰ نفسه أنه ذاكر، وذلك افتراء منه. فإنه لا فعل له، ولا يزول عنه هذا الافتراء إلا إذا فني عن ذكره، فإن شهود ذكره وبقائه معه افتراء يتضمن نسبة الذكر إليه، وهي في الحقيقة ليست له.

---

(١) «بما» ساقطة من أ.

(٢) «الواو» ساقطة من ط أ ح ب.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «ويبقيه» ساقطة من ط وفي ش: «ويبقيه ويقنطه» ولعل المثبت أولى لتناسب القطع مع الوصل المذكور بعدها.

(٥) في أ: «النفس الطالبين».

(٦) قوله في منازل السائرين ٧١ وفيه: «مع ذكره».

فيقال: سبحان الله، أي افتراء في هذا؟ وهل هذا إلا شهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؛ فإنه إذا شهد نفسه ذاكراً بجعل الله له ذاكراً وتأهيله له[1]، وتقدم ذكره للعبد علىٰ ذكر العبد [له][2] فاجتمع في شهوده الأمران.

اعتراض ابن القيم على الهروي في الفناء

فأي افتراء ههنا؟ وهل هذا إلا عين الحق، وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؟ نعم الافتراء: أن[3] يشهد ذلك به، وبحوله، وقوته، لا بالله وحده؛ لكن الشيخ - رحمه الله - لا[4] تأخذه في الفناء لومة لائم، ولا يصغىٰ فيه إلىٰ عاذل[5].

والذي لا ريب فيه: أن البقاء في الذكر أكمل من الفناء فيه والغيبة به[6]؛ لما في البقاء من التفضيل[7] والمعارف وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه، والتمييز بين الرب[8] والعبد، وما قام بالعبد، وما قام بالرب تعالىٰ، وشهود العبودية والمعبود، وليس في الفناء شيء من ذلك.

---

(١) «له» ساقطة من أ غ ح ب.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م س.

(٣) «أن» ساقطة من ق.

(٤) في س و ش: «لا يأخذه».

(٥) **العذل**: اللوم. انظر: مختار الصحاح ٤٢١، والمصباح المنير ٣٩٩.

(٦) «به» ساقطة من غ أ ح ب.

(٧) في الجميع: «التفصيل».

(٨) في م س: «بين العبد وربه».

والفناء كاسمه (الفناء) والبقاء (بقاء) كاسمه[١].

والفناء مطلوب لغيره، والبقاء مطلوب لنفسه.

والفناء وصف العبد، والبقاء وصف الرب.

والفناء عدم، والبقاء وجود.

والفناء نفي، والبقاء إثبات.

والسلوك علىٰ درب الفناء مخطر، وكم به من مفازة ومهلكة، والسلوك علىٰ درب البقاء آمن، فإنه دَرَبَ عليه الأعلام والهداة والأدلة والخفراء[٢]. ولكن أصحاب الفناء يزعمون أنه طويل، ولايشكّون في سلامته وإيصاله إلىٰ المطلوب[٣] ويزعمون أن درب الفناء أقرب وراكبه طائر، وراكب درب[٤] البقاء سائر.

والكُمَّلُ من السائرين[٥] يرون الفناء منزلة من منازل الطريق، وليس نزولها عاماً لكل سائر؛ بل منهم من لا يراها ولا يمر بها، وأن[٦] الدرب الأعظم

(١) «كاسمه» ساقطة من م.

(٢) «الأدلة» ساقطة من ط. ومعنى خفرت الرجل: أجرته وحفظته. وخفرته إذا كنت له حفيراً أي حامياً وكفيلاً. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٥٢، وانظر: المصباح المنير ١٧٥.

(٣) في ط زيادة: «ولكنهم».

(٤) «درب» ساقطة من م.

(٥) في م: «الناس» بدلاً من «السائرين».

(٦) في ط ج ق: «وإنما».

والطريق الأقوم : هو [1] درب البقاء ، ويحتجون علىٰ صاحب الفناء بالانتقال إليه من الفناء ، وإلا فهو عندهم علىٰ خطر. والله المستعان[2] [وهو سبحانه أعلم] .

* * *

(١) «هو» ساقطة من ج.

(٢) الزيادة من ج ق ، وفي أ ب غ ح : «والله سبحانه أعلم».

فصل

[منزلة الفقر]

منزلة الفقر

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : « الفقر »(١).

هذه المنزلة من(٢) أشرف منازل الطريق عند القوم(٣) وأعلاها وأرفعها ؛ بل هي روح كل منزلة وسرُّها ولبُّها وغايتُها.

ورود الفقر في القرآن

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة (الفقر) والذي تريد(٤) به هذه الطائفة أخص من معناه(٥) الأصلي ، فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاث مواضع.

أحدها : قوله تعالىٰ : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة : ٢٧٣] أي الصدقات لهؤلاء ، و(٦) كان فقراء المهاجرين نحو(٧) أربع مائة ، لم يكن لهم

---

(١) في هامش الأصل ش كتب : «الفقر» وكتب أيضاً : «بلغ والحمد لله».

(٢) «من» ساقطة من ط.

(٣) « عند القوم» ساقطة من ب م.

(٤) في ق : «يريد».

(٥) في أ غ ح : «مما معناه».

(٦) في ط أ ب غ ح بدون الواو.

(٧) «نحو» ساقطة من ق.

مساكن بالمدينة[1] ولا عشائر ، وكانوا قد حبسوا أنفسهم علىٰ الجهاد في سبيل الله ، فكانوا وقفاً علىٰ كل[2] سرية يبعثها رسول الله ﷺ ، وهم أهل الصفة[3].

هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل : هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله ، وقيل : حَبَسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد في سبيل الله ، وقيل : لما عَادَوا أعداءَ الله وجاهدوهم في الله أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش فلا[4] يستطيعون ضرباً في الأرض[5].

والصحيح أنهم[6] لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

والموضع الثاني : قوله : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ...﴾ [التوبة الآية : ٦٠].

---

(١) في ط أ ب غ ح : «في المدينة».

(٢) «كل» ساقطة من م. والسرية : قال ابن الأثير : «هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مائة تبعث إلىٰ العدو». النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٦٣.

(٣) سموا بذلك نسبة إلىٰ الصفة التي في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ لتي كان يأوي إليها الفقراء. انظر : مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٣٨ و ٣٩.

(٤) في م : «ولا».

(٥) في ج زيادة : «ولكمال عفتهم وصيانتهم» وهذه الزيادة تأتي بعد سطر تقريباً.

(٦) في ق : «أنه» . انظر : الدر المنثور ٢/ ٨٨-٩٠ ، وتفسير الطبري ٤/ ٢١-٢٦ و٥/ ٥٩٠-٥٩٢.

والموضع الثالث: قوله تعالىٰ(١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

بيان المراد بالفقر فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين: خاصهم وعامهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولىٰ: يقابلهم أصحاب الجِدَة، ومن ليس محصراً في سبيل الله، ولا يكتم فقره تعففاً، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجِدَة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه. ومراد القوم بالفقر(٢)

---

(١) «قوله تعالىٰ» ساقطة من ج ق.

وقد ذكر الفقر في القرآن في أكثر من ثلاث مواضع منها علىٰ سبيل المثال – غير ما ذكر المؤلف – في سورة البقرة الآية ٢٦٨: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ وآية: ٢٧١ وفي الحشر آية: ٨ وفي محمد آية: ٣٨ وغيرها.

(٢) قال الجرجاني في التعريفات ٢١٦: «الفقر: عبارة عن فقد ما يحتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمىٰ فقراً» وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ولفظ الفقر في الشرع يراد به: الفقر من المال، ويراد به: فقر المخلوق إلىٰ خالقه». الفتاوىٰ ١١/ ١٩٦.

[شيء][1] أخص من هذا كله، وهو تحقيق العبودية إلىٰ الله تعالىٰ في كل حالة.

وهذا المعنىٰ أجل من أن يسمىٰ فقراً؛ بل هو[2] حقيقة العبودية، ولبها وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحيىٰ بن معاذ[3] - رضي الله عنه - فقال: حقيقته أن لا يستغني[4] إلا بالله. ورسمه عدم الأسباب كلها[5].

يقول: عدم الوقوف بها والوقوف معها[6]، وهو[7] كما قال بعض المشايخ: [شيء][8] لا يضعه الله إلا عند من يحبه، ويسوقه إلىٰ من يريده[9].

وسيذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ شيئاً من أقوالهم. وانظر: زيادة علىٰ ذلك الرسالة القشيرية ص٢٧١-٢٧٩ وكتاب اللمع لأبي نصر السراج ص٧٤ و ٧٥ وإحياء علوم الدين ٤/ ٢٩٤-٣٢٩.

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في غ: «بل» ساقطة.

(٣) أبو زكريا يحيىٰ بن معاذ الرازي الواعظ، خرج إلىٰ بلخ وأقام فيها مدة ثم رجع إلىٰ نيسابور، توفي سنة ٢٥٨هـ. انظر: الرسالة القشيرية ٤١٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٥١-٧٠.

(٤) في س: «تستغني».

(٥) انظر: حلية الأولياء ١٠/ ٦٧، والرسالة القشيرية ٢٧٢. وقد تقدم معنىٰ الرسم ص٢٥٦٣.

(٦) في ب: «الوقوف معها والوثوق بها».

(٧) «وهو» ساقطة من ق.

(٨) الزيادة من الجميع.

(٩) في س ش ق ج: «يريد» والأنسب ما أثبت.

وسئل رويم[1] عن الفقر فقال: إرسال النفس في أحكام الله.

وهذا إنما يحمد في إرسالها في أحكامه[2] الدينية والقدرية التي لم يؤمر[3] بمدافعتها والتحرز منها.

وسئل أبو حفص[4]: بم يقدم الفقير علىٰ ربه، فقال: وما للفقير أن[5] يقدم به علىٰ ربه سوىٰ فقره.

وحقيقة الفقر وكماله، كما قال بعضهم[6] وقد سئل: متىٰ يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه، فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنىٰ الفقر الذي يسير إليه القوم، وهو أن

---

(١) أبو الحسن رويم بن أحمد ويقال ابن محمد بن رويم بن يزيد من بني شيبان توفي ببغداد سنة ٣٠٣هـ. انظر: صفة الصفوة ٢/ ٤٤٢ و ٤٤٣، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٩٦ - ٣٠٢، وانظر: قوله في الرسالة القشيرية ٢٧٣.

(٢) في البقية عدا س ج: «الأحكام».

(٣) في البقية عدا س: «لا يؤمر».

(٤) هو أبو حفص النيسابوري واسمه عمرو بن سليم وقيل: بن سلمة من أهل قرية كورة أباذ، توفي سنة ٢٧٠هـ، وقيل غير ذلك. انظر: صفة الصفوة ٤/ ١١٨-١٢١، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١١٩. وانظر قوله في: الرسالة القشيرية ٢٧٤.

(٥) في الجميع: «شيء يقدم» والمثبت كما في الأصل والرسالة القشيرية.

(٦) القائل هو أحمد بن الجلاء. انظر قوله في: الرسالة القشيرية ٢٧٥.

يصير كله لله ، ولا يبقىٰ عليه بقية من نفسه وحظه وهواه ، فمتىٰ بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله : إذا كان له فليس له. أي: إذا كان لنفسه فليس لله وإذا لم يكن لنفسه(١) فهو لله.

فحقيقة الفقر إذاً(٢) أن لا تكون لنفسك ، ولا يكون(٣) لها منك شيء بحيث يكون(٤) كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم مُلك واستغناء مناف للفقر وهذا الفقر الذي يشيرون(٥) إليه : لا تنافيه(٦) الجِدَة ، ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم ، وملكهم ، كإبراهيم الخليل - عليه السلام - ، كان أبا الضيفان ، كانت له الأموال(٧) والمواشي وكذلك كان سليمان(٨) وداود [عليهما السلام](٩) ، وكذلك [كان](١٠) نبينا ﷺ

---

(١) في أ «فليس هو».

(٢) «إذاً» ساقطة من أ ح ط ب غ.

(٣) في البقية : «ولا يكون».

(٤) في البقية عدا س : «تكون».

(٥) في م «يشير».

(٦) في ج س : «ينافيه».

(٧) في ش : «أموال» والمثبت أولىٰ.

(٨) في ج : «داود وسليمان».

(٩) الزيادة من الجميع عدا ج م س.

(١٠) الزيادة من الجميع عدا م ق.

كان][1] كما قال الله[2] تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٨] فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلىٰ الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة، فاقة تامة إلىٰ الله تعالىٰ من كل وجه. فالفقر ذاتي للعبد، وإنما يتجدد[3] له بشهوده[4] ووجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً   كما الغنىٰ أبداً وصف له ذاتي[5]

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم: الفقير لا تسبق همته خطوته[6].

يريد: أنه ابن حاله ووقته، فهمَّته مقصورة علىٰ وقته ولا تتعداه. وقيل: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س.

(٢) «الله» ساقطة من م ق.

(٣) في س: «يتحدد» وفي م: «يتجرد».

(٤) في س ش ج: «مشهودة» وفي ط: «لشهوده» وفي البقية كما أثبت، وهو الأنسب.

(٥) في بصائر ذوي التمييز: قال بعض المشايخ ثم ذكر هذا البيت. انظر: ٤/ ٢٠٦.

(٦) في ط: «خطواته» والقائل هو عبدالله المرتعش. انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٥.

وقال الشبلي ـ رحمه الله ـ[١] : حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله[٢].

وسئل سهل بن عبدالله ـ رحمه الله ـ[٣] : متىٰ يستريح الفقير؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه[٤].

وقال أبو حفص ـ رضي الله عنه ـ : أحسن ما يتوسل به العبد إلىٰ الله : دوام الافتقار إليه علىٰ جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال[٥].

وقيل : من حكم الفقير[٦] : أن لا تكون[٧] له رغبة[٨] فإن كان ولا بد فلا تجاوز رغبته كفايته.

---

(١) هو دلف بن جحدر الشبلي ولد سنة ٢٤٧هـ وهو بغدادي المولد والمنشأ، وأصله من خراسان، صحب الجنيد ومن في عصره، وتوفي سنة ٣٣٤هـ. انظر : الرسالة القشيرية ص٤١٩ و ٤٢٠، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ص٢٢٦-٢٣٠.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٣) هو سهل بن عبدالله بن يونس التستري أسند عن خاله حمد بن سوار ولقي ذا النون وتوفي سنة ٢٨٣هـ وقيل غير ذلك. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٨٢-١٨٤، وصفة الصفوة ٤/ ٦٥-٦٦، وحلية الأولياء ١٠/ ١٨٩-٢١٢.

(٤) انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٢٠٠، والرسالة القشيرية ٢٧٨.

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٥.

(٦) في الجميع عدا ق : «الفقر».

(٧) في س ج ح : «أن يكون».

(٨) في ط : «فإذا» وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ٢٧٨.

وقيل : الفقير من لا يَملك ولا يُملك ، وأتم من هذا : من يملك ولا يملكه ما ملك [١].

وقيل : من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيراً ، ومن أراده لئلا يشتغل عن الله [٢] بغيره مات غنياً.

والفقر له بداية ونهاية ، وظاهر وباطن ، فبدايته : الذل ، ونهايته : العز ، وظاهره : العُدم ، وباطنه : الغنىٰ ، كما قال رجل [٣] لآخر : فقر وذل؟ فقال : لا ؛ بل فقر وعز [٤] فقال : فقر وثراء؟ [٥] فقال : لا ؛ بل فقر وعرش ، وكلاهما مصيب.

واتفقت كلمة القوم علىٰ أن دوام الافتقار إلىٰ الله ، مع التخليط ، خير من دوام الصفا مع رؤية النفس [٦] والعجب ، مع أنه لا صفاء معهما. وإذا عرفت معنىٰ الفقر عرفت [٧] أنه عين الغنىٰ بالله ، فلا معنىٰ لسؤال من سأل : أي

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٧.

(٢) في البقية عدا س ج م : «بشيء» ، وانظر هذا القول في: الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٣) «رجل» ساقطة من ق ، وهو كما في الرسالة القشيرية ٢٧٦ : «يقول منصور بن خلف المغربي قال لي أبو سهل الخشاب الكبير الفقر فقر وذل ...».

(٤) في ق : «وغناء».

(٥) في ج : «وشر» وبعدها في الجميع عدا ق س ج : «قال».

(٦) في أ زيادة : «الشمس» وهو خطأ.

(٧) في ط : «علمت».

الحالين أكمل ، الافتقار إلىٰ الله ، أم الاستغناء به؟

فهذه مسألة غير صحيحة ، فإن الاستغناء[١] به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبدالله الفرغاني - رحمه الله -[٢] فقال : إذا صح الافتقار إلىٰ الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كمل[٣] الغنىٰ به.

فلا[٤] يقال أيهما أتم[٥] : الافتقار أم الاستغناء[٦]؟ لأنهما حالتان لا تتم[٧] إحداهما إلا بالأخرىٰ[٨].

المفاضلة بين الفقر والغنى

وأما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما علىٰ صاحبه فعند أهل التحقيق والمعرفة : أن التفضيل لا يرجع إلىٰ ذات الفقر والغنىٰ. وإنما يرجع إلىٰ الأعمال والأحوال والحقائق.

---

(١) في ح : «فالاستغناء».

(٢) أبو جعفر محمد بن عبدالله الفرغاني ، نزل بغداد ولزم الجنيد واشتهر بصحبته.
انظر : تاريخ بغداد ٥/ ٤٥٠ و ٤٥١ (٣٩٨٢). ولم أجد ما ذكر المؤلف منسوباً إليه فلعله يقصد محمد بن موسىٰ الفرغاني المشهور بأبي بكر الواسطي، وانظر قوله في: الرسالة القشيرية ٣١٣.

(٣) في ق : «الاستغناء به».

(٤) في م : «فقال يقال».

(٥) في الجميع عدا س م ج : «أفضل».

(٦) في م س ج ش : «الفنا» والمثبت أولىٰ لموافقة ما قبله.

(٧) في ج : «يتم».

(٨) في م : «الآخر» ، وهذا القول نسب إلىٰ الجنيد ، انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٣.

فالمسألة أيضاً(١) فاسدة في نفسها. فإن التفضيل عند الله بالتقوىٰ، وحقائق الإيمان، لا بفقر وغنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -(٢): «الفقر والغنىٰ ابتلاء من الله لعبده كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من(٣) أعطيتُه ووسعتُ عليه أكون قد أكرمتُه، ولا كل من ضيقت عليه وقتَّرت: [أكون](٤) قد أهنته، فالإكرام(٥) أن يكرم(٦) العبد بطاعته والإيمان به(٧) ومحبته ومعرفته، والإهانة أن يسلبه ذلك.

قال(٨): ولا يقع التفاضل(٩) بالغنىٰ والفقر؛ بل بالتقوىٰ، فإذا استويا في

---

(١) في م: «إذاً» بدل: «أيضاً».

(٢) في الجميع عدا الأصل بزيادة «واو» والأولىٰ عدمها.

(٣) في ط أ ب غ ح: «من وسعت عليه وأعطيته».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في: «والإكرام».

(٦) في ط زيادة: «الله».

(٧) «محبته» ساقطة من م، وانظر قوله في: مجموع الفتاوىٰ ١٦/ ٥٣.

(٨) في أ ب م ط غ زيادة: «يعني ابن تيمية» والأولىٰ عدم إثباتها؛ لأن الناقل هو ابن القيم، وهذا تفسير لكلامه؛ فهي زيادة من غيره.

(٩) في م: «بالفقر والغنىٰ».

التقوىٰ ، استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك[١].

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيىٰ بن معاذ ـ رحمه الله ـ فقال : لا يوزن غداً الفقر ولا الغنىٰ ، وإنما يوزن الصبر والشكر[٢].

وقال غيره[٣] : هذه المسألة محال من وجه آخر ، وهو أن كلاً من الغني والفقير ، لا بد له من صبر وشكر ، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ؛ بل قد يكون[٤] قسط الغني من الصبر أوفر ؛ لأنه يصبر عن[٥] قدرةٍ ، فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز.

ويكون شكر الفقير [أتم ؛ لأن الشكر][٦] هو استفراغ الوسع في طاعة الله ، والفقير أعظم فراغاً للشكر من الغني ، فكلاهما لا تقوم[٧] قائمة إيمانه إلا علىٰ ساقي الصبر والشكر.

نعم الذي يحكي[٨] الناس من هذه المسألة : فرعاً من الشكر ، وفرعاً من

---

(١) هنا زيادة تكرار من س وهي قوله : «ولا يقع التفاضل بالغنىٰ والفقر ؛ بل بالتقوىٰ فإذا استويا» وانظر قول ابن تيمية في : مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢١.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٧.

(٣) «غيره» ساقطة من ح.

(٤) في ط : «يكون نصيب الغنىٰ وقسطه».

(٥) في ب ق : «علىٰ».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) في س ج م : «لا يقوم» ق بعدها : «مقامه إيمانه».

(٨) في م : «يخل».

الصبر وأخذوا في الترجيح بينهما، فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً، باذلاً ماله في وجوه القرب شاكراً لله عليه (١)، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله (٢) ولأوراد العبادات [من الطاعات] (٣) صابراً على فقره، فهل هو أكمل من ذلك (٤) الغني أم الغني أكمل منه؟ فالصواب في مثل هذا: أن أكملهما أطوعهما، فإن تساوت (٥) طاعتهما تساوت درجاتهما. والله أعلم.

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «الفَقرُ اسمٌ لِلبَرَاءةِ مِنَ المِلْكَةِ» (٦).

عدل الشيخ عن لفظ عدم الملكة إلى قوله: البراءة من الملكة؛ لأن عدم الملكة ثابت في نفس الأمر لكل أحد سوى الله تعالى (٧)، فالله هو المالك حقيقة. فعدم الملكة: أمر ثابت لكل ما سواه لذاته، والكلام في الفقر الذي يمدح فيه صاحبه، وهو (٨) فقر الاختيار، وهو أخص من مطلق الفقر، وهو

---

(١) «الواو» ساقطة من ج.

(٢) في ق: «ولأوراده» وسقطت «العبادات».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ج م.

(٤) «ذلك» ساقطة من س.

(٥) في أ غ ح: «درجاتهما تساوت طاعتهما».

(٦) منازل السائرين ٧١.

(٧) في أ ب: «فإن الله».

(٨) في ط: «هو».

براءة العبد من دعوىٰ الملك بحيث لا ينازع مالكه الحق (١).

ولما كانت نفس الإنسان ليست له ، وإنما هي ملك لله ، فما لم يخرج عنها ويسلمها لمالكها ومولاها(٢) الحق ، لم يثبت له في الفقر قدم ، فلذلك كان أول قدم الفقر : الخروج عن النفس ، وتسليمها لمالكها ومولاها ، فلا يخاصم لها(٣) ، ولا يتوكل لها ، ولا يحتاج (٤) عنها ، ولا ينتصر لها ؛ بل يفوض(٥) ذلك لمالكها وسيدها.

قال بندار بن الحسين ـ رحمه الله ـ(٦) : لا تخاصم لنفسك ، فإنها ليست لك دعها لمالكها يفعل بها ما يريد(٧).

وقد أجمعت هذه الطائفة [علىٰ](٨) أنه لا وصول إلىٰ الله إلا من طريق الفقر،

---

(١) في ج : «فكلما».

(٢) «ومولاها» ساقطة من الجميع عدا ش ج ، ثم سقط من ج إلىٰ قوله : «فلا يخاصم لها».

(٣) سقط من م : «ولا يتوكل لها».

(٤) في : «ولا يحاجج».

(٥) في الأصل : «تفويض» ولعل المثبت أولىٰ لموافقة ما قبله.

(٦) أبو الحسن بندار بن الحسن - هكذا كما في الحلية - بن محمد بن المهلب الشيرازي ، شيرازي المولد ، صحب دلف الشبلي ، وحضر مجلسه أبو زرعة الطبري توفي سنة ٣٥٣هـ.
انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٤ و ٣٨٥ ، والرسالة القشيرية ٤٢٠ ، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ص١٧٣ و ١٧٤.

(٧) انظر قوله هذا في كل المراجع السابقة في ترجمته.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س م.

ولا دخول عليه إلا من بابه. [والله أعلم][1].

فصل

درجات الفقر

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: فَقرُ الزُّهَّادِ، وَهُوَ قَبْضُ اليَدِ عَنَ الدُّنيَا ضَبطاً أَو طَلَباً، وَإِسكَاتُ اللِّسَانِ عَنهَا مَدحاً أَو ذَمّاً، وَالسَّلاَمَةُ مِنهَا طَلَباً أَو تَركاً، وَهَذَا هُوَ الفَقرُ الَّذِي تَكَلَّمُوا فِي شَرَفِهِ»[2].

الدرجة الأولى

تعريف الدنيا

الدنيا عند القوم: ما سوىٰ الله، من المال والجاه والصور والمراتب، واختلف المتكلمون فيها علىٰ قولين، حكاهما أبو الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ[3] في مقالاته[4].

أحدهما[5]: أنها اسم لمدة بقاء هذا العالم.

الثاني: أنها اسم لما بين السماء والأرض، فما فوق السماء ليس من الدنيا،

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س م.

(٢) انظر: منازل السائرين ص٧١ و ٧٢ وفيه: «نفض اليدين» بدلاً «من قبض اليد» وتقديم الذم علىٰ المدح.

(٣) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، ولد سنة ٣٢٤هـ وقيل غير ذلك.
انظر: البداية والنهاية ١١/ ١٨٧، وشذرات الذهب ٢/ ٣٠٣ - ٣٠٥.

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ٤٤٣، وما ذكره المؤلف هنا بأحدهما أي الأول وهو يوافق الثاني الذي ذكره الأشعري حيث قال في آخره: «قبل مجيء الآخرة وورودها» والثاني هنا يوافق الأول الذي ذكره الأشعري حيث قال: «فقال قائلون: هي الهواء والجو».

(٥) في هامش ق: «قف علىٰ القولين - ثم كلمة غير واضحة - في الدنيا».

وما تحت الأرض ليس منها.

فعلىٰ الأول : تكون الدنيا زماناً . وعلىٰ الثاني : تكون مكاناً.

ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان ، كان حقيقة الفقر : تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها ، وسلبها منها ، فلهذا[1] قال : «**قَبْضُ اليَدِ عَن الدُّنْيَا ضَبْطاً أَوْ طَلَباً**» يعني يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له. فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها ، وإن كانت غير حاصلة له كفَّ يده عن طلبها ، فلا يطلب معدومها ، ولا يبخل بموجودها. طلب الدنيا وتركها

وأما تعطيلها عن اللسان فإنه[2] لا يمدحها ولا يذمها ، فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل [علىٰ][3] محبتها ورغبته فيها ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته ، كمن طلب العنقود فلم يصل إليه، فقال : هو حامض.

ولا يتصدىٰ لذم الدنيا ، إلا راغب محب مفارق[4] ، فالواصل مادح ، والمفارق ذام.

وأما تعطيل القلب منها فبالسلامة من آفات طلبها وتركها ، فإن[5] لطلبها

---

(١) في ط : «فلذلك».

(٢) في م س : «فإن» ، ط والبقية : «فهو أن».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س م.

(٤) في ق : «فالمواصل».

(٥) في البقية عدا س م : «فإن لتركها آفات ولطلبها آفات».

آفات، ولتركها آفات، والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث[1] لا تحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها، فما وجه الآفة في تركها والرغبة[2] عنها.

قلت: من وجوه شتىٰ:

أحدها[3]: أنه إذا تركها - وهو بشر لا مَلَك - تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته[4] ويعيشه، وما هو محتاج إليه، فيبقىٰ في مجاهدة شديدة مع نفسه لترك معلومها وحظها من الدنيا، وهذه قلة فقه في الطريق؛ بل الفقيه العارف: يَرُدها عنه بلقمة، كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة، ولا يقطع زمانه بمجاهدته[5] ومدافعته؛ بل أعطها حظَّها، وطلبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل - صلىٰ الله عليهم وسلم -، وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك[6] كما قال النبي ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقاً [ولربك عليك**

---

(١) في البقية عدا س: «لا يحجبه».

(٢) في ج: «ورغبته».

(٣) «أنه» ساقطة من ح ب.

(٤) في س: «ويعينه».

(٥) في أ: «لمجاهدته».

(٦) قال التهانوي: «السلوك: بضم السين: عند السالكين عبارة عن تهذيب الأخلاق ليستعد

حقـاً][1] ، ولزوجـك عليـك حقـاً ، ولـضيفك عليـك حقـاً ، فـأعط كـل ذي حـق حقه»[2].

والعارف البصير ، يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة : مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن ، وقطاع الطريق علىٰ القلوب - كأهل[3] البدع من بني العلم ، وبني الإرادة - ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم ، ويتقوىٰ علىٰ حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح ، ولا يشتغل بها.

ومن آفات الترك : تطلعه إلىٰ ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلىٰ ما

للوصول. أي السلوك أن يطهر العبد نفسه عن الأخلاق الذميمة مثل حب الدنيا والجاه ، ومثل الحقد والحسد... ونحوها من المعاصي ويتصف بالأخلاق الحميدة مثل العلم والحلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها» كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٤٠٠ ، والسالك في اللغة هو السائر. انظر : المصباح المنير ٣١٠ ، وقد قسم ابن تيمية ـ رحمه الله ـ السلوك إلىٰ قسمين : سلوك الأبرار أهل اليمين ، وسلوك المقربين السابقين. انظر : مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٤٦٣ و ٤٦٤.

(١) الزيادة من ح أ ب غ.

(٢) الحديث ذكره المؤلف هنا بمعناه ، وقد رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصوم ، باب من أقسم علىٰ أخيه ليفطر في التطوع وأوله : «إن لربك عليك حقاً...» ١/ ٢٤٣.

وروىٰ مسلم أجزاءً من هذا الحديث منها هذا اللفظ ، ومنها : «لعينك حق ولنفسك حق ولأهلك حق». صحيح مسلم كتاب الصوم ، باب النهي عن صوم الدهر رقم ١٨٢ و١٨٦ ، ١/ ٨١٣ و ٨١٤ و٨١٥.

(٣) في م : «كأهل العلم من أبناء العلم وأبناء الإرادة».

تركه فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو. وهذا يقابل الزهد فيها وتركها[١] ، كما أن[٢] كَسْرة الآخذ وذلّته وتواضعه : يقابل الآخذ [التارك][٣] ، ففي الأخذ آفات ، وفي الترك آفات.

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك ، وهذا لا يحصل إلا بفقه في الفقر.

قوله : «فَهَـذَا هُوَ الفَقْرُ الَّـذِي تَكَلَّمُوا فِي شَرَفِهِ» يعني تكلم فيه[٤] أرباب السلوك ، وفضَّلوه ومَدَحُوه.

فصـــل[٥]

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الرُّجُوعُ إِلَىٰ السَّبقِ بِمُطَالَعَةِ الفَضلِ ، وَهُوَ يُورِثُ الخَلاَصَ مِن رُؤيَةِ الأَعمَالِ ، وَيَقطَعُ شُهُودَ[٦] الأَحوَالِ ، وَيُمَحِّصُ[٧] مِن أَدنَاسِ

(١) في م : «وأخذها».
(٢) في س : «كثرة».
(٣) الزيادة من الجميع عدا س ج م.
(٤) «فيه» ساقطة من ج.
(٥) في ج كتب بالهامش «بلغ» ، وسقط قوله : «فصل قال» من ج م ق.
(٦) في م : «شهودها».
(٧) في «ق» : «ويمحض».

مُطَالَعَةِ المقَامَاتِ»[١].

يريد بالرجوع إلىٰ السبق : الالتفات إلىٰ ما سبقت به السابقة ، من الله بمطالعه فضله ومنته وجوده ، وأن العبد وكُلَّ[٢] ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه ، وليس للعبد من ذاته سوىٰ العُدْم.

وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله له[٣] ، فإذا شهد هذا وأحضره قلبه ، وتحقق به : خلصه من رؤية أعماله ، فإنه لا يراها إلا من الله وبالله ، وليست منه ولا به.

واتفقت كلمة الطائفة علىٰ أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله ويخلصه[٤] منها : شهود السبق ومطالعة الفضل.

وقوله : **«وَيَقطَعُ شُهُودَ الأَحوَالِ»**.

لأنه إذا طالع سبق فضل الله : علم أن كل ما حصل[٥] له من حال أو غيره ، فهو محض جوده ، فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً ، كما لم يشهد له عملاً ، فقد جعل عدته[٦] للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله ، فهو لا يقدم عليه إلا

---

(١) منازل السائرين ٧٢.

(٢) في ج : «الكل».

(٣) «له» ساقطة من ج ق ، وفي أ ب غ ح : «به»وط : « عليه ».

(٤) في س : «وتخلصه».

(٥) في س : «جعل».

(٦) في ج : «عدله».

بالفقر المحض، وهو[١] العلاقة التي بينه وبين ربه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذي يدخل منه عليه.

وكذلك قوله : «يُمَحِّصُ[٢] مِن أَدنَاسِ مُطَالَعَةِ المَقَامَاتِ». هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال ، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال.

ومطالعة المقامات : دنس عند هذه الطائفة ، فمطالعة الفضل يمحص[٣] من هذا الدنس.

الفرق بين الحال والمقام

والفرق بين الحال والمقام : أن الحال معنىً يرد علىٰ القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب[٤] ، ولا تعمد. والمقام يتوصل إليه بنوع كسب وطلب. فالأحوال عندهم مواهب[٥] ، والمقامات مكاسب ، المقام يحصل ببذل المجهود ، وأما الحال : فمن عين الوجود[٦].

---

(١) في ط : «فالفقر خير العلاقة» وفي أح «فهو» وفي م : «وهي».

(٢) في ج م : «تمحص».

(٣) في ج م : «تمحص».

(٤) في م : «وانكشاف».

(٥) «مواهب» ساقطة من م.

(٦) ما ذكره المؤلف هنا في التفريق بين الحال والمقام ذكره الجرجاني في كتابه التعريفات مع اختلاف يسير ، انظر ص١١٤ ، وأصله في كتاب معجم اصطلاحات الصوفية. انظر ص٨١ في تعريف الحال و١٠٧ في تعريف المقام وزيادة ، انظر : كتاب اللمع للطوسي ص٦٥-٦٧ ، و٤١١.

ولما دخل الواسطي[1] نيسابور[2] سأل أصحاب أبي عثمان[3] ـ رحمه الله ـ بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا[4] بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها. فقال: أمركم بالمجوسية[5] المحضة. هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية مُنشِئِها ومُجرِيها؟

قلت: لم يأمرهم أبو عثمان ـ رحمه الله ـ إلا[6] بالحنيفية المحضة، وهي القيام بالأمر ومطالعة التقصير فيه، وليس في هذا من رائحة المجوسية شيء، فإنه إذا[7] بذل الطاعة لله وبالله صانه ذلك عن الاتحاد والشرك، وإذا شهد

---

(١) هو أبو بكر محمد بن موسىٰ الواسطي خراساني الأصل من فرغانه وأقام بمرو صحب الجنيد والنوري، توفي سنة ٣٣١. انظر: الرسالة القشيرية ص٤٣٩ و ٤٤٠، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ٢١٩.

(٢) هي مدينة كبيرة من مدن خراسان، قيل سبب تسميتها بذلك أن الملك سابور مر بها وقال يصلح أن يكون هنا مدينة فسميت بنيسابور، وقيل غير ذلك وقد فتحها المسلمون عام ٣١هـ وقيل قبل ذلك. انظر: معجم البلدان ٥/ ٣٣١-٣٣٣ و ٢/ ٣٥٠.

(٣) هو سعيد بن إسماعيل الحيري نسبة إلىٰ الحيرة إلا أنه خرج إلىٰ نيسابور فتوطن ومات بها سنة ٢٩٨هـ. انظر: صفة الصفوة ٤/ ١٠٣ - ١٠٧، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤-٢٤٦.

(٤) في س أ غ ط: «يأمر».

(٥) المجوس: هم الذين يقولون بإلهين اثنين هما النور والظلمة إلا أن النور أفضل عندهم من الظلمة؛ بل هو أزلي، والظلمة محدثة. انظر: الملل والنحل ١/ ١٣٢-١٣٣، ومقالات الإسلاميين ٣٠٨.

(٦) في ج: «أو».

(٧) «إذا» ساقطة من ق.

تقصيره فيها صانه عن الإعجاب، فيكون قائماً بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأما ما أشار إليه الواسطي ـ رحمه الله ـ: فمشهد الفناء، ولا ريب أن مشهد البقاء أكمل منه[١] فإن من غاب عن طاعاته: لم يشهد تقصيره فيها. ومن تمام العبودية: شهود التقصير، فمشهد أبي عثمان ـ رحمه الله ـ أتم من مشهد الواسطي[٢].

وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن إسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم، وكان يقال في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان [النيسابوري][٣] بنيسابور، والجنيد[٤] ببغداد[٥]، وأبو عبدالله بن الجلاء[٦] بالشام[٧]، وله كلام

---

(١) «منه» ساقطة من ط.

(٢) في ج زيادة: «في مشهد الفناء ولا ريب أن مشهد البقاء أكمل منه» وهي غير ملائمة.

(٣) الزيادة من غ أ ح، وانظر ما قاله ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الرسالة القشيرية ٤٠٧.

(٤) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أصل أبيه من نهاوند، توفي ببغداد سنة ٢٧٩ وقيل ٢٩٨هـ. انظر: طبقات الصوفية ص٣٦-٣٨، الطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ٧٢-٧٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٧٣ - ٣٧٥ (١٤٤)، طبقات الشافعية ٢/ ٢٦٠ - ٢٧٥، شذرات الذهب ٢/ ٢٢٨-٢٣٠.

(٥) بغداد: بلدة بالقرب من دجلة والفرات، وأصلها للأعاجم، وقيل معنىٰ بغداد بستان رجل، وقيل الصنم أعطاني، وقيل غير ذلك. انظر: معجم البلدان ١/ ٤٥٦-٤٦٧.

(٦) هو أحمد بن يحيىٰ أبو عبدالله بن الجلاء من أهل بغداد، سكن الشام وصحب ذا النون المصري وأبا تراب وقد توفي في يوم السبت من شهر رجب سنة ٣٠٦هـ. انظر: صفة الصفوة ٢/ ٤٤٣ و ٤٤٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٣١٤و ٣١٥.

(٧) الشام: سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات وقيل غير ذلك

رفيع عال في التصوف والمعرفة ، وكان شديد الوصية باتباع السنة وتحكيمها ولزومها ، ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصاً علىٰ نفسه ، ففتح أبو عثمان عينيه ، وهو في السياق فقال[1] : يا بني خلاف السنة[2] علامة في الظاهر رياء في الباطن.

فصـــل

الدرجة الثالثة

قـال : «الدَّرَجَـةُ الثَّالِثَـةُ : صِـحَّةُ[3] الاضـطِرَارِ ، وَالوُقُـوعُ في يَـدِ التَّقَطُّـعِ الوجدَانيِّ[4] ، وَالاحتِبَاسُ فِي بَيدَاءِ قَيدِ التَّجرِيدِ ، وَهَذَا فَقرُ الصُّوفِيَّةِ»[5].

وحدها من الفرات إلىٰ العريش ومن جبل طي إلىٰ بحر الروم. انظر : معجم البلدان ٣/ ٣١١-٣١٥.

(١) في م : «وقال».

(٢) في البقية عدا س م : «وفي الظاهر علامة رياء في الباطن» وفي صفة الصفوة ٤/ ١٠٦ هكذا : «خلاف السنة في الظاهر من رياء في باطن القلب».

(٣) «صحة» ساقطة من الجميع.

(٤) في ط : «أو».

(٥) منازل السائرين ٧٢.

والصوفية : سموا بذلك نسبة إلىٰ لبس الصوف ، وقيل إلىٰ الصفا والوفاء ، وقيل غير ذلك ، والأقرب الأول ، ومبدأ الصوفية كان محموداً ثم كثر عند المتأخرين الشطح والغلو بالمشايخ ، ووصفهم بما لا يستحقه المخلوق ، وابتدعوا تعظيم القبور وأهلها ، كما ابتدعوا الرقص والغنا باسم الذكر والدعاء وغير ذلك مما يطول ذكره. انظر : حلية الأولياء ١/ ١٧ و١٨ ، ومجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ١١/ ٥-٢٤.

الاضطرار : شهود كمال الضرورة ، والفاقة علماً وحالاً.

ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني : حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار. فهي منقعة عن الأغبار ، وحدانية بنفسها[١] ، والوقوع في يدها : الاستسلام والإذعان لها ، والدخول في رقّها.

وقد تقدم أن حضرة الجمع عندهم : هي شهود الحقيقة الكونية ، ورؤيتها بنور الكشف ، حيث يشهدها منشأ جميع الكائنات ، والكائنات عدم بالنسبة إليها.

وأما[٢] الاحتباس في بيداء قيد التجريد : فهو تجريد الفردانية أن يشهد[٣] معها غيرها ، وهو الفناء عن شهود السوىٰ ، وسمىٰ ذلك احتباساً : لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار ، وجعل للتجريد قيداً ، وهو[٤] التقيد بشهود الحقيقة.

وجعل للقيد[٥] بيداء لوجهين :

أحدهما : أن الأغيار تبيد فيه وتنعدم ، ولا يكون معه سواه.

والثاني : لسعته وفضائه ، فصاحب مشهده : في بيداء واسعة ، وإن احتبس

---

(١) في الجميع عدا س ج : «في نفسها».

(٢) «أما» ساقطة من أ ب.

(٣) في س م : «تشهد».

(٤) في م : «من التقيد».

(٥) في الجميع عدا س : «القيد».

في قيد شهوده.

وقوله : «وَهَذَا فَقرُ الصُّوفِيَّةِ» قد يفهم منه : أن التصوف أعلىٰ[١] عنده من الفقر ، فإن هذه الدرجة الثالثة التي[٢] هي أعلىٰ درجات الفقر عنده[٣] ، وهي من بعض مقامات الصوفية وطائفة تنازعه في ذلك ، وتقول : التصوف دون هذا المقام بكثير. والتصوف وسيلة إلىٰ هذا الفقر ، فإن التصوف خُلُقٌ ، وهذا الفقر حقيقة وغاية لا غاية وراءها.

وقد تقدم[٤] ذكر الخلاف بين القوم في هذه المسألة ، وحكينا فيها ثلاثة أقوال هذين ، والثالث : أنه لا يفضل أحدهما علىٰ الآخر ، فإن كل واحد منهما لا تتم حقيقته إلا بالآخر ، وهذا قول الشاميين والله أعلم.

* * *

(١) في م : «عنده أعلىٰ».

(٢) «التي» ساقطة من ح.

(٣) في أ : «هي عنده».

(٤) انظر : قوله المتقدم في المدارج ، تحقيق الفقي ٢/ ٣٦٨ و٣٦٩. وفي آخر الفصل الأول من منزلة الإرادة.

فصـــل

[منزلة الغنىٰ]

منزلة الغنى

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الغنىٰ(١) العالي».

وهو نوعان : غنىٰ بالله ، وغنىٰ عن غير الله. وهما حقيقة الفقر. ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنىٰ منزلة.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «**بَابُ الغِنَىٰ**(٢). **قَالَ**(٣) **اللهُ تَعَالَىٰ** : ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحىٰ : ٨].

وفي الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أغناه من المال بعد فقره : وهذا قول أكثر المفسرين ؛ لأنه قابله

---

(١) الغنىٰ في اللغة : الاكتفاء بشيء عن آخر.

انظر : المصباح المنير ٤٥٥ ، مختار الصحاح ٤٨٣.

وعندهم كما قال الكاشاني : الملك التام ، فالغنيّ بالذات ، ليس إلا الحق إذ له ذات كل شيء. والغني من العباد : من استغنىٰ بالحق عن كل ما سواه ؛ لأنه إذا فاز بوجوده ، فاز بكل شيء ؛ بل لا يرىٰ لشيء وجوداً ولا تأثيراً ، وظفر بالمطلوب واستبشر بشهود المحبوب. معجم اصطلاحات الصوفية ١٨٥.

(٢) «باب الغنىٰ» ساقطة من أ.

(٣) في ب : «قال قال» وفي م : «قال تعالىٰ».

بقوله : «عائلاً» والعائل : هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه [من المال] (١).

والثاني : أنه رضاه (٢) بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنىٰ قلب ونفس، لا غنىٰ مال. وهو حقيقة الغنىٰ.

والثالث - وهو الصحيح - : أنه يعم [النوعين] (٣) نوعي الغنىٰ، فأغنىٰ قلبه (٤) وأغناه من المال.

ثم قال : «الغِنَىٰ اسمٌ لِلمِلْكِ التَّامِّ» يعني أن من كان مالكاً من وجه دون وجه فليس بغني. وعلىٰ هذا : فلا يستحق اسم «الغنىٰ» بالحقيقة إلا الله. وكل ما سواه فقير إليه بالذات.

درجات الغنى

الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : غِنَىٰ القَلْبِ. وَهُوَ سَلاَمَتُهُ مِنَ السَّبَبِ ، وَمُسَالمَتُهُ لِلْحُكْمِ. وَخَلاَصُهُ مِنَ الخُصُومَةِ» (٥).

حقيقة غنى القلب

حقيقة غنىٰ القلب : تعلقه بالله تعالىٰ. وحقيقة فقره المذموم : تعلقه بغيره. فإذا تعلق بالله حصلت له هذه الثلاث التي ذكرها.

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) في ط : «أرضاه».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س.

(٤) في ط زيادة «به».

(٥) في ح «الحكومة» وانظر قوله في منازل السائرين ص٧٢ و ٧٣ وفيه «ومسالمته الحكم» بدلاً من «للحكم».

سلامته من السبب [أي](١) من التعلق به، لا من القيام به. والغنىٰ عند أهل الغفلة بالسبب. ولذلك قلوبهم متعلقة(٢) به، وعند العارفين بالمسبِّب. وكذلك الصناعة والقوة. فهذه الثلاثة: هي جهات الغنىٰ عند الناس. وهي التي أشار إليها النبي ﷺ في قوله(٣): «إن الصدقة لا تحل لغني [ولا لذي(٤) مِرَّة سَوِي» وفي رواية](٥): «ولا لقوي مكتسب»(٦) وهو غنيّ بالشيء. فصاحبها غني بها. إذا سكنت نفسه إليها(٧). وإن كان سكونه إنما هو(٨) إلىٰ ربه: فهو غني به. وكل ما

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في ط: «معلقه».

(٣) «في قوله» ساقطة من ق.

(٤) قوله: «ولا لذي مِرَّةُ سوي» قال ابن الأثير: المِرَّةُ: القوة والشدة. والسوي: الصحيح الأعضاء. النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣١٦.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٦) الحديث رواه الترمذي في سننه كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة. وقال عنه حديث حسن ٣/ ٤٢ (٦٥٢)، وأبو داود في كتاب الزكاة، باب من يعطىٰ من الصدقة وحد الغنىٰ ٢/ ٢٨٥ و ٢٨٦ (١٦٣٤)، وابن ماجه في كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنىٰ ١/ ٥٨٩ (١٨٣٩)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها ٥/ ٩٩، ٩٩، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٤، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي: علىٰ شرطهما. انظر: المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٠٧. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح ابن ماجه ١/ ٣٠٨ (١٤٨٩).

(٧) في ج: «فإن».

(٨) في أ، ب، غ، ح سقط: «إنما هو».

سكنت النفس إليه فهي فقيرة إليه.

وأما «مُسَالمةُ الحُكمِ» فعلىٰ نوعين:

أحدهما: مسالمة [1] الحكم الديني الأمري. وهي معانقته وموافقته. ضد محاربته.

والثاني: [2] الحكم الكوني القدري، الذي يجري عليه بغير اختياره، ولا قدرة له علىٰ دفعه، وهو غير مأمور بدفعه.

وفي مسالمة الحكم نكتة لابد منها. وهي تجريد إضافته ونسبته إلىٰ من صدر عنه، بحيث لا ينسبه إلىٰ غيره.

وهذا يتضمن توحيد الربوبية في مسالمة الحكم الكوني. وتوحيد [3] الإلهية في مسالمة الحكم الديني. وهما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [4].

وأما «الخَلاَصُ مِن الخُصُومَةِ» فإنما يحمد منه: الخلاص من الخصومة بنفسه لنفسه. وأما إذا خاصم بالله ولله: فهذا من كمال العبودية. وكان النبي ﷺ يقول في استفتاحه: «اللهم لك أسلمت. وبك آمنت. وعليك

---

(١) سقط من م س: «الحكم الديني» ثم قال بعدها: «الأمر وهي».

(٢) في ط زيادة: «مسالمة».

(٣) في ق: «فتوحيد».

(٤) في هامش ج: «بلغ».

توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. وإليك حاكمت»[١].

الدرجة الثانية

[٢] قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: غِنَىٰ النَّفسِ. وَهُوَ استِقَامَتُهَا عَلَىٰ المَرغُوبِ، وَسَلاَمَتُهَا مِن الحُظُوظِ، وَبَرَاءَتُهَا مِن المُرَاءَاةِ».

جعل الشيخ - رحمه الله -[٣]: غنىٰ النفس فوق القلب.

ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوىٰ من أمور النفس؛ لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة. وهي أن النفس من جند القلب ورعيّته؛ وهي من أشد جنده خلافاً عليه، وشقاقاً له. ومن قِبَلها[٤] تشوش عليه المملكة. ويدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمال بالغنىٰ: لم يتم له إلا بغناها أيضاً. فإنها متىٰ كانت فقيرة[٥] عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه، وكان[٦] غناها تماماً لغناه وكمالاً[٧].

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ ٣/ ١٦٧، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٣/ ٢٠٨٦ (٢٧١٧).

(٢) في ط زيادة: «فصل».

(٣) «رحمه الله» ساقطة من ط.

(٤) في ط دح: «تتشوش».

(٥) في ق: «فعاد».

(٦) في البقية عدا س، ج، ق: «فكان».

(٧) في ط زيادة «له».

وغناه أصلاً بغناها [١]. فمنه يصل الغني إليها. ومنها يصل الفقر والضرر [٢] والعنت إليه.

إذا عرف هذا، فالشيخ ـ رحمه الله ـ [٣] جعل غناها بثلاثة أشياء:

«اسْتِقَامَتُهَا عَلَىٰ المرغُوبِ» وهو الحق تعالىٰ. واستقامتها عليه: استدامة طلبه. وقطع المنازل بالسير إليه [٤].

الثاني: «**سَلاَمَتُهَا مِنَ الحُظُوظِ**» وهي تعلقاتها [٥] الظاهرة والباطنة [٦] بما سوىٰ الله.

الثالث: «**بَرَاءَتُهَا مِنَ المُرَاءَاة**» وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها [٧].

فمراءاتها دليل علىٰ شدة فقرها. وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضاً.

وعدم استقامتها علىٰ مطلوبها الحق أيضاً: من فقرها. وذلك يدل علىٰ أنها غير واجدة لله. إذ لو وجدته لاستقامت علىٰ السير إليه. ولقطعت تعلقاتها

---

(١) في ق: «لغناها».

(٢) في م: «الضرورة».

(٣) «رحمه الله» ساقطة من ط.

(٤) في س «بالسير السير الثاني» وفي ق: «بالسير إليها».

(٥) في ج زيادة: «إليه» والأولىٰ عدمها.

(٦) في م: «الباطنة والظاهرة».

(٧) في م: «أقوالها وأعمالها».

بحظوظها[١]. ولما أرادت بعملها غيره، فلا تستقيم هذه الثلاثة إلا لمن قد ظفر بنفسه، ووجد مطلوبه، ومن[٢] لم يجد ربه تعالىٰ فلا استقامة له، ولا سلامة[٣] من الحظوظ، ولا براءة[٤] من الرياء.

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الغِنَىٰ بِالحَقِّ. وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ مَرَاتِب. المَرْتَبَةُ الأُولَىٰ: شُهُودُ ذِكرِهِ إِيَّاكَ. وَالثَّانِيَةُ[٥]: دَوَامُ مُطَالَعَةِ أَوَّلِيَّتِهِ. وَالثَّالِثَةُ[٦]: الفَوزُ بِوُجُودِهِ»[٧].

أما «شُهُودُ ذِكرِهِ إِيَّاكَ» فقد تقدم قريباً[٨]. وأما «مُطَالَعَةُ أَوَّلِيَّتِهِ» فهو سبقه للأشياء جميعاً. فهو الأول الذي ليس قبله شيء.

قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله.

---

(١) في ط زيادة: «من غيره» وفي ق: «وحظوظها».

(٢) المثبت كما في م. وفي البقية «وما لم».

(٣) في ط زيادة: «لها».

(٤) في ط زيادة «لها».

(٥) المثبت كما في س، ط والبقية: «الثاني».

(٦) في الأصل، د، ج، ح: «الثالث». والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٧) منازل السائرين، ٧٣.

(٨) انظر: الدرجة الثالثة من منزلة الذكر.

فإن قلت [1] : وأي غنىٰ يحصل للقلب من مطالعة أولية [2] الرب ، وسبقه لكل شيء؟ ومعلوم أن هذا حاصل لكل أحد ، من غني و [3] فقير. فما [4] وجه الغني [الحاصل] به [5]؟

قلت : إذا شهد القلب سبقه للأسباب [6] ، وأنها كانت في حيز العدم. وهو الذي كساها حُلَّة الوجود. فهي معدومة بالذات. فقيرة إليه بالذات. وهو الموجود بذاته [7]. والغنىٰ بذاته لا بغيره. فليس الغنىٰ في الحقيقة إلا به ، كما أنه ليس في الحقيقة إلا له [8]. فالغنىٰ [9] بغيره عين الفقر. فإنه غنىٰ بمعدوم فقير ، والفقير [10] كيف يستغنىٰ بفقير مثله؟

وأما «الفَوزُ بِوُجُودِهِ» فإشارة القوم كلهم إلىٰ هذا المعنىٰ. وهو نهاية سفرهم. وفي الأثر الإلهي : «ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن

---

(١) في ج : «فأي».

(٢) في الأصل و س : «أزلية» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٣) في البقية عدا س ، ق ، ج : «أو».

(٤) في س : «لما».

(٥) الزيادة من الجميع ، وفي ج : «به» ساقطة.

(٦) في م : «للأشياء».

(٧) في أ : «لا بغيره فإذا الغني الحاصل فليس... » و «الغني بذاته» ساقطة من غ ، ب ، ح.

(٨) في م : «في الحقيقة ليس الإله».

(٩) في ج : «والغني».

(١٠) في ط : «وفقير».

وجدتني وجدت كل شيء. وإن فتك فاتك كل شيء. وأنا أحب إليك من كل شيء»[١].

ومن لم يفهم[٢] معنىٰ وجوده[٣] لله، والفوز به فليحث علىٰ رأسه الرماد[٤]، وليبك علىٰ نفسه، [والله أعلم][٥].

* * *

---

(١) الحديث أورده ابن كثير في تفسيره، ٢/ ٣٠٢، وذكره المؤلف في كتابه روضة المحبين وأوله: «خلقتك لنفسك فلا تلعب ...» روضة المحبين ٣١٠.

(٢) في ط، أ، ب، غ، ح: «ومن لم يعلم».

(٣) في ج: «وجود الله».

(٤) في م، ح: «التراب».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م.

فصل

[منزلة المراد](١)

منزلة المراد

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «المراد».

أفردها القوم بالذكر(٢). وفي الحقيقة: فكل مريد(٣) مراد؛ بل لم يصر مريداً [إلا](٤) بعد أن كان مراداً؛ لكن القوم خصوا «المريد» بالمبتدىء، و«المراد» بالمنتهىٰ.

قال(٥) أبو علي الدقاق(٦) - رحمه الله -: «المريد محتمل، والمراد محمول»، وقال(٧): «كان موسىٰ مريداً، إذ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، ونبينا

---

(١) في هامش الأصل: «باب مقام المراد» وق: «المراد» وب: «قف منزلة المراد» وج: «بلغ».

(٢) في أ زيادة: «هي» والأولىٰ عدمها.

(٣) قال أبو نصر السراج في كتابه اللمع ص٤١٧ و٤١٨ عن المريد والمراد: «المريد: الذي صح له الابتداء، وقد دخل في جملة المنقطعين إلىٰ الله تعالىٰ بالاسم، وشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته ولم يترسم بعدُ بحال ولا مقام، فهو في السير مع إرادته.
والمراد: العارف الذي لم يبق له إرادة، وقد وصل إلىٰ النهايات، وعبر الأحوال والمقامات والمقاصد والإرادات، فهو مراد أُريد به ما أُريد، ولا يريد إلا ما يريد».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ج: «وقال».

(٦) أبو علي الحسن بن علي الدقاق النيسابوري شيخ الصوفية، توفي سنة ٤٠٦هـ.
انظر: شذرات الذهب ٣/ ١٨٠-١٨١، وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٦٤.

(٧) في البقية عدا الأصل، س، م، ق: «وقد».

ﷺ[1] مراداً، إذ قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]»[2].

وسئل الجنيد - رحمه الله - عن المريد والمراد؟ فقال: المريد يتولاه[3] سياسة العلم. والمراد: يتولاه رعاية[4] الحق؛ لأن المريد يسير، والمراد يطير. فمتى يلحق السائرُ الطائرَ؟[5].

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -:

«بَابُ المُرَادِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، أَكْثَرُ المتكَلِّمِينَ فِي هَذَا العِلْمِ جَعَلُوا المُرِيدَ وَالمُرَادَ اثنينِ، وَجَعَلُوا مَقَامَ «المُرَادِ» فَوقَ مَقَامِ «المُرِيدِ»، وَإِنَّمَا أَشَارُوا بِاسمِ «المُرَادِ» إِلَىٰ الضَّنَائِنِ الذِينَ وَرَدَ فِيهِم الخَبَرُ»[6].

---

(١) في ط زيادة: «كان».

(٢) الرسالة القشيرية ٢٠٤، قلت: والأولىٰ ترك هذا الكلام خاصة بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وقد يفهم منه التنقص لموسىٰ - عليه السلام -، والمفاضلة بين الأنبياء فيها كلام مشهور لأهل العلم. انظر: في ذلك: تفسير ابن كثير ١/ ٣١١، وشرح العقيدة الطحاوية ١٥٨ وما بعدها، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٩٨ وما بعدها.

(٣) في ط، ب، أ، غ، ق: «يتولىٰ سياسته العلم والمراد يتولىٰ».

(٤) في ط: «رعايته».

(٥) الرسالة القشيرية ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٦) منازل السائرين، ص٧٢-٧٤.

قلت : وجه استدلاله بالآيـة(١) : أن الله سبحانه ألقىٰ إلىٰ رسـوله كتابـه ، وخصه بكرامته. وأهلَّه لرسالته ونبوته. من غير أن يكون ذلك منه علىٰ رجاء أو ناله بكسب ، أو توسل إليه بعمل ؛ بل هو أمر أريد به. فهو المراد علىٰ الحقيقة(٢).

وقوله : «إِنَّ أَكثَرَهُم جَعَلُوا المرِيدَ وَالمرَادَ اثنيَن» فهو تعرض إلىٰ أن منهم من اكتفىٰ عن ذكر مقام(٣) «المراد» بمنزلة «الإرادة» ؛ لأن صاحبها مريد مراداً(٤).

وأما «إِشَارَتهُم إِلىَ الضَّنَائِنِ».

فالمراد به : حديث يروىٰ به(٥) مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ : «إن لله ضنائن من خلقه(٦). يحييهم في عافية ، [ويميتهم في عافية](٧)»(٨).

---

(١) في البقية : «استشهاده».

(٢) في ط : «المراد حقيقه».

(٣) «مقام» ساقطة من ج.

(٤) في ج : «يراد».

(٥) «به» ساقطة من الجميع.

(٦) في أ كرر : «من خلقه».

(٧) الزيادة من الجميع.

(٨) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٦ ، وقال عنه الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٨ و ٢٦٩ : «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه مسلم بن عبدالله الحمصي ولم أعرفه وقد جهله الذهبي وبقية رجاله وثقوه» ، وابن أبي الدنيا في كتابه الأولياء ص٢٩ ، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٣٨٥ (١٣٤٢٥) ، والأوسط ٦/ ٢٦٥ (٦٣٦٩) وقال : «لم يرو هذا

و«الضنائن»[١] الخصائص. يقال ضنتي من بين الناس - بكسر الضاد - أي الذي اختص[٢] به. وأضن بجودته[٣]، أي أبخل بها أن أضيعها[٤].

المؤلف يضرب مثالاً لبيان معنى المريد المراد

وقد[٥] مثل المريد[٦] والمراد بقوم بعث إليهم سلطانهم يستدعيهم إلىٰ حضرته من بلاد نائية، وأرسل إليهم بالأدلة والأموال، والمراكب وأنواع الزاد. وأمرهم بأن يتجشموا[٧] إليه قطع السبل والمفاوز. و[٨] يجتهدوا في المسير حتىٰ يلحقوا به. وبعث خيلاً له ومماليك إلىٰ طائفة منهم، فقال: احملوهم علىٰ هذه الخيل التي تسبق الركاب. واخدموهم في طريقهم. ولا تدعوهم يعانون مؤنة الشد والربط؛ بل إذا نزلوا فأريحوهم. ثم احملوهم حتىٰ

الحديث عن نافع إلا مسلم بن عبدالله الحمصي تفرد به إسماعيل، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ١٥٢، وقال: «مسلم بن عبدالله عن نافع مجهول بالنقل، حديثه غير محفوظ»، والحديث ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٣٨٨ و ٣٨٩ (١٢٣٩).

(١) قال في التعريفات ١٨٠: الضنائن: هم الخصائص من أهل الله الذين يضن بهم لنفاستهم، وانظر: معجم مصطلحات الصوفية ١٨٣. والنهاية في غريب الحديث ٣/ ١٠٤.

(٢) في ج: «أخص».

(٣) في ب: «بحاجته» وفي ج: «بمودته».

(٤) في ب: «يضعها».

(٥) سقط من ب، ح: «مثل المريد والمراد بقوم».

(٦) في ط: «للمريد».

(٧) تجشمه: أي تكلفه علىٰ مشقة. مختار الصحاح ١٠٤.

(٨) في ب، م، ح، ج، ق: «ويجتهد» وفي ط زيادة: «أن».

تقدموهم عليّ.

فلم يجد هؤلاء من مجاهدة السير، ومكابدته، ووعثاء [1] السفر ما وجده غيرهم، ومن الناس من يقول «المريد» [2] ينتقل من منزلة «الإرادة» إلىٰ أن يصير «مراداً» فكان محباً. فصار محبوباً. فكل مريد صادق نهاية أمره: أن يكون مراداً. وأكثرهم علىٰ هذا.

وصاحب المنازل كأن عنده «المراد» هو المجذوب [3]، و«المريد» [4] السالك علىٰ طريق الجادة.

---

(١) وعثاء السفر: الوعث رمل رقيق تغيب فيه الأقدام، ثم استعير لكل أمر شاق والمقصود شدة التعب والنصب. انظر: المصباح المنير ص٦٦٤.

(٢) ومن هؤلاء أبو نصر السراج الطوسي حيث قال في كتاب اللمع ص٤١٧، ٤١٨ في التفريق بين المريد والمراد: «والمريد الذي صح له الابتداء وقد دخل في جملة المنقطعين إلىٰ الله تعالىٰ بالاسم، وشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولم يترسم بعدُ بحال ولا مقام فهو في السير مع إرادته.

المراد: العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلىٰ النهايات وعبر الأحوال والمقامات والمقاصد والإرادات فهو مراد أُريد به ما أُريد، ولا يريد إلا ما يريد».

(٣) المجذوب: يقصدون به علىٰ حد تعبيرهم من جذبه الله إليه ووفقه للقيام بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة وسعي منه. انظر: اللمع ٤٤٥، معجم اصطلاحات الصوفية ٩٦، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٦٥، ٢٥٥، وقد يراد به المراد والواصل والعارف كما هو واضح في الهامش السابق.

(٤) في زيادة: «هو».

فصل

درجات المراد الدرجة الأولى

قال: «وَللمُرَادِ ثَلاَثُ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ[1] الأُولَىٰ: أَن يَعصِمَ العَبدَ. وَهُوَ يَستَشرِفُ[2] لِلجَفَاءِ، اضطِرَاراً بِتَنغِيصِ الشَّهَوَاتِ، وَتَعوِيقِ المَلاَذِّ، وَسَدِّ مَسَالِكِ المَعَاطِبِ عَلَيهِ إِكرَاهاً». يعني: أن العبد إذا استشرفت[3] نفسه للجفاء بينه وبين سيده – بموافقة شهواته – عصمه سيده اضطراراً، بأن ينغص عليه الشهوات. فلا تصفو له ألبتة؛ بل لا ينال[4] ما ينال منها إلا مشوباً بأنواع التنغيص، الذي ربما أربىٰ علىٰ لذتها[5] واستهلكها، بحيث تكون[6] اللذة في جنب التنغيص كالخِلسة[7] والغفوة[8]. وكذلك يعوق[9] الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها، حتىٰ لا يركن إليها، و[10]يطمئن [إليها][11] ويساكنها. فيحول بينه

---

(١) «الدرجة» ساقطة من الجميع عدا س، م، ج، ق.

(٢) في البقية عدا الأصل، س، ج، ق: «مستشرق» والمثبت كما في المنازل ٨٤.

(٣) في ق: «استشرق».

(٤) في ب زيادة: «منها» وعدمها أولىٰ.

(٥) في ق: «لذاتها».

(٦) في س: «يكون».

(٧) الخلسة: الاختطاف بسرعة علىٰ غفلة. المصباح المنير ٧٧، وانظر: تفسير غريب الحديث ٨٥.

(٨) الغفوة: النوم الخفيف. انظر: تفسير غريب الحديث ١٧٨، ومختار الصحاح ٤٧٧.

(٩) في س، ج: «تعوق».

(١٠) في ط زيادة: «لا».

(١١) الزيادة في الجميع.

وبين أسبابها. فإن هُيِّئت له قيض له مدافع يحول بينه وبين استيفائها. فيقول : من أين دُهيت؟ وإنما هي عين العناية والحمية والصيانة. وكذلك يسد(١) عنه طرق المعاصي. فإنها طرق المعاطب. وإن كان كارهاً عناية به(٢)، وصيانة له(٣).

فصل

الدرجة الثانية

(٤)«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يَضَعَ عَنِ العَبدِ عَوَارِضَ النَّقصِ ، ويُعَافِيَهُ مِن سِمَةِ اللَّائِمَةِ ، وَيُملِّكَهُ عَواقِبَ الهَفَوَاتِ. كَمَا فَعَلَ بِسُليمَانَ - عَلَيهِ السَّلامُ -(٥) حِينَ قَتَلَ الخَيلَ ، فَحَمَلَهُ عَلَىٰ الرِّيحِ الرُّخَاءِ ، فَأَغنَاهُ عَنِ الخَيلِ. وَفَعَلَ بِمُوسَىٰ - عَلَيهِ السَّلامُ - حِينَ أَلقَىٰ الأَلوَاحَ وَأَخَذَ بِرأسِ أَخِيهِ. وَلَم يَعتَبْ عَلَيهِ كَمَا عَتَبَ عَلَىٰ آدَمَ - عَلَيهِ السَّلامُ -(٦)، وَدَاودَ ، وَيُونُسَ - عَلَيهِمُ السَّلامُ -».

الفرق بين(٧) هذه الدرجة والتي قبلها : أن في التي قبلها منعاً من مواقعة أسباب الجفاء اضطراراً. وفي هذه : إذا عرضت له أسباب النقيصة ، التي

---

(١) في س ، ج : «تسد».

(٢) «به» ساقطة من س.

(٣) «له» ساقطة من ق.

(٤) في ط زيادة : «قال».

(٥) في منازل السائرين ٧٤ : «في قتل الخيل حمله علىٰ الريح الرخاء والعاصف فأغنا».

(٦) في ط زيادة : «ونوح».

(٧) في ط زيادة واو وكلمة : «الفرق بين» ساقطة من أ.

يستحق عليها اللائمة ، لم يعتبه عليها ولم يَلُمْه[١]. وهذا نوع من الدَّلال. وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه. فإن الحبيب يسامح بما لا يسامح[٢] به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه. وإذا هفا هفوة ملَّكه عاقبتها ، بأن جعلها سبباً لرفعته ، وعلوِّ درجته. فيجعل تلك الهفوة سبباً لتوبة نصوح ، وذل خاص ، وانكسار بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة. فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسنات كثيرة. وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه.

وقد استشهد الشيخ - رحمه الله - بقصة سليمان ـ عليه السلام ـ حين ألهته الخيل عن صلاة العصر. فأخذته الغضبة لله والحمية ، وحملته[٣] علىٰ أن[٤] مسح عراقيبها[٥] وأعناقها بالسيف[٦] ، وأتلف مالاً شغله عن الله في الله. فعوضه

(١) في ح : «يكلمه».

(٢) في ق : «بما يسامح».

(٣) في البقية عدا س ، ج : «فحملته».

(٤) «أن» ساقطة من ق.

(٥) في أ ، ب : «أعناقها وعراقيبها».

(٦) وهو كما ورد في سورة ص الآية ٣١-٣٣ قال تعالىٰ : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتىٰ توارت بالحجاب * ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ وقد اختلف بالمسح هنا فقيل العقر ، وقيل القتل ، وقيل المسح باليد عليها وإمرارها ، فمن المفسرين من رجح المسح باليد وقال : لأن القول بالقتل فيه إهلاك مال بدون سبب وعقوبة حيوان بدون ذنب. وقد رجح ابن كثير وغيره القول بأن

الله منه : أن حمله علىٰ متن الريح. فملَّكه الله تعالىٰ عاقبة هذه الهفوة ، وجعلها سبباً لنيل [تلك](١) المنزلة الرفيعة.

واستشهد بقصة موسىٰ - عليه السلام -(٢) ، حين ألقىٰ الألواح – وفيها كلام الله – عن رأسه وكسرها ، وجر بلحية أخيه. وهو نبي مثله ، ولم يعاتبه(٣) الله علىٰ ذلك ؛ كما عتب علىٰ آدم - عليه السلام -(٤) في أكل لقمة من الشجرة ،

معنىٰ المسح هو القتل والقطع بالسيف ، وقالوا بأن هذا القول هو الذي يتناسب مع سياق الآيات ومعانيها.

وأما مسألة الإتلاف فأجابوا أنه قد يكون في شرعهم جواز هذا ، وأيضاً فإن إفساد المال المنهي عنه هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح ، وأما إذا كان لغرض صحيح فجائز كما فعل الرسول ﷺ من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة ، وما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

انظر : تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٧ ، وفتح القدير ٤/ ٤٣١ ، ٤٣٢.

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) كما جاء في سورة الأعراف الآية ١٥٠ قال تعالىٰ : ﴿ **وألقىٰ الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ الآية.

(٣) في ب ، ج ، ق : «يعتبه» و «الله» ساقطة من م ، ج.

(٤) كما جاء في سورة الأعراف الآية ٢٢ ، قال تعالىٰ : ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾.

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله - هذا فيما سبق عند حديثه علىٰ الكبائر في فصل ذكر فيه أن الصغائر قد تلحق بالكبائر. انظر : المدارج ١/ ٣٣٣.

وعلىٰ نوح[1] حين[2] سأل ربه في ابنه أن ينجيه. وعلىٰ داود[3] في شأن امرأة أوريا وعلىٰ يونس في شأن[4] المغاضبة.

---

(١) في البقية عدا س، ق، ج: «في ابنه حين سأل ربه أن ينجيه».

(٢) كما جاء في سورة هود الآيات ٤٥، ٤٦ قال تعالىٰ: ﴿ونادىٰ نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

(٣) ذكر بعض المفسرين هذه القصة عند شرحهم للآيات رقم ٢١-٢٥ من سورة ص عند قوله تعالىٰ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾. وهذه القصة رواها الطبري في تفسيره لهذه الآيات، وكذلك السيوطي في الدر المنثور وابن كثير وغيرهم، وعلىٰ كثرة الروايات التي جاءت فيها فهي لا تليق بواحد من الصالحين، فكيف بواحد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وجميع رواياتها لا تصح حيث لا تخلو واحدة منها من الانقطاع، أو وجود راو متكلم فيه إما بضعف أو نحو ذلك. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣.

وقال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: «وأما قصة داود ـ عليه السلام ـ فلا يجب أن يلتفت إلىٰ ما سطره فيها الإخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله علىٰ شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح ... إلىٰ أن قال: وقيل إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في نتاج غنم علىٰ ظاهر الآية. الشفاء ٢/ ٣٧١-٣٧٣.

وانظر هذه الروايات في الدر المنثور ٧/ ١٥٥-١٦٨، وقد ذكر المؤلف هذه القصة في آخر كتابه الجواب الكافي وقد أحسن المعلق علىٰ هذا صنعاً حيث تتبع روايات هذه القصة ودرس أسانيدها وبين عللها وتحدث عن عصمة الأنبياء فليراجع. انظر: الجواب الكافي ص٢٠٧-٢١٦.

(٤) كما جاء في سورة الأنبياء، آية ٨٧، ٨٨ قال تعالىٰ: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول [١] : وكذلك لطم [٢] عين ملك الموت ـ عليه السلام ـ ففقأها. ولم يعتب عليه ربه. وفي ليلة الإسراء عاتب – عليه الصلاة والسلام – ربه في النبي ﷺ. إذ رفع [٣] فوقه، ورفع صوته بذلك. ولم يعتبه الله علىٰ ذلك. قال : لأن موسىٰ – عليه الصلاة والسلام – قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال. فإنه قاوم أكبر أعداء الله تعالىٰ فرعون وتصدىٰ له ولقومه. وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة. وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد. وكان شديد الغضب لربه [٤]، فاحتمل له ما لم يحتمله [لغيره] [٥].

نقدر عليه فنادىٰ في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾.

وقد تقدم ذكر ذلك عند حديث المؤلف عن الكبائر في فصل قال فيه : فإن قيل قد ذكرتم أن المحب يسامح ... إلخ. انظر : المدارج ١/ ٣٣٣.

(١) «يقول» ساقطة من ج.

(٢) في ط زيادة : «موسىٰ» وقد تقدم كلام المؤلف علىٰ هذا عند حديثه علىٰ الكبائر في فصل ذكر فيه أن الكبيرة قد تلحق بالصغائر، والصغيرة قد تلحق بالكبائر علىٰ حسب ما يقوم بقلب العبد. انظر : المدارج ١/ ٣٢٨.

(٣) في الأصل، ق : «إذا» والمثبت أولىٰ، وفي ط : «رفعه» وقد تقدم أيضاً كلام المؤلف في هذا عند حديثه علىٰ منزلة الأدب في الفصل الثاني منها وقد ذكر هناك روايتين الأولىٰ : «يقول بني إسرائيل إني كريم» والثانية «فلما جاوزته بكىٰ ...». انظر : المدارج ١/ ٣٢٨، ٢/ ٣٨٣.

(٤) «لربه فاحتمل» ساقطة من ج.

(٥) الزيادة من الجميع.

وذو النون لما لم يكن في هذا[1] المقام: سجنه في بطن الحوت من غضبه[2]. وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: اجتِبَاءُ الحَقِّ عَبدَهُ، واستِخلاَصُهُ إِيَّاهُ بِخَالِصَتِهِ**[3]. **كَمَا ابتَدَأَ مُوسَىٰ، وَقَد خَرَجَ يَقتَبِسُ نَاراً، فَاصطَنَعَهُ**[4] **لِنَفسِهِ. وَأَبقَىٰ مِنهُ رَسماً مُعَاراً**»[5].

[قلت][6]: «الاجتباء»[7] الاصطفاء، والإيثار، والتخصيص. وهو افتعال من جَبَيْت الشيء: إذا حُزته[8] إليك. كجباية المال وغيره.

و «الاصطناع» أيضاً الاصطفاء، والاختيار. يعني أنه اصطفىٰ موسىٰ ـ عليه

(١) «هذا» ساقطة من ق.

(٢) في م: «الغضبه».

(٣) في م: «لخالصته».

(٤) في م، ح: «فاصطفاه».

(٥) منازل السائرين ٧٤.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٧) انظر: مختار الصحاح ص٩٢ و ٣٦٦، ومعجم اصطلاحات الصوفية ٢٨٤، وكتاب اللمع ٤٤٧.

(٨) في ط زيادة: «وأحرزته».

السلام ـ واستخلصه لنفسه. وجعله له[١] خالصاً من غير سبب كان من موسىٰ ولا وسيلة[٢]، فإنه خرج ليقتبس النار ، فرجع[٣] وهو كليم الواحد[٤] القهار. وأكرم الخلق عليه ، ابتداءً منه سبحانه من غير سابقة استحقاق ، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل :

أيُّها العبدُ ، كُنْ لما لسْتَ ترجُو ... من صَلاحِ أرْجَىٰ لما أنت رَاجِي
إنَّ مُوسَىٰ أتىٰ ليقبسَ نَاراً ... من ضِيَاءٍ رَآه والليلُ دَاجِي
فانْثَنَىٰ رَاجِعاً ، وقد كلَّمَه اللهُ ... ونَاجاه وهو خيرُ مُنَاجِي

وقوله : «وَأَبْقَىٰ منه رَسْماً مُعَاراً».

يحتمل أن يريد بالرسم : البقية التي تقدمه بها[٥] محمد ﷺ . ورفع فوقه بدرجات لأجل بقائها معه.

ويحتمل – وهو الأظهر –[٦] أنه أخذه من نفسه ، واصطنعه لنفسه. واختاره من بين العالمين. وخصه بكلامه ، ولم يبق له من نفسه إلا رسماً مجرداً يصحب به الخلق ، وتجري[٧] عليه فيه أحكام البشرية. إتماماً لحكمته ،

---

(١) في ط : «وجعله خالصاً له» وفي م : «له» ساقطة.

(٢) في ج : «مسألة».

(٣) في م : «فخرج».

(٤) «الواحد» ساقطة من م.

(٥) في ط : «تقدم بها عليه».

(٦) في البقية عدا س : «الأظهر».

(٧) في ج : «ويجري».

وإظهاراً لقدرته. فهو عارية معه. فإذا قضىٰ ما عليه استرد منه[1] ذلك الرسم. وجعله من ماله. فتكملت إذ ذاك مرتبة الاجتباء. ظاهراً وباطناً، حقيقة ورسماً، ورجعت العارية إلىٰ مالكها الحق الذي[2] يرجع إليه الأمر كله. فكما ابتدأت منه عادت إليه.

وموسىٰ - عليه السلام - كان من مظهر الجلال. ولهذا كانت شريعته شريعة[3] جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم، وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجلت[4] لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار[5] والأغلال، ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسىٰ ﷺ من أعظم خلق الله هيبة ووقاراً. وأشدهم بأساً وغضباً لله[6]، وبطشاً بأعداء الله، وكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسىٰ ﷺ: كان في[7] مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل

---

(١) «منه» ساقطة من ط.

(٢) في ح، ج، ق: «إليه يرجع».

(٣) «شريعة» ساقطة من أ، ب، م، ح.

(٤) في ط: «وعجل».

(٥) الإصر: هو الذنب والثقل والعهد، والغل بالضم هي القيود. انظر: مختار الصحاح ص١٨، ٤٧٩، والمصباح المنير ص٤٥١ و ٤٥٢، وانظر: تفصيلاً لما ذكر المؤلف في تفسير أبي السعود ٣/ ٢٧٩ و ٢٨٠.

(٦) في س: «وغضباً وبطشاً لله».

(٧) «في» ساقطة من ج.

وإحسان، وكـان لا يقاتـل، ولا يحـارب، ولـيس [1] في شريعتـه قتـال ألبتـة. والنصارىٰ [2] يحرم عليهم دينهم [3] القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم [4] فيه: أن «من لطمك علىٰ خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك. فأعطه رداءك. ومن سخرك ميلاً. فامش معه ميلين» [5] ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال، وإنما النصارىٰ ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم، ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله، وهذا [6] اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات؛ ولذلك [7] تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له

---

(١) في ج: «فليس».

(٢) سموا بذلك قيل: لتناصرهم فيما بينهم، وقيل: لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة وهم أمة عيسىٰ - عليه السلام -، وقد اختلفوا فيه اختلافاً عظيماً قالوا: هو ابن الله، وقالوا: هو الله، وقالوا: ثالث ثلاثة، وخالفوا الحق في كثير من الأمور. انظر: الملل والنحل ١/ ٢٢٠-٢٢٨، هداية الحيارىٰ ص٤٦-٥١، تفسير ابن كثير ١/ ١٠٦.

(٣) في ح، ج، ق: «في دينهم».

(٤) في الأصل، س، م، ق: «يأمر» والمثبت كما في البقية وهو الأولىٰ.

(٥) انظر: الكتاب المقدس: العهد الجديد وفيه إنجيل متىٰ الإصحاح الخامس ٩.

(٦) «وهذا» ساقطة من م.

(٧) في ج: «وكذلك».

وفرضاً ، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً ، وبالشدة في موضع الشدة ، وباللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه ، ووضع(١) الندىٰ موضعه ، فيذكر الظلم ويحرمه ، والعدل ويوجبه ، والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] فهذا عدل. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] فهذا فضل.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله : ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل : ١٢٦](٢) ، فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم. ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل : ١٢٦] ندب إلىٰ الفضل.

وقوله : ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ هذا عدل(٣) ﴿لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٧٩] تحريم الظلم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ عدل ، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فضل.

---

(١) الندىٰ : يراد به في اللغة عدة معاني منها السخاء والجود وكثرة الخير.
انظر : مختار الصحاح ٦٥٣ ، وقد تكلم المؤلف عليه في غير هذا الموضع ويقصد به الإحسان ، وبالسيف العقوبة ، وقد يراد به الخير. انظر : مدارج السالكين ٢/ ٣٠٧ ، وطريق الهجرتين ١٧١.

(٢) في ق : «هذا».

(٣) «هذا عدل» ساقطة من ط.

وكذلك تحريم ما حرم على الأمة [١] صيانة وحمية، وحرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم. ووهب لهم من علمه وحلمه. وجعلهم [٢] خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم [٣]. كما كمل لنبيهم [٤] ﷺ من المحاسن ما فرقه [٥] في الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما [٦] فرقها في الكتب قبله.

وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم [٧] «الضنائن»، وهم المُجْتبَون [الأخيار] [٨]. كما قال لهم [٩] إلههم: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

---

(١) في الجميع عدا ش، م: «على أمته».

(٢) سقط من م إلى قوله: «شهداء على الناس».

(٣) في س: «من الأمة».

(٤) في ط: «بينهم».

(٥) في ط: «بما فرقة».

(٦) في ط «بما».

(٧) في ق: «وهؤلاء» و«هم» ساقطة من ط.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س.

(٩) في البقية عدا س: «تعالى» بدل: «لهم إلههم».

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها[1] يستدعي سفراً ؛ بل أسفاراً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

(١) «خصائصها» ساقطة من م.

فصل

[منزلة الإحسان](1).

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الإحسان»(2). منزلة الإحسان

وهي لبُّ الإيمان ، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ما قيل من أول الكتاب إلىٰ ههنا فهو من الإحسان.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «وقد استشهد علىٰ هذه المنزلة بقوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] :

«فَالإِحسَانُ(3) : جَامِعٌ لجَمِيعِ أَبْوابِ الحَقَائِقِ. وَهُوَ أَنْ تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ». معنى الإحسان

فأما(4) الآية : فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والمفسرون : هل جزاء من قال

---

(1) في هامش الأصل ، ج ، ح «بلغ» وفي ج : «باب الإحسان» وفي ق : «بداية الجزء الخامس».

(2) الإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وقيل : أراد بالإحسان الإخلاص ، وقيل : أراد به الإشارة إلىٰ المراقبة وحسن الطاعة.

وعبر عنه أهل التصوف بقولهم : تهذيب القصد بعلم الشريعة والطريق ، وقيل : وهو التحقق بالعبودية علىٰ مشاهدة حضرة الربوبية.

انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٨٧ ، التعريفات ٣٣ ، معجم اصطلاحات الصوفية ص٥٢ ، ٢٨٦.

(3) «فالإحسان» ساقطة من م.

(4) في البقية عدا م ، ق : «أما».

«لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة[١].

وقد روىٰ عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ثم قال: «هل تدرون ما[٢] قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: «هل[٣] جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟»[٤].

وأما الحديث: فإشارة إلىٰ كمال الحضور مع الله [عز وجل][٥]، ومراقبته الجامعة[٦] لخشيته، و محبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

درجات الإحسان: الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِحسَانُ فِي القَصدِ بِتَهذِيبِهِ عِلماً، وَإِبرَامِهِ عَزماً[٧]، وَتَصفِيَتِهِ حَالاً[٨]».

يعني إحسان القصد[٩] بثلاثة أشياء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٧١٤.

(٢) في البقية عدا س، م: «ماذا».

(٣) «هل» ساقطة من أ، غ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٧١٤، وقال: وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبغوي في تفسيره، والديلمي في مسند الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس ثم ذكره، وانظر حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ١٠٣.

(٥) الزيادة من البقية عدا س، م، ج، ق.

(٦) في الأصل، س، ق: «الجامع»، والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٧) في م: «وإبرازه»، وفي ح، ب: «وإبرامه عرفاً».

(٨) منازل السائرين ص٧٥، ٧٦.

(٩) في ط زيادة: «يكون».

أحدها: تهذيبه علماً، بأن يُجعل [١] تابعاً للعلم علىٰ مقتضاه مهذباً به. منقىٰ من شوائب الحظوظ. فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم. و «العلم» هو اتباع [٢] الأمر والشرع.

والثاني: إبرامه عزماً. و «الإبرام» الإحكام والقوة[٣]. أي يقارنه عزم يمضيه، ولا يصحبه فتور وتوان يضعفه ويوهنه.

الثالث: تصفيته حالاً. أي يكون حال صاحبه صافياً من الأكدار والشوائب، التي تدل علىٰ كدر قصده. فإن الحال مظهر القصد وثمرتُه. وهو أيضاً مادتُه وباعثُه. فكل منهما ينفعل عن الآخر. فصفاؤه وتخليصُه من تمام صفاء الآخر وتخليصِه.

[فصل][٤]

[قال][٥]: «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الإِحسَانُ فِي الأَحوَالِ. وَهُوَ أَن يُرَاعِيَهَا[٦] غيرَةً، ويستُرَهَا[٧] تَظَرُّفاً، وَيُصَحِّحَهَا[٨] تَحقِيقاً**»[٩]. الدرجة الثانية

(١) في البقية عدا س وق: «يجعله».

(٢) في أ، غ: «الاتباع».

(٣) انظر: المصباح المنير ٤٥.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م، ج، ق، س.

(٥) الزيادة من الجميع عدا م، ق، س، ج.

(٦) في ط: «تراعيها» وم: «وهي أن يراعيها».

(٧) في ط: «تسترها».

(٨) في ط: «تصححها».

(٩) في ج: «تخففا» وانظر منازل السائرين ٧٦.

يريد بمراعاتها حفظها وصونها، غيرة عليها أن تحول[١]، فإنها تمرُّ مرَّ السحاب. فإن لم يرع[٢] حقوقها حالت. ومراعاتها: بدوام الوفاء[٣]، وتجنب الجفاء[٤]، ويراعيها[٥] أيضاً بإكرام نزلها. فإنها ضيف. والضيف إن لم يكرم[٦] نزله ارتحل.

ويراعيها أيضاً بضبطها ملكه. وشدَّ يده عليها، وأن لا يسمحَ بها لقاطع[٧] ولا ناهب.

ويراعيها[٨] أيضاً: بالانقياد إلىٰ حكمها[٩]، والإذعان لسلطانها إذا وافق الأمر.

ويراعيها[١٠] أيضاً: بسترها تظرفاً[١١]، وهو أن يسترها عن الناس ما أمكنه؛

---

(١) في س: «أن يجول» وفي م: «تجول».

(٢) في س، م، ب: «ترع».

(٣) في الأصل: «الوقا» والمثبت كما في البقية لمناسبة المعنىٰ.

(٤) في م: «الغدر».

(٥) في س: «وتراعيها» والواو ساقطة من غ.

(٦) في ط، ب، أ، غ: «تكرم».

(٧) في ط زيادة: «طريق».

(٨) في س: «وتراعيها».

(٩) في م «بحكمها».

(١٠) في س: «وتراعيها».

(١١) «تظرفاً» ساقطة من م.

لئلا يعلموا بها. ولا يظهرها إلا لحجة، أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للصوص والسراق والمغيرين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين: حمق وعجز. وهو من حظوظ النفس والشيطان[1]. وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم. حتىٰ إن منهم من يظهر أضدادها نفياً وجحداً، وهم أصحاب الملامة[2]، ولهم طريقة معروفة، وكان شيخ هذه الطائفة عبدالله[3] ابن منازل. واتفقت الطائفة علىٰ أن من اطلع الناس علىٰ حاله مع الله: فقد دنس طريقته، إلا لحجة أو حاجة أو ضرورة.

وقوله: «وَتَصحِيحُهَا[4] تحَقِيقاً».

---

(١) في ح زيادة «عند» وهي غير ملائمة.

(٢) في ط، غ، م، ب: «الملامية» وأصحاب الملامة هم طائفة من الصوفية يظهرون عيوبهم، ويكتمون محاسنهم فيلومهم الخلق علىٰ ظواهرهم ويسمون الملامية والأمناء.
انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٥٦، والتعريفات ص٢٨٥، ٢٨٦، ومجموع الفتاوىٰ ٣/ ١٦٤.

(٣) في الأصل، س، م، ج، ق زيادة «أبو» وهي خطأ.
وعبدالله بن منازل هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن منازل النيسابوري والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ٢/ ١٥٦، وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٠، شيخ الملامية صحب حمدون القصار وله اهتمام بالحديث، توفي بنيسابور سنة ٣٢٩هـ. انظر: الطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ٢٣٣ و ٢٣٤، والرسالة القشيرية ص٤٣٥.

(٤) في غ بدون: «الواو» وفي م: «يصحبها».

أي يجتهد في تحقيق أحواله [١]، وتصحيحها وتخليصها. فإن الحال قد يمتزج [٢] بحق وباطل، ولا يميزه إلا أولو البصائر والعلم.

الفوارق بين الوارد الملكي والوارد الشيطاني

وأهل هذه الطريقة [٣] يقولون: إن الوارد الذي يبتدئ العبد من جانبه الأيمن والهواتف والخطاب: يكون في الغالب حقاً. والذي يبتدئ من الجانب الأيسر: يكون [في] [٤] الغالب باطلاً وكذباً. فإن أهل اليمين: هم أهل الحق. وبأيمانهم يأخذون كتبهم. ونورهم الظاهر علىٰ الصراط يكون [٥] بأيمانهم. وكان [٦] رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله، وطهوره [٧] وشأنه كله، [٨] [والله] [٩] وملائكته يصلون علىٰ ميامن الصفوف [١٠]. وأخبر أن

(١) في م: «تحقيقها وتخليصها».

(٢) في م: «تمتزج».

(٣) في البقية عدا غ: «الطريق».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) «يكون» ساقطة من ط.

(٦) «كان» ساقطة من م هنا وذكرت بعد «وسلم».

(٧) في ق: «وظهوره».

(٨) في ط: «وشأته»، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل ١/ ٥٠، ومسلم في كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره ١/ ٢٢٦ (٢٦٨).

(٩) الزيادة من الجميع عدا م.

(١٠) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب من يستحب أن يلي الإمام وكراهية التأخر ١/ ٤٣٧ (٦٧٦)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب فضل ميمنة الصف ١/ ٣٢١

الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله[1]. وحظه من ابن آدم جهة الشمال. ولهذا تكون[2] اليد الشمال للاستجمار[3]، وإزالة النجاسة والأذىٰ ويبدأ بها[4] عند دخول الأذىٰ[5].

ومن الفرقان[6] أيضاً أن[7] كل وارد يبقىٰ الإنسان بعد انفصاله نشيطاً مسروراً نشواناً[8]: فإنه وارد ملكي، وكل وارد يبقىٰ[9] بعد انفصاله خبيث النفس كسلان، ثقيل الأعضاء والروح، يجنح إلىٰ فتور: فهو[10] وارد شيطاني.

(١٠٠٥)، والبيهقي كتاب جماع أبواب موقف الإمام والمأموم، باب ما جاء في فضل ميمنة الصف ٣/ ١٠٣ (٤٩٨٠) وابن حبان في صحيحه ٥/ ٥٣٣ والحديث حسنه الحافظ في الفتح ٢/ ٢١٣ وقال الألباني حسن. مشكاة المصابيح ١/ ٣٤٢ (١٠٩٦).

(١) كما جاء في الحديث: «لا يأكلن أحد منكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها» صحيح مسلم كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها ٢/ ١٥٩٨ و ١٥٩٩ (٢٠٢٠).

(٢) في غ: «تكن»، ج: «يكون».

(٣) في س: «للاستنجاء».

(٤) في ط: «بالرجل الشمال».

(٥) في الجميع عدا م: «الخلاء».

(٦) في ط: «الفرفان»، ق: «في الفرقان».

(٧) «أن» ساقطة من ج.

(٨) «نشواناً» ساقطة من م.

(٩) في ط زيادة: «الإنسان».

(١٠) «فهو» ساقطة من م.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل وارد أعقب[1] في القلب: معرفة بالله[2] ومحبة له، وأنساً به، وطمأنينة بذكره، وسكوناً إليه فهو ملكي إلهي. وخلافه بخلافه.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل وارد أعقب صاحبه تقدماً إلىٰ الله والدار الآخرة، و[3]حضوراً فيها، حتىٰ كأنه يشاهد الجنة قد أزلفت، والجحيم قد سعرت: فهو إلهي ملكي، وخلافه شيطاني نفساني.

ومن الفرقان [أيضاً][4]: أن كل وارد[5] كان سببه النصيحة في امتثال الأمر والإخلاص والصدق فيه: فهو إلهي ملكي. وإلا فهو شيطاني.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل[6] وارد استنار به القلب، وانشرح له الصدر، وقوي به القلب فهو[7] إلهي [ملكي][8]، وإلا فهو شيطاني.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل وارد جمعك علىٰ الله فهو منه، وكل وارد فرقك عنه، وأخذك منه[9]: فمن الشيطان.

---

(١) في ق: «عقب» وفي أ بعدها زيادة: «صاحبه تقدماً إلىٰ الله تعالىٰ» وهي غير ملائمة.

(٢) في م: «الله».

(٣) في ج: «الواو» ساقطة.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ق زيادة «أعقب» وهي غير ملائمة.

(٦) سقط من م إلىٰ قوله: «وارد جمعك علىٰ الله».

(٧) «فهو» ساقطة من ط.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س.

(٩) في ط: «عنه» وبعدها في م: «فهو من».

ومن الفرقان أيضاً : أن الوارد الإلهي لا يصرف إلا في قربة وطاعة ، ولا يكون سببه إلا قربة وطاعة ، فمُستَخْرِجُه الأمر ومصروفه[١] الأمر ، والشيطاني بخلافه.

ومن الفرقان أيضاً [أن][٢] الوارد الرحماني لا يتناقض ، ولا يتفاوت ولا يختلف ؛ بل يصدق بعضه بعضاً ، والشيطاني[٣] بخلافه يكذب بعضه بعضاً [والله سبحانه أعلم][٤].

فصـــل

قال[٥] : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الإِحسَانُ فِي الوَقتِ. وَهُوَ أَن لاَ تُزَايِلَ[٦] المشَاهَدَةَ [أَبداً][٧] ، وَلاَ تخلِطَ بِهِمَّتِكَ أَحَداً ، وَتجعَلَ هِجرَتَكَ إِلَىٰ الحَقِّ سَرْمَداً»[٨]. الدرجة الثالثة

أي[٩] لا تفارق حال الشهود.

---

(١) في الجميع عدا أ ، ب ، س : «ومصرفه».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في غ : «والشيطان» .

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) «قال» ساقطة من ج.

(٦) في الأصل ، س : «بالياء» والمثبت كما في البقية ومنازل السائرين.

(٧) الزيادة من الجميع عدا س.

(٨) منازل السائرين ٧٦.

(٩) «أي» ساقطة من ق وفي م : «لا يفارق».

وهـذا إنـما يقـدر عليـه أهـل التمكـين[1] الـذين ظفـروا بنفوسـهم ، وقطعـوا المسافات التي بين النفس وبين القلب ، والمسافات التي بين القلب وبـين الله ، بمجاهدة القطاع التي علىٰ تلك المسافات.

و[2]قوله : «وَلاَ تَخلِطَ[3] بِهِمَّتِكَ أَحَداً».

يعني : أن تعلِّقَ همتك بالحق وحده. ولا تعلق [همتك][4] بأحد غيره. فإن ذلك شرك في طريق الصادقين.

وقوله[5] «وَأَن تَجعَلَ هِجرَتَكَ إِلَىٰ الحَقِّ سَرمَداً». يعني : أن كل متجه إلىٰ الله بالصدق والإخلاص ، فإنه من الهاجرين إليه. فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة ؛ بل [6] يصحبها سرمداً. حتىٰ يلحق الله.

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقَضِـي ويحمدُ غب[7] السير من هو سائر[8]

---

(١) في ط : «التمكن».

(٢) المثبت كما في الأصل ، س ، م ، وفي البقية بدون «الواو».

(٣) في س ، ج : «وأن لا تخلط».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) في البقية عدا س ، م ، ج الواو ساقطة.

(٦) في ط زيادات : «ينبغي أن».

(٧) في م : «عقبىٰ».

(٨) البيت ذكره ابن القيم بشطره الأول في بدائع الفوائد ٢/ ٤٠٦ ، وأكمل بشطر آخر نصه : ويذهب هذا كله ويزول ، ومثله في روضة المحبين ٥ ، ومثله في زاد المعاد ٣/ ٧٥ إلا أن الشطر الأخير نصه : ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا.

ولله علىٰ كل قلب هجرتان. وهما فرض لازم له[1] علىٰ الأنفاس:

هجرة إلىٰ إلهه[2] بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلىٰ رسوله[3] بالتحكيم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقىٰ أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تقيده[4] به أعظم من تقيد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل، ومتاهات[5] الطرق[6].

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث علىٰ رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه يقتبس[7] نوراً، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك علىٰ الصراط من وراء السور. والله المستعان.

* * *

(١) «له» ساقطة من ق.

(٢) المثبت كما في الأصل، ق وفي البقية: «الله».

(٣) في م: «رسول».

(٤) في البقية عدا م: «تعبده به أعظم من تعبد».

(٥) في ج: «تناهات».

(٦) في ط، ح، ج: «الطريق».

(٧) في ط، م: «ليقتبس».

فصل

[منزلة العلم] (١)

منزلة العلم

ومن منازل: « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة: « العلم »(٢).

الحث على العلم والعمل به

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من(٣) أول قدم يضعه في الطريق إلىٰ آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه علىٰ غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدىٰ والفلاح، مُغلَقَةٌ عنه أبوابُها. وهذا إجماع من الشيوخ العارفين(٤). ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم(٥)، ونواب إبليس وشرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم(٦) الجنيد [بن محمد](٧) - رحمه الله -: الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا علىٰ(٨) من اقتفىٰ آثار الرسول ﷺ.

---

(١) في هامش الأصل، ج: «باب العلم» و ق: «العلم».

(٢) العلم: ضد الجهل وهو زوال الخفاء عن المعلوم، وقيل: إدراك الشيء علىٰ ما هو به، وقيل: هو مستغن عن التعريف. انظر التعريفات ٢٠٠.

(٣) في أ، ب: «فما أول».

(٤) في ج: «والعارفين».

(٥) «منهم» ساقطة من م.

(٦) «شيخهم» ساقطة من م.

(٧) الزيادة من الجميع.

(٨) «علىٰ» ساقطة من أ، غ، ب، ج. وانظر: قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٠، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٧.

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدىٰ به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة[١].

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول[٢] الكتاب والسنة.

وقال : أبو حفص ـ رحمه الله ـ : من لم يزن أفعاله[٣] وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره. فلا يعد في ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان[٤] الداراني ـ رحمه الله ـ : ربما يقع في قلبي النكتةُ من نكت القوم أياماً. فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة[٥].

وقال سهل بن عبدالله ـ رحمه الله ـ : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء – طاعة كان[٦] أو معصية – فهو عيش النفس. وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء : فهو عذاب على النفس.

وقال السري[٧]: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفىٰء نور معرفته نور ورعه،

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٤٣١ ، والحلية ١٠/ ٢٥٥.

(٢) «بأصول» ساقطة من م ، وفي ق «بالأصوال» ، وانظر : قوله في الحلية ١٠/ ٢٥٥.

(٣) في ق : «أحواله وأفعاله» ، وانظر قوله في صفة الصفوة ٤/ ١٢٠.

(٤) أبو سليمان عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني نسبة لداريا قرية من قرىٰ دمشق توفي سنة ٢٠٥هـ وقيل ٢١٥هـ. انظر : البداية والنهاية ١١/ ٢٥٥-٢٥٩ ، وصفة الصفوة ٤/ ٢٢٣ – ٢٣٤ ، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ١٧٩ و ١٨٠.

(٥) الرسالة القشيرية ٤١١ .

(٦) «كان» ساقطة من أ ، غ ، ب ، م ، ج ، وقوله في الرسالة القشيرية ٤٠١.

(٧) أبو الحسن السري بن المغلس السقطي وقيل الحسين خال الجنيد وأستاذه ، صحب معروفاً

ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات علىٰ هتك أستار محارم الله.

وقال أبو يزيد [1] ـ رحمه الله ـ: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت [2]، واختلاف العلماء رحمة، إلا في تجريد التوحيد.

وخرج [3] مرة لزيارة بعض الزهاد، فرآه قد دخل المسجد ورمىٰ ببصاقة نحو القبلة، فرجع ولم يسلم عليه. وقال: هذا غير مأمون علىٰ أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدعيه [4]؟

وقال: لقد هممت أن أسأل الله تعالىٰ أن يكفيني مئونة النساء [5].

الكرخي، ومات ببغداد سنة ٢٥١هـ. انظر: حلية الأولياء ١٠/ ١١٦ - ١٢٨، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٦٩-١٧١، والرسالة القشيرية ٤١٧-٤١٩، وانظر قوله في الطبقات ١/ ١٦٩، والرسالة القشيرية ٤١٨ وفيها «المتصوف».

(١) هو طيفور بن عيسىٰ البسطامي كان جده مجوسياً فأسلم وهو صوفي شهير وله شطحات، ولد سنة ١٨٨ وتوفي سنة ٢٦١. انظر: الرسالة القشيرية ص٣٩٥ - ٣٩٧، حلية الأولياء ١٠/ ٣٣-٤٢، ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧ (٤٠٣٥)، الأعلام ٣/ ٣٣٩، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٦.

(٢) في م: «لتفتت».

(٣) في البقية عدا س، م: «وقال مرة لخادمه: قم بنا إلىٰ هذا الرجل الذي شهر نفسه بالصلاح لنزوره فلما دخل تنخع، ثم رمي بها نحو القبلة». الرسالة القشيرية ٣٩٦.

(٤) في م: «علىٰ ما وراءه».

(٥) المئونة: ترد بمعنىٰ القوت والطلب والمشقة والتعب والعلامة. انظر: لسان العرب

ثم [١] قلت: كيف يجوز لي أن أسال الله[٢] هذا. ولم يسأله رسول الله ﷺ؟ ولم أسأله. ثم إن الله كفاني مئونة النساء، حتىٰ لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط. وقال: لو نظرتم [٣] إلىٰ رجل أُعطِيَ من الكرامات [إلىٰ][٤] أن يُرفع [٥] في الهواء، فلا تغتروا به، حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

وقال أحمد بن أبي الخواري[٦]: من عمل عملاً بلا اتباع سنة، فباطل عمله[٧].

وقال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله -: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة. والصحبة مع الرسول ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحسن

١٣/ ٣٩٥-٣٩٨، والتعريفات ص٢٤٨ و ٢٤٩.

(١) «ثم» ساقطة من من ب، م، وفي م: «فقلت».

(٢) «الله» ساقطة من م، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٦.

(٣) في غ: «لو نظرت».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ط: «يرتفع»، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٧.

(٦) في البقية: «الحواري» وهو أبو الحسن أحمد بن أبي الخواري واسم أبي الخواري ميمون من أهل الشام صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة وغيرهما، مات سنة ٢٣٠هـ.
انظر: صفة الصفوة ٤/ ٢٣٧ و ٢٣٨، والحلية ١٠/ ٥-٣٣، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٨٤.

(٧) انظر: قوله في شذرات الذهب ٢/ ١١٠، والرسالة القشيرية ٤١٠.

الخلق[١]. ومع الإخوان: بدوام البشر. ما لم[٢] يكن إثماً. ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة.

زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما[٣] ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضاً: من أمَّر السنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوىٰ علىٰ نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالبدعة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤][٤].

وقال أبو الحسين النوري[٥] ـ رحمه الله ـ: من رأيتموه يدعىٰ مع الله حاله تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربوا منه.

وقال محمد بن الفضل البلخي[٦] من مشايخ القوم الكبار: ذهاب الإسلام

---

(١) في الأصل: «الخلوة» والمثبت كما في البقية وهو كما ورد في الرسالة القشيرية. انظر: ص٤٠٧، ٤٠٨.

(٢) في ق: «ولم».

(٣) «ما» ساقطة من ق، وفي ط زيادة: «ما» وفي ب: «ما يحمدونك».

(٤) انظر: قوله في الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٥) في ط: «النووي» وهو أحمد بن محمد المعروف بالنوري ولد ونشأ ببغداد، بغوي الأصل، صحب السري وابن أبي الخواري وكان من أقران الجنيد، توفي سنة ٢٩٥.
انظر: الرسالة القشيرية ص٢٣٨ و ٤٢٩، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩-٢٥٥، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٩٤و١٩٥، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٩.

(٦) في البقية عدا س: «الباجي» وهو أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي، بلخي الأصل سكن

من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ويعملون بـما لا يعلمـون ، ولا[1] يتعلمـون مـا [لا] [2] يعلمون ويمنعون الناس عن [3] التعلم أو [4] التعليم.

وقال عمرو[5] بن عثمان المكي ـ رحمه الله ـ : العلـم قائـد. والخـوف سـائق. والنفس حرون[6] بين ذلك ، جموح خداعة رواغة.

فاحذرها[7] ، وراعها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف : يتم لك ما تريد[8].

سمرقند وصحب أحمد بن خضرويه وغيره ، توفي سنة ٣١٩هـ. انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٢ و٢٣٣ ، والرسالة القشيرية ص٣٩٨ و ٣٩٩ ، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٩٧ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٩ .

(١) سقط من أ ، غ ، ب ، ح : «ولا يتعلمون ما لا يعلمون».

(٢) الزيادة من ق.

(٣) في البقية عدا س ، ج : «من».

(٤) في البقية عدا ، س ، ج ، ق بالواو .

(٥) هو عمرو بن عثمان المكي ، كان شيخ القوم في وقته وكان ينتسب إلىٰ الجنيد في الصحبة ، لقي أبا عبدالله الناجي وأبا سعيد الخراز ، توفي ببغداد سنة ٢٩١هـ.
انظر : الطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ١٩٨ ، والرسالة القشيرية ص٤٣٤ و ٤٣٥.

(٦) حرون : أي واقفة لا تنقاد. والجماح : الانفلات والعصيان. والخداع إرادة المكروه من دون عمل. والرواغ : هو الذهاب يميناً وشمالاً في سرعة وخفية خديعة وهو الميل والحياد سراً.
انظر : مختار الصحاح ص١٣٣ و ١٧١ و ١٠٩ و٢٦٤ ، والمصباح المنير ١٠٧ و ٢٤٦.

(٧) في ج : «فاحذروها».

(٨) «يتم لك ما تريد» ساقطة من م ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٥.

وقال أبو سعيد[1] الخراز ـ رحمه الله ـ : كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل.

وقال ابن عطاء[2] ـ رحمه الله ـ : من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة. ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه.

وقال : كل ما سألت عنه فاطلبه في مفازة العلم. فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة. فإن لم تجده فزنه بالتوحيد. فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان[3].

وأُلقِيَ بنان[4] الحمال بين يدي السبع. فجعل السبع يشمه ولا يضره. فلما أخرج قيل له : ما الذي كان في قلبك حين شمك السبع[5]؟ قال : كنت أتفكر

---

(١) هو أحمد بن عيسىٰ الخراز من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري وبشر بن الحارث وغيرهما، توفي سنة ٢٧٧هـ، انظر الرسالة القشيرية ص٤٠٩، وصفة الصفوة ٢/ ٤٣٥- ٤٣٨ وقوله هذا في الرسالة القشيرية ص٤٠٩.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآمدي صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني توفي سنة تسع أو إحدىٰ عشرة وثلاث مائة. انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٢- ٣٠٥، وطبقات الشعراني ١/ ٢١٠- ٢١٤، وانظر قوله في الحلية ١/ ٣٠٢.

(٣) انظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩١.

(٤) هو بنان بن محمد بن حمدان الحمال يكنىٰ أبا الحسن أصله من واسط ونشأ وأقام ببغداد ثم انتقل إلىٰ مصر فمات بها في رمضان سنة ٣١٦.

انظر : صفة الصفوة ٢/ ٤٤٨- ٤٥٠، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٢٤ و ٣٢٥، وانظر ما نسب إليه في صفة الصفوة ٢/ ٤٤٩.

(٥) «السبع» ساقطة من م.

في اختلاف [العلماء][١] في سؤر السباع.

وقال أبو حمزة[٢] البغدادي – من أكابر الشيوخ. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول له في المسائل : ما تقول يا صوفي؟ - : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه. ولا دليل علىٰ الطريق إلىٰ الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله[٣].

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسىٰ الواسطي يوم الجمعة إلىٰ الجامع. فانقطع شسع نعله[٤]. فأصلحه له رجل صيدلاني[٥]. فقال : أتدري[٦] لم انقطع شسع نعلي؟ فقلت : لا. فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة. فقال : ههنا حمام تدخله؟ فقال : نعم. فدخل واغتسل.

---

(١) الزيادة من الجميع ، وفي م : «خلاف العلماء».

(٢) هو محمد بن إبراهيم البغدادي البزار صحب السري وحسن المسوحي وجالس الإمام أحمد ابن حنبل وبشر بن الحارث ، وكان مولىٰ عيسىٰ بن أبان القاضي ، توفي سنة ٢٨٩هـ.
انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٠ - ٣٢٢ ، والطبقات الكبرىٰ ١/ ٢١٨ و ٢١٩ ، وانظر قوله في الطبقات في الموضع السابق.

(٣) في ط : «وأقواله وأفعاله».

(٤) الشسع : هو أحد سيور النعل وهو الذي يدخل بين الأصبعين. تفسير غريب الحديث لابن حجر ١٣٣.

(٥) في الرسالة القشيرية «حانوتي» ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٤٠.

(٦) المثبت كما في ق والرسالة القشيرية وفي البقية : «تدري».

وقال أبو إسحاق (١) الرقي ، من أقران الجنيد ـ رحمهما الله ـ : علامة محبة الله : إيثار طاعته ، ومتابعة نبيه (٢) ﷺ .

وقال أبو يعقوب (٣) النهر جوري : أفضل الأحوال : ما قارن(٤) العلم.

وقال أبو القاسم(٥) النصراباذي - شيخ خراسان (٦) في وقته - : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة. وترك الأهواء والبدع. وتعظيم كرامات(٧)

---

(١) في ط : «أبو سحق» وهو إبراهيم بن داود الرقي من أقران الجنيد وابن الجلاء ، من كبار مشايخ الشام في وقته ، توفي سنة ٣٢٦هـ. انظر : الرسالة القشيرية ٤١٥ ، والطبقات الكبرىٰ ١/ ٢٢٣ و ٢٢٤ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٥٤ ، وقوله في الحلية والرسالة القشيرية في المواضع السابقة.

(٢) في ط : «رسوله».

(٣) أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري صحب أبا عمرو المكي والجنيد وغيرهما ، توفي بمكة سنة ٣٣٠. انظر : الطبقات الكبرىٰ ١/ ٢٤٠ ، والرسالة القشيرية ٤٣٨ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦.

(٤) «ما قارن» ساقطة من غ ، أ ، ب ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٥) هو إبراهيم بن محمد بن أحمد النيسابوري ويسمىٰ النصراباذي نسبة إلىٰ نصراباذ محلة بنيسابور ، وهو شيخ خراسان في وقته صحب دلف الشبلي والمرتعش وغيرهما توفي بمكة سنة ٣٦٩ وقيل ٣٦٧هـ. انظر : شذرات الذهب ٣/ ٥٧ و ٥٨ ، والرسالة القشيرية ص٤٣٧ و ٤٣٨ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٦) خراسان : بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند ، وتشتمل علىٰ عدد من أمهات البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وغيرها. انظر: معجم البلدان ٢/ ٣٥٠ - ٣٥٤.

(٧) الكرامة : هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص معروف بالإيمان والعمل الصالح.

المشايخ ، ورؤية (١) أعذار الخلق. والمداومة علىٰ الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وقال أبو بكر (٢) الطمستاني - من كبار شيوخ الطائفة - : الطريق واضح. والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا. وفضل الصحابة معلوم ، لسبقهم إلىٰ الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب الكتاب والسنة ، وتغرب عن نفسه وعن الخلق ، وهاجر بقلبه إلىٰ الله : فهو الصادق المصيب.

وقال أبو عمرو (٣) بن نجيد - رحمه الله - : كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره علىٰ صاحبه أكثر من نفعه.

وقال : التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهي.

وكان بعض أكابر(٤) الشيوخ المتقدمين يقول : يا معشر الصوفية ، لا تفارقوا

انظر : التعريفات ٢٣٤ ، ومجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٨٧.

(١) أي قبولها. انظر : الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٢) في ج : «الطسناني» يعرف بأبي بكر الطمستاني قدم أصبهان وخرج منها إلىٰ نيسابور ، صحب إبراهيم الدباغ وغيره ، توفي سنة ٣٤٠هـ. انظر : الطبقات الكبرىٰ ١٧٤ ، والرسالة القشيرية ٤٢٣ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٨٢ ، وانظر قوله في الحلية في نفس الموضع.

(٣) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد السلمي النيسابوري جد أبي عبدالرحمن السلمي ، صحب أبا عثمان الحيري ولقي الجنيد ، توفي بمكة سنة ٣٦٦هـ وقيل ٣٦٥هـ وكان عمره تسعون سنة. انظر : الرسالة القشيرية ص٤٣٥ و ٤٣٦ وشذرات الذهب ٣/ ٥٠ ، وانظر قوله فيما تقدم.

(٤) «أكابر» ساقطة من ق والقائل هو سهل بن عبدالله ولفظه : احفظوا السواد علىٰ البياض. انظر : تلبيس إبليس ٣٩٥.

السواد في البياض تهلكوا.

الرد على من زهّد في العلم

وأما الكلمات التي تروىٰ عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه كقول من قال[١] «نحن نأخذ علمنا عن[٢] الحي الذي لا يموت، وأنتم[٣] تأخذونه عن[٤] حي يموت».

وقول الآخر[٥] - وقد قيل له: ألا ترحل حتىٰ تسمع من عبدالرزاق؟ - فقال: ما يصنع بالسماع من عبدالرزاق، من يسمع من الخلاّق؟

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل.

وقال آخر[٦]: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ: «أخبرنا» و «حدثنا» فاغسل يدك منه.

وقول الآخر: لنا علم الخرق[٧] ولكم علم الورق.

---

(١) القائل هو أبو يزيد البسطامي. انظر: تلبيس إبليس ٣٩٢، و «نحن» ساقطة من ق.

(٢) في البقية عدا س، م: «من».

(٣) سقط من ق إلىٰ قوله: «وقول الآخر».

(٤) في البقية عدا س، م: «من».

(٥) في ب، س: «وقول آخر» وما بعدها من الأقوال كذلك. وانظر هذه الأقوال وغيرها كثير في تلبيس إبليس ص٣٨٩ - ٤٥٥، واللمع ص٤٥٣ - ٥١٥.

(٦) في ط: «وقول الآخر» وأ، غ: «وقال الآخر».

(٧) في البقية عدا س، ح، ج: «الحرف» وفي م: «الحروف» ولعله يقصد خرقة التصوف وهي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته الخ. انظر معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٨. وانظر نبذة عن علم الحروف في كتاب مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٢٨.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها : أن يكون [١] جاهلاً يعذر بجهله ، أو شاطحاً معترفاً بشطحه [٢] ، وإلا فلولا عبدالرزاق وأمثاله ، ولولا «أخبرنا» و «حدثنا» لما وصل إلىٰ هذا وأمثاله شيء من الإسلام. ومن أحالك علىٰ غير «أخبرنا» و «حدثنا» [٣] فقد أحالك : إما علىٰ خيالٍ صوفي ، أو قياسٍ فلسفي [٤]. أو رأيٍ نفسي. فليس بعد القرآن و «أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين [٥]. وآراء المتخرصين [٦] وخيالات المتصوفين، وقياسات [٧]

---

(١) «أن يكون» ساقطة من ق.

(٢) يقصد بالشطحات ما يصدر من كلمات وأفعال منكرة كما مثل المؤلف هنا. وفي اصطلاح الصوفية : فهي عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق عليهم بحيث لا يشعرون بغير الحق كقول بعضهم : «أنا الحق» و «ليس في الجبة إلا الله» ونحو ذلك والشطحات كلمة عامية استعملت في اصطلاح التصوف. انظر: تاج العروس ٢/ ١٧٣، التعريفات ١٦٦ ، واللمع ٤٥٣ و٤٥٤ ، ومعجم اصطلاحات الفنون ٢/ ٤٦٦.

(٣) سقط من م إلىٰ قوله : «صوفي».

(٤) يقصد بالفلسفة محبة الحكمة ومذهب الفلاسفة أن العالم قديم ، ومنهم من ينكر علم الله والنبوات وحشر الأجساد. انظر : الملل والنحل ٢/ ٥٨-٢٣١ ، المعجم الفلسفي ص١٣٨ -١٤٠.

(٥) يقصد بالمتكلمين : علماء الكلام الذين يتكلمون بمسائل العقائد والأمور الغيبية بالأدلة العقلية والمناهج الجدلية. انظر : التعريفات ٢٣٦ ، وللسلف أقوال مشهورة في ذم الكلام وأهله انظر : شرح الطحاوية ١/ ١٧ - ١٩ ، وذم الكلام للهروي ٣/ ٢٣٩ إلىٰ آخر الكتاب.

(٦) في البقية عدا س : «المنحرفين».

(٧) في ط : «وقياس».

المتفلسفين. ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل. ولا دليل إلىٰ الله والجنة، سوىٰ الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان [الرجيم] (١).

و «العلم» ما قام عليه الدليل، والنافع [منه] (٢): ما جاء به الرسول. و«العلم» خير من «الحال»: «العلم» حاكم، و «الحال» (٣) محكوم عليه. و(٤)«العلم» هاد. و«الحال» تابع. و(٥) «العلم» آمِرٌ نَاهٍ و«الحال» منفذ قابل، و«الحال» سيف، إن لم يصحبه «علم»(٦) فهو مخراق(٧) في يد لاعب. «الحال» مركوب(٨) لا يجارىٰ. فإن لم يصحبه «علم» ألقىٰ صاحبه في المهالك(٩) والمتالف(١٠).

---

(١) الزيادة من البقية عدا س، ج، ق.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س.

(٣) في ط: «ومحكوم».

(٤) «الواو» ساقطة من ح، ج.

(٥) «الواو» ساقطة من ح، ج.

(٦) في ط: «العلم».

(٧) المخراق: هو المنديل يلف ليضرب به. مختار الصحاح ١٧٣.

(٨) في البقية عدا س، ج: «مركب».

(٩) في ط: «الممالك».

(١٠) في البقية عدا س، م قدم قوله: «الحال كالمال يؤتاه البر والفاجر، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالاً علىٰ صاحبه» وهذه الجملة تأتي بعد قوله لا سائس لها.

الحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعه عن(١) سطوته وازع.

الحال بلا علم كالنار التي لا سائس(٢) لها(٣). الحال كالمال يؤتاه البر والفاجر ، فإن لم يصحبه نور «العلم» كان وبالاً علىٰ صاحبه.

نفع الحال لا يتعدىٰ صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع علىٰ الظِراب(٤) والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبة. وربما ضاقت عنه.

العلم هاد والحال الصحيح مهتد به. وهو تركه الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووراثهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين(٥) ، ودليل المتحيرين ، وهو الميزان الذي به توزن(٦) الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغيِّ والرشاد ، والهدىٰ

---

(١) في ق : «من» وقوله لا يزعه : من الوازع وهو الكف كما قيل لابد للناس من وازع أي من سلطان يكفهم. مختار الصحاح ٧١٩.

(٢) في ج : «لا سناء بين لها».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ج : «والحال».

(٤) أي الجبال والروابي. انظر : تفسير غريب الحديث ص١٨ ، ١٥٦.

(٥) في الأصل و س : «المستوحش» والمثبت كما في البقية وهو الأولىٰ لموافقة ما قبله وما بعده.

(٦) في ق : «توزن به».

والضلال.

به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحَّد، ويحُمد ويُمجَّد.

وبه اهتدىٰ إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون.

ومن بابه دخل عليه القاصدون. به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلالُ من الحرام.

وبه توصَلُ الأرحام، وبه تُعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوص(١) إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. و[هو](٢) قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر علىٰ من ظفر بكنزه، والكنف(٣) الذي لا ضيعة علىٰ من آوىٰ إلىٰ حرزه(٤).

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربه، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشراب والطعام.

---

(١) في س، ج: «توصل».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س، ج، ق.

(٣) الكنف: هو الجانب والساتر. انظر: المصباح المنير ٥٤٢.

(٤) أي حفظه. انظر: المصباح المنير ١٢٩.

قال الإمام أحمد(١) - رضي الله عنه - : الناس إلىٰ(٢) العلم أحوج منهم إلىٰ الطعام والشراب ؛ لأن الرجل يحتاج إلىٰ الطعام(٣) والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلىٰ العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعي(٤) - رضي الله عنه - أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص علىٰ ذلك أبو حنيفة(٥) - رحمه الله - .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبدالله ، أحد الأئمة ، ثقة حافظ فقيه حجة ، مات سنة ٢٤١هـ ، وله ٧٧ سنة.
انظر : تقريب التهذيب ١/ ٢٤ ، وصفة الصفوة ٢/ ٣٣٦ - ٣٥٩ ، ومختصر مناقب إمام أهل السنة لأبي الفرج ابن الجوزي اختصار عبدالمحسن بن عبيد بن عبدالمحسن. وانظر قوله في الكتاب الأخير ٨٩ ، ونسب هذا القول لابن مهدي وإلىٰ سفيان الثوري. انظر : حلية الأولياء ٧/ ٦٥ و ٩/ ٤.

(٢) في أ : «أحوج إلىٰ العلم».

(٣) «والشراب» ساقطة من غ.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي أحد الأئمة الأربعة وإليه تنسب الشافعية ، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ ، وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ. انظر : حلية الأولياء ٩/ ٦٣-١٦١ (٤٥١) ، والأعلام ٦/ ٢٤٩ و ٢٥٠ ، وانظر قوله في حلية الأولياء ٩/ ١١٩ ، ومسند الشافعي ٢/ ٢٤٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٣ ، وجامع بيان العلم وفضله ٢٥.

(٥) هو النعمان بن ثابت التيمي الكوفي الإمام الفقيه أحد الأئمة الأربعة ثقة عالم زاهد ورع ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٥٠هـ. انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٠٧ - ١٠٨ ، الأعلام ٩/ ٤ و ٥، وشذرات الذهب ١/ ٢٢٧-٢٢٩.

وقال ابن وهب [(١)] - رحمه الله -: كنت بين يدي مالك - رضي الله عنه -، فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

ذكره ابن عبدالبر [(٢)] وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم علىٰ أجل مشهود به وهو «التوحيد»، وقرن [(٣)] شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فإنه لا يستشهد بمجروح.

ومن ههنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين» [(٤)].

---

(١) أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي الفقيه صحب مالك ودرس عليه، ولد سنة ١٢٥هـ، وتوفي سنة ١٩٧هـ، انظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٦٥-٦٧ (١٤٠)، والطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٧/ ٥١٨.

(٢) أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النميري القرطبي المالكي ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ، وتوفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ. انظر: مقدمة التمهيد، وتذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨ - ١١٣٢ (١٠١٣)، والأعلام ٩/ ٣١٦ و ٣١٧، وانظر: قول ابن وهب في كتابه جامع بيان العلم وفضله ٢٥.

(٣) كما قال تعالىٰ: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم...﴾ [آل عمران: ١٨].

(٤) في سند هذا الحديث إبراهيم بن عبدالرحمن العذري، من العلماء من قال بأن له صحبة ومنهم من قال بأنه تابعي. وفيه أيضاً معان بن رفاعة السلامي منهم من وثقه وهم قليل وأكثرهم قال بتضعيفه؛ بل منهم من قال لا نعرفه ألبتة. قال ابن حجر: وقد أورد ابن عدي هذا الحديث من طرق كثيرة كلها ضعيفة. وقال السيوطي: الحديث مرسل أو معضل.

وهو حجة الله في أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلىٰ جنته ومُدْنِيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه : أن فضل أهله علىٰ العباد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب. وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن(١) العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتىٰ الحيتان في البحر ، حتىٰ النمل في(٢) جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون علىٰ معلمي الناس الخير.

ولقد رحل كليم الرحمن(٣) موسىٰ بن عمران - عليه السلام - في طلب العلم هو وفتاه ، حتىٰ مسَّهُما(٤) النصبُ في سفرهما في طلب العلم. حتىٰ ظفر بثلاث(٥)

وقال أيضاً عن طرق هذا الحديث المرفوعة نقلاً عن العراقي قال : وكلها ضعيفة لا يثبت منها شيء وليس فيها شيء يقوي المرسل. انظر ما تقدم وزيادة في الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ١٢١ ، تدريب الراوي للسيوطي ١/ ٣٠٢ و ٣٠٣ ، ولسان الميزان ١/ ٧٧ ، ومجمع الزوائد ١/ ١٤٥ ، والتمهيد ١/ ٥٩ ، والجرح والتعديل ١/ ٣٤١ ، الضعفاء للعقيلي ١/ ٩ و ١٠ ، تكملة الإكمال لمحمد عبدالغني ٤/ ٢٨٠ ، الكامل في ضعفاء الرجال ٣/ ٣١ ، مشكاة المصابيح تحقيق الألباني ١/ ٨٢ و ٨٣.

(١) في ج : «فإن».

(٢) «في» ساقطة من م.

(٣) في س ، م : «الله».

(٤) في الأصل ، س : «حتىٰ مسهم النصب في سفرهم» والمثبت كما في البقية لموافقته العدد.

(٥) لعله يقصد قتل الغلام وخرق السفينة وإقامة الجدار كما جاء في سورة الكهف من الآية [٧٠ - ٨٢].

مسائل. وهو [من] (١) أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنما (٢) أباح للأمة صيد الجوارح العالمة. فهكذا جوارح الإنسان الجاهل (٣) لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئاً. [والله سبحانه وتعالى أعلم] (٤).

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «العِلمُ مَا قَامَ (٥) بِدَلِيلٍ، وَرَفَعَ الجَهلَ».

يريد: أن العلم له (٦) علامة قبله، وعلامة بعده. فعلامته قبله: ما قام به الدليل. وعلامته بعده: رفع الجهل.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س، ج، ق.

(٢) كما قال تعالى في سورة المائدة الآية [٤]: ﴿قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح﴾ وقوله «إنما» ساقطة من ج.

(٣) «الجاهل» ساقطة من م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م، وانظر: فضل العلم في كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، وقد تكلم المؤلف ـ رحمه الله ـ بكلام طويل حول فضل العلم في كتابه مفتاح دار السعادة حيث ذكر أكثر من (١٥٢) وجهاً في فضل العلم ١/ ٤٨ - ١٨٧.

(٥) في م: «عليه به دليل رفع الجهل» وانظر قوله في منازل السائرين ٧٦.

(٦) في البقية عدا س، م: «أن للعلم علامة».

درجات العلم

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: عِلْمٌ جَلِيٌّ. وَبِهِ يَقَعُ العَيَانُ، أَو استِفَاضَةٌ[1] صَحِيحَةٌ، أَوْ صِحَّةُ تَجرِبَةٍ قَدِيمَةٍ».

يريد بالجلي: الظاهر، والذي لا خفاء به. وجعله[2] ثلاثة أنواع.

أحدها: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني: ما استند إلىٰ السمع. وهو علم الاستفاضة.

[3]**والثالث**: ما استند إلىٰ العقل. وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة - وهي السمع، والبصر، والعقل - وهي طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر[4] طرق العلم فيما ذكره. فإن سائر الحواس توجب العلم.

وكذا ما يدرك بالباطن. وهي الوجدانيات[5].

وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحداً.

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط. وإن لم يكن[6] تجربة.

فالعلم لا يتوقف علىٰ هذه الثلاثة التي ذكرها فقط.

---

(١) في البقية عدا س، ح، ج: «واستفاضة».

(٢) في ق: «وجوارحه».

(٣) في ب: «بدون» الواو.

(٤) في أ، غ، ح، ج، ب: «ولا ينحصر».

(٥) الوجدانيات: ما يكون مدركه بالحواس الباطنة. التعريفات ٣٠٥.

(٦) في ط زيادة: «عن».

الفرق بين العلم والمعرفة

والفرق بينه وبين المعرفة من وجوه ثلاثة.

أحدها : أن «المعرفةَ» لبُّ العلم ، ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلىٰ الإحسان. وهي علم خاص ، متعلقها[1] أخفىٰ من متعلق العلم وأدقُّ.

والثاني : أن «المعرفة» هي العلم الذي يراعيه صاحبه بموجبه ومقتضاه. فهو[2] علم تتصل[3] به الرعاية.

والثالث : أن المعرفة شاهدة[4] لنفسها ، وهي بمنزلة الأمور الوجدانية ، التي لا يمكن صاحبها أن يشك فيها ، ولا ينتقل عنها. وكشف «المعرفة» أتم من كشف العلم. [والله سبحانه وتعالىٰ أعلم][5].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : عِلْمٌ خَفِيٌّ. يَنبُتُ[6] فِي الأَسرَارِ الطَّاهِرَةِ[7]،

(١) في م : «متعلقه ومقتضاه فهو علم».

(٢) في ط : «فهي».

(٣) في ج : «يتصل».

(٤) في البقية عدا س ، م ، ج : «شاهد».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، وسيأتي كلام المؤلف في التفريق بين العلم والمعرفة ، عند حديثه علىٰ منزلة المعرفة ، وسيذكر هناك خمسة من الفروق بين العلم والمعرفة. انظر : مدارج السالكين ٣/ ٣٣٥ - ٣٤٥.

(٦) في م : «يثبت».

(٧) في الأصل ، م ، ق ، ب : «الظاهرة» والمثبت كما في البقية ومنازل السائرين.

مِن(١) الأَبْدَانِ الزَّاكِيَةِ ، بِـمَاءِ الرِّيَاضَـةِ الخَالِـصَةِ. وَيَظْهَـرُ فِي الأَنفَـاسِ الـصَّادِقَةِ ، لِأَهلِ الهِمَّةِ العَالِيَةِ ، فِي الأَحَايِينِ الخَالِيَةِ ، فِي(٢) الأَسمَاعِ الصَّاحِيَةِ(٣). وَهُوَ عِلْـمٌ يُظهِرُ الغَائِبَ ، وَيُغيبُ الشَّاهِدَ ، وَيُشِيرُ إِلَىٰ الجَمعِ»(٤).

يعني : أن هذا العلم خفي علىٰ أهل الدرجة الأولىٰ ، وهو المسمىٰ بالمعرفة عند هذه الطائفة(٥).

قوله : «يَنبُتُ(٦) فِي الأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ».

لفظ «السر» يطلق في لسانهم ويراد به أمور :

أحدها(٧) : اللطيفة المودعة في هذا(٨) القالب ، التي بها حصل له(٩) الإدراك والمحبة والإرادة والعلم. وذلك هو الروح.

---

(١) في ج : «في».

(٢) في البقية عدس ، ج ، م : «والأسماع».

(٣) في ط ، ج : «الصاخية».

(٤) منازل السائرين ٧٧.

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ص٣١١-٣١٧ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٦٣ و ٦٤.

(٦) في م : «يثبت».

(٧) انظر هـذه الأقـوال الثلاثـة في الرسـالة القـشيرية ص٨٨ ، وانظـر اللمـع ٧٣٠ ، ومعجـم اصطلاحات الصوفية ص٣٣٣ و ٣٣٤.

(٨) في م : «القلب» ثم سقط إلىٰ المحبة.

(٩) «بها» ساقطة من أ ، غ ، ح وفي البقية عدا س ، ج : «التي حصل بها الإدراك».

الثاني : معنىٰ قائم بالروح. نِسبتُه إلىٰ الروح كنسبة الروح إلىٰ البدن. وغالب ما يريدون به : هذا المعنىٰ.

وعندهم : أن القلبَ أشرفُ ما في البدن ، والروحُ أشرف من القلب. والسِّر ألطف(١) من الروح.

وعندهم : للسر سِرٌّ آخر. لا يطّلع عليه غير الحق سبحانه. وصاحبه لا يطلع عليه ، وإن اطلع علىٰ سره فيقولون : «السر» مالك عليه(٢) إشراف ، و«سرُّ السرِّ» ما لا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه.

والمعنىٰ الثالث : يراد به ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد وبين ربه ، من الأحوال والمقامات. كما قال بعضهم : أسرارنا بكر. لم يفتضها وهم واهم.

ويقول : قائلهم(٣) : لو عرف زري سري لطرحته.

والمقصود(٤) قوله : «**يَنبُتُ فِي الأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ**(٥)».

---

(١) **اللطف** : يأتي بمعنىٰ الصغر ، وبمعنىٰ الرقة ، وبمعنىٰ الترفق. انظر : مختار الصحاح ٥٩٨ ، وهي عندهم كل إشارة دقيقة المعنىٰ يلوح منها في الفهم معنىٰ لا تسعه العبارة. معجم اصطلاحات الصوفية ٩١.

(٢) «عليه» ساقطة من غ.

(٣) في م : «بعضهم».

(٤) في ب زيادة «من» والأولىٰ عدمها ؛ لأن الحديث تقدم عنها وهذا إكماله.

(٥) في ق : «الظاهرة».

يعني الطاهرة(١) من كدر(٢) الدنيا والاشتغال بها، وعلائقها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح. فإن هذه أكدار وتنفسات في [وجه](٣) مرآة القلب والروح. فلا تتجلى(٤) فيها صور(٥) الحقائق كما ينبغي. والنفس تتنفس(٦) فيها(٧) دائماً بالرغبة في الدنيا(٨) والرهبة من فوتها. فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. فظهرت(٩) فيها الحقائق والمعارف.

وأما «**الأَبدَانُ الزَّاكِيَة**»(١٠).

فهي التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأبدان من(١١) الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم

---

(١) «يعني الظاهرة» ساقطة من ج.

(٢) في م زيادة «أمر» والأولى عدمها لعدم تناسبها مع الضمير بعدها.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) في الأصل: «يتجلى» والمثبت كما في س، ب، ق، م، وفي البقية: «تنجلي».

(٥) في ب: «صورة».

(٦) في البقية عدا ج، ق، س: «تنفس» و«النفس» ساقطة من ج.

(٧) في ق: «فيها بالرغبة دائماً والرهب من فوتها».

(٨) في ب زيادة: «والآخرة» وهي غير ملائمة.

(٩) في البقية عدا س، م، ج: «وظهرت» وفي ق: «وظهر».

(١٠) في ط: «الزكية».

(١١) في م زيادة: «أكل» وبدونها التعبير أشمل.

والمعارف.

فإن سقيت(١) - بعد ذلك - بماء الرياض الشرعية النبوية المحمدية - وهي(٢) لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب. ولا تعطل(٣) سنة - أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف(٤). فاجتنىٰ منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد، والثمار [المختلفة الألوان، والأذواق](٥)، كما قال بعض السلف: إذا عقدت القلوب علىٰ ترك المعاصي: جالت في الملكوت. ثم رجعت إلىٰ أصحابها بأنواع التحف والفوائد(٦).

قوله: «**وَيَظهَرُ**(٧) **فِي الأَنفَاسِ الصَّادِقَةِ**» يريد بالأنفاس أمرين:

أحدهما: أنفاس الذكر والمعرفة.

والثاني: أنفاس المحبة والإرادة. وهي ما(٨) يتعلق بالمعروف المذكور. وبالمحبوب المراد من(٩) الذاكر والمحب.

---

(١) في م: «سبقت».

(٢) في ط زيادة: «التي».

(٣) في ح: «ولا تعطيل».

(٤) «وتعرف» ساقطة من م.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٦) انظر: حلية الأولياء ١٠/ ١٤، والقائل هو أبو سليمان الداراني.

(٧) المثبت كما في ج، م، ق، وكتاب المنازل وفي البقية: «وتظهر».

(٨) «هي» ساقطة من ط.

(٩) في غ: «منه» وفي ج: «من الذكر».

و «صدقها» خلوصها[١] من شوائب الأغيار والحظوظ.

وقوله: «**لِأَهلِ الهِمَمِ العَالِيَةِ**»[٢] فهي[٣] التي لا تقف دون الله عز وجل. ولا تعرج في سفرها على شيء سواه. وأعلى الهمم: ما تعلق بالعلي الأعلى. وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد. وهي همم الرسل وورثتهم.

وقوله: «**فِي الأَحَايِينِ الخَالِيَةِ**».

يريد بها: ساعات الصفاء مع الله تعالى، وأوقات النفحات الإلهية، التي من تعرض لها يوشك أن لا يحرمها. ومن أعرض عنها فهي عنه[٤] أشد إعراضاً.

وقوله: «**فِي الأَسمَاعِ الصَّاحِيَةِ**»[٥].

وهي[٦] التي صحت[٧] من تعلقها بالباطل واللغو، وأصاخت لدعوة الحق، ومنادي الإيمان. فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول. فصحوها بتجنبه والإصغاء إلى دعوة الحق.

---

(١) في م: «خصوصاً».

(٢) في ب: «الهمة».

(٣) «فهي» ساقطة من م.

(٤) «عنه» ساقطة من غ، ح.

(٥) في ط، ج، أ، ق: «الصاخية» وفي المنازل: «الصاحية».

(٦) في ط: «فهي».

(٧) في ج: «صخت».

قوله : «وَهُوَ عِلمٌ يُظْهِرُ الغَائِبَ» أي يكشف ما كان غائباً عن العارف.

قوله : «وَيُغيبُ الشَّاهِدَ» أي يغيبه عن شهود [١] ما سوىٰ مشهوده الحق.

«وَيُشِيرُ إِلَىٰ الجَمْعِ» وهو مقام الفردانية ، واضمحلال الرسوم ، حتىٰ [٢] رسم الشاهد نفسه [٣].

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : عِلمٌ لَدُنيٌّ. إِسنَادُه وُجُودُه ، وَإِدرَاكُه عيَانُهُ ، وَنَعتُهُ حُكمُهُ. لَيسَ بَينَهُ وَبَينَ الغَيبِ حِجَابٌ» [٤].

يشير القوم بالعلم «اللدني» إلىٰ [٥] ما يحصل للعبد من غير واسطة ، بل بإلهام [٦] من الله ، وتعريف منه لعبده ، كما حصل للخضر ـ عليه السلام ـ بغير

(١) «شهود» ساقطة من م.

(٢) في ج زيادة : «من» وهي غير مناسبة ؛ لأن المعنىٰ : «حتىٰ يضمحل».

(٣) في ط : «تفسه».

(٤) منازل السائرين ٧٧.

(٥) «التي» ساقطة من ج ، ب.

(٦) في م ، ب «إلهام : والإلهام كما في التعريفات : ما يلقىٰ في الروع بطريق الفيض وقيل الإلهام ما دفع في القلب من علم وهو يدعو إلىٰ العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة. وهو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفيين. التعريفات ٥٧.

وانظر : المدارج ١/ ٤٤ و ٤٥ حيث فرق بين التحديث والإلهام وقال التحديث إلهام خاص.

العلم اللدني

واسطة موسىٰ قال [الله](١) تعالىٰ : ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥].

وفرق(٢) بين الرحمة والعلم. وجعلهما «من عنده» و «من لدنه» إذ لم ينلهما علىٰ يد بشر، وكان «ما (٣) لدنه» أخص وأقرب مما(٤) «عنده» ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٠] ، فالسلطان النصير الذي من لدنه سبحانه : أخصُّ من الذي عنده وأقرب(٥) ؛ [ولهذا](٦) قال تعالىٰ : ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ وهو نصره(٧) الذي أيَّده به. والذي من عنده : نصره بالمؤمنين [كما](٨) قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٢].

و«العلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة ، والصدق مع الله ، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله (٩) من كتابه وسنة رسوله ،

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س.

(٢) في م : «وقرن».

(٣) في البقية عدا م ، س ، ج : «من لدنه».

(٤) في ط : «من».

(٥) في البقية عدا م ، س ، ق : «أخص وأقرب مما عنده».

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، ق.

(٧) «نصره» ساقطة من ط وقبلها : «وهو» ساقطة من م.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س ، ج ، ح ، غ.

(٩) «من كتابه وسنة رسوله» ساقطة من ط ، م.

وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي[(١)] بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا. والذي فلق[(٢)] الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه»[(٣)]، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم[(٤)] من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم[(٥)] يتقيد بهما: فهو من لدن النفس[(٦)]، والشيطان، فهو لدني؛ لكن مِن لدن مَنْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنياً رحمانياً: بموافقته[(٧)] لما جاء به الرسول عن ربه عز وجل؟

فالعلم[(٨)] اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي.

---

(١) أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أول الناس إسلاماً علىٰ قول الأكثر، ولد قبل البعثة بعشر سنين، شهد مع الرسول ﷺ المشاهد إلا غزوة تبوك، وتزوج بابنته فاطمة - رضي الله عنها - وهو رابع الخلفاء، قتل - رضي الله عنه - سنة ٤٠هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٦٩ - ٢٧١، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٦ - ١٨٧.

(٢) في غ: «خلق» والفلق هو الشق، والفلقة الكسرة. وبرأ النسمة: أي خلق النفس أو الإنسان. انظر: مختار الصحاح ص٤٥ و ٥١١ و ٦٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الديات، باب العاقلة ٨/ ٤٥ وغيره، وانظر: أيضاً خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للنسائي ٢/ ١١٨.

(٤) «علم» ساقطة من م.

(٥) «الواو» ساقطة من ج، في م: «يتقبل منهما».

(٦) في ط زيادة: «والهوىٰ».

(٧) في ب، ق: «الموافقته» وفي م بعدها: «بما».

(٨) «فالعلم» ساقطة من ق.

والمحك : هو الوحي. ولا وحي بعد الرسول ﷺ .

[1] وأما قصة موسىٰ مع الخضر ـ عليهما السلام ـ : فالتعليق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد ، وكفر مخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم.

والفرق : أن موسىٰ ـ عليه السلام ـ لم يكن مبعوثاً إلىٰ الخضر. ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته. ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر[2] إلىٰ موسىٰ ويكون معه.

ولهذا قال له : «أنت موسىٰ [3] بني إسرائيل؟ قال [4] : نعم و محمد ﷺ مبعوث إلىٰ جميع الثقلين [5]. فرسالته عامة للجن والإنس ، في كل زمان ، ولو كان موسىٰ وعيسىٰ حيَّين لكانا [6] من أتباعه. وإذا نزل عيسىٰ بن مريم ـ عليهما السلام ـ. فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ .

---

(١) في هامش ب : «قصة موسىٰ مع الخضر عليهما السلام».

(٢) في أ ، ب : «أن يتبع موسىٰ».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ق زيادة : «نبي» وهي خطأ لعدم وجودها في البخاري ومسلم.

(٤) في م زيادة «له» والقصة أخرجها البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن ، باب قوله : ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ ٥/ ٢٣٤ و٢٣٥ وغيره. ومسلم في كتاب الفضائل ، باب فضل الخضر عليه السلام ، حديث رقم (٢٣٨٠) ٢/ ١٨٤٧ – ١٨٥٠ بغير هذا اللفظ.

(٥) «جميع» ساقطة من م.

(٦) في م : «كانا».

فمن ادعىٰ أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسىٰ. أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه ، وليتشهد شهادة الحق. فإنه [١] مفارق لدين الإسلام بالكلية. فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله. وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوّابه.

وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة[٢] القوم، وبين أهل الاستقامة منهم، فحرِّك ترىٰ [٣].

قوله : «إِسنَادُهُ وُجُودُهُ».

يعني : أن طريق هذا العلم هو[٤] وجدانه ، كما أن طريق غيره : هو الإسناد.

و«إِدرَاكُه عيَانُهُ» أي إن هذا العلم لا يؤخذ بالفكر ، والاستنباط ، وإنما يؤخذ عياناً وشهوداً.

«وَنَعتُهُ حُكمُهُ» يعني : أن نعوته لا يوصل إليها إلا به ، فهي قاصرة عنه ،

---

(١) في ط زيادة : «بذلك».

(٢) الزنادقة : ومنهم الإسماعيلية والقرامطة والنصيرية ، وهم الذين اتخذوا النفاق باسم التشيع مسلكاً وطريقاً لإفساد الإسلام وتحقيق أغراضهم بنشر الكفر والإلحاد ، والقول بإبطال حدوث العالم ومحدثه ، وتكذيب ملائكته ورسله ، وجحد المعاد والثواب والعقاب.

انظر : منهاج السنة ٨/ ٤٣٥ و ٤٧٩ - ٤٨٦ ، ومختار الصحاح ٢٨٦ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٣٠٢ و ٣٠٣ ، ولسان العرب ١٠/ ١٤٧.

(٣) في ط : «تره».

(٤) «هو» ساقطة من الجميع عدا س ، م ، ج.

يعني أن شاهدَه منه، ودليلَه وجودُه. وإنِّيَّته لمِّيَّتُه، فبرهان الإنِّ فيه. هو برهان اللِّمِّ[1]، فهو الدليل. وهو المدلول. ولذلك لم يكن بينه وبين الغيب[2] حجاب. بخلاف[3] ما دونه من العلوم. فإن بينه وبين العلوم[4] حجاباً.

والذي يشير إليه القوم: هو نور من جناب[5] المشهود. يمحو[6] قوىٰ الحواس وأحكامها. ويقوم لصاحبها مقامها فيرىٰ[7] المشهود[8] بنوره، ويفنىٰ ما سواه بظهوره، وهذا عندهم معنىٰ الأثر الإلهي «فإذا أحببته كنت سمعه

---

(١) في أ، غ، ح، ب «اللمم» وفي ج: «الكم» وفي هامش المدارج ٢/ ٤٧٧، هذا التعليق للفقي قال: المراد بالإنِّية والبرهان الإنِّي: الاستدلال بالمعلول علىٰ العلة، وهو منسوب إلىٰ «إن» التوكيدية. وبالبرهان اللمِّي: الاستدلال بالعلة علىٰ المعلول وهو منسوب إلىٰ «لم» الاستفهامية، والمراد أن العلة والمعلول في هذا العلم، أحدهما عين الآخر. انتهىٰ.
وقال في التعريفات الإنية: تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية. التعريفات ٦١. وفي معجم اصطلاحات الصوفية ٥٨ كما ذكر في التعريفات، وفي كشاف اصطلاحات الفنون: الأنينية عبارة عن أن تكون حقيقتك وباطنك غير الحق ونفي الأنينية هي عين معنىٰ (لا إله) ثم إثبات الحق سبحانه في باطنك. ثانياً عين معنىٰ «إلا الله»، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٣٢، وسيأتي كلام المؤلف حول هذا كما في المدارج ٣/ ٢٠٨.

(٢) في البقية عدا س، م: «الغيوب» وفي ج: «الغيبة».

(٣) في م: «خلاف».

(٤) «العلوم» هكذا في جميع النسخ، وفي هامش الأصل كتب لعله «الغيوب».

(٥) في أ، غ، م، ب «جنات».

(٦) في م: «المحو».

(٧) في ط: «فهو».

(٨) في ج زيادة: «الغيوب» وهي غير ملائمة لما بعدها.

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به. فبي يسمع. وبي يبصر»(١).

والعلم اللدني الرحماني(٢): هو ثمرة هذه الموافقة، والمحبة التي أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض.

واللدني الشيطاني: ثمرة(٣) الإعراض عن الوحي، وتحكيم الهوىٰ والشيطان(٤). والله المستعان.

* * *

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب التواضع ٧/ ١٩٠ دون قوله «فبي يسمع...».

(٢) «الرحماني» ساقطة من م.

(٣) في ب: «ثمرته».

(٤) «والشيطان» ساقطة من س، ح، ج، ب، م.

فصل

[منزلة الحكمة]

ومن منازل : « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الحكمة» . منزلة الحكمة

قال [الله][1] تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٦٩] وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال عن المسيح - عليه السلام - : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران : ٤٨].

«الحكمة» في كتاب الله نوعان : مفردة. ومقرونة[2] بالكتاب. فالمفردة : فسرت بالنبوة ، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «هي علم القرآن : ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه. وأمثاله»[3]. الحكمة في كتاب الله نوعان

وقال الضحاك : [هي][4] القرآن والفهم فيه.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في الجميع عدا الأصل [ومقترنة] وسيأتي في جميع النسخ بعد أسطر «المقرونة».

(٣) انظر : هذا القول وما بعده مما قيل في الحكمة في تفسير الطبري ٣/ ٨٧ و ٥/ ٥٧٦ - ٥٧٨ ، والدر المنثور ٢/ ٦٦ - ٧١.

(٤) الزيادة من أ ، غ ، ط.

وقال مجاهد: هي[1] القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرىٰ عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعي[2]: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها[3] بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة. كذلك قال الشافعي[4] وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه، في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

و «الحكمة» حكمتان: علمية، وعملية. فالعلمية: الاطلاع علىٰ بواطن

---

(١) سقط من ج إلىٰ قوله: «هي معاني الأشياء».

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك بن النخع، توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٩٦هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٠ - ٢٨٤، وتقريب التهذيب ١/ ٤٦ (٣٠١).

(٣) في ب: «فسره».

(٤) انظر: الرسالة للشافعي ٧٨ فقرة رقم (٢٥٢).

الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها[1]، خلقاً وأمراً. قدراً وشرعاً.

و«العملية»[2] كما قال صاحب المنازل[3]: وهي وضع الشيء في موضعه[4].

درجات الحكمة

قال «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ[5]: أَنْ تُعطِيَ[6] كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ، وَلاَ تُعَدِّيَهِ[7] حَدَّه، وَلاَ تُعَجِّلَه عَن وَقتِهِ، وَلاَ تُؤَخِّرَهُ عَنهُ»[8].

الدرجة الأولى

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق، تقتضيها شرعاً وقدراً. ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها[9]. ولها أوقات لا تتقدم[10] عنها ولا تتأخر- كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة بأن يُعطي[11] المرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا يتعدىٰ[12] بها حدها؛ فيكون[13] متعدياً مخالفاً

---

(١) في أ، غ، ح، ب: «المسبباتها».

(٢) في ط: «العلمية» وهو خطأ.

(٣) الواو ساقطة من ج، ح، م، ب.

(٤) في ح، ج: «مواضعه».

(٥) «الدرجة» ساقطة من ب.

(٦) في أ، غ، ج، ح، ب، ق: «يعطي».

(٧) في أ، غ، ح، ج: «ولا يعديه وحده» والأفعال التي بعدها أيضاً فيها بالياء.

(٨) منازل السائرين ٧٨، وقوله: «ولا تؤخره عنه» غير موجودة في النسخة التي معي.

(٩) في غ: «تعدها».

(١٠) في ق: «لا يتقدم».

(١١) في ط، غ، م، ق: «تعطي كل مرتبة حقها» وفي ح ج: «بأن يعطي كل مرتبة حقها».

(١٢) في ط: «تتعدىٰ».

(١٣) في ط: «فتكون» وفي س: «فيكون معتدياً».

للحكمة ، ولا يطلب[1] تعجيلها عن وقتها فيخالف[2] الحكمة ، ولا يؤخرها[3] عنه فيفوتها[4].

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدي الحق : كسقيها[5] فوق حاجتها بحيث يغرق[6] البذر والزرع ، ويفسد.

وتعجيلها عن وقتها : كحصاده قبل إدراكه وكماله.

وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس : إخلال بالحكمة .

وتعدي الحد المحتاج إليه : خروج عنها أيضاً[7] ،.

وتعجيل ذلك قبل وقته : إخلال بها ، أو[8] تأخيره عن وقته.

---

(١) في ط : «ولا تطلب».

(٢) في ط : «فتخالف».

(٣) في ط : « ولا تؤخرها» والأصل : «ولا تأخيرها» والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٤) في ط : «فتفوتها».

(٥) في م : «بسقيها».

(٦) في م : «تفرق».

(٧) «أيضاً» ساقطة من م.

(٨) في البقية عدا س ، م : «وتأخيره عن وقته إخلال بها».

فالحكمة إذاً(١) : فعل ما ينبغي ، علىٰ الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي. والله تعالىٰ أورث الحكمة آدم وبنيه ؛ فالرجل [الكامل](٢) : من له إرث كامل من أبيه ، ونصف الرجل - كالمرأة - له نصف ميراث. والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالىٰ.

وأكمل الخلق في هذا هم(٣) الرسل ، وأكملهم أولو العزم ، وأكملهم محمد ﷺ . ولهذا امتنَّ [الله](٤) سبحانه عليه ، وعلىٰ أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال [تعالىٰ](٥) : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٥١].

فكل(٦) نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود ، وفي العبد فسببه : الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً. وأنقصهم وأبعدهم عن(٧)

---

(١) وانظر : أيضاً في تعريف الحكمة. التعريفات ١٢٤.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س.

(٣) هم ساقطة من ط ، أ ، غ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، ج ، ق.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) في ج : «وكل».

(٧) في ج : «من».

الكمال : أقلهم منها ميراثاً.

ولها ثلاثة أركان : العلم ، والحلم ، والأناة.

وآفاتها[1] وأضدادها : الجهل ، والطيش ، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل ، ولا طائش ، ولا عجول.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ[2] تَشهَدَ نَظَرَ اللهِ فِي وَعِيدِهِ[3] ، وَتَعرِفَ عَدلَهُ فِي حُكمِهِ[4] ، وَتَلحَظَ بِرَّهُ فِي مَنعِهِ»[5].

أي يعرف[6] (الحكمة) في الوعد والوعيد ، ويشهد[7] حكمه في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [سورة النساء : ٤٠].

فيشهد[8] عدله في وعيده ، وإحسانه في وعده. وكل قائم بحكمته.

---

(١) «الواو» ساقطة من غ ، أ ، ج.

(٢) في الأصل ، ج ، م : «يشهد» ، «يعرف» ، «يلحظ» والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٣) في ط : «وعده».

(٤) في م : «أحكامه».

(٥) منازل السائرين ٧٨.

(٦) في ج ، ح ، م «يعرف» في البقية عدا ح ، ج ، م (تعرف).

(٧) في م ، س ، ج ، ح ، «ويشهد» في البقية عدا م ، س ، ج ، ح «وتشهد».

(٨) في ط : «فتشهد».

وكذلك تعرف[1] عدله في أحكامه الشرعية ، و[2] الكونية الجارية علىٰ الخلائق. فإنه لا ظلم فيها ، ولا حيف ولا جور. وإن أجراها علىٰ أيدي الظلمة. فهو أعدل العادلين. ومن جرت علىٰ يديه هو الظالم.

وكذلك «يَعرِفُ[3] بِرَّهُ فِي مَنعِهِ».

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا يُنقِص[4] خزائنَه الإنفاقُ ، ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه. فما مَنعَ من مَنعَه فضلَه إلا لحكمة[5] كاملة في ذلك. فإنه الجواد الحكيم[6].

وحكمتُه لا تناقض جودَه. فهو[7] لا يضع بِرَّه[8] وفضله إلا في موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه[9] حكمته. ولو بسط الله[10] الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا[11]. ولو فيها حكمة الله والأقوال

(١) في ط : «تعرف».

(٢) في ج بدون «الواو».

(٣) في ط : «تعرف».

(٤) في ج : «لا تنقص».

(٥) في أ ، غ ، ب : «بحكمه».

(٦) في ب : «والحكيم» و ق : «حكمته» ساقطة.

(٧) «فهو» ساقطة من أ.

(٨) «بره» ساقطة من ق.

(٩) في الأصل : «يقتضيه» والمثبت كما في البقية لمناسبة ما بعده ، م : «بقدرته نعمته تقتضيه».

(١٠) «الله» ساقطة من ج.

(١١) في س : «أو هلكوا».

علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان(١)، وشكراً له عليها، و محبة له واعترافاً [بها](٢) لهداهم إلىٰ الإيمان. ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ أجابهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول(٣): الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو(٤) سبحانه ما أعطىٰ إلا بحكمته. ولا منع إلا لحكمته(٥)، ولا أضل إلا لحكمته. وإذا تأمَّل البصيرُ أحوالَ العالم وما فيه من النقص: رآه عين الحكمة. وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا لحكمته(٦).

وفي الحكمة ثلاثة أقوال [للناس](٧):

أحدها: أنها مطابقة علمه(٨) لمعلومه، وإرادته ومشيئته(٩) لمراده

---

(١) في م: «الإيمان والهداية» ثم سقط إلىٰ قوله: «لما قالوا للمؤمنين».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) «يقول» ساقطة من م، في ط زيادة: «هم».

(٤) في س: «فالله».

(٥) في الجميع عدا س: «بحكمته ولا أضل إلا بحكمته» وفي م سقط من قوله: «ولا أضل» إلىٰ قوله: «وإذا تأمل».

(٦) في ط، ب: «بحكمته».

(٧) الزيادة من الجميع.

(٨) في م: «العمل».

(٩) في ق: «ولمشيئته لمراده» و م: «مراده».

[و][1] هذا تفسير الجبرية[2]. وهو في الحقيقة نفي للحكمة[3]. إذ مطابقة[4] المعلوم والمراد: أعم من أن يكون «حكمه» أو خلافها، فإن السفيه من العباد: يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده. مع كونه[5] سفيهاً.

الثاني[6] - مذهب القدرية النفاة -: أنها مصالح العباد ومنافعهم العائدة عليهم. وهو إنكار لوصفه تعالىٰ بالحكمة. وردوها إلىٰ مخلوق من مخلوقاته.

الثالث - قول أهل الإثبات والسنة -: أنها الغايات المحمودة[7] المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره، التي أمر لأجلها، وقدَّر[8] وخلق لأجلها. وهي صفته

---

(١) الزيادة من س، ح، م.

(٢) الجبرية: هم الذين ينفون الفعل عن العبد، ويضيفونه إلىٰ الرب تعالىٰ، وهم أصناف: فمنهم الجبرية الخالصة وهي التي تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة علىٰ الفعل، ومنهم الجبرية المتوسطة وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. انظر: الملل والنحل ١/ ٨٥، ٨٦.

(٣) في البقية عدا س، م: «حكمته».

(٤) في غ: «مطابقته».

(٥) في غ: «بكونه».

(٦) في ق: «والثاني». والقدرية: هم ضد الجبرية وسموا بذلك نسبة لقولهم ومخالفتهم في القدر، وهم الذين يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله، فجعلوا مع الله خالقاً آخر، ولذلك سموا مجوس هذه الأمة لقولهم بخالقين، وهم طوائف عدة علىٰ حسب تفاوت أقوالهم.

انظر الملل والنحل ١/ ٤٣ - ٤٦.

(٧) في م: «المحبوبة».

(٨) سقط من ح إلىٰ قوله: «وهي صفته».

القائمة به كسائر صفاته: من سمعه وبصره، وقدرته وإرادته، وعلمه وحياته وكلامه.

وللرد(١) علىٰ طائفتي الجبرية والقدرية موضع آخر(٢) غير هذا. [والله أعلم](٣).

فصل

الدرجة الثالثة قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: أَن تَبلُغَ فِي استِدلاَلِكَ البَصِيرَةَ، وَفِي إِرشَادِكَ الحَقِيقَةَ، وَفِي إِشَارَتِكَ(٤) الغَايَةَ».

يريد(٥) أن تصل باستدلالك إلىٰ أعلىٰ(٦) درجات العلم. وهي البصيرة التي تكون(٧) نسبة العلوم فيها إلىٰ القلب كنسبة المرئي إلىٰ البصر(٨). وهذه هي الخصيصة التي اختصّ بها الصحابة عن سائر الأمة. وهي أعلىٰ درجات العلم.

---

(١) في أ، غ، ب: «والرد».

(٢) «آخر» ساقطة من الجميع عدا س، م، ق.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) في غ: «إرادتك» وقوله في المنازل ٧٨.

(٥) «يريد» ساقطة من أ، «أن» ساقطة من ب.

(٦) في ج، ق: «أقصىٰ».

(٧) في ب: «يكون»، ق: «كون».

(٨) في غ: «البصيرة».

قال [الله] (١) تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [سورة يوسف : ١٠٨] أي أنا وأتباعي علىٰ بصيرة.

وقيل : ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف علىٰ المرفوع بـ ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ أي أنا أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة. ومن اتبعني كذلك يدعو (٢) إلىٰ الله علىٰ بصيرة.

وعلىٰ القولين فالآية تدل علىٰ (٣) أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون (٤) إلىٰ الله علىٰ (٥) بصيرة. فمن ليس منهم فليس من أتباعه علىٰ الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه علىٰ الانتساب والدعوىٰ.

وقوله : «وَ (٦) **فِي إِرْشَادِكَ الحَقِيقَةَ**».

إما أن يريد : أنك إذا أرشدت غيرك تبلغ في إرشاده إلىٰ (٧) الحقيقة ، أو تبلغ في إرشاد غيرك لك (٨) إلىٰ الحقيقة ، ولا تقف دونها.

فعلىٰ الأول: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل . وعلىٰ الثاني: إلىٰ المفعول.

---

(١) الزيادة من س ، ح ، م.

(٢) في ج : «ندعوا» وانظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٤ ، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠.

(٣) «علىٰ» ساقطة من ط.

(٤) في البقية : «الداعين».

(٥) سقط من ب : «علىٰ بصيرة».

(٦) «الواو» ساقطة من غ.

(٧) «إلىٰ» ساقطة من غ.

(٨) في الأصل ، ج : «في إرشاد غيره ذلك» وفي ج : «لكن» والمثبت كما في البقية.

والمعنىٰ : أنك تكون من أهل الوجود الذين إذا أشاروا لم يشيروا إلا إلىٰ الغاية المطلوبة التي ليس وراءها مرمىٰ.

والقوم يسمون أخبارهم عن المعارف وعن المطلوب «إشارات» ؛ لأن المعروف والمطلوب أجل من أن يفصح عنه بعبارة مطلقة ، وشأنه فوق ذلك. فالكامل مَنْ إشارته إلىٰ الغاية. ولا يكون ذلك إلا لمن فَنَىٰ رسمه وهواه وحظه. وبقي بربه ومراده الديني الأمري. وكل أحد فإشارته[1] بحسب معرفته وهمّه. ومعارف القوم وهممهم[2] تؤخذ من إشاراتهم. والله المستعان.

* * *

---

(١) في ق : «فأشارة لك» وقال في اللمع ٤١٤ : «الإشارة ما يخفىٰ عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه».

(٢) في غ : «وهمهم».

فصل

[منزلة الفراسة]

منزلة الفراسة

ومن منازل : « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : الفراسة[1].

قال [الله][2] تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٥]. قال مجاهد[3] ـ رحمه الله ـ : المتفرسين[4] : وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : للناظرين. وقال قتادة[5] : للمعتبرين. وقال مقاتل[6] : للمتفكرين[7].

---

(١) الفراسة : قال ابن الأثير بعد إيراده حديث : «اتقوا فراسة المؤمن» يقال بمعنيين :
أحدهما : ما دل ظاهر هذا الحديث عليه ، وهو ما يوقعه الله تعالىٰ في قلوب أوليائه ، فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس.
والثاني : نوع يُتكلم بالدلائل والتجارب والخلْق والأخلاق ، فتعرف به أحوال الناس.
النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٢٨ ، وانظر : التعريفات ٢١٣.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) انظر : تفسير مجاهد ١/ ٣٤٢ ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٦٠١.

(٤) في البقية عدا س ، ج ، ق : «المتفرسين».

(٥) أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي البصري من بكر بن وائل أحد علماء التابعين. توفي سنة ١١٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩ - ٢٨٣ (١٣٢) ، التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٨٥ - ١٨٧ (٨٢٧) ، طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٩.

(٦) أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي الخراساني أصله من بلخ وانتقل إلىٰ البصرة وبغداد ، وكان عالماً وإماماً بالتفسير إلا أنه متروك الحديث. توفي بالبصرة سنة ١٥٠هـ. انظر : طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٣ ، شذرات الذهب ١/ ٢٢٧ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤.

(٧) في أ ، غ : «المتفكرين» وهي ساقطة من ق.

ولا تنافي بين هذه الأقوال. فإن الناظر متىٰ نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم. وما آل إليه أمرهم: أورثه [١] فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالىٰ في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر علىٰ [٢] المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم علىٰ شرط؛ بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ وهو تعريض [٣] الخطاب، وفحوىٰ الكلام ومغزاه.

أنواع اللحن

و «اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة. ومنه [٤]: «ولعل بعضكم [٥] أن يكون ألحن بحجته من بعض».

---

(١) ق: «أورث».

(٢) ق: «إلىٰ».

(٣) في أ، غ: «تعريف».

(٤) في ط زيادة: «الحديث».

(٥) في الأصل و س: «بعضهم» والمثبت كما في البقية وهو نص الحديث وقد أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحيل الباب العاشر ٨/ ٦٢ وغيره. ومسلم في كتاب الأقضية - باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ٢/ ١٣٣٧ (١٧١٣).

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب[1] من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه وهو مما يشتهي السامعون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن[2] أحيا نا وخير الحديث ما كان لحناً

والثالث: فساد [المنطق في][3] الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلىٰ خطأ به[4] وإما إلىٰ معنىٰ خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم علىٰ معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه[5]: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام علىٰ قصد قائله وضميره أظهر من دلالة[6] السيما المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر[7] والسماع.

---

(١) التعريض: إمالة الكلام عن معناه الوضعي الحقيقي إلىٰ معنىٰ آخر مراد، كقولك للبخيل: ما أقبح البخل. والكناية: هي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة هذا المعنىٰ نفسه، وهي ثلاثة أقسام: ١ - كناية الصفة. ٢ - كناية الموصوف. ٣ - كناية النسبة. للاستزادة انظر: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ص١٣٦ و ٣٢٨ و ٣٢٩.

(٢) في ب: «بالنون»، وفي تاريخ بغداد: «ويلحن» وهما لمالك بن أسماء. انظر: البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٤٧، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢١٤.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م، وفي س سقط: «فساد» أيضاً، وقوله الثالث يقصد به لحن الخطأ.

(٤) «به» ساقطة من الجميع عدا س، م.

(٥) «من كلامه» ساقطة من م.

(٦) «دلالة» ساقطة من ط.

(٧) في غ: «النظر».

وفي الترمذي[1] من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن[2] النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله. ثم قرأ[3] قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٥].

فصل

أنواع الفراسة وسببها

و«الفراسة» ثلاثة أنواع: إيمانية. وهي المتكلم فيها[4] في هذه المنزلة.

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده[5]. يفرق به بين الحق والباطل،

---

(١) هو أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سورة الترمذي أحد أئمة الحديث، وهو صاحب السنن المعروفة، ولد سنة ٢١٠هـ وقيل ٢٠٩هـ وتوفي سنة ٢٧٩هـ. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٦٦ و ٦٧، الأعلام ٧/ ٢١٣، معجم المؤلفين ١١/ ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) في ط كرر: «عن» وفي غ: «أن النبي».

(٣) في ط: «تلا» والحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة الحجر وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روي عن بعض أهل العلم. سنن الترمذي ٥/ ٢٩٨ ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥/ ٩٩ وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١١٨ والحديث تكلم عليه العلماء فمنهم من حسنه، ومنهم من ضعفه، ومنهم من أورده في الموضوعات. انظر: الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ١٤٥-١٤٨ ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٧١، والحديث قد جمع طرقه الألباني ـ رحمه الله ـ وتكلم عنها وأجاد ثم حكم عليه بالضعف وقال: «وجملة القول أن الحديث ضعيف لا حسن ولا موضوع وإليه مال الحافظ السخاوي في المقاصد والله أعلم» ورد علىٰ من قال بأن الحديث حسن صحيح بمجموع طرقه. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٤/ ٢٩٩- ٣٠٢ رقم (١٨٢١).

(٤) «المتكلم فيها» ساقطة من أ، غ، ب.

(٥) في ب: «ويفرق».

والحالي(١) والعاطل، والصادق والكاذب.

بيان الفراسة الإيمانية

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم علىٰ القلب ينفىٰ ما يضاده. يثب علىٰ القلب كوثوب الأسد علىٰ الفريسة. لكن(٢) الفريسة فعيلة بمعنىٰ مفعولة. وبناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراسة» علىٰ حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوىٰ إيماناً فهو أحد فراسة.

قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق(٣)، وتكون(٤) مواد علمه من(٥) الحق بلا سهو ولا غفلة؛ بل حكم حق جرىٰ علىٰ لسان عبده.

وقال الواسطي ـ رحمه الله ـ: الفراسة سواطع(٦) أنوار لمعت في القلوب،

(١) الحالي: من الحلية والتحلي بها، وتطلق الحلية علىٰ الصفة، وهو ضد العاطل. قال في مختار الصحاح: عطِلَت المرأة من باب طَرِب، وتعطّلت إذا خلا جيدها من القلائد فهي عُطُل بضمتين. وعاطلٌ، ومعطال، وقد ويستعمل العَطَل في الخلو من الشيء وإن كان أصل في الحلي يقال: عَطَل الرجل من المال والأدب فهو عُطل.
مختار الصحاح ص٤٤٠، ١٥٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٣٥.

(٢) «لكن الفريسة» ساقطة من ج، وفي أ، غ: «الفراسة».

(٣) في أ زيادة: «القلب» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣١.

(٤) في س بالياء.

(٥) في البقية عدا ج، س، ق: «مع».

(٦) في البقية عدا ج، س، ق: «شعاشع» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣١.

وتمكين(١) معرفة حملة السرائر في الغيوب من غيب إلىٰ غيب ، حتىٰ يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق إياها ، فيتكلم عن ضمير الخلق(٢).

وقال الداراني - رحمه الله - : الفراسة مكاشفة النفس ، ومعاينة الغيب ، وهي من(٣) مقامات الإيمان.

وسئل بعضهم عن الفراسة؟ فقال : أرواح تتقلب في الملكوت(٤). فتشرف علىٰ معاني الغيوب ، فتنطق عن أسرار الخلق ، نطق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان.

وقال أبو(٥) عمرو بن نجيد : كان شاه(٦) الكرماني

---

(١) في البقية عدا ج ، س ، م «تمكن» وفي ط بعدها : «معرفة جملت» وفي ج : «حكمة علىٰ».

(٢) في ق ، م : «الحق» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣١ .

(٣) «من» ساقطة من ج وهذا القول ليس للداراني وإنما هو للكتاني. انظر : الرسالة القشيرية ٢٣٢.

(٤) قال في مختار الصحاح ص٦٣٣ : «والملكوت : من الملك كالرهبوت من الرهبة يقال : له ملكوت العراق وهو الملك والعز». وانظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٥٩ ، وقال في التعريفات ٢٨٣ : «الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس». وقال في معجم اصطلاحات الصوفية ١٠٨ ، عن الملكوت هو عالم الغيب. وانظر ما نقله المؤلف في الرسالة القشيرية ٢٣٣.

(٥) في البقية عدا س ، م سقط «أبو».

(٦) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني من أهل كرمان بلدة مشهورة من بلاد فارس ، وكان من أبناء الملوك فتزهد ، صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري وغيرهما مات بعد

حاد[1] الفراسة لا يخطيء. ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام[2] المراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال: لم تخطئ فراسته.

وقال أبو جعفر[3] الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض[4] من جنسه. فهو خاطر وحديث نفس.

وقال أبو حفص النيسابوري: ليس لأحد أن يدعي الفراسة. ولكن يتقي الفراسة من الغير؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن**[5]»، ولم [يقل][6]: تفرسوا. وكيف يصح[7] دعوىٰ الفراسة لمن هو في محل اتقاء[8] الفراسة؟

السبعين والمائتين وقبل الثلاثمائة. انظر: صفة الصفوة ٤/ ٦٧، ٦٨، وقوله فيها ص٦٧، والرسالة القشيرية ٤٢٨، وانظر قوله ٢٣٤، وانظر: الطبقات ص١٢٩ و١٣٠.

(١) في ح: «صادق» وفي ج: «حاد الفراسة لا تخطيء».

(٢) «بدوام» ساقطة من البقية عدا س، ج.

(٣) في ج: «أبو حفص» وهو أبو جعفر الحداد صحب أبا تراب وله أقوال مشهورة في التصوف والزهد. انظر: حلية الأولياء ١٠/ ٣٣٩ و٣٤٠ (٦١٢)، وتاريخ بغداد ١٤/ ٤١٢، وانظر: قوله في الحلية ١٠/ ٣٤٠، والرسالة القشيرية ٢٣٥.

(٤) في البقية عدا س، ج، ق زيادة «آخر» وهي غير موجودة في قوله.

(٥) في البقية عدا س، م زيادة: «فإنه ينظر بنور الله» وهي غير موجودة في كلام أبي حفص النيسابوري. وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣٥. وتقدم تخريج الحديث ص٢٦٨٠.

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) في الأصل، ج، م: «بالتاء» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية.

(٨) في أ: «إتقان».

وقال أحمد[١] بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق. فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون.

وكان الجنيد ـ رحمه الله ـ يوماً يتكلم علىٰ الناس. فوقف عليه شاب نصراني متنكراً. فقال : أيها الشيخ ما معنىٰ قول الرسول[٢] ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» فأطرق الجنيد ، ثم رفع إليه[٣] رأسه. وقال : أسلم. فقد حان وقت إسلامك. فأسلم الغلام.

ويقال في بعض الكتب القديمة : إن الصِّدِّيق لا تخطئ فراسته[٤].

وقال ابن مسعود[٥] – رضي الله عنه – : «أفرس الناس ثلاثة : العزيز

---

(١) أبو علي أحمد بن عاصم الأنطاكي من أقران بشر بن الحارث ، والحارث المحاسبي كان صاحب فراسة ، وكان أبو سليمان الداراني يسميه (جاسوس القلوب) لحدة فراسته ، ولم يذكر من ترجم له عن ولادته ووفاته شيئاً فيما رجعت إليه من مراجع. انظر : حلية الأولياء ٩/ ٢٨٠-٢٩٧ ، صفة الصفوة ٤/ ٢٧٧-٢٧٩ ، الرسالة ص٣٩٤ و ٣٩٥ ، والطبقات للشعراني ١٢٠ ، وانظر قوله فيما تقدم والرسالة القشيرية ٢٣٥.

(٢) في البقية عدا س ، م : «النبي» والحديث تقدم تخريجه قريباً.

(٣) في البقيه : «رأسه إليه» و «إليه» ساقطة من س ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٤١.

(٤) أوردها القشيري في فراسة إبراهيم الخواص حينما قال لرجل : إنك يهودي فأسلم الرجل ، وقال : إننا نجد في كتبنا إن الصديق لا تخطئ فراسته. الرسالة القشيرية ٢٣٩.

(٥) أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أسلم وهاجر الهجرتين وروىٰ العديد من الأحاديث ، مات بالمدينة وقيل بالكوفة سنة ٣٢هـ وقيل ٣٣هـ. انظر : الإصابة

في يوسف، حيث[1] قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وابنة شعيب[2] حين قالت لأبيها في موسىٰ: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر في عمر، حيث[3] استخلفه. وفي رواية أخرىٰ: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]».

وكان الصديق ـ رضي الله عنه ـ أعظم الناس فراسة. وبعده عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء: «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة[4].

ومر به سواد بن قارب[5]، ولم يكن يعرفه. فقال: «لقد أخطأ ظني، أو أن

٤/ ١٢٩ و ١٣٠ (٤٩٤٥)، الجرح والتعديل ٥/ ١٤٩، وانظر قوله في: البداية والنهاية ١/ ٢٠٢ و ٢٤٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٣، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٣/ ٢٧٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٢.

(١) في م: «حين».

(٢) «وابنة شعيب» ساقطة من ق، وفي م: «حين» بدل حيث.

(٣) في م: «حين».

(٤) وهي في اتخاذ مقام إبرهيم مصلىٰ وآية الحجاب وقصة الغيرة وقوله: ﴿عسىٰ ربه إن طلقكن﴾ وقوله في أسارىٰ بدر. انظر: تاريخ الخلفاء.ص١٢٢.

(٥) هو سواد بن قارب الدوسي أو السدوسي قيل له صحبة وهو من أهل السراة من جبال البلقاء وقيل كان من أشراف أهل اليمن. انظر القول وترجمة قائله في: البداية والنهاية ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٧، والإصابة ٣/ ١٤٨ و ١٤٩، وقول عمر في المستدرك ٣/ ٧٠٥، ومجمع الزوائد ٨/ ٢٤٩، والمعجم الكبير للطبراني ٧/ ٩٣ و ٩٤، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٦٤.

هذا كاهن ، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية» فلما جلس بين يديه قال له : ذلك عمر. فقال : «سبحان الله ، يا أمير المؤمنين ، ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل (١) ما استقبلتني به (٢). فقال له عمر - رضي الله عنه - : ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه (٣). فقال : صدقت يا أمير المؤمنين. (٤) كنت كاهناً (٥) في الجاهلية. ثم ذكر القصة».

وكذلك عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كان (٦) صادق الفراسة.

وقال أنس(٧) بن مالك - رضي الله عنه - : «دخلت علىٰ عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، وكنت رأيت في الطريق(٨) امرأة تأملت محاسنها. فقال عثمان رضي

---

(١) «بمثل» ساقطة من م.

(٢) «به» ساقطة من ج.

(٣) في ط زيادة : «عنه».

(٤) في أ زيادة : «قال» ، وهي موجودة فيما سبق فهذا تكرار.

(٥) **الكهانة** : هي الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان وادعاء معرفة الأسرار. انظر : تفسير غريب الحديث لابن حجر ٢١٢ ، والتعريفات ٢٣٣ ، والنهاية في غريب الحديث ٤/ ٢١٤ ، وانظر : أخبار الكهان في مروج الذهب للمسعودي ٢/ ١٧٢ - ١٩٣.

(٦) «كان» ساقطة من ط.

(٧) أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي خادم النبي ﷺ توفي سنة ٩٣هـ ، وقيل غير ذلك ، وقد عاش مائة عام إلا سنة. انظر : أسد الغابة ١/ ٧١ - ٧٣ ، والتاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٨ (١٥٧٩).

(٨) في ط ، ج ، أ ، غ : «امرأة في الطريق».

الله عنه: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه. فقلت: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا [1] ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة[2].

وفراسة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أصدق فراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ. قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحياه [الله][3] بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس

---

(١) «لا» ساقطة من ط.

(٢) ذكر المؤلف هذه القصة في كتابه الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ٤٣، ولم أجد من ذكرها غير السلمي في الرسالة القشيرية ٢٣٨ وهذه الرواية لعلها غير ثابتة؛ لأن الفراسة الصادقة هي استدلال بما يظهر للمتفرس كما ساق المؤلف نفسه قصصاً كثيرة في كتابه الطرق الحكمية، وبين أن هذا المتفرس قال قوله هذا عن استدلال كما ذكر عن القاضي إياس في الأربع نسوة حينما قال أن واحدة حامل والأخرىٰ مرضع والثالثة ثيب والرابعة بكر فبين أسباباً حسية تدل علىٰ ما ذكر. انظر: الطرق الحكمية ٣٦، وهذه الرواية التي ساقها المؤلف فيها طعن بخادم رسول الله ﷺ كما أن فيها ادعاء معرفة أمور غيبية لا دليل عليها كما أن المتفرس لا يقطع قطعاً جازماً ما لم يكن عنده دليل علىٰ ذلك، ولذلك قال عمر كما تقدم عنه: «لقد أخطأ ظني» ولم يطمئن لظنه حيث سأله وأجابه عن ذلك بموافقة ظنه. والله أعلم بالصواب.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، وق وفيهما: «بالعلم والإيمان».

علىٰ قصد السبيل ، ويمشي به في الظلم. [والله أعلم][1].

فصل [2]

النوع الثاني **الفراسة الثانية : فراسة الرياضة والجوع ، والسهر والتخلي**. فإن النفس إذا تجردت عن العوائق[3] صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها. وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر. ولا تدل علىٰ إيمان[4] ولا علىٰ ولاية. وكثير من الجهال يغتر بها. وللرهبان[5] فيها وقائع معلومة. وهي فراسة لا تكشف[6] عن حق نافع ، ولا عن[7] طريق مستقيم[8] ؛ بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة[9]. وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) «فصل» ساقطة من م.

(٣) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الفوائد ١٥٤ : «وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها ، فإنها تعوق القلب عن سيره إلىٰ الله ، وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور : شرك وبدعة ومعصية..».

(٤) في غ : «الإيمان».

(٥) الرهبان : جمع راهب وهو العابد. والحبر : العالم. انظر : المصباح المنير ص١١٧ و ٢٤١ ، والتعريفات ١٤٥.

(٦) ق : «لا يكشف».

(٧) في ج : «ولا علىٰ».

(٨) في ق : «مستقيمة».

(٩) في أ ، غ : «الولادة».

وللأطباء فراسة معروفة من حذقهم في صناعتهم. ومن أحب الوقوف عليها فليطالع تواريخهم(١) وأخبارهم. وقريب من نصف الطب: فراسة صادقة، يقترن(٢) بها تجربة، [والله سبحانه أعلم](٣).

فصل

النوع الثالث

الفراسة الثالثة: [الفراسة](٤) الخلقية. وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم. واستدلوا بالخلق علىٰ الخُلُق لما بينهما من الارتباط الذي(٥) اقتضته حكمة الله. كالاستدلال بصغر الرأس الخارج(٦) عن العادة عن صغر العقل. وبكبره علىٰ كبره(٧)، وبسعة الصدر، وبُعد ما بين جانبيه: علىٰ سعة خُلق صاحبه. واحتماله وبسطته. وبضيقه علىٰ ضيقه. وبخمود(٨) العين وكلال(٩) نظرها علىٰ بلادة(١٠) صاحبها، وضعف حرارة قلبه. وبشدة بياضها مع

الاستدلال بالخَلق على الخُلق

(١) في ط: «تاريخهم».

(٢) في ق: «تقترن».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ق: «التي».

(٦) في غ: «الخارجة».

(٧) «علىٰ كبره» ساقطة من ط.

(٨) في م، ج: «بجمود».

(٩) أي عدم حدتها. انظر: مختار الصحاح ٥٧٦، والمصباح المنير ٥٣٩.

(١٠) أي غير ذكي ولا فطن. المصباح المنير ٦٠.

إشـــرابه[١] بحمرة - وهو الشكل[٢] - علىٰ شجاعته وإقدامه وفطنته. وبتـدويرها مع[٣] حمرتها وكثرة تقلبها علىٰ خيانته ومكره وخداعه.

ومعظم تعلق الفراسة بالعين. فإنها مرآة القلب وعنوان ما فيـه. ثـم باللسان. فإنه رسوله وترجمانه. وبالاستدلال[٤] بزرقتها مع شقرة صاحبها علىٰ رداءته. وبالوحشة التي ترىٰ عليها علىٰ سوء داخلته[٥] وفساد طويته.

وكالاستدلال بإفراط الشعر في السبوطة[٦] علىٰ البلادة. وبإفراطه[٧] في الجعودة علىٰ الشعر. وباعتداله علىٰ اعتدال[٨] صاحبه.

وأصل هذه الفراسة: أن اعتدال الخلقة والصورة: هـو مـن اعتـدال المزاج والروح. وعن اعتدالها يكـون اعتـدال الأخـلاق والأفعـال. وبحسب انحراف الخلقة والصورة عن الاعتدال: يقع الانحراف في الأخلاق والأعمال.

هذا إذا خُلِّيت النفس وطبيعتها.

---

(١) في أ، غ، ب: «اشترابه».

(٢) «وهو الشكل» ساقطة من م.

(٣) في الأصل: «علىٰ» والصواب ما أثبت وهو كما في البقية.

(٤) في ب: «الاستدلال».

(٥) في ط: «داخله».

(٦) قال في مختار الصحاح ٣٨٣: «شعر سبط - بفتح الباء وكسرها - أي مسترسل غير جعد».

(٧) س: «وأفراطه».

(٨) في الأصل: «اعتدلال» وهو خطأ.

ولكن صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره. ولو أنه من الحيوان البهيم. فيصير من أخبث الناس أخلاقاً وأفعالاً، وتعود [١] له تلك طباعاً، ويتعذر - أو يتعسر [٢] - عليه الانتقال عنها.

وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين وخلطتهم [٣] أخلاقاً وأفعالاً شريفة. تصير له كالطبيعة. فإن العوائد [٤] والمزاولات تعطي الملكات والأخلاق.

فليتأمل هذا الموضع ولا يعجل بالقضاء [٥] بالفراسة دونه. فإن القاضي حينئذ يكون خطؤه كثيراً. فإن هذه العلامات [٦] أسباب لا موجبة. وقد تتخلف [٧] عنها أحكامها لفوات شرط أو وجود [٨] مانع.

---

(١) في ح: «ويعود».

(٢) في غ: «ويتعسر».

(٣) في ط: «بخلطتهم».

(٤) في م: «الطبيعة».

(٥) في الأصل: «فالقضاء» والمثبت كما في البقية. ويكون المعنىٰ لايعجل القاضي بالقضاء بالفراسة وذلك بالنظر بخلقة الإنسان دون النظر إلىٰ من يخالط ويقارن فإن الطبيعة أو الطبائع قد تتغير بالمقارنة. فإذا حكم القاضي بالفراسة دون النظر إلىٰ ذلك فإن خطؤه يكون كثيراً.

(٦) في ب: «المعاملات».

(٧) في ق: «تحلف» و م: «يتخلف».

(٨) في ط: «لوجود».

الفراسة تتعلق بثلاثة أشياء

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء : بعينه. وأذنه. وقلبه.

فعينه : للسيماء والعلامات. وأذنه : للكلام وتصريحه وتعريضه ، ومنطوقه ومفهومه ، وفحواه[1] ، وإشارته[2] ، ولحنه[3] وإيمائه[4] ، ونحو ذلك. وقلبه : للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلىٰ باطنه وخفيه. فيعبر[5] إلىٰ ما وراء ظاهره ، كعبور النقاد من ظاهر النقش[6] والسكة[7] إلىٰ باطن النقد[8] والاطلاع عليه : هل هو صحيح ، أو زغل[9]؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّل[10] ، إلىٰ باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من الأشباح

---

(١) فحوىٰ القول : معناه. مختار الصحاح ٤٩٢.

(٢) إشارة الكلام : هو إيماء المتكلم إلىٰ معاني شتىٰ بلفظ وجيز. قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ٥٣.

(٣) اللحن : يأتي علىٰ عدة معاني. انظر : مختار الصحاح ٥٩٤ ، وقد تكلم المؤلف عنه. انظر : بداية حديثه عن منزلة الفراسة.

(٤) الإيماء : هو أحد أساليب الكناية ويكون في تحميل المكنىٰ به إشارة غير خفية إلىٰ المكنىٰ عنه. قاموس المصطلحات ٨٩.

(٥) في م : «فيصير».

(٦) في الأصل : «الدال» بدل «النقش» ولعل الصواب ما أثبت وهو كما في البقية لقوله بعدها : «هل هو صحيح أو زغل».

(٧) السكة : قال في مختار الصحاح ٣٠٧ : «والسكة أيضاً الزقاق. وسكة الدراهم هي المنقوشة».

(٨) قال في لسان العرب ٣/ ٤٢٥ : «النقد والتناقد : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها».

(٩) الزغل : هو الغش. انظر : تاج العروس ٧/ ٣٥٧.

(١٠) في ج : «والدال» ومعنىٰ الدَّل : هو قريب المعنىٰ من الهدي وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. المصباح المنير ٢٠٩.

كنسبة نقد الصيرفي [1] [ينظر] [2] للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يمر بهم [3] بإسناد ظاهر كالشمس علىٰ متن مكذوب. فيخرجه نقدهم [4]، كما يخرج الصيرفي الزغل [5] تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان:

أسباب صحة الفراسة

أحدهما [6]: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة علىٰ المتفرَّس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد [7] تخطئ للعبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوىٰ أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين.

---

(١) قال في المصباح المنير ٣٣٨: «قال ابن فارس الصرف فضل الدراهم في الجودة علىٰ الدراهم ومنه اشتقاق الصيرفي».

(٢) الزيادة من البقية عدا س، ج، م، ق.

(٣) «بهم» ساقطة من ط.

(٤) في ط: «ناقدهم».

(٥) في ط زيادة: «من».

(٦) في ج: «أحدها».

(٧) في الأصل، س، ج، م: «بالياء» والمثبت كما في البقية لموافقة ما بعده.

وكان إياس[1] بن معاوية من أعظم الناس فراسة. وله الوقائع المشهودة. وكذلك الشافعي ـ رحمه الله ـ: وقيل: إن له فيها تآليف.

حكاية ابن القيم لفراسة ابن تيمية

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية أموراً عجيبة. وما لم أشاهده منها[2] أعظم وأعظم. ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً.

و[3] أخبر أصحابه بدخول التتار[4] الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين[5] تُكْسَر، وأن دمشق[6] لا يكون بها قتل عام ولا سبىٰ عام،

---

(١) هو إياس بن معاوية بن قرة المزني يكنىٰ أبا واثلة كان قاضياً علىٰ البصرة سمع إياس من أبيه وأنس بن مالك وابن المسيب وغيرهم وكان يضرب به المثل بذكائه وفراسته. توفي بواسط سنة ١٢٢هـ وكانت ولادته سنة ٤٦هـ. انظر: حلية الأولياء ٣/ ١٢٣ - ١٢٥، وصفة الصفوة ٣/ ٢٦٣، ٢٦٤، والأعلام ١/ ٣٧٦ و٣٧٧.

(٢) «منها» ساقطة من ج.

(٣) «الواو» ساقطة من ط.

(٤) التتار: أصلهم من أطراف بلاد الصين ممن يعبدون الشمس ولا يحرمون شيئاً، أشهر ملوكهم جنكيز خان، وفي سنة ٦١٧هـ زحفوا علىٰ بلاد المسلمين بأعداد هائلة فقتلوا وسلبوا وأفسدوا وحرقوا وعاثوا في الأرض فساداً، وبعد سنة ٧٣٦هـ لم يقم لهم قائمة بعد موت آخر ملوكهم.

انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٨٦ - ٨٨ و١٤/ ١٧٣، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص٤٧٦ - ٤٨٦.

(٥) في م: «الإسلام».

(٦) دمشق: من بلدان الشام المشهورة قيل سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا، وقيل غير ذلك. للمزيد انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٦٣-٤٧٠، وكتاب منادمة الأطلال.

وأن كَلَب [١] الجيش وحدته في الأموال : هذا [٢] قبل أن يهِمَّ [٣] التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام : أن الدائرة عليهم والهزيمة [٤]. وأن الظفر والنصر للمسلمين. وأقسم علىٰ ذلك أكثر من سبعين يميناً. فيقال له : قل إن شاء الله. فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. سمعته [٥] يقول ذلك. قال : فلما أكثروا علي. قلت : لا تكثروا. كتب الله تعالىٰ في اللوح المحفوظ : أنهم مهزومون في هذه الكرة. وأن النصر لجيوش الإسلام [٦]. قال : وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلىٰ لقاء [٧] العدو.

وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الوقعتين [٨] مثل المطر.

ولما طلب إلىٰ الديار المصرية [٩] وأريد قتله - بعد

---

(١) كَلَب الجيش : قيادته وعدوانه. انظر : المصباح المنير ٥٣٧.

(٢) في ط : «وهذا»

(٣) في س، ج، ق : «تهم».

(٤) في ط : «أن الدائرة والهزيمة عليهم» و «أن» بعدها ساقطة من ج، ج، ق.

(٥) في البقية عدا س زيادة : «واو».

(٦) في ح : «المسلمين».

(٧) «لقاء» ساقطة من أ، ب، غ.

(٨) في البقية عدا س، ق : «الواقعتين».

(٩) مصر سميت بذلك نسبة لمصر بن مصرايم بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ وقيل غير ذلك.

أن [١] أنضجت له القدور، وقُلِّبت له الأمور - اجتمع [٢] أصحابه لوداعه. وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون علىٰ قتلك. فقال: والله لا يصلون إلىٰ ذلك أبداً. قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم. ويطول حبسي. ثم أخرج وأتكلم بالسنة علىٰ رؤوس المنابر [٣]. سمعته يقول ذلك.

ولما تولىٰ عدوه الملقب بالمظفر [٤] الجاشنكير الملك أخبروه [٥] بذلك. وقالوا [٦]: الآن بلغ مراده منك. فسجد لله شكراً وأطال. فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذه بداية ذُلِّه ومفارقة [٧] عزِّه من الآن، وقرب زوال أمره. فقيل له [٨]: متىٰ هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند علىٰ

وكانت منازل الفراعنة، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. انظر: معجم البلدان ٥/ ١٣٧-١٤٣، وكتاب الخطط المقريزية ١/ ١٨ - ٢٣.

(١) في البقية عدا س، ق: «بعدما أنضجت».

(٢) في س: «أجمع».

(٣) في البقية عدا س، م: «الناس».

(٤) «بالمظفر» ساقطة من ط. وهو بيبرس الجاشنكير وهو أحد الأمراء في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يتكلم في نصر المنبجي وينسبه إلىٰ اعتقاد ابن عربي وهو شيخ للأمير بيبرس الجاشنكير، فلهذا أصبح الجاشنكير عدواً لابن تيمية وقد قتل سنة ٧٠٩هـ. انظر: البداية والنهاية ١٤/ ٣٦ و٣٧ و ٥٥ و ٥٦.

(٥) في م: «أخبر».

(٦) في ق: «وقال».

(٧) في البقية عدا س: «ومفارقة».

(٨) «له» ساقطة من الجميع عدا س، ج.

القرط[١] حتىٰ تُغلب[٢] دولته. فوقع الأمر مثل ما أخبر به. سمعت ذلك منه وعنه[٣].

وقال مرة : يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم. فأرىٰ في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها لهم. فقلت له - أو غيري - : لو أخبرتهم؟ فقال : أتريدون أن أكون معرّفاً كمعرف الولاة؟.

وقلت له يوماً : لو عاملتنا بذلك لكان أدعىٰ إلىٰ الاستقامة والصلاح. فقال: لا تعبرون معي علىٰ ذلك جمعة ، أو قال : شهراً.

وأخبرني غير مرة بأمور[٤] باطنة تختص بي مما عزمت عليه ، ولم ينطق به لساني.

---

(١) أي وضع اللجام وراء أذنيه أو طرح اللجام في رأسه. انظر : لسان العرب ٧/ ٣٧٤ و٣٧٥.

(٢) في البقية عدا س ، ج : «تغلب».

(٣) «وعنه» ساقطة من الجميع عدا س. وما ذكره ابن القيم ويذكره عن شيخه هنا محمول علىٰ ثقة ابن تيمية - رحمه الله - بربه سبحانه وتعالىٰ ، وأنه ينصر أولياءه إضافة إلىٰ استدلاله بالواقع من ضعف العدو أو قوته ، والاستدلال بالأمور المحسوسة ونحو ذلك. وكلام ابن القيم هنا لا يسلم من النقد ؛ بل هو محتاج إلىٰ إيضاح وتحرز ولهذا علق عليه محمد الفقي - رحمه الله - في هامش طبعته قائلاً : «وهل اطلع علىٰ ما في اللوح المحفوظ» ، وقال أيضاً : «مفتاح الغيب عند الله لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وغفر الله لنا وله فأين هذا من الفراسة وإنما هلك من هلك بالغلو في شيوخهم عفا الله عنه» المدارج ٢/ ٤٨٩ ، ٤٩٠.

(٤) في م : «بأمور مما تختص به باطنه».

وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل. ولم يعين أوقاتها. وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيّتها. وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته. [والله أعلم](١).

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«**الفِرَاسَةُ : استِئنَاسُ حُكمِ غَيبٍ**»(٢).

والاستئناس : (٣) استفعال من آنست كذا، إذا رأيته (٤). فإن أدركت بهذا الاستئناس (٥) حكم غيب : كان فراسة. وإن كان بالعين : كان رؤية. وإن كان بغيرها من المدارك : فبحسبها.

و (٦) قوله : «**مِن غَيرِ استِدلاَلٍ بِشَاهِدِهِ** (٧)».

[هذا] (٨) الاستدلال بالشاهد علىٰ الغائب : أمر مشترك بين البر والفاجر.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٢) في منازل السائرين ٨٠ : «التوسم التفرس وهو استئناس حكم غيب».

(٣) في ج : «من استفعال».

(٤) في أ، غ : «إذا أراهم».

(٥) في أ، غ زيادة : «من» وهي غير ملائمة.

(٦) «الواو» ساقطة من الجميع عدا س، م.

(٧) في أ، غ، ح، ب : «يتعاهد» وقوله في المنازل ٨٠.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س، ق.

والمؤمن والكافر[١]، كالاستدلال بالبروق والرعود علىٰ الأمطار، وكاستدلال رؤساء البحر بالكدَر[٢] الذي يبدو لهم في جانب الأفق علىٰ ريح عاصف، ونحو ذلك، وكاستدلال الطبيب بالسِّحْنة[٣] والتفسرة[٤] علىٰ حال المريض.

ويدق ذلك[٥] حتىٰ يبلغ إلىٰ حد تعجز[٦] عنه أكثر الأذهان. وكما يستدل بسيرة الرجل وسيره علىٰ عاقبة أمره في الدنيا من خير أو شر. فيطابق، أو يكاد.

فهذا خارج عن الفراسة التي تتكلم[٧] فيها هذه الطائفة. وهو نوع فراسة؛ لكنها غير فراستهم. وكذلك ما علم بالتجربة من مسائل الطب والصناعات والفلاحة وغيرها. [والله أعلم][٨].

---

(١) في أ: «والفاجر».

(٢) الكدر: ضد الصفو. مختار الصحاح ٥٦٤.

(٣) في ب، م، ح: «بالسخنة» وهو خطأ والسحنة: هي الهيئة. مختار الصحاح ٢٨٩.

(٤) في ج: «والنفس» وهو خطأ والفسر: نظر الطبيب إلىٰ الماء. والتفسرة: البول الذي يُستدل به علىٰ المرضىٰ وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه علىٰ علة العليل. لسان العرب ٥/ ٥٥.

(٥) «ذلك» ساقطة من أ، غ، ح، ب، وفي م: «حتىٰ يصل» وفي ق: «حين يبلغ».

(٦) في البقية: «يعجز».

(٧) في س: «متكلم» وفي ب، ج، ح «يتكلم»

(٨) الزيادة من الجميع عدا س، م.

فصل

درجات الفراسة الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. [الدَّرَجَةُ][1] الأُولَىٰ: فِرَاسَةٌ طَارِئَةٌ نَادِرَةٌ. تَسقطُ عَلَىٰ لِسَانٍ وَحشِيٍّ فِي العُمرِ مَرَّةً، لِحَاجَةِ سَمعِ مُرِيدٍ صَادِقٍ إِلَيهَا، لاَ يُوقَفُ[2] عَلَىٰ مخرَجِهَا، وَلاَ يُؤبَه لِصَاحِبِهَا. وَهَذَا شَيءٌ لاَ يَخلُصُ مِن الكَهَانَةِ[3] وَمَا ضَاهَأَهَا؛ لأَنَّهَا لَم تُشِرْ عَن عَينٍ، وَلَم تَصدُر عَن عِلمٍ، وَلَم تُسْبَقْ بِوُجُودٍ[4]».

يريد[5] بهذا النوع: فراسة تجرىٰ علىٰ ألسنة الغافلين، الذين ليست لهم يقظة أرباب القلوب. فلذلك قال: «طَارِئَةٌ نَادِرَةٌ تَسقُطُ عَلَىٰ لِسَانٍ وَحشِيٍ» واللسان الوحشي[6] الذي لم يأنس بذكر الله. ولا اطمأن إليه قلب صاحبه. فيسقط علىٰ لسانه مكاشفة في العمر مرة. وذلك نادر[7] ورمية من غير رام.

وقوله: «لِحَاجَةِ مُرِيدٍ صَادِقٍ».

---

(١) الزيادة من غ.

(٢) في ج: «لا تتوقف» والبقية عدا س: «لا يتوقف».

(٣) في أ، غ، ح: «كهانة».

(٤) في أ، غ، ح، ج، ق: «موجود»، وانظر: قوله ص٨٠.

(٥) في س: «تريد».

(٦) «واللسان الوحشي» ساقطة من الجميع عدا س، ج، م، ق ثم سقط من ق إلىٰ قوله: «مكاشفة».

(٧) في غ: «نادرة».

يشير إلىٰ حكمة إجرائها علىٰ لسانه. وهي حاجة المريد الصادق إليها. فإذا سمعها علىٰ لسان غيره كان أشد تنبّهاً له. وكانت عنده أعظم موقعاً.

وقوله: «**لاَ يُوقَفُ**[1] **عَلَىٰ مخرَجِهَا**».

يعني لا يعلم الشخص الذي وصلت إليه. واتصلت به: ما سبب مخرج ذلك الكلام؟ وإنما سمعه مقتطعاً مما قبله ومما هيجه.

«**وَلاَ يُؤبَه لِصَاحِبِهَا**» لأنه ليس هناك قلب[2].

الفأل والطيرة

وهذا من جنس الفأل. وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل[3] ويعجبه[4]. والطيرة من هذا. ولكن المؤمن لا يتطير. فإن الطيرة[5] شرك. ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته؛ بل[6] يتوكل علىٰ الله ويثق به. ويدفع شر التطير عنه بالتوكل.

---

(١) في أ، ب: «لا يتوقف».

(٢) هكذا في الأصل وج، ق، م، س ويؤيده كلام المؤلف في بداية هذا الفصل. وفي بقية النسخ «قلت».

(٣) **الفأل**: مهموز وقد لا يهمز. قال أهل المعاني الفأل فيما يحسن وفيما يسوء والطيرة فما يسوء فقط. وقال بعضهم: الفأل فيما يحسن فقط والفأل ما وقع من غير قصد بخلاف الطيرة. والطيرة: هو ما يتشاءم به من الفأل الردي. تفسير غريب الحديث ١٨٢، ومختار الصحاح ٤٠٢.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الطب باب الفأل ٧/ ٢٧، ومسلم في كتاب السلام باب الطيرة، والفأل وما يكون فيه من الشؤم ٢/ ١٧٤٦ (٢٢٢٤).

(٥) في ط: «التطير».

(٦) في ق: «ويتوكل».

وفي الصحيح[1] عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**الطيرة شرك، وما منا إلا. ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[2].

وهذه الزيادة – وهي قوله: «وما منا إلا – يعني[3] من يعتريه – ولكن الله يذهبه[4] بالتوكل» مدرجة في الحديث من قول ابن مسعود. وجاء ذلك مبيناً.

ومن له يقظة يرىٰ ويسمع من ذلك عجائب. وهي من إلقاء الملك تارة علىٰ لسان الناطق[5]. وتارة من إلقاء الشيطان.

فالإلقاء الملكي: تبشير وتحذير وإنذار. والإلقاء الشيطاني: تحزين وتخويف وشرك. وصد عن المطالب.

---

(١) في ط: «وفي الصحيحين».

(٢) الحديث رواه أحمد في المسند ١/ ٣٨٩ و٤٣٨ و٤٤٠، والترمذي في السير باب ما جاء في الطيرة ٤/ ١٦٠ و ١٦١ (١٦١٤) وقال هذا حديث صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل. ونص علىٰ زيادة ابن مسعود. وأبو داود في الطب باب في الطيرة ٤/ ٢٣٠ (٣٩١٠) وابن ماجه في الطب باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة ٢/ ١١٧٠ (٣٥٣٨) والحاكم ١/ ١٨ وقال: هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة ١/ ٧١٦ (٤٢٩) وقال: لا حجة هنا في الإدراج فالحديث صحيح بكامله.

(٣) في ج: «بالتاء».

(٤) في ط: «يذهبها» وفي أ، ب: «يدفعها بالتوبة» وفي البقية: «يدفعها بالتوكل».

(٥) في ق: «الناظر».

وصاحب الهمة والعزيمة : لا يتقيد بذلك. ولا يصرف إليه همته [١]. وإذا سمع ما يسره استبشر ، وقوي [٢] رجاؤه وحسن [٣] ظنه. وحمد الله. وسأله إتمامه، واستعان [٤] به على حصوله. وإذا سمع ما يسوؤه : استعاذ بالله ووثق به. وتوكل عليه. [ولجأ إليه] [٥] ، والتجأ إلى التوحيد. وقال : «اللهم لا طير إلا طيرك. ولا خير إلا خيرك. ولا إله غيرك. اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت. ولا يذهب [٦] بالسيئات إلا أنت. ولا حول ولا قوة إلا بك» [٧].

ومن جعل هذا نُصب قلبه ، وعلق به همته : كان ضرره به أكثر من نفعه.

قوله : «**وَهَذَا شَيْءٌ لاَ يَخلصُ مِن الكَهَانَةِ**».

أحوال الكهانة

يعني : أنه من جنس الكهانة. وأحوال الكهان معلومة قديماً وحديثاً في إخبارهم عن نوع من المغيبات بواسطة إخوانهم من الشياطين الذين يلقون

---

(١) في ج : «همته إليها».

(٢) في ج : «ويقوى».

(٣) في ط : «وحسنه».

(٤) «واستعان» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ب.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، ج ، ق. و «إليه» ساقطة من أ ، غ ، ب ، م.

(٦) «ولا يذهب» ساقطة من ق.

(٧) الحديث رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٢٠ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٠٨ ، رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. قال الألباني قلت : الضعف الذي في حديث ابن لهيعة إنما هو في غير رواية العبادلة عنه وإلا فحديثهم عنه صحيح ، كما حققه أهل العلم في ترجمته سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٥٤ (١٠٦٥).

إليهم السمع، ولم يزل هؤلاء في الوجود. ويكثرون في الأزمنة والأمكنة التي يخفىٰ فيها نور النبوة. ولذلك[1] كانوا أكثر ما[2] كانوا في زمن الجاهلية، [وكل زمان جاهلية][3]، وبلدة جاهلية وطائفة جاهلية، فلهم نصيب منها بحسب اقتران الشياطين بهم[4] وطاعتهم لهم[5]، وعبادتهم إياهم.

و[6] قوله: «وَمَا ضَاهَاهَا» أي و[7] ما شابهها من جنس الخط بالرمل، وضرب الحصا[8]، وزجر الطير، الذي يسمونه السانح[9] والبارح، والقرعة الشركية لا الشرعية، والاستقسام بالأزلام[10]، وغير ذلك مما تتعلق به النفوس

---

(١) في ج: «وكذلك».

(٢) في ق: «مما».

(٣) الزيادة من الجميع وبعدها في الجميع: «بلد».

(٤) «بهم» ساقطة من أ، غ، ب.

(٥) في ق: «وطلبهم لهم» وانظر: الكهان وأخبارهم في كتاب مروج الذهب للمسعودي ٢/ ١٧٢ - ١٩٣.

(٦) «الواو» ساقطة من ج.

(٧) «الواو» ساقطة من أ، غ، ج، ح، ب، م.

(٨) في ط زيادة: «والودع».

(٩) **البارح**: ضد السانح والعرب كانت تتيامن بالطير الذي يأتي من اليمين ويذهب إلىٰ اليسار. انظر: المصباح المنير ٢٩١، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٠٧.

(١٠) **الأزلام**: جمع زلم وهي القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها أفعل أو لا تفعل توضع في وعاء فيدخل الرجل يده ويأخذ واحداً منها ويعمل بمقتضاه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣١١.

الجاهلية المشركة التي عاقبة أمرها خُسراً وبوار.

وقوله : «لأنهَا لَم تُشِر[١] عَن عَينٍ».

أي عن عين الحقيقة التي[٢] لا يصدر عنها إلا حق. يعني هي[٣] غير متصلة بالله عز وجل [و][٤] قوله : «وَلَمَ تَصدُر[٥] عَن عِلمٍ».

يعني أنها عن[٦] ظن وحسبان ، لا عن علم ويقين. وصاحبها دائماً في شك. ليس على بصيرة من أمره.

و[٧] قوله : «وَلَمَ تُسبَق بِوُجُودٍ».

أي لم يسبقها وجود الحقيقة لصاحبها ؛ بل هو فارغ بَوٌّ[٨] غير واجد ؛ بل فاقد من غير أهل الشهود[٩] ، [والله أعلم][١٠].

---

(١) في ب : «تستر» و م : «تنتشر».

(٢) في ق : «الذي».

(٣) «هي» ساقطة من البقية عدا س ، ج ، م ، ب ، أ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س.

(٥) في س ، ج «بالياء».

(٦) «عن» ساقطة من البقية عدا س ، م ، ج ، ق.

(٧) «الواو» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ج ، ق.

(٨) في س : «نو».

(٩) في البقية عدا س ، ج ، ق ، م : «الوجود».

(١٠) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، ق.

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : فِرَاسَةٌ تجُنَىٰ مِن غَرسِ الإِيمَانِ ، وَتَطلُعُ مِن صِحَّةِ الحَالِ ، وَتَلمَعُ مِن نُورِ الكَشفِ»[1].

[2]هذا النوع من الفراسة : مختص بأهل الإيمان. ولذلك قال : «تجنىٰ من غرس الإيمان»[3] وشبه الإيمان بالغرس ؛ لأنه يزداد وينمو ، ويزكو علىٰ السقي. ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت في الأرض. وفروعه[4] في السماء. فمن غَرسَ الإيمانَ في أرضِ قلبِه الطيبة الزاكية ، وسقىٰ ذلك الغراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة : كان من بعض ثمره هذه الفراسة.

قوله : «فَتَطلُعُ[5] مِن صِحَّةِ الحَالِ».

يعني : أن صدق الفراسة من صدق الحال. فكلما كان الحال أصدق وأصح فالفراسة كذلك.

قوله : «وَتَلمَعُ مِن نُورِ الكَشفِ».

---

(١) منازل السائرين ، ٨٠.

(٢) «هذا النوع» ساقطة من أ.

(٣) «الإيمان» ساقطة من ب ، ق.

(٤) في ق : «وفرعه».

(٥) في ج : «فتسطع» و ط : «وتطلع».

يعني [١] أن نور الكشف من جملة ما يولد الفراسة ؛ بل أصلها نور الكشف.

وقوة الفراسة : بحسب قوة هذا النور وضعفه. وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها [والله أعلم] [٢].

فصل

الدرجة الثالثة

قال «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : فِرَاسَةٌ سريةٌ ، لَمْ تَجْتَلِبْهَا [٣] رَوِيَّةٌ [٤]. عَلَىٰ لِسَانِ مُصطَنَعٍ [٥] تَصرِيحاً أَو رَمزاً» [٦].

يحتمل [٧] لفظ «السرية» وجهين :

أحدهما: الشرف. أي فراسة شريفة. فإن الرجل السري هو الرجل الشريف ، وجمعه سراة ، ومنه - في أحد التأويلين - قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤] أي سيداً مطاعاً. وهو [٨] المسيح. وعلىٰ هذا يكون «سرية» بوزن شريفة.

---

(١) «يعني» ساقطة من غ ، وسقط من ق : «يعني أن نور الكشف».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) في م : «تخليها».

(٤) في م ، ب : «رؤية».

(٥) في م : «متصنع».

(٦) منازل السائرين ص ٨٠ و ٨١.

(٧) في ق : «ويحتمل» وهو بداية كلام فعدم الواو أولىٰ.

(٨) انظر : الدر المنثور ٥/ ٥٠٢ و ٥٠٣.

والثاني : أن يكون من السر[1] ، أي فراسة متعلقة بالأسرار. لا بالظواهر ، فتكون سرية بوزن شريبة ومكيثة.

قوله : «لمْ تجتَلِبْهَا رَوِيَّةٌ» أي لا تكون عن[2] فكرة ؛ بل تهجم علىٰ القلب هجوماً لا يعرف سببه.

قوله : «عَلَىٰ لِسَانٍ مُصطَنَعٍ» أي مختار مصطفىٰ علىٰ غيره.

« تَصرِيحاً أَو رَمزاً». يعني أن هذا المختار يخبر بهذه الفراسة العالية عن أمور مغيبة ، تارة بالتصريح. وتارة بالتلويح ، إما ستراً لحاله ، وإما صيانة لما أخبر به عن الابتذال[3] ، ووصوله إلىٰ غير أهله. وإما لغير ذلك من الأسباب. والله أعلم.

* * *

(١) في ق : «من السراي فراسة».

(٢) في م ، ب : «علىٰ».

(٣) الابتذال : أي الامتهان. مختار الصحاح ٤٥.

فصل

[منزلة التعظيم]

منزلة التعظيم

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «التعظيم».

وهذه[1] المنزلة تابعة للمعرفة. فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالىٰ في القلب. وأعرف الناس به[2] : أشدهم له تعظيماً وإجلالاً. وقد ذم الله من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفوه[3] حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته. وأقوالهم تدور علىٰ هذا وقال[4] تعالىٰ : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : ١٣] قال ابن عباس[5] ومجاهد : لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير[6] : ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟

وقال الكلبي[7] : لا تخافون لله عظمة.

---

(١) «الواو» ساقطة من ق.

(٢) في ق «واو» وهي غير مناسبة.

(٣) في البقية عدا س : «عرفه ولا وصفه».

(٤) في ط : «فقال».

(٥) من هنا إلىٰ قوله: «وروح العبادة» نقله المؤلف من تفسير البغوي. انظر تفسير البغوي ٨/ ٢٣١.

(٦) هو سعيد بن جبير الأسدي الكوفي ثقة ثبت فقيه قتل بين يدي الحجاج سنة ٩٥هـ ولم يكمل الخمسين. انظر : تقريب التهذيب ١/ ٢٩٢ (١٣٣) ، وصفة الصفوة ٣/ ٧٧ (٤١١).

(٧) هو أحمد بن محمد بن هانئ الطائي ، ويقال الكلبي الأثرم الاسكافي من أصحاب الإمام

قال البغوي[1] ـ رحمه الله ـ: و«الرجاء» بمعنىٰ الخوف[2]. و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم. وقال الحسن: لا تعرفون[3] لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة.

وقال ابن كيسان[4] ـ رحمه الله ـ: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم علىٰ توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة هو الإجلال والمحبة. فإذا خلىٰ[5] أحدهما عن الآخر فَسَدتْ العبودية[6]، فإذا اقترن بهذين الثناء علىٰ المحبوب المعظّم. فذلك حقيقة الحمد. [والله سبحانه أعلم][7].

أحمد وكان عالماً حافظاً ثقة، توفي سنة ٢٧٣هـ. انظر: طبقات الحنابلة ١/ ٦٦ - ٧٤ (٥٧)، وتقريب التهذيب ١/ ٢٥ (١١٧).

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي ولد سنة ٢٧٣هـ.
انظر: مقدمة تفسيره ١/ ١٥-٢٢، التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٢٣٤، الأعلام ٢/ ٢٥٩ ولا شذرات الذهب ٤/ ٤٨-٤٩.

(٢) في ط: «الخوف».

(٣) في الأصل، س، م: «بالياء» والمثبت كما في البقية وتفسير البغوي.

(٤) هو محمد بن أحمد بن كيسان البغدادي النحوي صاحب التصانيف في القراءات والغريب والنحو توفي سنة ٢٩٩ هـ. انظر: الأعلام ٦/ ٩٩، وشذرات الذهب ٢/ ٢٣٢.

(٥) في ط: «تخلىٰ».

(٦) «العبودية» ساقطة من ط.

(٧) الزيادة من الجميع عدا س، م.

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

درجات التعظيم

«التَّعظِيمُ : مَعرِفَةُ العَظَمَةِ مَعَ التَّذَلُّلِ لهَا ، وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ.

الدرجة الأولى

الأُولَىٰ : تَعظِيمُ الأَمرِ وَالنَّهيِ ، وَهُوَ أَن لاَ يُعَارَضَا[1] بِتَرَخُّصٍ جَافٍ ، ولا يُعَرَّضا[2] لِتَشَدُّدٍ غَالٍ ، وَلاَ يُحمَلَا عَلَىٰ عِلَّةٍ تُوهِنُ الانقِيَادَ»[3].

الأمور التي تنافي التعظيم

هذه[4] ثلاث أشياء ، تنافي تعظيم الأمر والنهي.

أحدها : الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني : الغلو الذي يتجاوز به صاحبه[5] حدود الأمر والنهي.

فالأول تفريط. والثاني إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلىٰ تفريط وإضاعة ، وإما إلىٰ إفراط وغلو. ودين الله وسط[6] بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي[7] بين

---

(١) في س : «تعارضا».

(٢) في ج ، ق : «لشديد».

(٣) منازل السائرين ٨١.

(٤) في البقية عدا س ، م ، ج ، ق : «ههنا».

(٥) في ط : «يتجاوز بصاحبه».

(٦) «وسط» ساقطة من س ، م.

(٧) في الأصل ، س ، ج ، م : «والوادي» والمثبت كما في البقية.

جبلين. والهدي بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. وكما أن الجافي عن الأمر. مضيِّع له ، فالغالي فيه : مضيِّع له. هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه [عن] (١) الحد.

وقد نهىٰ الله عن الغلو بقوله : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة : ٧٧].

أنواع الغلو

و«الغلو» نوعان : نوع يخرجه عن كونه مطيعاً. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي ، أو رمىٰ الجمار (٢) بالصخرات الكبار التي يرمي بها في المنجنيق (٣) ، أو سعىٰ بين الصفا والمروة عشراً (٤) ، ونحو ذلك عمداً.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار (٥). كقيام الليل كله. وسرد الصيام الدهر أجمع ، بدون صوم (٦) أيام النهي. والجور علىٰ النفوس في العبادات والأوراد ، الذي قال فيه النبي ﷺ : «**إن الدين (٧) يسر ، ولن يشادَّ الدين أحد إلا**

(١) الزيادة من ب.

(٢) في البقية : «الجمارات».

(٣) المنجنيق : بفتح الميم وكسرها ، والمنجنوق : القذاف التي ترمىٰ بها الحجارة ، دخيل أعجمي معرب ، وأصلها بالفارسية : من جي نيك ، أي ما أجودني. لسان العرب ١٠/ ٣٣٨.

(٤) في ط ، ج ، م : «أو».

(٥) «الاستحسار» الإعياء. مختار الصحاح ١٣٥.

(٦) أ ، ب : «صيام».

(٧) في ط زيادة : «هذا».

غلبه. فسددوا وقاربوا وأبشروا[1]. واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»[2] يعني استعينوا علىٰ طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين علىٰ قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه. فإذا فتر فليرقد»[3] رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم[4] عنه: «هلك المتنطعون - قالها ثلاثاً» وهم المتعمقون المتشددون[5].

وفي صحيح البخاري عنه: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتىٰ تملوا»[6].

---

(١) في البقية عدا س: «ويسروا».

(٢) الدلجة: قيل سير الليل كله، وقيل آخر الليل. انظر: تفسير غريب الحديث ٩٢.
والحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر ١/ ١٥، وغيره.

(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٢/ ٤٨، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتىٰ يذهب عنه ذلك ١/ ٥٤٢ (٧٨٤).

(٤) هو الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ولد عام ٢٠٤ وقيل ٢٠٦هـ، وهو صاحب الصحيح المشهور توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٢٦١هـ. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٣٣-٣٥.
والحديث أخرجه مسلم في كتاب العلم باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥ (٢٦٧٠).

(٥) في ط، ج، ق: «المتشددون» وفي البقية كما أثبت وقال ابن حجر: المتنطعون: جمع متنطع وهو: المبالغ في الأمر قولاً وفعلاً، وتنطع في الكلام أي بالغ فيه. تفسير غريب الحديث ٢٤٠.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٢/ ٤٨، ومسلم في

وفي السنن عنه : «إن هذا الدين متين. فأوغل فيه برفق. ولا تبغض إلىٰ نفسك عبادة الله» (١) أو كما قال.

العلل التي توهن الانقياد

وأما(٢) قوله : «وَلاَ يُحمَلَا عَلَىٰ عِلَّةٍ تُوهِنُ الانقِيَادَ».

يريد : أن لا يتأول في الأمر والنهي علة تعود عليه(٣) بالإبطال ، كما تأول بعضهم تحريم الخمر بأنه معلل بإيقاع العداوة والبغضاء ، والتعرض للفساد. فإذا أمن [من](٤) هذا المحذور منه جاز شربه. كما قيل :

أَدِرْهَا فَما التحريمُ فيها لِذَاتِها ... ولكنْ لِأسبابٍ تضمَّنَها السُّكرُ

إذا لم يكنْ سُكرٌ يُضِلُّ عن الهُدَىٰ ... فَسِيَّان مَاءُ في الزُّجَاجةِ أَمْ خَمرُ(٥)

كتاب صلاة المسافرين باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتىٰ يذهب عنه ذلك ١/ ٥٤٢ (٧٨٥).

(١) الحديث ذكره أحمد في المسند ٣/ ١٩٩ إلىٰ قوله (برفق) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٦٧ : رواه أحمد ورجاله موثوقون إلا أن خلف بن مهران لم يدرك أنساً والله أعلم. وأما الزيادة علىٰ ما رواه أحمد فقد جاءت في رواية عائشة وجابر وعبدالله بن عمرو بن العاص ، واختلف في وصل الحديث وإرساله وتكلم في بعض رجاله. انظر : كتاب الزهد لابن المبارك ٤١٥ ، وشعب الإيمان للبيهقي ٣/ ٤٠٢ ، معرفة علوم الحديث للحاكم ٦٥ ، وفوائد العراقيين للنقاش ٧٥ ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة ١/ ٢١ حديث (٨).

(٢) في ط : «وقوله».

(٣) في ط : «عليهما».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في البقية عدا ج : «أو».

وقد بلغ هذا بأقوام إلىٰ الانسلاخ من الدين جملة. وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب(١) العنب معللاً بالإسكار فله أن يشرب منه(٢)، ما لم يسكر.

ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر. فيضعف انقياده(٣) إذا قام عنده أن هذه هي(٤) علة الحكم. ولهذا(٥) طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور.

وفي بعض الآثار القديمة «يا بني إسرئيل. لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بِمَ أمر ربنا؟»(٦).

وأيضاً فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتىٰ تظهر علته، لم يكن منقاداً للأمر، وأقل درجاته أن يضعف انقياده له.

وأيضاً فإنه إذا نظر إلىٰ حكمة(٧) العبادات والتكاليف مثلاً، وجعل العلة فيها

(١) في ط زيادة: «خمر».

(٢) في ط زيادة: «ما شاء».

(٣) في ط: «انقياد العبد».

(٤) «هي» ساقطة من ق، ج.

(٥) في ط زيادة «كانت».

(٦) هو في الإنجيل كما ذكره المؤلف. انظر: الصواعق المرسلة ٤/ ١٥٦١.

(٧) في البقية عدا س، ق: «حكم».

هي جمعية القلب ، والإقبال به على الله فقال : أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة.

فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أوراد[١] العبادات فعطلها ، وترك الانقياد بحمله الأمر[٢] على العلة التي أوهنت[٣] انقياده.

وكل هذا من ترك تعظيم الأمر والنهي. وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله. فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله ، وكم[٤] عطلت لله من أمر ، وأباحت من نهي ، وحرمت من مباح؟! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمِّها.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَعظِيمُ الحُكمِ : أَن يُبغَىٰ[٥] لَهُ عِوجٌ ، أو يُدَافَعَ بِعِلمٍ ، أَو يُرضَىٰ بِعِوَضٍ**».

الدرجة الأولىٰ : تتضمن تعظيم الحكم الديني الشرعي. وهذه الدرجة

---

(١) في ح : «وارد».

(٢) في س : «للأمر».

(٣) في البقية عدا س ، م : «أذهبت».

(٤) في ط : «فكم».

(٥) في غ : «أن ينبغي له عوج أيدافع ، وم ، ب ، ج : » «أن لا ينبغي» ، وانظر قوله في منازل السائرين ٨١.

تتضمن تعظيم(١) الحكم الكوني القدري. وهو الذي يخصه المصنف باسم «الحكم» وكما يجب علىٰ العبد [أن](٢) يرعىٰ حكم الله الديني بالتعظيم. فكذلك يرعىٰ حكمه الكوني به. فذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء.

أحدها «أَنْ لَا يُبْغَىٰ(٣) لَهُ عِوَجٌ» أي يطلب له عوج، أو يرىٰ فيه عوج بل يرىٰ(٤) كله مستقيماً. لأنه صادر عن عين الحكمة. فلا عوج فيه. وهذا(٥) موضع أشكل علىٰ الناس جداً.

المخالفون في القدر

فقالت(٦) نفاة القدر: ما في خلق الرحمن من تفاوت ولا عوج. والكفر والمعاصي مشتملة علىٰ أعظم التفاوت والعوج. فليست بخلقه ولا مشيئته ولا قدره.

وقالت فرقة تقابلهم: بل هي من خلق الرحمن وقدره. فلا عوج فيها(٧) وكل ما في الوجود مستقيم.

والطائفتان ضالتان، منحرفتان عن الهدىٰ. وهذه الثانية أشد انحرافاً؛ لأنها

---

(١) «تعظيم» ساقطة من ج.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س، وفي ج: «يراعي» وكذلك «يراعي الأخرىٰ».

(٣) في ج: «يبتغي له عوج أو».

(٤) في ط: «يراه».

(٥) في ب: «وهو».

(٦) في ط: «فقال».

(٧) في م: «ولا عوج».

جعلت الكفر والمعاصي[١] مستقيماً لا عوج فيه. وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي، والحكم والمحكوم به: هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه.

وقول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي. فالقضاء[٢] فعله ومشيئته وما قام به[٣]. والمقضي مفعوله المباين له المنفصل عنه. وهو المشتمل علىٰ الخير والشر، والعوج والاستقامة.

فقضاؤه كل حق. والمقضي: منه حق، ومنه باطل. وقضاؤه كله عدل. والمقضي: منه عدل، و[منه][٤] جور. وقضاؤه كله مرضي. والمقضي[٥]: منه مرضي، ومنه مسخوط. وقضاؤه [كله][٦] مسالم. المقضي منه ما يسالم، ومنه ما يحارب. وهذا أصل عظيم تجب مراعاته. وهو موضع مزلة أقدام كما رأيت. والمنحرف[٧] عنه: إما جاحد[٨] للحكمة، أو للقدرة[٩]، أو للأمر والشرع ولا

---

(١) في ط زيادة: «مستقيماً».

(٢) في ج: «والقضاء».

(٣) سقط من ق إلىٰ قوله: «كله حق».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، ج.

(٥) «والمقضي منه مرضي» ساقط من ج.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س.

(٧) في ج: «المنحرفة».

(٨) في ط: «جاهل».

(٩) في البقية عدا س، م: «القدرة».

بدّ. وعلىٰ هذا يحمل كلام صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «أَن[1] لاَ يُبتغَىٰ لِلحُكمِ عِوَجٌ».

وأما[2] قوله: «أَو يُدفَعَ بِعِلْمٍ».

فأشكل من الأول: فإن العلم مقدم علىٰ القدر، وحاكم عليه. ولا يجوز دفع العلم بالحكم.

فأحسن ما يحمل عليه كلامه، أن يقال: قضاء الله وقدره وحكمه الكوني، لا يناقض دينه وشرعه وحكمه الديني. بحيث تقع المدافعة بينهما؛ لأن هذا مشيئته الكونية، وهذا إرادته الدينية. وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان؛ لكن من تعظيم كل منهما: أن لا يدافع بالآخر و[لا][3] يعارض. فإنهما وصفان للرب تعالىٰ. وأوصافه لا يدافع[4] بعضها ببعض. وإن استعيذ ببعضها من بعض. فالكل منه سبحانه. وهو المعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعلم الخلق به «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[5]

---

(١) في الأصل، س، م، ج: «أي» والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٢) «الواو» ساقطة من ب «وأما» ساقطة من أ.

(٣) الزيادة من ج.

(٤) في الأصل «بالتاء»، وفي أ، غ، ب: «يدفع» والمثبت كما في البقية لموافقة ما قبله.

(٥) الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٢ (٤٨٦).

فرضاه - وإن أعاذ من سخطه - فإنه لا يبطله ولا يدفعه[١]. وإنما يدفع تعلقه بالمستعيذ، وتعلقه بأعدائه باق غير زائل. فهكذا أمره وقدره سواء، فإن أمره لا يبطل قدره، ولا قدره يبطل أمره، ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به وأحبه[٢]، وهو أيضاً من قضائه. فما دفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره، فلم يدفع العلم الحكم بل المحكوم به، والعلم والحكم دفعا المحكوم به الذي قدّر دفعه وأمر به.

فتأمل هذا، فإنه محض العبودية والمعرفة، والإيمان بالقدر، والاستسلام له والقيام بالأمر، والتنفيذ له بالقدر، فما نفذ المطيع أمر الله إلا بقدر الله، ولا دفع مقدور الله[٣] إلا بقدر الله وأمره.

وأما قوله: «وَلَا يُرضَىٰ بِعِوَضٍ».

أي إن صاحب «مشهد الحكم»[٤] قد وصل إلىٰ حد لا يتطلب[٥] معه عوضاً. ولا يكون ممن يعبد الله بالعوض، فإنه يشاهد جريان حكم الله عليه، وعدم تصرفه في نفسه، وأن المتصرف فيه حقاً[٦] مالكه الحق. فهو الذي يقيمه

(١) «لا» ساقطة من س، ح، ج، ب.

(٢) في ج: «وأوجبه».

(٣) «إلا» ساقطة من ط.

(٤) «مشهد» ساقطة من ط.

(٥) في البقية عدا س، م: «يطلب».

(٦) في ط زيادة: «هو».

ويقعده، ويقلبه ذات اليمين وذات الشمال. وإنما يطلب العوض من غاب عن الحكم وذهل عنه، وذلك مناف لتعظيمه، فمن تعظيمه أن لا يرضىٰ العبد بعوض يطلبه بعمله؛ لأن مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه(١) أن يرىٰ لنفسه ما يعاوض عليه، فهذا الذي يمكن حمل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الأمر. والله أعلم.

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: تَعظِيمُ الحَقِّ سُبحَانَهُ(٢)، وَهُوَ أَن(٣) لاَ تجعَلَ دُونَهُ سَبَباً، وَلاَ تَرَىٰ عَلَيهِ حَقاً، أَو تُنَازِعَ لَهُ اختِيَاراً**».

هذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والذي(٤) قبلها تتضمن تعظيم قضائه لا مقضيه، والأولىٰ: تتضمن تعظيم أمره.

وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء.

أحدها: «**أَنْ لاَ تجعَلَ [دُونَهُ سَبَباً**».

أي لا تجعل](٥) للوصلة إليه سبباً غيره؛ بل هو الذي يوصل إليه

---

(١) في ج: «بالتاء».

(٢) في غ: «الرب».

(٣) في الأصل «أنه» والمثبت كما في البقية والمنازل، كما أن الأفعال في أ، ج، ق، ط: «بالتاء» والمثبت كما في البقية والمنازل وقوله في ص ٨١ و ٨٢.

(٤) هكذا في الجميع وفي ط: «التي».

(٥) الزيادة من الجميع.

عبدَه(١)، فلا يوصل إلىٰ الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه، [ولا أدنىٰ(٢) إليه غيره]، ولا يتوصل إلىٰ رضاه إلا به. فما دل علىٰ الله إلا الله، ولا هدىٰ إليه سواه. ولا أدنىٰ إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سبباً، فالسبب وسببيته وإيصاله: كله خلقه وفعله.

الثاني: «**أَنْ لا تَرَىٰ(٣) عَلَيهِ حَقّاً**».

أي [أن](٤) لاترىٰ لأحد من الخلق(٥) - لا لك ولا لغيرك - حقاً علىٰ الله؛ بل الحق له(٦) علىٰ خلقه، وفي أثر إسرائيلي: أن داود - عليه السلام - قال: «يا رب بحق آبائي عليك. فأوحىٰ الله إليه: يا داود وأي حق لآبائك عليَّ؟ ألست أنا(٧) الذي هديتهم ومننت عليهم واصطفيتهم. ولي الحق عليهم؟».

---

(١) في البقية عدا س، ح، ج، س، ق: «عبده إليه».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س، م، وفي ط: «يدني».

(٣) في ج: «أنه لا يرىٰ».

(٤) الزيادة من س، وفيها والأصل بالياء، والمثبت كما في البقية لموافقة السياق.

(٥) «من» ساقطة من ج.

(٦) في البقية عدا س، م «الله».

(٧) «أنا» ساقطة من ج والأثر ذكره القرطبي في التفسير علىٰ أن القائل هو يوسف - عليه السلام - انظر: تفسير القرطبي ٩/ ١٥٩ وما ذكره المؤلف أورده الهيثمي عن النبي ﷺ أن داود قال فذكره ثم قال: رواه البزار من رواية أبي سعيد عن علي بن زيد وأبو سعيد لم أعرفه، وعلي ابن زيد ضعيف وقد وثق. مجمع الزوائد ٨/ ٢٠٢.

وأما حقوق العبيد[١] على الله : من إثابته لمطيعهم ، وتوبته على تائبهم ، وإجابته لسائلهم : فتلك حقوق أحقَّها هو على نفسه ، بحكم وعده وإحسانه ، لا أنها حقوق أحقُّوها هم عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده ، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه وعدُه[٢] وبرُّه ، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه. هذا قول أهل التوفيق والبصائر. وهو وسط بين قولين منحرفين. قد تقدم ذكرهما مراراً[٣]. والله أعلم.

وأما قوله : «وَلاَ يُنَازِعَ لَهُ اخْتِيَاراً»[٤].

أي إذا رأيت الله قد اختار لك أو لغيرك شيئاً - إما بأمره ودينه ، وإما بقضائه وقدره - فلا تنازع اختياره ؛ بل ارض باختيار ما اختاره[٥] ، فإن ذلك من تعظيمه سبحانه.

ولا يرد عليه ما قدره[٦] عليه من المعاصي. فإنه سبحانه - وإن قدرها - لكنه لم يخترها له ، فمنازعتها غير اختياره من عبده. وذلك من تمام تعظيم العبد له. والله أعلم.

---

(١) في ج : «العباد».

(٢) في البقية عدا س ، ج ، ق : «جوده».

(٣) وأقرب ذلك ما ذكره في هذه المنزلة في الدرجة الثانية منها.

(٤) في ح ، ب ، غ «بالتاء» وفي ط «أو لا نهازع».

(٥) في ط زيادة «لك».

(٦) في ط : «عليه قدره من» ، ب : «ما قدره باختياره من».

فصـــل

منزلـة الإلهام

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإلهام ، والإفهام، والـوحي، والتحديث والرؤيا الصادقة».

وقـد تقـدمت في أول الكتـاب عنـد الكـلام علىٰ مراتـب الهدايـة[1] ، وذكرنـا كلام صاحب المنازل هناك .

فصـــل

[منزلة السكينة]

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «السكينة»[2].

منزلـة السكينة

هذه المنزلة[3] من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع.

---

(١) انظر المدارج ١/ ٣٧-٥٢.

(٢) قال الكاشاني عن السكينة : هي سكون إلى الله بروح السر عند إلقاء الحكمة على قلب المحدث ، وكشف الشبه له ، وإنطاق لسانه بالحق. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٠٠.

وفي التعريفات ١٥٩ قال : السكينة ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب ، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده ويطمئن ، وهو مبادىء عين الحق.

وسيذكر المؤلف معنى السكينة فيما يأتي.

(٣) في ق : «منزلة».

مواضع ورود السكينة في القرآن

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٨].

الثاني : قوله : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦].

الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٤٠].

الرابع : قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ٤].

الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح : ٢٦].

قرأ قراءة ابن تيمية وابن القيم لآيات السكينة عند اضطراب القلب

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا اشتدت عليه الأمور : قرأ آيات السكينة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة[1] جرت له في مرضه، تعجز القوىٰ[2] عن

(١) «عظيمة» ساقطة أ، ب.

(٢) في ط، غ : «العقول».

حملها – من محاربة أرواح شيطانية ، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة – قال فلما اشتد عليَّ الأمر ، قلت لأقاربي ومن حولي : اقرءوا آيات السكينة ، قال : ثم أقلع عني ذلك الحال ، وجلست وما بي قَلَبَة [١].

وقد جربت أنا أيضاً [٢] قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما[٣] يرد عليه. فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار ، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده ، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك [لما يرد][٤] عليه ، ويوجب له زيادة الإيمان ، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها علىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة ، [إذ][٥] هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم. لو نظر أحدهم إلىٰ ما تحت قدميه لرآهما ، وكيوم حنين[٦]، [حين][٧]

---

(١) أي داء. انظر : تفسير غريب الحديث ٢٠٢.

(٢) «أيضاً» ساقطة من س ، ق ، ج.

(٣) في البقية عدا س ، أ : «بما».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٦) حنين : هو واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً ، وهو الموضع الذي قاتل فيه الرسول ﷺ هوازن. انظر : معجم ما استعجم ٢/ ٤٧١ و ٤٧٢.

(٧) الزيادة من م.

وَلَّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي [١] أحد [منهم] [٢] على أحد. وكيوم الحديبية [٣] حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر عن حملها - وهو عمر - حتى ثبَّته الله بالصديق.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة[٤].

وفي الصحيحين عن البراء[٥] بن عازب ﷺ قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلد[٦] بطنه، وهو يرتجز[٧] بكلمة عبدالله بن

---

(١) أي لا يتعطفوا عليه. انظر: تفسير غريب الحديث ٢١٩.

(٢) الزيادة من الجميع عدا ج، س، ق.

(٣) الحديبية: هي قرية بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وبعض الحديبية بالحل وبعضها بالحرم، قيل أصلها بئر، وقيل سميت بالحديبية نسبة إلى شجرة حدباء كانت في ذلك الموضع. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩ و ٢٣٠.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٤. والآية هي: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم﴾ [البقرة: ٢٤٨]

(٥) هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي صحابي ابن صحابي روى عن أبيه وأبي بكر وعمر وغيرهم، توفي سنة ٧٢هـ. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٩٤ (١٦)، الإصابة ١/ ١٤٧ (٦١٥).

(٦) في البقية عدا س، ق: «جلدة» وفي الصحيحين بياض، ورواية أخرى شعر صدره.

(٧) الرجز: هو نظم الشعر على بحر الرجز أحد الأبحر الشعرية. انظر: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ٢١٣.

رواحة[1] ﷺ:

اللهمَّ[2] لولا أنتَ ما اهتدَيْنَا ولا تصدَّقْنَا ولا صَلَّينا
فأَنزِلَنْ سكينةً عَلَينا وثبِّت الأَقدام إنْ لاقَينَا
إنَّ الأُولىٰ قد بَغَوا عَلَينا وَإنْ أَرادُوا فِتنةً أَبَينَا

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة[3]: «إني باعث نبياً أمياً[4] ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب[5] في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوَّال للخنا[6]. أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلقٍ كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدىٰ إمامه، والإسلام ملَّته، وأحمد اسمه»[7].

---

(١) هو عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس الخزرجي الأنصاري الشاعر أحد السابقين وأحد النقباء الاثنى عشر استشهد ـ رضي الله عنه ـ بمؤتة. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ٤١٥ (٣٠٢)، صفة الصفوة ١/ ٤٨١- ٤٨٥.

(٢) في ط: «لا هم» والحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق ٣/ ٢١٣، ومسلم كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ٢/ ١٤٣٠ (١٨٠٣).

(٣) في ج: «القديمة».

(٤) «أميا» ساقطة من ج، وفي م: «أمينا».

(٥) الصخب: الضجة واضطراب الأصوات للخصام. النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٤.

(٦) الخنا: الفحش. مختار الصحاح ١٩٢، تفسير غريب الحديث ٨٧.

(٧) روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: قرأت في التوراة

فصـــل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

المعنى الأول للسكينة

«السَّكِينَةُ اسمٌ لِثَلاَثَةِ أَشيَاءَ. أَوَّلُهَا : سَكِينَةُ بَنِي إِسرَائِيلَ الَّتِي أُعطُوهَا فِي التَّابُوتِ. قَالَ أَهلُ التَّفسِيرِ : هِيَ رِيحٌ هَفَّافَةٌ ، وَذَكَرُوا صِفَتَهَا»[١].

قلت : اختلفوا هل هي عين قائمة بنفسها ، أو معنىٰ؟ علىٰ قولين : أحدهما : أنها عين ، ثم اختلف أصحاب[٢] هذا القول في صفتها ، فرُوِيَ عن علي[٣] بن أبي طالب ﷺ «أنها ريح هفافة. لها رأسان ووجه كوجه الإنسان» ويروىٰ عن مجاهد علىٰ [إنها][٤] صورة هرة لها جناحان ، وعينان لهما شعاع، وجناحاها[٥] من زمرد وزبرجد ، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

صفة الرسول ﷺ وذكر نحوه. انظر البخاري ، كتاب البيوع ، باب كراهية السخب في الأسواق ٣/ ٢١ ، وذكر نحوه ابن الأثير وقال عن كعب.

انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٤.

(١) منازل السائرين ٨٣.

(٢) في م : «أهل».

(٣) «عن» ساقطة من م ، و «ابن أبي طالب» ساقطة من ح ، وانظر جميع ما يذكره المؤلف هنا من أقوال في تفسير الطبري ٥/ ٣٢٦-٣٣٠ ، والدر المنثور ١/ ٧٥٧ و ٧٥٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩.

(٤) في البقية عدا م ، س ، ق ، زيادة «أنها» وسقط منها «على» عدا ج.

(٥) في ط : «وجناحان».

وعن ابن عباس : هي طست (١) من ذهب من الجنة ، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب (٢) : هي روح من روح الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم (٣) ببيان ما يريدون.

والثاني : أنها معنىٰ. ويكون معنىٰ قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] أي في (٤) مجيئه إليكم : سكينة لكم وطمأنينة.

وعلىٰ الأول : يكون المعنىٰ : إن السكينة في نفس التابوت. ويؤيده عطف قوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ ﴾ قال عطاء (٥) بن أبي رباح ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ هي ما تعرفون من الآيات. فتسكنون إليها. وقال قتادة والكلبي : هي من السكون ، أي طمأنينة من ربكم. ففي أي مكان كان

---

(١) في غ ، ب : «طشت».

(٢) في ط زيادة «بن منبه» وهو أبو عبدالله وهب بن منبه بن كامل اليماني الأنباري ولد في زمن عثمان ـ رضي الله عنه ـ سنة ٣٤هـ. قال عنه ابن حجر : وقد امتحن ـ رحمه الله ـ وحبس وضرب حتى مات تقريب التهذيب ٢/ ٣٣٩ ، حلية الأولياء ٤/ ٢٣ - ٨١ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤ - ٥٥٧.

(٣) في الأصل وس : «أخبرهم» والمثبت كما في البقية لموافقة الضمير.

(٤) في ط : «بالواو» ، ج ، ق : «أن في».

(٥) أبو محمد عطاء بن أبي رباح مولى آل أبي خثيم القرشي ، واسم أبي رباح أسلم سمع من أبي هريرة ، وابن عباس وغيرهما ، مات سنة ١١٤هـ أو ١١٥ هـ انظر : التاريخ الكبير ٦/ ٤٦٣ و ٤٦٥ ، وحلية الأولياء ٣/ ٣١٠ - ٣٢٥.

التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا.

قال(١) : «وَفِيهَا ثَلاَثَةُ أَشيَاءَ : لِلأَنبِيَاءِ مُعجِزَةٌ ، وَلمِلُوكِهِم كَرَامَةٌ. وَهِيَ آيَةُ النُّصرَةِ(٢) ، تخَلَعُ قُلُوبَ الأَعدَاءِ بِصَوتِهَا رُعباً إِذَا التَقَىٰ الصَّفَّانِ لِلقِتَالِ».

وكرامات(٣) **الأولياء** : هي من معجزات(٤) الأنبياء ؛ لأنهم إنما نالوها علىٰ أيديهم ، وبسبب(٥) اتباعهم. فهي لهم كرامات. وللأنبياء دلالات. فكرامات الأولياء لا تعارض معجزات الأنبياء. حتىٰ يطلب الفرقان بينها؟ لأنها من أدلتهم ، وشواهد صدقهم.

نعم : الفرق [بين](٦) ما للأنبياء وما للأولياء من وجوه كثيرة جداً. ليس هذا موضع ذكرها. وغير هذا الكتاب أليق بها.

---

(١) في ط زيادة «فصل».

(٢) في البقية عدا ج ، س : «النصر» وهو كما في المنازل انظر ٨٣.

(٣) «الواو» ساقطة من س.

(٤) المعجزة : أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله. التعريفات ٢٧٣ ، وانظر كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٢٣٦ ، ومجموع الفتاوى ١١/ ٣١٣ - ٣١٨.

(٥) في ح ، ب ، م ، ق : «وسبب».

(٦) الزيادة من س ، ط وفي ط قبلها : «الفرقان» وفي غ : «الفرقان بينهما».

فصـــل

المعنى الثاني للسكينة قال[1] «السَّكِينَةُ الثَّانِيَةُ : هِيَ الَّتِي تُنطَقُ عَلَىٰ أَلسِنَةِ[2] المحَدَّثِينَ. لَيسَت هِيَ شَيئاً يُملَكُ. إِنَّمَا هِيَ شَيءٌ مِن لَطَائِفِ صُنعِ الحَقِّ. يُلقِي عَلَىٰ لِسَانِ المحَدَّثِ الحِكمَةَ كَمَا يُلقِي الملَكُ الوَحيَ عَلَىٰ قُلُوبِ الأَنبِيَاءِ ، وَتُنطِقُ المحدَّثِينَ[3] بِنُكَتِ الحَقَائِقِ مَعَ تَروِيحِ الأَسرَارِ ، وَكَشفِ الشُّبَهِ».

«السكينة» إذا نزلت في[4] القلب اطمأن بها. وسكنت إليها الجوارح وخشعت ، واكتسبت الوقار ، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة ، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش ، واللغو والهجر ، وكل باطل. قال ابن عباس[5] - رضي الله عنهما - : «كنا نتحدث أن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر وقلبه».

وكثير ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن[6] فكرة منه ، ولا روية

(١) «قال» ساقطة من ق.

(٢) في البقية «لسان» والمنازل : «السن».

(٣) «المحدثين» ساقطة من ط ، وانظر قوله في المنازل ص٨٣ و ٨٤.

(٤) في ط : «على القلب».

(٥) نسبه المؤلف إلى ابن عباس وعزاه مرة أخرى لابن مسعود كما سيأتي في ص ٣١٥٤ والذي وقفت عليه أنه لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - انظر الحلية ١/ ٤٢ ، وشذرات الذهب ١/ ٣٣ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢٠.

(٦) «عن ساقطة» من أ ، غ ، ب.

ولا هيئة [١] ، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له [٢] ، وربما لم يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة ، وصدق الرغبة من السائل ، والمجالس ، وصدق الرغبة منه : هو إلىٰ الله ، والإسراع بقلبه إلىٰ بين يديه ، وحضرته ، مع تجرده من الهوىٰ [٣] ، وتجريده النصيحة لله ورسوله [٤] ، وعباده [المؤمنين] [٥] وإزالة نفسه من البَيْن [٦].

ومن جرّب هذا عرف قدر منفْعته وعظمها. وساء ظنه بما يحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس.

قوله : «لَيسَت شَيئاً تُملَكُ» [٧].

يعني هي موهبة من الله تعالىٰ ليست بسببية ولا كسبيّة. وليست كالسكينة

---

(١) في ج : «تهيأه» ، ح : «بهيه» ، ط «هبه» ، والبقية عدا م ، س : «هيه».

والهيئة : هي الحالة الظاهرة الحسنة أو التهيؤ للشيء والاستعداد له.

انظر : المصباح المنير ٦٤٥ ، مختار الصحاح ٧٠٣.

(٢) «له» ساقطة من ق ، وفي ط بعدها : «وربما لا يعلم».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ج ، ق : «الأهواء».

(٤) في ط : «لله ولرسوله ولعباده».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) البين : هو الوصل أو الفراق فهو من الأضداد. انظر : تفسير غريب الحديث ٤٢ ، ومختار الصحاح ٧٢.

(٧) في ط : «وليست شيئاً يملك».

التي كانت في التابوت تنقل معهم كيف شاؤوا.

وقوله : «تُلقِي عَلَىٰ لِسَانِ المحَدَّثِ الحِكمَةَ» أي تجري الصواب علىٰ لسانه.

وقوله : «كَمَا يُلقِي المَلَكُ الوَحيَ عَلَىٰ قُلُوبِ الأَنبِيَاءِ» ـ عليهم السلام ـ.

يعني : أنها بواسطة الملائكة (١) ، بحيث تتلقىٰ (٢) قلوبُ أربابها الحكمةَ عنهم. والطمأنينة والصواب ، كما أن الأنبياء تتلقىٰ الوحيَ عن الله بواسطة الملائكة ؛ ولكن ما للأنبياء مختص بهم (٣) ، ولا يشاركهم فيه غيرهم ، وهو نوع آخر.

وقوله : «تُنطِقُ المحدَّثِينَ بِنُكَتِ الحَقَائِقِ ، مَعَ تَروِيحِ الأَسرَارِ ، وَكَشفِ الشُّبَهِ».

قد تقدم في أول الكتاب : ذكر مرتبة المحدَّث (٤) ، وأن هذا التحديث من مراتب الهداية العشرة ، وأن المحدَّث هو الذي يحدَّث في سره بالشيء ،

---

(١) سقط من م إلى قوله : «ولكن ما للأنبياء».

(٢) في ط : «بحيث تلقى في قلوب».

(٣) في البقية عدا ج ، س ، ق زيادة «واو».

(٤) المحدَّث : بالفتح هو الرجل الصادق الظن ، وهو من أُلقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره به. وقيل : من يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وقيل غير ذلك. فتح الباري ٧/ ٥٠ ، وانظر : كلام المؤلف عن المحدث كما أشار إليه في مراتب الهداية من هذا الكتاب ١/ ٣٩ و ٤٠.

فيكون كما يحدِّث به. و«الحقائق» هي حقائق الإيمان والسلوك. و«نكتها» عيونها ومواضع الإشارات منها (١). ولاريب أن تلك توجب للأسرار رُوحاً (٢) ورَوحاً تحيا به وتتنعَّمُ. وتكشف عنها شبهات لا يكشفها المتكلمون (٣) ولا الأصوليون. فتسكن الأرواح والقلوب إليها، ولذا (٤) سميت «سكينة» ومن لم يفز من الله بذلك. لم تنكشف عنه شبهاته. و(٥) لايكشفها إلا سكينة الإيمان واليقين. [والله سبحانه أعلم](٦).

---

(١) «منها» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا س، م، ج، ق: «للأسرار روحاً تحيا به».

والرَّوح: بفتح الراء لها معاني منها الراحة والاستراحة، وروح الله: رحمته ورجاؤه وقيل غير ذلك والرُّوح: بالضم كقوله ﴿ روحاً من أمرنا ﴾. قال ابن عباس: القرآن وكل ما كان فيه حياة للنفوس بالإرشاد، وقيل: جبريل. قال ابن حجر: وفي الروح أقوال منتشرة. انظر: غريب الحديث ١٠٨.

(٣) المتكلمون: نسبة إلى علم الكلام وسمي بذلك قيل: لأن أبوابه عُنوِنَتْ أولاً بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه، وقيل: لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٠ - ٣٣، والمواقف للأيجي ٧، والتعريفات ٢٣٦.

والأصوليون: نسبة للأصول قال التهانوي عن علم أصول الفقه: وله تعريفات أحدهما: باعتبار الإضافة، وثانيهما باعتبار اللقب أي باعتبار أنه لقب لعلم مخصوص. والأصل يطلق ويراد به عدة معاني منها ما يُبنى عليه غيره، وقيل الأدلة انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٨ - ٤١ و ١١٤، وشرح مختصر الروضة للطوفي ١/ ١١٤ - ١٣٩.

(٤) في البقية عدا س «ولهذا».

(٥) في ط: «فإنها».

(٦) الزيادة في أ، غ، ج، ح، ب.

فصل

المعنى الثالث للسكينة

قال «السَّكِينَةُ الثَّالِثَةُ : هِيَ الَّتِي أُنزِلَت(١) فِي قَلبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلُوبِ المؤمِنِينَ. وَهِيَ شَيءٌ يجمَعُ نُوراً(٢) وَقُوَّةً وَروحاً ، يَسكُنُ إِلَيهِ الخَائِفُ ، وَيَتَسَلَّىٰ بِهِ الحَزِينُ وَالضَّجِرُ ، وَيَستَكِينُ(٣) إِلَيهِ العَصِيُّ وَالجَرِيءُ وَالأَبِيُّ».

هذا من عيون كلامه وغرره الذي تثنىٰ عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب، ونطقه(٤) به عن ذوق تام لا عن علم(٥) مجرد.

فذكر : أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ، وقلوب عباده المؤمنين يشتمل علىٰ ثلاثة معان : النور ، والقوة ، والروح.

وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلي الحزين والضجر به ، واستكانة صاحب المعصية والجرأة علىٰ المخالفة والإباء إليه.

فبالروح الذي فيها : حياة القلب. وبالنور الذي فيها : استنارته ، وضياؤه وإشراقه. وبالقوة : ثباته(٦) وعزمه ونشاطه.

---

(١) في ط : «نزلت على قلب».

(٢) «نوراً و» ساقطة من ط.

(٣) في البقية عدا س : «ويسكن» وهو كما في المنازل ٨٤.

(٤) في البقية عدا س : «وتظفر».

(٥) «علم» ساقطة من ط.

(٦) في الأصل «بيانه» والمثبت كما في البقية لمناسبة القوة.

فالنور : يكشف له[1] عن دلائل الإيمان ، وحقائق اليقين. ويميز له بين الحق والباطل ، والهدىٰ والضلال ، والغيِّ والرشاد[2] ، والشك واليقين.

والحياة : توجب كمال يقظته وفطنته ، وحضوره وانتباهه من سنة الغفلة. وتأهبه للقاء[3].

والقوة : توجب له الصدق ، وصحة المعرفة ، وقهر داعي الغيِّ والعنت ، وضبط النفس عن جزعها وهلعها ، واسترسالها في النقائص والعيوب ، ولذلك[4] ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه.

والإيمان : يثمر له النور ، والحياة والقوة. وهذه الثلاثة تثمره أيضاً. وتوجب زيادته. فهو محفوف بها قبلها وبعدها.

فبالنور[5] : يكشف دلائل الإيمان. وبالحياة : يتنبه[6] من سنة الغفلة. ويصير يقظاناً. وبالقوة : يقهر الهوىٰ[7] والنفس ، والشيطان [كما قيل][8].

---

(١) «له» ساقطة من م.

(٢) في ط : «والرشد».

(٣) في ج : «وتأهله» ، وط : «وتأهبه للقائه».

(٤) في ج ، م : «وكذلك».

(٥) في أ ، غ ، ح ، ب : «فالنور».

(٦) في أ ، غ ، ح ، ب : «ينتبه».

(٧) في ب : «القوى» ، و م : «النفس والهوى».

(٨) الزيادة من الجميع عدا س ، م. انظر : بصائر ذوي التمييز ٣/ ٢٤١ بدون نسبة القائل.

وتلـك مواهـبُ الـرحمن ليـست ... تحُـصَّل باجتهـاد، أو بكـسب

ولكـن لا غنـىٰ عـن بَـذلِ جُهـدٍ ... بـإخلاصٍ وجـدٍّ، لا بلعـب

وفـضلُ الله مبـذولٌ ولكـن ... بحكمتـه، وعـن ذا الـنصُّ يُنبـي

فـما مـن حكمـة الـرحمن وضـع الـ ... ـكواكب بـين أحجـار وتُـرْب

فـشكراً للـذي أعطـاك منـه ... فلـو قَبِـل المحـلُّ لـزادَ ربيِّ

فصل

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة - وهي النور، والحياة، والروح - سكن إليها العصيّ. وهو الذي سكونه إلىٰ المعصية والمخالفة. لعدم سكينة الإيمان في قلبه فلما سكنت[1] سكينة الإيمان في قلبه صار سكونه إليها عوض[2] سكونه إلىٰ الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد فيها مطلوبه. وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيضه عنها. فمنذ أنزلت[3] عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية. فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذاته روحانية قلبية. بعد أن كانت

---

(١) سقط من ط: «فلما سكنت سكينة الإيمان في قلبه».

(٢) «عوض» ساقطة من ح.

(٣) في م «فلما» والبقية عدا س: «فإذا».

جسمانية[١] فأسلته عنها وخلصته، فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرقُ نجدياً فقلت لـه   يا أيها البرق إني عنك مشغول[٢]

وإذا طرقته طيوفها[٣] الخيالية [في ظلام ليل الشهوات، نادىٰ لسان حاله][٤]، وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   وقت الزيـارة فارجعي بسلام[٥]

فإذا ودعته وعزمت علىٰ الرحيل، ووعدته بالموافاة تمثل[٦] بقول الآخر[٧]:

قالت وقد عزمت علىٰ ترحالهـا   ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه. وهو قوله: «يَسكُنُ إِليَهَا

---

(١) في البقية عدا س، ج، ق، م: «فانسلب منها وحبس عنها وخلصت».

(٢) القائل هو أحد الخوارج أراد قتله عبد الملك بن مروان في يوم غيم ومطر ورعد وبرق فأنشأ يقول هذه الأبيات انظر: معجم البلدان ٥/ ٢٦٤، وذكر هذا البيت المؤلف في كتابه بدائع الفوائد ١/ ١٠٩.

(٣) الطيف: هو ما أطاف بالإنسان وألم به لمم من الجن أو الأنس أو الخيال.
انظر: تفسير غريب الحديث ١٥٦، المصباح المنير ٣٨٣، مختار الصحاح ٤٠٣، النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٥٣.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٥) القائل هو جرير. انظر: شرح ديوان جرير لمحمد الصاوي ١/ ٥٥١.

(٦) «تمثل» ساقطة من ط.

(٧) في س: «القائل» وهذا الشاعر يقصد بهذا البيت «الحمى» وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - هذا في كتابه زاد المعاد ٤/ ٣١.

الخَائِفُ» وسلت حزنه. فإنها لا حزن معها. فهي سلوة المحزون، ومذهبة الهموم والغموم، وكذلك تذهب عنه (١) وخم ضجره، وتبعث نشوة العزم.

وحالت بينه وبين الجرأة علىٰ مخالفته الأمر، وبين إباء النفس للانقياد (٢) إليه. [والله أعلم] (٣).

فصل

درجات السكينة الدرجة الأولى

قال(٤) : «وَأَمَّا سَكِينَةُ الوَقَارِ، الَّتِي نَزَّلَهَا (٥) نعتاً لِأربَابِهَا : فَإِنَّهَا ضِيَاءُ تِلكَ السَّكِينَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي ذَكَرنَاهَا . وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاثِ دَرَجَاتٍ. الأُولَىٰ : سَكِينَةُ الخُشُوعِ عِندَ القِيَامِ لِلخِدمَةِ : رِعَايَةً، وَتَعظِيماً، وَحُضُوراً».

فـ «سَكِينَةُ الوَقَارِ»(٦) هي نوع من السكينة، ولكن لما كانت موجبة للوقار سماها الشيخ ـ رحمه الله ـ «سكينة الوقار».

وقوله : «نَزَّلهَا نَعتاً» يعني نزلها الله في قلوب أهلها، ونعتهم بها.

---

(١) «عنه» ساقطة من ق.

(٢) في ط : «والانقياد».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) «قال» ساقطة من ق.

(٥) في الجميع «نزلها» وانظر قوله في المنازل ٨٤، وفيه «بالخدمة» بدل «للخدمة» و «تراها» بدل «نزلها».

(٦) في البقية عدا س، ج : «سكينة».

وقوله: «فَإِنَّهَا ضِيَاءُ تِلكَ السَّكِينَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي ذَكَرنَاهَا».

أي نتيجتها وثمرتها، وعنها نشأت (١)، كما أن الضياء عن الشمس حصل.

ولما كان النور والحياة والقوة - الذي ذكرنا (٢)- مما تثمر الوقار: جعل «سكينة الوقار» كالضياء لتلك السكينة. إذ هو علامة حصولها، ودليل عليها، كدلالة الضياء علىٰ حامله.

قوله: «الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: سَكِينَةُ الخُشُوعِ عِندَ القِيَامِ لِلخِدمَةِ».

يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان (٣)، وهو من يعبد الله كأنه يراه فإنه لا محالة يقوم بوقار الخدمة، وخشوعها، فعدم الخشوع والوقار يدل علىٰ أنه أجنبيٌّ من مقام الإحسان، ولما كان الإيمانُ موجباً للخشوع، وداعياً إليه. قال [الله] (٤) تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] دعاهم من مقام الإيمان إلىٰ مقام الإحسان. يعني: أما آن لهم أن يصلوا [إلىٰ] (٥) الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكر الذي أنزله إليهم؟

قوله: «رِعَايَةً، وَتَعظِيماً، وَحُضُوراً» هذه ثلاثة أمور.

---

(١) في م: «نتجت».

(٢) في ط: ذكرناها».

(٣) سقط من ط، أ، ب، غ من هنا إلى قوله «مقام الإحسان».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س، م، وفي م سقط: «وتحقيق» بعد «بالإيمان».

تحقق الخشوع في الخدمة ، وهي رعاية حقوقها الظاهرة والباطنة ، فليس يضيعها خشوعٌ ولا وقارٌ.

الثاني : تعظيم الخدمة وإجلالها. وذلك تبع لتعظيم المعبود وإجلاله(١) ، فعلىٰ قدر(٢) تعظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره : يكون تعظيمه لخدمته(٣) ، وإجلاله لها ورعايته لها.

والثالث : الحضور. وهو إحضار القلب فيها مشاهدة للمبعود(٤) كأنه يراه.

فهذه الثلاثة تثمر له «سكينة الوقار». [والله سبحانه أعلم](٥).

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : السَّكينَةُ عِندَ المُعَامَلَةِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفسِ(٦) ، وَمُلاَطَفَةِ الخَلقِ ، وَمُرَاقَبَةِ الحَقِّ».

هذه الدرجة [هي](٧) التي يحوم عليها أهل التصوف، والعلم الذي يشمرون

(١) في ط زيادة «ووقاره».

(٢) في م : «تقرير تعظيمه» ثم سقط منها إلى قوله «لخدمته».

(٣) في ج : «لحرمته» ، وفي ط : «لها» بعد «إجلاله» ساقطة.

(٤) في البقية : «المعبود».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) في البقية عدا ق ، س ، م «النفوس» وهو كما في المنازل ص٨٤ و ٨٥.

(٧) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

إليه ، وهي سكينة[١] المعاملة التي بينهم وبين الله ، وبينهم وبين خلقه[٢] بثلاثة أشياء :

أحدها : محاسبة النفس ، حتىٰ تعرف ما لها وما عليها ، ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالاً ، فيضيعها ويهملها.

وأيضاً فإن زكاها[٣] وطهارتها موقوف علىٰ محاسبتها ، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح البتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن ﷺ إن المؤمن – والله – لا تراه إلا قائماً علىٰ نفسه : [ما أردت بكلمة كذا؟ وما أردت بأكلة كذا[٤] ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟] [٥] ما أردت بهذا؟ [ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلىٰ هذا][٦] ونحو هذا الكلام.

فبمحاسبتها يطلع علىٰ عيوبها ونقائصها ، فيمكنه السعيُ في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به[٧] من

---

(١) في البقية عدا س ، ق ، م ، ح ، ج : «إليه للمعاملة التي».

(٢) في ط زيادة : «وتحصل» وهو هكذا في جميع النسخ.

(٣) في البقية عدا س «زكاتها».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٥) «كذا» ساقطة من ط.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، وانظر قوله في كتاب صفة الصفوة ٣/ ٢٣٤ و ٢٣٥ ، و محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص٣١ و ٣٢.

(٧) «به» ساقطة من م.

اللطف، ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة ، فإن ذلك ينفّرُهم عنه ، ويغريهم به ، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته [١] ، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف ، فإن معاملة [الناس] [٢] بذلك : إما أجنبي فيكسب مودته ومحبته، وإما صاحب وحبيب فيستديم [٣] صحبته ومحبته، وإما عدو [٤] ومبغض ، فتطفئ بلطفك جمرته، وتستكفي شرَّه، ويكون احتمالك لمضض [٥] لطفك به، دون احتمالك لضرر [٦] ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث : مراقبة الحق سبحانه ، وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل ، ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه ، وهي المقصود لذاته ، وما قبله وسيلة إليه ، وعون عليه ، فمراقبة الحق سبحانه : توجب إصلاح النفس ، واللطف بالخلق.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : السَّكِينَةُ** [٧] **الَّتِي تثبتُ الرِّضَىٰ بِالقَسمِ ، وَتمَنَعُ مِن**

(١) «الواو» ساقطة من ج وفي م : «وقبله».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٣) في ط : «فتستديم صحبته ومودته».

(٤) «الواو» ساقطة من ح ، ج.

(٥) المضض : وجع المصيبة. مختار الصحاح ٦٢٦.

(٦) في ج : «ضرر».

(٧) «السكينة» ساقطة من م.

الشَّطحِ الفَاحِشِ ، وَتقِفُ صَاحِبَهَا عَلَىٰ حَدِّ الرُّتبَةِ ، وَالسَّكِينَةُ لاَ تَنزِلُ [١] إِلاَّ فِي قَلبِ نَبِيٍّ ، أَو وَلِيٍّ».

هذه الدرجة الثالثة: كأنها عند الشيخ ـ رحمه الله ـ لأهل الصحو بعد السكر، ولمن شام بوارق الحقيقة.

فقوله : «تثبتُ الرِّضَىٰ»[٢].

أي توجب لصاحبها أن يرضىٰ بالمقسوم له[٣] ، ولا تتطلع نفسه إلىٰ غيره.

«وَتمَنَعُ مِنَ الشَّطحِ الفَاحِشِ».

يعني مثل ما نقل عن أبي يزيد ـ رحمه الله ـ ونحوه ، بخلاف الجنيد وسهل أمثالهما ، فإنهم لما كانت لهم هذه السكينة لم تصدر [٤] منهم الشطحات ، ولا ريب أن الشطح سببه عدم السكينة ، فإنها إذا استقرت في القلب منعته من الشطح وأسبابه.

قوله : «وَتَقِفُ[٥] صَاحِبَهَا عَلَىٰ حَدِّ الرُّتْبَةِ».

أي توجب لصاحبها الوقوف عند حده من[٦] رتبة العبودية ، فلا يتعدىٰ مرتبة

---

(١) في ق : «إلا على قلب» وفي منازل السائرين ٨٥ «لا تنزل قط إلا».

(٢) في ط زيادة «بالقسم».

(٣) «له» ساقطة من ط ، وفي ق : «به»

(٤) في ج : «يصدر»

(٥) في ط : «وتوقف»

(٦) سقط من م : «رتبة العبودية فلا يتعدى».

العبودية وحدَّها.

قوله : «وَالسَّكِينَةُ لاَ تَنزِلُ إِلاَّ عَلَىٰ قَلبِ نَبِيٍّ أَو وَلِيٍّ».

وذلك لأنها من أعظم مواهب الحق سبحانه ومنحه ، ومن أجلِّ عطاياه. ولهذا لم يجعلها القرآن إلا لرسوله وللمؤمنين. كما تقدم[1] ، فمن أعطيها فقد خلعت عليه خلعة[2] الولاية ، وأعطىٰ منشورها.

والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا به[3].

* * *

(١) في أول هذه المنزلة ص ٢٧٢٥.

(٢) في البقية عدا س ، م : « خلع » .

(٣) في البقية عدا س «إلا الله».

فصل

[منزلة الطمأنينة]

منزلة الطمأنينة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة: الطمأنينة.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠].

«الطمأنينة»(١) سكون القلب إلىٰ الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»(٢) أي الصدق يطمئنُّ إليه قلبُ السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً، ومنه

---

(١) قال الكاشاني: الطمأنينة سكون يقويه أمن ناشىء من تعين قريب إلى العيان مقرون بدوام روح الأنس. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٠٢. وسيأتي كلام المؤلف عن الطمأنينة في الفصل التالي ص ٢٩٤.

(٢) هذا جزء من حديث أوله «دع ما يريبك» والحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب رقم (٦٠) ٤/ ٦٦٨ (٢٥١٨)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ١/ ٢٠٠، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ولفظه: «فإن الخير طمأنينة والشر ريبة» ٢/ ١٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ومثله في صحيح ابن حبان ٢/ ٥٢ (٧٢٠) والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٥٦ (٤٢١١) والألباني في إرواء الغليل ٧/ ١٥٥ و ١٥٦ (٢٠٧٤).

قوله[١] ﷺ : «البر ما اطمأن إليه القلب»[٢] أي سكن إليه[٣] وزال عنه اضطرابه وقلقه.

المقصود بذكر الله

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان.

أحدهما[٤] : أنه ذكر العبد ربه ، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن ، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوىٰ ذكر الله.

ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه.

فمنهم من قال : هذا في الحلف واليمين ، إذا حلف المؤمن علىٰ شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت ، ويروىٰ هذا[٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) في غ : «قول النبي».

(٢) لم يرد الحديث بهذه الصيغة وإنما جاء بلفظ : «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب» وقد رواه أحمد في المسند ٤/ ١٩٤ و ٢٢٨ ، ورواه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٤٤٤ ، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥١ وقال رواه أحمد بإسناد جيد ، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٠ ، قال الهيثمي رواه الطبراني وأحمد باختصار عنه ورجال أحد إسنادي الطبراني ثقات وقال أيضاً رواه أحمد والطبراني وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ١/ ١٨٠ و ١٨١ و١٠/ ٢٩٧ ، والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ١٩٢ (٣١٩٨).

(٣) «إليه» ساقطة من ح.

(٤) «أنه» ساقطة من م.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس ٤/ ٣١٥ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور عن السدي ٤/ ٦٤٢.

ومنهم من قال : بل هو ذكر العبد [ربه] (١) بينه وبينه ، يسكن إليه قلبه ويطمئن.

القول الثاني : أن ذكر الله ههنا القرآن ، وهو ذكره الذي أنزله علىٰ رسوله. وبه طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ، ولا سبيل إلىٰ حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن ، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه (٢) ، واضطرابه وقلقه من شكّه ، والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به ، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦].

والصحيح (٣) : أنه ذكره الذي أنزله علىٰ رسوله – وهو كتابه – من أعرض عنه : قيض له شيطاناً يضله ويصده عن السبيل ، وهو يحسب أنه علىٰ هدىً.

وكذلك القولان [أيضاً] (٤) في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤].

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في س : «من نفسه».

(٣) في ط : «أن».

(٤) الزيادة من الجميع.

والصحيح أنه ذكره الذي أنزله [علىٰ رسوله] [١] – وهو كتابه – ولهذا يقول المعرض عنه : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه : ١٢٥ و ١٢٦].

وأما [٢] تأويل من تأوله علىٰ الحلف : ففي غاية البعد عن المقصود ، فإن ذكر الله بالحلف [٣] يجري علىٰ لسان الصادق والكاذب ، والبر والفاجر ، والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلىٰ الصادق [٤] ولو لم يحلف ، ولا تطمئن قلوبهم إلىٰ من يرتابون به [٥] ولو حلف.

وجعل [٦] الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم ، وجعل الغبطة [٧] والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة ، فطوبىٰ لهم وحسن مآب.

وفي قوله : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ دليل علىٰ أنها لا

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) في أ زيادة «كذلك» وهو خطأ.

(٣) في ق : «به» بدل «يجري».

(٤) في ق : «ولا يحلف».

(٥) في غ ، أ ، ب ، ح «منه : وفي ط «فيه».

(٦) «الله» ساقطة من ج ، م ، س.

(٧) الغبطة : تمني مثل ما لأخيك المسلم من غير تمني زوالها عنه. انظر : تفسير غريب الحديث ١٧٥ ، والمصباح المنير ٤٤٢.

ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة ، فهناك ترجع إليه وتدخل في عبادة ، وتدخل جنته ، وكان من دعاء بعض السلف (١) : «اللهم هب لي نفساً مطمئنة إليك»(٢).

فصل

تفريق الهروي بين السكينة والطمأنينة

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «الطُّمَأْنِينَةُ : سُكُونٌ يُقَوِّيهِ أَمْنٌ صَحِيحٌ ، شَبِيهٌ بِالعيَانِ ، وَبَينَهَا(٣) وَبَيَنَ السَّكِينَةِ فرقَانِ.

أَحَدُهمَا : أَنَّ «السَّكِينَةَ» صَولَةٌ تُورِثُ خمُودَ الهَيبَةِ أَحيَاناً.(٤) [و«الطُّمَأنِينَةُ» سُكُونُ أَمنٍ فيه(٥) استِرَاحَةُ أُنسٍ.

وَالثَّاني : أَنَّ «السَّكِينَةَ» تَكُونُ نَعتاً(٦) ، وَتَكُونُ حِيناً بَعدَ حِينٍ ، وَ«الطُّمَأنينَةُ» لاَ تُفارِقُ صَاحِبَهَا».

«الطمأنينة» موجب(٧) السكينة. وأثر من آثارها ، وكأنها نهاية السكينة.

---

(١) في أ زيادة «الصالحين» وهي غير ملائمة.

(٢) قال السيوطي في الدر المنثور ٨/ ١١٥ ، وأخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل : «قل: اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك».

(٣) في المنازل «بينه» وفي نهاية قوله «لا تفارق صاحبها» في المنازل ٨٥ «نعت لا يزايل صاحبه».

(٤) من هنا بداية السقط من نسخة : ب.

(٥) في البقية عدا س ، ج : «في».

(٦) في أ ، غ ، ح ، ج ، ق «معناً» وفي م «نفياً».

(٧) في الأصل ، م : «توجب» وهذا اللفظ لا يلائم قول المؤلف : «وكأنها نهاية السكينة».

فقوله : «سُكُونٌ يُقَوِّيهِ أَمنٌ» أي سكون القلب مع قوته (١) بالأمن الصحيح الذي لا يكون (٢) أمن غرور ، فإن القلب قد يسكن إلىٰ أمن الغرور ، ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له. والطمأنينة لا تفارقه (٣) ، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال : اطمأن بالمكان والمنزل : إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوِّي (٤) للسكون : شبهه بالعيان ، بحيث لا يبقىٰ معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام ؛ بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به ، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وأما الفَرْقَان اللذان ذكَرَهُما (٥) بينها وبين السكينة ، فحاصل الفرق الأول : أن «السكينة» تصول علىٰ الهيبة الحاصلة في القلب. فتخمدها في بعض الأحيان (٦) ، فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون ، وذلك في بعض الأوقات ، فليس حكماً دائماً مستمراً ، وهذا لا يكون لأهل الطمأنينة دائماً ، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس ، فإن الاستراحة في السكينة قد تكون من الخوف والهيبة فقط ، والاستراحة في منزل الطمأنينة تكون مع زيادة أنس

---

(١) في البقية عدا ج ، س ، ق ، م «مع قوة الأمن».

(٢) في ق : «في غرور».

(٣) في الأصل ، م ، س «لا تفارق» والمثبت كما في البقية لوجود الضمير.

(٤) في ح ، ج ، س «القوي».

(٥) في ج ، م ، س : «بينهما».

(٦) في غ «الوقت».

وذلك فوق مجرد الأمن ، وقدر زائد عليه.

وحاصل الفرق الثاني (١) : أن الطمأنينة ملكة ، ومقام لا يفارق ، والسكينة تنقسم إلىٰ سكينة هي مقام ونعت لا يزول ، وإلىٰ سكينة تكون وقتاً دون وقت، هذا حاصل كلامه.

تفريق ابن القيم بين السكينة والطمأنينة

والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران ، سوىٰ ما ذكر.

أحدهما : أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذي حصل له السكينة ، فالسكينة (٢) بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه ، فهرب منه عدوه ، فسكن روعه ، والطمأنينة بمنزلة (٣) حصن رآه مفتوحاً فدخله ، وأمن فيه ، وتقوىٰ بصاحبه وعدته ، فللقلب ثلاثة أحوال :

أحدها : الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه.

الثاني : زوال ذلك الوارد [الذي يزعجه ويقلقه] (٤) عنه وعدمه.

الثالث : ظفره وفوزه بمطلوبه الذي كان ذلك الوارد حائلاً بينه وبينه.

وكل منهما يستلزم الآخر (٥) ويقاربه، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها،

---

(١) في أ ، غ ، ح : «الفرقان».

(٢) «فالسكينة» ساقطة من ط وفي جميع النسخ كما أثبت.

(٣) في م «بمثابة» و س : «بمنزلة من واجهة حصن».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، ق.

(٥) «الآخر» ساقطة من غ ، ح.

وكذلك بالعكس ، لكن [١] استلزام الطمأنينة للسكينة أقوىٰ من استلزام السكينة للطمأنينة.

الثاني : أن «الطمأنينة» أعم. فإنها تكون في العلم والخبر به ، واليقين والظفر بالمعلوم ، ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ، ومعرفته والهداية به في ظُلم الآراء والمذاهب ، واكتفت به منها ، وحكمته عليها وعزلتها ، وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله ، فبه [٢] خاصمت ، وإليه حاكمت ، وبه صالت ، وبه دفعت الشبه.

وأما السكينة : فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه ، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه ، كما يحصل لحزب الله عند مقاتلة [٣] العدو وصولته [والله سبحانه أعلم] [٤].

فصـــل

درجات الطمأنينة
الدرجة الأولى

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ : [الدَّرَجَةُ] [٥] الأُولَىٰ : طُمأْنِينَةُ القَلْبِ بِذِكرِ

(١) «لكن» ساقطة من ق.

(٢) في غ ، أ ، ح ، ج : «فيه».

(٣) في البقية عدا س : «مقابلة».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) الزيادة من الجميع.

اللهِ ، وَهِيَ طُمَأْنِينَةُ الخَائِفِ إِلَىٰ الرَّجَاءِ ، وَالضَّجِرِ إِلَىٰ الحُكمِ[١] ، وَالمُبتَلَىٰ إِلَىٰ المَثُوبَةِ».

قد تقدم أن الطمأنينة بذكر الله بكلامه وكتابه ، ولا ريب أن الذي ذكره في هذه الدرجة : هو من جملة الطمأنينة بذكره. وهي أعم[٢] من ذلك ، فذكر طمأنينة الخائف إلىٰ الرجاء، [فإن الخائف][٣] إذا طال عليه الخوف واشتد به، وأراد الله أن يريحه ، ويحمل عنه : أنزل عليه السكينة[٤] ، فاستراح قلبه إلىٰ الرجاء واطمأن به ، وسكن لهيب خوفه.

وأما «طُمَأنِينَةُ الضَّجِرِ إِلَىٰ الحُكمِ»[٥] .

فالمراد[٦] بها : أن من أدركه الضجر من قوة التكاليف ، وأعباء الأمر وأثقاله - ولا سيما فيمن[٧] أقيم مقام التبليغ عن الله ، ومجاهدة أعداء الله ، وقطاع الطريق إليه[٨] - فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه ،

---

(١) في م «الحلم» وانظر قوله في المنازل ص٨٥ و ٨٦.

(٢) في ط «أهم».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ق : «فاشتد».

(٥) في م : «الحلم».

(٦) في ق : «فالمراد به إدراكه».

(٧) في ط : «من».

(٨) «إليه» ساقطة من م.

فلابد [أن][1] يدركه الضجر، ويضعف صبره، فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته[2]، فاطمأن إلىٰ حكمه الديني، وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب[3] مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنه إذا اطمأن إلىٰ حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه[4]، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلىٰ حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما شاء[5] كان وما لم يشأ لم يكن - فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين[6] والإيمان، فإن المحذور[7] المخوف: إن لم يقدر فلا سبيل إلىٰ وقوعه، وإن قدر فلا سبيل إلىٰ صرفه بعد أن أبرم تقديره، فلا جزع حينئذ[8] لا مما قُدِّر، ولا مما لم يقدَّر.

نعم إن كان[9] في هذا النازل حيلة، فلا ينبغي أن يعجز عنه، وإن لم يكن

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في س: «السكينة» وفي ح، ج «سكينة».

(٣) في ج، س «مشاهدتهما».

(٤) في ط زيادة: «المستقيم».

(٥) في البقية عدا س، م «يشاء».

(٦) في ج، ق: «النفس».

(٧) في البقية عدا ج، س: «والمخوف».

(٨) «لا» ساقطة من غ، س.

(٩) في ط: «وإن كان له في هذه النازلة حيلة فلا ينبغي أن يضجر عنها».

فيه[1] حيلة فلا ينبغي أن يجزع منه، فهذه طمأنينة الضجر إلىٰ الحكم [وفي مثل هذا قال القائل:

ما قد قُضِيٰ يا نفس فاصطبري له ... ولكِ الأمان من الذي لم يُقدرِ

وتحققي أن المقدَّر كائنٌ ... يجري عليك حذرتِ أم لم تحذري][2]

وأما «طُمَأنِينَةُ المُبتَلَىٰ إِلَىٰ المثُوبَةِ».

فلا ريب أن المبتلىٰ إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض، وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب، وقد تقوىٰ ملاحظة العوض حتىٰ يستلذ بالبلاء ويراه نعمة[3]، ولا تستبعد هذا، فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به، وملاحظته لنفعه تغنيه[4] عن تألمه بمذاقه أو تخففه عنه[5]، والعمل والمعول إنما هو علىٰ البصائر[6].

والله أعلم.

---

(١) في ط: «فيها حيلة فلا ينبغي أن يضجر منها».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س وسقط البيت الثاني من ح، أ.

(٣) في ج: «ولا يستبعد».

(٤) في البقية عدا س «تغيبه».

(٥) في ط: «والعمل المعول عليه إنما».

(٦) «والله أعلم» ساقطة من م، س.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ فِي القَصدِ إِلَىٰ الكَشفِ[1] ، وَفِي الشَّوقِ إِلَىٰ العِدَةِ ، وَفِي التَّفرِقَةِ إِلَىٰ الجَمعِ» .

«طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ» أن تطمئن[2] في حال قصدها ، ولا تلتفت إلىٰ ما وراءها .

والمراد بالكشف : كشف الحقيقة][3] ، لا الكشف الجزئي السفلي ، وهو ثلاث درجات :

كشف عن الطريق الموصل إلىٰ المطلوب ، وهو الكشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام[4] ، وكشف عن معانيها ومتاهاتها[5] وآفاتها ، وهو الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال[6] .

وكشف عن[7] المطلوب المقصود بالسير ، وهو معرفة الأسماء والصفات ، ونوعي التوحيد وتفاصيله ، ومراعاة ذلك حق رعايته[8] .

---

(١) «في» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ج ، م ، ق ، وانظر : قوله في المنازل ٨٦ .

(٢) في س ، ج ، م : «أن يظهر» .

(٣) نهاية السقط من : ب .

(٤) سقط من ط إلى قوله «وكشف عن المطلوب» .

(٥) في م : «مقاماتها» وبعدها سقط من ج «وآفاتها وهو الكشف» .

(٦) في ب : «العمل» .

(٧) في أ ، ب «المقصود المطلوب» .

(٨) الكشف : في اللغة رفع الحجاب ، وفي الاصطلاح : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من

....

المعاني الغيبية ، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً. التعريفات ٢٣٥.

وقال الطوسي في اللمع٤٢٢ : بيان ما يستتر عن الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عين.

وقد تحدث ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه المدارج في عدة مواضع عن الكشف ، ويتبين من خلال كلامه أن الكشف ينقسم إلى قسمين هما :

١- الكشف الجزئي المشترك بين المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، كالكشف عما في دار فلان أو عما في يده. وقال : ليس هذا مراد الشيخ.

٢- كشف الحقيقة : وهو ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : كشف عن الطريق الموصل إلى المطلوب ، وهو الكشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام.

الدرجة الثانية : كشف عن المطلوب بالسير. وهو معرفة الأسماء والصفات ، ونوعي التوحيد وتفاصيله ، ومراعاة ذلك حق رعايته ، ثم قال : وليس وراء ذلك إلا الدعاوى والشطح والغرور.

الدرجة الثالثة : كشف العين وظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة. قال ابن القيم : من ظن ذلك فقد غلط أقبح الغلط. وقال : ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد - كما تجلى سبحانه للطور ، وكما يتجلى سبحانه يوم القيامة للناس- إلا غالط فاقد للعلم.

وقال عن الصادقين العارفين- مبيناً مرادهم بالكشف- وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والإعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية فلا يشهد القلب سوى معروفه.

وقال أيضاً : - بأن مرادهم- أن يكشف للسائل عن طريق سلوكه ليستقيم عليها ، وعن عيوب نفسه ليصلحها ، وعن ذنوبه ليتوب منها.

انظر : مدارج السالكين ٢/ ٥١٧ ، و٣/ ١١٠ و ١١١ و ١٣٩ و ٢٢٧ و ٢٢٩.

وليس[١] وراء ذلك إلا الدعاوىٰ والشطح والغرور.

وقوله : «وَفِي الشَّوقِ إِلىٰ العِدَةِ».

يعني أن الروح تطمئن في حال[٢] اشتياقها إلىٰ ما وعدت به ، وشوقت إليه ، فطمأنينتها بتلك العدة : تسكن عنها لهيبَ اشتياقِها ، وهذا شأن كل مشتاق إلىٰ محبوب[٣] وعلىٰ محصوله إنما تحصل[٤] لروحه الطمأنينة بسكونها إلىٰ وعد اللقاء ، وعلمها بحصول الموعود به.

قوله : «وَفِي التَّفرِقَةِ إِلىٰ الجَمعِ».

أي وتطمئن[٥] الروح في حال تفرقتها إلىٰ ما اعتادته من الجمع ، بأن توافيها روحه ، فتسكن إليه وتطمئن به ، كما يطمئن الجائع الشديد الجوع إلىٰ ما عنده من الطعام ، ويسكن إلىٰ قلبه ، وهذا إنما يكون لمن أشرف علىٰ الجمع من وراء حجاب رقيق ، وشام برقه[٦] ، فاطمأن بحصوله ، وأما من بينه وبينه الحجب الكثيفة : فلا يطمئن به[٧].

---

(١) «وراء» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا ج : «تظهر» وسقط من ط «حال» وفي ج «حال استئنافها» وفي ق «اشتياقها وهذا».

(٣) في ط : «وعد فحصوله».

(٤) في البقية عدا س : «يحصل».

(٥) في س ، م «وتظهر».

(٦) شام برقه : أي رقبه ينتظر حصوله. انظر : المصباح المنير ٣٢٩.

(٧) «به» ساقطة من ق.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ[1] : طُمَأْنِينَةُ شُهُودِ الحَضرَةِ إِلَىٰ اللُّطفِ ، وَطُمَأْنِينَةُ الجَمعِ إِلَىٰ البَقَاءِ ، وَطُمَأْنِينَةُ المَقَامِ إِلَىٰ نُورِ الأَزَلِ»[2].

هذه الدرجة الثالثة تتعلق بالفناء والبقاء ، فالواصل إلىٰ شهود الحضرة : مطمئن إلىٰ لطف الله. و«حضرة الجمع» يريدون بها[3] الشهود الذاتي.

الشهود والفناء

فإن الشهود عندهم مراتب بحسب تعلقه، فشهود الأفعال : أول مراتب الشهود ، ثم فوقه : شهود الأسماء والصفات ، ثم فوقه : شهود الذات الجامعة للأفعال[4] والأسماء والصفات ، والتجلي عند القوم : بحسب هذه الشهودات الثلاث.

فأصحاب تجلي الأفعال : مشهدهم[5] توحيد الربوبية ، وأصحاب تجلي الأسماء والصفات : مشهدهم توحيد الإلهية ، وأصحاب تجلي الذات : يغنيهم به عنهم.

وقد يعرض لبعضهم بحسب قوة الوارد وضعف المحل[6] عجز عن القيام

---

(١) «طمأنينة» ساقطة من ح.

(٢) في م «ما بعد» وانظر قوله في المنازل ٨٦.

(٣) في غ ، ح «به».

(٤) في ط «إلى الأفعال».

(٥) في ق زيادة «تجلى» وهو خطأ لعدم مناسبتها.

(٦) «عجز» ساقطة من م.

والحركة، فربما عطل بعض الفروض، وهذا له حكم أمثاله من أهل العجز والتفريط، والكاملون منهم قد[١] يفترون في تلك الحال عن الأعمال الشاقة. ويقتصرون علىٰ الفرائض وسننها وحقوقها، ولا يقعد بهم ذلك الشهود والتجلي عنها، ولا يؤثرون عليه شيئاً من النوافل والحركات التي لم تفرض[٢] عليهم البتة، وذلك في طريقهم رجوع وانقطاع.

وأكمل من هؤلاء: من يصحبه[٣] ذلك في حال حركاته ونوافله، فلا يعطل ذرة من أوراده، والله سبحانه قد فاوت بين قوىٰ القلوب[٤] أشد من تفاوت قوىٰ الأبدان. وفي كل شيء له آية، وصاحب هذا المقام آية من آيات الله لأولي الألباب والبصائر.

والمقصود: أنه لولا طمأنينته إلىٰ لطف الله لمحقه شهود الحضرة وأفناه جملة، فقد خر موسىٰ صعقاً لما تجلىٰ ربه للجبل[٥]. وتدكدك الجبل وساخ في الأرض من تجليه سبحانه.

هذا[٦] ولا يتوهم أن الحاصل في الدنيا للبشر كذلك، ولا قريب منه أبداً،

---

(١) في م «يفترقون».

(٢) في ط: «تعرض».

(٣) في ق: «تصحبه».

(٤) في ج: «القلب».

(٥) «وتدكدك الجبل» ساقطة من أ، غ، ح، ب.

(٦) «هذا» ساقطة من م، وفي ط: «هذا ولا يتوهم متوهم».

وإنما هي المعارف ، واستيلاء مقام الإحسان علىٰ القلب فقط ، وإياك[1] وترهات القوم ، وخيالاتهم[2] ورعوناتهم ، وإن سموك محجوباً[3] ، فقل : اللهم زدني من هذا الحجاب الذي ماوراءه إلا الخيالات والترهات والشطحات ، فكليم الرحمن واحد[4] ، ومع هذا لم تتجل الذات له ، وأراه ربه[5] تعالىٰ أنه لايثبت لتجلي ذاته[6] ، بما أشهده من حال الجبل ، وخر الكليم صعقاً مغشياً عليه[7] لما رأىٰ من حال الجبل عند تجلي ربه له ، ولم يكن تجلياً

---

(١) الترهات : هي الطرق الصغار غير الجادة ، واحدها ترهة ، ثم استعير في الباطل. انظر : مختار الصحاح ٧٧.

(٢) رعونات : بضم الراء والعين هي الحمق وقيل نقصان الفكر .
وفي اصطلاح الصوفية : هي الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها انظر : مختار الصحاح ٢٤٨ ، معجم اصطلاحات الصوفية ١٦٨.

(٣) المحجوب : يقصدون بالمحجوب هو الذي لم يصل إلى أعلى المقامات - بل هو محجوب عن حال أعظم من هذا الحال والمقام الذي هو فيه - بسبب رؤيته لأعماله الصالحة وعظمها في عينيه فهو محجوب عن الله بهذه الرؤية. فالعامة - عند الصوفية - هم المحجوبون وقد يسمونهم «بأهل الفرق». انظر : مدارج السالكين ١/ ٢٥٧ و ٢٦٥ و ٢٧٠ و ٢٧١ ، وانظر زيادة في كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٧٦ ، التعريفات ١١٥ ، اللمع ٤٢٨ ، مختار الصحاح ١٢٢ ، معجم اصطلاحات الصوفية ٨١.

(٤) في البقية عدا ج ، م ، س ، ق : «وحده».

(٥) في م : «الله».

(٦) في البقية عدا س ، م : «لما».

(٧) «عليه» ساقطة من ح.

مطلقاً. قال الضحاك ـ رضي الله عنه ـ: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور[1]، وقال عبدالله بن سلام [2]، وكعب الأحبار[3] ـ رضي الله عنهما ـ: ما تجلىٰ من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتىٰ صار دكاً.

وقال السدي ـ رحمه الله ـ: ما تجلىٰ إلا قدر الخنصر [4].

وفي صحيح[5] الحاكم ـ من حديث ثابت [6] ـ عن أنس ﷺ: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية، وقال: هكذا ـ ووضع الإبهام علىٰ المفصل الأعلىٰ

---

(١) انظر: هذه الأقوال في تفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ و ٢٧٨.

(٢) هو عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري كان من بني قينقاع، قيل أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة وقيل قبل وفاته بعامين، مات بالمدينة سنة ٤٣، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٨٠، ٨١، وتقريب التهذيب ١/ ٤٢٢.

(٣) هو كعب بن ماتع الحميري، تابعي مخضرم أسلم في عهد أبي بكر وقيل عمر، وكان قبل ذلك على دين اليهود، مات في خلافة عثمان ـ رضي الله عنهما ـ.

انظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٤٣٨ - ٤٤٠ (٧٩٣)، وتقريب التهذيب ٢/ ١٣٥ (٥٣).

(٤) في أ زيادة «مثل» وهي غير موجودة في كلام السدي.

(٥) في ط «مستدرك» والحاكم هو محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه أبو عبدالله بن البيِّع النيسابوري الشافعي صاحب المستدرك على الصحيحين توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٤٠٥ هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٦٢ - ١٧٧ (١٠٠) شذرات الذهب ٢/ ١٧٦ و ١٧٧.

(٦) في ط زيادة (البناني) وهو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني البصري، مات ـ رحمه الله ـ سنة ١٢٣ وعمره ٨٦ سنة. انظر: التاريخ الكبير ٢/ ١٥٩ و ١٦٠، وحلية الأولياء ٢/ ٣١٨ - ٣٣٣، وصفة الصفوة ٣/ ٢٦٠ - ٢٦٣.

من الخنصر - فساخ الجبل»[1] وإسناده علىٰ شرط مسلم ، ولما حدث به حميد[2] عن ثابت استعظمه بعض أصحابه وقال : تحدث بمثل هذا[3] فضرب بيده في صدره ، وقال : يحدث به ثابت عن أنس عن رسول الله ﷺ وتنكره أنت أَوَلاَ[4] أحدث به؟

فإذا شهد لك المخدوعون بأنك محجوب عن ترهاتهم وخيالاتهم ، فتلك الشهادة لك بالاستقامة ، فلا تستوحش منها. وبالله التوفيق. وهو المستعان.

---

(١) هذا الحديث أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٥٤٥ وقال : وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في كتاب الرؤية.
والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٧٧ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، والترمذي في السنن كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأعراف ٥/ ٢٦٥ (٣٠٧٤) وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ، وفي إسناد آخر بنحوه قال هذا حديث حسن ٥/ ٢٦٦.

(٢) هو حميد بن ربيعة القرشي الشامي ، سمع المقدام وأبا أمامة وروى عنه محمد بن حرب.
انظر : التاريخ الكبير ٢/ ٣٤٨ ، والجرح والتعديل ٣/ ٢٢١.

(٣) في البقية «تحدث بهذا» وقد أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٥٤٥ بلفظ «يا أبا محمد - أي ثابت البناني - ما تريد إلى هذا؟ فضرب في صدره وقال : من أنت يا حميد ، وما أنت يا حميد؟! يحدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وتقول أنت ما تريد إلى هذا».

(٤) في البقية عدا س «ولا أحدث به».

فصل

وأما «طُمَأنِينَةُ الجَمعِ إِلَىٰ البَقَاءِ» فمشهد شريف فاضل، وهو مشهد الكمّل فإن حضرة الجمع تعفي الآثار(١)، وتمحو الأغيار(٢)، وتحول بين الشاهد وبين رؤية [القلب](٣) الخلقَ، فيرىٰ الحق سبحانه وحده قائماً بذاته ويرىٰ(٤) كل شيء قائم به، متوحداً في كثرة(٥) أسمائه وأفعاله وصفاته، ولا يرىٰ معه غيره(٦)، عكس حال من(٧) يشهد غيره ولا يشهده، وليس الشأن في هذا الشهود، فإن صاحبه في مقام الفناء. فإن لم ينتقل منه إلىٰ مقام البقاء وإلا انقطع انقطاعاً كلّياً، ففي هذا المقام: إن لم يطمئن إلىٰ حصول البقاء وإلا عطل الأمر، وخلع(٨) رَبقةَ العبودية من عنقه، فإذا اطمأن إلىٰ البقاء طمأنينة من

---

(١) عفا: بمعنى كثر، والأكثر على أن معناها خفي وانمحى. انظر: المصباح المنير ٤١٩، وتفسير غريب الحديث ١٦٩.

(٢) الأغيار: غير بمعنى سوى، والجمع أغيار. والمقصود هنا هو التعلق بغير الله من الأصحاب والأوطان ونحوهما. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٣٩٣، مختار الصحاح ٤٨٦، مدارج السالكين ٢/ ٣٧٣ و٣/ ٧٦.

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج، س، ق، م، وفي ط بعدها «للخلق».

(٤) «يرى» ساقطة من ب، ق.

(٥) في غ: «وصفاته وأفعاله».

(٦) في ط زيادة: «ولا يشهده».

(٧) في ب، ح، أ، غ: «من يشهده وليس» وفي ط سقط: «ولا يشهده».

(٨) قال ابن الأثير: مفارقة الجماعة ترك السنة واتباع البدعة، والربقة في الأصل عروة في حبل

يعلم أنه لابد له منه - وإن لم يصحبه وإلا فسد وهلك - كان هذا من طمأنينة الجمع إلىٰ البقاء. [والله أعلم](١).

فصل

وأما «**طُمَأْنِينَةُ المَقَامِ إِلَىٰ نُورِ الأَزَلِ**».

فيريد به: طمأنينة مقامه إلىٰ السابقة التي سبق بها في(٢) الأزل، فلا تتغير(٣) ولا تتبدل ولهذا قال» طمأنينة المقام «ولم يقل: طمأنينة الحال، فإن الحال يزول ويحول، ولو لم يحل لما سمي حالاً، بخلاف المقام.

فإذا اطمأن إلىٰ السابقة(٤)، والحسنىٰ التي سبقت(٥) له من الله في الأزل، كان هذا طمأنينة المقام إلىٰ الأزل، وهذا هو شهود أهل البقاء بعد الفناء. [والله أعلم](٦).

يجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، يعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام: أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه. النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٩٠، وانظر: مختار الصحاح ٢٣١.

(١) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٢) «في» ساقطة من الجميع.

(٣) في ج: «فلا يتغير ولا يتبدل».

(٤) «الواو» ساقطة من غ.

(٥) «له» ساقطة من ق.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س، م.

فصل

[منزلة الهمة]

منزلة الهمة ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة: «الهمّة».

وقد صدرها صاحب المنازل بقوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وقد تقدم: أنه صدر بها باب «الأدب» و[قد] (١) ذكرنا وجهه.

وأما وجه تصدير «الهمة» بها: فهو الإشارة إلىٰ أن همته ﷺ ماتعلقت بسوىٰ مشهوده، وما أقيم فيه، ولو تجاوزته همته: لتبعها بصره.

و«الهمة» فعلة من الهم، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة فالهم مبدؤها، والهِمَّةُ نهايتها (٢).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: في بعض الآثار الإلهية [يقول الله تعالىٰ] (٣) «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم. وإنما أنظر إلىٰ همته».

---

(١) الزيادة من ب، وانظر المدارج ٢/ ٣٨٢.

(٢) قال في التعريفات ٣١٣: «الهم: هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر. والهمة توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيرة»، وانظر تفسير غريب الحديث ٢٥٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٧١ و ٧٢ و٣٠٤ و ٣٠٥.

(٣) الزيادة من البقية عدا س، م، ج، ق، والأثر ذكره أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢١٣ بلفظ: «يقول إني لست كلام الحكيم أتقبل إنما أتقبل همه وعمله...»، والدارمي في السنن باب

قال : والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن. والخاصة تقول : قيمة كل امرئ ما يطلب ، يريد : أن قيمة المرء[1] همته ومطلبه.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «**الهِمَّةُ : مَا يَمْلِكُ الانبِعَاثَ لِلْمَقصُودِ صِرفاً**[2]. **لاَ يَتَمَالَكُ صَاحِبَهَا ، وَلاَ يَلتَفِتُ عَنهَا**».

قوله : «**يَملِكُ الانبِعَاثَ لِلمَقصُودِ**» أي يستولي عليه كاستيلاء المالك [على المملوك][3] و «صرفاً» أي خالصاً صرفاً.

والمراد : أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالىٰ طلباً خالصاً صادقاً[4] محضاً فتلك هي الهمة العالية ، التي «لا يتمالك صاحبها» أي لا يقدر على المهلة[5]. ولا يتمالك صبره ، لغلبة الهمة العالية – التي لا يتمالك صاحبها[6] – عليه وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود «**وَلاَ يَلتَفِتُ عَنهَا**» إلىٰ ما سوىٰ أحكامها ، وصاحب هذه الهمة : سريع وصوله وظفره بمطلوبه ، ما لم تعقه

العمل بالعلم وحسن النية فيه ١/ ٩١ ولفظه : «ولكن أتقبل همه وهواه...».

(١) في م : «قيمة كل امرء».

(٢) سقط من م إلى قوله «أي يستولي» وانظر : المنازل ٨٦.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط : «صادقاً خالصاً».

(٥) في س : «الملكة».

(٦) في البقية عدا س ، ق ، ج ، م : «سلطانه عليه» وجملة « العالية التي لا يتمالك صاحبها » ساقطة من الجميع.

العوائق (١)، وتقطعه العلائق (٢) [والله أعلم] (٣).

فصل

درجات الهمة

الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: هِمَّةٌ تَصُونُ القَلْبَ(٤) عَن وَحشَةِ الرَّغبَةِ فِي الفَانِي، وَتَحمِلُهُ عَلَىٰ الرَّغبَةِ فِي البَاقِي، وَتُصَفِّيهِ مِن كَدَرِ التَّوَانِي».

«الفاني» الدنيا وما عليها (٥)، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها، وسمىٰ الرغبة فيها «وحشة»؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها (٦): فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم(٧)، إذ فاتها ما خلقت له، فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم؛ لأنها تحول بينهم وبين

---

(١) في غ، ح، ج «الهمة» والعوائق قد سبق التعريف بها. انظر: الفهرس

(٢) العلائق: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الفوائد ١٥٤: «وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها...» وانظر: اللمع٤٣٨.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) في المنازل «من خسة الرغبة» وانظر قوله ٨٦.

(٥) في غ، أ، ح، ب «أن» وس «أي تزهيد».

(٦) «أرواحهم» ساقطة من م.

(٧) في غ، ح: «أجسادهم».

مطلوبهم، ولا شيء أوحش عند القلب ممن(١) يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه ولذلك(٢) كان من نازع الناس أموالهم، وطلبها منهم: أوحش شيء إليهم وأبغضه.

وأيضاً فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون : [ينظرون إليها](٣) بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل :

وإذا أَفاقَ القلبُ واندَمَل الهوىٰ   رَأَت القُلوبُ ، ولم تَرَ الأبصارُ

وكذلك هذه الهمة تحمله علىٰ الرغبة في الباقي لذاته، وهو الحق سبحانه، والباقي بإبقائه وهو(٤) الدار الآخرة.

«وَتُصفِّيهِ مِن كَدَرِ التَّوَانِي» أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني ، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. [والله أعلم](٥).

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : هِمَّةٌ تُورِثُ أَنَفَةً مِن المُبَالَاةِ بِالعِلَلِ ، وَالنُّزولِ عَلَىٰ العَمَلِ ، وَالثِّقَةِ بِالأَمَلِ»(٦). الدرجة الثانية

(١) في ط : «مما».

(٢) في ج : «وكذلك».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س.

(٤) في ط بدون «الواو».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) منازل السائرين ٨٧.

«العلل» ههنا (١) : هي علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمراتها وإراداتها (٢) أو نحو ذلك (٣) ، فإنها عندهم علل.

فصاحب هذه الهمة : يأنف علىٰ همته ، وقلبه من أن يبالي بالعلل ، فإن همته فوق ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها : نزول من الهمة.

وعدم هذه المبالاة : إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن علو همته حال بينه وبينها ، فلا يبالي بما لم يحصل له ، وإما لأن همته (٤) وسعت مطلبه (٥) ، وعلوه يأتي علىٰ تلك العلل (٦) ، ويستأصلها ، فإنه إذا علق همته بما هو أعلىٰ منها تضمنتها الهمة العالية ، فاندرج حكمها في حكم الهمة العالية ، وهذا موضع غريب عزيز جداً ، وما أدري قصده الشيخ أو لا؟

وأما أنفته (٧) من النزول علىٰ العمل : فكلام يحتاج إلىٰ تقييد وتبيين ، وهو

---

(١) العلة : هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه.

التعريفات ١٩٩ ، وانظر : معجم اصطلاحات الصوفية ، ١٤٨.

(٢) في البقية عدا أ ، ب : «وإراتها»

(٣) في البقية عدا عدا س : «بالواو».

(٤) «همته» ساقطة من م.

(٥) في البقية عدا س ، م ، ق «مطلوبه».

(٦) في غ زيادة «الهمم» وهي غير مناسبة.

(٧) أنف : يأتي على عدة معاني منها الاستنكاف والاستكبار والكراهة والتنزه. انظر : المصباح المنير ٢٦.

أن العالي الهمة مطلبه العالي فوق مطلب العمال والعباد(١)، وأعلىٰ منه، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي، إلىٰ مجرد العمل والعبادة، دون السفر بالقلب إلىٰ الله، ليحصل له ويفوز به، فإنه طالب لربه تعالىٰ طلباً تاماً بكل معنىٰ واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله، فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلىٰ الله أيَّما صبغة.

وهذا لأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال، ولا بالاقتصار علىٰ الطلب حال العمل فقط.

وأما أنفته من الثقة بالأمل: فإن الثقة [بالأمل](٢) توجب الفتور والتواني وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذاك(٣)، كيف؟ وهو طائر لا سائر. [والله أعلم](٤).

فصل

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: هِمَّةٌ تَتَصَاعَدُ عَنِ الأَحوَالِ وَالمُعَامَلاَتِ**(٥)، **وَتزرِي بِالأَعوَاضِ وَالدَّرَجَاتِ، وَتَنحُو عَنِ النُّعُوتِ نَحوَ الذَّاتِ**»(٦). الدرجة الثالثة

أي هذه الهمة أعلىٰ من أن يتعلق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال

(١) في م: «العباد والعمال».

(٢) الزيادة من ق.

(٣) في ط: «ذلك»

(٤) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٥) في ج «الأعمال» وفي المنازل ٨٧ «الأحوال والمقامات».

(٦) في ج: «اللذات» وم «إلى الذات».

والواردات ، أو يتعلق بالمعاملات ، وليس المراد تعطيلها ؛ بل القيام بها مع عدم[١] الالتفات إليها ، والتعلق بها.

ووجه صعود هذه الهمة[٢] عن هذا : ما ذكره من قوله : «وَتزرِي بِالأَعوَاضِ وَالدَّرَجَاتِ ، وَتَنحُو[٣] عَنِ النُّعوُتِ[٤] نَحو الذَّاتِ» أي صاحبها لا يقف عند عوض ولا درجة[٥] ، فإن ذلك نزول من همته ، ومطلبه أعلىٰ من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر[٦] همته علىٰ المطلب الأعلىٰ ، الذي لا شيء أعلىٰ منه ، والأعواض والدرجات دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما نحوها «نَحْوَ الذَّاتِ» فيريد به : أن صاحبها[٧] لا يقتصر علىٰ شهود الأفعال ولا الأسماء[٨] والصفات ؛ بل [علىٰ طلب][٩] الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال. كما تقدم ، والله أعلم.

---

(١) «عدم» ساقطة من م.

(٢) في ط «المهمه» وفي أ ، غ ، ب «الهمة من».

(٣) المثبت كما في غ ، ب ، ج ، ط وفي البقية : «وتنجو».

(٤) في س ، ب ، م : «إلى الذات».

(٥) في ق : «وذلك».

(٦) في س : «قصرت».

(٧) في غ ، ح «صاحبه».

(٨) «لا» ساقطة من ط.

(٩) الزيادة من ج.

فصل

[منزلة المحبة]

منزلة المحبة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «المحبة»[١].

وهي المنزلة التي تنافس فيها المتنافسون[٢]، وإليها شخص العاملون، وإلىٰ علمها شمر السابقون، وعليها تفانىٰ المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حُرمَها فهو من جملة الأموات، والنورُ الذي من فقده ففي[٣] بحار الظلمات، والشفاءُ الذي من عُدمَه حلَّت بقلبه جميعُ الأسقام، واللذةُ التي من لم يظفر بها فعيشهُ كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متىٰ خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلىٰ بلاد لم يكونوا[٤] إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلىٰ منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها،

(١) في هامش الأصل «بلغ والحمد لله» وفي هامش أ، غ «قسم الأحوال عشرة المحبة، والغيرة، والشوق، والقلق، والعطش، والوجد، والدهش، والهيمان، والبرق، والذو»

(٢) في ط: «فيها تنافس» وفي البقية عدا ب «فيها يتنافس المتنافسون».

(٣) «من» ساقطة من ج، وفي ط: «من فقده فهو في».

(٤) في م زيادة «بالغيه» وهي أيضاً في س ولكنها مطموسة.

وتبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هي[1] داخليها ، وهي مطايا القوم التي[2] مسراهم في[3] ظهورها دائماً إلىٰ الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلىٰ منازلهم الأولىٰ من قريب ، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، وقد قضىٰ [الله] [4] يوم قدر مقادير[5] الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة : أن المرء مع من أحب ، فيا لها [من] [6] نعمة علىٰ المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم [علىٰ] [7] ظهور الفرش نائمون ، وقد [8] تقدموا الركب بمراحل ، وهم في سيرهم [9] واقفون.

مَن لـي بمثل سَـيرِك المدَلَّلِ تمشـي رُويداً وتجِـي في الأوَّلِ[10]

---

(١) في ط «لولاها».

(٢) في غ زيادة «هي» وهي غير ملائمة لقرب الضمير.

(٣) في ط «على ظهورها» وبعدها «دائماً» ساقطة من ق.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) «مقادير» ساقطة من ح ، ب.

(٦) الزيادة من ب ، م وهي في ط.

(٧) الزيادة من الجميع عدا ب.

(٨) في س : «ولقد».

(٩) في ق : «في مسيرهم».

(١٠) ذكره المؤلف في كتابه مفتاح دار السعادة ١/ ٨٢.

أجابوا مؤذن[1] الشوق إذ نادىٰ[2] بهم : حي علىٰ الفلاح. وبذلوا أنفسهم[3] في طلب الوصول إلىٰ محبوبهم ، وكان بذلهم[4] بالرضىٰ والسماح ، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم[5]، وشكروا مولاهم علىٰ ما أعطاهم ، وإنما يحمد القوم السُّرَىٰ عند الصباح[6].

فحيهلاً إن كنتَ ذا همَّةٍ فقد ... حَدَا بك حادي الشوق فَاطْوِ
وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا «لبَّيك» ألفاً كواملاً
[ولاتنظر الأطلالَ من دونهمْ فإن ... نظرتَ إلىٰ الأطلال عُدْن حوائلا][7]
ولا تنظر بالسير رفقةَ قاعد ... ودعْه فإنَّ الشَّوقَ يكفيك حاملا
وخذ منهمُ زاداً إليهمْ وسِرْ على ... طريق الهُدَىٰ والفقرِ تصبحُ واصلاً
وأَحيِ بذكراهمْ سراك إذا وَنَتْ ... رِكَابُك ، فالذِّكْرىٰ تُعيدُك عاملاً

---

(١) في ط ، أ ، ب «منادي».

(٢) في غ ، ح : «ناداهم».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ج : «نفوسهم».

(٤) «بذلهم» ساقطة من ق.

(٥) في ط : «سراهم» والزيادة من الجميع عدا س.

(٦) لعل قائل هذه الأبيات هو ابن القيم - رحمه الله - ، وقد ذكرها بتمامها في كتابه زاد المعاد ٣/ ٧٥.

(٧) الزيادة من الجميع.

وإما تخافن(١) الكَلالَ فقُلْ لها أمامك وردُ الوَصْل ، فابْغِ المناهلا
وخُذْ قبساً من نُورهم ثم(٢) سِرْ به فنورهُمُ يهديك ليس المشاعلا
وحَيّ علىٰ وادي الأراك فَقِلْ به عساك تَراهُم فيه إن كنتَ قائلا
وإلا(٣) ففي نُعمانَ عند معرف الـ أحبَّةِ فاطلبهم إذا كنتَ سائلاً
وإلا ففي جمعٍ بليلته فإن تَفُتْ فمتىٰ يا ويح من كان غافلا
وحيَّ علىٰ جنَّات عدن(٤) بقربِهِم منازلُك الأولىٰ بها كنت نازلاً
ولكن سباك الكاشحون(٥) لأجل ذا وقفت علىٰ الأطلال تبكي المنازلا
[وحيَّ علىٰ يوم المزيد بجنة الـ خلود فجُدْ بالنفس إن كنتَ باذلا](٦)
فدعها رسوماً دارسات فما بها مقيلٌ وجَاوِزْها(٧) فليست منازلاً
رسومٌ عَفَتْ(٨) يفنىٰ بها الخلقُ كم بها قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلاً
وخُذْ يَمْنةً عنها علىٰ المنهج الذي عليه سَرَىٰ وفدُ المحبة آهلا
وقُلْ سَاعِدِيٰ يا نفسُ بالصبر ساعةً فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلاً

---

(١) في م : «من الكلام».

(٢) في أ ، ب : «فسر به».

(٣) هذا البيت ساقط من غ ، ح.

(٤) في ج : «فقربهم» وفي ح «فإما» وفي زاد المعاد ٣/ ٧٥ «فإنها».

(٥) الكاشح : هو الذي يضمر لك العداوة. انظر : مختار الصحاح ٥٧٢.

(٦) الزيادة من س ، وهي كما في زاد المعاد.

(٧) في الأصل : «بنيانها» وهي غير ملائمة والمثبت كما في البقية.

(٨) في ط : «فجاوزها».

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقضي ويصبحُ ذو الأحزان فَرْحَانَ جاذلاً

أول نقده من أثمان المحبة : بذل الروح ، فما للمفلس الجبان [البخيل][1] وسومها؟

بدم المحبِّ يُباعُ وَصْلُهُمُ[2] فمن الذي يبتاع بالثمن؟

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فينفقها[3] بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق مَنْ يزيد ، فلم يرض لها بثمن دون بذل[4] النفوس ، فتأخَّر البطالون ، وقام المحبون ينظرون ، أيهم يصلح أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعة بينهم ، ووقعت في يد[5] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤].

لما كثر المدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة علىٰ صحة الدعوىٰ ، فلو يُعطَىٰ الناس بدعواهم لادعىٰ الخليُّ[6] حرقة الشجيِّ ، فتنوع المدَّعون في

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، ب.

(٢) في س «سل وصلهم» وقد ذكره المؤلف في كتابه بدائع الفوائد ٣/ ٢١٦.

(٣) في ط ، ب : «فيبيعها» ، ح «فيبتاعها» وغ «فيغتها».

(٤) «بذل» ساقطة من م.

(٥) في غ : «أيدي».

(٦) الخلي : هو الخالي من الهم. وهو ضد الشجي. والشجو : هوالهم والحزن. والشجا : هو ما ينشب في الحلق من عظم وغيره. انظر : مختار الصحاح ص١٨٩ و ٣٣٠ ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٧٤ و ٤٤٧ ، وروضة المحبين ص٢٩ و ٣٠.

الشهود ، فقيل : لا تثبت[1] هذه الدعوىٰ إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١].

فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة : ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فهلموا إلىٰ بيعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة : ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشترىٰ ، وفضل الثمن ، وجلالة من جرىٰ علىٰ يديه عقد التبايع : عرفوا قدر السلعة ، وأن لها شأناً ، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي[2] ، من غير ثبوت خيار ، وقالوا والله لا نقيلك ولا نستقيلك.

فلما تم العقد وسلموا المبيع ، قيل لهم : مذ صارت نفوسكم وأموالكم[3] لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت[4] ، وأضعافها

(١) في البقية عدا س ، م «لا تقبل».

(٢) انظر : زاد المعاد ٣/ ٢٨٨ - ٢٩٢.

(٣) «لنا» ساقطة من غ.

(٤) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «تأمل قصة جابر بن عبدالله ، وقد اشترى منه ﷺ بعيره ، ثم وفاه

معها[1] ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران ١٦٩ و ١٧٠].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب ، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهىٰ.

لا يزال[2] سعي المحب صاعداً إلىٰ حبيبه لا يحجبه دونه شيء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴾ [فاطر : ١٠].

فصـــل

لا تحد[3] المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإنما[4] يتكلم الناس في أسبابها وواجباتها ، وعلاماتها وشواهدها ،

الثمن وزاده ، ورد عليه البعير ، وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد...» زاد المعاد ٣/ ٧٤ ، وقد ذكر ما نقله هنا.

(١) في ط : «معاً».

(٢) «لا يزال» ساقطة من م.

(٣) في ب «ثم المحبة لا تحد بحد».

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٣٠-١٣٢ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٩٨ و ٣٠٧ و ٣٠٨ ، وإحياء علوم الدين ٥/ ٤٥٠ - ٤٧١.

وثمراتها وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت علىٰ هذه الستة ، وتنوعت بهم العبارات ، وكثرت الإشارات ، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله ، وملكه للعبارة ، وهذه المادة تدور في اللغة علىٰ خمسة أشياء.

أحدها : الصفاء والبياض ، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : حبب الأسنان.

الثاني : العلو والظهور. ومنه حبب الماء وحبابه (١) ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ، وحبب الكأس منه.

الثالث : اللزوم والثبات ، ومنه : حب البعير وأحب ، إذا برك فلم (٢) يقم.

قال الشاعر :

حلت عليه بالفلاة ضرباً ... ضرب بعير السوء إذ أحبا (٣)

الرابع : اللب ، ومنه حبة القلب ، للبّه وداخله ، ومنه : الحبة (٤) لواحدة الحبوب إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس : الحفظ والإمساك. ومنه حِبُ الماء (٥) للوعاء الذي يحفظ فيه

---

(١) «وحبابه» ساقطة من ج ، وبعدها «وهو» وفي ق «وهذا».

(٢) في ط : «فلم».

(٣) القائل هو أبو محمد الفقعسي. انظر : لسان العرب ١/ ٢٩٢ ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٩/ ٥٦ ، وفيه «بالقفيل» بدلاً من «بالفلات».

(٤) «الحبة» ساقطة من غ ، أ ، ب ، ح.

(٥) سقط من ج ما يقارب ثلاث ورقات أي من هنا إلى ما بعد بداية الفصل الثالث - بعد هذا الفصل - عند قوله «وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر».

ويمسكه ، وفيه معنىٰ الثبوت أيضاً[1].

ولا ريب أن هذه الخمسة[2] من لوازم المحبة ، فإنها صفاء المودة ، وهيجان إرادات القلوب[3] ، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد ، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ، ولزومها لزوماً لا يفارق[4] ، ولإعطاء المحب محبوبه لبّه ، وأشرف ما عنده ، وهو قلبه ، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه علىٰ محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة ، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمىٰ[5] غاية المناسبة « الحاء » التي هي من أقصىٰ الحلق ، و«الباء» الشفهية التي هي نهايته.

فللحاء الابتداء ، وللباء الانتهاء ، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب ، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه. وقالوا في فعله[6] : حَبَّه وأَحَبَّه. قال الشاعر :

---

(١) انظر : ما ذكر المؤلف وزيادة في الرسالة القشيرية ٣٢٠ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٦ حيث نقل كلام المؤلف.

(٢) «الخمسة» ساقطة من م.

(٣) في البقية «القلب» وفي ط : «القلب للمحبوب».

(٤) في ط : «لا تفارقه».

(٥) «للمسمى» ساقطة من م.

(٦) في البقية عدا س ، ج ، م ، غ «في فعلها».

أحب أباثروان من حب تمره ولم تعلم أن الرفق بالجار أرفق[1]

فوالله لولا تمره ما حببته ولا كان أدنىٰ من عبيد ومشرق[2]

ثم اقتصروا علىٰ اسم الفاعل من «أحب» فقالوا : «محب» ، ولم يقولوا : «حاب» ، واقتصروا علىٰ اسم المفعول من «حب» فقالوا : «محبوب» ، ولم يقولوا : «محب» إلا قليلاً. كما قال الشاعر[3] :

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

وأعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها ، مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها ، وأعطوا «الحب» وهو المحبوب : حركة الكسر لخفتها عن الضمة ، وخفة المحبوب ، وذكره[4] علىٰ قلوبهم وألسنتهم ، مع[5] إعطائه حكم نظائره ، كنِهب بمعنىٰ منهوب ، وذِبح للمذبوح[6] ، وحِمل

---

(١) هذا البيت ساقط من أ ، غ ، ب ، م ، س ، ق.

(٢) في هامش الأصل «هما ولدا هذا الشاعر والبيت مقوي عند أبي عمرو وهو أن تختلف حركات الرَوِي وهو حرف ما بعد القافية» وهما لرؤبة وقيل لعيلان بن شجاع النهشلي ، انظر : مغني اللبيب ٤٧٣ ، وكتاب الأمثال لابن سلام ٢٣٨ ، وروضة المحبين ٣٤.

(٣) في غ «كما قيل» والقائل هو عنترة. انظر : ديوان عنترة للخطيب التبريزي ١٥٣ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٧.

(٤) في ط زيادة «خفة».

(٥) في ط «من».

(٦) في ط : «بمعنى مذبوح».

للمحمول ، بخلاف الحمل - الذي هو مصدر - لخفته[1] ، ثم ألحقوا به حملاً لا يشق علىٰ حامله حمله ، كحمل الشجرة والولد.

فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني ، تطلعك علىٰ قدر هذه اللغة ، وأن لها شأناً ليس لسائر اللغات.

فصل[2]

في ذكر رسوم وحدود قيلت في المحبة ، بحسب آثارها وشواهدها ، والكلام علىٰ ما يحتاج إلىٰ الكلام منها[3].

الأول[4] : قيل : المحبة الميل الدائم ، بالقلب الهائم.

وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة ، والصحيحة والمعلولة.

الثاني : إيثار المحبوب ، علىٰ جميع المصحوب.

وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها.

الثالث : موافقة الحبيب ، في المشهد والمغيب[5].

---

(١) في غ ، م «الخفة».

(٢) في هامش س : «بلغ مقابلة».

(٣) في ط : « إليه منها».

(٤) المثبت كما في ط و س لمناسبة ما بعده ، وفي البقية «الأولى».

(٥) في م : «المغيبة».

وهذا أيضاً [من] (١) موجبها ومقتضاها ، وهو أكمل من الحدين قبله ، فإنه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة ، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة ، فإنه إن (٢) لم يصحبه (٣) موافقة فمحبته معلولة.

الرابع : محو المحب (٤) لصفاته ، وإثبات المحبوب لذاته.

وهذا أيضاً من أحكام الفناء في المحبة : أن تمحىٰ (٥) صفات المحب ، وتفنىٰ في صفات محبوبه وذاته ، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا ، لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه ، وأخذ منه.

الخامس : مواطأة القلب لمرادات المحبوب.

وهذا أيضاً من موجباتها وأحكامها ، «والمواطأة» الموافقة لمرادات المحبوب وأوامره ومراضيه.

السادس : خوف ترك الحرم (٦) ، مع إقامة الخدمة.

---

(١) الزيادة من غ.

(٢) «إن» ساقطة من ق.

(٣) في البقية عدا س : «تصحبه».

(٤) في ط «الحب».

(٥) في ط : «تنمحي» وفي البقية عدا م : «تمتحي» وفي الرسالة القشيرية ٣٢١ «محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب بذاته».

(٦) في م : «الحركة».

وهذا أيضاً من أعلامها [١] وشواهدها وآثارها : أن يقوم [٢] بالخدمة كما ينبغي ، مع خوفه من ترك الحرمة والتعظيم.

السابع : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك. وهو[٣] لأبي يزيد ، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها ، والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقلَّه واستحيىٰ منه ، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

الثامن : استكثار القليل من جنايتك ، واستقلال الكثير من طاعتك ، وهو قريب من [٤] الذي قبله ؛ لكنه مخصوص بما من المحبِّ.

التاسع : معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة.

وهو لسهل بن عبدالله ، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها[٥].

العاشر : دخول صفات المحبوب علىٰ البدل من صفات المحب. وهو للجنيد. وفيه غموض ، ومراده : [أن][٦] استيلاء ذكر المحبوب وصفاته

---

(١) في أ : «أعلاها».

(٢) في أ ، غ : «أن يقدم».

(٣) في البقية عدا س ، م : «وهذا قول» ، وانظر نسبته إليه في الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٤) في الأصل وس : «وهو قريب من الأول» والمثبت كما في البقية لأنه أدق في التعبير.

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ٣٢١ ففيها الأقوال منسوبة لقائليها كما ذكرها المؤلف هنا.

(٦) الزيادة من البقية عدا س ، غ ، ق ، م.

وأسمائه علىٰ قلب المحب، حتىٰ لا يكون الغالب عليه إلا ذلك. ولا يكون شعوره وإحساسه في الغالب إلا بها، فيصير شعوره وإحساسه بها(١) بدلاً من شعوره وإحساسه بصفات نفسه وقد يحتمل معنىٰ أشرف من هذا. وهو: تبدل صفات المحب الذميمة - التي لا توافق صفات المحبوب - (٢) بالصفات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته. والله أعلم.

الحادي عشر: أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقىٰ لك منك شيء.

وهو لأبي عبدالله القرشي(٣)، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها، والمراد: أن تهب إرادتك(٤) وعزماتك وأفعالك ونفسك وما لك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه، فلا تأخذ منها لنفسك(٥) إلا ما أعطاك فتأخذه منه له.

الثاني عشر: أن تمحو من القلب ما سوىٰ المحبوب، وهو للشبلي(٦)،

---

(١) «بها» ساقطة من الجميع عدا س، وسقط من ق، م «بدلاً من شعوره وإحساسه».

(٢) «التي» ساقطة من أ، غ، ح.

(٣) انظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢١، ولعل المقصود بالقرشي محمد بن سعيد أبو عبدالله القرشي صاحب كتاب (شرح التوحيد). توفي في القرن الثالث. انظر: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ٤/ ٥٦٩-٥٧١، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٤) في ط: «وعزمك»، والصواب عزائمك؛ لأن مفردها عزيمة.

(٥) في الجميع عدا س، م «فلا تأخذ لنفسك منها».

(٦) هو دلف بن جحدر الشبلي، ولد سنة ٢٤٧هـ، بغدادي المولد والمنشأ وأصله من خراسان

وكمال المحبة [1] يقتضي ذلك ، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

الثالث عشر : إقامة العتاب علىٰ الدوام [2] ، وهو لابن عطاء ، وفيه غموض.

ومراده : أن لا تزال عاتباً علىٰ نفسك في مرضاة المحبوب ، وأن لا ترضىٰ له منها [3] عملاً ولا حالاً.

الرابع عشر : أن تغار علىٰ المحبوب : أن يحبه مثلك [4] ، وهو للشلبي أيضاً. وفيه كلام سنذكره إن شاء الله في منزلة «الغيرة» ومراده : احتقارك لنفسك واستصغارها : أن يكون مثلك من محبّيه.

الخامس عشر : إرادة غرست أغصانها في القلب ، فأثمرت الموافقة

صحب الجنيد ومن في عصره ، عاش ٨٧سنة ، وتوفي سنة ٣٣٤ هـ.

انظر : الرسالة القشيرية ص٤١٩ و ٤٢٠ ، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٢٢٦-٢٣٠ ، وانظر قوله هذا ، والآخر في الرسالة القشيرية ص٣٢١ و ٣٢٢.

(١) في غ ، م ، ح ، س : «تقتضي» وفي هامش غ : «بيان وكمال».

(٢) في أ : «وفيه غموض وهو لابن عطاء» وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآمدي ، صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني ، توفي سنة ٣٠٩هـ ، وقيل ٣١١هـ.

انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٢ - ٣٠٥ ، طبقات الشعراني ١/ ٢١٠ - ٢١٤ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٦.

(٣) في البقية عدا س ، م : «فيها».

(٤) «وهو» ساقطة من س.

والطاعة.

السادس عشر : أن ينسىٰ المحب حظه من[1] محبوبه ، ، وينسىٰ حوائجه إليه، وهو لأبي يعقوب السوسي[2] ، مراده : أن استيلاء سلطانها علىٰ قلبه غيَّبه عن حظوظه وعن حوائجه ، واندرجت كلها في حكم المحبة.

السابع عشر : مجانبة السلو علىٰ كل حال ، وهو للنصراباذي[3]. وهو أيضاً من لوازمها وثمراتها ، كما قيل[4] :

مرت بأرجاء الخيال طيوفه فبكت علىٰ رسم السلو الدارس

الثامن عشر : توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.

التاسع عشر: سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب، وهو لمحمد بن الفضل[5]. ومراده : توحيد المحبوب بالمحبة.

---

(١) في البقية عدا س ، م : «في محبوبه» وقوله في الرسالة القشيرية ٣٢٢ ، وهذا نصه : «حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله عز وجل وينسى حوائجه إليه».

(٢) أبو يعقوب السوسي لم أجد في كتب التراجم هذه الكنية منسوبة إلى السوسي غير ما ذكره القشيري في رسالته عند ترجمته لأبي يعقوب النهرجوري حيث قال : وصحب أبا يعقوب السوسي. انظر الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٣) في م «أيضاً وهو «وفي ب» أيضاً «ساقطة والنصراباذي تقدمت ترجمته وهو إبراهيم بن محمد بن أحمد النيسابوري ويسمى النصر اباذي. وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٢٣.

(٤) ذكره المؤلف أيضاً في روضة المحبين ١٢٩.

(٥) هو محمد بن الفضل البامجي (ويسمى البلخي) وتقدمت ترجمته ص ١٨٦ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٣.

العشرون : غض طرف القلب عما سوىٰ المحبوب غيرة ، وعن المحبوب هيبة ، وهذا يحتاج إلىٰ تبيين.

أما الأول : فظاهر.

وأما الثاني(١) : فإن غض طرف القلب(٢) عن المحبوب - مع كمال محبته - كالمستحيل ، ولكن عند استيلاء سلطان(٣) الهيبة يقع في مثل هذا ، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم ، وقد قيل : إن هذا تفسير قول النبي ﷺ : **«حبك الشيء يعمي ويصم»**(٤) أي يعمي عما سواه غيرة ، وعنه هيبة.

وليس هذا مراد الحديث ، ولكن المراد به : أن حبك الشيء يعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه ، فلا تراها ولا تسمعها ، وإن كانت فيه ، وليس المراد به ذكر المحبة المطلوبة المتعلقة بالرب ، ولا يقال في حب الرب تبارك

---

(١) في غ : «فإنه».

(٢) «عن المحبوب» ساقطة من أ ، ب.

(٣) «سلطان» ساقطة من ط.

(٤) الحديث رواه أبو داود في السنن في كتاب الأدب ، باب في الهوى ٥/ ٣٤٦ (٥١٣٠) ، وأحمد في المسند ٥/ ١٩٤ و ٦/ ٤٥٠ ، والحديث اختلف فيه العلماء فمنهم من حكم عليه بالوضع ومنهم من قال ضعيف ومنهم من قال حسن ومنهم من قال صحيح لذاته أو لغيره. انظر : بقية من خرجه وهذه الأقوال على أن الأكثر قالوا بتحسينه أو تضعيفه.

انظر : الجامع الصغير ص٢٢٤ (٣٦٧٤) ، وكشف الخفاء ١/ ٣٤٣ (١٠٩٥) ، ومشكاة المصابيح ٣/ ١٧٩٠ ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة ٤/ ٣٤٨ و ٣٤٩ (١٨٦٨).

وتعالىٰ : حبك الشيء ، ولا يوصف صاحبها بالعمىٰ والصمم [١].

ونحن لا ننكر المرتبتين المذكورتين ، فإن المحب قد يعمي ويصم[٢] عن [ما] سوىٰ محبوبه ، وقد يعمي ويصم عنه بالهيبة والإجلال ، ولكن لا توصف محبة العبد لربه تعالىٰ بذلك ، وليس أهلها من أهل العمىٰ والصم ؛ بل هم [٣] أهل الأسماع والأبصار علىٰ الحقيقة ، ومن سواهم هم الصم [٤] البكم [العمي] الذين لا يعقلون.

الحادي والعشرون : ميلك إلىٰ الشيء [٥] بكليتك ، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

قال الجنيد : سمعت الحارث المحاسبي - رحمه الله - [٦] يقول : ذلك.

الثاني والعشرون : المحبة نار في القلب ، تحرق ما سوىٰ مراد المحبوب.

سمعت شيخ الإسلام[٧] ابن تيمية - رحمه الله - يقول : لمت بعض

---

(١) في ط «الصم».

(٢) سقط من ط إلى قوله «عنه هيبة» والزيادة من البقية عدا س ، م ، ق.

(٣) «هم» ساقطة من س.

(٤) في ط : «البكم العمي الصم» والزيادة من الجميع.

(٥) في البقية عدا س ، م ، ق : «للشيء».

(٦) هو أبوعبدالله الحارث بن أسد المحاسبي صاحب التصانيف المشهور بالزهد ، بصري الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. انظر : الرسالة القشيرية ص٤٢٩ و ٤٣٠ ، وتقريب التهذيب ١/ ١٣٩ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٧٣ - ١١٠ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٤.

(٧) في ط : «وسمعت».

المباحيـة[1] فقال لي ذلك، ثم قال: والكون كله مراده، فأي شيء أبغض منه؟

قال الشيخ فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض أفعالاً وأقوالاً وأقواماً وعاداهم وطردهم[2] ولعنهم فأحببتهم أنت: كنت[3] موالياً للمحبوب أو معادياً له؟ قال: فكأنما ألقم حجراً، وافتضح بين أصحابه، وكان مقدماً فيهم مشاراً إليه.

وهذا الحد صحيح: وقائله إنما أراد: أنها تحرق من القلب ما سوىٰ مراد المحبوب الديني الأمري، الذي يحبه ويرضاه، لا المراد الذي قدره وقضاه؛ ولكن[4] لقلّة حظ المتأخرين منهم وغيرهم من العلم: وقعوا فيما وقعوا فيه من الإباحة والحلول والاتحاد، والمعصوم من عصمه الله.

الثالث والعشـرون: المحبة بذل المجهود، وترك الاعتراض علىٰ المحبوب[5]. وهذا أيضاً من حقوقها وثمراتها وموجباتها.

---

(١) في ط «الإباحية» وهم صنفان صنف قبل الإسلام كالمزدكية، وصنف بعد ظهور الإسلام وهم المعروفون بالمحمرة سموا بذلك لاستباحتهم المحرمات والإباحية أيضاً تطلق على فرقة من المتصوفة، قالوا ليس لنا قدرة على الاجتناب عن المعاصي ولا على الإتيان بالمأمورات انظر: الفرق بين الفرق ص٢٠١ و ٢٠٢، والملل والنحل ١/ ٢٤٩ و ٢٥٠، وكشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٥٤ و ١٥٥، والاستقامة لابن تيمية ٢/ ١٩٤-١٩٨.

(٢) في البقية عدا س، م «فطردهم».

(٣) «أنت» ساقطة من ط، وفي ط «تكون» وفي أ، ب، ح، غ «أكنت».

(٤) في البقية عدا س، م «الواو» ساقطة.

(٥) «المحبوب» ساقطة من أ، غ، ب.

الرابع والعشرون(١) : سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف ، وأنشد [بعضهم](٢) :

فأسكَرَ القومَ دور الكأس بينهم لكنَّ سُكرِي نشا من رؤية الساقي

وينبغي صون المحبة والحبيب عن هذه الألفاظ ، التي غاية صاحبها : أن يعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه ، وقهره له ، فمحبة الله أعلىٰ وأجلُّ من(٣) أن تضرب لها هذه الأمثال ، وتجعل عرضة للأفواه المتلوِّثة ، [والألفاظ المبتدعة](٤) ، ولكن الصادق في خفارة صدقه.

الخامس والعشرون : أن لا يؤثر علىٰ المحبوب غيره ، وأن لا يتولىٰ أموره(٥) غيره.

السادس والعشرون : الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته ، والحرية من استرقاق ما سواه.

---

(١) «الرابع والعشرون» ساقطة من م.

(٢) الزيادة من ب والبيت ذكره القشيري في رسالته من غير نسبة ٣٢٦.

ونصه :

فأسكر القوم دور كأس وكان سكري من المدير

(٣) «من» ساقطة من غ ، وفي س : «من أن يضرب».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) في الجميع «أمورك» والمثبت كما في الأصل وهو الأولى حتى تتوافق مع بداية القول «أن لا يؤثر» والمقصود بالخطاب واحد وهو «المحب».

السابع والعشرون: المحبة[1] سَفَر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره علىٰ الدوام.

قلت[2]: أما سفر القلب في طلبه[3]: فهو الشوق إلىٰ لقائه، وأما لهج اللسان بذكره: فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

الثامن والعشرون: [أن][4] المحبة هي ما لا ينقص بالجفاء. ولا يزيد[5] بالبر، وهو[6] ليحيىٰ بن معاذ؛ بل الإرادة والطلب والشوق إلىٰ المحبوب لذاته فلا ينقص ذلك جفاؤه، ولا يزيده برُّه.

وفي هذا[7] ما فيه، فإن المحبة الذاتية تزيد بالبر ولا ينقصها[8] زيادتها بالبر، وليس ذلك بعلة، ولكن مراد يحيىٰ: أن القلب قد امتلأ بالمحبة الذاتية، فإذا جاء البر من محبوبه، لم يجد في القلب[9] مكاناً خالياً من حبه تشغله[10] محبة

---

(١) «المحبة» ساقطة من م.

(٢) سقط من م إلى قوله: «فلا ريب».

(٣) في البقية عدا س «طلب المحبوب»

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٥) في البقية عدا س، م: «ولا تزيد».

(٦) في أ، ب، غ، ح، س: «وهي» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٢.

(٧) في ط: «ذلك».

(٨) في البقية عدا س، م: «ولا تنقصها».

(٩) سقط من أ، غ: «القلب» وفي ب: «قلبه».

(١٠) في ط، م: «يشغله».

البر [١] ؛ بل تلك المحبة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب ، ومع هذا فلا يزيل الوهم ، فإن المحبة لا نهاية لها ، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة ، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره ، فلا نهاية لمحبته ؛ بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت علىٰ قلب رجل واحد منهم لكان [٢] ذلك دون ما يستحقه الرب جل جلاله ، ولهذا لا تسمىٰ محبة العبد لربه عشقاً - كما سيأتي - [٣] لأنه إفراط المحبة ، والعبد لا يصل في محبة الله إلىٰ [٤] حد الإفراط ، ألبتة. والله أعلم.

التاسع والعشرون : المحبة أن يكون [٥] كلك بالمحبوب مشغولاً ، وكلك [٦] له مبذولاً.

الثلاثون وهو من أجمع ما قيل فيها - : قال أبو بكر الكتاني [٧] ـ رحمه الله ـ :

---

(١) «بل» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ب ، وفي س زيادة «كان» وهي غير ملائمة.

(٢) في البقية عدا م ، س ، ق «كان».

(٣) في أ ، غ ، ب «أنه».

(٤) «إلى حد الإفراط» ساقطة من م.

(٥) في أ ، غ ، ب : «بالتاء».

(٦) في البقية عدا س ، م ، ق : «وذلك».

(٧) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني ، بغدادي الأصل صحب الجنيد والخراز والنوري ، وأقام بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢هـ. انظر : الرسالة القشيرية ٤٢٧ ، وطبقات الشعراني ٢٣٨- ٢٤٠ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧ و ٣٥٦ ، وقوله في الرسالة القشيرية ٣٢٧.

«جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله - أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها[1]، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق[2] قلبه أنوارُ هيبته ، وصفا شربه من كأس وده[3]، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله.

فبكىٰ الشيوخ وقالوا : ما علىٰ هذا مزيد جبرك الله[4] يا تاج العارفين » .

فصل

في الأسباب الجالبة للمحبة ، والموجبة لها. وهي عشرة : الأسباب الجالبة

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به[5] ، كتدبر الكتاب للمحبة الذي يحفظه العبد ويشرحه ، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني : التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصله إلىٰ درجة المحبوبية بعد المحبة.

---

(١) في أ ، ، غ ، ح ، ب : «فكان».

(٢) في ط «أحرقت».

(٣) في م : «مودته».

(٤) في غ زيادة «من» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية ، وفي ط «جزاك الله».

(٥) «به» ساقطة من أ ، غ ، ح.

الثالث : دوام ذكره علىٰ كل حال : باللسان والقلب ، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع : إيثار محابه علىٰ محابك عند غلبات الهوىٰ، والتسنم(١) إلىٰ محابه، وإن صعب المرتقىٰ.

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها (٢) ، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله : أحبه لا محالة ، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية(٣) قطاع الطريق علىٰ القلوب بينها وبين الوصول إلىٰ المحبوب.

السادس : مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ، ونعمه الباطنة(٤) والظاهرة ، فإنها

---

(١) في ب : «والتنسم»

(٢) في البقية عدا س ، م «ومباديها ».

(٣) **التعطيل في اللغة** : التفريغ. ويقصد به إنكار ما يجب لله تعالى وهو أقسام : فمنه تعطيل كلي كتعطيل الجهمية ، وتعطيل جزئي كتعطيل الأشعرية. انظر : الملل والنحل ١/ ٨٦ - ٩٤/ مختار الصحاح ٤٤٠ ، والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ٣١ ، والصفدية لابن تيمية ١/ ٢٦٣ - ٢٦٦.

والفرعونية : نسبة إلى فرعون القائل : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾[القصص : ٣٨].

والجهمية : هم المنسوبون إلى الجهم بن صفوان ، وهذه الفرقة من الفرق الضالة التي أنكرت الأسماء والصفات وزعمت أن الجنة والنار تفنيان وغير ذلك من الضلالات. انظر : الملل والنحل ١/ ٨٦-٨٨ ، والفرق بين الفرق ص١٥٨ و ١٥٩ ، ولوامع الأنوار البهية ١/ ٧٧.

(٤) في أ ، ب «الظاهرة والباطنة».

داعية إلىٰ محبته.

السابع : وهو من أعجبها [١] - انكسار القلب بكليته بين يديه [٢] ، وليس في التعبير عن هذا المعنىٰ غير الأسماء والعبارات.

الثامن : الخلوة [٣] به وقت النزول الإلهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه ، والوقوف بالقلب والتأدب [٤] بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلماتهم [٥] كما ينتقىٰ أطايب الثمر ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام ، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعته لغيرك.

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة ، وصل المحبون إلىٰ منازل المحبة ، ودخلوا علىٰ الحبيب ، وملاك ذلك كله أمران : استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة والله المستعان [٦].

---

(١) «من» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا ح ، س ، م ، ق ، غ : «يدى الله تعالى».

(٣) «به» ساقطة من ح.

(٤) في ط زيادة «بأدب العبودية».

(٥) في البقية عدا س ، م «كلامهم».

(٦) في البقية عدا م ، س ، ق «وبالله التوفيق».

فصل

محبة الرب لعبده والعبد لربه والرد على من خالف

والكلام في هذه المنزلة يتعلق(١) بطرفين : طرف محبة العبد لربه ، وطرف محبة الرب لعبده ، والناس في إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام : فأهل [السنة والجماعة] (٢) يحبهم ويحبونه علىٰ إثبات الطرفين ، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر ، ولا نسبة لسائر المحاب إليها ، وهي حقيقة « لا إله إلا الله »(٣) وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله : صفة زائدة علىٰ رحمته ، وإحسانه وعطائه ، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها ، فإنه لما أحبهم كان نصيبُهم من رحمته وإحسانه وبره أتمَّ نصيب.

والجهمية المعطلة(٤) عكس هؤلاء(٥) ، فإنه عندهم لا يحِبُّ ولا يحَب ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص ، فأوَّلوا(٦) نصوص محبة العباد له : علىٰ محبة طاعته وعبادته ، والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب ، وإن أطلقوا بها عليهم(٧) لفظ

---

(١) في م «متعلق» وفي البقية «معلق».

(٢) الزيادة من م.

(٣) في م : «الذلك».

(٤) هذا هو القسم الثاني الذي ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ من الأقسام الأربعة التي كان سيذكرها ولكنه أخذ بالرد على هؤلاء ونسي أن يذكر بقية الأقسام.

(٥) في أ ، ب ، غ ، ق : «فإن».

(٦) في غ : «فأولوا محبة نصوص» وفي أ «نصوص» ساقطة.

(٧) الزيادة من الجميع عدا غ ، س ، م ، وفي ط : «عليهم بها».

«المحبة» فلما ينالون به من الثواب والأجر. والثواب المنفصل عندهم : وهو المحبوب لذاته ، والرب تعالىٰ محبوب لغيره حب الوسائل.

وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم ، وإعطائهم الثواب ، وربما أولوها بثنائه عليهم ومدحه لهم ، ونحو ذلك ، وربما أولوها بإرادته لذلك ، فتارة يؤولونها بالمفعول المنفصل ، وتارة يؤولونها بنفس الإرادة.

ويقولون : الإرادة إن [١] تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية : سميت «محبة» ، وإن تعلقت [٢] بالعقوبة والانتقام : سميت «غضباً» ، وإن تعلقت بعموم الإحسان سميت رحمة ، وإن تعلقت بالإحسان [٣] والإنعام الخاص : سميت «براً» ، وإن تعلقت بإيصاله في خفاء ، من حيث لا يشعر ، ولا يحتسب : سميت «لطفاً» وهي واحدة ، ولها أسماء وأحكام باعتبار متعلقاتها.

ومن جعل محبته للعبد ثناءه عليه ومدحه له : ردها إلىٰ صفة الكلام ، فهي عنده من صفات الذات ، لا [٤] من صفات الأفعال ، ومن جعلها نفس الإنعام والإحسان فهي عنده من صفات الأفعال ، والفعل عنده [٥] نفس المفعول ، فلم يقم بذات الرب محبة لعبده ، ولا لأنبيائه ورسله ألبتة.

---

(١) «إن» ساقطة من غ ، أ.

(٢) سقط من م إلى قوله «بعموم الإحسان».

(٣) سقط من ط قوله «سميت رحمة وإن تعلقت بالإحسان».

(٤) «من صفات الذات لا» ساقطة من أ ، غ ، ح ، م ، ب.

(٥) سقط من الجميع إلى قوله «والفعل عنده».

ومن ردها إلىٰ صفة « الإرادة » جعلها من صفات الذات باعتبار أصل الإرادة ، ومن صفات الأفعال باعتبار تعلقها.

ولما رأىٰ هؤلاء أن المحبة إرادة ، وأن الإرادة لا تتعلق إلا بالمحدث المقدور ، والقديم يستحيل أن يراد : أنكروا محبة العباد ، والملائكة والأنبياء ، والرسل له وقالوا : لا معنىٰ لها إلا إرادة التقرب إليه ، والتعظيم له ، وإرادة عبادته ، فأنكروا خاصة الإلهية ، وخاصة العبودية ، واعتقدوا [أن] هذا (١) من موجبات التوحيد والتنزيه(٢) ، فعندهم لا يتم التوحيد والتنزيه إلا بجحد حقيقة الإلهية ، وجحد حقيقة العبودية.

وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرة ، وقياساً واعتباراً ، وذوقاً ووجداً - تدل علىٰ إثبات محبة العبد لربه ، والرب لعبده.

وقد ذكرنا من ذلك(٣) قريباً من مائة طريق في كتابنا الكبير في المحبة(٤) وذكرنا فيه فوائد المحبة(٥) ، وما تثمر لصاحبها من الكمالات ، وأسبابها

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م ، وسقط من م «هذا».

(٢) «التنزيه» ساقطة من م.

(٣) في البقية عدا س ، م ، ق «الذلك».

(٤) لم أجد ما قصد المؤلف هنا في كتابه المذكور... ولكن انظر إلى كتابه الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٣٤ وما بعدها ، وانظر كلامه في المحبة في كتاب طريق الهجرتين ص٤٤٠ - ٤٨٣.
والمؤلف له كتاب كبير في المحبة غير موجود وهو غير كتابه روضة المحبين انظر كتاب ابن قيم الجوزية لمؤلفه الشيخ بكر أبو زيد ص ١٥٧ و ١٧٩ المؤلف رقم ٤٦ و ٧٦.

(٥) انظر : روضة المحبين وبالأخص الأبواب الخمسة الأول ، والباب الثالث عشر ، والباب العشرون ، والحادي والعشرون ، والثاني والعشرون ، من هذا الكتاب.

وموجباتها ، والرد على من أنكرها ، وبيان فساد قوله ، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر ، والغاية التي وجدوا لأجلها ، فإن الخلق والأمر، والثواب ، والعقاب : إنما نشأ عن «المحبة» ولأجلها ، وهي الحق الذي خلقت به(١) السموات والأرض ، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي ، وهي سِرُّ(٢) التأليه ، وتوحيدها : هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم(٣) المنكرون : أن «الإله» هو الرب الخالق ، فإن المشركين كانوا مقرِّين بأنه لا ربَّ إلا الله ، ولا خالق سواه ، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية ، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية ، وهو المحبة والتعظيم ، بل كانوا يتألهون(٤) مع الله غيره ، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، ، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

تفسير قوله تعالى يحبونهم كحب الله

قال [الله](٥) تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالىٰ : فهو ممن اتخذ من دون الله ندّاً(٦) ، فهذا ندٌّ في المحبة ، لا في

---

(١) «به» ساقطة من أ ، ب ، غ ، وفي ط «به خلقت» وفي هامش غ : «العله لأجله».

(٢) في ط : «التألية».

(٣) في م : «المشركون» وفي غ : «المنكرون للإله».

(٤) في ط : «يؤلهون».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س.

(٦) في البقية عدا ، م ، ق ، س «أنداداً».

الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند[١] ، بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم ، ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وفي تقدير الآية قولان[٢] :

أحدهما : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله.

والثاني : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، و محبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة : أشد من المشتركة ، والقولان مرتبان علىٰ القولين في [قوله تعالىٰ][٣] : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ فإن فيه قولان أيضاً[٤] :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة لله[٥] ، ولكنها محبة شركوا[٦] فيها مع الله أندادهم[٧].

والثاني : أن المعنىٰ يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بيَّن أن

---

(١) في ط زيادة «في الربوبية».

(٢) انظر : الدر المنثور ١/ ٤٠١ - ٤٠٣ ، وتفسير البغوي ١/ ١٧٨ و ١٧٩.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «أيضاً» ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب.

(٥) في البقية عدا م «الله».

(٦) في البقية عدا س ، م : «يشركوا» وفي ط : «يشركون».

(٧) في ط : «أنداداً».

محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شركوا [1] بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه هي[2] التسوية المذكورة في قوله تعالىٰ حكاية عنهم، وهم في النار أنهم [3] يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء، بمعنىٰ «عن»، والمعنىٰ[4]: ثم الذين كفروا عن ربهم[5] يعدلون

---

(١) في ط: «أشركوا» وانظر التحفة العراقية ٣٨٩.

(٢) «هي» ساقطة من ط، م، وفي أ، غ، ح، ب: «وهذه في».

(٣) «إنهم» ساقطة من ط، وفي ب: «إذ يقولون».

(٤) «والمعنى» ساقطة من م،، وسقط من ج: «ثم الذين كفروا».

(٥) في الأصل والبقية «بربهم» والمثبت كما في ج، م، ط، وهو الأقرب للتصريح «بعن»، وانظر هذا القول في تفسير البغوي ٣/ ١٢٦.

إلىٰ عبادة [١] غيره ، وهذا ليس بقوي ، إذ لا تقول العرب عدلت بكذا أي عدلت عنه ، وإنما جاء هذا في فعل السؤال ، نحو : سألت بكذا[٢] ، أي عنه ، كأنهم ضمنوه : اعتنيت به واهتممت ، ونحو ذلك.

وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وهذه [٣] تسمىٰ آية المحبة [٤] [قال أبو سليمان الداراني : لما ادعت القلوب محبة الله : أنزل الله لها محنة : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾] [٥].

قال بعض السلف [٦] : ادعىٰ قوم محبة الله ، فأنزل الله آية المحبة : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

وقال : «يحببكم الله»[٧] إشارة إلىٰ دليل المحبة وثمرتها ، وفائدتها ، فدليلها وعلامتها : اتباع الرسول ﷺ ، وفائدتها وثمرتها : محبة المرسل[٨] لكم ،

---

(١) في ط زيادة «عن عبادته».

(٢) «نحو : سألت بكذا» سقطت من م هنا وذكرت بعد «وضمنوه».

(٣) في البقية عدا س ، م : «وهي».

(٤) في ج ، ح ، ب «آية المحنة» والزيادة من الجميع عدا س ، م ، ولعلها حذفت من الأصل لوجود قوله «قال بعض السلف».

(٥) سقط من ج إلى قوله : «﴿ يحببكم الله ﴾ إشارة».

(٦) انظر : الدر المنثور ٢/ ١٧٧ - ١٧٩.

(٧) «وقال يحببكم الله» ساقطة من م ، س.

(٨) في أ ، غ «الرسل».

فما لم[1] تحصل المتابعة فلا[2] محبتكم له حاصلة ، و محبته لكم منتفية.

وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ذكر[3] لهم أربع علامات :

أحدها : أنهم «أذلة علىٰ المؤمنين» قيل : معناه أرقاء ، رحماء مشفقين عليهم ، عاطفين عليهم ، فلما ضمّن «أذلة» هذا المعنىٰ عداه بأداة «علىٰ» قال عطاء ﷺ[4]: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلىٰ[5] الكافرين كالأسد علىٰ فريسته ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[6] [الفتح : ٢٩].

العلامة الثالثة : الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد ، واللسان والمال ، وذلك تحقيق دعوىٰ المحبة.

العلامة الرابعة : أنهم لا يأخذهم في الله لومة لائم ، وهذا علامة صحة[7]

---

(١) في غ «فإن له» وج «فمتى لا تحصل».

(٢) في ط «فليست».

(٣) في ط زيادة «فقد».

(٤) انظر هذا القول في تفسير البغوي ٧/ ٣٢٣ و ٣٢٤.

(٥) «الواو» ساقطة من ب وهذه هي العلامة الثانية ، وقد تزيد هذه العلامات على ما ذكره ابن القيم إذا اعتبرت محبة الله لهم ومحبتهم لله من صفاتهم. راجع تفسير أبي السعود ٣/ ٥٠ ، ٥١.

(٦) في هامش ح لعلها الثانية.

(٧) «صحة» ساقطة من غ.

المحبة ، فكل محب أخذه [١] اللوم عن محبوبه فليس بمحب علىٰ الحقيقة ، كما قيل :

لا كانَ مَن لِسواكَ فيه بقيَّةٌ ‏ ‏ ‏ يجدُ السبيلَ بها[٢] إليه اللُّوَّمُ

وقال تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء : ٥٧] ، فذكر المقامات الثلاث : الحب ، وهو ابتغاء القرب إليه ، والتوسل [إليه][٣] بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف : يدل علىٰ أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد علىٰ رجاء الرحمة وخوف العذاب.

بطلان تأويل الجهمية للمحبة

ومن المعلوم قطعاً : أنه لا ينافس [٤] إلا في قرب من يُحب [٥] قربه ، وحُبُّ قربه تبع لمحبة ذاته ؛ بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه ، وعند الجهمية والمعطلة : ما من ذلك كله [٦] شيء ، فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء ، ولا يقرب من ذاته شيء ، ولا يُحَب لذاته ، ولا يُحِب.

---

(١) في ط «يأخذه».

(٢) في ج «لها» والبيت ذكره المؤلف في كتابه طريق الهجرتين ص٣٥٣ و ٤٣٩ ، وآخره «إليه العذل».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط «أنك» وبعدها في البقية عدا س ، م «لا يتنافس».

(٥) في البقية عدا ج ، س ، م «تجد».

(٦) في أ ، غ «كل».

فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلىٰ نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم (١) بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حجاب (٢) علىٰ معرفته و محبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته (٣)، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم؛ بل يعاقبون (٤) من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء (٥) التي هم أحق بها وأهلها، وحسب ذي البصيرة وحياة القلب، ما يرىٰ علىٰ كلامهم من القسوة والمقت، والتنفير عن محبة الله ومعرفته وتوحيده، والله المستعان.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل ١٩، ٢٠]، فجعل غاية الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ (٦) ٱللَّهَ أَعَدَّ

---

(١) في ج: «القلوب».

(٢) في ط: «حجب».

(٣) سقط من أ، ب، غ، ح إلى قوله: «ونعوت جلاله».

(٤) في هامش ح «لعله ويعادون أهل محبته المثبتين لأسمائه وصفاته».

(٥) في ب «بالأذى» والأدواء: جمع داء وهو المرض. انظر: مختار الصحاح ٢١٤.

(٦) سقط من ج، ق إلى قوله: «وهذه الإرادة».

الأحاديث في المحبة

﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب : ٢٩] ، فجعل إرادته غير إرادة الآخرة ، وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة ، كما في صحيحي[1] الحاكم وابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ : أنه كان يدعو : «اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق : أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضىٰ ، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضىٰ بعد القضاء ، وأسألك[2] برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك[3] الشوق إلىٰ لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين»[4].

---

(١) في أ ، غ ، ب ، ح : «صحيح» وفي ط : «كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان».

(٢) «وأسالك» ساقطة من الجميع عدا س ، م.

(٣) «وأسألك» ساقطة من م.

(٤) الحديث رواه النسائي في كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء رقم الباب ٣٦٢ ، ٣/ ٥٤ و ٥٥ (١٣٠٥) ، وقال الألباني : إسناده جيد ، انظر : مشكاة المصابيح ٢/ ٧٦٩ و ٧٧٠ (٢٤٩٧) ، وابن حبان في صحيحه (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) في ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله ٣/ ٢١٢ و ٢١٣ (١٩٦٨) ، وأورده السيوطي في الجامع الصغير وسكت عنه بعد قوله رواه النسائي والحاكم ص٩٦ (١٥٣٧) ، ورواه أحمد في المسند ٤/ ٢٦٤ ، والحاكم في المستدرك «ومعه التلخيص» ١/ ٥٢٤ و ٥٢٥ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف علىٰ ثبوت لذة النظر إلىٰ وجه الله ، وعلىٰ ثبوت الشوق إلىٰ لقائه ، وعند الجهمية لا وجه له سبحانه ولا ينظر إليه ، فضلاً أن يحصل له لذة كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال : ويحك! هب أن له وجهاً ، أفتلتذ بالنظر إليه؟

وفي الصحيحين[1] عن أنس[2] ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : **«ثلاث من كن فيه وجد بهن[3] حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحب إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف في النار»** [4].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : **«يقول الله تعالىٰ : من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن**

---

(١) في البقية عدا س ، م : «وفي الصحيح».

(٢) في ط زيادة «بن مالك».

(٣) «بهن» ساقطة من م.

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١/ ٩ و ١٠ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ١/ ٦٦ (٤٣).

استعاذني لأعيذنه»[١].

وفي الصحيحين عنه أيضاً عن النبي ﷺ : «إذا أحب الله العبد دعا جبريل ، فقال : إني أحب فلاناً ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء ، فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض»[٢] ، وذكر في البغض مثل[٣] ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لأصحابه في كل صلاة ، وقال[٤] : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن[٥] أقرأ بها ، فقال النبي ﷺ : «أخبروه أن الله يحبه»[٦].

وفي جامع الترمذي من حديث أبي إدريس الخولاني[٧] عن أبي الدرداء ﷺ

---

(١) رواه البخاري وغيره وتقدم ص ٢١١.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ٨/ ١٩٥ ، ومسلم في كتاب البر والصلة ، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى العباد ٣/ ٢٠٣٠ (٢٦٣٧).

(٣) في البقية عدا س ، م ، ج «عكس».

(٤) في م «أنها».

(٥) «أن» ساقطة من غ.

(٦) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٨/ ١٦٤ و ١٦٥ ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة قل هو الله أحد ١/ ٥٥٧ (٨١٣).

(٧) هو عائذ الله بن عبدالله الخولاني ، ولد في حياة النبي ﷺ يوم حنين وسمع من كبار الصحابة ، كان عالم الشام بعد أبي الدرداء ، مات سنة ثمانين.

انظر : تقريب التهذيب ١/ ٣٩٠ ، وحلية الأولياء ٥/ ١٢٢ - ١٢٩.

عن النبي ﷺ أنه قال: «كان دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»(١).

وفيه أيضاً من حديث عبدالله بن يزيد الخطمي(٢): أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب»(٣).

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه سبحانه من عباده(٤)، وذكر ما يحبه

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الدعوات الباب (٧٣) ٥/ ٥٢٢ و ٥٢٣ رقم (٣٤٩٠) وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ٢/ ٤٣٣، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت: بل عبدالله هذا - يقصد ابن يزيد الدمشقي كما جاء في إسناد الحاكم - قال أحمد أحاديثه موضوعة.

(٢) هو عبدالله بن يزيد بن زيد بن حصين الأنصاري الخطمي، له ولأبيه صحبة، شهد بيعة الرضوان وهو صغير، وهو أمير الكوفة على عهد عبدالله بن الزبير وهو جد عدي بن ثابت أبو أمه. انظر: التاريخ الكبير ٥/ ١٢ و ١٣، الإصابة ٤/ ١٤٣، تقريب التهذيب ١/ ٤٦١ (٧٤٢)

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، الباب (٧٤) ٥/ ٥٢٣ (٣٤٩١) وقال: هذا حديث حسن غريب وأبو جعفر الخطمي اسمه عمير بن يزيد بن خماشة، والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير ص٩٠ (١٤٦٩).

(٤) في ط زيادة «المؤمنين».

من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم(١)، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤ و ١٤٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقوله في ضد(٢) ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧ و ١٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكم في السنة أحب الأعمال إلىٰ الله كذا [وكذا](٣)، وإن(٤) الله يحب كذا [وكذا](٥) كقوله: **«أحب الأعمال إلىٰ الله الصلاة علىٰ وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»**(٦) و **«أحب الأعمال إلىٰ الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد**

---

(١) «وأخلاقهم» ساقطة من أ، ب، غ.

(٢) «في ضد» ساقطة من أ، ب، غ.

(٣) الزيادة من الجميع عدا م، س

(٤) في أ، ب: «وأنه» وغ، ج: «وأنه يجب».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٦) رواه البخاري بلفظ مقارب في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها ١/ ١٣٤، وكذا مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١/ ٨٩ (٨٥).

في سبيل الله، ثم حج مبرور»[١] و**«أحب العمل إلىٰ الله: ما داوم عليه صاحبه»**[٢] و[٣] **«إن الله يحب أن يؤخذ برخصه»**[٤].

وأضعاف ذلك وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

تعلق المحبة بجميع مقامات الإيمان والإحسان

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مَقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير[٥]، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلىٰ الأعمال كنسبة الإخلاص إليها؛ بل هي حقيقة الإخلاص؛ بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة؛ بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن «الإلـه» هو الذي يألـه العباد حباً وذلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعةً.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب من قال أن الإيمان هو العمل ١/ ١٢، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١/ ٨٨ (٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ٧/ ١٨١، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل العمل الدائم من قيام الليل وغيره ١/ ٥٤٠ و ٥٤١ (٧٨٢).

(٣) في ط زيادة: «وقوله».

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٠٨، وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٨٤، والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ص١١٦ (١٨٩٤)، وصححه الألباني. انظر: إرواء الغليل ٣/ ٦-١٣.

(٥) في ط زيادة «إلى الله».

أله[١] : بمعنىٰ «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب ، أي تحبُّه وتَذِلُّ له.

وأصل «التأله» التعبد ، و «التعبد» [٢] آخر مراتب الحب ، يقال [٣] : عبّده الحب وتيمه : إذا ملكه وذلله لمحبوبه [٤].

فـ«المحبة» حقيقة العبودية ، وهل يمكن [٥] الإنابة بدون المحبة والرضىٰ ، أو الحمد [٦] والشكر ، أو الخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنهم إنما يتوكلون [٧] علىٰ المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة : هو زهد المحبين ، فإنهم يزهدون في محبة ما سواه [٨] لمحبتهم.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة : إنما هو حياء المحبين ، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم ، وأما ما لا يكون عن محبة : فذلك[٩] خوف محض.

---

(١) في ط : «وطاعة له بمعنى».

(٢) «التعبد» ساقطة من ق.

(٣) سقط من م : «يقال عبّده الحب».

(٤) في ج : «بمحبوبه».

(٥) في ط ، ج ، م : «تمكن».

(٦) في ق «الرجاء» بدلاً من «الحمد» ، وفي البقية عدا س ، م «الحمد والشكر والخوف والرجاء».

(٧) في البقية : «فإنه إنما يتوكل».

(٨) في ط : «ما سوى محبوبهم».

(٩) في م : «فذاك».

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلىٰ محبوبها ، وهو أعلىٰ أنواع الفقر ، فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلىٰ من يحبه ، لا سيما إذا وجده [١] في الحب ، ولم يجد منه عوضاً سواه ، وهذا [٢] حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك [٣] «الغنىٰ» هو غنىٰ القلب بحصول محبوبه ، وكذلك «الشوق» إلىٰ الله تعالىٰ ولقائه ، فإنه لبُّ المحبة وسرُّها ، كما سيأتي [٤].

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب : معطل لذلك كله ، وحجابه أكثف الحجب ، وقلبه أقسىٰ القلوب ، وأبعدها [٥] عن الله ، وهو منكر لخلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، فإن «الخلة» كمال المحبة ، وهو يتأول [٦] «الخليل» بالمحتاج ، فخليل الله عنده : هو المحتاج ، فكم - علىٰ قوله - لله من [٧] خليل بر وفاجر ؛ بل مؤمن وكافر ، إذ كثير من الكفار [٨] من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها ، ويرىٰ نفسه أحوج شيء إلىٰ ربه في كل حالة.

---

(١) في ط : «وحَّده».

(٢) «الواو» ساقطة من الجميع.

(٣) «الواو» ساقطة من غ ، أ.

(٤) هي المنزلة الثانية التي سيتحدث عنها بعد منزلة المحبة.

(٥) في ق : «وأبعد».

(٦) في م «يتناول».

(٧) في ط زيادة «من».

(٨) في ط زيادة : «الفجارو».

فلا بالخلة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام، والإيمان، والإحسان، ولهذا ضحىٰ خالد بن عبدالله القسري[١] بمقدم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم[٢]، وقال في يوم العيد الأكبر[٣]، عقيب خطبته «أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد ابن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسىٰ تكليماً، تعالىٰ الله عما يقول الجعد علواً كبيراً» ثم نزل فذبحه[٤]، فشكر المسلمون سعيه ـ رحمه الله ـ تعالىٰ وتقبل منه.

فصل

مراتب المحبة وأسماؤها

في مراتب المحبة وهي عشرة[٥].

---

(١) أبو الهيثم خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القسري ولد سنة ٦٦هـ، وهو يماني الأصل من أهل دمشق قتل في أيام الوليد بن يزيد سنة ١٣٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣/ ٨٨ و ٨٩، والأعلام ٢/ ٢٩٧.

(٢) هو الجعد بن درهم من الموالي، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، وقال بخلق القرآن، قتله خالد بن عبدالله القسري يوم النحر سنة ١١٨هـ.
انظر: البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠ و ٣٥١ و الأعلام ٢/ ١١٤.

(٣) في البقية عدا س، م «عبدالله».

(٤) رواه الآجري في كتابه الشريعة ٩٧، والبخاري في كتابه خلق أفعال العباد ١٢ رقم (٣) وقال محققه: وإسناده ضعيف.

(٥) سقط من ط: «وهي عشرة» وقد ذكر في كتابه روضة المحبين (٥٠) اسماً للمحبة وتكلم عنها، انظر ص٣١ - ٦٩.

أولها «العلاقة» : وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب. قال الشاعر :

أَعُلاقةً أمَّ الوليدِ بعد[١] ما أفنانُ رأسِكِ كالثَّغَام المخلِس[٢]

الثانية «الإرادة» : وهي ميل القلب إلىٰ محبوبه وطلبه له.

الثالثة «الصبابة» : وهي انصباب القلب إليه ، بحيث لا يملكه[٣] صاحبه ، كانصباب الماء في الحدور ، واسم[٤] الصفة منها «صب» والفعل «صبا[٥]» إليه يصبو صباً ، وصبابة ، فعاقبوا بين المضاعف والمعتل ، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف ، ويقال : صباً وصبوة ، وصبابة ، فالصبا : أصل الميل. والصبوة : فوقه ، والصبابة : الميل اللازم. وانصباب القلب بكليته.

الرابعة « الغرام » : وهو الحب اللازم للقلب ، الذي لا يفارقه ؛ بل يلازمه كملازمة الغريم [لغريمه][٦] ، ومنه سمي عذاب النار غراماً للزومه لأهله ،

---

(١) في ط ، ج : «بعيد ما» وانظر : الحب بمعنى العلاقة في مختار الصحاح ٤٥٠.

(٢) الثغام : نبت إذا يبس صار أبيض. والمخلس : المختلط رطبه بيابسه.

وهذا البيت قيل هو للمرار الأسدي وقيل للمرار العدوي. انظر : المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ١/ ٤٧٢ ، ولسان العرب ١٠/ ٢٦٢ ، وتحقيق مغني اللبيب ٤٠٩ ، وقد ذكره المؤلف في روضة المحبين ٣٩ ، والجواب الكافي ١٢٩ ، وبدائع الفوائد ١/ ١٥٢ و ٢/ ٣٢١.

(٣) في ب «لا يمنعه».

(٤) في البقية عدا س ، م ، ج «فأسم».

(٥) سقط من م إلى قوله «والصبابة الميل» وانظر الصبابة في مختار الصحاح ٣٥٤.

(٦) الزيادة من الجميع ، وانظر : الغرام في مختار الصحاح ٤٧٣.

وعدم مفارقته لهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة «الوداد»: وهو صفو المحبة، وخالصها ولبها، و «الودود» من أسماء الرب تعالىٰ. وفيه قولان:

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري - رحمه الله - في صحيحه «الودود الحبيب» (١).

والثاني: أنه الواد لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» (٢) إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويوده، فحظ التائب: نيل المغفرة منه والود (٣)، وعلىٰ القول الأول يكون سر الاقتران [- أي اقتران الودود بالغفور -] (٤) استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسمه (٥) «الغفور».

---

(١) لعله يقصد ما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «والودود الحبيب» وذلك في كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء ٨/ ١٧٥.

(٢) قال في روضة المحبين ٦٣ في اقتران الغفور بالودود (قوله: ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ [هود: ٩٠].

(٣) في ط: «وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سر الاقتران أي اقتران «الودود بالغفور» وفي البقية عدا س، م، ق «والودود».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م، ق، وانظر: معنى الود في مختار الصحاح ٧١٤.

(٥) في ط «باسم» وملخص القول كما ذكر في كتاب روضة المحبين:

١ - أن الودود بمعنى مودود وهو الحبيب كما فسره البخاري.

٢ - وقيل ودود بمعنى واد كغفور بمعنى غافر وشكور بمعنى شاكر.

السادسة «الشغف» : يقال : شغف بكذا ، فهو مشغوف به [١] ، وقد شغفه المحبوب ، أي وصل حبه إلىٰ شغاف قلبه ، كما قال النسوة عن امرأة العزيز : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف : ٣٠] ، وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه [٢] الحب المستولي علىٰ القلب ، بحيث يحجبه عن غيره ، قال الكلبي : حجب حبه قلبها [٣] حتىٰ لا تعقل سواه.

الثاني : أنه [٤] الحب الواصل إلىٰ داخل القلب ، قال صاحب هذا القول : المعنىٰ [٥] أحبته حتىٰ دخل حبه شغاف قلبها ، أي داخله.

الثالث : أنه الحب الواصل إلىٰ غشاء القلب. و «الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه وباشر القلب ، قال السدي : الشغاف جلدة رقيقة [٦] علىٰ القلب. يقول : دخله الحب حتىٰ أصاب القلب.

وقرأ بعض السلف[٧] : (شعفها) بالعين المهملة ، ومعناه : ذهب الحب لها

---

(١) «به» ساقطة من ج ، وانظر : الشغف في مختار الصحاح ٣٤٠.

(٢) «أنه» ساقطة من م ، وجميع ما سيذكره المؤلف هنا حول هذه الآية هو موجود في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦.

(٣) في أ ، غ ، ح «قلبه حبها» وهو خطأ.

(٤) «أنه» ساقطة من البقية عدا م ، س ، ج.

(٥) «المعنى» ساقطة من ج.

(٦) سقط من ج إلى قوله «جلدة رقيقة».

(٧) في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦ (وقرأ الشعبي والأعرج) وفي ق (وقرؤا عن).

كل مذهب ، وبلغ [بها] (١) أعلىٰ مراتبه ، ومنه : شعف الجبال ، لرؤوسها.

السابعة «العشق» : وهو الحب المفرط الذي يخاف علىٰ صاحبه منه ، وعليه تأول (٢) إبراهيم ، ومحمد بن عبدالوهاب : ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٨٦]. قال محمد : هو العشق.

ورفع إلىٰ ابن عباس (٣) - رضي الله عنهما - شاب وهو يعرفه (٤) قد صار كالخلال (٥). فقال ما به؟ قالوا : العشق ، فجعل ابن عباس - رضي الله عنهما - عامة دعائه [بعرفة] (٦) : الاستعاذة من العشق.

وفي اشتقاقه قولان :

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) ما ذكره المؤلف هنا موجود في تفسير البغوي ١/ ١٣٥٨ ولعله يقصد بإبراهيم إبراهيم النخعي وقد تقدمت ترجمته.

ومحمد بن عبدالوهاب هو أبو علي محمد بن عبدالوهاب الثقفي لقي أبا حفص وحمدون القصار ، وكان إماماً في أكثر علوم الشرع ، ثم عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية ، ومات سنة ٣٢٨هـ. انظر : طبقات الشعراني ١/ ٢٣٣ ، والرسالة القشيرية ٤٠٢.

(٣) في ط «ابن عباس شاب رضي الله عنهما يعرفه».

(٤) عرفة : حدها من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة ، وقيل سميت بعرفة لأن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف وقيل غير ذلك. انظر : معجم البلدان ٤/ ١٠٤ و١٠٥.

(٥) **الخلال** : هو العود الذي يتخلل به ، مختار الصحاح ١٨٧ ، وقد ذكر المؤلف هذا في كتابه الجواب الكافي ١٩٠ بلفظ : «قد نحل حتى عاد جلداً على عظم».

(٦) الزيادة من الجميع.

أحدهما : أنه من العشقة[1] ، وهي نبت أصفر يلتوي علىٰ الشجر ، فشبه به العاشق.

والثاني : أنه من الإفراط. وعلىٰ القولين : فلا يوصف به الرب تعالىٰ ، ولا[2] العبد في محبة ربه ، وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحب عن تمييزه ، كان في خفارة صدقه و محبته.

الثامنة «التتيم»[3] : وهو التعبد ، والتذلل ، يقال : تيمه الحب أي ذلله وعبَّده وتيم الله : عبد الله ، وبينه وبين «اليتم» - الذي هو الانفراد - تلاقي في الاشتقاق الأوسط[4]، وتناسب في المعنىٰ، فإن «المتيم» منفرد[5] بحبه وشجوه ، كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه ، وكل منهما مكسور ذليل ، هذا كسره يتم ، وهذا كسره تتيم.

التاسعة : «التعبد» : وهو فوق التَّتيم ، فإن العبد الذي[6] قد ملك المحبوب

---

(١) في ط زيادة «محركة» وانظر المصباح المنير ٤١٢.

(٢) «لا» ساقطة من غ ، أ ، ب ، ح.

(٣) انظر : لسان العرب ١٠/ ٧٥ ، والجواب الكافي ١٦٦.

(٤) الاشتقاق : نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً ومغايرتهما في الصيغة ، وقيل : هو الإتيان بألفاظ يجمعها أصل واحد مع زيادة أحدهما على الآخر في المعنى ، وقيل غير ذلك وما ذكره المؤلف يقصد به : أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب. انظر التعريفات ٤٩ ، والأشباه والنظائر ١/ ٦١.

(٥) في ط : «المنفرد».

(٦) في ط زيادة «هو» وانظر المصباح المنير ٣٨٩ ، والجواب الكافي ١٦٢.

رقة فلم يبق له شيء من[1] نفسه البتة ؛ بل [هو][2] كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً، وهذا هو حقيقة العبودية ، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم ﷺ هذه المرتبة : وصفه الله بها في أشرف مقاماته ، مقام الإسراء ، كقوله : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ١] ، ومقام الدعوة ، كقوله : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن : ١٩] ومقام التحدي كقوله : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة : ٢٣] وبذلك استحق التقديم علىٰ الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح ـ عليه السلام ـ لهم ، إذا طلبوا منه الشفاعة – بعد الأنبياء عليهم السلام– «اذهبوا إلىٰ محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[3].

فسمعت[4] شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول : فحصلت له تلك المرتبة. بتكميل عبوديته لله تعالىٰ ، وكمال[5] مغفرة الله له.

---

(١) في س «في».

(٢) الزيادة من ب.

(٣) هذا جزء من حديث الشفاعة رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ١/ ٢٠٠ و ٢٠١ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/ ١٨٠ – ١٨٦ رقم ١٩٣ و ١٩٤.

(٤) في ط «سمعتك».

(٥) «كمال» ساقطة من ق.

وحقيقة العبودية : الحب التام ، مع الذل التام والخضوع للمحبوب ، تقول العرب : «طريق معبد» أي قد ذللته الأقدام وسهلته. حقيقة العبودية

العاشرة : «مرتبة الخلة» : التي انفرد بها الخليلان[1] - إبراهيم ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم - كما صح عنه [أنه قال][2] : «إن الله اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً» وقال «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»[3] ، والحديثان في الصحيح ، وهما يبطلان قول من قال «الخلة» لإبراهيم ، و«المحبة» لمحمد ، فإبراهيم خليله ، ومحمد حبيبه.

و«الخلة» هي المحبة التي قد[4] تخللت روح المحب وقلبه ، حتىٰ لم يبق

---

(١) في الأصل و م «الخليل» والمثبت كما في البقية.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) في ق «الله» وقد رواهما مسلم في حديث واحد بلفظ مقارب دون قوله : «ولكن صاحبكم خليل الرحمن» في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/ ٣٧٧ و ٣٧٨ (٥٣٢) ، والترمذي ٥/ ٦٠٦ رقم (٣٦٥٥) بلفظ «ولو كنت متخذاً لاتخذت ابن أبي قحافة خليلاً وإن صاحبكم خليل الله» وقال هذا حديث حسن صحيح ، والبخاري في كتاب فضائل الأصحاب ، باب قول النبي ﷺ سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر بلفظ «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام ومودته» ٤/ ١٩٠ و ١٩١.

(٤) «قد» ساقطة من ط ، وانظر : الكلام عن الخلة في لسان العرب ١١/ ٢١٧ و ٢١٨ ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/ ٥٥٦ - ٥٥٨.

فيه[١] موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخلَّلتَ مسلكَ الرُّوحِ منِّي ... بِذا[٢] سمّىٰ الخليـل خليلا

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفلذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه، و«الخلة» منصب لا تقبل الشركة والقسمة، فغار الخليل علىٰ خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح الولد، ليخرج المزاحم من قلبه، فلما وطَّن نفسه علىٰ ذلك، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم، وقيل له: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤ و ١٠٥] أي عملت عمل المصدق، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ نجزي من بادر إلىٰ طاعاتنا بأن نُقِرَّ[٣] عينَه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته، فيتم نعمته عليه[٤]، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً.

---

(١) في م «منه».

(٢) في ط: «ولذا»، وانظر البيت في ديوان الصبابة ٢٢، بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥٥٧، وذكره المؤلف في روضة المحبين ٦٤.

(٣) في ط: «إلى طاعتنا فنقر» وفي أ، غ، ب «أن».

(٤) في ط «عليه نعم».

وهذه الدعوة إنما دعا الله[1] بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم[2] ، فما كل أحد يجيب داعيها ، ولا كل عين قريرة بها ، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين ، وسائر أهل اليمين في أطرافها.

فما كل عين بالحبيب قريرة ... ولا كل من نودي يجيب المناديا
ومن لم[3] يجب داعي[4] هداك فخَلِّه ... يجب كل من أضحىٰ إلىٰ الغي داعيا
وقل للعيون الرمد إياك أن ترىٰ ... سنا الشمس فاستغشىٰ ظلام اللياليا
وسامح نفوساً لم تهيأ[5] لحبهم ... ودعها وما اختارت ولا تك جافيا
وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة ... مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
ووالله لو أضحىٰ نصيبك وافراً ... رحمت عدواً حاسداً لك قاليا
ألم تر آثار القطيعة قد بدت ... علىٰ حاله فارحمه إن كنت رائيا
خفافيش[6] أغشاها النهار بضوئه ... ولائمها[7] قطع من الليل باديا

---

(١) في البقية عدا س ، م ، ج ، ق : «دعا إليها بها».

(٢) في غ : «معهم».

(٣) في البقية عدا ج ، س ، ق : «لا يجب».

(٤) في ج ، ق «هواك».

(٥) في البقية عدا س ، م «تهبها».

(٦) في غ «خفافيش» والمثبت كما في أ ، ب ، ق ، وفي البقية أعشاها.

والخفافيش : التي تطير بالليل ، والخفش صغر العين وضعف البصر خلقة ، والغشاء العطاء ومنه قوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ انظر : مختار الصحاح ص١٨٢ و ٤٧٥.

(٧) في ج : «ولا بها» وفي ب : «ولا زمها».

فجالـت وصـالت فيـه حتـىٰ إذا النـ ـهار بـدا استخفت وأعطـت تواريـا
فيامحنة الحسناء تهدي إلىٰ امرىء ضريـر وعنـين مـن الوجـد خاليـا
إذا ظلمـة الليـل انجلـت بـضيائها يعـود لعينيـه ظلامـاً كـما هيـا
فـضِنَّ بهـا إن كنـت تعـرف قـدرَها إلىٰ أن تـرىٰ كُفْـؤاً أتـاك موافيـا
فما مهرها شيء سوىٰ الروح أيُّها الـ ـجبانُ تـأخَّرْ لـست كُفْـؤاً مـساويا
فكن أبداً حيث استقلَّت(١) ركائبُ الـ ـمحبة في ظهـر العـزائم سـاريا
وأدلج ولا تخش الظـلام فإنـه سيكفيك وجه الحب في الليل هاديـاً
وسـقها بـذكراه مطايـاك إنـه سيكفي المطايا طيب ذكراه حادياً
وعدها بروح الوصل تعطيك سيرها فـما شئت واستبق(٢) العظام البواليا
وأقـدم فإمـا مُنيـة أو مَنيَّـة تريحك من عيش بـه لـست راضيا
فـما ثـمَّ إلا الوصـل أو تلـف(٣) بهـم وحـسبك فـوزاً ذاك إن كنـت واعيـا
أمـا سَئِمَتْ مـن عيشها نفسُ والـهٍ تبيتُ(٤) بنـار البعـد تلقـىٰ المكاويـا
أمـا موتـه فـيهم حيـاة وذلـة هـو العـز والتوفيـق مـا زال غاليـا
أما يستحي من يدَّعي الحبَّ باخِلاً بـما لحبيـب عنـه يـدعوه ذا ليـا
أمـا تلك دعوىٰ كـاذبٍ ليس حظُّه مـن الحـب إلا قولـه والأمانيـا

(١) في أ، ب، غ: «اتصلت» ومعنى استقل: أي مضى وارتحل، مختار الصحاح ٥٤٩.
(٢) في م: «واسبق»، وب: «والتبق».
(٣) في ط: «أو كلف».
(٤) في م: «قرنت».

أما أنفس العشاق قول حبيبة — بإجماع أهل الحب وما زال فاشيا
أما سمع العشاق قول حبيبة — لصب بها وافي من(١) الحب شاكيا
ولما شكوت(٢) الحب قالت كذبتني — فما لي(٣) أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتى يلصق القلب بالحشا — وتخرس حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى — سوى مقلة تبكي بها وتناجيا(٤)

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - .

«المَحَبَّةُ : تَعَلُّقُ القَلْبِ بَينَ الهِمَّةِ وَالأُنسِ» (٥).

يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنسه بالمحبوب، في حالتي بذله ومنعه ، وإفراده بذلك التعلق ، بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

(١) «من» ساقطة من أ ، غ. في م : «سلوت».

(٢) في م : «سلوت».

(٣) في الأصل ، م ، س : «ألست» والمثبت كما في البقية وهو كما في الرسالة القشيرية ٣٢٤.

(٤) ذكر القشيري في رسالته الثلاث الأبيات الأخيرة منها في رسالة من السري إلى الجنيد.
انظر : الرسالة القشيرية ٣٢٤ ، وقد ذكر المؤلف بعض هذه الأبيات في كتابه الفوائد ٧٧ ، وطريق الهجرتين ٤٦٥.

(٥) منازل السائرين ٨٨ ، وفيه «المحبة تعلق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع على الأفراد».

وإنما أشار إلىٰ أنها «بين الهمة والأنس» ، لأن الهمة[1] لما كانت هي نهاية شدة الطلب ، وكان المحب شديد الرغبة والطلب : كانت «الهمة» من مقومات حُبِّه ، وجملة صفاته[2] ، ولما كان الطلب بالهمة قد يعري[3] عن الأنس ، وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه ، وطمعه بالوصول إليه ، فمن هذين يتولد الأنس : وجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس ، فصارت المحبة قائمة بين الهمة[4] والأنس.

ويريد «بالبذل والمنع» أحد أمرين : إما بذل الروح والنفس لمحبوبه ، ومنعها عن غيره ، فيكون «البذل والمنع» صفة المحب ، وإما بذل الحبيب ومنعه ، فتتعلق همة المحب به في حالتي بذله ومنعه.

ويريد بالإفراد معنيين : إما إفراد المحبوب وتوحيده بذلك التعلق ، وإما فناؤه في محبته ، بحيث ينسىٰ نفسه وصفاته في ذكر محاسن محبوبه ، حتىٰ لا يبقىٰ إلا المحبوب وحده.

والمقصود : إفراد المحب لمحبوبه بالتوجُّه[5] والمحبة. [والله أعلم][6].

---

(١) في البقية عدا س ، م : «لأن المحبة».

(٢) في م : «صفاءه».

(٣) في م : «يقوى».

(٤) في أ : «المحبة».

(٥) في البقية عدا س ، م ، ج : «بالتوحيد».

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

فصل

قال : «وَالمحَبَّةُ : أَوَّلُ أَودِيَةِ الفَنَاءِ ، وَالعَقَبَةُ الَّتِي يَنحَدِرُ مِنهَا عَلَىٰ مَنَازِلِ المَحوِ ، وَهِيَ آخِرُ مَنزِلٍ[١] تَلتَقِي فِيهِ مُقَدّمَةُ العَامَّةِ ، وَسَاقَةُ الخَاصَّةِ».

إنما كانت «المحبة» أول أودية الفناء : لأنها تفني خواطر المحب عن التعلق بالغير، وأول ما يفنىٰ من المحب[٢]: خواطره المتعلقة بسوىٰ[٣] محبوبه ؛ لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلىٰ محبوبه انجذبت خواطره تبعاً [له][٤].

ويريد بمنازل المحو «مقاماته»[٥].

وأولها: محو الأفعال في فعل الحق تعالىٰ، فلا يرىٰ لنفسه ولا لغيره فعلاً.

والثاني : محو الصفات التي في فعل الحق تعالىٰ ، فيراها عارية أُعيرَها ، وهبة وُهِبَها ، ليستدل بها علىٰ بارئه وفاطره ، وعلىٰ وحدانيته وصفاته ، فيعلم بواسطة حياته : معنىٰ حياة ربه[٦] ، وبواسطة علمه وقدرته وإرادته ، وسمعه

---

(١) في المنازل ٨٨ : «تلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة».

(٢) في ق : «المحبوب».

(٣) في ط «بما سوى» ، أ ، ب ، غ «سوى».

(٤) الزيادة من ق.

(٥) المحو : قال في اللمع ٤٣١ : «المحو : ذهاب الشيء إذا لم يبق له أثر».

وقال في التعريفات ٢٥٨ : «المحو : فناء أفعاله في أفعال الحق».

(٦) في ق زيادة : «وقدرته» ولعلها غير مناسبة لذكره لها بعد ذلك.

وبصره ، وكلامه وغضبه ورضاه [١] : معنىٰ علم ربه ، وقدرته وإرادته ، وسمعه وبصره ، وكلامه ، وغضبه ورضاه ، ولولا هذه الصفات فيه لما عرفها من ربه.

وهذا أحد التأويلات في الأثر الإسرائيلي «اعرف نفسك تعرف ربك»[٢]. وهذه الصفات في الحقيقة : أثر الصفات الإلهية فيه ، فإنها أفعال الحق ، وأفعاله موجَبُ صفاته وأسمائه ، فإذن [٣] عاد الأمر كله إلىٰ أفعاله ، وعادت أفعاله إلىٰ صفاته.

ففي هذه المنزلة يمحو العبد شهود صفاته ووجودها الذي ليس بحقيقي ، [ويثبت] [٤] شهود صفات المعبود ووجودها الحقيقي ، فالله سبحانه منح عبده هذه الصفات ليعرفه بها ، ويستدل بها عليه ، فإن لم يفعلها[٥] عطل عليه طريق المعرفة والاستدلال بها ، فصارت بمنزلة العدم ، ولهذا يوصف الغافل عن الله بالصمم والبكم والعمي والموت ، وعدم العقل.

الثالث : محو الذات ، وهو شهود تفرد الحق تعالىٰ بالوجود أولاً وأبداً[٦] ،

---

(١) سقط من ج إلى قوله : «ولولا هذه الصفات».

(٢) في هامش بـ : «قف اعرف نفسك تعرف ربك». وانظر كلام المؤلف عنه في المدارج ١/ ٤٢٧.

(٣) في ق : «فإذا».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) في س ، ق : «يعقلها».

(٦) في أ : «أبداً وأزلاً».

وأنه الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، ووجود كل ما سواه قائم به ، وأثر صنعه فوجوده هو الوجود الواجب الحق ، الثابت لنفسه أزلاً وأبداً وأنه المتفرد بذلك.

وهذا «المحو» يصح باعتبارين :

أحدهما : اعتبار الوجود الذاتي ، ولا ريب في إثبات محوه بهذا الاعتبار ، إذ ليس مع الله موجود بذاته سواه ، وكل ما سواه فوجوده [1] بإيجاده سبحانه.

الاعتبار الثاني : المحو في المشهود [2] فلا يشهد فاعلاً غير الحق سبحانه [3] ولا صفات غير صفاته، ولا موجوداً سواه، لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره.

وأما محو ذلك من الوجود جملة : فهو محو الزنادقة [4] وطائفة الاتحادية ، وصاحب المنازل وكل ولي لله بريء منهم [5] حالا وعقيدة.

والمقصود : أن من عقبة المحبة ينحدر المحب علىٰ منازل المحو.

ولما كانت منازل المحو والفناء غاية عند صاحب المنازل جعل المحبة عقبة ينحدر منها إليها.

---

(١) في ط : «فموجود».

(٢) في ط : «المشهد» وفي غ ، ح ، ق : «المشهود».

(٣) في ق : «عن».

(٤) الزنادقة : تقدم التعريف بهم ص ٢٦٦٢ وكذلك الاتحادية نسبة لقولهم بالاتحاد وقد تقدم ص ٢٥٥٥ .

(٥) في ق : «يرجى منه».

وأما من جعل المحبة غاية : فمنازل المحو عنده أوديةٌ يصعد منها إلىٰ روح المحبة ، وليس بعد المحبة الصحيحة إلا منازل البقاء ، وأما الفناء والمحو : فعقاب[١] وأودية في طريقها عند هؤلاء. والله أعلم.

قوله : «وَهِيَ آخِرُ مَنزِلَةٍ تَلتَقِي فِيهَا مُقدّمَةُ العَامَّةِ وَسَاقَةُ الخَاصَّةِ»[٢].

هذا بناء علىٰ الأصل الذي ذكره ، وهو : أن المحبة[٣] ينحدر منها علىٰ أودية الفناء ، فهي أول أودية الفناء ، فمقدمة العامة : هم[٤] في آخر مقام المحبة ، وساقة الخاصة في أول منزلة الفناء[٥]. ومنزلة الفناء متصلة بآخر منزلة المحبة ، فالتقىٰ[٦] حينئذ مقدمة العامة بساقة الخاصة ، هذا شرح كلامه.

وعند الطائفة الأخرىٰ[٧] : الأمر بالعكس ، وهو أن مقدمة أرباب الفناء يلتقون بساقة أرباب المحبة ، فإنهم أمامهم في السير ، وهم أمام الركب دائماً ، وهذا بناء علىٰ أن أهل البقاء في المحبة أعلىٰ شأناً من أهل الفناء ، وهو الصواب. والله أعلم.

---

(١) في ط : «فعقبات». وبقية النسخ كما أثبت.

(٢) في المنازل ٨٨ «وهي آخر منزل تلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة».

(٣) في ج : «المنحة».

(٤) في غ : «وهي».

(٥) في البقية عدا س ، ح ، م «منزل الفناء» وبعدها سقط من ج ، «ومنزلة الفناء».

(٦) في ط : «فتلتقي».

(٧) لعله يقصد أهل الحق لقوله : «وهو الصواب».

فصل

قال : «وَمَا دُونَهَا : أَغرَاضٌ لِأَعوَاضٍ»(١).

يعنىٰ ما دون المحبة من المقامات : فهي (٢) أغراض من المخلوقين لأجل أعواض ينالونها ، وأما المحبون : فإنهم عبيد له (٣) والعبد ونفسه وعمله ومنافعه مِلْكٌ لسيده ، فكيف يعاوضه علىٰ ملكه؟ والأجير عند أخذ أجره (٤) ينصرف والعبد في الباب لا ينصرف ، فلا عبودية إلا عبودية أهل المحبة الخالصة (٥) ، أولئك هم الفائزون بشرف الدنيا والآخرة ، وأولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

فصل

قال : «وَالمحَبَّةُ هِيَ سِمَةُ الطَّائِفَةِ [وَعُنوانُ الطَّرِيقَةِ ، وَمَعقِدُ النِّسبَةِ».

يعني : سمة هذه الطائفة] (٦) المسافرين إلىٰ ربهم ، الذين ركبوا جناح السفر إليه ، ثم لم يفارقوه إلىٰ حين اللقاء ، وهم الذين قعدوا علىٰ الحقائق ، وقعد

---

(١) منازل السائرين ٨٩.

(٢) في أ ، غ ، ح «أعراض».

(٣) «له» ساقطة من الجميع.

(٤) في ط «الأجرة» وفي ب «أجرته».

(٥) في ج : «الخاصة» وبعدها في ط : «أولئك هم».

(٦) الزيادة من الجميع ، وقوله في منازل السائرين ٨٩.

من سواهم علىٰ الرسوم.

و «عُنوَانُ طَريقتِهم» أي دليلها ، فإن العنوان يدل علىٰ الكتاب ، والمحبة تدل علىٰ صدق الطالب ، وأنه من (١) أهل الطريق.

«وَمَعقِدُ النِّسبَةِ» (٢) أي النسبة التي بين الرب و [بين] (٣) العبد ، فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والألوهية (٤) من الرب ، وليس في العبد شيء من الألوهية (٥) ، ولا في الرب شيء من العبودية ، فالعبد عبد من كل وجه ، والرب تعالىٰ هو الإله الحق من كل وجه ، ومعقد نسبة العبودية هو المحبة ، فالعبودية معقودة بها ، بحيث متىٰ انحلت المحبة ، انحلت العبودية. [والله أعلم] (٦).

فصل

درجات المحبة الدرجة الأولى

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : مَحَبَّةٌ تَقطَعُ الوَسَاوِسَ ، وَتَلَذُّ الخِدمَةَ ، وَتُسَلِّي عَنِ المَصَائِبِ» (٧).

(١) «من» ساقطة من غ.

(٢) «أي النسبة» ساقطة من س.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط : «والربوبية».

(٥) في ط : «والربوبية».

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٧) منازل السائرين ٨٩.

قوله : «تَقطَعُ الوَسَاوِسَ» فإن الوساوس والمحبة متناقضتان [١] ، فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب علىٰ القلب ، والوساوس تقتضي غيبته عنه ، حتىٰ توسوس له نفسه بغيره ، فبين المحبة والوسواس [٢] تناقض شديد ، كما بين الذكر والغفلة ، فعزيمة المحبة : تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره ، وذلك سبب الوسواس [٣] ، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس [الغير] [٤] ، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه ، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض [٥] [عن الله تعالىٰ؟ ومن أين المحب والوسواس] [٦].

لا كان من لسواك فيه بقية فيها يقسم فكره ويوسوس [٧]

قوله : «وتَلَذُّ الخِدْمَة» أي المحب يلتذ بخدمة محبوبه ، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخلي في أثناء الخدمة ، وهذا معلوم بالمشاهدة.

قوله : «وَتُسَلِّي عَن المَصَائِب» فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسِّها مايجد غيره ، حي كأنه قد اكتسىٰ طبيعة ثانية

---

(١) في ط ، ج ، م : «متناقضان».

(٢) في البقية عدا س ، م «الوساوس».

(٣) في ط : «الوساوس».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) في ط : «ومن أين يجتمع الحب والوسواس».

(٧) ذكره المؤلف في كتابه الفوائد ٦٨ ، وطريق الهجرتين ٣٥٣ و ٤٣٩ ، وفي آخره : «يجد السبيل بها إليه العذل».

ليست بطبيعة[1] الخلق ؛ بل يقوىٰ سلطان المحبة ، حتىٰ يلتذ [المحب] [2] بكثير من المصائب [التي يصيبه بها حبيبه] [3] أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته ، والذوق والوجود شاهد بذلك. [والله أعلم] [4].

فصل

منبت المحبة وثباتها ونماؤها

قال : «وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَنبُتُ مِن مُطَالَعَةِ المِنَّةِ ، وَتَثبُتُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ ، وَتَنمُو عَلَىٰ الإِجَابَةِ بِالفَاقَةِ» [5].

قوله : «تَنبُتُ مِن مُطَالَعَةِ [المِنَّةِ]» [6] أي تنشأ من مطالعة العبد[7] منة الله عليه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فبقدر مطالعته[8] ذلك تكون قوة محبته[9] ، فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، وليس للعبد قط إحسان إلا من الله ، ولا إساءة إلا من الشيطان.

---

(١) في البقية «طبيعة».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) منازل السائرين ٨٩ وفيه «للفاقة».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) «العبد» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٨) «مطالعته» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٩) في ط «المحبة».

ومن أعظم مطالعة منَّة الله علىٰ عبده منَّة [1] تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه، وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد، فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته: أشرقت له ذاته [2]، فرأىٰ فيه نفسه، وما أُهِّلت له من الكمالات والمحاسن، فعَلَتْ به همتُه، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه [3] وطبعه؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، فرقيت [الروح] [4] حينئذ بين الهيبة والأنس إلىٰ الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيثُ شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّل
كم منزلٍ في الأرض يألَفُــه الفتى وحنيـــنُه أبـــداً لأوَّل مـــنزِل [5]

وهذا النور كالشمس في قلوب المقربين السابقين [6]، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين [7]، فكما بين الزهرة والسهىٰ.

---

(١) «منه» ساقطة من الجميع عدا، س، م، ق.

(٢) «له» ساقطة من الحميع عدا س، م، ق، ج.

(٣) «نفسه» ساقطة من الجميع عدا س، م، ق، ط.

(٤) في غ «فترقت» والزيادة من الجميع.

(٥) هما لأبي تمام. انظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٤/ ٢٥٣.

(٦) «السابقين» ساقطة من أ، ب، غ، ح.

(٧) في ط زيادة: «وتفاوتهم فيه كتفاوت» وفي س: «فكم وفي هامش ح: «أي التفاوت الذي بين أنوار الإيمان في قلوب المؤمنين كالتفاوت بين نور الزهرة والسهى، وهما نجمان معروفان، والسهى لا يراه إلا حاد البصر لخفائه».

قوله [١] : «وَتَثْبُتُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ» أي ثباتها بمتابعة [٢] الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم : أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا [٣] يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن في أن تحب الله ؛ بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك [الله] [٤] إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبرا، وأطعْتَه أمراً، وأحببته دعوة، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق [٥] بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك [٦] فلا تتعب [٧]، [وارجع من حيث شئت فالتمس نوراً] فلست علىٰ شيء.

وتأمل قوله : ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] أي الشأن في أن الله يحبكم، لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب.

قوله : «وَتَنمُو عَلَىٰ الإِجَابَةِ بِالفَاقَةِ» [٨] الإجابة بالفاقة : أن يجيب الداعي

---

(١) «قوله» ساقطة من ق.

(٢) في ط زيادة «إنما يكون» وبعدها في غ «باتباع».

(٣) في م «فلا».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س.

(٥) «الخلق» ساقطة من ق.

(٦) في م : «فإن لم تكن كذلك».

(٧) في الجميع فلا «تتعن» ثم الزيادة من الجميع.

(٨) منازل السائرين ٨٩، وفيه «للفاقة».

بوفور[1] الأعمال ، وهو خال منها ، كأنه لم يعملها ؛ بل يجيب دعوته بمجرد الإفلاس والفقر التام، فإن طريقة الفقر والفاقة: تأبىٰ أن يكون لصاحبها عمل ، أو حال أو مقام ، وإنما يدخل علىٰ ربه بالإفلاس المحض ، والفاقة المجردة ، ولا ريب أن المحبة تنمو علىٰ هذا المشهد ، وهذه الإجابة ، وما أعزه من مقام [وأعلاه من مشهد][2] وما أنفعه للعبد! وما أجلبه للمحبة! والله المستعان[3].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : مَحَبَّةٌ تَبعَثُ عَلَىٰ إِيثَارِ الحَقِّ عَلَىٰ غَيرِهِ ، وَتُلهِجُ اللِّسَانَ بِذكرِه ، وَتُعَلِّقُ القَلبَ بِشُهُودِهِ ، وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَظهَرُ مِنْ مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ ، وِالنَّظَرِ إِلَىٰ الآيَاتِ ، وَالارتِيَاضِ بِالمقَامَاتِ»[4].

هذه الدرجة الثانية أعلىٰ مما[5] قبلها ، باعتبار سببها وغايتها ، فإن سبب الأولىٰ : مطالعة الإحسان والمنَّة ، وسبب هذه : مطالعة الصفات[6] ، وشهود معاني آياته المسموعة ، والنظر إلىٰ آياته المشهودة ، وحصول الملكة في مقامات السلوك ، وهو الارتياض بالمقامات ، وكذلك[7] غايتها أعلىٰ من غاية

---

(١) في البقية عدا س ، ج : «بموفور».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) هنا نهاية النسخة س.

(٤) منازل السائرين ٨٩ ، وفيه : «في الآيات».

(٥) في م : «من التي».

(٦) في أ ، ب زيادة : «والنظر إلى الآيات والارتياض» وعدمها أولى لحصول التكرار.

(٧) في البقية عدا م ، ق : «ولذلك» وفي ط بعدها زيادة «كانت».

ما قبلها.

فقوله : «تَبعَثُ عَلَىٰ إِيثَارِ الحَقِّ عَلَىٰ غَيرِه» أي لكمالها وقوتها [١] تقتضي من المحب [٢] أن يترك لأجل الحق ما سواه ، فيؤثره علىٰ غيره ، ولا يؤثر غيره عليه وتجعل اللسان لهجاً بذكره ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

«وَتُعَلِّقُ القَلبَ بِشُهُودِهِ» لفرط استيلائه علىٰ القلب ، وتعلقه به ، حتىٰ كأنه لا يشاهد غيره.

وقوله : «وَهِيَ محَبَّةٌ تَظهَرُ مِن مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ» يعني : إثباتها أولاً [٣]. ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل[٤] عن نصوصها ثالثاً ، ونفي التمثيل[٥] والتكييف[٦] عن معانيها رابعاً ، فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة علىٰ

---

(١) في ط زيادة «فإنها».

(٢) في ق : «المحبة».

(٣) سقط من ق إلى قوله «ثانياً».

(٤) التحريف : هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره ، وهو نوعان تحريف لفظه وتحريف معناه. الصواعق المرسلة ١/ ٢١٥.

(٥) التمثيل : هو المساواة بين شيئين لمعنى مشترك بينهما.

وقد يطلق التمثيل ويراد به التشبيه ، وهو قسمان : أحدهما : تشبيه المخلوق بالخالق ، والثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق.

انظر : الفرق بين الفرق ص١٧٠-١٧٤ ، والملل والنحل ١/ ١٠٣ - ١٧٣ ، ومختار الصحاح ٦١٤ ، والتعريفات ٨٥ و ٨٦ و ٩٥.

(٦) التكييف : هو حكاية كيفية الصفة ويقصد به التأويل الباطل. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : ومراد

المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة ، وكلما أكثر قلبه من مطالعتها ، ومعرفة معانيها : ازدادت محبته للموصوف بها ، ولذلك كان [1] الجهمية - قطاع طريق المحبة - بين المحبين وبينهم السيف الأحمر.

وقوله : «وَالنَّظَرِ إِلَىٰ الآيَاتِ» أي نظر الفكر والاعتبار إلىٰ آياته المشهودة ، وفي آياته المسموعة ، وكل منهما[2] داع قوي إلىٰ محبته ؛ لأنها أدلة علىٰ صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وتوحيد ربوبيته وإلهيته ، وعلىٰ حكمته وبره ، وإحسانه ولطفه ، وجوده وكرمه ، وسعة رحمته ، وسبوغ نعمه [3] ، فإدامة النظر فيها داع - لا محالة - إلىٰ محبته ، وكذلك الارتياض بالمقامات ، فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات [4] الإسلام والإيمان والإحسان : كانت محبته أقوىٰ ؛ لأن محبة الله له [5] أتم ، وإذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبته.

السلف بقولهم بلا كيف هو نفي التأويل ، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل ، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة. اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٢٢ ، وانظر : فتح رب البرية بتلخيص الحموية ٨-١١ والمصباح المنير ٥٤٦.

(١) في البقية «كانت» وفي ح : «وبذلك كانت».

(٢) وفي م : «منها».

(٣) في ط «نعمته». وسبوغ النعمة : أي كاملة وافية واسعة. انظر : مختار الصحاح ٢٨٤.

(٤) في ق : «مقام».

(٥) «له» ساقطة من ج ، م.

فصـل

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : محَبَّةٌ خَاطِفَةٌ ، تَقطَعُ العِبَارَةَ ، وَتَدفَعُ الإِشَارَةَ ، وَلاَ تَنتهِي بِالنُّعُوتِ»(١).

يعني : أنها تخطف قلوب المحبين ، لما يبدو لهم من جمال (٢) محبوبهم ، ويشير الشيخ - رحمه الله - بذلك إلىٰ الفناء في المحبة والشهود (٣) ، وإن ا العبارة تنقطع دون حقيقة تلك المحبة ، ولا تبلغها ، ولا تصل (٤) إليها الإشارة ، فإنها فوق العبارة والإشارة.

وحقيقتها عندهم : فناء الحدوث في القدم ، واضمحلال الرسوم في نور الحقيقة التي تظهر لقلوب المحبين، فتملك(٥) عليها العبارة والإشارة والصفة(٦) فلا يقدر المحب أن يعبر عما يجده ؛ لأن واردها قد خطف (٧) فهمه ، والعبارة

---

(١) منازل السائرين ص٨٩ و ٩٠ ، وفيه : «وتدقق الإشارة» وفي هامش ق هذا التعليق : «أن الناظر إذا نظر إلى المحبة الصادق الذي قد كملت شروط المحبة فيه خطفته المحبة وجذبه الله من حاله... الله به ذلك فاشتغل أن يرى المحبَّ أحدٌ إلا مال إليه بقلبه وقالبه والله أعلم».

(٢) في ج : «كمال».

(٣) في ب : «المشهود».

(٤) في م : «ولا تطل».

(٥) في م : «فيمتلك».

(٦) في غ : «يصفه»

(٧) في ب : «يتخطف».

تابعة للفهم ، فلا يقدر المحب أن يشير إليه أيضاً (١) إشارة تامة.

و «العبارة» عندهم : تحت «الإشارة» وأبعد منها ، ولذلك (٢) جعل حظَّها القطع ، وحظَّ الإشارة الدفع (٣) ، فإن مقام المحبة يقبل العبارة ، وهذه الدرجة الثالثة [لا تقبل] (٤) إشارة ما ، ولا تقبل عبارة.

وعندهم (٥) : إنما تمتنع العبارة والإشارة في مقام التوحيد ، حيث لا يبقىٰ للمحبة (٦) رسم ، ولا اسم ، ولا إشارة ، وهو الغاية عندهم كما سيأتي (٧).

والصواب : أن توحيد المحبة أكمل من هذا التوحيد الذي يشيرون إليه ، وأعلىٰ مقاماً ، وأجل مشهداً ، وهو مقام الرسل والأنبياء ، وخواصّ المقربين.

وأما توحيد الفناء ، فدونه بكثير ، وليس ذلك من مقامات الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، فإن توحيدَهم بقاءٌ ومحبةٌ ، لا توحيد فناء وغيبة ، وسكر (٨) واصطلام.

---

(١) «أيضاً» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) في ج : «وكذلك».

(٣) في م : «الرفع».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

(٥) في غ : «أن تمنع» ، م «تنفع».

(٦) في ح : «للمحب» وبعدها في م : «راسم».

(٧) أي بعد هذا الفصل.

(٨) السكر : قال الجرجاني : غفلة بغلبة السرور على العقل بمباشرة ما يوجبها من الأكل

ولما كان المحب عند أرباب الفناء لم يخلص إلىٰ مقام توحيد الفناء بالكلية؛ بل رسوم المحبة معه بعد ، جعلوا «المحبة» هي العقبة التي ينحدر منها إلىٰ أودية(١) الفناء كما تقدم.

والصواب الذي لاريب فيه ، عند أرباب التحقيق والبصائر :أن لسان «المحبة» أتم ، ومقامها أكمل ، وحالها أشرف ، وصاحبها من أهل الصحو بعد السكر ، والتمكين (٢) بعد التلوين (٣) ، والبقاء بعد الفناء ، ولسانه نائب عن كل لسان ، وبيانه واف بكل ذوق (٤) ، ومقامه أعلىٰ من كل مقام ، فهو أمير علىٰ

والشرب وعند الصوفية : هو غيبة بوارد قوي ، وهو يعطي الطرب والالتذاذ ، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها. التعريفات ١٥٩وقيل: هو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، التعرف لمذهب أهل التصوف ١٣٨.

والاصطلام : قال الكاشاني : هو الوله الغالب على القلب وهو قريب من الهيمان. معجم اصطلاحات الصوفية ٥٥.

وقيل : هو غلبة ترد على العقول فيستلبها بقوة سلطانه وقهره. اللمع ٤٥٠ ، وهو نوع من أنواع الفناء. انظر : زيادة في ذلك مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٣٧ - ٣٤٣ و ٥٩٣-٥٩٦.

(١) في ح «وادي» وانظر كلامه الذي أشار إليه في الفصل السادس قبل هذا الفصل.

(٢) التمكين : وهي منزلة من المنازل وسيأتي حديث المؤلف عنها وهي عندهم : البقاء بعد الفناء. انظر : المدارج ٣/ ٢١٥ و ٢١٦.

(٣) التلوين : قال في التعريفات ٩٥ ، وهو مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة. وقال الطوسي : معنى التلوين معنى التغيير ومعناه تلون العبد في أحواله. اللمع ٤٤٣ ، وانظر: معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٤ و ١٧٥.

(٤) في م : «دون» والذوق : يقصدون به نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون

[كل] (١) من دونه من أرباب المقامات ؛ لأن مقامه أمير علىٰ المقامات كلها.

أمير أمين(٢) عليه النـدىٰ   جـواد بخيل بأن لا يجودا

وأما كون نعوت المحبة لا تتناهىٰ : فلأن لها في كل مقام نسبة وتعلقاً به ، وهي روح كل مقام ، والحاملة له ، وأقدام السالكين إنما تتحرك بها ، فلها تعلق بكل(٣) قدم ، وحال ومقـام ، فلا تتناهـىٰ نعوتها ألبتة. [والله أعلم] (٤).

فصـــل

قوله : «**وَهَذِهِ المحَبَّةُ : هِيَ قُطْبُ هَذَا الشَّأْنِ ، وَمَا دُونَهَا محَاب ، نَادَتْ عَلَيهَا الأَلسُنُ ، وَادَّعتْهَا الخَليقَةُ ، وَأَوجَبَتْهَا العُقُولُ**» (٥).

به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره. التعريفات ١٤٣.

وقال الكاشاني : هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي. معجم اصطلاحات الصوفية ١٨١.

وقال الطوسي : الذوق ابتداء الشرب ، وعرف الشرب بأنه تلقي الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عليها من الكرامات وتنعمها بذلك. اللمع ٤٤٩.

(١) في البقية عدا م ، ج : «أمين» والزيادة من الجميع عدا م.

(٢) في ط : «أمين أمين».

(٣) «فلها تعلق بكل» ساقطة من م ، أ ، غ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) منازل السائرين ٩٠.

يريد : أن مدار شأن(١) السالكين المسافرين إلىٰ الله : علىٰ هذه المحبة الثالثة.

وإنما كان [ذلك] (٢) كذلك لخلوصها من الشوائب والعلل والأغراض ، وصاحبها مراد ، ومجذوب ومطلوب ، وما دونها من المحاب : فصاحبها باق مع إرادته من محبوبه ، أما محبة الإحسان والأفعال : فظاهر.

وأما محبة الصفات : فصاحبها مع لذة روحه ونعيم قلبه بمطالعات الصفات ، فإن لذة الأرواح والعقول لامحالة في مطالعة صفات الكمال ، ونعوت الجمال(٣).

وصاحب هذه المحبة الثالثة : قد ارتقىٰ عن هاتين الدرجتين ، وأخذ منه ، وغيب عنه ، وهذا مبني علىٰ أصله في كون الفناء غاية ، وقد عرفته.

وقوله : «وَنَادَت عَلَيهَا [الأَلْسُنُ]» أي وصفتها الألسن ، فأكثرت صفاتها وتمكنت من التعبير عنها.

«وَ ادَّعتْهَا](٤) الخَلِيقَةُ» بخلاف الدرجة الثالثة ، فإنه لا وصول لأحد إليها إلا بالحق تعالىٰ ، فهي غير كسبية ، ولا تنال بسبب ، فلا يمكن فيها الدعوىٰ ، فإن

---

(١) في ق بدل «مدار شأن» «أرشاد».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م ، ج ، وبعدها «كذلك» ساقطة من ق ، ح.

(٣) في ب : «الجلال».

(٤) الزيادة من الجميع.

شأنها أجلُّ من ذلك.

وقوله[١] : «وَأَوجَبتْهَا العُقُولُ» يريد : أن العقل يحكم بوجوبها ، وهو كما قال ، فإن العقول تحكم بوجوب تقديم[٢] محبة الله علىٰ محبة النفس والأهل والمال والولد ، وكل ما سواه ، وكل من لم يحكم عقله بهذا ، فلا تعبأ بعقله ، فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار[٣] ، والنظر[٤] يدعو[٥] إلىٰ محبته سبحانه ؛ بل إلىٰ توحيده في المحبة ، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول [كما قيل][٦] :

هب الرسلَ لم تأت من عنده ... ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس الواجب المستحق ... محبته في اللقا والمغيب
فمن لم يكن عقلُه آمراً ... بذا مَا لَهُ في الحِجَىٰ من نصيب
وإن العقولَ لتدعو إلىٰ ... محبة فَاطِرِها من قريب

---

(١) في البقية عدا م ، ج : «بدون الواو».

(٢) «تقديم» ساقطة من م.

(٣) الاعتبار : هو رد الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه ومنه سمي الأصل الذي ترد إليه النظائر عبره. كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٢١٥ ، وانظر التعريفات ٥٣.

(٤) النظر : هو الفكر الذي يطلب به علم أو غلبة ظن ، وهو قسمان صحيح يؤدي إلى المطلوب وفاسد يقابله. انظر : المواقف في علم الكلام ص٢١-٢٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٢٠٠ - ٢٠٧.

(٥) في ط زيادة «كلها».

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

أليـــست [١] عـــلىٰ ذاك مجبولـــةٌ ومفطـــورة لا بكـــسب غريـــب
ألـــيس الجـــمالُ حبيـــبَ القلـــوب لـــذات الجـــمال وذات [٢] القلـــوب
ألـيـس جميلاً يحـب الجمـــال؟ تعالىٰ إلـه الـــورىٰ عن نـسيب
أمـــا بعـــد ذلـك إحـسانـه بـــداع إليـــه لقلـــب المنيب
ألـــيس إذا كمـــلا أوجبـــا كـــمال المحبـــة للمـــستجيب
فمـــن ذا يـــشابه أوصـــافه تعـالىٰ إلـه الـورىٰ عـن ضريـب
ومـــن [٣] ذا يكـــافئ إحـــسانه فيألهـــه قلـــب عبـــد منيـــب
وهـــذا دليـــل عـــلىٰ أنـــه إلىٰ كـل ذي الخلـق أولىٰ حبيـب
فيـــا منكـــراً ذاك والله أنـت عـين الطريـد وعـين الحريـب
ويـــا مـــن [٤] يحـــب ســـواه كمثل محبتـه أنـت عبـد الـصليب
ويـــا مـــن يوحـــد محبوبـــه ويرضـــيه في مـــشهد أو مغيـــب
ولـــو ســـخط الخلـــق في حبـــه [٥] لقـــال هوانـــاً ولـــو بالنـــسيب
حظيـــت وخـــابوا فـــلا تبتـــئس بكيـد العـدو وهجـر القريـب [٦]

---

(١) في ح، ج، ق: «أليس».

(٢) في غ: «ذوات».

(٣) في ج، ق: «وذا من».

(٤) في البقية عدا م، ط: «فيا من».

(٥) في ط: «وجهه».

(٦) في البقية عدا م: «الرقيب».

فصل

[منزلة الغيرة]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة: «الغيرة». منزلة الغيرة

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1] [الأعراف: ٣٣].

وفي الصحيح عن أبي الأحوص[2] عن عبدالله بن مسعود[3] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغير من الله، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه، وما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»[4].

---

(١) سقط من ق إلى قوله وما بطن.

(٢) أبو الأحوص عوف بن مالك بن نظلة الجُشَمِي مشهور بكنيته سمع علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود، وروى عنه أبو إسحاق وعطاء بن السائب، قتل في ولاية الحجاج على العراق.

انظر: التاريخ الكبير ٧/ ٥٦ و ٥٧، وتقريب التهذيب ٢/ ٩٠، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٩٠ و ٢٩١، وطبقات ابن سعد ٦/ ١٨١ و ١٨٢.

(٣) أبو عبدالرحمن هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي صحابي جليل مات سنة ٣٢هـ، انظر: الجرح والتعديل ٥/ ١٤٩، تقريب التهذيب ١/ ٤٥٠، الإصابة ٤/ ١٢٩.

(٤) رواه مسلم بلفظ مقارب في كتاب التوبة، باب غيرة الله وتحريم الفواحش ٣/ ٢١١٣ و ٢١١٤ (٢٧٦٠) وروى البخاري بعضه في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى:

وفي الصحيح أيضاً، من حديث أبي سلمة [١]، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وَغَيرة الله: أن يأتي العبد ما حرم الله» [٢].

وفي الصحيح أيضاً: «أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني» [٣].

ومما يدخل في الغيرة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال السري لأصحابه: أتدرون [٤] ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد

﴿ويحذركم الله نفسه﴾ وقوله جل ذكره: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ٨/ ١٧١، وانظر: فتح الباري ١٣/ ٢٨٣، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/ ١٢٠٣ (٧١٦٥).

(١) هو الصحابي عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي من السابقين الأولين إلى الإسلام أسلم بعد عشرة أنفس وكان أخاً للنبي ﷺ من الرضاعة مشهور بكنيته أكثر من اسمه. توفي ـ رضي الله عنه ـ في السنة الرابعة من الهجرة. انظر: الإصابة ٤/ ٩٥، والبداية والنهاية ٤/ ٩٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة - باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ٣/ ٢١١٤ (٢٧٦١)، والبخاري في كتاب النكاح باب الغيرة بلفظ: «إن الله يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله» ٦/ ١٥٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود - باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله ٨/ ٣١، ومسلم في كتاب اللعان ٢/ ١١٣٦ (١٤٩٩).

(٤) المثبت كما في م و ط والرسالة القشيرية والبقية «تدرون».

أغير من الله. إن الله تعالىٰ [1] لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه ، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون ، غيرة عليه أن ينال من ليس أهلاً له.

و «الغيرة» منزلة شريفة [2] عظيمة جداً. جليلة المقدار. ولكن الصوفية المتأخرين منهم من قلب موضوعها [3]. وذهب بها مذهباً آخر باطلاً. سماه «غيرة» فوضعها في غير موضعها. ولُبِّس عليه أعظم تلبيس. كما ستراه.

الغيرة وأنواعها

«والغيرة» نوعان : غيرة من الشيء. وغيرة علىٰ الشيء.

والغيرة من الشيء : كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

والغيرة علىٰ الشيء : هي شدة حرصك علىٰ المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به.

و «الغيرة» أيضاً نوعان : غيرة العبد من نفسه علىٰ نفسه لنفسه[4] ، كغيرته من نفسه علىٰ قلبه[5]، ومن تفرقته علىٰ جمعيته ، ومن إعراضه علىٰ إقباله ، ومن

---

(١) «إن الله تعالى» ساقطة من م. وفي الرسالة القشيرية : هذا حجاب الغيرة يعني أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين. ٥٥.

(٢) في أ : «عظيمة شريفة».

(٣) في غ ، أ : «موضعها».

(٤) «لنفسه» ساقطة من الجميع عدا ج.

(٥) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ٣/ ٥٠٧ : الجمع في اللغة الضم والاجتماع الانضمام. والتفريق : ضده. وأما في اصطلاح القوم : فهو شخوص البصيرة إلى من صدرت

صيانته علىٰ ابتذاله[1] ، ومن صفاته المذمومة علىٰ صفاته الممدوحة. وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلىٰ قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة.

ثم «الغيرة» أيضاً نوعان : غيرة الحق تعالىٰ علىٰ عبده[2] ، وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غيرة الرب علىٰ عبده : فهي أن لا يجعله للخلق[3] [عبداً] ؛ بل يتخذه لنفسه عبداً. فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ؛ بل يفرده لنفسه. ويضن به[4] علىٰ غيرة. وهذه أعلىٰ الغيرتين.

عنه التفرقات كلها؟. وهو ثلاثة أنواع جمع وجود ، وجمع شهود ، وجمع قصود ، ومنها الصحيح والفاسد ، وكذلك ينقسم الفرق إلى صحيح وفاسد - أعني إلى مطلوب في السلوك وقاطع عن السلوك - وهو ثلاثة أنواع : فرق طبيعي وفرق إسلامي وفرق إيماني.

وقال في موضع آخر : المراد بالجمع : شهود الأفعال منسوبة إلى موجدها الحق تعالى والتفرقة : تفرق القلب في أودية الإرادات وشعابها. المدارج ٢/ ١٤٣.

وقال الكاشاني : الجمع شهود الحق بلا خلق. وقال أيضاً عن الجمعية والتفرقة : الجمعية : اجتماع الهمم في التوجه إلى الله ، والاشتغال به عما سواه. وبإزائها التفرقة : وهي توزع الخاطر للاشتغال بالخلق. معجم اصطلاحات الصوفية ٦٧.

وانظر : التعريفات ٩٢ و ١١٠ ، واللمع ٤١٦ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٤٢ و١٤٣.

(١) سقط من ط قوله : «ومن صيانته على ابتذاله».

(٢) سقط من م إلى قوله : «فهي أن لا يجعله».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج ، ق.

(٤) في ج : «فيه».

وغيرة العبد لربه ، نوعان أيضاً : غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره. فالتي من نفسه : أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأحواله ولا أوقاته(١) وأنفاسه لغير ربه ؛ والتي من غيره : أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

وأما الغيرة علىٰ الله : فأعظم الجهل وأبطل الباطل. وصاحبها من أعظم الناس جهلاً. وربما أدت بصاحبها إلىٰ معاداته لربه (٢) وهو لا يشعر. وإلىٰ انسلاخه من أصل الدين والإسلام. وربما كان صاحبها شراً علىٰ السالكين إلىٰ الله من قطاع الطريق ؛ بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة. وأخرج قَطْع الطريق في قالب الغيرة. وأين هذا من الغيرة لله؟ التي توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله [لله] (٣) فالعارف يغار لله. والجاهل يغار علىٰ الله. فلا يقال : أنا أغار علىٰ الله. ولكن أنا (٤) أغار لله.

وغيرة العبد من نفسه: أهم من غيرته من غيره. فإنك إذا غِرْتَ من نفسك صَحَّت لك(٥) غيرتك لله من غيرك، وإذا غِرْت له من غيرك، ولم تغر من نفسك: فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد (٦). فتأملها وحقق النظر فيها.

---

(١) في البقية : «وأوقاته» وقبلها في ق : «وأفعاله» بدل «أحواله».

(٢) «لربه» ساقطة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «أنا» ساقطة من م.

(٥) في غ : «بك».

(٦) «ولا بد» ساقطة من م.

فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات في هذا المقام، الذي زلت فيه أقدام كثير من السالكين. والله الهادي الموفق المثبت(١).

كما حكىٰ عن واحد(٢)، أنه قال: لا أستريح حتىٰ لا أرىٰ (٣) من يذكر الله. يعني غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم.

والعجب أن هذا يعد من مناقبه و محاسنه.

وغاية هذا: أن يعذر فيه لكونه مغلوباً علىٰ عقله. وهو من أقبح الشطحات. وذكر الله علىٰ الغفلة وعلىٰ كل حال: خير من نسيانه بالكلية. والألسن متىٰ تركت ذكر الله - الذي هو محبوبه (٤) - اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه. فأي(٥) راحة للعارف في هذا؟ وهل هو إلا أشق شيء(٦) عليه، وأكرهه(٧) إليه؟

وقول آخر: لا أحب أن أرىٰ الله ولا أنظر إليه. فقيل له: كيف؟ قال: غيرة عليه من نظر [مثلي] (٨) إليه.

---

(١) في م: «المسبب».

(٢) في ط زيادة: «من مشهوري الصوفية» ويقصد به دلف الشبلي. انظر: الرسالة القشيرية ٢٥٦.

(٣) في م: «أحداً».

(٤) في ط: «محبوبها».

(٥) في غ، أ، ح زيادة: «شيء» وهي غير مناسبة هنا.

(٦) «شيء» ساقطة من الجميع عدا م، ج، ق.

(٧) في ط: «أكره» و م: «وأكرهه عليه».

(٨) الزيادة من الجميع «وإليه» ساقطة من ط، وانظر هذا في الرسالة القشيرية ص٢٥٦ و ٢٥٨.

فانظر إلىٰ هذه الغيرة القبيحة ، الدالة علىٰ جهل صاحبها ، مع أنه في خفارة ذلِّه وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه.

ومن هذا ما يحكىٰ عن الشبلي - رحمه الله - : أنه لما مات ابنه دخل الحمام ونوَّر لحيته ، حتىٰ أذهب شعرها كله. فكل من أتاه معزياً ، قال : إيش هذا يا أبا بكر؟ قال : وافقت أهلي في قطع شعورهم. فقال له بعض أصحابه : أخبرني لم فعلت هذا؟ فقال : علمت أنهم يعزونني علىٰ الغفلة. ويقولون : آجرك الله[1] ففديت ذكرهم لله بالغفلة[2] بلحيتي.

فانظر إلىٰ هذه الغيرة المحرمة القبيحة، التي تضمنت أنواعاً من المحرمات: حلق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسول الله ﷺ : «ليس منا من حلق وسَلَقَ وخرق»[3] أي حلق شعره ، ورفع صوته بالندب والنياحة. وخرق ثيابه.

ومنها : حلق اللحية ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإعفائها وتوفيرها.

ومنها : منع إخوانه من تعزيته ونيل ثوابها.

---

(١) في م زيادة : «فيها» وهي غير موجودة كما ذكرت الحكاية في الرسالة القشيرية.

(٢) في ط : «على الغفلة» وانظر : الرسالة القشيرية ٢٥٨.

(٣) الحلق والخرق معروفان وهما حلق الشعر وخرق الثوب وفي رواية شقه. والسلق : رفع الصوت أو شدة الكلام. انظر : مختار الصحاح ٣١٠.

والحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية ١/ ١٠٠ و ١٠١ (١٠٤).

ومنها : كراهته لجريان ذكر اسم[١] الله علىٰ ألسنتهم بالغفلة. وذلك خير بلا شك من ترك ذكره.

فغاية صاحب هذا : أن تغفر له هذه الذنوب ويعفىٰ عنه[٢]. وأما أن يعد ذلك في[٣] مناقبه ، وفي الغيرة المحمودة : فسبحانك. هذا بهتان عظيم.

ومن هذا : ما ذكر عن أبي الحسين النوري : أنه سمع رجلاً يؤذن. فقال : طعنه وسم الموت.

وسمع كلباً ينبح ، فقال : لبيك وسعديك. فقالوا له[٤] : هذا ترك للدين. وصدقوا والله ، يقول للمؤذن في تشهده : طعنه. وسم الموت. ويلبي نباح الكلب؟.

فقال : أما ذاك فكان يذكر الله على[٥] رأس الغفلة. وأما الكلب : فقد قال تعالىٰ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

---

(١) في البقية عدا ق : «ذكر الله».

(٢) أي غاية ما يصل إليه صاحب هذا الفعل من منزلة أن يرجى له المغفرة والعفو على فعله البدعي ، وإلا فهو على خطر عظيم فكيف إذاً تجعل موارد الهلكة مناقب ومفاخر يثنى بها عليه؟!!

(٣) في ب : «من».

(٤) «له» ساقطة من ب ، م وبعدها في غ : «هذه».

(٥) المثبت كما في ج و ق والرسالة القشيرية وفي البقية : «عن» وقوله هذا في الرسالة القشيرية ص٢٥٨ و ٢٥٩.

فيا لله!! ماذا ترىٰ رسول الله ﷺ يواجه به[1] هذا القائل لو رآه يقول ذلك أو عمر بن الخطاب، أو من عَدَّ ذلك في المناقب والمحاسن؟!.

وسمع الشبلي رجلاً يقول: جلَّ الله. فقال: أحب أن تجله عن هذا[2].

وأذن مرة. فلما بلغ الشهادتين، قال[3]: لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك. وقال بعض الجهال من القوم «لا إله إلا الله» من أصل القلب، و «محمد رسول الله» من القرط[4].

ونحن نقول: محمد[5] رسول الله، من تمام قول لا إله إلا الله. فالكلمتان يخرجان من أصل القلب، من مشكاة واحدة. لا تتم إحداهما إلا بالأخرىٰ.

فصــل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -:

(بَابُ الغيْرَةِ) قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - حَاكِياً عَن نَبِيِّهِ سُلَيمَانَ عَلَيهِ السَّلاَمُ -:

---

(١) «به» ساقطة من الجميع عدا ق.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٥٩.

(٣) في الأصل، غ، م، ق: «فقال» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية وقد ذكر فيها هذين القولين في ٢٥٩.

(٤) القرط: هو ما يعلق في شحمة الأذن من الحلي. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤/ ٤١، تفسير غريب الحديث ١٩٥، مختار الصحاح ٥٣٠، والقائل هو: أبو الحسن الخزفاني. الرسالة القشيرية ٢٥٩.

(٥) «محمد» ساقطة من م.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص :٣٣](١).

ووجه استشهاده بالآية : أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان يحب الخيل. فشغله استحسانها ، والنظر إليها – لما عُرضت عليه – عن صلاة النهار ، حتىٰ تـوارت الشمس بالحجاب. فلحقته الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها ، والنظر إليها عن خدمة [مولاه](٢) وحقِّه. فقال : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله.

قال : «**الغيرَةُ : سُقُوطُ الاحتِمَالِ ضنًّا ، وَالضِّيقُ عَن الصَّبرِ نَفَاسَةً**»(٣).

أي عجز الغيور(٤) عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ، ويحجبه(٥) عنه ضنا به – أي بخلاً به – أن يعتاض عنه بغيره. وهذا البخل : هو محض الكرم عند المحبين الصادقين.

وأما «**الضِّيقُ عَن الصَّبرِ نَفَاسَةً**» فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه.

---

(١) منازل السائرين ٩٠.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) منازل السائرين ٩٠ ، وفي الرسالة القشيرية ٢٥٥ ، الغيرة : كراهة مشاركة الآخرين. وقال الكاشاني الغيرة : نفاسة رسم المحبوب عند المحب والضن به عن أن يتعلق المحبة بغيره أو يشغله عنه شيء أو يحجبه بحيث لا يحتمل ذلك ولا يصبر عليه. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٠٩. وانظر : التعريفات ٢١٠.

(٤) في م : «الصبور».

(٥) في م : «ويشغله».

وهذا هو الصبر الذي لا يذم من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من [١] وسيلته.

والحامل له علىٰ هذا الضيق : مغالاته بمحبوبه. وهي النفاسة. فإنه - لمنافسته ورغبته فيه [٢] - لا يسامح نفسه بالصبر عنه. و «المنافسة» هي كمال الرغبة في الشيء ، ومنع الغير منه : إن لم تمدح [٣] فيه المشاركة أو [٤] المسابقة إليه إن[٥] مدحت فيه المشاركة.

قال تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وبين «المنافسة» و« الغبطة » جمع وفرق، وبينهما وبين « الحسد » أيضاً جمع وفرق.

فالمنافسة : تتضمن : مسابقة واجتهاداً[٦] وحرصاً. والحسد : يدل علىٰ مهانة الحاسد وعجزه ، وإلا فنافس[٧] من حسدته. فذلك[٨] أنفع لك من حسده ، كما قيل :

إذا أعجبتْكَ خـلالُ امـرئ فكنْـهُ يَكُـن منك ما يعجبُـك

---

(١) «من» ساقطة من ب.

(٢) «فيه» ساقطة من الجميع عدا م ، ق ، ج.

(٣) في البقية عدا م : «بالياء».

(٤) في ط و ح : «بالواو» وفي ج : «أو المنافسة».

(٥) «أن» ساقطة من أ ، غ ، ح ، م ، ب.

(٦) في أ ، ب ، ح ، غ : «أو اجتهاداً أو حرصاً».

(٧) في غ : «والانفاس».

(٨) «فذلك» ساقطة من م.

فليس علىٰ الجـود والمكرمـا(١) ت إذا جئتَهـا حاجبٌ يحجبُـك

و «الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله(٢).

فصـل

درجات الغيرة

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: غيرَةُ العَابِدِ عَلَىٰ ضَائِعٍ يَستَرِدُّ(٣) ضَيَاعَهُ، وَيَستَدرِكُ فَوَاتَهُ، وَيَتَدَارَكُ قُوَاهُ».

الدرجة الأولى

«العابد» هو العامل - بمقتضىٰ العلم النافع - للعمل الصالح. فغيرته علىٰ ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع التقرب(٤) بفعل أمثالها، من جنسها و [من](٥) غير جنسها. فيقضىٰ ما ينفع فيه القضاء، ويعوض ما يقبل فيه القضاء، ويعوض ما يقبل العوض، ويجبر ما يمكن جبره.

وقوله: «وَيستَدرِك فَوَاتَهُ» الفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يُسترد بعينه، كما إذا فاته الحج في عام تمكّن منه. فأضاعه

---

(١) في غ: «والكرامات» والبيتان قيل هما: لداود بن جهور، وقيل: لأبي العيناء. انظر: بهجة المجالس ٢/ ٧٩٦، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٤٩، ١٥٠.

(٢) في أ، ب، غ: «له» بدل: «لحاله».

(٣) في ط: «يستر» وقوله في المنازل ٩٠.

(٤) في ط: «القرب».

(٥) الزيادة من م.

في ذلك العام : استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخّر الزكاة عن وقت وجوبها استدركه [١] بعد تأخيرها ، ونحو ذلك.

وأما الفائت : فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت [٢] إذا فات وقته.

أو كون مراده باسترداد الضائع ، واستدراك الفائت [٣] : نوعي التفريط في الأمر والنهي. فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله. ويستدرك فائت هذا- أي سالفه - بالتوبة والندم.

وأما «تَدَارُكُ قُوَاه» فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يغار عليها : أن تذهب في غير طاعة الله. أو[٤] يتدارك قوىٰ العمل الذي لحقه الفتور [عنه] [٥] ، بأن يكسوه قوة ونشاطاً ، غيرة له وعليه.

فهذه [٦] غيرة العباد [علىٰ الأعمال. والله أعلم] [٧].

---

(١) في ط ، م : «استدركها» والضمير عائد على الوقت.

(٢) في ج ، ق : «في الوقت».

(٣) في ج : «الغائب».

(٤) في ط ، أ : «بالواو».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م.

(٦) «الهاء» ساقطة من ط.

(٧) الزيادة في الجميع عدا م ، حيث سقط منها : «والله أعلم».

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : غَيرَةُ المُرِيدِ. وَهِيَ غيرَةٌ عَلَىٰ وَقتٍ فَاتَ. وَهِيَ غَيرَةٌ قَاتِلَةٌ. فَإِنَّ الوَقتَ وَحيُّ التَّقَضِّي ، أبِيُّ الجَانِبِ ، بَطِيُّ الرُّجُوعِ»(١).

و «المريدون» هم أرباب الأحوال ، و «العباد» أرباب الأوراد والعبادات وكل مريد عابد. وكل عابد مريد ؛ لكن القوم خصوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم «المريد»، وخصوا أصحاب العمل المجرد باسم «العابد»، وكل مريد لا يكون عابداً [فهو](٢) زنديق ، وكل عابد لا يكون مريداً فمُراءٍ.

و «الوقت» عند العابد : هو وقت العبادة والأوراد. وعند المريد : هو وقت الإقبال علىٰ الله ، والجمعية عليه ، والعكوف عليه بالقلب كله.

و«الوقت» أعز شيء عليه ، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك. فإذا فاته الوقت فلا(٣) يمكنه استدراكه ألبتة ؛ لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلىٰ تداركه. كما في المسند مرفوعاً : «من أفطر يوماً من رمضان ، من غير عذر : لم يقضه عنه صيام الدهر ، وإن صامه»(٤).

---

(١) منازل السائرين ٩٠ ، ٩١ ، وفيه : «وحي الغضب ، وقوله : «وهي غيرة» غير موجودة في المنازل.

(٢) الزيادة من م.

(٣) في البقية عدا م : «لا يمكنه».

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٨٦ و ٤٤٢ و ٤٥٨ ، والترمذي في الصوم - باب ما جاء في

وقوله : «وَهِيَ غَيرةٌ قَاتِلَةٌ» يعني : مضرة ضرراً شديداً بيِّنا يشبه القتل ؛ لأن حسرة الفوت قاتلة . ولا سيما إذا علم المتحسر : أنه لا سبيل له إلىٰ الاستدراك[1].

وأيضاً فالغيرة علىٰ التفويت تفويت آخر ، كما يقال : [الاشتغال][2] بالندم علىٰ الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر. ولذلك[3] يقال : الوقت سيف. فإن[4] لم تقطعه ، قطعك.

ثم بين الشيخ ـ رحمه الله ـ السبب في كون هذه الغيرة قاتلة. فقال :

«فَإنَّ الوَقتَ وَحِيُّ التَّقَضِّي» أي سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : «الوحا

الإفطار متعمداً ٣/ ١٠١ (٧٢٣) بلفظ مقارب وقال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وسمعت محمداً – أي البخاري – يقول : أبو المطوس اسمه يزيد بن المطوس ولا أعرف له غير هذا الحديث ، وقال البخاري : ويذكر عن أبي هريرة رفعه صحيح البخاري كتاب الصوم باب إذا جامع في رمضان ٢/ ٢٣٥ ، ورواه أبو داود في الصوم باب التغليظ فيمن أفطر متعمداً ٢/ ٣٢٦ (٢٣٩٦) وابن ماجه في الصيام باب ما جاء في كفارة من أفطر يوماً في رمضان ١/ ٥٣٥ (١٦٧٢) والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٥١٧ (٨٤٩٢) وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه ص١٢٩ (٣٦٨).

(١) في غ : «استدراك».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في م : «ولهذا».

(٤) في م : «فإن لم تعطيه حقه قطعك» وفي البقية : «إن لم تقطعه إلا قطعك» وانظر : هذا القول في الرسالة القشيرية ٥٥.

الوحا أي[1] العجَل العجل» والوَحْىٰ الإعلام في خفاء وسرعة. ويقال : جاء فلان وحيًّا أي مجيئاً سريعاً. فالوقت منقضٍ بذاته، متصرم[2] بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته. فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطلب الرُّجْعَىٰ فحيل بينه وبين الاسترجاع. وطلب تناول الفائت. وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد؟ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ : ٥٢] ومنع مما يحبه ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما[3] ينبغي للعاقل [أن][4] يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

فيا حسرات، ما إلىٰ ردِّ مثلها سبيل ولو رُدَّت لهان التحسُّر
هي الشهواتُ اللاءِ كانت تحولت إلىٰ حسرات حين عز التصبرُّ[5]
فلو أنها ردت بصبر وقوة تحولن لذات. وذو اللب يبصر

ويقال : إن[6] أصعب الأحوال المنقطعة : انقطاع الأنفاس. فإن أربابها إذا صعدوا النفس [الواحد][7] صعدوه إلىٰ نحو محبوبهم، صاعداً إليه، متلبساً

(١) «أي» ساقطة من ط، وانظر : مختار الصحاح ٧١٣.

(٢) في البقية : «منصرم» والتصرم التقطع. انظر : مختار الصحاح ٣٦٢.

(٣) «مما» ساقطة من ج، ق.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ب : «التبصر».

(٦) «أن» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا م، ج، ق : «صعد النفس» والزيادة من الجميع عدا م.

بمحبته والشوق إليه.

فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتىٰ يتبعوه نفساً آخر مثله. فكل[١] أنفاسهم بالله. وإلىٰ الله ملتبسة[٢] بمحبته، والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرىٰ في نومه : أنه كذلك ، لالتباس روحه وقلبه به[٣] ، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذا[٤] الحال. فإن المحبة إذا غلبت على[٥] القلب وملكته : أوجَبَت[٦] ذلك لا محالة. والمقصود : أن الواردات والأوقات[٧] سريعة الزوال. تمر أسرع من مر[٨] السحاب ، وينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره ، وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقت. فإنه عائد عليك لا محالة ولهذا يقال للسعداء : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٤] و[٩] للأشقياء: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾

---

(١) في ق : «فكان».

(٢) في ط ، م : «متلبسة» و أ ، غ بعدها : «المحبته».

(٣) «به» ساقطة من الجميع عدا ج.

(٤) في البقية عدا ج : «هذه».

(٥) في الأصل : «من» وهو خطأ.

(٦) في ط زيادة : «له».

(٧) «والأوقات» ساقطة من ط.

(٨) «مر» ساقطة من الجميع عدا ج ، م.

(٩) في ط زيادة : «يقال».

[غافر : ٧٥].

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : غيرَةُ العَارِفِ عَلَىٰ عَينٍ غَطَّاهَا غَينٌ. وَسِرٍّ(١) غَشِيَهُ رَينٌ ، وَنَفَسٍ عُلِّق بِرَجَاءٍ ، أَوْ التَفَتَ إِلَىٰ عَطَاءٍ»(٢).

أي يغار علىٰ بصيرة غطاها ستر أو حجاب. فإن «الغين» (٣) بمنزلة الغطاء والحجاب. وهو غطاء رقيق جداً. وفوقه «الغيم» وهو لعموم المؤمنين. وفوقه «الرين. والران» وهو للكفار.

وقوله : «وَسِرٍّ غَشِيَهُ رَينٌ» أي حجاب أغلظ من (٤) الأول.

و«السرُّ» ههنا : إما اللطيفة (٥) المدركة من الروح ، وإما الحال التي بين العبد وبين الله. فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه ، كما يستغيث المعذب في عذابه ، غيرة علىٰ سرِّه من ذلك الرين.

---

(١) في غ ، ح : «وستر» وهو فيها كذلك فيما سيأتي من تكرار هذه اللفظة.

(٢) منازل السائرين ٩١.

(٣) قال الكاشاني : «الغين دون الرين وهو الصدأ المذكور ، فإن الصدأ حجاب رقيق ينجلي بالتصفية ، ويزول التجلي لبقاء الإيمان معه. ثم قال : والغين : ذهول عن الشهود واحتجاب عنه مع صحة الاعتقاد. معجم اصطلاحات الصوفية ١٨٦ ، وانظر : التعريفات ٢١٠.

والرين : حجاب كثيف بين القلب والإيمان بالحق. وانظر : نفس الإحالة السابقة.

(٤) في ط زيادة : «الغيم» وهي موجودة في أ وطمس عليها.

(٥) اللطيفة : كل إشارة دقيقة المعنى يلوح منها في الفهم معنى لا تسعه العبارة. معجم اصطلاحات الصوفية ٩١.

قوله[1] : «وَنَفَسٍ عُلِّقَ بِرَجَاءٍ ، وَالتَفَتَ إِلَىٰ عَطَاءٍ».

يعني : أن صاحب النفس يغار علىٰ نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ، ولم يتعلق بإرادة الله و محبته. فإن بين النَّفَسين كما بين متعلقيهما.

وكذلك قوله : «أَو التَفَتَ إِلَىٰ عَطَاءٍ» يعني : أنه يلتفت إلىٰ[2] عطاء دون الله فرضي به. ولا ينبغي أن يتعلق إلا بالله ، ولا يتلفت إلا إلىٰ المعطي[3] وحده. والله أعلم.

* * *

(١) في ط : «وقوله».

(٢) «إلى» ساقطة من ق وفي ط : «إلى عطاء من دون».

(٣) في ط زيادة : «الغني الحميد وهو الله».

فصــل

[منزلـة الشوق]

منزلة الشوق

ومن منازل : « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الشوق»(١).

قال تعالىٰ :﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ﴾ [العنكبوت :٥].

قيل : هذا تعزية للمشتاقين ، وتسلية لهم. أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ. فقد أجَّلتُ له(٢) أجلاً يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب.

وفيه لطيفة أخرىٰ. وهي تعلل(٣) المشتاقين برجاء اللقاء.

لـولا التعلـل بالرجـاء تقطّعـت(٤) نفسُ المحب صَبابة وتشوقا

ولقد يكاد يذوب منه قلبُه مما يقاسي حسرة وتحرقا

---

(١) الشوق : قيل نزاع النفس إليه. وقيل : اهتياج القلوب إلىٰ لقاء المحبوب. وقيل : هو حركة الشوق إلىٰ الله بالمحبة المنبعثة من مطالعة تجليات الصفات. وهذا الأخير كما في معجم اصطلاحات الصوفية ٣١١ ، وانظر : الرسالة القشيرية ٣٢٩ ، والمصباح المنير ٣٢٧ ، والتعريفات ١٦٩ ، وطريق الهجرتين ٤٨٣.

(٢) «له» ساقطة من ق والقائل هو أبو عثمان الحيري. انظر : طريق الهجرتين ٤٨٤ ، والرسالة القشيرية ٣٣٢.

(٣) في ط ، ق : «تعليل».

(٤) في ط : «لقطعت».

حتـــىٰ إذا رَوْحُ الرجـــاء أصابـــه   ســكن الحريــقُ إذا تعلــل باللقـــا

وقد قال[١] النبي ﷺ في دعائه : «أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك ، والشوق إلىٰ لقائك»[٢].

قال بعضهم :[٣] النبي ﷺ كان دائم الشوق إلىٰ لقاء الله. لم يسكن شوقه إلىٰ لقائه قط. ولكن الشوق مائة جزء[٤]. تسعة وتسعون له. وجزء مقسوم علىٰ الأمة[٥]. فأراد أن يكون ذلك الجزء مضافاً إلىٰ ما له من الشوق الذي يختص به. [والله أعلم][٦].

فصل

و«الشوق» أثر من آثار المحبة ، وحكم من أحكامها. فإنه سَفَر القلب إلىٰ المحبوب في كل حال.

---

(١) في ط : «وقد كان النبي ﷺ يقول».

(٢) تقدم تخريجه. ص ٢٨١٠ وأوله «اللهم بعلمك الغيب».

(٣) في ط زيادة : «كان» وسقطت بعد قوله : «وسلم» والقائل أبو علي الدقاق. انظر : الرسالة القشيرية ٣٣٢.

(٤) المثبت كما في غ ، ط لأجل المعنىٰ والبقية بزيادة (واو).

(٥) هذا مما لا ينبغي أن يقال إلا بدليل ، ولا أعلم في تقسيم الشوق بين النبي ﷺ وبين أمته دليلاً يركن إليه ، ولعله نقله عن كتب القوم ، وانظر في ذلك الرسالة القشيرية ص ٣٣٢.

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

وقيل: هو اهتياج القلوب، إلىٰ لقاء المحبوب[١].

وقيل: هو احتراق الأحشاء[٢]، وتلهب القلوب وتقطّع الأكباد.

و «المحبة» أعلىٰ منه؛ لأن الشوق عنها يتولد، وعلىٰ قدرها يقوىٰ ويضعف.

قال يحيىٰ بن معاذ - رحمه الله -: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات[٣].

وقال أبوعثمان - رحمه الله -: علامته حب الموت[٤]، مع الراحة والعافية، كحال يوسف لما أُلقي في الجب لم يقل «توفني»، ولما أدخل[٥] السجن لم يقل ﴿تَوَفَّنِي﴾ ولما تمَّ له الأمر [والأمن][٦] والنعمة، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

قال ابن خفيف[٧] - رحمه الله -: «الشوق ارتياح القلوب بالوجد، ومحبة

---

(١) القائل هو القشيري. انظر: الرسالة القشيرية ٣٢٩.

(٢) في ط، أ، ب، ح، غ زيادة: «ومنها يتهيج ويتولد». والقائل هو أحمد بن عطاء وهذه الزيادة ليست من كلامه. انظر: الرسالة القشيرية ٣٣٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٣٠.

(٤) في الأصل و م: «القرب» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية ٣٣٠. وأبو عثمان هو سعيد الحيري النيسابوري. وتقدمت ترجمته.

(٥) في غ: «دخل».

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف من أصحاب رويم وأبو العباس بن عطاء من مؤلفاته التثبيت

اللقاء والقرب »[1].

وقيل : هو لهيب [2] ينشأ بين أثناء الحشىٰ ، يسنح عن الفرقة ، فإذا وقع اللقاء طفئ.

هل الشوق يزول باللقاء

قلت : هذه مسألة نزاع بين المحبين. وهي أن الشوق هل يزول باللقاء أم لا؟ ولا يختلفون أن المحبة لا تزول [باللقاء] [3].

فمنهم من قال : يزول باللقاء ؛ لأن الشوق هو سفر القلب [4] إلىٰ محبوبه. فإذا قدم عليه ، ووصل إليه ، صار مكان الشوق قُرَّة عينه به. وهذه القرَّة تجامع المحبة ولا تنافيها.

قال هؤلاء : وإذا كان الغالب علىٰ القلب مشاهدة المحبوب ، لم يطرقه الشوق.

وقيل لبعضهم [5] : هل تشتاق إليه؟ فقال : لا. إنما الشوق إلىٰ غائب. وهو حاضر.

في الوصول. توفي سنة ٣٧١هـ. انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٥ و ٣٨٩ ، وانظر : قوله في الرسالة القشيرية ٣٣١.

(١) في البقية عدا م ، ق ، ج : «بالقرب».

(٢) في البقية عدا م : «لهب» وانظر هذا القول من دون نسبه لقائل في الرسالة القشيرية ٣٣١.

(٣) الزيادة من الجميع عدا م. وانظر : زيادة في ذلك طريق الهجرتين ٤٩٠.

(٤) في ق : «المحب».

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ٣٣١.

وقالت طائفة : بل يزيد الشوق بالقرب والوصول ، ولا يزول ؛ لأنه كان قبل الوصول علىٰ الخبر والعلم، وبعده: قد صار علىٰ العيان والشهود. ولهذا قيل:

وأبرحُ ما يكـون الشـوق يومـاً إذا دَنَتِ الخيـامُ من الخيـام[1]

قال الجنيد : سمعت السري يقول : الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق في الشوق لها من كل شيء يشغله[2] عمن يشتاق إليه. وعلىٰ هذا : فأهل الجنة[3] دائما في شوق إلىٰ الله ، مع قربهم منه ورؤيتهم له.

قالوا : ومن الدليل علىٰ أن الشوق يكون حال اللقاء أعظم : أنك[4] ترىٰ المحب يبكي عند لقاء محبوبه. وذلك البكاء إنما هو من شدة شوقه إليه ، ووجده [به][5] ، ولذلك يجد عند لقائه نوعاً من الشوق ، لم يجده في حال غيبته عنه[6].

وفصل[7] النزاع في هذه المسألة : أن الشوق يراد به : حركة القلب ،

(١) انظر : ديوان الصبابة ٢١ ، والرسالة القشيرية ٣٣٢ ، وروضة المحبين ٤٣٥ ، وطريق الهجرتين ٤٩٠ ، وآخره : إذا دنت الديار من الديار.

(٢) في ج ، ح : «يشغل» وانظر : قوله في الرسالة القشيرية ٣٣٢.

(٣) في م :«المحبة» وبعدها في الأصل ، و م : «دائماً في الشوق» والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٤) في ط : «أنا نرىٰ» والبقية عدا م : «أما ترىٰ».

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) «عنه» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا أ ، ب ، ج : «فصل».

واهتياجه للقاء المحبوب. فهذا يزول باللقاء. ولكن يعقبه شوق آخر أعظم منه، تثير حلاوة الوصل ومشاهدة جمال المحبوب[1]. فهذا يزيد باللقاء والقرب ولا يزول. والعبارة عن هذا : وجوده. والإشارة إليه : حصوله.

وبعضهم سمَّىٰ النوع الأول : شوقاً. والثاني : اشتياقاً.

قال القشيري [2] : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يفرق بين الشوق والاشتياق ، ويقول : الشوق يسكن [3] باللقاء ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، قال : وفي معناه أنشدوا :

ما يرجع الطرفُ عنه عند رؤيته حتىٰ يعود إليه الطرفُ مشتاقاً

وقال النصراباذي ـ رحمه الله ـ : للخلق كلهم مقام الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق ، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه ، حتىٰ لا يرىٰ له [4] فيه أثر ولا قرار.

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في طريق الهجرتين ٤٩٠ : «وفصل الخطاب في المسألة أن المحب إذا اشتاق إلىٰ لقاء محبوبه فإذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذي كان متعلقاً بلقائه ، وخلفه شوق آخر أعظم منه...إلىٰ أن قال : فاعلم أن الشوق نوعان شوق إلىٰ اللقاء ، فهذا يزول باللقاء ، وشوق في حال اللقاء وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقاً لا ينقطع أبداً..».

(٢) أبو القاسم عبدالكريم بن هوزان القشيري الخرساني الشافعي صاحب الرسالة القشيرية ، توفي سنة ٤٦٥هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧-٢٣٣ (١٠٩) ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٩.

(٣) سقط من ق قوله : «ويقول : الشوق يسكن».

(٤) «له» ساقطة من ج ، ح ، ب ، م.

قال الدقاق ـ رحمه الله ـ في قول موسىٰ : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه : ٨٤] قال : معناه شوقاً إليك ، فستره (١) بلفظ الرضىٰ.

وقيل : إن أهل الشوق إلىٰ لقاء الله يتحسسون (٢) حلاوة القرب عند وروده – لما قد كشف [لهم](٣) من روح الوصول – أحلىٰ من الشهد ، فهم في سكراته في أعظم لذة وحلاوة ، وقيل : من اشتاق إلىٰ الله اشتاق إليه كل شيء ، كما(٤) قال بعضهم : أنا أدخل في الشوق والأشياء تشتاق إليّ ، وأتأخر عن جميعها ، وفي مثل هذا قيل :

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل(٥)

وكانت عجوز مغيبة ، فقدم غائبها من السفر ، ففرح به أهله وأقاربه، وقعدت [هي](٦) تبكي ، فقيل لها : ما يبكيك؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا(٧)

---

(١) في غ : «فستراه» والقائل أبو علي الدقاق. انظر : الرسالة القشيرية ٣٣١.

(٢) في ط ، ب ، ح : «يتحسون» والمثبت كما في غ والرسالة القشيرية ، وفي البقية مع الأصل «يتحسبون».

(٣) الزيادة من الجميع عدا م ، وانظر : هذا القول في الرسالة القشيرية ٣٣٢ وفيها «حلاوة الموت» بدل «حلاوة القرب».

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ٣٣٣ ، و «كما» ساقطة من م.

(٥) ذكره المؤلف في كتابه بدائع الفوائد ٣/ ٧٣٠.

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

(٧) «هي» ساقطة من ح ، وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ٣٣٠.

الفتىٰ يوم القدوم علىٰ الله تعالىٰ.

يا من شكا شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقىٰ من تحب غدا(١)

وقيل : خرج داود ـ عليه السلام ـ يوماً إلىٰ الصحراء منفرداً ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: ما لي أراك منفرداً؟ فقال: إلهي استأثر شوقي إلىٰ لقائك علىٰ قلبي، فحال بيني وبين صحبة الخلق ، فقال : ارجع إليهم ، فإنك إن أتيتني بعبد آبق(٢) أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذا(٣).

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«الشَّوقُ : هبُوبُ القَلبِ إلىٰ غائِبٍ ، وَفِي مَذهَبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عِلَّةُ الشَّوقِ عَظيمة ، فَإِنَّ الشَّوقَ إِنَّمَا يَكُونُ إلىٰ الغَائِبِ ، وَمَذهَبُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إِنَّما قَامَ عَلَىٰ المُشَاهَدَةِ ، وَلِهَذِهِ العِلَّةِ لَم يَنطِق القُرآنُ بِاسمِهِ»(٤).

---

(١) قال عبدالله بن منازل : سمعته من أبي علي الثقفي ، انظر طريق الهجرتين ٤٦٤ ، وروضة المحبين ٤٣٥.

(٢) الآبق : أي الهارب. انظر : مختار الصحاح ٢.

(٣) الجهبذ : هي لفظة فارسية وتعني الناقد أو العارف بتمييز الجيد من الرديء ، وما نقله المؤلف هنا سمعه القشيري عن أبي علي الدقاق يقول : خرج داود عليه السلام... إلىٰ آخره.
انظر الرسالة القشيرية ٣٣٠.

(٤) منازل السائرين ٩١.

معارضة المؤلف للهروي في الشوق والمشاهدة

قلت : هو صدر الباب ، بقوله تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ﴾ [فكأنه] (١) جعل «الرجاء» شوقاً بلسان الاعتبار ، لا بلسان التفسير ، أو أن دلالة «الرجاء» علىٰ الشوق باللزوم ، لا بالتضمن ولا بالمطابقة. قوله : «هبُوبُ القَلبِ إِلىٰ غَائِبٍ» يعني : سفره إليه ، وهويه (٢) إليه.

وأما العلة التي ذكرها في الشوق : فقد تقدم أن من الناس من جعل «الشوق» في حال اللقاء أكمل منه في حال المغيب ، فعلىٰ قول هؤلاء [لا] (٣) علة فيه.

وأما ما جعله سفر القلب إلىٰ المحبوب في حال غيبته عنه (٤) ، فعلىٰ قوله : يجيء كلام المصنف ـ رحمه الله ـ ووجهه مفهوم (٥) ، فإن مذهب هذه الطائفة - يريد أهل الفناء (٦) - إنما قام علىٰ المشاهدة ، فإن بدايته - كما قرره هو - المحبة التي هي نهاية مقامات المريدين ، والفناء إنما يكون مع المشاهدة ، [ومع المشاهدة] (٧) لا عمل للشوق.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في ج ، م : «هبوبه».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ح ، أ ، وهذا القول ذكره قبل الفصل الماضي.

(٤) «عنه» ساقطة من ج ، م.

(٥) في ط زيادة «وقوله».

(٦) في أ ، ب ، غ ، ح : «أهل الفناء يريد الفناء» ، وط : «الذي هو الفناء يريد أن الفناء».

(٧) الزيادة من الجميع.

فيقال : هذا باطل من وجوه.

أحدها : أن المشاهدة لا تُزيل الشوقَ ؛ بل تزيده ، كما تقدم [١].

الثاني : أنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة ، وهم إلىٰ يوم المزيد -وهو يوم الجمعة - أشوق [٢] شيء ، كما في الحديث [٣] ، وكذلك هم أشوق [شيء][٤] إلىٰ رؤيته وسماع كلامه ، وهم في الجنة ، فإن هذا إنما يحصل لهم في حال دون حال ، كما في حديث ابن عمر في[٥] المسند وغيره : «إن أعلىٰ

---

(١) وهو في الفصل الماضي.

(٢) في م : «أكمل».

(٣) الحديث الذي ورد في أن يوم الجمعة هو يوم المزيد حديث طويل أوله : «أتاني جبريل - عليه السلام - وفي يديه مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت ما هذه يا جبريل ، قال هذه الجمعة... إلىٰ أن قال : فليسوا إلىٰ شيء أحوج منهم إلىٰ يوم الجمعة ليزدادوا فيه كرامة وليزدادوا فيه نظراً إلىٰ وجهه تبارك وتعالىٰ ولذلك دعي يوم المزيد» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢٤ رواه البزار والطبراني في الأوسط بنحوه ، وأبو يعلىٰ باختصار ورجال أبي يعلىٰ رجال الصحيح وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان وقد وثقه غير واحد وضعفه غيرهم وإسناد البزار فيه خلاف.
وقد ذكر ابن كثير كلام العلماء علىٰ هذا الحديث وأشار بأنه روي من طرق أخرىٰ جيدة ، وأورد كلام العلماء فيه. انظر : النهاية في الفتن والملاحم ٢/ ٣٥٧ - ٣٦٠ ، وانظر الشريعة للآجري ص٢٦٥ و ٢٦٦.

(٤) الزيادة من الجميع وبعدها في ط : «رؤية ربهم».

(٥) «في» ساقطة من ط وابن عمر هو الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ولد سنة ثلاث من البعثة ومات سنة ٧٤هـ وقيل غير ذلك.
انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١٠٧ - ١٠٩.

أهل الجنة منزلة : من ينظر إلىٰ وجه ربه كل يوم مرتين»[1].

ومعلوم قطعاً أن شوق هذا إلىٰ الرؤية قبل حصولها أعظم شوق [2] يقدر ، وحصوله المشاهدة لأهل الجنة أتم [3] منها لأهل الدنيا.

الثالث : أنه لا سبيل في الدنيا إلىٰ مشاهدة تزيل الشوق ألبتة ، ومن ادعىٰ هذا فقد كذب[4] فإنه لم يحصل هذا لموسىٰ بن عمران ، كليم الرحمن ، فضلاً عمن دونه ، فما هذه المشاهدة التي[5] مذهب هذه الطائفة مبني عليها بحيث لا يكون معها شوق؟ أهي كمال المشاهدة عياناً وجهرة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) الحديث أوله : «إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة» رواه أحمد في المسند ٢/ ١٣ ، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القيامة ٥/ ٤٣١ (٣٣٣٠) وقال ورواه عبدالملك بن أبجر عن ثوير عن ابن عمر موقوفاً ، وذكر سنداً آخر وقال «ولم يرفعه» وذكره الآجري في الشريعة ٢٦٩ ، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ٢/ ٥٠٩ و ٥١٠ ، وقال : حديث مفسر في الرد علىٰ المبتدعة وثوير وإن لم يخرجاه فلم ينقم عليه غير التشيع وقال الذهبي : قلت بل هو واهي الحديث. وحكم السيوطي علىٰ الحديث بالضعف. انظر الجامع الصغير ١/ ١٣٣ (٢١٩٤) وكذلك الألباني قال : ضعيف. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٤/ ٤٥٠ و ٤٥١ (١٩٨٥).

(٢) في ق : «شيء».

(٣) في ج زيادة «أو» وهي غير مناسبة.

(٤) في ط زيادة : «وافترىٰ».

(٥) في ط : «التي مبنىٰ مذهب هذه الطائفة».

أم نوع من مشاهدة القلب لمعروفه، مع اقترانها [1] بالحجب الكثيرة، التي لا يحصيها إلا الله، فهل تمنع هذه المشاهدة الشوق إلىٰ كمالها وتمامها؟ وهل الأمر إلا بالعكس في العقل والفطرة والحقيقة؟ لأن من شاهد محبوبه من بعض الوجوه، كان شوقه إلىٰ كمال [2] مشاهدته أشد وأعظم، وتكون تلك المشاهدة الجزئية سبباً لاشتياقه إلىٰ كمالها وتمامها[3]، فأين العلة في الشوق؟ وأين المشاهدة المانعة من الشوق؟

وهذا بحمد الله ظاهر [ومن نازع فيه كان مكابراً] [4]. والله أعلم.

فصل

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: شَوْقُ العَابِدِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، لِيَأْمَنَ الخَائِفُ، وَيَفرَحَ الحَزِينُ، وَيَظفَرَ الآمِلُ»[5]. درجات الشوق الدرجة الأولى

يعني: شوق العابد إلىٰ الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

أحدها: حصول الأمن الباعث علىٰ العمل[6]، فإن الخوف المجرد عن

(١) في غ: «اقترانه».

(٢) «كمال» ساقطة من م.

(٣) في غ: «مقامها».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) منازل السائرين ص٩١ و ٩٢ وفيه «ثم هو علىٰ ثلاث درجات».

(٦) في البقية عدا م، ق، ج: «الأمل».

الأمن من (١) كل وجه، لا ينبعث صاحبه لعمل ألبتة، إن لم يقارنه أمن (٢)، فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطاً (٣).

الثاني: فرح الحزين، فإن الحزن (٤) المجرد أيضاً إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه، فلولا روح الفرح لتعطّلت قوىٰ الحزين وقعد به (٥) حزنه، ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح.

الثالث: روح الظفر، فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر، مات أمله. [والله أعلم] (٦).

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: شَوقٌ إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، زَرَعَهُ الحُبُّ الَّذِي يَنبُتُ عَلَىٰ حَافاتِ المِنَنِ، فَعَلَّقَ قَلبَهُ بِصِفَاتِهِ المقَدَّسَةِ، فَاشتَاقَ إِلَىٰ مُعَايَنَةِ لَطَائِفِ كَرَمِهِ، وَآيَاتِ تَدَبُّرِهِ، وَأَعلَامِ فَضلِهِ، وَهَذَا شَوقٌ تَغشَاه المَبَارُّ، وَتُخَالِجُهُ المَسَارُّ، وَيُقَاوِمُهُ الاصطِبَارُ» (٧).

---

(١) في ح: «عن».

(٢) في ط: «أمل».

(٣) القنوط: اليأس. مختار الصحاح ٥٥٢.

(٤) في ق: «الحزين».

(٥) «به» ساقطة من أ، ب، غ، وفي البقية عدا ج، م، ق: «حزنه به».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) منازل السائرين ٩٢، وفيه «نبت» بدل «ينبت وآخره» وهذا الشوق تغشاه المبار وتخالجه المسار ويقاومه الاصطبار.

الشوق إلىٰ الله[1] لا ينافي الشوق إلىٰ الجنة ، فإن أطيب ما في الجنة قربه ورؤيته ، وسماع كلامه ورضاه ، نعم الشوق إلىٰ مجرد الأكل والشرب[2] ، والحور العين في الجنة ناقص جداً ، بالنسبة إلىٰ شوق المحبين إلىٰ الله تعالىٰ؛ بل لا نسبة له إليه ألبتة ، وهذا الشوق درجتان.

أحدهما[3] : شوق زرعه الحب الذي سببه الإحسان والمنَّةُ ، وهو الذي قال[4] «يَنبُتُ عَلَىٰ حَافاتِ المِنَنِ» فسببه ، مطالعة منَّةِ الله ، وإحسانه ونعمه.

وقد تقدم بيان ذلك في منزلة «المحبة» ، وتبين أن محبة الأسماء والصفات أكمل وأقوىٰ من محبة الإحسان والآلاء[5].

وفي قوله : «تَنبُتُ عَلَىٰ حَافاتِ المِنَنِ» أي جوانبه ، إشارة إلىٰ عدم تمكنها

---

(١) «إلىٰ الله لا ينافي الشوق» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح.

(٢) في ق «والشراب».

(٣) في ب ، ط : «أحداهما» ولم يصرح ابن القيم بالثاني ولكن أحال إلىٰ ما ذكره فيما تقدم ويقصد الفصول الثلاثة قبل الفصل الأخير في منزلة المحبة.

وقد قال في طريق الهجرتين ٤٩٣ في شرحه لكلام صاحب المنازل : «وفيه إشارة إلىٰ أن هذا الحب الذي هو نابت علىٰ الحافات والجوانب ، بعده حب أكمل منه وهو الحب الناشئ من شهود كمال الأسماء والصفات ، وليس هذا من نبات الحافات ولكن من الحب الأول يدخل في هذا كما تقدم».

(٤) في ط زيادة «فيه».

(٥) في أ ، غ : «الآراء».

وقوتها ، وأنها من نبات الحافات التي هي جوانب المنن ، لا من نبات الأسماء والصفات.

قوله(١) : «فَعَلَّقَ قَلبَهُ بِصِفَاتِهِ المُقَدَّسَةِ» يعني الصفات المختصة بالمنن والإحسان كالبر [والمنان](٢) ، والمحسن ، والجواد ، والمعطي ، والغفور ، ونحوها.

وقوله : «المُقَدَّسَةِ» يعني المطهرة المنزهة عن تأويل المحرفين ، وتشبيه الممثلين(٣) ، وإنما قلنا : إن مراده هذه الصفات الخاصة لوجهين.

أحدهما : أن تعلق القلب بالصفات العامة إنما يكون في الدرجة الثالثة.

الثاني : أن جعل ثمرة هذا التعلق شوق العبد إلىٰ معاينة لطائف كرم الرب ومننه وإحسانه ، وآيات برِّه ، وهي علامات برِّه بالعبد ، وإحسانه إليه ، وكذلك «أعلام فضله» وهو ما يفضله به(٤) علىٰ غيره.

قوله : «وَهَذَا شَوقٌ تَغشَاهُ المَبَارُّ» يعني : أنه شوق معلول ، ليس خالصاً لذات المحبوب ؛ بل لما ينال منه من المبار «فقد غشيته» أي أدركته المبار.

وقوله(٥) : «وَتُخَالِجُه المَسَارُّ» أي تجاذبه ، فإن المخالجة هي المجاذبة ،

---

(١) في ط : «وقوله».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م ، ج.

(٣) في ط زيادة : «وتعطيل المعطلين» و «به» بعد الزيادة ساقطة من م.

(٤) في ط زيادة «يفضل عليه به».

(٥) في البقية عدا أ «الواو» ساقطة.

فإذا خالط هذا الشوق الفرح ، كان ممزوجاً بنوع من الحظّ.

وقوله : «وَيُقَاوِمُه الاصطِبَارُ» أي أن صاحبه يقوىٰ علىٰ الصبر ، فيقاوم صبره شوقه ولا يغلبه ، بخلاف الشوق في الدرجة الثالثة.

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : نَارٌ أَضرَمَهَا [1] صَفوُ المَحَبَّةِ ، فَنَغَّصَتْ العَيشَ ، وَسَلَبت السَّلوةَ ، وَلم يُنَهْنِهْهَا [2] مَقرٌّ [3] دُونَ اللِّقَاءِ». الدرجة الثالثة

يريد : أن الشوق في هذه المرتبة شبيه النار [4] التي أضرمها صفو المحبة ، وهو خالصها وشبه [5] بالنار لالتهابه في الأحشاء.

وفي قوله : «صَفوُ المَحَبَّةِ» إشارة إلىٰ أنها محبة لم تكن لأجل المنة والنعم. ولكن محبة متعلقة بالذات والصفات.

قوله : «فَنَغَّصت العَيشَ» أي منعت صاحبها السكون إلىٰ لذيذ العيش ، و«التنغيصُ» قريب من التكدير.

وقوله : «وَسَلبت السَّلوةَ» أي نهبت السُّلو وأخذته قهراً.

---

(١) في ب «أضرمتها».

(٢) في ح ، ب : «يهنها».

(٣) في ط : «معزىٰ» وانظر قوله في المنازل ٩٢ ، وفيه «معز دون».

(٤) في ط «بالنار».

(٥) في البقية عدا م : «وشبهه».

و«السَّلوة» هي الخلاص من كرب المحبة ، وإلقاء حملها عن الظهر ، والإعراض عن المحبوب تناسياً.

وقوله : «**لَمَ يُنَهْنِها**[1] **مَقَرٌّ دُونَ اللِّقَاءِ**» أي لم يكفها و[لم] [2] يردها قرار دون لقاء المحبوب ، وهذه لا يقاومها الاصطبار ؛ لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار[3].

* * *

(١) في غ ، ح ، ب : «يهنها» وط : «ينهنها معزىٰ».

(٢) الزيادة من ق.

(٣) «قرار» ساقطة من ق.

فصـل

[منزلة القلق]

منزلة القلق

وقد يقوي هذا الشوق ، ويتجرد عن الصبر ، فيسمىٰ «قلقاً» وبذلك سماه صاحب المنازل، واستشهد عليه بقوله – حاكياً عن كليمه موسىٰ – : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه : ٨٤] ، فكأنه فهم أن عجلته إنما حمله عليها القلق ، وهو [١] تجريد الشوق للقائه وميعاده.

وظاهر الآية أن الحامل لموسىٰ علىٰ العجلة [٢] طلب رضىٰ ربه ، وأن رضاه في المبادرة إلىٰ أوامره ، والعجلة إليها ولهذا [٣] احتج السلف بهذه الآية علىٰ أن الصلاة في أول الوقت أفضل، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] يذكر ذلك، قال : لأن [٥] رضىٰ الرب في العجلة إلىٰ أوامره.

ثم حده صاحب المنازل – رحمه الله – بأنه : «تَجرِيدُ الشَّوقِ بِإِسقَاطِ الصَّبرِ» أي تخليصه[٦] من كل شائبة بحيث يسقط معه الصبر ، فإن

---

(١) في م : «وهي».

(٢) في ط زيادة «هو» وبعدها في أ ، غ «طلب رضائه».

(٣) في غ : «وكهذا»

(٤) انظر مجموع الفتاوىٰ ٢٢/ ٧٦

(٥) في البقية عدا ج ، م ، ق «إن»

(٦) منازل السائرين ٩٣ ، وفيه «تحريك الشوق» وفي البقية بعده عدا م «تخلصه».

قارنه[١] اصطبار فهو شوق.

درجات القلق

ثم قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: قَلَقٌ يُضَيِّقُ الخُلُقَ، وَيَبغِّضُ الخَلقَ، وَيُلَذِّذُ المَوتَ»[٢].

الدرجة الأولى

يعني: يضيق خلق صاحبه عن احتمال الأغيار، فلا يبقىٰ فيه اتساع لحملهم، فضلاً عن تقييدهم له، وتعوقه[٣] بأنفاسهم.

و «يُبَغِّضُ الخَلقَ» يعني: لا شيء أبغض إلىٰ صاحبه من اجتماعه بالخلق، لما في ذلك من التنافر بين حاله وبين خلطتهم.

وحدثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قال: كان في بداية أمره: يخرج أحياناً إلىٰ الصحراء يخلو عن الناس، لقوة ما يرد عليه، فتبعته يوماً فلما أصحر تنفس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر - وهو لمجنون ليلىٰ[٤] من قصيدته الطويلة -:

والقلق: في اللغة الانزعاج. انظر: مختار الصحاح ٥٤٩.

ويقصدون به هنا كما عرفه الكاشاني بقوله: تحريك الشوق صاحبه بإسقاط صبره، ثم ذكره أوصافه في البدايات والأبواب والمعاملات. انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٣١٣.

(١) في ج «فاز به».

(٢) منازل السائرين ٩٣.

(٣) في م «وتعويقه».

(٤) من هنا إلىٰ بداية البيت ساقط من ق. ومجنون ليلىٰ هو قيس بن الملوح العامري، توفي سنة ٦٨هـ، وانظر البيت في ديوان مجنون ليلىٰ شرح يوسف فرحات ٢١٢.

وأخرجُ من بين البيوت لعلّني أُحدِّثُ عنك النفسَ بالسِّر خالياً

وصاحب هذه الحال : إن لم يرده [الله] [1] سبحانه إلىٰ الخلق بتثبيت وقوة ، وإلا فإنه لا صبر له علىٰ مخالطتهم.

وقوله[2] : «وَيُلَذِّذُ المَوتَ» فإن صاحبه يرجو فيه لقاء محبوبه ، فإذا ذكر الموت الْتذَّ به ، كما يلتذ المسافر بتذكر قدومه علىٰ أهله وأحبابه.

فصل

الدرجة الثانية

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : قَلَقٌ يُغَالِبُ العَقلَ ، وَيُخلِي السَّمعَ ، وَيُطَاوِلُ الطَّاقَةَ»[3]. أي يكاد [4] يقهر العقل ويغلبه ، فهو والعقل تارة وتارة ، ولكن لما لم[5] يصل إلىٰ درجة الشهود لم يصطلمه ، فإن العقل لا يصطلمه إلا الشهود ، ولذلك قال «يغالب» ولم يقل «يغلب».

وأما إخلاؤه السمع[6] فهو يتضمن إخلاءه من شيء ، وإخلاءه لشيء ، فيخليه من استماعه ذكر الغير ، ويخليه لاستماعه أوصاف المحبوب، وذكره وحديثه،

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في البقية عدا م ، ج «قوله».

(٣) منازل السائرين ٩٣ وفيه «ويصاول» وفي م «الطاعة».

(٤) في ج زيادة «لا» وهي غير مناسبة.

(٥) «لما» ساقطة من م ، «لم» ساقطة من غ.

(٦) في الأصل ، م ، ج «للسمع» والمثبت كما في البقية موافقة للمنازل.

وقد يقوىٰ إلىٰ أن يبعد بين قلب صاحبه وبين إدراك الحواس ، لانقهار الحس لسلطان القلق.

وقوله [1] : «وَيُطَاوِلُ الطَّاقَةَ» يعني يصابرها ويقاومها ، فلا تقدر طاقة الاصطبار علىٰ دفعه وردِّه. [والله أعلم] [2].

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : قَلَقٌ لاَ يَرحَمُ [3] أَبَداً ، وَلاَ يَقبَلُ أَمَداً ، وَلاَ يُبقِي أَحَداً» ، يريد : أن هذا القلق له القهر والغلبة ؛ لأنه ربما كان عن شهود ، فإذا لق بالقلب لم يبق عليه حتىٰ يلقيه في فناء الشهود.

«وَلاَ يَقبَلُ أَمَداً» أي لا يقبل حداً ومقداراً يقف عنده ، وينقضي به ، كما ينقضي ذو الأمد ، فإنه حاكم غير محكوم عليه ، مالك للقلب غير مملوك له.

«وَلاَ يُبقِي أَحَداً» أي يلقىٰ صاحبه في الشهود الذي تفنىٰ فيه الرسوم ، وتضمحل ، فلا يبقي معه علىٰ أحد رسمه حين [4] يفنيه [والله أعلم].

---

(١) في البقية بدون «الواو».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في ج «لا يزاحم» وقوله في المنازل ٩٣.

(٤) في ط : «حتىٰ» والزيادة من الجميع.

فصل

[منزلة العطش]

منزلة العطش

ثم يقوىٰ هذا «القلق» ويتزايد حتىٰ يورث القلب حالة شبيهة بشدة ظمأ الصادي الحرّان إلىٰ الماء، وهذه الحالة هي التي يسميها صاحب المنازل «العطش» واستشهد عليه بقوله تعالىٰ عن الخليل: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام: ٧٦] كأنه أخذ من إشارة الآية، أنه (١) لشدة عطشه إلىٰ لقاء محبوبه - لما رأىٰ الكوكب - قال هذا ربي، فإن العطشان إذا رأىٰ السراب ذكّره (٢) الماء، فاشتدّ عطشه إليه.

وهذا ليس معنىٰ الآية قطعاً، وإنما القوم مولعون بالتعلّق (٣) بالإشارات، وإلا فالآية قد قيل إنها علىٰ تقدير الاستفهام، أي أهذا ربي؟ وليس بشيْء وقيل: إنها علىٰ وجه إقامة الحجة علىٰ قومه، فتصور بصورة الموافق، ليكون أدعىٰ إلىٰ القبول (٤)، ثم توسل بصورة الموافقة إلىٰ

---

(١) «أنه» ساقطة من غ، ح، ب.

(٢) في ط «ذكر به».

(٣) «بالتعلق» ساقطة من ط.

(٤) ذكر الإمام البغوي هذه الأقوال وغيرها وخلاصتها أن بعضهم قال: كان إبراهيم - عليه السلام - مسترشداً طالباً للتوحيد.. وأنكر آخرون هذا القول وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو موحد وبه عارف.. ثم قالوا: فيه أربعة أوجه من

إعلامهم(١) بأنه لا يجوز أن يكون المعبود ناقصاً آفلا ، فإن المعبود الحق لا يجوز أن يغيب عن عابديه وخلقه ، ويأفل عنهم ، فإن ذلك منـــاف لربوبيته لهـــم ، أو أنه انتقـل في(٢) مراتب الاستدلال علىٰ المعبود حتىٰ أوصله الدليل إلىٰ الذي فطر السماوات والأرض ، فوجه إليه وجهه حنيفاً موحداً ، مقبلاً عليه ، معرضاً عما سواه. [والله سبحانه أعلم](٣).

فصل

قال : «العَطَشُ : كِنَايَةٌ عَن غَلَبَةِ وُلُوعٍ بِمَأمُولٍ»(٤).

«الوُلُوعُ» بالشيء : هو التعلق به بصفة المحبة ، مع أمل الوصول إليه.

وقيل في حد « الولوع » إنـــه كثرة ترداد القلب إلىٰ الشيء المحبوب. كما

التأويل : أحدها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أراد أن يستدرج القوم بهذا القول... والوجه الثاني : أنه قاله علىٰ وجه الاستفهام تقديره أهذا ربي... والوجه الثالث : أنه علىٰ وجه الاحتجاج عليهم ، يقول : هذا ربي بزعمكم؟... الوجه الرابع : فيه إضمار وتقديره يقولون هذا ربي

انظر : تفسير البغوي ٣/ ١٦١ و ١٦٢.

(١) في ق : «بإعلامهم».

(٢) في البقية عدا م : «من».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ب ، م.

(٤) منازل السائرين ٩٤ ، وفي معجم اصطلاحات الصوفية ٣١٥ هو عطش السالك إلىٰ ما يبلغه إلىٰ المطلوب ويروّحه بشهود المحبوب.

يقال : فلان مولع بكذا ، وقد ولع به[1].

وقيل : هو لزوم القلب للشيء. فكأنه مثل : أَغْرِىٰ به ، فهو مُغرىٰ.

درجات العطش الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. [الدَّرَجَةُ][2] الأُولىٰ : عَطَشُ المُرِيدِ إِلَىٰ شَاهِدٍ يُروِيه[3] ، أَو إِشَارَةٍ تَشفِيه ، أَو عَطفَةٍ تُروِيه»[4].

لما كان المريد من أهل طلب الشواهد والشاهد[5] علىٰ الاعتبار ، ومثير العزمات ، وتعلق العباد بالأعمال.

وقوله : «شَاهِدٍ يُروِيه» يحتمل : أنه من الرواية. أي يرويه عمن أقامه له. فيكون ذلك إشارة إلىٰ شواهد العلم. فهو شديد العطش إلىٰ شواهد يرويها عن الصادقين من أهل السلوك ، يزداد بها تثبيتاً وقوة وبصيرة[6]. فإن المريد إذا تجددت له حالة ، أو حصل له وارد : استوحش من تفرده بها. فإذا قام عنده بمثلها شاهد حال لمريد[7] آخر صادق ، قد سبقه إليها : استأنس بها أعظم استئناس. واستدل بشاهد ذلك المريد علىٰ صحة شاهده. فلذلك يشتد عطشه

---

(١) في ط «أولع به» وم «ولع بكذا» وانظر النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٢٦.

(٢) الزيادة من ح.

(٣) في م «مشاهدة ترويه» وبعدها في ق «وإشاره».

(٤) في ح «عطفيه» وق «عطف» وط «عطفه تؤديه» وهو كذلك في المنازل.

(٥) «والشاهد» ساقطة من الجميع عدا ش ، م ، ق.

(٦) في البقية عدا ق ، م «وقوة بصيره» وفي م «وتبصر».

(٧) في ق : «بمثلها حال المريد» و ج «شاهد حال المريد».

إلىٰ شاهد يرويه عن الصادقين.

ويحتمل : أنه من الرِّيِّ - فيكون مضموم الياء - (١) : إذا حصل له الرِّيُّ بذلك الشاهد. ونزل علىٰ قلبه منزلة (٢) الماء البارد من الظمآن. فقرت عنده صحته (٣) ، وأنه شاهد حق.

ويُرجح هذا : ذكر الرِّي مع العطش.ويُرجح الأول : ذكره لفظة (٤) «الري» في قوله : «أَو عَطفَةٍ تُروِيه» والأمر قريب.

قوله : «أَو إِشَارَةٍ (٥) تَشفِيه» أي تشفي قلبه من علة عارضة. فإذا وردت عليه الإشارة إما من صادق مثله ، أو من عالم ، أو من شيخ مسلك (٦) ، أو من آية فهمها ، أو عبرة ظفر بها - : اشتفىٰ (٧) بها قلبه . وهذا معلوم عند من له ذوق.

قوله : «أَو إِلَىٰ عَطفَةٍ تُروِيه» أي عطفة من جانب محبوبه عليه ، تروي لهيب عطشه وتبرده (٨). فلا شيء أروىٰ لقلب المحب من عطف محبوبه عليه. ولا

---

(١) في ط زيادة «يعمي» وبعدها في م «فإذا».

(٢) في ج «بمنزلة».

(٣) في م «فقرب عند صحته» وفي البقية «فقرر عنده».

(٤) في غ ، ق : «لفظ».

(٥) «أو إشارة» ساقطة من ب.

(٦) في أ ، غ : «ملك».

(٧) في غ : «استشفىٰ» و م «أشفىٰ».

(٨) في الأصل وم : «وترده» والمثبت كما في البقية لموافقة ما قبلها.

شيء أشد للهيبه وحريقه⁽¹⁾ من إعراض محبوبه عنه. ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب⁽²⁾ ربهم عنهم : أشد عليهم مما هم فيه من العذاب الجسماني. كما أن نعيم أهل الجنة - برؤيته تعالىٰ وسماع خطابه ورضاه وإقباله- أعظم من نعيمهم الجسماني.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : عَطَشُ السَّالِكِ إِلَىٰ أَجَلٍ يَطوِيه ، وَيَومٍ يُرِيه⁽³⁾ مَا يُغنِيه، وَمَنزِلٍ يَستَرِيحُ فِيه**»⁽⁴⁾.

إما أن يريد بالأجل الذي يطويه : انقضاء مدة سجن القلب والروح في البدن ، حتىٰ تصل إلىٰ ربها وتلقاه ، وهذا هو الظاهر من كلامه.

وإما أن يريد به : عطشه إلىٰ مقصود السلوك من وصوله إلىٰ محبوبه ، وقرة عينه وجمعيته عليه. فهو يَطْوي مراحل سيره حثيثاً ، ليصل إلىٰ هذا المقصود ، وحينئذ يعود له⁽⁵⁾ سير آخر وراء هذا السير ، مع عدم مفارقته له. فإنه إنما وصل به⁽⁶⁾. فلو فارقه لانقطع انقطاعاً كلياً. ولكن يبقىٰ له سير ، وهو مستلق علىٰ

---

(١) في م : «وإحراقه».

(٢) في ج : «احتجاب».

(٣) في غ : «يرويه».

(٤) منازل السائرين ، ٩٤.

(٥) في البقية عداج : «إليه».

(٦) في ط زيادة «له».

ظهره ، يسبق به السُّعاة.

ويرجح هذا المعنىٰ الثاني : أن المريد الصادق لا يحب الخروج من الدنيا ، حتىٰ يقضي نحبه [١] ، لعلمه أنه لا سبيل له [٢] إلىٰ انقضائه في غير هذه الدار ، فإذا علم أنه قد قضىٰ نحبه : أحبّ حينئذ الخروج منها ، ولكن لا يقضي العبد [٣] نحبه حتىٰ يوفّي ما عليه.

والناس ثلاثة: موف قد قضىٰ نحبه ، ومنتظر للوفاء ساع [٤] فيه حريص عليه ، ومفرط في وفاء ما عليه من الحقوق. والله المستعان.

قوله : «وَيَومٍ يُرِيه [٥] مَا يُغنِيه» أي يوم يرىٰ فيه ما يغْني قلبه ، ويسد فاقته من قرة عينه بمطلوبه ومراده.

وقوله [٦] : «وَمَنزِلٍ يَستَرِيحُ فِيه» أي منزل من منازل السير ، ومقام من مقامات الصادقين ، يستريح فيه قلبه ، ويسكن فيه. ويخلص من تلون الأحوال عليه. فإن المقامات منازل ، والأحوال مراحل ؛ فصاحب الحال ، شديد العطش إلىٰ

---

(١) في غ : «لا لعلمه» وهو خطأ. والنحب : المدة والوقت ومنه قضىٰ نحبه أي مات. مختار الصحاح ٦٤٨.

(٢) «له» ساقطة من الجميع عدا ج ، م.

(٣) «العبد» ساقطة من الجميع عدا م.

(٤) في غ : «وساع».

(٥) في غ : «يرويه».

(٦) في البقية عدا ق ، م ، ج «قوله».

مقام يستقر فيه وينزله.

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : عَطَشُ المُحِبِّ إِلَىٰ جَلوةٍ ، مَا دُونَهَا سَحَابُ عِلَّةٍ ، الدرجة الثالثة
وَلاَ يُغَطِّيهَا حِجَابُ تَفْرِقَةٍ ، وَلاَ يُعَرِّجُ دُونهَا عَلَىٰ انتِظَارٍ»[١].

عطش المحب : فوق عطش المريد ، والسالك. وإن كان كل محب سالكاً وكل مريد سالكاً. وكل سالك ومريد محب[٢]. لكن خص «المحب» بهذا الاسم لتمكنه في[٣] المحبة ، ورسوخ قلبه فيها. والمريد والسالك : يشمران إلىٰ علمه الذي رفع له ، ووصل إليه. ولذلك جعل الأولىٰ : لأهل البدايات. والثانية للمتوسطين. والثالثة : لأهل النهايات.

قوله : « عَطَشُ المُحِبِّ إِلَىٰ جَلوةٍ مَا دُونهَا سَحَاب » .

يريد بالجلوة[٤] : استجلاء القلب لصفات المحبوب ومحاسنه ، وانكشافها له.

وقوله : «مَا دُونَهَا سَحَاب» أي لا يسترها شيء من سُحُب النفس. وهي

---

(١) منازل السائرين ٩٤.

(٢) في أ ، ب ، غ ، ح : «وكل سالك مريد وكل مريد محب»

(٣) في ط ، ج «من»

(٤) في م : «بالخلوه»

سحب العلل التي هي بقايا في العبد، تحول بينه وبين استجلابه[1] صفات محبوبه، وتعوقه عنه. فمهما بقي في العبد بقية من نفسه، فهي سحاب وغيم ساتر علىٰ قدره. فكثيف ورقيق، وبين بين.

قوله: «وَلاَ يُغَطِّيهَا حِجَاب» الحجب[2] في لسان الطائفة: النفس وصفاتها وأحكامها، وهم مجمعون علىٰ أن النفس من أعظم الحجب؛ بل هي الحجاب الأكبر، فإن حجاب الرب سبحانه عن ذاته هو «النور. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»[3]، وحجابه من عبده: هو نفسه وظلمته، فلو كشف عنه هذا الحجاب لوصل إلىٰ ربه. والوصول عند القوم: عبارة عن ارتفاع هذا الحجاب وزواله[4]. فالحجاب الذي يشتد علىٰ

---

(١) في م: «استحلائه» وفي البقية عدا ب: «استجلائه».

(٢) في ط «الحجاب»، والحجاب كما عرفه الجرجاني: كل ما يستر مطلوبك، وهو عندهم: انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحق. التعريفات ١١٥. وقال في اللمع ٤٢٨: «والحجاب: حائل يحول بين الشيء المطلوب المقصود وبين طالبه وقاصده».
وانظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٨١.

(٣) الحديث أوله: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام إن الله لا ينام وفي قوله حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه ١/ ١٦١-١٦٢ (١٧٩)، ومعنىٰ سبحات وجهه كما جاء في هامش صحيح مسلم في الإحالة السابقة: نوره وجلاله وبهاؤه. وانظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٣٢.

(٤) في م زيادة: «والحجاب» وهي غير مناسبة.

المحب[1] ، ويشتد عطشه إلىٰ زواله : هو حجاب الظلمة والنفس. وهو الحجاب الذي بينه هو [2] وبين الله.

مشاهدة الله في الدنيا أمر محال

وأما الحجاب الذي بين الله وبين خلقه - هو [3] حجاب النور - فلا سبيل إلىٰ كشفه في هذا العالم ألبتة.ولا يطمع في ذلك بشر. ولم يكلم الله بشراً إلا من وراء حجاب وهذا الحجاب كاشف للعبد ، موصل له إلىٰ مقام الإحسان الذي يعبر عنه القوم بمقام «المشاهدة» والأول ساتر للعبد. قاطع له ، حائل بينه وبين الإحسان ، وحقيقة الإيمان.

والتفرقة كلها عندهم حجب ، إلا تفرقة في الله وبالله ولله. فإنها لا تحجب العبد عنه بل توصله إليه ، فلذلك قال : «**وَلاَ يُغَطِّيهَا حِجَابُ تَفرِقَة**» فإن التفرقة إنما تكون حجاباً إذا كانت بالنفس ولها.

قوله : «**وَلاَ يُعَرِّجُ دُونَهَا عَلَىٰ انتِظَار**» يعني : لايعرج المشاهد[4] لما يشاهده علىٰ انتظار أمر آخر وراءها. كما يعرج المحب المحجوب علىٰ انتظار زوال حجابه. والمراد : أنه حصل له مشهد تام. لا يبقىٰ له بعده ما ينتظره.

---

(١) في أ ، ب ، غ : «الحجب».

(٢) «هو» ساقطة من ط.

(٣) في ط : «وهو» وج ، ح : «فهو».

(٤) في غ : «المشاهدة» وهو خطأ.

وهذا عندي وهْمٌ بيِّن. فإنه لا غاية لجمال المحبوب ، وكمال صفاته. بحيث يصل المشاهد لها إلىٰ حالة لا ينتظر معها شيئاً آخر.

[هذا](١). وسنبين - إن شاء الله - أنه لا يصح لأحد في الدنيا مقام «المشاهدة» أبداً ، وأن هذا من أوهام القوم وتُرَّهَاتهم. وإنما غاية ما يصل إليه العبد : الشواهد. ولا سبيل لأحد قط في الدنيا إلىٰ مشاهدة الحق. وإنما وصوله إلىٰ شواهد الحق. ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه ، وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم.

ولله در الشبلي حيث سئل عن المشاهدة؟ فقال : من أين لنا مشاهدة الحق؟ لنا شاهد الحق(٢). هذا ، وهو صاحب الشطحات المعروفة ، وهذا من أحسن كلامه وأمتنه(٣).

وأراد بشاهد الحق : ما يغلب علىٰ القلوب الصادقة العارفة [الصافية](٤) : من ذكره ومحبته، وإجلاله وتعظيمه ووقاره(٥)، بحيث يكون ذلك حاضراً فيها،

---

(١) الزيادة من الجميع. وسوف يتكلم المؤلف عن ذلك في منزلة المشاهدة.

(٢) «لنا شاهد الحق» ساقطة من ق ، ج ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٨٦ بلفظ : «الحق لنا شاهد» ، وانظر شيئاً من شطحاته في ترجمته في الطبقات الكبرىٰ للشعراني ص١٤٨-١٥١ ومن شطحاته أيضاً انظر اللمع ص٤٧٨-٤٩١.

(٣) في البقية عدا م ، ج ، ق : «وأبينه».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) في ط : «وتوقيره».

مشهوداً بها (١) غير غائب عنها. ومن أشار إلىٰ غير ذلك فمغرور مخدوع. وغايته : أن يكون في خفارة صدقه ، وضعف تمييزه وعلمه.

ولا ريب أن القلوب تشاهد (٢) أنواراً بحسب استعدادها. تقوىٰ تارة ، وتضعف أخرىٰ (٣). ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف ، وصفاء البواطن والأسرار. لا أنها أنوار الذات المقدسة. فإن الجبل لم يثبت لليسير من ذلك النور حتىٰ تدكدك وخرَّ الكليم صعقاً ، مع عدم تجليه له فما الظن بغيره؟

فإياك ثم إياك وترهات القوم وخيالاتهم وأوهاومهم. فإنها عند العارفين أعظم من حجاب النفس وأحكامها. فإن المحجوب بنفسه معترف بأنه في ذل(٤) الحجاب. وصاحب هذه الخيالات والأوهام (٥) يرىٰ أن (٦) الحقيقة قد تجلت له أنوارها. ولم يحصل ذلك لموسىٰ بن عمران كليم الرحمن. فحجاب هؤلاء أغلظ بلا شك من حجاب أولئك. ولا يقر لنا بهذا إلا عارف قد شرق في باطنه نور(٧) المحمدية. فرأىٰ ما الناس فيه. وما أعز ذلك في الدنيا. وما

---

(١) في الجميع عدا م : «لها».

(٢) في ج : «نوراً».

(٣) «لكن» ساقطة من ب وبعدها «الأعمال» ساقطة من م.

(٤) في البقية عدا م ، ق ، ج : «ذلك».

(٥) في م : «لأوهام الخيالات».

(٦) «أن» ساقطة من غ ، ب.

(٧) في ط زيادة «السنة».

أغربه[1] بين الخلق! والله المستعان.

فالصادقون في أنوار معارفهم وعباداتهم وأحوالهم ليس إلا وأنوار ذات الرب تبارك وتعالىٰ وراء ذلك كله وهذا الموضع من مقاطع الطريق. ولله كم زلّت فيه أقدام! وضلَّت فيه أفهام! وحارت فيه أوهام! ونجا منه صادق البصيرة، تام المعرفة، علمه متصل بمشكاة النبوة. وبالله التوفيق.

* * *

(١) في ج: «وما أعز».

فصـــل

[منزلة الوجد]

ومن منازل « إيك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الوجد». منزلـة الوجـد

ثبت في الصحيحين من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف في النار» [1].

وقد استشهد صاحب المنازل - رحمه الله - بقوله تعالىٰ في أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف :١٤] ، وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوحيد[2]. وذاقوا حلاوته. وباشر قلوبهم. فقاموا من[3] بين قومهم ، وقالوا : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

والربط علىٰ قلوبهم : يتضمن الشدّ عليها بالصبر والتثبيت ، وتقويتها

---

(١) الحديث تقدم تخريجه ص ٢٨١١.

(٢) في البقية عدا م ، ق : «والتوفيق».

(٣) «من» ساقطة من م.

وتأييدها بنور الإيمان ، حتىٰ صبروا علىٰ هجران دار قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش ، وفروا بدينهم إلىٰ الكهف.

والربط علىٰ القلب : عكس الخذلان. فالخذلان :حله من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه ، ويتبع هواه ، ويصير أمره فرطا.

والربط علىٰ القلب : شده[1] برباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه ، ويتبع مرضاته ، ويجتمع عليه شمله[2]. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام «الوجد» .

الوجد

والشيخ ـ رحمه الله ـ جعل مقام «الوجد» غير مقام «الوجود» كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ[3] ، فإن «الوجود» عند القوم هو الظفر بحقيقة الشيء. و«الوجد»[4] هو ما يصادف القلب ، ويرد عليه من واردات المحبة والشوق ، والإجلال والتعظيم ، وتوابع ذلك.

المواجيد

«والمواجيد» عندهم فوق الوجد. فإن «الوجد» مصادفة. «والمواجيد»

---

(١) في ق «شده».

(٢) سقط من م من هنا إلىٰ قوله «كما سيأتي».

(٣) تقدم التعريف به وستأتي منزلته في القسم الأخير من الكتاب.

(٤) الوجد : قيل : اضطراب الفؤاد من خوف الفراق. وقيل : عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر. وقيل : شعلة متأججة من نار العشق يستفيق لها الروح بلمع نور أزلي وشهود دفعي. انظر مزيداً من ذلك في كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٢٩٢-١٩٣ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ٣١٧ ، والتعريفات ٣٠٥.

ثمرات الأوراد. وكلما كثرت الأوراد قويت المواجيد.

و«الوجود» عندهم فوق ذلك. وهو الظفر بحقيقة المطلوب ، ولايكون إلا الوجود
بعد خمود البشرية. وانتساخ [1] أحكام النفس نسخاً كلياً.

قال الجنيد - رحمه الله - : علم التوحيد مباين لوجوده ، ووجوده مباين لعلمه. ولا يريد بالمباينة : المخالفة والمناقضة. فإنه يطابقه مطابقة العلم للمعلوم [2] ، وإنما يريد بالمباينة : أن حال[3] الموحد وذوقه للتوحيد ، وانصباغ قلبه بحاله : أمر وراء علمه به ، ومعرفته به. والمباينة بينهما كالمباينة بين علم الشوق والتوكل والخوف ونحوها ، وبين حقائقها ومواجيدها.

فالمراتب أربعة : أضعفها «التواجد» [4] ، وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء. التواجد
واختلفوا فيه : هل يسلم لصاحبه أم لا؟ علىٰ قولين [5].

فطائفة قالت : لا يسلم لصاحبه. وينكر عليه ، لما فيه من التكلف والتصنع المباين لطريق[6] الصادقين. وبناء هذا الأمر علىٰ الصدق المحض.

---

(١) في البقية عدا م ، ق ، ج : «وانسلاخ... انسلاخاً» وانظر ما قاله المؤلف في كتاب الرسالة القشيرية ٦٢.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ص٦٢و٦٣.

(٣) «حال» ساقطة من ج.

(٤) في ح ، ب «الوجد» .

(٥) انظر : الرسالة القشيرة ٦١.

(٦) في ج : «لطرق».

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها واحتجوا بقول عمر ﷺ، وقد رأىٰ رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان في شأن أسارىٰ بدر، وما قبلوا منهم من الفداء - «أخبراني ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت»[1]، ورووا أثراً: «ابكوا. فإن لم تبكوا فتباكوا»[2].

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السلوك والسير[3] لابد منه. إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال وتعمله[4] بنية حصول الحقيقة لمن يرصد[5] الوجد لايذم.

و«التواجد» يكون بما يتكلفه العبد من حركات ظاهرة «والمواجيد» لما

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم ٢/ ١٣٨٣-١٣٨٥ (١٧٦٣) وغيره.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٣ (٤١٩٦)، وقال الألباني ضعيف وهو مختصر الحديث: «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا) ذكره في باب حسن الصوت بالقرآن. انظر ضعيف سنن ابن ماجه ص٩٩ و ٣٤٥ رقم ٢٨١ و ٩١٨، وانظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته ص٢٩٤ (٢٠٢٥).

(٣) في الجميع «السير والسلوك» وبعدها في أ، غ، ح «لابد فيه».

(٤) في ط: «ومن تأمله» وفي البقية عدا ج، م، ق: «وتأمله». والمثبت هو الصواب لأنه تقدم قوله: «والتكلف والتعمل».

(٥) في م: «يريد» و أ، ب، ط: «رصد» وفي هامش ح «لعله يقصد».

ينازله (١) من أحكام باطنة.

المرتبة الثانية : المواجيد، وهي نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة : «الوجد» وهو (٢) ثمرة أعمال القلوب ، من الحب في الله والبغض فيه ، كما جعله النبي ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلىٰ العبد مما سواهما. وثمرة الحب فيه ، وكراهة عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه(٣) الأعمال القلبية ، التي هي الحب والبغض لله وفي الله (٤).

المرتبة الرابعة : «الوجود» وهي أعلىٰ ذروة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقىٰ إليه. فإنه إذا غلب علىٰ قلبه مشاهدة معبوده ، حتىٰ كأنه يراه وتمكن في ذلك - صار له ملكة خَمِدَتْ(٥) أحكام نفسه، وتبدل بها أحكاماً أخر، وطبيعة ثانية ، حتىٰ كأنه أنشىٰء (٦) نشأة أخرىٰ غير نشأته الأولىٰ ، وولد ولاداً جديداً.

---

(١) في ط : «لمن يتأوله» وج ، غ : «لما يتأوله» و ب «يتكلفه».

(٢) في ج : «وهي».

(٣) «هذه» ساقطة من ق.

(٤) في ب ، ح ، ط : «الحب في الله والبغض في الله» وفي ج : «لحب لله والبغض لله وفي الله» وفي أ ، غ «الحب لله والبغض في الله».

(٥) في ط ، م ، ح : «أخمدت».

(٦) «انشىٰء» ساقطة من م.

ومما يذكر عن المسيح ـ عليه السلام ـ أنه قال: «يا بني إسرائيل، لن تلجوا ملكوت السماء حتىٰ تولدوا مرتين»[1].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يذكر ذلك[2]. ويفسره بأن الولادة نوعان:

أحدهما: هذه المعروفة.

والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس، وظلمة الطبع.

قال: وهذه الولادة لما كانت بسبب الرسول ﷺ كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أبي بن كعب ﷺ[3]: «النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم. وهو أب لهم».

---

(١) ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا في كتابه طريق الهجرتين ٢٧٦ وقال: فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلىٰ الله... إلىٰ أن قال: وولد ولادة أخرىٰ تكون نسبة قلبه فيها إلىٰ الدار الآخرة كنسبة جسمه إلىٰ هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقة كما ولد جسمه حقيقه... إلىٰ آخر ما ذكر.

(٢) انظر منهاج السنة النبوية ٤/ ٣٦٩ و ٥/ ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٣) أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي سيد القراء من فضلاء الصحابة اختلف في سنة موته فقيل ١٩هـ وقيل ٣٢هـ وقيل غير ذلك. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٤٨ (٣٢١)، التاريخ الكبير ٢/ ٣٩ (١٦١٥).

قال : ومعنىٰ هذه [الآية] (١) والقراءة في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب :٦] ، إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم : فرع علىٰ (٢) ثبوت أبوته.

قال : فالشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح (٣). والوالد أب الجسم.

ويقال في الحب «وجد» ، وفي الغضب (٤) «موجدة» ، وفي الظفر «وجدان ووجود».

فصــل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«وَالوَجدُ : لهَيبٌ يَتَأَجَّجُ مِن شُهُودِ عَارِضٍ مُقلِقٍ» (٥).

لما كان «الوجود» أعلىٰ من «الوجد» جعل سبب «الوجد» شهوداً عارضاً. وجعل «الوجود» نفس الظفر بالشيء ، كما سيأتي (٦). وإنما أوجب اللهيب لأن

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م ، ق.

(٢) في ط «عن» وثبوت «ساقطة من م. وانظر ما تقدم في تفسير البغوي ٦/ ٣١٨ و ٣١٩ ، والدر المنثور ٦/ ٥٦٦-٥٦٨ ، وتفسير أبي السعود ٧/ ٩١ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٧ و٤٨٨.

(٣) في ق «الزوج».

(٤) في م : «البغض».

(٥) منازل السائرين ٩٤ ، وفيها : «لهب» وهو كذلك في ط و «مقلق» ساقطة من م ، وفي ط : «القلق».

(٦) يقصد ما سيذكره في منزلة الوجود.

صاحبه لما شهد محبوبه: أورثه ذلك لهيب القلب إليه، ولما لم يظفر به أورثه[١] القلق. فلذلك جعله لهيباً مقلقاً[٢].

درجات الوجد الدرجة الأولى

قال: «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: وَجدٌ عَارِضٌ يَستَفِيقُ لَهُ شَاهِدُ السَّمعِ، أَو شَاهِدُ البَصَرِ، أَو شَاهِدُ الفِكرِ. أَبقَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِهِ أَثَراً أَو لَم يُبقِ**»[٣].

قوله: «**وَجْدٌ عَارِضٌ**» أي متجدد. ليس بلازم «**يَستَفِيقُ لَهُ شَاهِدُ السَّمعِ**» أي ينتبه السمع[٤] من سنته لوروده عليه. وهذا إذا كان المنبه له خطاباً من خارج أو من نفسه. وأما «**إِفَاقَةُ شَاهِدِ البَصَرِ**» فلما يراه ويعاينه[٥] من آيات الله. فينتقل منها إلىٰ ما نصبت آية له وعليه. وأما «**إِفَاقَةُ شَاهِدِ الفِكرِ**»[٦] فيما يفتح له من باب المعاني التي أوقعه عليها فكره وتأمّله.

وهذه الشواهد الثلاثة [هي][٧] التي دعا الله سبحانه عباده إلىٰ تبنيها والاستشهاد بها. وقبول الحق الذي تشهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة

---

(١) في ق: «ورثه».

(٢) في أ زيادة «فصل الدرجة الثانية» وهو خطأ.

(٣) منازل السائرين ص٩٤، ٩٥.

(٤) «أي ينتبه السمع» ساقطة من م.

(٥) «ويعاينه» ساقطة من م.

(٦) في ط: «ففيما».

(٧) الزيادة من أ.

عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان. قال [الله][1] تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١][2]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، والقرآن مملوء من هذا.

فإذا استفاق شاهد السمع والبصر والفكر[3]، وجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان، وخرج من جملة النيام والغافلين[4].

قوله: «أَبقَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِه أَثراً أَو لَم يُبقِ» يعني: أن ذلك الوجد العارض قد يُبقي علىٰ واجده أثراً من أحكامه بعد مفارقته[5]. وقد لايُبقي. والظاهر: أنه لابد أن يُبقي أثراً، لكن قد يخفىٰ، وينغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) الآية السابقة ساقطة من م، ط، والآية التي بعدها ساقطة من م أيضاً.

(٣) في ط «ووجد القلب حلاوة المعرفة» وقبلها «الفكر» ساقطة من ب، ج، وفي ج «القلب».

(٤) «الواو» ساقطة من الجميع عدا م، ب، غ.

(٥) في ج: «مفارقة».

فصل

الدرجة الثانية «(١) الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : وَجْدٌ تَستَفِيقُ لَه الرُّوحُ بِلمعِ نُورٍ أَزليٍّ. أَو سَمَاعِ نِدَاءٍ (٢) أَوَّليٍّ ، أَو جَذبٍ حَقِيقِيٍّ. إِن بَقِيَ عَلَىٰ صَاحِبِهِ لِبَاسُه ، وَإلاَّ أَبقَىٰ عَلَيهِ نُورَهُ».

إنما (٣) كان هذا الوجد أعلىٰ من الوجد الأول : لأن محل اليقظة فيه هو الروح ، ومحلها في الأول : السمع والبصر والفكر. والروح هي الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه أوصاف (٤) من صفاتها.

وأيضاً فلعلو وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلقه ، فإن متعلق وجد السمع (٥) والبصر والفكر : الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح : تعلقها بالمحبوب لذاته. ولذلك جعل سببه «لمع نور أزلي» يعني شهودها لمع نور (٦) الحقيقة الأزلي. وهذا الشهود لاحظَّ فيه للسمع ولا للبصر ولا للفكر ؛ بل تستنير به الأسماع والأبصار ؛ لأن الروح لما استنارت بهذه اليقظة والإفاقة أتم استناره استنارت بنورها(٧) الأسماع والأبصار. لا سيما وصاحبها في هذه

---

(١) في ط زيادة «قال».

(٢) في م زيادة «خطاب» وانظر المنازل ٩٥.

(٣) في ج : «وإنما» وق بعدها : «لهذا».

(٤) في ط : «الأوصاف».

(٥) في م : «لأن متعلق السمع».

(٦) «نور» ساقطة من ح.

(٧) في الجميع عدا ق ، م «ثم استنارت بنورهما».

الحال إنما يسمع بالله ويبصر به وإذا كان سمعه وبصره وبطشه بالله ، فما الظن بحركة روحه وقلبه وأحكامها؟

قوله : «أَو سَمَاعِ نِدَاءٍ أَوَّلِيٍّ» إن أراد به : تعرف الحق تعالىٰ إلىٰ عباده بواسطة الخطاب علىٰ ألسنة رسله - وهذا هو الخطاب الأَوَّليُّ[١] - فصحيح. وإن أراد به خطاب الملك له : فليس بخطاب أَوَّليٌّ[٢]. وإن أراد ما يسمعه[٣] في نفسه من الخطاب : فهو خطاب وهمي. وإن ظنه أوليّاً[٤]. فإياك والأوهام والغرور.

ونحن لا ننكر الوجود ، ولا ندفع الشهود. وإنما نتكلم مع القوم في مرتبته ومنشئه[٥] ، ومن أين بدأ؟ وإلىٰ أين يعود؟ فلا ننكر واعظ الله في قلب عبده المؤمن الذي يأمره وينهاه. ولكن ذاك[٦] في قلب كل مؤمن جعله الله واعظاً له يأمره وينهاه ، ويناديه ويحذره[٧] ، ويبشره وينذره. وهو الداعي الذي يدعو فوق الصراط. والداعي علىٰ رأس الصراط : كتاب الله. كما في[٨] المسند والترمذي

---

(١) في م : «الأول» وفي البقية «الأزلي».

(٢) في ط ، ج : «أزلي».

(٣) في البقية عدا م ، ج : «ما سمعه».

(٤) في ط : «أزلياً».

(٥) في ط ، ب : «رتبته وإنشائه» و أ ، ح ، غ : «رتبته ونشأته».

(٦) في البقية عدا ق «ذلك» وبعدها «في» ساقطة من م.

(٧) «ويحذره» ساقطة من ق.

(٨) في غ : «وفي».

من حديث النواس بن سمعان(١) عن النبي ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً. وعلىٰ جنبتي الصراط سوران. وفي السورين أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو علىٰ رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتىٰ يكشف الستر. والداعي علىٰ رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»(٢).

فما ثم خطاب قط إلا من جهةٍ من(٣) هاتين: إما خطاب القرآن، وإما خطاب هذا الواعظ.

ولكن لما كانت الروح قد تتجرد(٤) ويقوىٰ تعلقها بالحق تعالىٰ ويضعف تعلقها(٥)؛ بل(٦) يتلاشىٰ بما سواه. وقد يقترن بذلك نوع غيبة

---

(١) هو النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبدالله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي أو الأنصاري، صحابي مشهور، سكن الشام. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ٣٠٨، وأسد الغابة ٦/ ٢٥٧.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٨٢ و ١٨٣، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٧٣ وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقد صححه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٦٧ (١٩١، ١٩٢) وصححه السيوطي أيضاً. انظر: الجامع الصغير ص٣٢١ (٥٢١١).

(٣) «من» ساقطة من م، ب، ق.

(٤) في البقية عدا ج، ط، ق: «وتجرد».

(٥) سقط من ط «ويضعف تعلقها».

(٦) في ط زيادة «قد».

عن(١) حسّه ويقوىٰ داعي هذا الواعظ. ويستولي علىٰ قلبه وروحه، بحيث يمتلئ به، فتؤديه الروح إلىٰ الأذن، فيرجع(٢) عن الأذن إليها. إذ هي مبدؤه. وإليها يعود، فيظنه خطاباً خارجياً(٣)، وينضاف إلىٰ ذلك(٤) نوع من ضعف العلم ومعرفة المراتب. فينشأ الغلط والوهم. قوله: «أَو جَذبٍ حَقِيقِيٍّ» يعني: أن من أسباب هذا «الوجد» جذبه حقيقة(٥) من جذبات الرب تعالىٰ لعبده، استفاقت لها روحه من منامها. وحييت بها بعد مماتها. واستنارت بها بعد ظلماتها. فالوجد خلعة(٦) هذه الجذبة.

قوله: «وَإِن أَبقَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِهِ لِبَاسَهُ، وَإِلاَّ أَبقَىٰ عَلَيهِ نُورَهُ».

يريد بلباسه مقامه، يعني إن أبقىٰ(٧) عليه تحقق مقامه فيه، وإلا أبقىٰ عليه

---

(١) في البقية عدا ج، ق، م «من».

(٢) في ط: «فيخرج».

(٣) في البقية عدا ج، م «خارجاً».

(٤) في ج زيادة «كل» وهي غير مناسبة.

(٥) في ح، م، ب «حقيقة» والجذبة: قال الطوسي عن هذه العبارة وما قاربها «وما يشاكل ذلك: فإن أكثر ذلك عبارات تعبر عن التوفيق والعناية، وما يبدو علىٰ القلوب من أنوار الهداية علىٰ مقدار قرب الرجل وبعده وصدقه وصفائه في وجده» اللمع ٤٢٥.

وقال الكاشاني: «الجذبة: وهو تقريب العبد بمقتضىٰ العناية الإلهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه في طيِّ المنازل إلىٰ الحق بلا كلفة وسعي منه. معجم اصطلاحات الصوفية ص٦٥.

(٦) في ج: «خلق».

(٧) في غ: «بقي» وكذلك الثانية بعدها.

أثره. فمقامه يورثه عزاً ومهابة وخلافه نبوة ، ومنشور صديقية. وأثره يورثه حلاوة وسكينة ، وأنساً في نفسه وأنساً للقلوب به ، وهوىٰ الأفئدة إليه.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : وَجْدٌ يخطِفُ العَبدَ مِن يَدِ الكَونَينِ ، وَيُمَحِّصُ مَعنَاه مِن دَرَنِ الحَظِّ ، وَيَسلِبُه مِن رِقِّ المَاءِ وَالطِّينِ ؛ إِن سَلَبَه أَنسَاهُ اسْمَهُ ،**[1] **وَإِن لَم يَسلِبْه أَعَارَهُ رَسمَهُ**».

قوله[2] : «**يخَطِفُ العَبدَ مِن يَدِ الكَونَينِ**» أي يغنيه عن شهود ما سوىٰ الله من كوني الدنيا والآخرة. فيختطف القلب من شهود هذا وهذا بشهود[3] المكوّن.

قوله : «**وَيُمَحِّص مَعنَاه مِن دَرَنِ الحَظِّ**» أي يخلص عبوديته التي هي حقيقته وسره من وسخ حظوظ نفسه وإراداتها[4] ، المزاحمة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية - التي هي معنىٰ العبد - لايكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ. فمتىٰ فقدت حظوظها تمحضت[5] عبوديتها. وكلما مات منها حظ حيي منها[6]

---

(١) في م : «وإن ألقاه لم يسلبه أعماره رسمه» وانظر منازل السائرين ٩٥.

(٢) في ط : «فقوله».

(٣) في أ ، غ «بشهوده».

(٤) في غ ، ح «إرادته وفي أ ، ب ، ج «إرادتها».

(٥) في البقية عدا م ، ج : «بالصاد».

(٦) في ق : «فيها».

عبودية ومعنىٰ. وكلما حيي فيها حظ ماتت منها (١) عبودية حتىٰ يعود الأمر علىٰ نفسين (٢) وروحين وقلبين : قلب حي ، وروح حية بموت نفسه (٣) وحظوظها ، وقلب ميت ، وروح ميتة بحياة نفسه وحظوظه. وبين ذلك مراتب متفاوتة في الصحة والمرض ، وبين بين ، لا يحصيها إلا الله.

قوله :«وَيَسلِبُهُ مِن رِقِّ المَاءِ وَالطِّينِ»(٤) أي يعتقه ويحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين ، إلىٰ رق رب العالمين ، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين ، كما قيل :

يا خادمَ الجسم كم تشقىٰ بخدمته ... [وتطلبُ الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبل علىٰ الروح واستكمل فضائلها](٥) ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

والناس في هذا المقام ثلاثة : عبد محض. وحر محض ، ومكاتب قد أدىٰ بعض كتابته. وهو يسعىٰ في بقية الأداء.

فالعبد المحض : عبد الماء والطين. الذي قد استعبدته نفسه وشهوته ،

---

(١) «منها» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) في ط «نفسيين» وغ «نفيس».

(٣) في ق «نفسها».

(٤) سقط من م إلىٰ قوله «رب العالمين».

(٥) الزيادة من ح ، م ، وقد ذكر المؤلف هذا البيت بدون الزيادة في كتابه الروح ١٩٨ ، ومفتاح دار السعادة ١/ ١٠٨ ، وهو في التبيان لأبي الفتح البستي ، انظر كتاب أبو الفتح البستىٰ حياته وشعره ٣١١.

وملكته وقهرته. فانقاد لها انقياد العبد إلىٰ سيده الحاكم عليه.

والحر المحض: هو الذي قهر نفسه وشهوته [١] وملكها. فانقادت معه [٢] وذلت له ودخلت تحت رقِّه وحكمه.

والمكاتب: من قد [٣] عقد له سبب الحرية. وهو يسعىٰ في كمالها. فهو عبد من وجه حر من وجه وللبقية [٤] التي بقيت عليه من الأداء كان [٥] عبداً ما بقىٰ عليه درهم. فهو عبد ما بقي عليه حظٌّ من حظوظ نفسه.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفاز بعبودية [٦] رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية. فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته.

قوله: «إِن سَلَبَه أَنسَاهُ اسْمَه، وَإِن لَمَ يَسلِبْه أَعَارَه رَسمَه» أي هذا الوجد إن سلب صاحبه بالكلية: فأفناه عنه، وأخذه [٧] منه: أنساه اسمه؛ لأن الاسم [٨] تبع

(١) في البقية عدا م «قهر شهوته ونفسه»

(٢) «معه وذلت له» ساقطة من م.

(٣) «قد» ساقطة من غ، ح، وبعدها في ج «عقل».

(٤) في ح: «والبقية» وفي البقية عدا م، ج، ق: «وبالبقية».

(٥) في ط: «يكون».

(٦) في أ: «بعبادة».

(٧) في ب زيادة «إن» وهي غير ملائمة.

(٨) هنا في غ، ح تكرار من قوله «أي هذا» - المذكور قبل قليل - إلىٰ هنا.

للحقيقة. فإذا سلب الحقيقة [١] : نسي اسمها ، وإن لم يسلبه بالكلية ؛ بل أبقىٰ منه رسماً ، فهو معار عنده بصدد الاسترجاع. فإن العواري يوشك أن تسترد.

يشير [٢] بالأول : إلىٰ حالة الفناء الكامل. وبالثاني : إلىٰ حالة الغيبة التي يئوب[٣] غائبها. والله أعلم.

* * *

(١) «الحقيقة» ساقطة من ب.

(٢) في ط : «ويشير» ويقصد المؤلف «بالأول» هو قول الهروي «إن سلبه أنساه اسمه» ويقصد بالثاني. قول الهروي : «وإن لم يسلبه أعاره رسمه».

(٣) في م «تورث» وبعدها في ط زيادة «منها».

فصـــل

[منزلة الدهش]

منزلة الدهش

وقد يعرض للسالك «دهشة»(١) في حال سلوكه ، شبيهة بالبهتة التي تحصل للعبد عند مفاجأة رؤية محبوبه. وليست من منازل السلوك. خلافاً [للشيخ](٢) أبي إسماعيل الأنصاري حيث جعلها من المنازل(٣) ؛ بل من غاياتها(٤). فإن هذه الحالة ليست مذكورة في القرآن. ولا في السنة. ولا في كلام السالكين. ولا عدَّها أحد من المتقدمين من المنازل والمقامات. ولهذا لم يجد ما يستشهد به عليها سوىٰ حال النسوة مع يوسف ـ عليه السلام ـ ، لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن.

فصدر الباب بقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ [يوسف :٣١] أي أعظمنه.

فإن كان مقصوده : ما حصل لهن من إعظامه وإجلاله : فذلك منزلة التعظيم. وإن كان مراده : ما ترتب علىٰ رؤيته (٥) ، من غيبتهن عن أنفسهم وعن أيديهن ، وما فيها حتىٰ قطعنها : فتلك منزلة الفناء.

---

(١) في غ : «وحشه».

(٢) الزيادة من م ، ج.

(٣) في ب «من منازلها».

(٤) في غ «من غايتها».

(٥) في غ «عليه رؤيته» وبعدها في ط زيادة «لهن».

وإن كان مقصوده : الدهشة والبهتة التي حصلت لهن عند مفاجأته - وهو الذي قصده - فذلك أمر عارض[من عوارض الطريق][1] عند مفاجأة ما يغلب علىٰ صبر الإنسان وعقله. ولا ريب أن ذلك عارض من عوارض [الطريق][2] ليس بمقام للسالكين ، ولا منزل مطلوب لهم. فعوارض الطريق شيء[3]. ومنازلها [ومقاماتها][4] شيء.

فلذلك قال في تعريفه : «**الدَّهشُ : بَهتَةٌ تَأخُذُ العَبدَ[5] عِندَ مُفَاجَأَةِ مَا يَغلبُ عَلَىٰ عَقلِهِ ، أَو صَبرِهِ ، أَوَ عِلمِهِ**»[6].

يشير إلىٰ الشهود الذي يغلب عقله[7] ، والحب الذي يغلب صبره[8] ، والحال الذي يغلب[9] علمه.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م ثم سقط من ج إلىٰ قوله «ليس بمقام».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) «شيء» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في منازل السائرين ٩٦ : «إذ فجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه».

(٦) وكذلك قال الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ٣١٩ وقال الطوسي في اللمع ٤٢١ : والدهشة سطوة تصدم عقل المحب من هيبة محبوبه إذا لقيه عند الإياس لم يجد لها عاهة إذا انقضت. وفي اللغة معنىٰ دهش : تحير ، انظر مختار الصحاح ٢١٣.

(٧) في ط زيادة «علىٰ» وبعدها سقط من غ قوله «والحب».

(٨) في ط زيادة «علىٰ».

(٩) في البقية عدا ج ، ق : «والحال التي تغلب» وفي ط «والحال التي تغلب علىٰ علمه».

درجات الدهش

الدرجة الأولى

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الأُولَىٰ : دَهشَةُ المُرِيدِ عِندَ صَولَةِ الحَالِ عَلَىٰ عِلمِهِ ، وَالوَجْدِ عَلَىٰ طَاقَتِهِ ، وَالكَشفِ عَلَىٰ هِمَّتِهِ**»[(١)].

يعني : أن علمه يقتضي شيئاً ، وحاله يصول[(٢)] عليه بخلافه ، فهذا غايته : أن يكون معذوراً إن لم يكن مفرطاً ، فإن الحال لا يصول علىٰ العلم إلا وأحدهما فاسد. إما الصائل ، أو المصول عليه. فإذا اقتضىٰ العلم سكوناً ، فصال عليه الحال بحركته : فهي حركة فاسدة. غاية صاحبها : أن يكون معذوراً لامشكوراً. وإذا اقتضىٰ العلم حركة ، فصال الحال عليه بسكونه : فهو سكون فاسد.

مثال الأول : اقتضاء العلم للسكون والخشوع عند وارد السماع القرآني. وصولة الحال عليه ، حتىٰ يزعق أو يشهق أو يخرق[(٣)] ثيابه ، أو يُلقي نفسه لورود ما يدهشه من معاني المسموع علىٰ قلبه. فيصول حاله علىٰ علمه ، حتىٰ لو كان في صلاة تعرض[(٤)] ، لأبطلها وقطعها.

---

(١) منازل السائرين ٩٦ وفيه «الدرجة الأولىٰ».

(٢) صال : بمعنىٰ استطال أو وثب كما في مختار الصحاح ٣٧٣.

وقال الطوسي في اللمع ٤٢٣ الصول : الاستطالة باللسان من المريدين والمتوسطين علىٰ أبناء جنسهم بأحوالهم وهو مذموم.

(٣) في ط «ويشق» وفي البقية عدا م ، ق : «أو يشق ثيابه».

(٤) في ط «فرض».

ومثال الثاني : اقتضاء العلم لحركة [١] مفرقة في رضىٰ المحبوب. فيصول الحال عليها بسكونه وجمعيته ، حتىٰ يقهرها. وهذه من مقاطع القوم وآفاتهم. وما نجا منها إلا أهل البصائر منهم ، العاملون علىٰ تجريد العبودية. وكثرة صور هذا مغنية عن كثرة الأمثلة. فإن أكثرهم يقدم حال الجمعية علىٰ ملابسة الأغيار والأعداء في الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويصول حال الجمعية عنده علىٰ الحركة التي يأمر بها العلم. كما صالت حركة الأول علىٰ السكون الذي يأمر به العلم.

قوله : «وَالوَجْدِ عَلَىٰ الطَّاقَةِ» يعني : أن وجد المحب ربما غلب صبره. وصال علىٰ طاقته. فصرخ إلىٰ محبوبه ، واستغاث به ، حتىٰ يأتيه [٢] النصر من عنده ؛ بل صراخه به واستغاثته به عين نصره [٣] إياه ، حيث حفظ عليه وجده ولم يرد[٤] فيه إلىٰ صبر يسلو به ويجفو ، فيكون ذلك نوع طرد.

قوله : «وَالكَشفِ عَلَىٰ هِمَّتِهِ» يعني أن الهمة تستدعي صدق الطلب ودوامه والكشف : هو الشهود. وهو في مظنة[٥] فسخ الهمة ؛ وإبطال حكمها. لأنها

---

(١) في ط «حركة» وق «الحركة» وفي البقية عدا ج «بحركة».

(٢) في البقية عدا ج ، م «يأتي النصر» و «حتىٰ» ساقطة من م.

(٣) في م «عن بصره» وغ ، ب «غير نصره».

(٤) في ط «ولم يرده».

(٥) في ب «مظنته» وفي ج ، ق بعدها «نسخ».

تقتضي الطلب. وهو يقتضي الفتور؛ لأن الطلب لغائب(١) عن المطلوب، فهمته متعلقة بتحصيله. وصاحب الكشف: في حضور مع مطلوبه. فكشفه صائل على(٢) همته، كما قال بعضهم: إذا برقت بارقة من بوارق الحقيقة لم يبق معها حال ولا همة(٣).

وهذا أيضاً عارض مطلوب الزوال. والبقاء معه انقطاع كلي. فإن السالك في همّةٍ ما دامت روحه في جسده. فإذا فارقته الهمة انقطع واستحسر.

فصل

الدرجة الثانية

«(٤) الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: دَهشَةُ السَّالِكِ عِندَ صَولَةِ الجَمعِ عَلَىٰ رَسمِهِ، وَالسبقِ عَلَىٰ وَقتِهِ، وَالمُشَاهَدَةِ عَلَىٰ رُوحِهِ»(٥).

«الجمع» عند القوم: ما أسقط التفرقة. وقطع الإشارة. وباين الكائنات و «رسم العبد» عندهم: هو صورته الظاهرة والباطنة. فشهود الجمع: يقتضي أن ستولىٰ علىٰ فناء تلك الرسوم فيه. فللجمع صولة علىٰ رسم السالك، يغشاه

(١) في البقية عدا ج، م «للغائب».

(٢) في ق «عن».

(٣) سقط من أ، ب، ح، غ من هنا إلىٰ قوله «ما دامت» و «ما دامت» ساقطة من ج.

(٤) في ط زيادة «قال».

(٥) منازل السائرين ٩٦.

عنده[1] بهته، هي «الدهشة» المشار إليها.

وأما «صَولَةُ السّبقِ عَلَىٰ وَقتِهِ» فالسبق : هو الأزل. وهو سابق علىٰ وقت السالك. وإنما صال الأزل علىٰ وقته : أن وقته حادث فانٍ. فهو يرىٰ فناءه في بقاء الأزل وسبقه، فيغلبه شهود السبق، ويقهره علىٰ شهود وقته، فلا يتسع له.

وأما «صَولَةُ المشَاهَدةِ عَلَىٰ رُوحِهِ» لما[2] كانت المشاهدة تعلق إدراك الروح بشهود الحق تعالىٰ، فهي شهود الحق بالحق - كما قال تعالىٰ[3] «فبي يسمع، وبي يبصر»[4] - اقتضىٰ هذا الشهود صولة علىٰ الروح. فحيث صار الحكم له دونها فانطوىٰ[5] حكم الشاهد في شهوده. وقد عرفت ما في ذلك فيما تقدم[6].

---

(١) في ط : «عندهم» وفي الأصل وم، ق، أ «عند» والمثبت كما في البقية. ومعنىٰ الكلام أن السالك يغشاه عند صولة الجمع علىٰ الرسم بهته وهذه البهتة هي الدهشة وهي كما فسرها الهروي وقد سبق.

(٢) في ط «فلما».

(٣) في ط زيادة «في الحديث القدسي».

(٤) الحديث تقدم ص٢٦٦٤ بلفظ «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وهو حديث «من عادىٰ لي ولياً»

(٥) في ط «انطوىٰ».

(٦) لايقصد المؤلف هنا موضعاً واحداً وإنما جميع ماذكر حول مسألة الشاهد والمشاهدة وانظر فيما تقدم قريباً في منزلة الوجد وفي أول الكتاب عند حديثه علىٰ منزلة التوبة وشرحه لقول الهروي : «اللطيفة الثالثة أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة». وفي القسم الأخير من الكتاب في منزلة المكاشفة والمشاهدة والوجود.

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : دَهشَةُ المُحِبِّ عِندَ صَولَةِ الاتِّصَالِ عَلىٰ لُطفِ العَطِيَّةِ ، وَصَولَةِ نُورِ القُربِ عَلىٰ نُورِ العَطفِ ، وَصَولَةِ شَوقِ العيَانِ عَلىٰ شَوقِ الخَبَرِ»[1].

الاتصال عنده علىٰ ثلاثة مراتب : اتصال الاعتصام ، واتصال الشهود ، واتصال الوجود ، كما سيأتي الكلام عليه[2] إن شاء الله. وبيان ما فيه من حق وباطل ، يجل عنه جناب الحق تعالىٰ.

و[3] «العطية ههنا[4]» : هي الواردات التي ترد في لطف وخفاء علىٰ قلب العبد من قبل الحق تعالىٰ. وهي ألطاف يعامل المحبوب بها محبة ، وتوجب قرباً خاصاً[5] هو المسمىٰ : بالاتصال. فيصول ذلك القرب علىٰ لطف العطية. فيغيب العبد عنها وعن شهودها. وينسيه إياها. لما أوجبه[6] له ذلك القرب من الدهش[7]. وقد يكون سبب ذلك[8] : تواتر أنواع العطايا عليه حتىٰ يدهشه

---

(١) منازل السائرين ٩٦.

(٢) «عليه» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح ، ويقصد المؤلف كلامه عليه في باب الاتصال فيما سيأتي.

(٣) في ح زيادة «وهي ألطاف» وهي غير مناسبة.

(٤) «هي» ساقطة من ب.

(٥) في البقية عدا ج ، ق ، م ، خالصاً.

(٦) «له» ساقطة من غ.

(٧) في ج زيادة : «والعطية فيغيب» وهي تكرار لما سبق. وغير مناسبة هنا.

(٨) «ذلك» ساقطة من ج.

كثرتها وتنوّعها. فيوجب له كثرتها دهشة ، تمنعه من مطالعتها ، مع انضمام ذلك إلىٰ صولة القرب. وهو واردات وأنوار يتصل بعضها ببعض. تمحو ظلم رسمه ونفسه [١].

وأما «صَولَةُ نُورِ القُربِ عَلَىٰ نُورِ العَطفِ» فهو قريب من هذا. أو هو بعينه وإنّما كرر المعنىٰ بلفظ آخر. فإن «لطف العطية» [٢] كله نور عطف ، و«الاتصال» هو القرب نفسه. تعالىٰ الله عن غير ذلك من اتصال يتوهمه ملاحدة الطريق وزنادقتهم.

وأما «صَولَةُ شَوقِ العيَانِ عَلَىٰ شَوقِ الخَبَرِ».

فمراده به [٣] : أن المريد في أول الأمر سالك علىٰ شوق الخبر في مقام الإيمان. فإذا ترقىٰ عنه إلىٰ مقام الإحسان ، وتمكن منه : بقي شوقه شبيهاً [٤] بشوق العيان. فصال هذا الشوق علىٰ الشوق الأول. فإن كان هذا مراده ، وإلا فالعيان في الدنيا لا سبيل لبشر [٥] إليه البتة. ومن زعم خلاف ذلك فأحسن أحواله : أن يكون ملبوساً عليه ، وليس فوق الإحسان للصديقين [مرتبة] [٦] إلا

---

(١) في البقية عدا م ، ج : «نفسه ورسمه».

(٢) في م : «لفظ العطية» وب «لطف العطف».

(٣) في ط «بها».

(٤) «شبيهاً» ساقطة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

(٥) في ط : «للبشر».

(٦) الزيادة من الجميع.

بقاؤهم فيه. فإن سمىٰ ذلك عياناً فالتسمية الشرعية المخلصة التي لا لبس فيها: أولىٰ وأحرىٰ.

وأكثر آفات الناس من الألفاظ. ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها وقصور الحق علىٰ ما هو عليه ، والتعبير المطابق ، فيتولد من ضعف التصور ، وقصور التعبير : نوع تخبيط. ويتزايد علىٰ ألسنة السامعين له وقلوبهم ، بحسب قصورهم(١) ، وبعدهم من العلم. فتفاقم الخطب ، وعظم الأمر. والتبست(٢) طريق أولياء الله الصادقين بطريق(٣) الزنادقة الملحدين. وعزَّ المفرِّق بينهما. فدخل علىٰ الدين من الفساد من ذلك ما لا يعلمه إلا الله. وأشير إلىٰ أعظم الخلق(٤) كفراً بالله وإلحاداً في دينه : بأنه من شيوخ التحقيق والمعرفة والسلوك.

ولولا ضمان الله بحفظ دينه ، وتكفله بأن يقيم له من يجدد أعلامه ، ويحيي منه ما أماته المبطلون. وينعش ما أخمله الجاهلون : لهمدت أركانه ، وتداعىٰ بنيانه ، ولكن الله ذو فضل علىٰ العالمين.

---

(١) في ق ، ج «تصورهم».

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق «التبس».

(٣) في البقية عدا م ، ق «بطرائق».

(٤) «الخلق» ساقطة من ج.

فصل

[منزلة الهيمان][1]

منزلة الهيمان

وقد يعرض للسالك عند ورود بعض المعاني والواردات العجيبة علىٰ قلبه: فرط تعجب، واستحسان واستلذاذ، يزيل عنه تماسكه، فيورثه ذلك «الهيمان» وليس ذلك من مقامات السير، ولا منازل الطريق المقصودة بالنزول فيها للمسافرين. خلافاً لصاحب المنازل[2]. حيث عَدَّ ذلك من أعلىٰ المنازل وغاياتها، وعبر عنه بمنزلة «الهيمان» ولهذا ليس له ذكر في القرآن، ولا في السنة، ولا في لسان سلف القوم.

وقد تكلف له صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ الاستشهاد بقوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف :١٤٣] وما أبعد الآية من استشهاده. وكأنه ظن أنه[3] ذهب عن تماسكه، لما ورد عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهي. فأورثه ذلك هيماناً صُعق منه، وليس كما ظنه. وإنما صعق موسىٰ عند تجلي الرب تعالىٰ للجبل واضمحلاله، وتدكدكه من تجلي الرب تعالىٰ. فالاستشهاد بالآية في منزلة «الفناء» التي تضمحل فيها الرسوم أنسب وأظهر؛ لأن تدكدك الجبل: هو اضمحلال رسمه عند ورود نور التجلي عليه. و «الصعق» فناء في

---

(١) في ط «في منزلة الهيمان».

(٢) في م «فإنه» بدل «حيث».

(٣) في ط «أن موسىٰ».

هذه الحال لهذا الوارد المفنىٰ لبشرية موسىٰ عليه السلام.

وقد حده بأنه «الذَّهَابُ عَن التَّمَاسُكِ تَعَجُّباً أَو حَيرَةً»(١). يعني: أن [الهائم](٢) لا يقدر علىٰ إمساك نفسه للوارد تعجباً منه أو حيرة(٣).

قال: «وَهُوَ أَثبَتُ دَوَاماً، وَأَملَكُ بِالنَّعتِ(٤) مِن الدَّهشِ».

يعني: أن الهائم قد يستمر هيمانه مدة طويلة. بخلاف المدهوش. وصاحب «هيمان» يملك عنان القول. فيصرفه كيف يشاء. ويتمكن من التعبير عنه(٥). أما الدهش: فلضيق معناه، وقصر زمانه: لم يملكه(٦) النعت. فالهائم أملك بنعت حاله ووارده من المدهوش.

درجات الهيمان الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ: الأُولىٰ: هَيَمَانٌ في شَيْم أَوَائِلِ بَرقِ اللُّطْف

---

(١) في غ «بأن» وقوله في المنازل ٩٧ وأوله «الهيمان ذهاب».

والهيمان في اللغة: يأتي علىٰ عدة معاني فقيل: هو أشد العطش. وقيل: داء يأخذ الإبل فتهيم لا ترعىٰ. وقيل: هو كالجنون من العشق والهيام بالكسر الإبل العطاشىٰ. انظر: مختار الصحاح ٧٠٤، وروضة المحبين ص٦٦، ٦٧.

وقد عرفه الكاشاني بقوله: هو دوام الحيرة وثباتها. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٢٠.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في ط «بالواو».

(٤) في البقية عدم، ج «للنعت» وقوله في منازل السائرين ٩٧.

(٥) في غ «العبر».

(٦) في ط «يملك».

عِندَ قَصدِ الطَّرِيقِ ، مَعَ مُلاَحَظَةِ العَبدِ خِسَّةَ قَدْرِهِ ، وَسفَالَةَ مَنزِلَتِهِ ، وَتَفَاهَةَ قِيمَتِهِ»(١).

يريد : أن القاصد للسلوك إذا نظر إلىٰ مواقع لطف ربه به(٢) - حيث أهّله لما لم يؤهّل(٣) له أهل البلاء ، وهم أهل الغفلة والإعراض عنه - أورثه ذلك النظر تعجباً يوقعه في نوع من(٤) الهيمان. قال بعض العارفين في الأثر المروي «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية»(٥) تدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.

وتقوىٰ هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد لخسة(٦) قدر نفسه.

---

(١) منازل السائرين ٩٧ وفيه «الدرجة الأولىٰ» و «سفال منزلته».

(٢) «به» ساقط من م.

(٣) في غ «لما يؤهل» وم «ما لا» وج «إلىٰ ما لم».

(٤) «من» ساقطة من م.

(٥) الحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الدعاء ، باب الرجل يرىٰ المبتلىٰ ما يدعو به ١٠/ ٣٩٥ (٩٧٨٥) وأوله «ما من رجل يرىٰ مبتلىٰ» ورواه عبدالرزاق في المصنف ١٠/ ٤٤٥ (١٩٦٥٥) وأوله «كان يقال : إذا استقبل الرجل شيئاً من هذا البلاء فقال : الحمد لله...» والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٧٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٦٥ ، والطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ١٠٨ وأوله «إذا رأىٰ أحدكم مبتلىٰ فقال الحمد لله...» وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٤٤ (٦٢٣) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ١٥٧ (٥٥٥) وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٨ .

(٦) في غ ، ح ، ب «بخسة» وط «خسة».

فاستصغرها أن تكون أهلاً لما أهلت له. وكذلك شهود «سَفَالَةِ مَنزِلَتِهِ» أي انحطاط رتبته ، وكذلك شهود «تَفَاهَةِ قِيمَتِهِ» أي خستها وقلتها.

وحاصل ذلك كله : احتقاره لنفسه ، واستعظامه للطف ربه به [١] ، وتأهيله له. فيتولد من بين هذين : الهيمانُ المذكور. ولا ريب أنه يتولد من بين هذين الشهودين : أمور أخرىٰ ، أجل وأعظم ، وأشرف من الهيمان - من محبة وحمد وشكر ، وعزم وإخلاص ، ونصيحة في العبودية ، وسرور وفرح بربه ، وأنس به - هي مطلوبة لذاتها. بخلاف عارض الهيمان. فإنه لا يطلب لذاته. وليس هو [٢] من منازل العبودية.

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : هَيَمَانٌ فِي [٣] تَلاطُمِ أَمْوَاجِ التَّحقِيقِ ، عِندَ ظُهُورِ بَرَاهِينِهِ ، وَتَوَاصُلِ عَجَائِبِهِ ، وَلَوَامِعِ أَنْوَارِهِ».

يريد : أن السالك والمريد إذا لاحت له أنوار تحقيق [٤] العلم والمعرفة : اهتدىٰ بها إلىٰ القصد ، عن بصيرة مستجدة ، ويقظة مستجده [٥]. فاستنار بها

---

(١) «به» ساقطة من أ ، م.

(٢) «هو» ساقطة من ح ، م.

(٣) «في» ساقطة من م ، وقوله في المنازل ٩٧ ، وفيه «ولياح أنواره».

(٤) في البقية عدا ج ، ق ، م «تحقق».

(٥) في ط «مستعده» و «يقظة مستجده» ساقطة من ق.

قلبه ، وأشرق لها سره. فتلاطمت عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين. فهام قلبه فيها. وهذا أمر يعرفه بالذوق كل طالب لأمر عظيم انفتحت له الطرق والأبواب إلىٰ تحصليه.

ويريد «بتَوَاصُلِ عَجَائِبِهِ» تتابع عجائب التحقيق ، وأن بعضها لا يحجب عن بعض ، ولا يقف في طريق بعض. وكذلك «لَوامِعُ أَنوارِهِ» وأعظم ما يجد هذا الواجد [1] : عند استغراقه في تدبر القرآن. ويحصل ذلك بحسب استعداده وأهليته للفهم. ونسبة ما دون ذلك إليه : كتفلة في بحر.

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : هَيَمَانٌ عِندَ الوُقُوعِ فِي عَينِ القِدَمِ ، وَمُعَايَنَةِ سُلطَانِ الأَزَلِ ، وَالغَرَقِ فِي بَحرِ الكَشْفِ» [2]. الدرجة الثالثة

يريد : هيمان الفناء. و «الوُقُوعُ فِي عَينِ القِدَمِ» إنما يكون باضمحلال الرسم وفنائه في شهود القدم. فإنه يفنىٰ من لم يكن شهوداً [3]. ويبقىٰ من لم يزل. وكذلك معاينة سلطان الأزل [4] لا يبقىٰ معها معاينة رسول الكائنات وأطلال الحادثات [5].

---

(١) في ب «الوجد».

(٢) منازل السائرين ٩٧.

(٣) في ط «مشهوداً» وفي أ «مشهوداً وسيبقىٰ». وفي م : «وشهود أن يبقىٰ من لم يزل».

(٤) «سلطان الأزل لا يبقىٰ معها معاينة» ساقطة من غ ، ح.

(٥) **الأطلال** : جمع طلل وهو ما شخص من آثار. انظر : مختار الصحاح ٣٦٩ ، ويقصد المؤلف

وأما «بَحرُ الكَشْفِ»الذي أشار إليه : فهو انكشاف الحقيقة لعين القلب. ولا تعتقد أن للسالك وراء مقام الإحسان شيئاً أعلىٰ منه ؛ بل الإحسان مراتب. وأما الكشف الحقيقي للحقيقة : فلا سبيل إليه في الدنيا ألبتة (١).

والقوم يلوح لأحدهم أنوار هي ثمرات الإيمان. ومعاملات القلوب ، وآثار الأحوال الصادقة ، فيظنونها نور الحقيقة. ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم. وإنما هي أنوار في بواطنهم ليس إلا ، وباب العصمة عن غير الرسل مسدود إلا عمَّ (٢) اتفقت عليه الأمة. والله أعلم.

* * *

أن القوم لاستغراقهم في الفناء فإنهم لا يشهدون الرسوم ولا الآثار لوقوعهم في بحر الفناء.

(١) أي رؤية الله في هذه الحياة الدنيا.

(٢) في ط «عمن» وغ ، أ «الأعمال».

فصـل

[منزلة البرق]

ومن أنوار « إياك نعبد وإياك نستعين » نور : «البرق» الذي يبدو للعبد عند دخوله في طريق الصادقين ، وهو لامع يلمع لقلبه. يشبه لامع البرق. منزلة البرق

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «البَرْقُ : بَاكُورَةٌ تلمَعُ لِلعَبْدِ ؛ فَتَدعُوهُ إِلىٰ الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ»(١).

واستشهد عليه بقوله تعالىٰ : ﴿وَهَلْ أَتَنٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه : ٩ ، ١٠].

وجه(٢) الاستشهاد : أن النار (٣) التي رآها موسىٰ كانت مبدأ في طريق نبوته. و«البرق» مبدأ في طريق الولاية التي هي وراثة النبوة.

وقوله : « بَاكُورَةٌ » الباكورة : هي أول الشيء ، ومنه باكورة الثمار

---

(١) في أ «الطريقة» وهو في منازل السائرين ٩٨ ، والبرق : كما عرفه الكاشاني : هو أول مايبدو من أنوار التجليات ، فيدعو العبد إلىٰ الدخول في الولايات أي : السير في الله بالفناء. معجم اصطلاحات الصوفية ١٢١ ، وانظر : التعريفات ٧١.

والبارقة : هي لائحة ترد من الجانب الأقدس وتنطفىء سريعاً ، وهي من أوائل الكشف ومباديه. التعريفات ٦٦ ، وانظر معجم اصطلاحات الصوفية ٦٢.

(٢) في ط «ووجه».

(٣) في ج «هي» بدل «التي».

وهي[١] لما سبق نوعه في[٢] النضج.

قوله[٣] : «يَلمَعُ لِلعَبدِ» أي يبدو له ويظهر «فَيدعُوهُ إِلىٰ الدُّخُولِ فِي هَٰذِهِ الطَّرِيق» ولم يرد[٤] طريق أهل البدايات. فإن تلك هي «اليقضة» التي ذكرها في أول كتابه، وإنما أراد: طريق أرباب[٥] التوسط والنهايات.

وعلىٰ هذا: فالبرق - الذي أشار إليه - هو برق الأحوال، لا برق الأعمال، أو برق لا سبب له من السالك. إنما هو مجرد موهبة.

والدليل علىٰ أنه أراد ما يحصل لأرباب التوسط والنهايات: أنه أخذ - بعد تعريفه - يفرق[٦] بينه وبين الوجد.

فقال: «وَالفَرقُ بَينَهُ وَبَينَ الوَجْدِ: أَنَّ الوَجدَ يَقَعُ بَعدَ الدُّخُولِ فِيهِ. وَالبَرق قَبلَه. فَالوَجْدُ زَادٌ، وَالبَرقُ إذنٌ»[٧].

يريد: أن «البرق» نور يقذفه الله في قلب العبد، ويبديه له. فيدعوه إلىٰ[٨]

(١) في ط، أ، ب، ح «وهو» والباكورة أول الثمار. انظر مختار الصحاح ٦١.

(٢) في ق «عند».

(٣) في ط «وقوله».

(٤) في ج «ولم يطرد».

(٥) في م «أهل».

(٦) يفرق «ساقطة من ق.

(٧) منازل السائرين ٩٨ بدون «والبرق بعده».

(٨) في ط زيادة «به».

الدخول في الطريق. و «الوجد» هو شدة الطلب ، وقوته الموجبة لتأجج[1] اللهيب من الشهود ، كما تقدم.

«والوَجْدُ زَادٌ» يعني : أنه يصحب السالك كما يصحبه زاده ؛ بل هو من نفائس زاده «وَالبَرقُ إِذنٌ» يعني إذناً في السلوك ، و «الإذن» إنما يفسح للسالك في المسير لا غير.

درجات البرق

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ[2] ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الأُولَىٰ : بَرقٌ يَلمَعُ مِن جَانِبِ العِدَةِ فِي عَينِ الرَّجَاءِ. فَيستكثِرُ فِيهِ العَبدُ القَلِيلَ مِن العَطَاءِ ، وَيستَقِلُّ فِيهِ الكَثِيرَ مِنَ الإِعْيَاء ، وَيَستَحلِي فِيهِ مَرَارَةَ القَضَاءِ».

الدرجة الأولى

يعني بالعدة : ما وعد الله به[3] أولياءه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء.

وقوله : «يَلمَعُ فِي عَينِ الرَّجَاءِ» أي يبدو في حقيقة «الرجاء»[4] من أفقه وناحيته. فيوجب له ذلك استكثار القليل ، ولا قليل من الله من عطائه ، والحامل له علىٰ هذا الاستكثار : أربعة أمور.

أحدها : نظره إلىٰ جلالة معطيه وعظمته .

---

(١) في ط «التأجيج» وقوله «كما تقدم» أي في منزلة الوجد.

(٢) «علىٰ» ساقطة من ط وقوله في المنازل ٩٨ وفيه «الدرجة الأولىٰ» و «يستكثر» و «الأعباء».

(٣) «به» ساقطة من ط.

(٤) في الأصل « ومرافقة » وهو خطأ وفي م كذلك وطمس عليها. والمثبت كما في البقية. والأفق : هو الناحية من الأرض والسماء. المصباح المنير ، ١٦.

الثاني : احتقاره لنفسه. و(١) ازدراؤه لها ، يوجب استكثار ما يناله من سيده.

الثالث : محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبوبه.

الرابع : أن هذا - قبل هذا(٢) العطاء - لم يكن له إلف به ، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته(٣) : استكثرها.

وأما «استِقلالُه لِلكَثِيرِ(٤) مِن الإِعيَاءِ» -وهو التعب والنصب- فلأنه لما بدا له برق الوعود(٥) من أفق الرجاء : حمله ذلك على الجد والطلب. وحمل عنه مشقة السير. فلم يجد من مَسِّ الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.

وكذلك « استِحلاَؤُهُ - في هذا البرق - مَرَارَةَ القَضَاءِ» وهو البلاء الذي يختبر به الله عز وجل عباده(٦) ، ليبلوهم أيهم أصبر وأصدق ، وأعظم إيمانا ، ومحبة وتوكلا وإنابة؟ وإذا(٧) لاح للسالك هذا البرق : استحلىٰ فيه مرارة القضاء.

---

(١) في ط «فإن».

(٢) «هذا» ساقطة من الجميع عدا م و «قبل» ساقطة من ح ، ب.

(٣) في أ ، غ ، ح ، ب «فاجأه» وق «جأته».

(٤) في البقية عدا م ، ج ، ق «الكثير».

(٥) في م «الوعد».

(٦) في م «يختبر الله عز وجل به عباده».

(٧) في ط «فإذا».

فصل (١)

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : بَرقٌ يَلمَعُ مِن جَانِبِ الوَعِيدِ فِي عَينِ الحَذَرِ. فَيستَقْصِرُ فِيهِ العَبدُ الطَّوِيلَ مِن الأَمَلِ ، وَيَزهَدُ فِي الخَلْقِ عَلَىٰ القُرْبِ ، وَيَرغَبُ فِي تَطهِيرِ السِّرِّ» (٢).

هذا البرق أفقه وعينه : غير أفق البرق الأول. فإن هذا يلمع من أفق الحذر ، وذاك من أفق الرجاء. فإذا شام هذا البرق : استقصر فيه الطويل من الأمل. وتخيل في كل وقت : أن المنية (٣) تغافصه وتفاجئه. فاشتد حذره من هجومها ، مخافة أن تحل به عقوبة الله ، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء. فيلقىٰ ربه قبل الطهر (٤) التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة. كما أنه لم يأذن (٥) له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يُذكِّر العباد بالتطهر (٦) للموافاة والقدوم عليه ، والدخول وقت اللقاء

(١) «فصل» ساقطة من ج.

(٢) منازل السائرين ٩٨.

(٣) في ط «تعافصه» بالعين. والمغافصة : هي المغالبة والأخذ علىٰ غرة. انظر مختار الصحاح ٤٧٧ ، والمصباح المنير ٤٤٩.

(٤) في ج : «التصهر».

(٥) في ط : «يؤذن».

(٦) في غ : «بالنظر».

لمن عقل عن الله ، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان [العبد][1] لا يدخل عليه حتىٰ يستقبل بيته[2] بوجهه ، ويستر عورته ، ويطهر بدنه وثيابه ، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النية. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء ، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عوراته[3] الباطنة بلباس التقوىٰ. ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة. ويتطهر لله طهراً كاملاً. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت : جاءه الوقت وهو متأهب فدخل[4] علىٰ الله. وإذا فرط في التأهب : خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموافاة مضيق لا يقبل التوسعة. فلا يمكّن العبد من التطهر والتأهب[5] عند هجوم الوقت ؛ بل يقال له : هيهات ، فات ما فات ، وقد بعدت بينك وبين الطَّهور[6] المسافات. فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل : لم يزل علىٰ طهارة.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م.

(٢) في ط زيادة «المحرم».

(٣) في ج : «عورته».

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق : «فيدخل».

(٥) سقط من غ ، ح قوله «عند هجوم الوقت».

(٦) في ج : «التطهير» والبقية عدا م «التطهر» والطَّهور : مصدر بمعنىٰ التطهر. انظر : مختار الصحاح ٣٩٩.

وأما «تَزهِيدُهُ فِي الخَلقِ عَلَىٰ القُرْبِ» أي(١) وإن كانوا [من](٢) أقاربه أو مناسبيه أو مجاوريه وملاصقيه، أو معاشريه ومخالطيه: فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي(٣) ليس بخُلَّب(٤)، بل هو أصدق بارق.

ويحتمل أن يريد بقوله «عن قرب» أي عن أقرب وقت. فلا ينتظر بزهده فيهم: أملاً يؤمّله. ولا وقتاً يستقبله.

قوله: «وَيَرغَبُ فِي تَطْهِيرِ السِّرِّ» يعني تطهير(٥) سِرِّه عما سوىٰ الله. وقد تقدم بيانه.

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: بَرقٌ يَلمَعُ مِن جَانِبِ اللُّطْفِ فِي عَينِ الافتِقَارِ. فيُنشِئُ سَحَابَ السُّرُورِ، وَيُمطِرُ قَطْرَ(٦) الطَّرَبِ، وَيَجرِي مِن نَهرِ الافتِخَارِ».

---

(١) «أي» ساقطة من ط.

(٢) الزيادة من م.

(٣) «الذين» ساقطة من ج.

(٤) الخُلَّب: الخداع الكاذب. والبرق الخلب والسحاب الخلب: الذي لا مطر فيه كأنه خادع.

ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز: إنما أنت كبرقٍ خلب. مختار الصحاح ١٨٣.

(٥) «تطهير» ساقطة من ج وقوله «وقد تقدم بيانه» أي في أول هذا الفصل.

(٦) في ط «مطر» وقوله في المنازل ٩٨، وآخره «ويجري نهر الافتخار».

هذا البرق يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالىٰ لعبده[١] بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق : في عين الافتقار[٢] ، الذي هو باب السلوك إلىٰ الله تعالىٰ ، والطريق الأعظم الذي لا يدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواه فمسدود. ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة. فلا طريق إلىٰ الله البتة أبداً - ولو تعنىٰ[٣] المتعنون، وتمنىٰ المتمنون - إلا الافتقار ، ومتابعة الرسول فقط [٤]. فلا يتعب السالك نفسه علىٰ[٥] غير هذه الطريق. فإنه علىٰ غير شيء. وهو صيد الوحوش والسباع.

قوله : «فَيُنشِئُ سَحَابَ السُرُورِ» أي ينشىٰء للعبد سرورا خاصاً[٦] وفرحا بربه لا عهد له بمثله ، ولا نظير له في الدنيا ، ونفحة من نعيم الجنة ، ونسمة من ريح[٧] شمالهم. فإذا نشأ له ذلك السحاب أمطر عليه طيب[٨] الطرب ،

---

(١) في ق «بأنوار».

(٢) في ط «الافتخار».

(٣) في ج «فلو تعنىٰ» ومعنىٰ تعنىٰ : أي قصد وأراد ، انظر المصباح المنير ٤٣٤ ، ومختار الصحاح ٤٥٩.

(٤) «فقط» ساقطة من م.

(٥) في ط «في» وبعدها قوله «الطريق فإنه عمل غير» ساقطة من أ ، ح ، ب.

(٦) في غ «خالصاً».

(٧) «ريح» ساقطة من م. والنفخة : القطعة أو الرائحة. ونسمة الريح : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. والشمال : الريح التي تهب من ناحية القطب. انظر : مختار الصحاح ص٣٤٧ و ٦٥٨ و ٦٧١.

(٨) في ط «صيب».

فطرب باطنه وسره لما ورد عليه من عند سيده ووليه. وإذا اشتد ذلك الطرب. جرىٰ به نهر الافتخار، بتميزه[1] به عن أبناء جنسه بما خصه الله به.

فإما[2] أن يريد به: افتخاره علىٰ الشيطان وهزَّ عِطفه[3]، طربا وافتخاراً عليه. فإن الله لا يكره ذلك. ولهذا يحب المختال بين الصفين عند الحرب، لما في ذلك من مراغمة أعدائه، ويحب الخيلاء عند الصدقة - كما جاء ذلك مصرحا به في الحديث[4] - لسر عجيب، يعرفه أولوا[5] الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء، وابتهاجهم به، واختيالهم علىٰ النفس الشحيحة الأمارة بالبخل. وعلىٰ الشيطان المزين لها ذلك[6]، فهذا الافتخار من تمام العبودية.

---

(١) في م: «فيميزه» وفي البقية «يتميز به».

(٢) في الجميع عدا م، ج «وأما».

(٣) في البقية عدا م: «وهذه مخيلة محمودة» والعطف: بالكسر جنب الرجل من رأسه إلىٰ وركيه. انظر: مختار الصحاح ٤٤٠، المصباح المنير ٤١٦.

(٤) كما جاء في الحديث الذي أوله «من الغيرة ما يحب الله - إلىٰ أن قال - وإن من الخيلاء ما يبغض الله، ومنها ما يحب الله: فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال واختياله عند الصدقة..» الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الخيلاء في الحرب، ٣/ ١١٤ و ١١٥ (٢٦٥٩) وابن حبان في صحيحه ٧/ ١٢٩، وأحمد في المسند ٥/ ٤٤٦، والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٨٩ (١٧٧٢)، وابن خزيمة في صحيحه ٤/ ١١٣ (٢٤٧٨) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٨/ ٦٨: الحديث سكت عنه أبو داود والمنذري وفي إسناده عبدالرحمن بن جابر بن عتيك وهو مجهول وقد صحح الحديث الحاكم.

(٥) في م: «أهل».

(٦) في ط زيادة هذه الأبيات:

أو يريد به أنه حريٌّ[1] بالافتخار بما تميز به. ولم يفتخر به إبقاء علىٰ عبوديته وافتقاره. وكلا المعنيين صحيح. والله أعلم.

وسر ذلك : أن العبد إذا لاحَظَ ما هو فيه[2] من الألطاف ، وشهده من عين المنّة ، ومحض الجود ، وشهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين[3]. كان ذلك من أعظم أسباب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالي النعم عليه. وكلما توالت عليه النعم : أنشأت في قلبه سحائب السرور. وإذا انبسطت[4] هذه السحائب في سماء قلبه ، وامتلأ أفقه بها[5] : أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور. فإن لم يصبه وابل فطل. وحينئذ[6] يجري علىٰ لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عجب ولا فخر ؛ بل فرحا بفضل الله ورحمته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس :٥٨]. فالافتخار علىٰ ظاهره ، والافتقار والانكسار في باطنه ، ولا

وهم ينفذون المال في أول الغنىٰ — ويستأنفون الصبر في آخر الصبر
مغاوير للعليا ، مغابير للحمىٰ — مفاريج للغُمَّىٰ مداريك للوتر
وتأخذهم في ساعة الجود هزة — كما تأخذ المطراب عن نزوة الخمر

(١) في م ، ق ، ب ، «حر» ثم بعدها في ق ، ب : «بالافتخار لما».

(٢) «فيه» ساقطة من م.

(٣) في ط : «فكان ذلك من أعظم أبواب».

(٤) في ج : «استميطت».

(٥) في ط : «بها أفقه».

(٦) في ب : «فحينئذ».

ينافي أحدهما الآخر.

وتأمل قول النبي ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» [١] كيف أخبر بفضل الله ومنته عليه ، وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به علىٰ من دونه ، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه ، وإعلاما للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله ، وعلو منزلته [لديه][٢]. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف :٥٥] ، فإخباره عن نفسه بذلك ، لما كان متضمنا لمصلحة تعود علىٰ العزيز وعلىٰ الأمة ، وعلىٰ نفسه : كان حسنا. إذ لم يقصد به الفخر عليهم ، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسنها[٣] وبهجتها وصورتها[٤] واحدة.

---

(١) في البقية عدا م ، ق «فكيف» والحديث رواه بنصه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة ٢/ ١٤٤٠ (٤٣٠٨) وقد رواه البخاري ومسلم بدون «ولا فخر» بلفظ : «أنا سيد الناس يوم القيامة» في حديث الشفاعة ، وقد تقدم بلفظ : «اذهبوا إلىٰ محمد» ورواه أبو داود في كتاب المناقب باب فضل النبي ﷺ ٥/ ٥٨٧ (٣٦١٥) بلفظ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وقال هذا حديث حسن صحيح. وكذا في التفسير باب ومن سورة بنىٰ إسرائيل ٥/ ٣٠٨ (٣١٤٨) ، وأحمد في المسند ٣/ ٢ و ١٤٤ وحسنه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ١٦١ (٢٦٩٣).

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في م : « بحسنها» وح «لحسنها» وبعدها في الجميع عدا م ، ج «يهجنها».

(٤) في ط : «وصورته».

فصل

[ومنها منزلة الذوق]

منزلة الذوق

و«الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة للملائم أو المنافر(١). ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن؛ بل ولا في لغة العرب. قال تعالىٰ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠، الحج: ٢٢]. وقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران ١٠٦، الأنعام: ٣٠]، الأنفال: ٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، وقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل علىٰ مباشرة المذوق(٢) وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر. فإن المخوف(٣) قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

تذوق طعم الإيمان

وفي الصحيح عنه ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»(٤)، فأخبر: أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما

---

(١) في البقية عدا غ، م، ق، ج: «والباطنة للملائم والمنافر».

(٢) في م، ق: «الذوق» والذوق تقدم تعريفه في الدرجة الثالثة من المحبة.

(٣) في الجميع «الخوف».

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من رضي بالله رباً.. فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي والكبائر ١/ ٦٢ (٣٤).

يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: «ذاق طعم الإيمان»، وقال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقىٰ في النار»[1].

ولما نهاهم عن الوصال قالوا: «إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم، إني أُطعَم وأُسقَىٰ» وفي لفظ «إني أظلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني» وفي لفظ «إن لي مطعما يطعمني، وساقيا يسقيني»[2].

وقد غلط حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حِسِّي للفم. ولو كان كما ظنه هذا[3]: لما كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما صح جوابه بقوله: «إني لست كهيئتكم» فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل

---

(١) الحديث تقدم تخريجه ص٢٨١١.

(٢) انظر هذه الروايات في البخاري كتاب الصوم باب بركة السحور من غير إيجاب، وباب الوصال ومن قال ليس في الليل صيام، وباب التنكيل لمن أكثر الوصال، وباب الوصال إلىٰ السحر ٢/ ٢٣٢ و ٢٤٢ و ٢٤٣. ومسلم في كتاب الصيام باب النهي عن الوصال في الصوم ١/ ٧٧٤-٧٧٦ (١١٠٢-١١٠٥).

(٣) في ط زيادة «الظان» وقبلها «هذا» ساقطة من غ، ح.

ويشرب بفيه الكريم حسًّا ، لكان الجواب أن يقول : وأنا لست أواصل أيضا. فلمّا أقرهم علىٰ قولهم «إنك تواصل» علم أنه كان يمسك عن الطعام والشراب ، ويكتفي بذلك الطعام (١) والشراب العالي الروحاني ، الذي يغني عن الطعام والشراب المشترك الحسي.

وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل (٢) علىٰ صحة النبوة ، حيث قال لأبي سفيان(٣) : «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان، إذا خالط بشاشة القلوب» (٤).

فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الأيمان - الذي خالطت بشاشته

---

(١) سقط من ق إلىٰ قوله «عن الطعام».

(٢) هرقل : ملك الروم ، كان قبل أن يكون ملكاً بطريقاً في بعض الجزائر فعمر بيت المقدس وبنىٰ الكنائس ، وبعد مضي سبع سنين من ملكه هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة. توفي هرقل في سنة ٢٠ من الهجرة وقيل أنه أسلم سراً ، انظر البداية والنهاية ٧/ ١٠١ ، ومروج الذهب ومعادن الجوهر ١/ ٣٢٨ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٣٢.

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي وكان يكنىٰ أيضاً أبا حنظلة ، كان أكبر من النبي ﷺ بعشر سنين أسلم عام الفتح وكان قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد ويوم الأحزاب ، وقد اختلف في سنة وفاته فقيل : توفي سنة ٣٤هـ وقيل غير ذلك. الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ الرسول ﷺ ١/ ٤-٧ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل ٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧ (١٧٧٣).

القلوب : لم يسخطه ذلك القلب أبداً - علىٰ أنه دعوة نبوة ورسالة ، لا دعوىٰ ملك ورياسة.

والمقصود : أن ذوق حلاوة [١] الإيمان والإحسان ، أمر يجده القلب. تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلىٰ الفم ، وذوق حلاوة الجماع إلىٰ آلته[٢]. كما قال النبي ﷺ : «حتىٰ تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»[٣] فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك [٤] إلا إذا وصل العبد إلىٰ هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة [٥] ، فيذوق طعمه ويجد حلاوته [٦].

فصــل

قال صاحب المنازل : «بَابُ الذَّوقِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص :٤٩]» في تنزيل هذه الآية علىٰ الذوق صعوبة. والذي يظهر - والله أعلم - أن الشيخ

---

(١) «حلاوة» ساقطة من ق.

(٢) في م «إلىٰ اللذة» وفي البقية «إلىٰ ألفة النفس».

(٣) رواه البخاري في كتاب الطلاق باب من أجاز طلاق الثلاث ٦/ ١٦٥ ولفظه : «حتىٰ يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته». ومسلم في كتاب النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاث لمطلقها حتىٰ تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها ٢/ ١٠٥٥ و ١٠٥٦ (١٤٣٣).

(٤) في ط زيادة «عن القلوب».

(٥) في ط «المباشر».

(٦) في ط زيادة «والله الموفق».

أراد: أن الذوق مقدمة الشراب[١]، كما أن التذكر مقدمة المعرفة، ومنه يدخل إلىٰ مقام الإيمان والإحسان. فإنه إذا تذكر أبصر الحقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فالتذكر يوجب التبصر[٢]، فيكون له الإيمان بعد التبصر ذوقاً وعياناً. ولهذا قال بعده[٣]: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [ص ٤٩، ٥٠] فالتذكر بهذا الذكر الذي قصه الله يشهد صاحبه الإيمان بالمعاد، وما أعد الله لأوليائه عند لقائه. فيصير إيمانهم بذلك ذوقاً[٤]، لا خبراً محضاً؛ لأنه نشأ عن تذكرهم بذكره سبحانه، وتأملهم حقائقه وأسراره، وما فيه من الهدىٰ والبيان. فالتذكر سبب الذوق. والله أعلم.

فصل

قال: «الذَّوقُ: أبقَىٰ مِن الوَجْدِ، وَأَجلَىٰ مِن البَرقِ»[٥].

يريد به[٦] أن منزلة «الذوق» أثبت وأرسخ من منزلة «الوجد» وذلك أن»[٧]

(١) في البقية عدا م، ج، ق «الشراب».

(٢) سقط من ج قوله «فيكون له الإيمان بعد التبصر».

(٣) «بعده» ساقطة من ق.

(٤) في غ: «الأجزاء».

(٥) منازل السائرين ٩٩.

(٦) «به» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا م «لأن».

أثر الذوق يبقىٰ في القلب ، ويطول بقاؤه. كما يبقىٰ أثر ذوق الطعام والشراب في القوة الذائقة[1]. ويبقىٰ علىٰ البدن والروح. فإن «الذوق» مباشرة - كما تقدم - و«الوجد» عند الشيخ «لهيب يتأجج من شهود عارض مقلق» فهو[2] عنده من العوارض ، كالهيمان والقلق. فإنه ينشأ من مكاشفة لا تدوم. فلذلك جعله أبقىٰ من الوجد.

وأما قوله : «وَأَجلَىٰ مِن البَرقِ» فإن البرق أسرع انقضاء ، وكشفه دون كشف الذوق. وهذا صحيح.

ولكن جَعْلَه «الذوقَ» أبقىٰ من «الوجد» وأعلىٰ منه : فيه نظر. وقد يقال : [إن][3] النبي ﷺ جعل «الوجد» فوق «الذوق» وأعلىٰ منزلة منه ، فإنه قال «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» [4] وقال في الذوق «ذاق طعم الإيمان»[5] فوَجْدُ حلاوة الشيء المذوق : أخص من مجرد ذوقه. ولما كانت الحلاوة أخص من الطعم : قرن بها الوجد الذي هو أخص من الذوق[6]. فقرن الأخص بالأخص ، والأعم بالأعم.

---

(١) في م «النافعة».

(٢) في غ «فهي».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج.

(٤) في ط زيادة «الحديث» وقد تقدم تخريجه ص٢٨١١.

(٥) تقدم تخريجه ص٢٩٤٦.

(٦) في ط زيادة «مجرد».

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان : الوجد الذي هو لهيب القلب. فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وجدا ، وإنما هو من الوجود الذي هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل : الوجود والوجدان ، فوجد الشيء يجده وجدانا : إذا حصل له وثبت. كما يجد الفاقد الشيء الذي فقد[1] منه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور :٣٩] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء :١١٠] وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ ﴾ [الضحىٰ :٦-٨] ، وقوله : ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ [ص :٤٤] فهذا كله من الوجود والثبوت. وكذلك قوله : «وجد بهن حلاوة الإيمان».

فوجدان الشيء : ثبوته واستقراره. ولا ريب أن ذوق طعم الإيمان وجدان له. إذ يمتنع حصول هذا الذوق من غير وجدان. ولكن اصطلاح كثير من القوم علىٰ أن الذائق أخص من الواجد. فكأنه شارك الواجد في الحصول ، وامتاز عنه بالذوق. فإنه قد يجد الشيء ولا يذوقه الذوق التام.

وهذا ليس كما قالوه ؛ بل وجود هذه الحقائق للقلب : ذوق لها وزيادة ثبوت[2] واستقرار. والله أعلم.

---

(١) في البقية عدا م «بعد» وبعدها «منه» ساقطة من أ ، غ ، ب.

(٢) في البقية عدا م «وزيادة وثبوت».

فصل

درجات الذوق

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: ذَوقُ التَّصدِيقِ طَعْمَ العِدَةِ. فَلاَ يَعقِلُه ظَنٌّ، وَلاَ يَقطَعُه أَمَلٌ، وَلاَ تَعُوقُه أُمنِيَةٌ»(١).

يريد: أن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله علىٰ إيمانه وتصديقه وطاعته: ثبت علىٰ حكم الوعد واستقام.

«فَلَم يَعقِلْهُ ظَنٌّ» أي لم يحبسه ظن، تقول: عقلت فلانا عن كذا، أي عقته(٢) عنه وصددته، ومنه عقال البعير؛ لأنه يحبسه عن الشرود. ومنه: العقل؛ لأنه يحبس صاحبه عن فعل مالا يحسن ولا يجمل. ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معناه: إذا حبسته في صدرك، وحصلته في قلبك، بعد أن لم يكن حاصلا عندك. ومنه: العقل للدية؛ لأنها تمنع آخذها من العدوان علىٰ الجاني وعصبته.

والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بوعد الله يمنع الذائق [أن](٣) يحبسه ظن عن الجد في الطلب(٤)، والسير إلىٰ ربه. و «الظن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجح عنده جانب التصديق.

---

(١) منازل السائرين، ٩٩.

(٢) في ط: «منعته».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في غ «في السير والطلب».

وكأن الشيخ يقول: الذائق بالتصديق طعم الوعد، لا يعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، ويحبس [1] عزيمته عن الجد فيه. وفي حديث «سيد الاستغفار» قوله: «**وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت**»[2] أي مقيم علىٰ التصديق بوعدك، وعلىٰ القيام بعهدك، بحسب استطاعتي.

والحامل علىٰ هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرته للقلب. ولو كان الإيمان مجازاً[3] - لا حقيقة - لم يثبت القلب علىٰ حكم الوعد، والوفاء بالعهد. ولا يقيمه[4] في هذا المقام إلا ذوق طعم[5] الإيمان. وثوب العارية لا يجمل صاحبه[6]. ولا سيما إذا عرف الناس أنه ليس له، وأنه عارية عليه، كما قيل[7]:

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته ... فإذا اشتملت به فإنك عار

(١) في الأصل، ج، ق: تحبسه «والمثبت كما في البقية لصحة المعنىٰ.

(٢) الحديث أوله: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي...**» رواه البخاري في كتاب الدعوات باب فضل الاستغفار ٧/ ١٤٥.

(٣) المجاز: هو استعمال الكلام في وجه غير الوجه الذي وضع له في الأصل. والحقيقة: اللفظ المستعمل في معناه الحقيقي. قاموس المصطلحات اللغوية ص١٨٨ و ٣٤٢ وانظر التعريفات ص٢٥٥-٢٥٧.

(٤) في البقية عدا م «ولا يفيد».

(٥) «طعم» ساقطة من ب، أ، غ.

(٦) في البقية عدا م «لابسه».

(٧) القائل هو أبو الحسن علي بن محمد التهامي انظر ديوانه ٣١١.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه ، ثم يقول «لبيك ، لو كان رياء لاضمحل» (١). وقد نفىٰ الله تعالىٰ الإيمان عمن ادعاه. وليس له (٢) فيه ذوق. فقال تعالىٰ : ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات :١٤] فهؤلاء مسلمون ، وليسوا بمؤمنين ؛ لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه ، فذاق طعمه (٣). وهذا حال أكثر المنتسبين إلىٰ الإسلام. وليس هؤلاء كفاراً. فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله : ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ (٤) ولم يرد : قولوا بألسنتكم ، من غير مواطأة القلب. فإنه فرق بين قولهم «آمنا» ، وقولهم «أسلمنا» ؛ ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان ، قال «لم تؤمنوا» (٥) ووعدهم سبحانه - مع ذلك- علىٰ طاعتهم أن لا ينقص (٦) من أجور أعمالهم شيئا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه ، وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفىٰ عنهم الرّيب : لأن الإيمان قد باشر قلوبهم.

---

(١) القائل من كبار التابعين وهو عبدالرحمن بن أبي نعيم مات بعد المائة. انظر : حلية الأولياء ٥/ ٧٠ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٦٣.

(٢) «له» ساقطة من ح.

(٣) في ط زيادة : «حلاوته».

(٤) سقط من ق إلىٰ قوله : «ولكن لما».

(٥) في ب : «ووعد لهم».

(٦) في البقية عدا م : «ينقصهم».

وخالطتها[1] بشاشتُه. فلم يبق للرّيب فيها موضع. وصَدَّق ذلك الذوقَ : بذلُهم أحب شيء إليهم في رضىٰ ربهم تعالىٰ. وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع : حصول هذا البذل من غير ذوق طعم[2] الإيمان ، ووجود حلاوته. فإن ذلك يصدق الذوق والوجد[3]. كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ : «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» [4].

فالذوق والوجد : أمر باطن ، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق. أمر باطن. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين : يثمر الجهاد ، ومقامات الإحسان. فعلىٰ حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك : يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

وقوله[5] : «وَلاَ يَقطَعُهُ أَمَلٌ» أي من علامات الذوق : أن لا يقطع صاحبه عن

---

(١) في ج ، ح : «وخالطها» وبعدها في ط «للريب فيه».

(٢) في ب ، ح ، م : «الطعم».

(٣) في ط زيادة : «إنما يحصل» وبعدها في أ «الوجد والذوق».

(٤) في الرواية عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال السيوطي : ضعيف. انظر : الجامع الصغير ٢/ ٤٦٤ (٧٥٧٠) وقال الألباني : موضوع. انظر : ضعيف الجامع الصغير ص٧٠٤ (٤٨٨٠). والصحيح أنه من قول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقد رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/ ٢٢ (١٠٤٠٠) وذكره أبو نعيم في الحلية عن عبيد بن عمير ٣/ ٢٧٣.

(٥) في البقية عدا م : «قوله».

طلبه أمل (١) دنيا، وطمع في غرض من أغراضها(٢). فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب في سيره إلىٰ مطلبه (٣).

ولم يقل الشيخ «إنه لا يكون له أمل»؛ بل قال(٤): «لاَ يَقْطَعُه أَمَلٌ» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه: لم يضره، وإن عوق سيره بعض التعويق(٥). وإنما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلىٰ الله.

وعند الطائفة: أن كل ما سوىٰ الله، فإرادته: أمل قاطع، كائنا ما كان. فمن كان ذلك أمله، ومنتهىٰ طلبه: فليس من أهل ذوق الإيمان. فإنه(٦) من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب منه، والأنس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعانته له (٧) علىٰ مرضاته ومحابه. فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

فإن قلت: فما الذي يقطع به (٨) هذا الأمل؟

---

(١) في البقية عدا م، ج، ق: «أمر».

(٢) في البقية عدا م، ج، ق «غرض من أغراضها» والعرض: هو متاع الدنيا ومنه يبيع دينه بعرض. انظر: تفسير غريب الحديث ١٦٣.

(٣) في البقية عدا م، ج، ق «مطلوبه».

(٤) «قال» ساقطة من غ، أ، ح، ق.

(٥) في ق: «العوائق».

(٦) في ب: «فإن».

(٧) «له» ساقطة من الجميع عدا م، ج.

(٨) في ط زيادة «العبد».

قلت: قوة رغبته في المطلب[١] الأعلىٰ، الذي ليس شيء أعلىٰ منه. ومعرفته بخسة ما يؤمَّل دونه، وسرعة ذهابه ووشك[٢] انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف[٣]. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلىٰ للغروب. فهو عن قريب آفل. قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها**»[٤]، وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليمِّ، فلينظر: بم ترجع؟**»[٥] فشبه الدنيا في جنب[٦] الآخرة بما يعلق علىٰ الإصبع من البلل حين تغمس في البحر.

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «لو أن الدنيا من أولها إلىٰ آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأىٰ في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء»[٧].

---

(١) في ج «الطلب».

(٢) في البقية عدا م، ج، ق: «فيوشك».

(٣) في أ، غ «فهل».

(٤) رواه أبو داود في كتاب الزهد، باب (٤٤) ٤/ ٥٨٨ و ٥٨٩ (٢٣٧٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب الزهد باب مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٦ (٤١٠٩)، وأحمد ١/ ٣٩١و ٤٤١ والحاكم ٤/ ٣١٠ والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٤٨٧ (٧٩٧٦) والألباني في الصحيحة ١/ ٧٢٣ و ٣٧٤ (٤٣٨و٧٣٩).

(٥) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٣/ ٢١٩٣ (٢٨٥٨) وأوله والله ما الدنيا في الآخرة».

(٦) في أ، ب، غ: «يجنب».

(٧) بمعناه ذكره أبو نعيم في الحلية عن أبي هاشم الزاهد ١٠/ ٢٢٥.

وقال مطرف بن عبدالله(١) - أو غيره - : «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة : أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حدق عين بصيرته في الدنيا والآخرة : علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة : أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول ، ولا يضمحل؟ فضلا [عن](٢) أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلىٰ نعيم معرفته ومحبته ، والأنس به ، والفرح بقربه ، كنسبة نعيم الدنيا إلىٰ نعيم الجنة؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة :٧٢] فيسير من رضوانه - ولا يقال له يسير - أكبر من الجنات(٣) وما فيها.

وفي حديث الرؤية : «فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلىٰ وجهه»(٤) ، وفي حديث آخر : «إنهم إذا رأوه لم يلتفتوا إلىٰ شيء مما هم فيه من

---

(١) أبو عبد الله مطرف بن عبدالله بن الشخير العامري البصري ولد في حياة النبي ﷺ وتوفي بالطاعون سنة ٨٧هـ . انظر : تهذيب التهذيب ١/ ١٥٧و ١٥٨ ، والتاريخ الكبير ٧/ ٣٩٦ و٣٩٧ وقوله هذا ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٩٩ . وقد ورد عن أنس وهو ضعيف بلفظ : «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي... » الجامع الصغير ٢/ ٤٥٣ (٧٣٩٨).

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في ق «أكثر من الجنان».

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ ١/ ١٦٣ (١٨١).

النعيم ، حتىٰ يتوارىٰ عنهم»[١].

فمن قطعه عن هذا أمل ، فقد فاز بالحرمان : ورضي لنفسه بغاية الخسران ، والله المستعان. وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

قوله : «وَلاَ تَعُوقُه أُمْنِيةٌ» الأمنية : هي ما يتمناه العبد من الحظوظ. وجمعها أماني. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرجىٰ وجوده. والأمنية : قد تتعلق بما لا يرجىٰ حصوله. كما يتمنىٰ العاجز المراتب العالية.

والأماني الباطلة : هي رؤوس أموال المفاليس. بها[٢] يقطعون أوقاتهم ويلتذون[٣] بها ، كالتذاذ من زال عقله بالمسكر ، [أو][٤] بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع : «الكيِّسُ من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنىٰ علىٰ الله الأماني»[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه في المقدمة ١/ ٦٥ و ٦٦ (١٨٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠١ رواه البزار وفيه الفضل بن عيسىٰ الرقاشي بن إبان الرقاشي وهو ضعيف. وفي مصباح الزجاجة ١/ ٢٦ قال : ضعيف لضعف الفضل بن عيسىٰ بن إبان الرقاشي ، وقال الألباني : ضعيف ، انظر : ضعيف ابن ماجه ص١٤ (٣٣).

(٢) في غ ، ب (بما).

(٣) في غ ، ح : «ويتلذذون بها كالتذاذ من عقله» وفي م «كما يلتذ من زال» وبعدها في ج «زال عقولهم بالسكر».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ق.

(٥) رواه أحمد ٤/ ١٢٤ ، وابن ماجه في كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ (٤٢٦٠) والترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب (٢٥) ٤/ ٦٣٨ (١٤٥٩) وقال : هذا

ولا يرضىٰ بالأماني من[1] الحقائق إلا النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل[2] :

واترك مُنَىٰ النفس لاتحسَبْه يشبعها   إن المنىٰ رأسُ أموال المفاليس

وأمنية الرجل تدل علىٰ علو همته وخستها[3]. وفي أثر إلهي «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلىٰ همته»[4] والعامة تقول : قيمة كل امرئٰ ما يحسن[5]. والعارفون يقولون : قيمه كل امرئٰ ما يطلب.

فصـل

الدرجة الثانيـة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : ذَوقُ الإِرَادَةِ طَعْـمَ الأُنـسِ. فَـلاَ يَعلَـقُ بِـه شَـاغِلٌ ، وَلاَ يُفسِدُه عَارِضٌ ، وَلاَ تُكَدِّرُه تَفرِقَةٌ»[6].

حديث حسن ، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧و ٥٨ وقال : صحيح علىٰ شرط البخاري وتعقبه الذهبي وقال : لا والله أبو بكر واه.

وانظر : كشف الخفاء ٢/ ١٣٦ (٢٠٢٩) وصححه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٤٠٢ (٦٤٦٨) وقال الألباني : ضعيف. انظر : ضعيف الجامع الصغير ص٦٢٥ (٤٣٠٥).

(١) في ط «عن الحقائق إلا ذوو النفوس».

(٢) انظر معجم لآلي الشعر ٢١٤ مع اختلاف في الشطر الأول.

(٣) في م «وحسنها».

(٤) ذكره الدارمي في السنن في مقدمته ١/ ١٦٢ بلفظ إني لست كل كلام الحكيم أتقبل ، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢١٣ ، وابن المبارك في الزهد ١٦.

(٥) في ط «ما يحسنه».

(٦) منازل السائرين ٩٩ وفيه «ولا يفتنه عارض».

«الإرادة» وصف المريد. والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها. أن الأولىٰ وصف حال العابد الذي ذاق تصديقه (١) طعم وعد الرب عز وجل ، فجد في العبادة.وأعمال البر ، لثقته (٢) بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجة : ذاقت إرادته طعم الأنس. فهي حال المريد.

ولهذا علق [حال] (٣) صاحب الدرجة الأولىٰ : بالوعد الجميل. وعلق [حال](٤) صاحب هذه [الدرجة](٥) بالأنس بالله. والأنس به (٦) سبحانه أعلىٰ من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة. فإذا ذاق المريد طعم الأنس جد في إرادته واجتهد في حفظ أنسه ، وتحصيل الأسباب المقوية له.

«فَلاَ يَعلَقُ بِهِ شَاغِلٌ» أي لا يتعلق به شيء يشغله عن سلوكه، وسيره إلىٰ الله، لشدة طلبه الباعث عليه أنسه ، الذي قد ذاق طعمه ، وتلذذ بحلاوته.

والأنس بالله : حالة وجدانية. وهي من مقامات [الإحسان](٧) ، تقوىٰ بثلاثة أشياء : دوام الذكر ، وصدق المحبة ، وإحسان العمل.

---

(١) في ط «بتصديقه».

(٢) في أ «لنفسه» بدل «لثقته».

(٣) الزيادة من الجميع عدا م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) الزيادة من الجميع عدا ق ، ج ، م.

(٦) في ج «بقربه».

(٧) الزيادة من الجميع.

وقوة الأنس وضعفه : علىٰ حسب قوة القرب. وكلما[1] كان القلب من ربه أقرب ، كان أنسه به أقوىٰ. وكلما كان [منه][2] أبعد ، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد.

قوله : «وَلاَ يُفسِدُه عَارِضٌ» العارض المفسد : هو الذي يعذل المحب ، ويلومه علىٰ النشاط في رضىٰ محبوبه وطاعته ، ويدعوه إلىٰ الالتفات إليه. والوقوف معه دون مطلبه العالي. فهو كالذي يجيء عرضا يمنع المار في طريقه عن المرور ، ويلفته عن جهة مقصده إلىٰ غيرها.

وهذا[3] «العارض» عند القوم : هو إرادة السوىٰ. فإن كل ما سوىٰ الله فهو عارض. وإرادة السوىٰ : توقف السالك ، وتنكس الطالب ، وتحجب الواصل. فإياك وإرادة السوىٰ وإن علا. فإنك تُحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالىٰ إخبارا عن عباده المقربين : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان :٩] وقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام :٥٢] وقال : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل :١٩ ، ٢٠].

قوله : «وَلاَ تُكَدِّرُه تَفرِقَةٌ» الكدر : ضد الصفاء. والتفرقة : ضد الجمعية.

---

(١) في ط : «فكلما».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في أ ، ب «فهذا».

والجمعية : هي جمع القلب والهمة [١] على الله بالحضور معه بحال الأنس ، خاليا من تفرقة الخواطر. و «التفرقة» من أعظم مكدرات القلب. وهي تزيل الصفاء الذي أثمره [٢] له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو بذلك. فتجيء التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء ، وتشعث القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشعث وأذاه. فيجتهد في لمِّه ، ولا يلم شعثَ القلوب شيءٌ [٣] غير الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فهناك يلم شعثه ، ويزول كدره ، ويصح سقمه [٤]. ويجد روح الحياة ، ويذوق طعم الحياة الملكية.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : ذَوقُ الانقِطَاعِ : طَعمَ الاتِّصالِ ، وَذَوقُ الهِمَّةِ : طَعمَ الجَمْعِ ، وَذَوقُ المُسَامَرَةِ [٥] : طَعْمَ العَيَانِ».

الفرق بين هذه الدرجة ، والتي قبلها : أن تلك بقاء مع الأحوال. وهذه الدرجة : خروج وفناء عن الأحوال. فإن المتمكن في حال فنائه عن الأسباب - أعمالاً كانت ، أو أحوالاً - هو الذي يجد طعم الاتصال حقيقة. فإنه على

(١) «على الله» ساقطة من م.

(٢) في ق «أي أثمر» ، ج «أثمرت».

(٣) في ط : «بشيء».

(٤) في البقية عدا م «سفره».

(٥) في ق «المسافر» ، وقوله في المنازل ٩٩.

حسب تجرده عن الالتفات إلىٰ [1] الأسباب يكون اتصاله. وعلىٰ حسب التفاته إليها يكون انقطاعه. وكلما تمكن في جمع همِّه علىٰ الحق سبحانه، وجد لذة الجمع عليه، وذاق طعم القرب منه، والأنس به.

فالانقطاع عند القوم: هو أنس القلب بغيره، والتفاته [2] إلىٰ ما سواه. والاتصال: تجريد التعلق به وحده. والانقطاع عما سواه بالكلية.

إذا عرفت هذا. فلنرجع إلىٰ تفسير كلامه.

فقوله[3]: «**ذَوقُ الانقِطَاعِ طَعَمَ الاتِّصَالِ**» استعارة، وإلا فالذائق هو صاحب الانقطاع، لا نفس الانقطاع. فإنه هو الذي ذاق الانقطاع والاتصال. وبالجملة: فالمراد أن المنقطع هو المحجوب، والمتصل هو المشاهد بقلبه، المكاشف بسره.

وأحسن من التعبير بالاتصال: التعبير بالقرب. فإنها العبارة السديدة [4] التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام.

وأما التعبير بالوصل والاتصال: فعبارة غير سديدة[5] ويتشبث بها الزنديق

---

(١) في ج «عن».

(٢) في البقية عدا م «والالتفات».

(٣) في ج «قوله».

(٤) «السديدة» ساقطة من غ، ح، ب.

(٥) في ط «سديدة يتثبت» وفي ق «شديدة».

الملحد ، والصديق الموحّد. فالموحد : يريد بالاتصال : القرب. وبالانفصال والانقطاع : البعد. والملحد يريد به (١) الحلول تارة والاتحاد تارة.

حتىٰ قال بعض هؤلاء : المنقطع ليس في الحقيقة منقطعا ؛ بل لم يزل متصلا ، لكنه كان غائبا عن المشاهدة. فلما شاهد وجد نفسه لم يكن منقطعا ؛ بل لم يزل متصلا.

قال (٢) : وليس قولنا : «لم يزل متصلا» بسديد. فإن الاتصال لا يصح إلا بين اثنين. فلا المحجوب منقطعا. ولا المكاشف متصلا. وإنما هي عبارات للتقريب والتفهيم. وأنشد في ذلك :

ما بال عينيكَ (٣) لا يقُّر قرارُها ... وإلامَ ظِلُّك لا يَني متنقّلا

فلسوف تعلمُ أن سيرَك لم يكن ... إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وبإزاء هؤلاء طائفة غلظ حجابهم ، وكثفت أرواحهم عن هذا الشأن. فزعموا : أن القرب والبعد والأنس ليس (٤) له حقيقة تتعلق بالخالق سبحانه. وإنما ذلك القرب من داره وجنته بالطاعات ، وأنس القلب بما وعد عليها من

---

(١) «به» ساقطة من ج.

(٢) «قال» ساقطة من م ولعله يقصد بالقائل العفيف التلمساني شارح كلام الهروي. انظر : شرحه ٢/ ٤٤٥.

(٣) في الجميع «عيسك» والمثبت كما في الأصل وقد ذكر المؤلف هذين البيتين فيما تقدم بلفظ «عينك» انظر المدارج آخر منزلة الصدق وقبيل منزلة الإيثار ٢/ ٢٨٩.

(٤) «ليس» ساقطة من غ.

الثواب ، والبعد ضد ذلك. لا أن العبد لا يقرب من ربه [١]. ولا يبعد منه [٢]. ولا يأنس به.وصرحوا بأنه لا يريده ولا يحبه. فلا يصح تعلق الإرادة والمحبة به. فسار [٣] هؤلاء مغربين. وسار أولئك مشرقين. كما قيل :

سارت مشرِّقةً وسرت مغرِّبا شتان بين مشــرق ومغــرب

ومصباح الموحد السالك علىٰ درب الرسول وطريقه : يتوقد ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ [النور :٣٥].

قوله :«**وَذَوقُ الهِمَّةِ : طَعمَ الجَمعِ**» جعل الهمة ذائقة والذوق [٤] لصاحبها توسعاً ، و «الهمة» قد عبر عنها الشيخ فيما تقدم [٥] بأنها «**مَا يملِكُ الانبِعَاثَ إِلَىٰ المقصُودِ صِرفاً**» أي حالة وصفه [٦] لها سطوة وملكة ، تحمل صاحبها علىٰ المقصود. وتبعثه عليه بعثاً لا يخالطه غيره.

فالهمة عندهم : طلب الحق ، من غير التفات إلىٰ غيره. و«الجمع» شهود

---

(١) في ب ، ح ، غ ، ط «لأن العبد لا يقرب من ربه ولا يبعد».

(٢) في ط ، ج «عنه».

(٣) في م «فإن».

(٤) في ط زيادة «إنما».

(٥) وذلك في أول منزلة الهمة.

(٦) في ق «وصف» وفي البقية عدا ج ، م ، «وصفية».

الفردانية التي تفنىٰ فيها رسوم المشاهد(١) وهذا جمع في الربوبية.

وأعلىٰ منه : الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمه(٢) وسره علىٰ محبوبه ومراضيه ومراده(٣) منه. فهو عكوف القلب بكليته علىٰ الله. لا يلتفت عنه يمنة ولا يسرة. فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع : اتصل اشتياق صاحبها ، وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه ، وعدَّ(٤) صبره عن محبوبه من أعظم كبائره. كما قيل :

والصبرُ يُحمدُ في المواطن كلِّها ... إلا عليك فإنّه لا يُحمَدُ(٥)

وقد تقدم ذكر الأثر الإلهي : «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم. وإنما أنظر إلىٰ همته»(٦).

فلله همة نفس قطعت جميع الأكوان ، وسارت فما ألقت عصىٰ السير إلا بين يدي الرحمن ، فسجدت بين يديه سجدة الشكر علىٰ الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتىٰ قيل لها : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

(١) في ق : «المشاهدة».

(٢) في ج «همه وقلبه».

(٣) «ومراده» ساقطة من ق.

(٤) في الجميع «ويجد».

(٥) ورد هذا البيت في الرسالة القشيرية ١٨٤ هكذا :

والصبر يجمل في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

وقد ذكره المؤلف في روضة المحبين ص٢٧٤ و ٤٣٤.

(٦) تقدم ذكره وتخريجه في أول منزلة الهمة ص ٢٧٦٨ .

﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر :٢٧ ، ٢٨].

فسبحان من فاوت بين الخلق (١) في هممهم ، حتىٰ ترىٰ بين الهمتين أبعد مما (٢) بين المشرقين والمغربين ؛ بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلىٰ عليِّين. وتلك مواهب العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد :٢١ ، والجمعة : ٤].

قوله : «وَذَوقُ المُسَامَرةِ : طَعمَ العَيَانِ» مرادهم بالمسامرة : مناجاة القلب ربه، وإن سكت اللسان فلشدة(٣) استيلاء ذكره تعالىٰ، ومحبته علىٰ قلب العبد، وحضوره بين يديه ، وأنسه به ، وقربه منه ، [حتىٰ] (٤) يصير كأنه يخاطبه ويسامره ، ويعتذر إليه تارة ، ويتملقه تارة ، ويثني عليه تارة ، حتىٰ يبقىٰ القلب ناطقا بقوله : أنت الله الذي لا إله إلا أنت. من غير تكليف(٥) له بذلك ؛ بل يبقىٰ هذا حالاً له ومقاماً. ولا تُنكر وصولَ القوم إلىٰ هذا. فقد قال ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»(٦) ، فإذا بلغ في مقام الإحسان

---

(١) في ج : «الخلائق».

(٢) في ق : «أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٣) في الجميع «فلذة» وفي م قبلها «وإن سلت عن اللسان فلذة».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ق.

(٥) في البقية عدا م ، ج «تكلف».

(٦) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١/ ١٨ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦ـ ٤٠ حديث (١ ـ ٧).

بحيث[١] كأنه يرىٰ الله سبحانه. فهكذا مخاطبته ومناجاته له.

لكن الأولىٰ العدول عن لفظ «المسامرة» إلىٰ لفظ[٢] «المناجاة» فإنه اللفظ الذي اختاره رسول الله ﷺ في هذا. وعبَّر به عن حال العبد بقوله: «إذا قام أحدكم في الصلاة؟ فإنه يناجي ربه»[٣]. وفي الحديث الآخر: «كلكم يناجي ربه. فلا يجهر بعضكم علىٰ بعض»[٤].

فلا تعدل عن ألفاظه. فإنها معصومة[٥]، صادرة عن معصوم[٦]، والإجمال والإشكال في اصطلاحات الناس[٧] وأوضاعهم. وبالله التوفيق.

---

(١) في ط زيادة «يكون».

(٢) «لفظ» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) رواه البخاري في كتاب الصلاة بألفاظ متقاربة ١/ ١٠٦ و ١٠٧، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها ١/ ٣٩١ (٥٥١).

(٤) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل ٢/ ٨٣ (١٣٣٢) ورواه مالك في الموطأ بلفظ مقارب في كتاب الصلاة باب العمل في القراءة ١/ ٨٠، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦ و ٦٧ و ١٢٩ و ٣/ ٩٤ ورواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث حسن صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الذهبي علىٰ شرطهما المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٣١١.

(٥) في ب «وردت».

(٦) في م «والاحتمال».

(٧) في ط «القوم».

فصل

[في منزلـة اللحظ]

قال شيخ الإسلام : منزلـة اللحظ

« (بَابُ اللحظِ) قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ » .

قلت : يريد - والله أعلم - بالاستشهاد بالآية : أن الله سبحانه أراد أن يُرِيَ موسىٰ ﷺ من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانا. لصيرورة[1] الجبل دكًّا عند تجلي ربه سبحانه أدنىٰ تجلٍّ. كما رواه ابن جرير[2] في تفسيره من حديث حماد بن سلمة[3] : أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي ﷺ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال حماد : هكذا - ووضع الإبهام علىٰ مفصل الخنصر الأيمن- فقال حميد لثابت : أتُحدِّث بمثلي هذا؟ فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده. وقال :

---

(١) في ق «بالصيرورة».

(٢) أبو جعفر محمد بن يزيد بن كثير بن غالب الإمام الطبري ولد سنة ٢٢٤هـ وقد كانت وفاته سنة ٣١٠هـ ، انظر : البداية والنهاية ١١/ ١٤٥-١٤٧ ، وانظر : مقدمة تاريخ ابن جرير ١/ ٣-٩ ، وانظر هذا النقل في تفسيره ١/ ٩٩.

(٣) أبوسلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري ثقة عابد تغير حفظه بآخر عمره توفي سنة ١٦٧هـ، انظر حلية الأولياء ٦/ ٢٤٩-٢٥٧ ، وتقريب التهذيب ١/ ١٩٧.

رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به؟»[1] رواه الحاكم في صحيحه وقال: هو علىٰ شرط مسلم. وهو كما قال.

والمقصود: أن الشيخ استشهد بهذه الآية في باب «اللحظ» لأن[2] الله سبحانه أمر موسىٰ أن ينظر إلىٰ الجبل حين تجلىٰ له ربه. فرأىٰ أثر التجلي في الجبل[3]، فخر [موسىٰ][4] صعقاً.

قال الشيخ: «**اللَّحظُ: لمَحٌ مُستَرَقٌ**»[5] الصواب قراءة هذه الكلمة علىٰ الصفة بالتخفيف. فوصف «اللمح» بأنه «مسترق» كما يقال: سارقته النظر. وهو لمح بخفية من[6] حيث لا يشعر الملموح.

ولهذا الاستراق أسباب. منها: تعظيم الملموح وإجلاله. فالناظر يسارقه

---

(١) «به» ساقطة من أ، ح، غ، وقد تقدم تخريجه في آخر منزلة الطمأنينة ص٢٧٦٥.

(٢) في الأصل وم «أن» والمثبت كما في البقية.

(٣) في ط زيادة «دكا».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ج، م، ق.

(٥) منازل السائرين ١٠٠، واللحظ في اللغة: هو النظر بمؤخرة العين. انظر: مختار الصحاح ٥٩٣، ويقصدون باللحظ كما قال الكاشاني: ملاحظة نور الكشف الملبس لباس التولي، والمذيق طعم التجلي، العاصم من عوار التسلي. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٢٥ وقال الطوسي في اللمع ٤٣١ اللحظ: إشارة إلىٰ ملاحظة أبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين بما آمن به في الغيوب.

(٦) في البقية عدا ج، م: بحفيه بحيث «وفي ط بعدها» لا يشعر به الملموح».

النظر. ولا يحده[١] إليه إجلالا له. كما كان أصحاب النبي ﷺ لا يحدون النظر إليه إجلالا له. وقال عمرو بن العاص : «[٢] لم أكن أملأ عيني منه إجلالا له. ولو سئلت : أن أصفه لكم لما قدرت. لأني لم أكن أملأ عيني منه»[٣].

ومنها : خوف الملموح وسطوته [٤].

ومنها محبته.

[ومنها][٥] الحياء منه.

ومنها ضعف القوة الباصرة عن التحديق فيه. وهذا السبب هو السبب الغالب في هذا الباب.

ويجوز أن تقرأ بكسر الراء وتشديد القاف. أي نظرا يسترِقُّ صاحبه. أي يأسر قلبه ويجعله رقيقا - أي عبداً مملوكا للمنظور - لأنه[٦] لما شاهد من

(١) في ط زيادة : «ولا يحد نظره».

(٢) هو الصحابي عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي أمير مصر يكنىٰ أبا عبدالله وأبا محمد أسلم قبل الفتح سنة ثمان ، وهو من المعروفين بالشجاعة والفطنة والدهاء والحزم ، توفي - رضي الله عنه - سنة ٤٣هـ ، وقيل غير ذلك ، انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٢ و ٣ ، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٥٤-٧٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب كون الإيمان يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١/ ١١٢ (١٢١) وغيره.

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق «اللامح سطوته» و «منها محبته» ساقطة من ح.

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) في البقية عدا م «إليه» وبعدها في غ «شهد».

جماله وكماله فاسترق قلبه له [١]. فلم يكن بينه وبين رقّه له إلا مجرد وقوع لحظه عليه [٢].

فهكذا صاحب هذه الحال إذا لاحظ بقلبه جلال الربوبية. وكمال الرب سبحانه، وكمال نعوته، ومواقع لطفه وفضله، وبره وإحسانه: استرق قلبه له وصارت له عبودية خاصة.

درجات اللحظ الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: مُلاَحَظَةُ الفَضلِ سَبقًا. وَهِيَ تَقطَعُ طَرِيقَ السُّؤَالِ، إِلاَّ مَا استَحَقَّتْه الرُّبُوبِيَّةُ مِن إِظهَارِ التَّذَلُّلِ لهَا. وَتُنبتُ السُّرُورَ، إِلاَ مَا يَشُوبُه مِن حَذَرِ المَكْرِ. وَيبعثُ عَلَىٰ الشُّكرِ إِلاَّ مَا قَامَ بِهِ الحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ مِن حَقِّ الصِّفَةِ» [٣].

الشيخ عادته في كل باب أن يقول: وهو علىٰ ثلاث درجات[٤]. وقال ههنا: «**وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ**» فعين هذا الباب هنا دون غيره من الأبواب. لأن «اللحظ» مشترك بين لحظ البصر، ولحظ البصيرة.

والشيخ إنما أراد [ههنا] [٥] هذا الثاني دون الأول. فإن كلامه فيه خاصة.

---

(١) «له» ساقطة من الجميع عدا ق.

(٢) في أ، ب، غ، ح «إليه».

(٣) منازل السائرين ص١٠٠ و ١٠١ وفيه وط «وتبنت... وتبعث».

(٤) سقط من أ إلىٰ قوله «فعين».

(٥) الزيادة من البقية عدا ج، م، ق.

وهو لما صدر بالآية والأمر بالنظر فيها : إنما توجه إلىٰ الأمر بنظر العين ، استدرك كلامه.

وقال : اللحظ الذي نشير إليه في هذا الباب ليس هو لحظ [1] العين. والله أعلم.

قوله : «**مُلاَحَظَةُ الفَضْلِ سَبقًا**» الفضل : هو العطاء الإلهي. و «السبق» هو ما سبق به له بالتقدير [2] قبل خروجه إلىٰ الدنيا. كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقال : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات : ١٧١-١٧٣] وهذا الكلام يُفسَّر علىٰ معنيين.

أحدهما : أن العبد إذا رأىٰ أن [3] ما قدَّره الله له قد سبق به تقديره - وهو [4] واصل إليه لا محالة ولا بد أن يناله - سكن جأشُه. واطمأنَّ قلبُه ، ووطّن نفسَه ، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وأنه ما يفتح الله له [5] من رحمة فلا ممسك لها. وما يمسكه عنه [6] فلا مرسل له

---

(١) في ج «نظر».

(٢) « به » ساقطه من الجميع عدا م.

(٣) «أن» ساقطة من الجميع. والمعنىٰ الثاني سيذكره المؤلف في نهاية الفصل.

(٤) في البقية عدا م «فهو».

(٥) في ط زيادة «وللناس» وفي م «ما يفتح الله للناس».

(٦) في الجميع «وما يمسك فلا مرسل».

من بعده. فإذا تيقن ذلك ، وذاق طعم الإيمان به : قطع ذلك عليه طريق الطلب من ربه ؛ لأن ما سبق له به القدر كائن واصل إليه (١) لا محالة.

سؤال العبد ربه

ثم استدرك الشيخ : أن العبد لا بد له من سؤال ربه ، والطلب منه. فقال : «إِلاَّ ما استَحقَّتْه الرُّبُوبيّةُ مِن إِظْهَارِ التَّذَلُّلِ لهَا» أي لا يعتقد أن سؤاله وطلبه يجلب له ما ينفعه. ويدفع عنه ما يحذره. فإن القدر السابق قد استقر بوصول المقدور إليه ، سأله أو لم يسأله. ولكن يكون سؤاله علىٰ وجه التذلل ، وإظهار فقر العبودية ، وذلها بين يدي عز الربوبية. فإن الرب تعالىٰ يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه. لا (٢) لأنَّ وصول بره وإحسانه إليه موقوف علىٰ سؤاله ؛ بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد ، ولا توسط سؤاله وطلبه ؛ بل قَدَّرَ له ذلك الفضل بلا سبب من العبد. ثم أمره بسؤاله والطلب منه ، إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة واعترافا بعز الربوبية. وكمال غنىٰ الرب ، وتفرده بالفضل والإحسان ، وأن العبد لا غنىٰ له عن فضله طرفة عين ، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم : أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئا. ولكن ربه تعالىٰ يحب أن يسأل ، ويرغب إليه ، ويطلب منه كما قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر :٦٠] وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ

(١) «إليه» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) «لا» ساقطة من البقية عدا ج ، ح ، م.

يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة :١٨٦] ، وقال : ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء : ٣٢] ، وقال : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان :٧٧] ، وقال : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف :٥٥]، وقال : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف : ٥٦].

وقال النبي ﷺ : «**ليسأل أحدكم ربه كل شيء ، حتىٰ شسع نعله إذا انقطع. فإنه إن لم ييسره لم يتيسر**»[1] ، وقال : «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[2] وقال : «**سلوا الله من فضله. فإن الله يحب أن يسأل. وما سئل الله شيئاً**

---

(١) رواه الترمذي في آخر كتاب الدعاء ، وقال : هذا حديث غريب ، ورواه أيضاً مرسلاً وفيه زيادة «حتىٰ يسأله الملح» وقال : هذا أصح من حديث قطن عن جعفر بن سليمان ، وهذا الحديث ساقط من مطبوعة سنن الترمذي. انظر : الضعيفة للألباني ٣/ ٥٣٨ ، ورواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٢٦ (٨٩١ و ٨٩٢) وصححه السيوطي بدون الزيادة وضعفه بالزيادة انظر الجامع الصغير ٢/ ٤٦٣ (٤٥٦٢ و ٧٥٦٣) وقد سبق أن حسن الألباني لهذا الحديث ثم استقر علىٰ تضعيفه وكذلك الزيادة وهي قوله «حتىٰ يسأله الملح» وبين أن هذا الحديث ساقط من نسخة الترمذي طبع بولاق ، انظر : الضعيفة ٣/ ٥٣٧-٥٤١(١٣٦٢).

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات الباب الثاني ٥/ ٤٥٦ (٣٣٧٣) وأحمد ٢/ ٤٤٢ والبخاري في الأدب المفرد ص٢٢٤ (٦٥٨) ، وابن ماجه في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ (٣٨٢٧) والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩١ وقال : هذا حديث صحيح. وذكر الحافظ في الفتح ١١/ ٩٥ أن فيه (الخوزي) وأنه مختلف فيه وذكر أحاديث تؤيده والحديث حسنه الألباني. انظر صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٤. وفي ط زيادة «وروىٰ الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ».

أحب إليه من العافية»[1]، وقال: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات. فتعرضوا لنفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[2].

وقال: «ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها إحدىٰ ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: إذاً نكثر يا رسول الله؟ قال: فالله أكثر»[3].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب في انتظار الفرج وغير ذلك وفيه: «يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج» وقال: هكذا روىٰ حماد بن واقد هذا الحديث وقد خولف في روايته. وقال: ورویٰ أبو نعيم هذا الحديث عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبي ﷺ مرسل وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح ٥/ ٥٦٥ و ٥٦٦ (٣٥٧١) وقال العجلوني: رواه الترمذي عن ابن مسعود، قال العراقي ضعيف وحسنه الحافظ ابن حجر. كشف الخفاء ١/ ٤٦٠ (١٥٠٧) وصححه السيوطي في الجامع الصغير ص٢٨٩ (٤٧٠١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص٤٨١ (٣٢٧٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن سلمة ١٩/ ٢٣٣ وكذا في الأوسط ٣/ ١٨٠ وقال: لا يرویٰ هذا الحديث عن محمد بن سلمة إلا بهذا الإسناد تفرد به أحمد بن عبده. وقد ذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ٤/ ٨٧وقال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه وفيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وثقوا. مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٤، وانظر كشف الخفاء ١/ ٢٣١ (٧٠٨) والحديث ضعفه السيوطي في الجامع الصغير ص١٤٥ (٢٣٩٨) وكذا الألباني في ضعيف الجامع ص٢٧٧ (١٩١٧).

(٣) رواه الترمذي بلفظ: «ما من أحد يدعو بدعاء» وبلفظ آخر: «ما علىٰ الأرض مسلم يدعو الله بدعوة» في كتاب الدعوات باب أن دعوة المسلم مستجابة وباب في انتظار الفرج وغير ذلك ٥/ ٤٦٢ و ٥٦٦ (٣٣٨١و ٣٥٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأحمد ٥/ ٣٢٩ والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٨٥ (٥٦٣٧).

وقال : «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»(١).

وقال تعالى(٢) فيما رواه عنه رسوله ﷺ : «يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي ، كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فاستغفروني. أغفر لكم»(٣) وقال ﷺ : «وأما السجود : فاجتهدوا في الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم»(٤).

وقال عمر بن الخطاب : «إني لا أحمل هم الإجابة. ولكن(٥) هم الدعاء.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعاء باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/ ٤٥٥ (٣٣٧٠) وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمران القطان وأحمد ٢/ ٣٦٢ والبخاري في الأدب المفرد ص٢٤١ (٧١٣) وابن ماجه في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ (٣٨٢٩) وابن حبان ٢/ ١١٥ (٨٦٧ والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٠ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والحديث حسنه الألباني - رحمه الله -. انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٢٤.

(٢) في ط زيادة «في الحديث القدسي فيما رواه مسلم عن أبي ذر - رضي الله عنه -».

(٣) الحديث أوله «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم ٣/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧) وغيره.

(٤) الحديث أوله «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة» رواه مسلم في كتاب الصلاة باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨ (٤٧٩) وغيره.

(٥) في ط زيادة «أحمل» والأثر لم أجده. ولكن ورد في الحديث بلفظ : «من أعطى أربعاً أعطي

فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه».

وفي هذا يقول القائل :

لو لم تُرد نيلَ [1] ما أرجو وأطلبه   من جود كفِّك ما عوّدتني الطَّلَبَا

والله سبحانه يحب تذلل عبيده بين يديه ، وسؤالهم إياه. وطلبهم حوائجهم منه ، وشكواهم منه [2] إليه ، وعياذهم به منه ، وفرارهم منه إليه. كما قيل :

قالوا أتشكو إليه ما   ليس يخفىٰ عليـه

فقلت ربي يرضـىٰ   ذلَّ العبيد لديـــه

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : حدثنا عبد الوهاب[3] عن إسحاق[4] عن مطرف قال : «تذكرت[5] : ما جماع الخير. فإذا الخير كثير : الصيام ، والصلاة وإذا هو في يد الله تعالىٰ. وإذا أنت لا تقدر علىٰ ما في يد الله إلا أن تسأله ،

أربعاً» وفيه «من أعطي الدعاء أعطي الإجابة». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٢ رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه ابن العباس وهو ضعيف.

(١) في البقية عدا ج ، م ، ق «بذل» والبيت ذكره المؤلف في كتابه عدة الصابرين ٤٧.

(٢) «منه» ساقطة من البقية عدا م ، ج ، ق.

(٣) أبو نصر عبدالوهاب بن عطاء الخفاف العجلي البصري سكن بغداد وروىٰ عن سليمان التيمي وحميد الطويل ، وغيرهم وروي عنه أحمد وإسحاق وابن معين وغيرهم مات سنة ٢٠٤هـ وقيل ٢٠٦هـ. انظر : تهذيب التهذيب ٦/ ٣٩٨-٤٠٠ ، والتاريخ الكبير ٦/ ٩٨.

(٤) هو إسحاق بن إبراهيم بن علية الأسدي البصري أخو إسماعيل بن علية روىٰ عنه عبدالوهاب بن عطاء. انظر : التاريخ الكبير ١/ ٣٧٨.

(٥) في ط : «بن عبدالله قال : تذاكرت».

فيعطيك. فإذا جماع الخير : الدعاء»(١).

القدر والدعاء

وفي هذا المقام غلط طائفتان من الناس :

طائفة : ظنت أن القدر السابق يجعل الدعاء عديم الفائدة.

قالوا : فإن المطلوب إن كان قد قدر ، فلا بد من وصوله ، دعا العبد أو لم يدع ، وإن لم يقدر(٢) ؛ فلا سبيل إلىٰ حصوله ، دعا أو لم يدع.

ولما رأوا الكتاب والسنة والآثار قد تظاهرت بالدعاء وفضله ، والحث عليه وطلبه ، قالوا : هو عبودية محضة. لا تأثير له في المطلوب ألبتة. وإنما تعبدنا الله به(٣). وله أن يتعبد عباده بما شاء كيف شاء.

والطائفة الثانية : ظنت أن بنفس الدعاء والطلب ينال المطلوب ، وأنه موجِبٌ لحصوله ، حتىٰ كأنه سبب مستقل. وربما انضاف إلىٰ ذلك شهودها(٤) أن هذا السبب منها وبها وأنها(٥) هي التي فعلته وأحدثته ، وإن علمت أن الله خالق أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وإراداتهم ، فربما غاب عنها شهود(٦)

---

(١) انظر : الزهد للإمام أحمد ٢٩٥.

(٢) في ط : «وإن لم يكن قد قدر».

(٣) «به» ساقطة من غ ، ح وفي البقية عدا ج ، م ، ق ، ب «به الله» وبعدها «أن» ساقطة من غ.

(٤) في ط «شهودهم».

(٥) في ط «منهم وبهم وأنهم هم الذين فعلوه وأن نفوسهم هي التي... عنهم».

(٦) في ط «عنهم... لا بهم ولا منهم... الذي حركهم».

كون ذلك بالله ومن الله ، لا بها ولامنها. وأنه هو الذي حركها للدعاء. وقذفه في قلب العبد. وأجراه علىٰ لسانه.

فهاتان الطائفتان غالطتان أقبح غلط. وهما محجوبتان عن الله.

فالأولىٰ : محجوبة عن رؤية حكمته في الأسباب ونصبها لإقامة العبودية ، وتعلق الشرع والقدر بها. فحجابها كثيف عن معرفة حكمة الله سبحانه في شرعه وأمره وقدره.

والثانية : محجوبة عن رؤية مِنَنِه وفضله ، وتفرده بالربوبية والتدبير. وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن. وأنه لا حول للعبد ولا قوة له - بل ولا للعالم أجمعه - (١) إلا به سبحانه. وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ومشيئته.

وقول الطائفة الأولىٰ : «إن المطلوب إن قدر فلابد(٢) من حصوله ، و[إنه](٣) إن لم يقدر فلا(٤) مطمع في حصوله».

جوابه ، أن يقال : بقي قسم ثالث ، لم تذكروه. وهو أنه قدر بسببه. فإن وجد سببه وجد [ما رُتِّب](٥) عليه وإن لم يوجد سببه لم يوجد. ومن أسباب

---

(١) في ط «أجمع».

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق «لا بد».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

(٤) في م «فلا سبيل إلىٰ حصوله».

(٥) الزيادة من الجميع وسقط من أ إلىٰ قوله «أن من أسباب الولد».

المطلوب: الدعاء والطلب اللذين إذا وُجدا وُجِدَ ما رُتِّب عليهما. كما أن أسباب الولد: الجماع. ومن أسباب الزرع: البذر ونحو ذلك. وهذا القسم الثالث هو الحق.

ويقال للطائفة الثانية: لا موجِب إلا مشيئة الله تعالىٰ. وليس ههنا سبب مستقل غيرها. فهو الذي جعل السبب سبباً. وهو الذي رتب عليه(١) حصول المسبَّب. ولو شاء لأوجده بغير ذلك السبب. وإذا شاء منع سببية السبب، وقطعه(٢) عن اقتضاء أثره(٣). وإذا شاء أقام له مانعا يمنعه عن اقتضاء أثره، مع بقاء قوته فيه. وإن(٤) شاء رتب عليه ضد مقتضاه وموجبه.

فالأسباب طوع مشيئته وقدرته، وتحت تصريفه(٥) وتدبيره. يقلِّبُها كيف شاء. فهذا أحد المعنيين في كلامه.

والمعنىٰ الثاني: أن من لاحَظَ بعين قلبه ما سبق له من ربه من جزيل الفضل والإحسان والبر من غير معاوضة، ولا سبب من العبد أصلاً - فإنه سبقت له تلك السابقة وهو في العدم. لم يكن شيئا ألبتة - شغلته

(١) في ط «علىٰ السبب».

(٢) في البقية «وقطع عنه».

(٣) «وإذا شاء أقام له مانعاً يمنعه عن اقتضاء أثره» ساقطة من ق.

(٤) في ط «وإذا».

(٥) في البقية عدا م «تصرفه».

تلك(١) الملاحظة بطلب الله و محبته(٢) وإرادته عن الطلب منه. وقطعت عليه طريق السؤال ، اشتغالا بذكره وشكره ، ومطالعة منَّته عن مسألته. لا لأن مسألته والطلب منه نقص ؛ بل لأنه في هذه الحال لا يتسع للأمرين ، بل استغراقه في شهود المنة وسبق الفضل قطع عليه طريق الطلب والسؤال. وهذا لا يكون مقاما(٣) لازماً له لا يفارقه ؛ بل هذا حكمه في هذه الحال. والله أعلم.

فصل

قوله : «**ويُنبِتُ السُّرُورَ ، إلاَّ مَا يَشُوبُه من حَذَرِ المَكْرِ**».

يعني : أن هذا اللحظ من العبد ينبت له السرور ، إذا علم أن فضل ربه قد سبق له بذلك قبل أن يخلقه ، مع علمه به وبأحواله وتقصيره ، على التفصيل. ولم يمنعه علمه به : أن يقدر له ذلك الفضل والإحسان. وهو (٤) أعلم به إذ أنشأه من الأرض ، وإذ هو جنين في بطن أمه. ومع ذلك فقدر له من الفضل والبر(٥) والجود ما قدره بدون سبب منه ؛ بل مع علمه بأنه يأتي من الأسباب بما

(١) في ق بدل «تلك» «عن».

(٢) «وإرادته» ساقطة من ق ، ج.

(٣) في م «شأناً» بدل «مقاماً» وبعدها في ج «له» ساقطة.

(٤) في البقية «فهو».

(٥) «والبر» ساقطة من الجميع عدا م ، ج ، ق.

يقتضي قطع ذلك ومنعه منه [١].

فإذا شاهد العبد ذلك : اشتد سروره بربه ، وبمواقع فضله وإحسانه. وهذا فرحٌ محمود غير مذموم. قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس :٥٨] : ففضله : الإسلام والإيمان ، ورحمته : العلم والقرآن. وهو يحب من عبده : أن يفرح بذلك ويُسَرَّ به ؛ بل يحب من عبده : أن يفرح بالحسنة إذا عملها ويسر بها[٢]. وهو في الحقيقة فرح بفضل الله ، حيث وفقه [الله][٣] لها ، وأعانه عليها ويسرها له [٤]. ففي الحقيقة : إنما يفرح[٥] بفضل الله وبرحمته.

الفرح المحمود والمذموم

ومن أعظم مقامات الإيمان : الفرح بالله ، والسرور به. فيفرح به إذ هو عبده ومحبه. ويفرح به سبحانه ربّاً وإلهاً ، ومنعماً ومربياً ، أشد من فرح العبد بسيده المخلوق المشفق عليه، القادر علىٰ مايريده العبد[٦]. المتنوع في الإحسان إليه، والذبّ عنه.

وسيأتي – عن قريب إن شاء الله– تمام هذا المعنىٰ في باب «السرور».

---

(١) في ط «عنه».

(٢) في ط زيادة «أن».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ق ، ج.

(٤) «له» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح.

(٥) في ط زيادة «العبد».

(٦) في ط زيادة «ويطلبه منه» وبعدها في الأصل وم «المتبوع» والمثبت كما في البقية وهو الصحيح.

وقوله[١] : «إِلاَّ مَا يَشُوبُه مِن حَذَرِ المَكْرِ» أي يمازجه. فإن السرور والفرح يبسط النفس وينمِّيها. وينسيها عيوبها [٢] وآفاتها ونقائصها. إذ لو شهدت ذلك وأبصرته لشغلها [٣] عن الفرح.

الحديث عن المنكر

وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم. ويشتغل[٤] بالخلعة التي خلعها عليه عنه. فيطفح عليه السرور، حتىٰ يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم.

ولله كم ها هنا من مسترد منه ما وهب له غيرة[٥] وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو استمر علىٰ تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان. كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا كان هذا غنىٰ بالحطام الفاني، فكيف بالغنىٰ بما هو أعلىٰ من ذلك وأكبر[٦] فصاحب هذا المقام[٧] إن لم يصحبه حذر المكر: خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و «المكر» الذي يخاف عليه منه: أن يُغيِّب الله سبحانه عنه شهود أوليته في

(١) في البقية عدا م «قوله».

(٢) في ب «ونفائعها وآفاتها».

(٣) في ط زيادة «ذلك» وفي م «يشعلها».

(٤) في ط «فيستغل» و م «ويستعمله».

(٥) في البقية عدا م، ج «عزة».

(٦) في البقية عدا م «وأكثر».

(٧) «المقام» ساقطة من الجميع عدا ج، م، ق.

ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب(١) عن شهود حقيقة قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل :٥٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران :١٥٤]، وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص :٨٦]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور : ٢١] وأمثال ذلك. فيغيبه عن شهود ذلك. ويحيله علىٰ معرفته وكسبه(٢) وطلبه. فيحيله علىٰ نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحوالة علىٰ الملي الوفي الذي له الغنىٰ التام(٣) كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده. قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا

---

(١) في ب «عنه».

(٢) في البقية عدا م، ج «معرفته في كسبه» وفي ج بعدها «وظلمه».

(٣) في ج، م «كله التام».

يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾ [الأعراف : ٨٨-٨٩] ، فردَّ الأمر إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ وعلمه ، أدباً مع الله ، ومعرفة بحق الربوبية ، ووقوفاً مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم لقومه - وقد خوفوه بآلهتهم - فقال : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام :٨٠] فرد الأمر إلىٰ مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالىٰ : ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩].

الأمن من المكر

وقد اختلف السلف : هل يكره أن يقول العبد في دعائه : اللهم لا تؤمِّنِّي مكرَك؟

فكان بعض السلف يدعو بذلك. ومراده : لا تخذلني ، حتىٰ آمن مكرك ولا أخافه ؛ وكرهه مطرف بن عبدالله بن الشخير.

قال[1] الإمام أحمد : حدثنا عبدالوهاب عن إسحاق عن مطرف «أنه كان يكره أن يقول : اللهم لا تنسني ذكرك ، ولا تؤمني مكرك. ولكن أقول : اللهم لا تنسني ذكرك ، وأعوذ بك أن آمن مكرك ، حتىٰ تكون أنت تؤمنني»[2].

وبالجملة فمن أحيل علىٰ نفسه فقد مكر به.

---

(١) في ط ، ج «وقال».

(٢) الزهد للإمام أحمد ٢٩٥.

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد[١]- مولىٰ بني هاشم- حدثنا الصلت[٢] ابن طريف المعولي حدثنا غيلان[٣] بن جرير عن مطرف قال : «وجدت هذا الإنسان ملقىٰ بين الله عز وجل وبين الشيطان. فإن يعلم الله في قلبه خيرا يجبذه إليه وإن لا يعلم فيه خيراً : وكله إلىٰ نفسه. ومن وكله إلىٰ نفسه فقد هلك»[٤].

وقال جعفر بن سليمان[٥] : حدثنا ثابت عن مطرف قال : «**لو أُخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار. وجيء بالخير فجعل في هذه اليمنىٰ. ثم قربت من الأخرىٰ ما استطعت أن أولج قلبي منه شيئاً حتىٰ يكون الله عز وجل يضعه**»[٦].

---

(١) أبو سعيد عبدالرحمن بن عبيد البصري مولىٰ بني هاشم نزيل مكة لقبه جردقة. قال عنه ابن حجر صدوق ربما أخطأ من التاسعة مات سنة ٩٧هـ. تقريب التهذيب ١/ ٤٨٧ (١٠٠٧)، وتهذيب التهذيب ٦/ ١٩٠ (٤٢٩).

(٢) هو الصلت بن طريف المعولي روىٰ عن الحسن وأبي شمر وروىٰ عنه أبو قتية وموسىٰ بن إسماعيل وسهل بن بكار. انظر : التاريخ الكبير ٣/ ٣٠٣، والجرح والتعديل ٤/ ٤٤١.

(٣) هو غيلان بن جرير المعولي الأزدي البصري روىٰ عن أنس بن مالك ومطرف بن عبدالله وغيرهما قال أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي ثقة مات سنة ١٢٩هـ. انظر : تهذيب التهذيب ٨/ ٢٢٧، والتاريخ الكبير ٧/ ١٠١ و ١٠٢.

(٤) الزهد للإمام أحمد ٢٩٦.

(٥) أبو سليمان جعفر بن سليمان الضبعي الجرشي البصري مولىٰ بن جريش وكان ينزل في بني ضبيعة روىٰ عن ثابت ومالك بن دينار وأبي عمران الجوني وغيرهم مات سنة ٢٧٧هـ انظر الجرح والتعديل ٢/ ٤٨١، والتاريخ الكبير ٢/ ١٩٢.

(٦) ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٩٠.

ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر، مالم يقارنه خوف: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال قوم قارون له(١): ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦] فالفرح متى كان بالله، وبما مَنَّ الله(٢)، مقارنا للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضرَّه ولا بد.

قوله: «وَيَبعَثُ عَلَىٰ الشُّكرِ إلاّ مَا قَامَ بِهِ الحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ مِن حَقِّ الصِّفَةِ» هذا الكلام يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد أن هذه الملاحظة تبعثه على الشكر لله في السراء والضراء في كل حين، إلا ما عجزت قدرته عن شكره. فإن الحق سبحانه هو الذي يقوم به لنفسه بحق كماله المقدس، وكمال صفاته ونعوته. فتلك الملاحظة تبسط العبد للشكر إلا الشكر(٣) الذي يعجز عنه، ولا يقدر أن يقوم به. فإن شكر العبد لربه: نعمة من الله أنعم بها عليه. فهي تستدعي شكرا آخر عليها. وذلك الشكر نعمة أيضاً. فيستدعي شكراً ثالثاً. وهلمَّ جرًّا. فلا سبيل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة. ولا يشكره على الحقيقة سواه. فإنه

---

(١) «له» ساقة من غ، ح، ج، م، ب.

(٢) في ط زيادة «به».

(٣) في البقية عدا م «تبسط للعبد الشكر الذي يعجز عنه».

المنعم[1] بالنعمة وبشكرها. فهو الشكور لنفسه ، وإن سمىٰ عبده شكوراً. فمدحة الشكر في الحقيقة : راجعة إليه ، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم به [2] علىٰ عبده. فما شكره في الحقيقة سواه ، مع كون العبد عبداً والرب رباً. فهذا أحد المعنيين في كلامه.

المعنىٰ الثاني : أن هذا اللحظ ينشطه[3] للشكر الذي هو وصفه وفعله. لا الشكر الذي هو صفة الرب جل جلاله وفعله. فإنه سمىٰ نفسه بالشكور ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء :١٤٧] وقال أهل الجنة: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر :٣٤] فهذا الشكر الذي هو وصفه سبحانه لا يقوم إلا به. ولا يبعث العبد علىٰ[4] الملاحظة المذكورة إلا علىٰ وجه واحد. وهو أنه : إذا لاحظ سبق الفضل منه سبحانه ، علم أنه فعل ذلك لمحبته للشكر. فإنه تعالىٰ يحب أن يشكر. كما قال موسىٰ «يا رب ، هَلاَّ سويت بين عبادك؟ فقال : إني أحب أن أشكر»[5].

---

(١) في ط زيادة «هو».

(٢) «به» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) في البقية عدا م «يبسطه».

(٤) في ق ، ب «عليه».

(٥) القائل هو آدم ـ عليه السلام ـ والحديث في صحيح الحاكم ٢/ ٣٢٤ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقد ذكر المؤلف هذا الحديث بتمامه في كتابه شفاء العليل ١/ ٩.

وإذا كان يحب الشكر فهو أولىٰ أن يتصف به ، كما أنه سبحانه وتر ، يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، محسن يحب المحسنين ، صبور يحب الصابرين ، عفو يحب العفو ، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف. فكذلك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تشهده صفة الشكر. وتبعثه علىٰ القيام بفعل الشكر. والله أعلم.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : مُلاَحَظَةُ نُورِ الكَشْفِ. وَهِيَ تُسبِلُ لِبَاسَ التَّوَلِّي ، وَتُذِيقُ طَعْمَ التَّجَلِّي ، وَتَعْصِمُ مِن عَوَارِ التَّسَلِّي» [1].

هذه الدرجة : أتم مما قبلها. فإن تلك الدرجة : ملاحظة ما سبق بنور العلم. وهذه ملاحظة كشف[2] [بحال قد استولىٰ علىٰ قلبه ، حتىٰ[3] شغله عن الخلق. فأسبل عليه لباس توليه لله[4] وحده وتوليه عما سواه.

ونور الكشف عندهم : هو مبدأ الشهود. وهو نور تجلي معاني الأسماء الحسنىٰ علىٰ القلب. فتضيء به ظلمة القلب. ويرتفع به حجاب الكشف.

ولا تلتفت إلىٰ غير هذا ، فتزل قدم بعد ثبوتها. فإنك تجد في كلام بعضهم:

---

(١) منازل السائرين ١٠١.

(٢) من هنا بداية سقط من نسخة «أ». عند قوله «وسيلة إلىٰ العمل».

(٣) في ق «حين».

(٤) في البقية عدا م : «الله».

امتناع رؤية الله في الدنيا

تجلي الذات يقتضي كذا وكذا، وتجلي الصفات يقتضي كذا وكذا، وتجلي الأفعال يقتضي كذا وكذا[(١)]، والقوم عنايتهم بالمعاني أكثر من[(٢)] عنايتهم بالألفاظ. فيتوهم المتوهم: أنهم يريدون تجلي[(٣)] حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات. والصادقون العارفون برآء من ذلك.

وإنما يشيرون إلىٰ كمال المعرفة، وارتفاع حجب[(٤)] الغفلة والشك والإعراض، واستيلاء سلطان المعرفة علىٰ القلب بمحو[(٥)] شهود السوىٰ بالكلية. فلا يشهد القلب سوىٰ معروفه.

ويُنظِّرون هذا بطلوع الشمس. فإنها إذا طلعت انطمس نور الكواكب. ولم تعدم الكواكب. وإنما غطىٰ عليها نور الشمس. فلم يظهر لها وجود. وهي موجودة في أماكنها وهكذا[(٦)].

نور المعرفة إذا استولىٰ علىٰ القلب وقوي[(٧)] سلطانها، وزالت الموانع

---

(١) انظر: التجلي والتجلي الأول والثاني والتجلي الشهودي في معجم اصطلاحات الصوفية ص١٧٣ و ١٧٤، والتعريفات ٧٨. وفيه التجلي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب...

(٢) قوله «عنايتهم بالمعاني أكثر من» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) في ج زيادة «بالمعاني» وهي غير مناسبة لأن المؤلف يفسر لفظاً.

(٤) في ق «حجاب».

(٥) في م، ج، ق، ح، غ «يمحص».

(٦) في ط: «وهي في الواقع في أماكنها وهكذا».

(٧) في ط «القلب قوي».

والحجب عن القلب.

ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله.

ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف: برزت وتجلت للعبد -كما تجلىٰ سبحانه للطور، وكما يتجلىٰ يوم القيامة للناس - إلا غالط فاقد للعلم. وكثيراً ما يقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلىٰ نور الذات والصفات.

فإن العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية[1]، والذكر المتواطئ عليه القلب واللسان: يوجب نورا علىٰ قدر قوّته وضعفه. وربما قوي ذلك النور حتىٰ يشاهد بالعيان. فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية. فيظنه نور الذات وهيهات! ثم هيهات! نور الذات لا يقوم له[2] شيء ولو كشف سبحانه الحجاب عنه لتدكدك العالم كله، كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له ذلك[3] القدر اليسير من التجلي.

وفي الصحيح عنه ﷺ: **«إن الله سبحانه لا ينام. ولا ينبغي له أن ينام،**

---

(١) أي الرياضة الموافقة للشرع. ويقصدون بالرياضة: ترك الحظوظ والاقتصار علىٰ الحقوق مع تمرين الجوارح علىٰ موافقة الشرع ومخالفة مقتضىٰ الطبع، معجم اصطلاحات الصوفية ٢٠١، وانظر التعريفات ١٥٠.

(٢) في م: «لها».

(٣) «ذلك» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»[1].

فالإسلام له نور. والإيمان له نور أقوىٰ منه. والإحسان له نور أقوىٰ منهما. فإذا اجتمع نور[2] الإسلام والإيمان والإحسان، وزالت الحجب الشاغلة عن الله: امتلأ القلب والجوارح بذلك النور. لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالىٰ. فإن صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته. كما أن مخلوقاته لا تحل فيه. فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته. فلا اتحاد، ولا حلول، ولا ممازجة. تعالىٰ الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

قوله: « **وَيَعصِمُ مِن عَوَارِ التَّسَلِّي** » العوار: العيب. و« التسلي »[3] عن المحبوب الذي لا حياة للقلب ولا نعيم إلا بحبه والقرب منه، والأنس بذكره[4]. فإن سلوَّ القلب وغفلته عن ذكره: هو من أعظم العيوب. فهذه

---

(١) رواه مسلم وسبق تخريجه ص ٢٨٩٨.

(٢) «نور» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

(٣) في ج تكرار لما سيأتي وهو قوله: «فإن سلو القلب وغفلته عن ذكره» والعوار كما ذكر المؤلف «العيب».

انظر: مختار الصحاح ٤٦٢ وكلمة «العوار» ساقطة من ق، وفي ط «العيب والتسلي والسلوه عن المحبوب».

(٤) سقط من م إلىٰ قوله «من أعظم العيوب».

الملاحظة إذا صدقت عصمت صاحبها من[١] عيب سلوته عن مطلوبه ومراده. فإنه في هذه الدرجة[٢] مستغرق في شهود الأسماء والصفات. وقد استولىٰ [علىٰ قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها. ومع هذا: فباب السلوة][٣] عليه مسدود، وطريقها عليه مقطوع. والمحب يمكنه التسلي قبل أن يشاهد جمال محبوبه، ويستغرق في شهود كماله، ويغيب به[٤] عن غيره. فإذا وصل إلىٰ هذه الحال كان كما قيل:

مرَّتْ بأرجَاءِ الخيَالِ طُيوفُه فبكَتْ علىٰ رسْمِ السُّلُوِّ الدَّارس[٥]

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: مُلاَحَظَةُ عَينِ الجَمْعِ. وَهِيَ تُوقِظُ لاستِهَانَةِ المُجَاهَدَاتِ. وَالتَّخَلُّصِ مِن رُعُونَةِ المُعَارَضَاتِ. وَتُفِيدُ مُطَالَعَةَ البِدَايَاتِ»[٦].

هذه الدرجة عنده: أرفع مما قبلها. فإن ما قبلها مطالعة كشف. وأنوار[٧] تشير

---

(١) في البقية عدا م، ج، ق «عن».

(٢) «الدرجة» ساقطة من م.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «به» ساقطة من م.

(٥) ذكر المؤلف هذا البيت في كتابه روضة المحبين ١٢٩.

(٦) منازل السائرين ١٠١.

(٧) في البقية عدا ج، م، ق «كشف الأنوار».

إلىٰ نوع كسب واختيار. وهذه مطالعة تجذب القلب من التفرق في أودية الإرادات، وشعاب الأحوال والمقامات، إلىٰ ما استولىٰ عليه من عين الجمع، الناظر إلىٰ الواحد الفرد، الأول الذي ليس قبله شيء[1]، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، فسبق[2] كل شيء بأوليته. وبقي بعد كل شيء بآخريته. وعلا فوق كل شيء بظهوره. وأحاط بكل شيء ببطونه.

فالنظر بهذه العين: يوقظ قلبه لاستهانته بالمجاهدات.

ومعنىٰ ذلك: أن السالك في[3] مبدأ أمره له شِرَّة، وفي طلبه حدة، تحمله علىٰ أنواع المجاهدات، وترميه عليها لشدة طلبه. ففتوره نائم، واجتهاده يقظان.

الجمعية على الله وغلط من عطل الفرائض والنوافل

فإذا وصل إلىٰ هذه الدرجة: استهان بالمجاهدات الشَّاقة في جنب ما حصل له من مقام الجمع علىٰ الله. واستراح من كدِّها. فإن ساعة من ساعات الجمع علىٰ الله: أنفع وأجدىٰ[4] من القيام بكثير من المجاهدات البدنية[5]،

---

(١) في ق «كمثله».

(٢) في ط «سبق».

(٣) «في» ساقطة من غ، ح، ب.

(٤) في ط زيادة «عليه».

(٥) سقط من ح إلىٰ قوله «المجاهدات وتعبها».

التي لم يفرضها الله عليه. فإذا جمع همَّه وقلبَه كلَّه علىٰ الله وزال عنه[١] كل مفرق ومشتت : كانت هذه هي ساعات عمره في الحقيقة. فتعوَّض بها عما كان يقاسيه من كَدِّ المجاهدات وتعبها.

وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس.

إحداهما : غَلَت فيه[٢] ، حتىٰ قدمته علىٰ الفرائض والسنن. ورأت نزولها عنه إلىٰ القيام بالأوامر انحطاطا من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ. حتىٰ قيل لبعض[٣] من ذاق ذلك : قم إلىٰ الصلاة ، فقال :

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وقال آخر : لا تسيب واردك لو ردك[٤] :

وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض - إذا حصلت له الجمعية - فهو كافر ، منسلخ من الدين. ومن عطّل لها ما مصلحته[٥] - راجحة كالسنن الرواتب ، والعلم النافع ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والنفع العظيم

---

(١) «عنه» ساقطة من البقية عدا ج ، م ، ق.

(٢) «فيه» ساقطة من ج.

(٣) في ط زيادة «زعم أنه».

(٤) في م «أورادك».

(٥) في ط «لها مصلحة».

المتعدي- فهو ناقص.

والطائفة الثانية : لا تعبأ بالجمعية ، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدري ما مسماها وحقيقتها [١].

وطريقة الأقوياء ، أهل الاستقامة : القيام بالجمعية في التفرقة ما أمكن. فيقوم بالعبادات[٢] ، ونفع الخلق ، والإحسان إليهم ، مع جمعيته علىٰ الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين ، وضاق عن ذلك : قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها ، إذا كان لا يقدر علىٰ تحصيلها إلا بتعطيل الفرض. فإن ربه سبحانه يريد منه[٣] أداء فرائضه. ونفسه تريد الجمعية ، لما فيها من الراحة واللذة ، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها [٤]. فالفرائض حق ربه. والجمعية حظُّه هو.

فالعبودية الصحيحة : توجب عليه تقديم أحد الأمرين علىٰ الآخر. فإذا جاء إلىٰ النوافل ، وتعارض عنده الأمران : فمنهم من يرجح الجمعية.

ومنهم من يرجح النوافل. ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت[٥].

---

(١) في ط «ولا حقيقتها».

(٢) في ط«فيقوم أحدهم».

(٣) سقط من م إلىٰ قوله «الجمعية».

(٤) في ب : «وشعبها».

(٥) سقط من م : «وهذا في وقت».

والتحقيق - إن شاء الله - أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من مصلحة(١) الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فاتته(٢) الجمعية، كالدعوة إلىٰ الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول النهار(٣) وآخره، وقراءة القرآن بالتدبر. ونفل الجهاد، والإحسان إلىٰ المضطر، وإغاثة الملهوف. ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية.

وإن كانت مصلحته دون مصلحة(٤) الجمعية - كصلاة الضحىٰ، وزيارة الإخوان، والتبتل(٥) لحضور الجنائز، وعيادة المرضىٰ، وإجابة الدعوات، وزيارة القدس، وضيافة الإخوان ونحو ذلك - فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جمعيته وظهر تأثيرها فيه فهي أولىٰ له(٦)، وأنفع من ذلك. وإن ضعفت الجمعية، وقوي إخلاصه في هذه الأعمال: فهي أنفع له، وأفضل من الجمعية.

والمعول عليه في ذلك(٧): إيثار أحب الأمرين إلىٰ الرب تعالىٰ.

---

(١) «مصلحة» ساقطة من ط.

(٢) في البقية عدا م «فاتت».

(٣) في البقية عدا م، ج، ق «الليل».

(٤) «مصلحة» ساقطة من ط.

(٥) في ط: «والغسل».

(٦) «له» ساقطة من غ، ح.

(٧) في ط: «والمعول عليه في ذلك كله» و«عليه» ساقطة من ج، ق.

وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته ، من زيادة الإيمان به ، وترتب الغايات الحميدة عليه ، وكثرة مواظبة الرسول ﷺ[1] ، وشدة اعتنائه به ، وكثرة الوصية به ، وإخباره : أن الله يحب فاعله. ويباهي به الملائكة. ونحو ذلك.

ونكتة[2] المسألة وحرفها : أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه علىٰ حظه. فإن كان رِضَىٰ اللهِ في القيام بذلك العمل ، وحظه في الجمعية : خَلَّىٰ الجمعية تذهب. وقام بما فيه رضىٰ الله. ومتىٰ علم الله من قلبه: أن تردده وتوقفه[3] ليعلم: أي الأمرين أحب إلىٰ الله وأرضىٰ له نشأ[4]- له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة ، حتىٰ لو أقدم علىٰ[5] المفضول - لظنه أنه الأحب إلىٰ الله - ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر. وبالله التوفيق.

وفي كلامه معنىٰ آخر ، وهو : أن صاحب المجاهدات مسافر بعزمه وهمه[6] إلىٰ الله. فإذا لاحظ عين الجمع ، وهي الوحدانية - التي شهود عينها : هو

---

(١) في ط زيادة «عليه».

(٢) النكتة : هي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر. والحرف : ما دل علىٰ معنىٰ في غيره. انظر : التعريفات ص١١٨ و ٣٠٢.

(٣) المثبت كما في البقية لموافقة ما بعده وفي الأصل : «أن مراده وتوقعه».

(٤) في ط «أنشأ».

(٥) «علىٰ» ساقطة من ط وفي البقية عدا م ، ج ، ق «قدم».

(٦) في ط «وهمته».

انكشاف حقيقتها للقلب - كان بمنزلة مسافر جاد في سيره، وقد وصل إلىٰ المنزل. وقرت عينه بالوصول. وسكنت نفسه، كما قيل:

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النّوىٰ كما قرَّ عينًا بالإياب المسافرُ][1]

ولكن هذا الموضع: مورد الصدِّيق الموحد. والزنديق الملحد.

فالزنديق يقول: الاشتغال بالسير بعد الوصول عبث[2]. لا فائدة فيه. والوصول عنده: هو ملاحظة عين الجمع. فإذا استغرق في هذا الشهود، وفني به[3] عن كل ما سواه: ظن أن ذلك هو الغاية المطلوبة بالأوراد والعبادات. وقد حصلت له الغاية. فرأىٰ قيامه بها أولىٰ به، وأنفع له من الاشتغال بالوسيلة. فالعبادات البدنية عنده: وسيلة لغاية، وقد حصلت. فلا يغني[4] الاشتغال بالوسيلة بعدها، كما يقول كثير من الناس: إن العلم وسيلة إلىٰ العمل. فإذا اشتغلت بالغاية لم تحتج إلىٰ الوسيلة.

وقد اشتدّ نكيرُ [السلف - من][5] أهل الاستقامة من الشيوخ - علىٰ هذه

---

(١) نهاية السقوط من نسخة «أ» وهذا البيت لمعقر بن أوس بن حمار. انظر: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ١/ ٣٦٩ ولسان العرب ١٥/ ٦٥ و ٣٤٧، وطبقات ابن سعد ٣/ ٤٠، والعقد الفريد ٢/ ١٤٠.

(٢) في البقية عدا ج «عيب». وانظر: شرح التلمساني علىٰ المنازل ٢/ ٤٥٢ و ٤٥٣.

(٣) في م «فيه».

(٤) «يغنىٰ» ساقطة من م، وفي البقية «معنىٰ للاشتغال».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م.

الفرقة. وحذروا منهم. وجعلوا أهل الكبائر وأصحاب الشهوات خيراً منهم ، وأرجىٰ عاقبة.

وأما الصديق الموحّد : فإذا وصل إلىٰ هناك ، صارت أعماله القلبية والروحية أعظم من أعماله البدنية ، ولم يسقط من طاعاته[1] شيئاً لكنه استراح من كدِّ المجاهدة بما لاحَظَه من عين[2] الجمع. وصار بمنزلة مسافر طلب ملكا عظيما رحيما جواداً ، فجدَّ في السفر إليه ، خشية أن يقتطع دونه ، فلما وصل إليه ووقع بصره عليه : بقي له سير آخر في مرضاته ومحابه[3]. فالأول : كان سيراً إليه. وهذا سير في محابه ومراضيه. فهذا أقرب ما يقال في كلام الشيخ وأمثاله في ذلك.

وبعد[4] ، فالعبد - وإن لاحظ عين الجمع ، ولم يغب عنها - فهو سائر إلىٰ الله ولا ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة. ولا يصل العبد ما دام حيّاً إلىٰ الله وصولا يستغنىٰ به عن السير إليه البتة وهذا عين المحال ؛ بل يشتد سيره إلىٰ[5] الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده ، وأسمائه وصفاته. ولهذا كان رسول الله ﷺ

---

(١) في البقية عدا م «أعماله».

(٢) في البقية عدا م ، ج «المجاهدات بملاحظة عين الجمع»

(٣) سقط من ح إلىٰ قوله «ومراضيه»

(٤) «وبعد» ساقطة من أ.

(٥) في أ «إليه»

أعظم [الخلق][١] اجتهاداً ، وقياماً بالأعمال ، ومحافظة عليها إلىٰ أن توفاه [الله][٢] وهو أعظم ما كان اجتهاداً وقياماً بوظائف العبودية. فلو أتىٰ العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلىٰ الله. وكان بعد في طريق الطلب والإرادة.

تقسيم السائرين إلى الله ونقد المؤلف له

وتقسيم السائرين إلىٰ الله : إلىٰ طالب ، وسائر ، وواصل. أو إلىٰ مريد ، ومراد : تقسيم فيه مساهلة. لا تقسيم حقيقي ، فإن الطلب والسلوك والإرادة لو فارق العبد[٣] : لانقطع عن الله بالكلية.

ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد في أحوال سيره. وإلا فإرادة العبد المراد ، وطلبه وسيره : أشد من إرادة غيره ، وطلبه وسيره.

وأيضا فإنه مراد أولاً ، حيث أقيم [في][٤] مقام الطلب ، وجذب إلىٰ السير. فكل مريد مراد. وكل واصل سالك وطالب[٥] لا يفارقه طلبه ولا سيره ، وإن تنوعت طرق السير. بحسب اختلاف حال العبد.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في ط «لا نقطع»

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في البقية عدا ج ، م «وكل واصل وسالك وطالب ، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا التقسيم وبيان المراد بهذه العبارات.

فمن السالكين : من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه.

ومنهم : من سيره بقلبه أغلب عليه ، أعني قوة سيره وحدته [1].

ومنهم - وهم الكمّل الأقوياء - من يعطي كل مرتبة حقها. فيسير إلىٰ الله ببدنه وجوارحه ، وقلبه وروحه.

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم [2] في مقام الإرادة له. فقال : ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام :٥٢] ، وقال : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل :١٩-٢١] ، فالعبد أخص أوصافه ، وأعلىٰ مقاماته : أن يكون مريداً صادق الإرادة ، عبداً في إرادته. بحيث يكون مراده تبعاً لمراد ربه الديني منه. ليس له إرادة في سواه.

وقد يحمل كلام [الشيخ] [3] علىٰ معنىٰ آخر ، وهو : أن يكون معنىٰ قوله : «**إِنَّ مُلاَحَظَةَ عَينِ الجَمعِ تُوقِظُ للاستِهَانَةِ بِالمُجَاهَدَاتِ**» أنه يوقظه من نوم الاستهانة بالمجاهدات ، وتكون اللام للتعليل. أي يوقظه من سنة التقصير. لاستهانته بالمجاهدات. وهذا معنىٰ صحيح في نفسه فإن العبد كلما

---

(١) في م «وجذبه»

(٢) في ط زيادة «دائماً»

(٣) الزيادة من الجميع.

كان إلىٰ الله أقرب كان جهاده في الله أعظم. قال الله تعالىٰ : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج : ٧٨].

وتأمل أحوال(١) رسول الله ﷺ وأصحابه. فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب في مقام : عظم جهادهم واجتهادهم(٢) لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلىٰ الطريق ، حيث قال : القرب الحقيقي تنقل العبد من الأعمال(٣) الظاهرة إلىٰ الأعمال الباطنة. ويريح الجسد والجوارح من كدِّ العمل.

وهؤلاء أعظم كفراً وإلحاداً. حيث عطّلوا العبودية. وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة ، التي هي من أماني النفس ، وخدع الشيطان. وكأن قائلهم إنما عنىٰ نفسه ، وذوي مذهبه بقوله :

رضوا بالأماني وابتُلُوا بحظوظهم وخاضوا بحارَ الحب دعوىٰ فما ابتلوا
فهم في السرىٰ لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا(٤)

وقد صرح أهل الاستقامة ، وأئمة الطريق : بكفر هؤلاء. أخرجوهم من الإسلام. وقالوا : لو وصل العبد من القرب إلىٰ أعلىٰ مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة. أي ما دام قادراً عليه.

---

(١) في م «الصحابة أصحاب» وسقط منها «وأصحابه» فيما يأتي.

(٢) في أ ، غ ، ح ، ب : «اجتهادهم وجهادهم».

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «الأحوال» وانظر مزيداً من هذه الأقوال في كتاب التصوف المنشأ والمصادر ص٢٦٢ – ٢٧٥. وانظر : شرح التلمساني علىٰ المنازل ٢/ ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٦٩.

(٤) القائل هو عمر بن الفارض ، انظر ديوانه ٧٧.

وهؤلاء يظنون : أنهم يستغنون بهذه الحقيقة عن ظاهر الشريعة. وأجمعت علماء الطائفة[1] علىٰ أن هذا كفر وإلحاد. وصرحوا بأن كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهي كفر.

وقال[2] سري : من ادعىٰ باطن حقيقة ينقضها ظاهر حكم : فهو غالط. وقال سيد الطائفة الجنيد بن محمد : علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ[3]. وقال إبراهيم بن محمد النصراباذي[4] : أصل هذا المذهب : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع. والتمسك بالأئمة ، والاقتداء بالسلف ، وترك ما أحدثه الآخرون ، والمقام علىٰ ما سلكه الأولون. وسئل إسماعيل بن نجيد[5]: ما الذي لا بد للعبد منه؟ فقال : ملازمة العبودية علىٰ السنة ، ودوام المراقبة. وسئل : ما التصوف؟ فقال : الصبر تحت الأمر والنهي.

وقال أحمد بن أبي الحواري[6] : من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله. وقال الشبلي يوماً - ومد يده إلىٰ ثوبه - لولا أنه عارية لمزقته. فقيل له : رؤيتك في

---

(١) في ط «وأجمعت هذه الطائفة» وانظر الفتاوىٰ ١١/ ٤٠٢ والرسالة القشيرية ص٨٢ و ٨٣ وقال : الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية.

(٢) في ط «قال سري السقطي» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤١٨.

(٣) تقدم قوله بلفظ «مذهبنا هذا» وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥.

(٤) تقدمت ترجمته ص٢٦٤٠ وقوله في الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٥) انظر الرسالة القشيرية ٤٣٦.

(٦) وقد تقدم قوله ص٢٦٣٥ وانظر شذرات الذهب ٢/ ١١٠.

تلك الغلبة ثيابك وأنها عارية؟ فقال : نعم أرباب الحقائق محفوظ عليهم في كل الأوقات [متابعة][١] الشريعة.

وقال أبو يزيد البسطامي[٢] : لو نظرتم إلىٰ رجل أعطي من الكرامات حتىٰ يرتفع في الهواء فلا تغتروا به ، حتىٰ تنظروا : كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود والشريعة. وقال أبو عبدالله الخياط[٣] : الناس قبل رسول الله ﷺ كانوا مع ما يقع في قلوبهم. فجاء النبي ﷺ ، فردهم من القلب إلىٰ الدين والشريعة. ولما حضرت أبا[٤] عثمان الحيري الوفاة : مزق ابنه أبوبكر قميصه. ففتح أبو عثمان عينيه ، وقال : يا بني خلاف السنة في الظاهر من رياء باطن في القلب. ومن كلام أبي عثمان هذا : أسلم الطرق من الاغترار : طريق السلف ، ولزوم الشريعة. وقال عبدالله بن مبارك[٥] : لا يظهر علىٰ أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ، ومجانبة البدعة. وكل موضع ترىٰ فيه اجتهاداً ظاهراً

---

(١) الزيادة من ج وانظر الطبقات للشعراني ١٤٩.

(٢) «البسطامي» ساقطة من أ وقد تقدم قوله ص٢٦٣٥ وانظر الرسالة القشيرية ٣٩٧.

(٣) «أبو» ساقطه من الجميع عدا م وانظر تاريخ بغداد ٥/ ٣٩٣ و ٢٤١ و ٨/ ١٥٠ و ٩/ ٣٤٦ و١١/ ٤٠٤.

(٤) «أبا» ساقطة من ب وتقدم قوله ص٢٥٩١ وانظر صفة الصفوة ٤/ ١٠٦.

(٥) هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن واضح الحنظلي ثم المروزي الحافظ الثقة المجاهد التقي صاحب التصانيف الكثيرة المتوفىٰ سنة ١٨١هـ انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٦ - ٣٧١ (١١٢) ، والتاريخ الكبير ٥/ ٢١٢ (٦٧٩). وقوله لم أجده.

بلا نور ، فاعلم أن ثم بدعة خفية. وقال سهل بن عبدالله : الزم السواد على البياض - حدثنا وأخبرنا - إن أردت [أن][1] تفلح.

ولقد كان سادات الطائفة أشد ما كانوا اجتهادا في آخر أعمارهم.

قال القشيري : سمعت أبا علي الدقاق يقول : رؤي في يد الجنيد سبحة. فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك[2] سبحة؟ فقال : طريق وصلت به إلى ربي تبارك وتعالى لا أفارقه أبداً. وقال [إسماعيل][3] بن نجيد : كان الجنيد يجيء كل يوم إلى السوق ، فيفتح باب حانوته[4]. فيدخله ويسبل الستر ، ويصلي أربعمائة ركعة ثم يرجع إلى بيته. ودخل عليه ابن عطاء[5] - وهو في النزع - فسلم عليه. فلم يرد عليه. ثم رد عليه بعد ساعة. فقال : اعذرني. فإني كنت في وردي. ثم حول وجهه إلى القبلة. وكبر، ومات. وقال أبوسعيد بن الأعرابي[6] :

---

(١) الزيادة من الجميع والقول قد تقدم ص٢٦٤١ بلفظ يا معشر الصوفية وانظر الرسالة القشيرية ص٤٠١ وتلبيس إبليس ص٣٩٥.

(٢) في م «في يدك» وقوله في الرسالة القشيرية ٤٣١ .والسبحة : خرزات يسبح بها. انظر مختار الصحاح ٢٨٢ ، وانظر استخدام السبحة والتبرك بها والغلو فيها في السنن والمبتدعات ص٢٥٥-٢٥٨.

(٣) الزيادة من الجميع ويقال أبو عمرو بن نجيد وقد تقدمت ترجمته ص٢٦٤١ .

(٤) «فيدخله» ساقطة من م ، والحانوت : هو الدكان. انظر المصباح المنير ١٩٨ .

(٥) في أ «ابن عطاء عليه» وقد تقدمت ترجمته ص٢٦٣٨ واسمه أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء.

(٦) هو أحمد بن محمد بن زياد البصري الأعرابي ولد سنة ٢٤٦ وصحب الجنيد والنوري

سمعت أبا بكر العطار[١]. يقول : حضرت أبا القاسم الجنيد - أنا وجماعة من أصحابنا - وكان قاعداً يصلي ، ويثني رجله إذا أراد أن يسجد. فلم يزل كذلك حتىٰ خرجت الروح من رجليه. فثقلت عليه حركتها ، وكانتا قد تورمتا. فقال له بعض أصحابه : ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال : هذه نعم الله. الله أكبر. فلما فرغ من صلاته ، قال له أبو محمد الجريري[٢] : يا أبا القاسم ، لو اضطجعت. فقال [له][٣] : يا أبا محمد ، هذا وقت يؤخذ فيه؟ الله أكبر. فلم يزل ذلك حاله حتىٰ مات. ودخل عليه شاب - وهو في مرضه الذي مات فيه.وقد تورم وجهه. وبين يديه مخدة[٤] يصلي إليها - فقال وفي هذه الساعة لا تترك الصلاة؟ فلما سلم. دعاه ، وقال : هذا[٥] شيء وصلت به إلىٰ الله ، فلا أدعه. ومات بعد ساعة.

وغيرهما نزل مكة وتوفي سنة ٣٤١ ، انظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٥ و ٣٧٦ والرسالة القشيرية ٣٩٤.

(١) لعله أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن بن مقسم العطار عالم بالقراءات والعربية من أهل بغداد ولد سنة ٢٦٥هـ وتوفي سنة ٣٥٤ هـ. الأعلام ٦/ ٣١١ ، تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٦-٢٠٨.

(٢) هو أحمد بن محمد بن الحسين الجريري من كبار أصحاب الجنيد وصحب سهل بن عبدالله توفي سنة ٣١١هـ، انظر: حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٧ و ٣٤٨، وصفة الصفوة ٢/ ٤٤٧ و ٤٤٨، والرسالة القشيرية ص٤٠٢ و ٤٠٣.

(٣) الزيادة من أ ، غ ، ق.

(٤) المخدة : هي الوسادة. انظر المصباح المنير ٢٦٣٩.

(٥) «هذا» ساقطة من الجميع عدا ج.

وقال أبو محمد الجريري : كنت واقفا علىٰ رأس الجنيد في وقت وفاته. وكان يوم جمعة ، ويوم نيروز[١]. وهو يقرأ القرآن. فقلت له يا أبا القاسم ، ارفق بنفسك ، فقال يا أبا محمد ، أرأيت[٢] أحداً أحوج إليه مني ، في [مثل][٣] هذا الوقت ، وهو ذا تطوىٰ صحيفتي؟ وقال أبو بكر العطوي[٤] : كنت عند الجنيد حين مات. فختم القرآن. ثم ابتدأ في ختمة أخرىٰ. فقرأ من البقرة سبعين آية. ثم مات.

وقال محمد بن إبراهيم[٥] : رأيت الجنيد في النوم. فقلت : ما فعل الله بك؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك [العلوم ، ونفدت تلك][٦] الرسوم. وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار. وتذاكروا بين يديه أهل المعرفة ، وما استهانوا به من الأوراد ، والعبادات بعد ما وصلوا إليه؟ فقال الجنيد : العبادة علىٰ العارفين أحسن من التيجان علىٰ

---

(١) يوم النيروز : هو يوم من أيام الفرس. وهو أول يوم من رأس السنة وأول يوم من شهرهم المسمىٰ «فرور ديناه» انظر : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ٣٩٥ ، وانظر مروج الذهب ٢/ ٢٠٢ و ٢٠٣.

(٢) «أحداً» ساقطة من أ ، ب ، ح ، غ.

(٣) الزيادة من الجميع عدا م.

(٤) لم أجد له ترجمة وقوله مذكور في عدة مراجع منها الحلية ١٠/ ٢٦٤ ، وتاريخ بغداد ٧/ ٢٤٨.

(٥) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي ، وتقدمت ترجمته ص٢٦٣٩.

(٦) الزيادة من الجميع وهو كما في تراجم الجنيد انظر الحلية ١٠/ ٢٥٧.

رؤوس الملوك. وقال : الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق ، إلا من اقتفىٰ أثر الرسول ، واتبع سنته ، ولزم طريقته. فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه(١). وقال : من ظن أنه يصل ببذل المجهود فمتعن. ومن ظن أنه يصل بغير بذل المجهود فمتمن(٢). وقال أبو نعيم (٣) : سمعت أبي يقول (٤) : سمعت أحمد بن جعفر بن هانئ (٥) يقول : سألت الجنيد ، ما علامة الإيمان؟ فقال : علامته طاعة من آمنت به ، والعمل بما يحبه ويرضاه ، وترك التشاغل عنه بما ينقضي ويزول.

[فرحمة الله علىٰ أبي القاسم الجنيد ورضي الله عنه. ما أتبعه لسنة الرسول ﷺ وما أقفاه لطريقة أصحابه!] (٦).

---

(١) انظر الحلية ١٠/ ٢٥٧ والرسالة القشيرية ٤٣٠.

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٢٦٧.

(٣) أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني صاحب كتاب الحلية ، توفي سنة ٤٣٠هـ وكان عمره ٩٤ سنة وكانت ولادته سنة ٣٣٦ هـ. انظر : البداية والنهاية ١٢/ ٤٥ ، وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٩٢-١٠٩٨.

(٤) وأبوه : هو عبدالله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني توفي سنة ٣٦٥هـ وله من العمر ٨٤ سنة انظر : شذرات الذهب ٣/ ٥٠ و ٥١.

(٥) هو أحمد بن جعفر بن هانئ حدث عن محمد بن يوسف وروىٰ عنه والد الأصفهاني صاحب الحلية وترجم له أبو نعيم في الحلية وأثنىٰ عليه. انظر : الحلية ١٠/ ٤٠٥ و ٤٠٦ ، وانظر قوله في الحلية ١٠/ ٢٦٦.

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

وهذا باب يطول تتبعه جداً. يدلك علىٰ أن أهل الاستقامة في نهاياتهم: أشد اجتهاداً منهم في بداياتهم؛ بل كان اجتهادهم في البداية في عمل مخصوص. فصار اجتهادهم في النهاية: الطاعة المطلقة، وصارت إرادتهم دائرة معها. فيضعف الاجتهاد في العين[1] لأنه قد صار[2] مقسوماً بينه وبين غيره.

ولا تصغ إلىٰ قول ملحد قاطع للطريق في قالب عارف[3]، يقول: إن منزلة القرب تنقل العبد من الأعمال الظاهرة إلىٰ الأعمال الباطنة[4]. وتحمله علىٰ

---

(١) في ق، ج «في المعنيين لأنه» و ط «المعنىٰ المعين» وفي البقية عدا م «المعنيين المعين». ويقصد المؤلف عين الجمع انظر ما تقدم عند قوله: «وأما الصديق الموحد» ص٣٠٠٣.

(٢) في البقية عدا م، ق «لأنه كان».

(٣) العارف: عرفه الكاشاني بقوله: من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله. فالمعرفة حال تحدث من شهوده. معجم اصطلاحات الصوفية ١٢٤، وقال في التعريفات ٢٧٥ في حديثه عن المعرفة: والمعرفة أيضاً إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم.. إلىٰ أن قال: العارف وهو مسبوق بنسيان حاصل بعد العلم. وقد أطال القشيري في رسالته الكلام عن العالم والعارف فمن قوله: المعرفة علىٰ لسان العلماء هي العلم فكل علم معرفة وكل معرفة علم، وكل عالم بالله تعالىٰ عارف وكل عارف عالم، وعند هؤلاء القوم: المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته.. إلىٰ أن قال: ويسمىٰ عند ذلك عارفاً، وتسمىٰ حالته معرفة، وفي الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل. الرسالة القشيرية ص٣١١ و ٣١٢، وقد تقدم كلام المؤلف في التفريق بين العلم والمعرفة في منزلة العلم ص٢٠٠.

(٤) في البقية عدا م «وتحمل». وانظر: شرح التلمساني علىٰ المنازل ٢/ ٤٦١-٤٦٩.

الاستهانة بالطاعات الظاهرة، وتريحه من (١) القيام بها.

فصل

قوله: «وَتخَلُّصٍ مِن رُعُونَةِ المعَارَضَاتِ».

يريد: أن هذه الملاحظة تخلص العبد من رعونة معارضة حكم الله الديني والكوني، الذي لم يأمر بمعارضته. فيستسلم للحكمين. فإن ملاحظة عين الجمع تشهده: أن الحكمين صدرا عن عزيز حكيم. فلا يعارض حكمه برأي، ولا عقل ولا ذوق، ولا خاطر.

وأيضا فتخلص قلبه من معارضات (٢) السوء للأمر والخبر. فإن الأمر يعارض بالشهوة. والخبر (٣) يعارض بالشك والشبهة. فملاحظة عين الجمع: تخلص قلبه من هاتين المعارضتين. وهذا هو القلب السليم الذي، لا يفلح إلا من لقي الله به. هذا تفسير أهل [الحق] والاستقامة (٤).

---

(١) في ط زيادة «كذ» و «فصل» بعدها ساقطة من أ.

وأقول: إن نقل الإمام ابن القيم لأقوالهم هنا لا يعني رضاه عنهم جملة وتفصيلاً بل إنه ذكر من شطحاتهم وعلق عليها فانظر مثلاً نقله لقول أبي يزيد البسطامي: «سبحاني سبحاني وما في الجبة إلا الله» وعن الشبلي: «حينما حلق لحيته» وقول الواسطي: «أمركم بالمجوسية» انظر: المدارج ٢/ ٢٨٧ و ٣/ ٤٣٠، وفي باب الغيرة في المدارج ٣/ ٤٥، وقول الواسطي ٢/ ٤٤٧.

(٢) في غ «معارضة» وفي ط بعدها «السوىٰ للأمر فإن».

(٣) في ق «والحكم».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

وأما أهل الإلحاد، فقالوا: المراد بالمعارضات ههنا: الإنكار علىٰ الخلق بما[1] يبدو منهم من أحكام البشرية؛ لأن المشاهد لعين الجمع يعلم: أن مراد الله من الخلائق[2] ما هم عليه. فإذا علم ذلك بحقيقة الشهود: كانت المعارضات والإنكار[3] من رعونات الأنفس المحجوبة.

و[قد][4] قال قدوتهم في ذلك: العارف لا ينكر منكراً، لاستبصاره بسر الله في القدر.

غلط من قال بعدم الإنكار على الخلق

وهذا عين الاتحاد[5]. والانسلاخ من الدين بالكلية. وقد أعاذ الله شيخ الإسلام من ذلك. وإذا كان الملحد يحمّل كلام الله ورسوله ما لا يحتمله. فما الظن بكلام مخلوق مثله؟

فيقال: إنما بعث الله رسله، وأنزل كتبه بالإنكار علىٰ الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها. فبهذا أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وانقسمت

---

(١) في ط «فيما». وانظر: شرح التلمساني علىٰ المنازل ٢/ ٤٥٣.

(٢) في البقية عدا م، ج، ق «الخلق».

(٣) في ط زيادة «عليهم» وقبلها: والإنكار «ساقطة من م.

(٤) الزيادة من ب والقائل هو ابن سيناء كما صرح بذلك المؤلف ـ رحمه الله ـ انظر قوله والرد عليه في شفاء العليل ١/ ١٤ و ١٥ وطريق الهجرتين ص١٥٤ و ٤٩٥ وسيأتي أيضاً في آخر هذا الكتاب قبل قوله (فصل: قال الشيخ وأما التوحيد الثالث) وانظر كتاب الإشارات لابن سيناء القسم الرابع ١٠٤.

(٥) في ط زيادة» والإلحاد «وشيخ الإسلام فيما سيأتي هو الهروي.

الدار إلىٰ دار سعادة للمنكرين ، ودار شقاوة للمنِكَر عليهم. فالطعن في ذلك : طعن في الرسل والكتب. والتخلص من ذلك : تخلص [1] من ربقة الدين.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم : وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشدَّ القيام. حتىٰ لقوا الله ، وأوصوا أممهم [2] بالإنكار علىٰ من خالفهم وأخبر النبي ﷺ : أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة[3] ليس معه من الإيمان حبة خردل. وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي [عن المنكر][4] أشد المبالغة ، حتىٰ قال : «إن الناس إذا تركوه : أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[5].

وأخبر : أن [6] تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار. ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر أن تركه : يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه. ويحل لعنة الله. كما

---

(١) في ط «وانحلال».

(٢) في ط «من آمن بهم».

(٣) أي اليد واللسان والقلب كما جاء في حديث أبي سعيد مرفوعاً «من رأىٰ منكم منكراً فليغيره.... » الحديث أخرجه مسلم.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٢٧ (٤٠٠٥) والترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ٤/ ٤٦٧ و ٤٦٨ (٤١٦٨) وقال : هذا حديث صحيح وأحمد ١/ ٥ ، وأبو داود ٤/ ٥٠٩ و ٥١٠ (٤٣٣٨) وصححه الألباني ، انظر : مشكاة المصابيح ٣/ ١٤٢٢ (٥١٤٢) ، وصحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٦٧ و ٣٦٨ (٣٢٣٦).

(٦) في أ ، غ «وأنه يمنع».

لعن [1] بني إسرائيل علىٰ تركه.

فكيف يكون الإنكار من رعونات النفوس ، وهو مقصود الشريعة؟

وهل الجهاد إلا [2] أعلىٰ أنواع الإنكار. وهو [3] إنكار باليد وجهاد أهل العلم: إنكار باللسان.

وأما قوله : «إن المشاهد : يعلم [4] أن مراد الله من الخلائق : ما هم عليه».

فيقال له : الرب تعالىٰ له مرادان : كوني ، وديني فهب أن مراده الكوني منهم ما هم عليه فمراده الديني الأمري الشرعي : هو الإنكار علىٰ أصحاب المراد الكوني. فإذا عطلت مراده الديني : لم تكن واقفا مع مراده [5] ، الذي يحبه ويرضاه. ولا ينفعك وقوفك مع مراده [6] الذي قدره وقضاه. إذ لو نفع [7] مراد الله تعالى

---

(١) في ط زيادة «الله» وجميع ما ذكره ابن القيم هنا جاء في الحديث انظر : الإحالة السابقة في تخريج الحديث السابق.

(٢) في ط «إلا علىٰ» وفي ج ، ب : «الأعلىٰ».

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «وهو جهاد».

(٤) «يعلم» ساقطة من ط والقائل هنا - وكذلك القول الآخر بعد قليل - هو ما سبق ذكره قبل قليل حينما قال المؤلف : «وأما أهل الإلحاد فقالوا : المراد بالمعارضات...» وليس القائل هو الهروي فانتبه.

(٥) في ط زيادة «الديني».

(٦) في ط زيادة «الكوني».

(٧) في ط «نفعك» وبعدها «ذلك» ساقطة من م.

ذلك لم يكن للشرائع معنىٰ ألبتة. ولا للحدود والزواجر ، ولا للعقوبات الدنيوية ، ولا للأخذ علىٰ أيدي الظلمة والفجار ، وكفّ عدوانهم وفجورهم. فإن العارف عندك [١] : يشهد أن مراد الله منهم : هو ذلك. وفي هذا فساد الدنيا قبل الأديان.

فهذا المذهب الخبيث لا يصلح عليه دنيا ولا دين ، ولكنه رعونة نفس قد أخلدت إلىٰ الإلحاد ، وكفرت بدين رب العباد. واتخذت تعطيل الشرائع [دينا] [٢] ومقاما ، ووساوس الشياطين [٣] مسامرة وإلهاماً. وجعلت أقدار الرب تعالىٰ مبطلة لما بعث [الله] [٤] به رسله ، وأنزل به كتبه. وجعلوا هذا الإلحاد غاية المعارف الإلهية ، وأشرف المقامات العلية. ودعوا إلىٰ ذلك النفوس [٥] المبطلة ، الجاهلة بالله ودينه. فلبّوا دعوتهم مسرعين ، واستخف الداعي منهم قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوما فاسقين.

وأما [٦] قوله «إن الإنكار : من معارضات النفوس المحجوبة».

---

(١) «فإن العارف عندك» ساقطة من م.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في البقية عدا ج ، م «الشيطان».

(٤) الزيادة من ج وبعدها في ط «به رسله ومعطله لما أنزل».

(٥) «النفوس» ساقطة من م.

(٦) القائل من أهل الإلحاد كما تقدم نقل كلامهم قبل قليل.

فلعمر الله : إنهم(١) في حجاب منيع عن هذا الكفر والإلحاد. ولكنهم يشرفون على أهله وهم في ضلالتهم يعمهون ، وفي كفرهم يترددون ، ولأتباع الرسل يحاربون ، وإلى خلاف طريقتهم(٢) يَدْعون. وبغير هديهم(٣) يهتدون. وعن الصراط(٤) المستقيم ناكبون. ولمِا جاؤوا به معارضون(٥). ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة :٩-١٦].

---

(١) في البقية عدا م «لفي» وفي ط بعدها «منيع من هذا».

(٢) في البقية عدا م «طريقهم».

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «هداهم».

(٤) في البقية «وعن صراطهم».

(٥) في البقية عدا م «يعارضون».

فصل

قوله: «وَتُفِيدُ مُطَالَعَةَ البِدَايَاتِ»(١) يحتمل كلامه أمرين.

أحدهما: أن ملاحظة عين الجمع يفيد صاحبها(٢) مطالعة السوابق التي ابتدأه(٣) الله بها. فتفيده ملاحظة عين الجمع نظرة إلىٰ أولية الرب تعالىٰ في كل شيء.

ويحتمل أن يريد بالبدايات: بدايات سلوكه وحدة طلبه فإنه في حال سلوكه لا يلتفت إلىٰ ما وراءه لشدة شغله بما بين يديه وغلبة أحكام الهمة عليه، فلا يتفرغ لمطالعة بداياته(٤)، فإذا لاحظ عين الجمع قطع السلوك الأول وبقي له سلوك ثان، فتفرغ حينئذ إلىٰ مطالعة بداياته ووجد اشتياقا [منه](٥) إليها كما قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: واشوقاه إلىٰ أوقات البداية.(٦)

يعني لذة أوقات البداية، وجمع الهمة علىٰ الطلب، والسير إلىٰ الله. فإنه كان مجموع الهمة علىٰ السير والطلب. فلما لاحظ عين الجمع فنيت رسومه،

(١) تقدم قوله وهو في المنازل ١٠١.

(٢) في البقية عدا ج، م، ق «تفيد صاحبها».

(٣) في غ «ابتدأها».

(٤) سقط من أ إلىٰ قوله «ووجد اشتياقاً».

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) لم أجده.

وهو لا يمكنه الفناء عن بشريّته. وأحكام طبيعته [١]. فتقاضته طباعه ما فيها. فلزمته الكلف. فارتاح إلىٰ أوقات البدايات ، لما كان فيها من لذة الإعراض عن الخلق ، واجتماع الهمة.

ومر أبو بكر [٢] ـ رضي الله عنه ـ علىٰ رجل ، وهو يبكي من خشية الله. فقال : هكذا كنا حتىٰ قست قلوبنا [٣].

وقد أخبر النبي ﷺ : «**إن لكل عامل شرة. ولكل شرة فترة**» [٤].

---

(١) في أ «فتقاضت طباعها فيها» وفي ط ، ح ، غ ، ب «فتقاضت طباعه». ويوضح هذا قول الكلاباذي في التعرف ص١٤٢ و ١٤٣ حيث قال عن الجمع : «والجمع الذي يعنيه أهله هو أن يصير ذلك حالاً له ، وهو أن لا تتفرق همومه ، فيجمعها تكلف العبد ، بل تجتمع الهموم فتصير بشهود الجامع لها هماً واحداً...».

(٢) في ط «أبو بكر الصديق رضي الله عنه وارضاه».

(٣) ومعنىٰ قست : أي قويت واطمأنت بمعرفة الله تعالىٰ انظر : حلية الأولياء ١/ ٣٤ ، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٢٤ (٣٥٥٢٣).

(٤) ورد هذا الحديث بلفظ : «إن لكل عمل» وبلفظ «إن لكل شيء» والحديث رواه أحمد ٢/ ٢١٠ ، والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٢٨٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٤٠٠ ، وابن خزيمة في صحيحه ٣/ ٢٩٣ ، وابن حبان ٢/ ٦٢ والترمذي وأوله: «إن لكل شيء» في كتاب صفة القيامة باب منه. الباب رقم (٢١) ٣/ ٦٣٥ (٢٤٥٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وابن أبي عاصم في كتاب السنة ١/ ٢٨ وقال : «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ص١٤٦ (٢٤٢٦) وكذا الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٣١ (٢١٥٢).
والشرة : بكسر الشين المعجمة وتشديد الراء أي حرصاً علىٰ الشيء ونشاطاً ورغبة في الخير أو الشر. تحفة الأحوذي ٧/ ١٢٦.

فالطالب الجاد : لا بد أن يعرض له فترة. فيشتاق في تلك الفترة إلىٰ حاله وقت الطلب والاجتهاد.

ولما فتر الوحي عن النبي ﷺ: «كان يغدو إلىٰ شواهق الجبال ليلقىٰ نفسه. فيتبدىٰ له جبريل ـ عليه السلام ـ ، فيقول له : إنك رسول الله فيسكن لذلك جأشه ، وتطمئن نفسه»(١).

فتخلل الفترات للسالكين : أمر لازم لا بد منه. فمن كانت فترته إلىٰ مقاربة وتسديد ، ولم تخرجه من فرض ، ولم تدخله في محرم : رُجي له أن يعود خيراً مما كان.

قال عمر بن الخطاب : «إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً. فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل. وإذا(٢) أدبرت فألزموها بالفرائض».

وفي هذه الفترات(٣) والغيوم والحجب ، التي تعرض للسالكين(٤) : من

(١) الحديث أوله : أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة رواه البخاري بلفظ مقارب في كتاب التعبير ، باب التعبير وأول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ٨/ ٦٧ و ٦٨.

(٢) في ط «وإن» والقائل هو عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. انظر : الزهد لعبدالله بن المبارك ص٤٦٩ والحلية ١/ ١٣٤.

(٣) الفترة في اللغة : الانكسار والضعف. انظر : مختار الصحاح ٤٨٩ ، وفي اصطلاحهم كما قال الكاشاني : خمود حرارة الطلب اللازمة للبداية. معجم اصطلاحات الصوفية ١٥٣.

(٤) في م «للسالك».

الحكم مالا يعلم تفصيله إلا الله. وبها يتبين الصادق من الكاذب.

فالكاذب : ينقلب علىٰ عقبيه. ويعود إلىٰ رسوم طبيعته وهواه.

والصادق : ينتظر الفرج. ولا ييأس من روح الله فيلقىٰ(١) نفسه بالباب طريحاً ذليلاً(٢) مسكيناً مستكيناً ، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه ألبتة ، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له ، لا بسبب من العبد. وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب لكن ليس هو منك ؛ بل هو الذي مَنَّ عليك به ؛ وجردك منك ؛ وأخلاك عنك(٣) ، فإذا رأيته قد(٤) أقامك في هذا المقام ، فاعلم أنه يريد أن(٥) يرحمك. ويملأ إناءك ، فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع. فَسَلْ ربه ومن هو بين أصابعه : أن يرده عليك. ويجمع شملك به. ولقد أحسن القائل :

إذا ما وضعت القلب في غيرموضع بغير إنــاء فهو قلــب مضيع

* * *

---

(١) في البقية عدا م «ويلقىٰ».

(٢) «ذليلاً» ساقطة من ح.

(٣) في ط زيادة «وهو الذي يحول بين المرء وقلبه».

(٤) «قد» ساقطة من م.

(٥) «يريد أن» ساقطة من غ ، في م «مريد».

فصل

[ومنها الوقت]

منزلة الوقت

قال صاحب المنازل :

«بَابُ الوَقتِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طـه : ٤٠].

«الوَقتُ» اسمٌ لِظَرفِ الكَونِ. وَهُوَ اسمٌ فِي هَـٰذَا البَابِ لِثَلاثَةِ مَعَانٍ، عَلَىٰ ثَلاثِ دَرَجَاتٍ. المَعنَىٰ الأَوَّلُ : حِينُ وَجْدٍ [صَادِقٍ][1] لإِينَاسِ ضِياءِ فَضْلٍ جَذَبَهُ صَفَاءُ رَجَاءٍ، أَو لِعِصمَةٍ جَذبهَا صِدْقُ خَوفٍ. أَو لِتَلَهُّبِ شَوقٍ جَذَبَهُ اشْتعَالُ مَحبَّةٍ».

وجه استشهاده بالآية : أن الله سبحانه قدر مجيء موسىٰ أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول : جاء فلان علىٰ قدر. إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير[2] :

نالَ الخلافـةَ إذْ كانت علىٰ قدر كما أتىٰ ربّه موسىٰ علىٰ قدر[3]

---

(١) الزيادة من الجميع وقوله في المنازل ص١٠١، ١٠٢ وفيه «أو لقصمة جذبها» و «لتلهيب شوق».

(٢) انظر : شرح ديوان جرير لمحمد الصاوي ١/ ٢٧٥.

(٣) هو جرير بن الخطفي ويقال ابن عطية بن الخطفي واسم الخطفي حذيفة وينتهي نسبه بمضر ابن نزار وهو أبو حمزة الشاعر البصري مات سنة ١١٠هـ وقيل ١١١هـ. الأعلام ٢/ ١١، والبداية والنهاية ١/ ٢٦٠-٢٦٥. وانظر قوله في شرح ديوان جرير لمحمد الصاوي ١/ ٢٧٥.

وقال مجاهد : علىٰ موعد. وهذا فيه نظر ؛ لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسىٰ موعد للمجيء ، حتىٰ يقال [١] : إنه أتىٰ علىٰ ذلك الموعد.

ولكن وجه هذا [٢] : أن المعنىٰ «جئت علىٰ الموعد الذي وعدناه أن ننجزه ، والقدر الذي قدرنا : أن يكون في وقته» وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠٧و١٠٨] لأن الله سبحانه وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نورا وهدىٰ. فلما سمعوا القرآن : علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به.

واستشهاده بهذه الآية يدل علىٰ محله من العلم؛ لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه : كان أحسن وأنفع وأجدىٰ. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالىٰ ، وجريانها في الخلق : علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها.

فبعث الله سبحانه موسىٰ : أحوج ما كان الناس إلىٰ بعثته. وبعث عيسىٰ كذلك. وبعث محمد ﷺ أحوج ما كان أهل الأرض إلىٰ إرساله. فهكذا وقت

---

(١) «يقال» ساقطة من ق ، و«إنه» ساقطة من م ، وانظر الأقوال في الآية في الدر المنثور ٥/ ٥٧٩، وتفسير البغوي ٥/ ٢٧٣ و ٢٧٤.

(٢) «أن» ساقطة من غ ، وانظر هذا الوجه في تفسير البغوي في الإحالة السابقة.

العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له : أحوج ما كان إلىٰ عمارته.

المراد بالوقت

قوله : «الوَقتُ : ظَرفُ الكَونِ» الوقت : عبارة عن مقارنة[1] حادث لحادث عند المتكلمين ، فهو نسبة بين حادثين. فقوله : «ظَرفُ الكَونِ»أي وعاء التكوين. فهو الوعاء الزماني الذي يقع فيه التكوين. كما أن ظرف المكان : هو الوعاء[2] المكاني ، الذي يحصل فيه الجسم.

ولكن «الوقت»[3] في اصطلاح القوم أخص من ذلك.

قال أبو علي الدقاق : الوقت ما أنت فيه. فإن كنت في الدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبىٰ فوقتك العقبىٰ ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن.

يريد أن الوقت ما كان الغالب علىٰ الإنسان من حاله.

---

(١) في ط «مقاربة» وفي أ ، ح «عن مقاربة عن مقارنة».

(٢) في ج «المكان» بدون «الوعاء» وانظر الأقوال في الوقت والمكان في كتاب مقالات الإسلاميين ص٤٤٢ و ٤٤٣ ، وكتاب المواقف في علم الكلام ص١٠٨-١٢٠.

(٣) الوقت : مقدار من الزمان مفروض لأمر ما ، وكل شيء قدّرت له حيناً فقد وقته توقيتاً. المصباح المنير ص٦٦٧. والوقت في اصطلاح القوم : هو حين تردد السالك بين التلوين والتمكن مع رجحان التمكن لإستيلاء الحال مع الالتفات إلىٰ العلم. وقيل : الوقت ما حضرك في الحال. معجم اصطلاحات الصوفية ص٧٨ و ٣٢٧ ومثله قال الطوسي في اللمع ص٤١٨. الوقت : ما بين الماضي والمستقبل. وانظر أيضاً التعريفات للجرجاني ص٣٠٩ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٢٨٥ و ٢٨٦.

وقد يريدون[1] : أن الوقت ما بين الزمانين الماضي والمستقبل. وهو اصطلاح أكثر الطائفة. ولهذا يقولون : الصوفي أو الفقير[2] ابن وقته.

يريدون : أن همته لا تتعدىٰ وظيفة وقته[3] وعمارته بما هو أولىٰ الأشياء به، وأنفعها له. فهو قائم بما هو مطالب به في الحين والساعة الراهنة. فهو لا يهتم بماضي وقته وآتيه؛ بل[4] يهتم بوقته الذي هو فيه. فإن الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الوقت الحاضر، وكلما حضر وقت اشتغل عنه بالطرفين، فتصير أوقاته كلها فوات[5].

قال الشافعي - رحمه الله -: صحبت الصوفية. فما انتفعت منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون[6] : الوقت سيف. فإن قطعته وإلا قطعك. ونفسك إن لم تشغلها بالحق، [وإلا][7] شغلتك بالباطل.

---

(١) في ط «يريد» وانظر القول السابق وما بعده في الرسالة القشيرية ٥٥.

(٢) في ط الصوفي والفقير.

(٣) «وقته» ساقطة من ط.

(٤) في ط زيادة «يهتم».

(٥) يستفاد من هذا الكلام استغلال الوقت والمبادرة باغتنامه وترك التسويف، ولا يعني هذا عدم محاسبة النفس علىٰ الماضي أو عدم النظر والترتيب لما يستقبل.

(٦) «سمعتهم يقولون» ساقطة من ج.

(٧) الزيادة من الجميع عدا م وقد ذكر المؤلف هذا في كتابه الجواب الكافي ١٣٧، وانظر كلام الشافعي في التصوف. ضمن مجموعة أبي عبدالرحمن السلمي ٢/ ١٨٤، وقد ذكرها ابن الجوزي بالسند إلىٰ الشافعي. انظر : تلبيس إبليس ٤١٤.

قلت : يا لهما(١) من كلمتين ، ما أنفعهما وأجمعهما ، وأدلهما علىٰ علو همة قائلهما ، ويقظته. ويكفي(٢) هذا ثناء من الشافعي علىٰ طائفة هذا قدر كلماتهم.

وقد يريدون بالوقت : ما هو أخص من هذا كله. وهو ما يصادفهم في تصريف الحق لهم. دون ما يختارونه لأنفسهم. ويقولون : فلان بحكم الوقت. أي مستسلم لما يأتي من عند الله من غير اختيار (٣).

وهذا يحسن في حال ، ويحرم في حال. وينقص(٤) صاحبه في حال. فيحسن في كل موضع ليس لله فيه علىٰ العبد (٥) أمر ولا نهي؛ بل في موضع جريان الحكم الكوني الذي لا يتعلق به أمر ولا نهي ، كالفقر والمرض ، والغربة والجوع ، والألم والحر والبرد ، ونحو ذلك.

ويحرم في الحال التي يجري عليه فيها الأمر والنهي والقيام بحقوق

---

(١) في ح ، ب «يا لها» وفي ط زيادة «من».

(٢) في ط «ويكفي في هذا ثناء الشافعي» قلت : قد لا يوافق المؤلف ـ رحمه الله ـ علىٰ ما قال فإن سياق الشافعي لهذا الموقف وبيانه أنه لم يستفد منهم خلال عشر سنين إلا هاتين الكلمتين يدل علىٰ عكس ما ذكره ابن القيم.
قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه تلبيس إبليس بعد سرده لبعض أخطاء الصوفية قال : «فهذه نبذة من كلام القوم وفقههم نبهت علىٰ علمهم وسوء فهمهم وكثرة خطئهم» ، ثم ساق بسنده قول الشافعي المتقدم ، انظر : تلبيس إبليس ص٤١٣ ـ ٤١٤.

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ٥٥.

(٤) «وينقص صاحبه في حال» ساقطة من ح.

(٥) في البقية عدا ج ، ق «علىٰ العبد فيه».

الشرع. فإن التضييع لذلك والاستسلام، والاسترسال مع القدر: انسلاخ من الدين بالكلية. وينقص صاحبه في حال يقتضي قيامه[١] بالنوافل، وأنواع البر والطاعة.

وإذا أراد الله بالعبد خيراً: أعانه بالوقت. وجعل وقته مساعداً له. وإذا أراد به شراً: جعل وقته عليه، [وناكده وقته][٢] فكلما أراد التأهب للمسير: لم يساعده الوقت. والأول: كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده.

أقسام الصوفية

وقد قسم بعضهم[٣] الصوفية أربعة أقسام: أصحاب السوابق، وأصحاب العواقب، وأصحاب الوقت، وأصحاب الحق. قال:

فأما أصحاب السوابق: فقلوبهم أبداً فيما سبق لهم من الله سبحانه. لعلمهم أن الحكم الأزلي. لايتغير باكتساب العبد.

ويقولون: من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل. ففكرهم في هذا أبداً. ومع ذلك: فهم مجدون[٤] في القيام بالأوامر، واجتناب النواهي، والتقرب إلىٰ الله بأنواع القرب، غير واثقين بها، ولا ملتفتين إليها، يقول قائلهم[٥]:

---

(١) في أ، ب، ح، ط «تقتضي قياماً».

(٢) الزيادة من الجميع وفي ج «وناكره» والمناكدة: هي المعاسرة. انظر: مختار الصحاح ٦٧٩.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص٢٠١-٢٠٨.

(٤) في البقية «يجدون».

(٥) في ط «ويقول».

مـن أيـن أرضيـك إلا أن تـوفّقني هيهات هيهات ما التوفيقُ من قِبَلي
إن لم يكن لي في المقدور سابقةٌ فليس ينفع ما قـدَّمتُ من عملـي

وأما أصحاب العواقب : فهم مفكرون[1] فيما يختم به أمرهم. فإن الأمور بأواخرها. والأعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة. كما قيل :

لا يغرنك صفا الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره ، وظهرت[2] أزهاره ، وزهت ثماره ، لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية. فصار كما قال الله عز وجل : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس : ٢٤].

فكم من مريد كبا به جواد عزمه فخر صريعـا لليدين وللفـم[3]

وقيل لبعضهم - وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه - ما الذي أصابك؟ فقال : حجاب وقع.

وأنشد :

(١) في البقية عدا م «متفكرون».

(٢) في ط «وتفتحت».

(٣) نسب هذا القول لعدة شعراء فقيل : لجابر بن جني ، وقيل : لعكبر بن حديد ، وقيل : لشريح بن أفىٰ وغيرهم. انظر : المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ٢/ ١٣٨ ومغني اللبيب ٢٨٠.

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنتْ ... ولم تخَفْ سوء ما يأتي بـه القـدرُ
وسالمتك الليالي فاغترَرْت بهـا ... وعند صَفْوِ الليالي يحدث الكـدرُ[١]

ليس العجب ممن [٢] هلك كيف هلك؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا؟

تعجبـين مـن سقمــي ... صحـتي هـي العـجب [٣]!!

الناكصون علىٰ أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة [٤] :

خذ من الألف واحـداً ... واطرح الكل بعـده [٥]

وأما أصحاب الوقت : فلم يشتغلوا بالفكر في السوابق ولا في العواقب[٦] بل اشتغلوا بمراعاة الوقت ، وما يلزمهم من أحكامه. وقالوا : العارف ابن وقته والفقير [٧] لا ماضي له ولا مستقبل.

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ٤٤ ، وانظر : معجم الأبيات الشهيرة ١٠٣ ، والرسالة القشيرية ١٢٩.

(٢) في ج «لمن هلك» وبعدها «لمن نجا».

(٣) ديوان أبي نواس ٢٢٧ ، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٥٥.

(٤) العقبة : المشقة ، وفسرت بأنها جبل في جهنم ، وقيل : عقبة شديدة في النار دون الجسر ، وقيل : هي الصراط. انظر : تفسير سورة البلد الآية (١١) في تفسير البغوي ٨/ ٤٣٣ و ٤٣٤، والدر المنثور ٨/ ٥٢٢-٥٢٤.

(٥) في ط زيادة «من».

(٦) «بالفكر في» ساقطة من الجميع عدا ج ، م ، ق ، وفي ط «بالسوابق ولا بالعواقب».

(٧) «والفقير» ساقطة من البقية عدا م ، ج ، ق.

ورأىٰ بعضهم الصديق في منامه. فقال له : أوصني. فقال : [له][1] : كن ابن وقتك.

وأما أصحاب الحق : فهم مع صاحب الوقت والزمان ، ومالكهما ومدبرهما. مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات. لا يتفرغون لمراعاة وقت وزمان[2] كما قيل :

لست أدري أطال ليلي أم لا   كيف يدري بذاك من يَتَقَلَّىٰ
لو تفرغت لاستطالة ليلىٰ   ولرعي النجوم كنت مُخَلَّىٰ
إن للعاشقين عن قصر الليل   وعن طوله من العشق شغلا[3]

قال الجنيد[4] : دخلت علىٰ السري يوماً. فقلت [له][5] : كيف أصبحت؟ فأنشأ يقول :

مافي النهار ولا في الليل لي فرج   فلا أبالي أطال الليل أم قَصُرا؟

ثم قال ليس عند ربكم ليل ولا نهار.

يشير إلىٰ أنه غير متطلع إلىٰ الأوقات ؛ بل هو مع الذي يقدر الليل

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م.

(٢) في ط «ولا زمان».

(٣) انظر : أساس البلاغة بدون نسبة ٣٧٦.

(٤) في م «قال السري : دخلت علىٰ الجنيد وفي ح : يوماً علىٰ السري».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م ، وانظر البيت في طبقات الشعراني ١٠٨ ، وحلية الأولياء ١٠/ ١٢٥.

والنهار(١)».

فصل

قال صاحب المنازل:

معاني الوقت

«**الوَقتُ: اسمٌ فِي هَذَا البَابِ لِثَلاثِ مَعَانٍ. المَعنَىٰ الأَوَّلُ: حِينُ وَجْدٍ صَادِقٍ**» أي وقت وجد صادق، أي زمن [من](٢) وجد يقوم بقلبه، وهو صادق فيه، غير متكلف له، ولا متعمل في تحصيله.

المعنىٰ الأول

«**يَكُونُ(٣) مُتَعَلَّقه إِينَاسُ ضِيَاءِ فَضْلٍ**» أي رؤية ذلك، و«الإيناس» الرؤية. قال تعالىٰ: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩] وليس هو مجرد الرؤية؛ بل رؤية ما يأنس به القلب، ويسكن إليه. ولا يقال لمن رأىٰ عدوه أو مخوفا آنسه.

ومقصوده: أن هذا الوقت وقت وجد صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومنّه(٤) عليه. و«الفضل» هو العطاء الذي لا يستحقه المعطىٰ أو يعطىٰ فوق استحقاقه، فإذا آنس هذا الفضل وطالعه بقلبه أثار ذلك فيه وجدا آخر باعثا علىٰ محبة صاحب الفضل والشوق إلىٰ لقائه فإن النفوس مجبولة علىٰ حبِّ

---

(١) في ح «النهار والليل».

(٢) الزيادة من البقية عدا ج، م، ق.

(٣) في م «شبه» بدل «متعلقه».

(٤) في ط، م «ومنته».

من أحسن إليها.

ودخلت يوما علىٰ بعض أصحابنا وقد حصل له وجد أبكاه فسألته عنه فقال ذكرت ما منّ الله به عليّ من السنة ومعرفتها والتخلص من شبه القوم وقواعدهم الباطلة وموافقة العقل الصريح والفطرة السليمة لما جاء به الرسول ﷺ فسرني ذلك حتىٰ أبكاني.

فهذا الوجد أثاره إيناس ضياء[1] فضل الله ومنّه[2].

قوله: «جَذَبَه صَفَاءُ رَجَاءٍ» أي جذب ذلك الوجد - أو الإيناس أو الفضل - رجاء صاف غير مكدر. و «الرجاء الصافي» هو الذي لا يشوبه كدر يوهم[3] معاوضة منك؛ وأن عملك هو الذي بعثك علىٰ الرجاء. فصفاء الرجاء يخلصه من[4] ذلك؛ بل يكون رجاء محضا لمن هو مبتدئ بالنعم من غير استحقاق[5]. والفضل كله له ومنه، وفي يده - أسبابه وغاياته، ووسائله، وشروطه، وصرف موانعه - كل[6] بيد الله. لا يستطيع العبد أن ينال منه شيئا بدون توفيقه، وإذنه ومشيئته.

---

(١) «ضياء» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) في ط، م «ومنته».

(٣) سقط من غ، ب «كدر» وفي م بعدها «يوهم معارضة شك».

(٤) في البقية عدا م، ج، ق «يخرجه» وفي ط بعدها «عن».

(٥) في ط «مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك».

(٦) في أ، ب، ط «كلها».

وملخص ذلك : [أن][1] الوقت في هذه الدرجة الأولىٰ : عبارة عن وجد صادق ، سببه رؤية فضل الله علىٰ عبده؛ لأن رجاءه كان صافياً من الأكدار.

قوله : «أَو لِعِصمَةٍ جَذَبَها صِدقُ خَوفٍ»[2] اللام في قوله : «أَو لِعِصمَةٍ» معطوفة[3] علىٰ اللام في قوله : «لإِينِاسِ ضِياءِ فَضْلٍ» أي وجد لعصمة جذبها صدق خوف. فاللام ليست للتعليل؛ بل هي علىٰ حدِّها في قولك: ذوق لكذا ، ورؤية لكذا. فمتعلق الوجد «عصمة» وهي منعة ، وحفظ ظاهر وباطن. جذبها صدق خوف من الرب سبحانه.

والفرق بين الوجد في هذ الدرجة والتي قبلها : أن الوجد في الأولىٰ : جذبه صدق الرجاء. وفي الثانية : جذبه صدق الخوف. وفي الثالثة - التي تذكر-[4] جَذَبَهُ صِدْقُ الحب. فهو معنىٰ قوله : «أَو لِتَلَهُّبِ شَوقٍ جَذَبَه اشِتَعالُ محَبَّةٍ».

و[5] خدمته التورية[6] في «اللهيب» و «الاشتعال» والمحبة متىٰ قويت

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في الأصل و غ «أو العصمة» وكذا التي بعدها والمثبت كما في البقية وفي المنازل «أو لفصمه» كما تقدم بيانه.

(٣) في البقية «معطوف».

(٤) في ط «ستذكر».

(٥) في ج ، م «وجد منه» وب «وخدمه».

(٦) التورية : هي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان : قريب ظاهر غير مراد وبعيد خفي هو المراد. قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ١٥٥ ، وانظر أيضاً التعريفات ١٠١ .

اشتعلت نارها في القلب. فحدث عنها لهيب الاشتياق إلىٰ لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة، التي تضمنتها هذه الدرجة - وهي: الحب، والخوف والرجاء - هي التي تبعث علىٰ عمارة الوقت بما هو الأولىٰ بصاحبه[1] والأنفع له، وهي أساس السلوك، والمسير[2] إلىٰ الله سبحانه وقد جمع سبحانه الثلاثة في قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذه الثلاثة هي قطب رحىٰ[3] العبودية. وعليها دارت رحىٰ الأعمال. [والله أعلم][4].

فصل

المعنى الثاني

قال: «وَالمَعنَىٰ الثَّاني: اسمٌ لِطَرِيقِ سالِكٍ. يَسيرُ بَينَ تمَكُّنٍ وَتَلوُّنٍ؛ لَكنَّهُ إلَىٰ التَّمَكُّنِ مَا هُو؟ يَسلُكُ الحَالَ، وَيَلتفِتُ إلَىٰ العِلْمِ. فَالعِلمُ يَشغَلُه فِي حِينٍ؛ وَالحَالُ يحمِلُه فِي حِينٍ. فَبَلاؤُه بَينَهُمَا: يُذِيقُه شُهُوداً طَوراً. وَيَكسُوهُ عِبرةً طَوراً، وَيُرِيهِ غَيرةً تَفرُّقٍ طَوراً»[5].

(١) في البقية عداج، ق «لصاحبه».

(٢) في البقية «السير».

(٣) قطب الرحىٰ: هي الحديدة التي في الطبق الأسفل من الرحيين يدور عليها الطبق الأعلىٰ. انظر: مختار الصحاح ٥٤١.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) قوله في المنازل ١٠٢، وفيه «ويكسوه غيرة طوراً ويريه غبرة». وفي م «إلىٰ التمكن أقرب ما هو... عبرة تفرق». وفي ق «الحال» ساقطة، ثم «فالعلم يستعمله.. عبرة تفرق». وفي ق، ج

هذا المعنىٰ : هو المعنىٰ [1] الثاني من المعاني الثلاثة من معاني «الوقت» عنده.

قوله : «اسمٌ لِطَرِيقِ سَالِكٍ» هو علىٰ الإضافة. أي لطريق عبد سالك.

قوله : «يَسيرُ بَينَ تمَكُّنٍ وَتَلَوُّنٍ»[2] أي ذلك العبد يسير بين تمكن وتلون.

و «التمكن» هو الانقياد إلىٰ أحكام العبودية بالشهود[3] والحال ، و«التلون» في هذا الموضع خاصة : هو الانقياد إلىٰ أحكام العبودية بالعلم. فالحال يجمعه بقوته وسلطانه. فيعطيه تمكيناً. والعلم بلونه بحسب متعلقاته وأحكامه.

قوله : «لَكِنَّه إلىٰ التَّمَكُّنِ مَا هُو؟ يَسلُكُ الحَالَ. وَيَلتَفِتُ إِلَىٰ العِلْمِ» [4].

يعني : أن هذا العبد هو سالك إلىٰ التمكن ما دام يسلك الحال. ويلتفت إلىٰ العلم. فأما إن سلك العلم[5] ، والتفت إلىٰ الحال : لم يكن سالكاً إلىٰ التمكن.

«تمكن وتكون».

(١) «هو المعنىٰ» ساقطة من أ.

(٢) في ج في جميع المواضع «وتكون» بدل «وتلون» وسقط من م إلىٰ «والتمكن».

(٣) في أ «بالعلم».

(٤) سقط من ب ، م إلىٰ قوله «فأما إن سلك».

(٥) في ج «إن يسلك العلم».

فالسالكون ضربان : سالكون علىٰ الحال ، ملتفتون إلىٰ العلم. وهم إلىٰ التمكن أقرب. وسالكون علىٰ العلم(١). ملتفتون إلىٰ الحال. وهم إلىٰ التلون أقرب هذا حاصل [كلامه](٢).

اجتماع الحال والعلم

وهذه النكتة : هي المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال ، حتىٰ كأنهما غيران وحزبان ، وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرىٰ ، ولا تعاشرها إلا علىٰ إغماض ونوع استكراه.

وهذا من تقصير الفريقين ، حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم. وضعف الآخر(٣) عن الحال في العلم. فلم(٤) يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم. فأخذ هؤلاء العلم ، وسعته ونوره. ورجحوه. وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه. ورجحوه. وصار الصادق الضعيف من الفريقين : يسير بأحدهما ملتفتا إلىٰ الآخر.

فهذا مطيع للحال(٥). وهذا مطيع للعلم. لكن المطيع للحال متىٰ عصىٰ(٦) به العلم : كان منقطعا محجوباً ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون.

---

(١) في أ «إلىٰ العلم» وبعدها في ج «يلتفتون».

(٢) الزيادة من الجميع وبعدها في البقية «وهذه الثلاثة».

(٣) في م «الآخرون».

(٤) في غ ، أ «فلا».

(٥) في أ ، ح ، غ «إلىٰ الحال».

(٦) في ق «متىٰ ما عصىٰ».

والمطيع للعلم متىٰ أعرض به عن الحال كان مضيعاً منقوصاً، مشتغلا بالوسيلة عن الغاية.

وصاحب التمكين[1]: يتصرف علمه في حاله. ويحكم عليه فينقاد لحكمه، ويتصرف حاله في علمه. فلا يدعه أن يقف معه؛ بل يدعوه إلىٰ غاية العلم. فيجيبه ويلبّي دعوته. فهذه حال الكمَّل من هذه الأمة. ومن استقرأ أحوال الصحابة وجدها كذلك.

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم: دخل عليهم النقص والخلل. والله المستعان ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤٩، ٥٠] فكذلك يهب لمن يشاء علماً و[يهب][2] لمن يشاء حالا. ويجمع بينهما لمن يشاء. ويخلي من يشاء منهما[3].

قوله: «**فَالعلمُ يَشغَلُه فِي حِينٍ**» أي يشغله عن السلوك إلىٰ تمكن الحال[4]؛ لأن العلم متنوع التعلقات فهو يفرق. والحال يجمع فإنه[5] يدعوه إلىٰ الفناء.

---

(١) في م «التمكن».

(٢) الزيادة من م.

(٣) في ط «منهما من يشاء».

(٤) في الأصل «أن» والمثبت كما في البقية.

(٥) في ط «لأنه».

وهناك سلطان الحال.

قوله : «وَالحَالُ يحَمِلُه فِي حِينٍ» أي يغلب عليه الحال تارة. فيصير محمولا بقوة الحال وسلطانه علىٰ السلوك. فيشتد(١) سيره بحكم الحال، يعني: وإذا غلبه العلم شغله عن السلوك. وهذا علىٰ (٢) المعهود من طريقة المتأخرين : أن العلم يشغل عن (٣) السلوك. ولهذا يعدون السالك من سلك علىٰ الحال ملتفتا إلىٰ (٤) العلم.

وأما علىٰ ما قررناه - من أن العلم يعين علىٰ السلوك، ويحمل عليه، ويكون صاحبه سالكا به وفيه - فلا يشغله العلم عن سلوكه. وإن أضعف سيره علىٰ درب الفناء. فلا ريب(٥) أن العلم لا يجامع الفناء. فالفناء ليس هو غاية السالكين إلىٰ الله؛ بل ولا هو لازم من لوازم الطريق، وإن كان عارضاً من عوارضها (٦). يعرض لغير الكمّل، كما تقدم تقرير ذلك (٧).

---

(١) في أ، ب، غ، ح «فيشتمل»

(٢) في ط، أ، ب، غ، ح «هو المعهود».

(٣) في ط زيادة «عندهم».

(٤) في ط «عن».

(٥) في م بدل «فلا ريب» «فالذنب».

(٦) «من عوارضها» ساقطة من أ، غ، ح، ب.

(٧) تقدم في ١/ ١٤٦ عند قوله «فصل فإذا استحكمت يقظته» إلىٰ ١/ ١٦٩ عند قوله : «فصل فلنرجع إلىٰ ذكر منازل : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾».

فبيّنا أن الفناء الكامل، الذي هو الغاية المطلوبة: هو [١] الفناء عن محبة ما سوىٰ الله وإرادته. فيفنىٰ بمحبة الله عن محبة ما سواه. وبإرادته ورجائه، والخوف منه، والتوكل عليه [٢]، والإنابة إليه: عن إرادة ما سواه، وخوفه ورجائه والتوكل عليه.

وهذا الفناء لا ينافي العلم بحال؛ بل لا يشغل عنه العلم [٣]. ولا يحول بين العبد وبينه؛ بل قد يكون في أغلب الأحوال من أعظم أعوانه. وهذا أمر غفل عنه أكثر المتأخرين، بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه. ولكن لم يخل الله الأرض من قائم به، داع إليه.

قوله: «فَبَلَاؤُه بَيْنَهُمَا» أي عذابه وألمه [٤]: بين داعي الحال وداعي العلم. فإيمانه يحمله علىٰ [٥] إجابة داعي العلم، ووارده يحمله علىٰ إجابة داعي الحال. فيصير كالغريم [٦] بين مطالبين. كل منهما يطالبه بحقه. وليس بيده إلا ما يقضي أحدهما.

وقد عرفت أن هذا من [٧] الضيق. وإلا فمع السعة: يوفىٰ كلا منهما حقه.

---

(١) «هو» ساقطة من ج، ب، م، ق.

(٢) سقط من م إلىٰ قوله «وهذا الفناء».

(٣) سقط من ط: «بل ولا يشغل عنه العلم» وفي ح، ق «عن العلم».

(٤) في م «دائر» بدل «وألمه».

(٥) في ج «قائماً منه» بدل «فإيمانه».

(٦) «الغريم: هو الذي عليه الدين. وقد يأتي بمعنىٰ الذي له الدين. انظر: مختار الصحاح ٤٧٣.

(٧) «من» ساقطة من م.

قوله : «**يُذِيقُه شُهُوداً طَوراً**» أي ذلك البلاء الحاصل بين الداعيين يذيقه شهوداً طوراً ، وهو الطور الذي يكون الحاكم عليه فيه : هو العلم.

قوله : «**وَيَكسُوه غَيرةً**[١] **طَوراً**» الظاهر: أنه عبرة بالباء الموحدة [والعين][٢] أي اعتبارا بأفعاله ، واستدلالاً عليه بها. وأنه سبحانه دل علىٰ نفسه بأفعاله. فالعلم يكسو صاحبه اعتباره[٣] واستدلاله علىٰ الرب بأفعاله.

ويصح أن يكون «غيرة» بالغين المعجمة والياء المثناة من تحت. ومعناه : أن العلم يكسوه غيرة من حجابه عن مقام صاحب الحال. فيغار من احتجابه عن الحال بالعلم ، وعن العيان بالاستدلال ، وعن الشهود - الذي هو مقام الإحسان - بالايمان ، الذي هو إيمان بالغيب.

قوله : «**وَيُرِيهِ غَيرةً**[٤] **تَفَرُّقِ طَوراً**» هذا بالغين المعجمة ليس إلا ، أي[٥] ويريه العلم غيرة تفرقه في أوديته. فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم [٦]. وهي حالة صحو وتمييز.

---

(١) في البقية عدا ج «عبر» وقد تقدم أنه في المنازل «غيره».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في البقية عدا ج ، م «اعتباراً واستدلالاً».

(٤) في م «غيره يعرف» وتقدم أنه في المنازل «غبرة تفرق».

(٥) «أي» ساقطة من ق.

(٦) في البقية عدا ج ، م ، ق «وهو حال».

وكأن الشيخ ـ رحمه الله ـ يشير إلىٰ أن صاحب هذا المقام تغار تفرقته من جمعيته علىٰ الله. فنفسه تفرُّ من الجمعية علىٰ الله إلىٰ تفرق العلم. فإنه لا أشق علىٰ النفوس من جمعيتها علىٰ الله. فهي تهرب من الله إلىٰ الحال تارة ، وإلىٰ العمل تارة ، وإلىٰ العلم تارة ، هذه نفوس السالكين الصادقين (١).

[وأما] (٢) من ليس من أهل هذا الشأن : فنفوسهم تفر من الله إلىٰ الشهوات والراحات. فأشق ما علىٰ النفوس : جمعيتها علىٰ الله. وهي تناشد صاحبها : أن لا يوصلها إليه ، وأن يشغلها بما دونه. فإنّ حَبْسَ النفس علىٰ الله شديد. وأشد منه : حبسها علىٰ أوامره. وحبسها عن نواهيه. فهي دائما ترضيك بالعلم عن العمل ، وبالعمل عن الحال ، وبالحال عن الله سبحانه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من شد مئزر سيره إلىٰ الله. وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه.

وقد تضمن كلامه في هذه الدرجة ثلاث درجات - كما أشار إليه - (٣) درجة الحال. ودرجة العلم ، ودرجة التفرقة بين الحال والعلم. وهذه الثلاث درجات (٤) : هي المختصة بالمعنىٰ الثاني من معاني الوقت. [والله أعلم] (٥).

---

(١) أي أن النفس تسعىٰ إلىٰ الراحة أو إلىٰ ما هو أقل عملاً وهم يلزمونها بما هو أكمل فهم في جهاد مع أنفسهم.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في م زيادة «عنه» ولا معنىٰ لها هنا.

(٤) في ط «الدرجات».

(٥) الزيادة من الجميع عدا ب.

فصل

المعنى الثالث

قال : «وَالمَعنَىٰ الثَّالِثُ ، قَالُوا : الوَقتُ الحَقُّ. أَرَادُوا بِهِ : استِغرَاقَ رَسمِ الوَقتِ فِي وُجُودِ الحَقِّ. وَهَذَا المَعنَىٰ يَسبِقُ عَلَىٰ هَذَا الاسمِ عِندِي؛ لَكِنَّهُ اسمٌ فِي هَذَا المَعنَىٰ الثَّالِثِ ، لِحِينٍ تَتَلاَشَىٰ فِيهِ الرُّسُومُ كَشفاً. لاَ وُجُوداً مَحضاً. وَهُوَ فَوقَ البَرقِ وَالوَجْدِ. وَهُوَ يُشَارِفُ مَقَامَ الجَمعِ ، لَو دَامَ وَبَقِيَ. وَلاَ يَبلُغُ وَادِيَ الوُجُودِ؛ لَكِنَّهُ يَكفِي مَئونَةَ المُعَامَلَةِ ، وَيُصفِّي عَينَ المُسَامَرَةِ ، وَيَشُمُّ رَوَائِحَ الوُجُودِ»[1].

هذا المعنىٰ الثالث من معاني «الوقت» أخص مما قبله. وأصعب تصوراً وحصولاً. فإن[2] الأول : وقت سلوك يتلون. وهذا وقت كشف يتمكن. ولذلك أطلقوا عليه اسم «الحق» لغلبة حكمه علىٰ قلب صاحبه. فلا يحس برسم الوقت؛ بل يتلاشىٰ ذكر وقته من قلبه ، لما قهره من نور الكشف.

فقوله : «قَالُوا : الوَقتُ هُو الحَقُّ».

[يعني][3] : أن بعضهم أطلق اسم « الحق » علىٰ الوقت ، ثم فسر مرادهم

---

(١) منازل السائرين ١٠٢ وفيه «وهذا المعنىٰ يشق.. لكنه هو اسم» وفي م «وهذا مشتق» وفي أ، غ سقط «يشارف». وفي البقية عدا ، م ، ج ، ق ، ط «يلقىٰ مئونه» بدل «يكفىٰ مئونة».

(٢) في م «لأن الأول وقت سلوك بتلون وهذا وقد كشف بتمكن».

(٣) الزيادة من الجميع.

بذلك. وأنهم عنوا به استغراق رسم الوقت (١) في وجود الحق ومعنىٰ هذا أن السالك بهذا المعنىٰ الثالث (٢) إذ شهد استغراق وقته في وجود الحق تلاشىٰ عنده وقته بالكلية.

وتقريب هذا إلىٰ الفهم : أنه إذا شهد استغراق وقته الحاضر في ماهية (٣) الزمان. فقد استغرق الزمان رسم الوقت الذي هو (٤) جزء يسير جداً من أجزائه، وانغمر فيه. كما تنغمر القطرة في البحر. ثم إن الزمان - المحدود الطرفين - يستغرق رسمه في وجود الدهر. وهو ما بين الأزل والأبد. ثم إن الدهر يستغرق رسمه في دوام الرب جل جلاله. وذلك الدوام : هو صفة الرب. فهناك يضمحل الدهر والزمان والوقت. ولا يبقىٰ له نسبة إلىٰ دوام الرب جل جلاله ألبتة. فاضمحل الزمان والدهر والوقت في الدوام الإلهي (٥)، كما تضمحل الأنوار المخلوقة في نوره، وكما يضمحل علم الخلق في علمه،

---

(١) سقط من أ إلىٰ قوله «الحاضر في ما هية الزمان».

(٢) في ط «الثالث للحق إذا اشتملا استغراقه في وقته يتلاشي عنه وقته».

(٣) الماهية : حقيقة الشيء وهي نسبة إلىٰ : ما هو، وتطلق غالباً علىٰ الأمر المتعقل مع قطع النظر عن الوجود الخارجي. وقيل أيضاً : أن الماهية والحقيقة والذات قد تطلق علىٰ سبيل الترادف. انظر : التعريفات ص٢٤٧ و ٢٤٨، وكشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ١٠٢-١٠٦، والمواقف في علم الكلام ص٥٩ - ٦٨.

(٤) في البقية عدا ق، م، ج «إلىٰ ما هو» وبعدها «جداً» ساقطة من ج، ق.

(٥) «في الدوام الإلهي» ساقطة من م.

وقدرتهم[١] في قدرته ، وجمالهم في جماله ، وكلامهم في كلامه ، بحيث لا يبقىٰ للمخلوق نسبة ما إلىٰ صفات الرب جل جلاله.

والقوم إذا أطلق أهل الاستقامة منهم «ما في الوجود إلا الله «أو ما ثم موجود علىٰ الحقيقة إلا الله» أو«هناك : يفنىٰ من لم يكن. ويبقىٰ من لم يزل» ونحو ذلك من العبارات ، فهذا مرادهم. لا سيما إذا حصل هذا الاستغراق في الشهود كما هو في الوجود. وغلب سلطان الحال[٢] علىٰ سلطان العلم. وكان القلب [٣] مغموراً بوارده. وفي قوة التمييز ضعف. وقد توارىٰ العلم بالشهود وحكم الحال.

فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وتزل أقدام كثيرة إلىٰ الحضيض الأدنىٰ. ولا ريب أن وجود الحق سبحانه ودوامه يستغرق وجود كل [٤] ما سواه ووقته وزمانه. بحيث يصير كأنه لا وجود له.

ومن هنا غلط القائلون بوحدة الوجود. وظنوا أنه ليس لغيره وجود ألبتة. وغرتهم كلمات مشتبهة [٥] جرت علىٰ ألسنة أهل الاستقامة من

---

(١) في البقية «وقدرهم».

(٢) في البقية عدا ق ، ج ، م «سلطانه».

(٣) في البقية عدا ج ، ق ، م «العلم» بدل «القلب».

(٤) «كل» ساقطة من م.

(٥) في البقية عدا م ، ق ، ج «وغرهم كلمات مشتبهات».

الطائفة[١]. فجعلوها عمدة لكفرهم وضلالهم. وظنوا أن السالكين سيرجعون إليهم، وتصير طريقة الناس واحدة ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قوله: «وَهَذَا المَعنَىٰ يَسبِقُ عَلَىٰ هَذَا[٢] الاسْمِ عِندِي».

يريد: أن «الحق» سابق علىٰ هذا[٣] الاسم الذي هو «الوقت» أي هو[٤] منزه عن أن يسمىٰ بالوقت. فلا ينبغي إطلاقه عليه. لأن الأوقات حادثة.

قوله: «لَكِنَّه اسمٌ فِي هَذَا المَعْنَىٰ الثَّالِثِ، لحِين تَتَلَاشَىٰ فِيهِ الرُّسُومُ كَشْفاً لَا وُجُوداً مَحْضاً». تلاشي «الرسوم» اضمحلالها وفناؤها. و «الرسوم» عندهم: ما سوىٰ الله.

وقد صرح الشيخ: أنها إنما تتلاشىٰ في[٥] الكشف لا في الوجود العيني الخارجي، فإن تلاشيها في الوجود خلاف الحس والعيان، وإنما تتلاشىٰ في وجود العبد الكشفي. بحيث لا يبقىٰ فيه[٦] سعة للإحساس بها، لما استغرقه من الكشف. فهذه عقيدة أهل الاستقامة من القوم.

---

(١) «من الطائفة» ساقطة من م.

(٢) في ب «المعنىٰ» بدل «الاسم» وسقط من م إلىٰ قوله «الذي هو الوقت».

(٣) «هذا» ساقطة من الجميع عدا ق وبعدها «هو» ساقطة من غ، ب.

(٤) «هو» ساقطة من ط.

(٥) سقط من ط إلىٰ قوله «في وجود العبد».

(٦) «فيه» ساقطة من غ.

وأما الملاحدة[1]، أهل وحدة الوجود، فعندهم: أنها لم تزل متلاشية في عين وجود الحق؛ بل وجودها هو نفس وجوده. وإنما كان الحس يفرق بين الوجودين. فلما غاب عن حسِّه بكشفه، تبين له[2] أن وجودها هو عين وجود الحق.

ولكن الشيخ كأنه عبر بالكشف والوجود عن المقامين اللذين ذكرهما في كتابه. و «الكشف» هو دون «الوجود» عنده. فإن «الكشف» يكون مع بقاء بعض رسوم صاحبه. فليس[3] معه استغراق في الفناء. و «الوجود» لا يكون معه رسم باق. ولذلك قال «لا وجوداً محضاً» فإن الوجود المحض عنده: يفني الرسوم. وبكل حال: فهو يفنيها من وجود الواجد، لا يفنيها في الخارج.

وسر المسألة: أن الواصل إلىٰ هذا المقام يصير له وجود آخر، غير وجوده الطبيعي، المشترك بين الموجودات[4]. ويصير له نشأة أخرىٰ لقلبه وروحه،

(١) الملاحدة: جمع ملحد من الإلحاد وهو الميل والعدول، والإلحاد درجات أشدها إنكار وجود الله كحال الدهرية والطبائعيين انظر المعجم الفلسفي ١٧٤، ٢٠ وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٠٩.

وأهل وحدة الوجود: هم الذين يقولون بأن الإله هو مجموع الكائنات الموجودة فلا خالق ولا مخلوق فالكل هو الإله تعالىٰ الله عن ذلك. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٣٠٩ و ٣١٠ وقاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ٤٠٦، وانظر الاتحاد فيما تقدم ص٢٥٥٥.

(٢) «له» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

(٣) «فليس» ساقطة من ج وبعدها «ممن».

(٤) في ط زيادة «جميع».

نسبة النشأة الحيوانية إليها كنسبة النشأة في بطن الأم إلىٰ هذه النشأة المشاهدة في العالم ، وكنسبة هذه النشأة إلىٰ النشأة الأخرىٰ[1].

للعبد أربع نشآت

فللعبد أربع نشآت : نشأة في الرحم ، حيث لا بصر يدركه ، ولا يد تناله. ونشأة في الدنيا. ونشأة في البرزخ[2]. ونشأة في المعاد الثاني[3]. وكل نشأة أعظم من التي قبلها. وهذه النشأة للروح والقلب أصلاً ، وللبدن تبعاً.

فللروح في هذا العالم نشأتان:

إحداهما: النشأة الطبيعية المشتركة.

والثانية: نشأة قلبية روحانية ، يولد بها[4] قلبه ، وينفصل من[5] مشيمة طبعه ، كما ولد بدنه وانفصل من مشيمة البطن[6].

ومن لم يصدق بهذا فليضرب عن هذا صفحاً ، وليشتغل بغيره.

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد : أن المسيح قال للحواريين «إنكم لن تلجوا

---

(١) سقط من م إلىٰ «الأخرىٰ»

(٢) البرزخ : هو الحاجز بين الشيئين. ويقصد به هنا ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلىٰ البعث. انظر : التعريفات ٦٩ ، مختار الصحاح ٤٨.

(٣) «الثاني» ساقطة من أ ، غ.

(٤) في أ ، ب «لها» و غ «يولدها».

(٥) في ط «عن».

(٦) في أ ، ب ، غ «بطنه» وفي ح «من بطنه» وفي ط بعدها «وانفصل عن».

ملكوت السماء[1] حتىٰ تولدوا مرتين ».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان ، وخروجها من عالم الطبيعة ، كما ولدت الأبدان من البطن[2] ، وخرجت منه. والولادة الأخرىٰ : هي الولادة المعروفة. والله أعلم.

قوله : «وَهُوَ فَوقَ البَرقِ وَالوَجْدِ».

يعني : أن هذا الكشف الذي تلاشت فيه الرسوم : فوق منزلتي البرق والوجد ، فإنه أثبت وأدوم ، و «الوجود» فوقه؛ لأنه يشعر بالدوام.

قوله : «وَهُوَ يُشَارِفُ مَقَامَ الجَمعِ لَو دَامَ».

أي لو دام هذا «الوقت»لشارف مقام «الجمع» وهو ذهاب شعور القلب بغير الحق سبحانه ، شغلا به عن غيره. فهو جمع في الشهود.

وعند الملاحدة : هو جمع[3] في الوجود.

ومقصوده : أنه لو دام الوقت بهذا المعنىٰ الثالث : لشارف حضرة الجمع. لكنه لا يدوم.

قوله : «وَلاَ يَبلُغُ وَادِي الوُجُودِ»[4] يعني : أن الوقت المذكور لا يبلغ السالك فيه

---

(١) في البقية عدا ج ، م ، ق «السموات» وقد تقدم ص٢٩٠٨ .

(٢) في البقية عدا ج ، ق ، م «من البدن».

(٣) « جمع» ساقطة من ج ، ق. وانظر : شرح التلمساني علىٰ المنازل ٢/ ٤٦١ .

(٤) سقط من م إلىٰ قوله «لا يبلغ السالك».

وادي الوجود [حتىٰ يقطعه. ووادي الوجود][1] : هو حضرة الجمع.

قوله : «لَكِنَّه يُلقِي مَئُونةَ المُعَامَلَةِ».

يعني : أن الوقت المذكور - وهو الكشف المشارف لحضرة الجمع - يخفف عن العامل أثقال المعاملة ، مع قيامه بها أتم القيام ، بحيث تصير هي الحاملة له[2].

فإنه كان يعمل علىٰ الخبر فصار يعمل علىٰ العيان هذا مراد الشيخ.

وعند الملحد : أنه يفنىٰ[3] عن المعاملات الجسمانية ، ويرد صاحبه إلىٰ المعاملات القلبية. وقد تقدم إشباع[4] هذا المعنىٰ.

قوله : «وَيُصَفِّي عَينَ المُسَامَرَةِ»[5] المسامرة : عند القوم [هي][6] الخطاب القلبي الروحي بين العبد وربه. وقد تقدم : أن تسميتها بالمناجاة أولىٰ. فهذا الكشف يخلص عين المسامرة من ذكر غير الحق سبحانه ومناجاته.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) «له» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح.

(٣) في م «يعنىٰ».

(٤) في ط زيادة «الكلام في» وانظر : ما تقدم ص٣٠٤٠.

(٥) في البقية عدا م ، ج ، ق ، ب «عن المسامرة» في الموضعين.

(٦) الزيادة من الجميع عدا م ، وتقدم معنىٰ المسامرة قبل الدرجة الثالثة من درجات الذكر ص٢٥٦١.

قوله : «وَيَشُمُّ رَائِحَةَ[١] الوُجُودِ» أي صاحب مقام هذا الوقت الخاص : يشم رائحة الوجود. وهو حضرة الجمع. فإنهم يسمونها بالجمع والوجود. ويَعْنُون بذلك : ظهور وجود الحق سبحانه. وفناء وجود ما سواه.

وقد عرفت أن فناء وجود ما سواه بأحد اعتبارين : إما فناؤه من[٢] شهود العبد فلا يشهده ، وإما اضمحلاله وتلاشيه بالنسبة إلىٰ وجود الرب. ولا تلتفت إلىٰ غير هذين المعنيين. فهو إلحاد وكفر. والله المستعان.

* * *

(١) في ط «روائح» في الموضعين.

(٢) في أ «عن»انظر الفصل السابق.

فصـل

[منزلة الصفاء]

قال صاحب المنازل:

«بَابُ الصَّفَاءِ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧] «الصَّفَا» اسمٌ لِلبَرَاءَةِ مِنَ الكَدَرِ. وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ سُقُوطُ التَّلوِينِ»[1].

أما استشهاده[2] بالآية: فوجهه أن «المصطفىٰ» مفتعل من الصفوة. وهي خلاصة الشيء، وتصفيته مما يشوبه. ومنه: اصطفىٰ الشيء لنفسه. أي خلصه من[3] شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصفيّ» وهو السهم الذي كان يصطفيه رسول الله ﷺ لنفسه من الغنيمة[4]. ومنه: الشيء الصافي. وهو الخالص من كدر غيره.

قوله: «الصَّفَاءُ: اسمٌ لِلبَرَاءَةِ مِن الكَدَرِ»[5].

---

(١) منازل السائرين ١٠٣.

(٢) في البقية عدا م، ب «أما الاستشهاد»

(٣) سقط من ق إلىٰ قوله «لنفسه»

(٤) انظر: سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء باب ما جاء في سهم الصفي ٣/ ٣٩٧-٤٠٠.

(٥) الصفاء في اللغة: لما خلص من الكدر. انظر المصباح المنير ٣٤٤. وقال الكاشاني: وهو ههنا: اسم للبراءة من الكدر وهو بسقوط التلوين الواقع في الوقت. معجم اصطلاحات

البراءة: هي الخلاص. و «الكدر» امتزاج الطيب[1] بالخبيث.

قوله: «وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ: سُقُوطُ التَّلْوِينِ».

«التلوين» هو التردد والتذبذب، كما قيل:

كل وقت[2] تتلــون غير هـذا بك أجمل

درجات الصفاء

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: صَفَاءُ عِلمٍ يُهَذِّبُ لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ، وَيُبَصِّرُ غَايَةَ الجِدِّ، وَيُصَحِّحُ هِمَّةَ القَاصِدِ»[3].

الدرجة الأولى

ذكر الشيخ له في هذه الدرجة ثلاث فوائد.

الفائدة الأولىٰ: «[4] يُهَذِّبُ لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ» وهذا العلم الصافي - الذي أشار إليه - هو العلم الذي أوصىٰ به القوم وحذروا من مفارقته، وأخرجوا من فارقه من أهل الطريق بالكلية، وهو العلم الذي جاء به[5] الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

الصوفية ٣٢٩. وقال الطوسي في اللمع ٤١٤: الصفاء: ما خلص من ممازجة الطبع ورؤية الفعل من الحقائق في الحين.

(١) «الطيب» ساقطة من م، أ، غ.

(٢) في البقية «كل يوم» وفي البقية أيضاً عدا م، ج، ب «ترك هذا». والبيت في الرسالة القشيرية ٣٤٦.

(٣) منازل السائرين ١٠٣.

(٤) في ط زيادة «علم».

(٥) سقط من ط إلىٰ قوله «الذي جاء به».

وكان الجنيد يقول دائما [١] : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. من[٢] لم يحفظ القرآن ، ولم [٣] يكتب الحديث ، ولم يفقه فلا يقتدىٰ به.

وقال غيره من العارفين: كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهي كفر. وقال الجنيد: علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ.

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم. فلا أقبلها إلا بشاهدين[٤] من الكتاب والسنة. وقال النصرابادي : أصل هذا المذهب : ملازمة الكتاب والسنة. وترك الأهواء والبدع ، والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون. والإقامة علىٰ ما سلكه الأولون.وقد تقدم ذكر بعض ذلك[٥].

فهذا العلم الصافي ، المتلقىٰ من مشكاة الوحي والنبوة[٦] : يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية.

وحقيقة[٧] التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ، [وتحكيمه باطناً

---

(١) «دائماً» ساقطة من م.

(٢) في ط «فمن» و «لم يتفقه لا يقتدىٰ به».

(٣) في البقية عدا م «لم ساقطة».

(٤) في البقية « بشاهدي عدل» وفي الرسالة القشيرية ص٤١١ « بشاهدي عدلين».

(٥) انظر : مزيداً من ذلك فيما تقدم في بداية حديثه عن منزلة العلم ص٢٦٣٢ -٢٦٤١ ، وانظر أيضاً الدرجة الثالثة من منزلة اللحظ ص٣٠٠٧-٣٠١٢.

(٦) في ح «هذب» و «يهذب صاحبه» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا ج ، م «وحقيقتها».

وظاهراً](١)، والوقوف معه حيث وقف بك(٢)، والمسير [معه](٣) حيث سار بك، بحيث تجعله بمنزلة شيخك(٤) الذي قد ألقيت إليه أمرك كله سرّه وظاهره، واقتديت به في جميع أحواله(٥). ووقفت مع ما يأمرك به. فلا تخالفه ألبته. فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخاً، وإماماً وقدوة وحاكماً، وتعلق قلبك بقلبه الكريم، وروحانيتك بروحانيته، كما يعلق المريد روحانيته بروحانية شيخه. فتجيبه إذا دعاك، وتقف(٦) إذا استوقفك، وتسير إذا سار بك، وتقيل إذا قال، وتنزل إذا نزل، وتغضب لغضبه، وترضىٰ لرضاه، وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بإذنك.

وبالجملة: فتجعل الرسول شيخك وأستاذك، ومعلمك ومربيك(٧)

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في م «بل» وكذلك التي بعدها.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) يقصد ابن القيم ـ رحمه الله ـ بهذا الكلام الرد علىٰ الصوفية في مغالاتهم في شيوخهم ودعوتهم إلىٰ ترك ذلك، وجعل هذه الطاعة لأوامر الله كما جاءت في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وليس مقصوده أن تجعل طاعة الرسول مساوية لطاعة المريد لشيخه؛ بل المقصود دعوة من كانت هذه حاله إلىٰ طاعة الرسول ﷺ فالناظر في كتب ابن القيم ـ رحمه الله ـ لا يخفىٰ عليه ذلك.

(٥) في البقية «أحوالك».

(٦) في ط زيادة «معه».

(٧) «ومربيك» ساقطة من م.

ومؤدبك ، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ. كما تسقط الوسائط(١) بينك وبين المرسل في العبودية ، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التجريدان : [هما](٢) حقيقة شهادة أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله. فالله وحده المعبود(٣) المألوه ، الذي لا يستحق العبادة سواه. ورسوله المطاع المتبع، المهتدىٰ به، الذي لا يستحق الطاعة سواه. ومن سواه : فإنما يطاع إذا أمر(٤) بطاعته. فيطاع تبعاً لا أصلاً(٥).

وبالجملة : فالطريق مسدودة إلا علىٰ من اقتفىٰ آثار الرسول ﷺ ، واقتدىٰ به في ظاهره وباطنه.

فلا يتعنىٰ(٦) السالك علىٰ غير هذا الطريق. فليس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعماله ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور : ٣٩].

---

(١) في البقية عدا م ، ق ، ج ، ب «الوسائل».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في ط زيادة «هو».

(٤) في ط زيادة «الرسول».

(٥) في البقية عدا ج ، م ، ق «للأصل».

(٦) من عَني : أي تعب ونصب. وعنىٰ بفتح النون : قصد وأراد. وعُني : بضم العين اهتم. انظر : مختار الصحاح ٤٥٩.

ولا[١] يتعنىٰ السالك علىٰ هذه[٢] الطريق. فإنه واصل ولو زحف زحفاً، فأتباع الرسول إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم فهم[٣] كما قيل:

من لي بمثل سيرك المدلَّل تمشي رويداً وتجيء في الأول

والمنحرفون عن طريقه[٤] إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قعد بهم عدولهم عن طريقه.

فهم في السرىٰ لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا[٥]

قوله: «وَيُبْصِرُ غَايَةَ الجِدِّ» الجد: الاجتهاد، والتشمير، و «الغاية» النهاية.

يريد: أن صفاء العلم يهدي صاحبه إلىٰ الغاية المقصودة بالاجتهاد والتشمير. فإن كثيراً من السالكين - بل أكثرهم - سالك بجده واجتهاده، غير منتبه إلىٰ المقصود.

ضرب مثال لحال الناس واتباعهم للرسل

وأضرب لك في هذا[٦] مثلاً حسناً جدّاً، وهو: أن قوماً قدموا من بلاد بعيدة

---

(١) في ب: «وليتعن».

(٢) في البقية عدا ج، م «هذا».

(٣) «فهم» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق والبيت ذكره المؤلف في مفتاح دار السعادة ١/ ٨٢ وتقدم ص٢٧٧٦.

(٤) في الأصل «طريقته» والمثبت كما في البقية.

(٥) البيت تقدم في منزلة اللحظ في الدرجة الثالثة ص٣٠٠٦ وهو لابن الفارض. انظر ديوانه ٧٧.

(٦) «في هذا» ساقطة من م.

عليهم أثر النعيم والبهجة، والملابس السنية[١]، والهيئة العجيبة. فعجب الناس لهم. فسألوهم عن حالهم؟ فقالوا: بلادنا من أحسن [البلاد][٢]. وأجمعها لسائر أنواع النعيم. وأرخاها، وأكثرها مياهاً، وأصحّها هواء، وأكثرها فاكهة، وأعظمها اعتدالاً، وأهلها كذلك أحسن الناس صوراً وأبشاراً. ومع هذا، فملكها لا يناله الوصف جمالاً وكمالاً، وإحساناً، وعلماً وحلماً، وجوداً، ورحمة للرعية، وقرباً منهم. وله الهيبة والسطوة علىٰ سائر ملوك الأطراف. فلا يطمع أحد منهم في مقاومته و محاربته. فأهل بلده في أمان من عدوهم. لا يحل الخوف بساحتهم. ومع هذا: فله أوقات يبرز فيها إلىٰ رعيته فيسهل[٣] لهم الدخول عليه، ويرفع الحجاب بينه وبينهم. فإذا وقعت أبصارهم عليه: تلاشىٰ [عندهم][٤] كل ما هم فيه من النعيم واضمحل، حتىٰ لا يلتفتون إلىٰ شيء منه. فإذا أقبل علىٰ واحد منهم: أقبل عليه سائر أهل المملكة بالتعظيم والإجلال. ونحن رسله إلىٰ أهل البلاد، ندعوهم إلىٰ حضرته. وهذه كتبه إلىٰ الناس. ومعنا من الشهود ما يزيل سوء الظن بنا. واتهامنا[٥] بالكذب عليه.

---

(١) السنية: أي الحسنة أو الثمينة. انظر: مختار الصحاح ٣١٨، وتفسير غريب الحديث ١٢٥.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في البقية عدا م، ق، ج «فيها لرعيته ويسهل».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ط زيادة «ويدفع».

فلما سمع الناس ذلك ، وشاهدوا أحوال الرسل ، انقسموا أقساماً.

فطائفة قالت : لا نفارق أوطاننا ، ولا نخرج من ديارنا[١] ، ونتجشم[٢] مشقة السفر البعيد ، ونترك ما ألفناه من عيشنا ومنازلنا ، ومفارقة آبائنا وأبنائنا ، وإخواننا لأمر وعدنا به[٣] في غير هذه البلاد ، ونحن لم[٤] نقدر علىٰ تحصيل ما نحن فيه إلا بعد الجهد والمشقة. فكيف ننتقل عنه؟

ورأت هذه الفرقة مفارقتها لأوطانها وبلادها ، كمفارقة أنفسها لأبدانها. فإن النفس - لشدة إلفها للبدن - أكره ما إليها مفارقته. ولو فارقته إلىٰ النعيم المقيم.

فهذه الطائفة غلب عليها داعي الحس والطبع علىٰ داعي العقل[٥].

والطائفة الثانية : لما رأت حال الرسل ، وما هم فيه من البهجة وحسن الحال ، وعلموا صدقهم: تأهبوا للمسير[٦] إلىٰ بلاد الملك. فأخذوا في السير. فعارضهم أهلهم[٧] ، وأصحابهم، وعشائرهم من القاعدين. وعارضتهم[٨] مساكنهم ،

---

(١) في م «وأوطاننا».

(٢) في ط زيادة «لا» والتجشم : هو المشقة والكلفة. انظر : مختار الصحاح ١٠٤.

(٣) في م «وعدناه» وبعدها في ب «هذا» بدل «هذه».

(٤) في البقية عدا م ، ج ، ق «لا» بدل «لم».

(٥) في ط زيادة «والرشد».

(٦) في البقية عدا ج ، م ، ق «للسير» وبعدها في البقية عدا م «المسير».

(٧) في ط «أهلوهم».

(٨) في ط زيادة «ألفهم».

ودورهم وبساتينهم. فجعلوا يقدّمون رِجْلاً ويؤخّرون أخرىٰ. فإذا تذكروا طيب بلاد الملك وما فيها من سلوة العيش : تقدموا نحوها. وإذا عارضهم ما ألفوه واعتادوه من ظلال بلادهم وعيشها ، وصحبة أهلهم وأصحابهم : تأخروا عن المسير ، والتفتوا إليهم. فهم دائما بين الداعيين والجاذبين ، إلىٰ أن يغلب أحدهما ويقوىٰ علىٰ الآخر. فيصيرون إليه.

والطائفة الثالثة : ركبت ظهور عزائمها ، ورأت أن بلاد الملك أولىٰ بها. فوطنت أنفسها علىٰ قصدها(١). ولم يثنها لوم اللوام. لكن في سيرها بطء بحسب ضعف ما كشف لها من أحوال تلك البلاد وحال الملك.

والطائفة الرابعة : جدت في المسير(٢) وواصلته. فسارت سيرا حثيثاً. فهم كما قيل :

وركبٌ سَرَوا والليلُ مُرخٍ سدولَه ... علىٰ كل مغبر المطالع قاتمِ
حَدَوا عزماتٍ ضاعت الأرضُ بينها ... فصار سراهم في ظهور العزائمِ
تريهم(٣) نجومُ الليل ما يطلبونه ... علىٰ عاتق الشِّعرَىٰ وهام النعائمِ

---

(١) في ب «قصدتها».

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق «السير».

(٣) في الأصل «أرتهم» والمثبت كما في البقية مؤيدة بالإحالة علىٰ هذه الأبيات والقائل هو الشريف الرضي. انظر ديوانه ٢/ ٣٨٢ وفيه (والليل ملق جرانه) ، وفي هامش الديوان قال (الشعري : كوكب وهما شعريان : العبور والغميصاء ، ولهما أسطورة عند العرب معروفة) والنعائم : من منازل القمر. وانظر المفردات في غريب القرآن ص٢٦٢ و٤٩٩ ، ومختار الصحاح ٣٤٠.

فهؤلاء هممهم مصروفة إلىٰ المسير[١]. وقواهم موقوفة عليه من غير تنبه[٢] منهم إلىٰ المقصود الأعظم، والغاية العليا.

والطائفة الخامسة: أخذوا في الجد في المسير. وهمتهم متعلقة بالغاية، فهم في سيرهم ناظرون إلىٰ المقصود بالسير[٣]. فكأنهم يشاهدونه من بعد، وهو يدعوهم إلىٰ نفسه وإلىٰ بلاده. فهم عاملون علىٰ هذا الشاهد الذي قام بقلوبهم.

وعمل كل أحد [منهم][٤] علىٰ قدر شاهده. فمن شاهد المقصود بالعمل[٥] في عمله كان نصحه فيه، وإخلاصه وتحسينه، وبذل الجهد فيه: أتم ممن [لا يشاهده][٦] ولم يلاحظه. ولم يجد من مس التعب والنصب ما يجده الغائب، والوجود شاهد بذلك. فمن عمل عملا لملك بحضرته، وهو يشاهده: ليس حاله كحالة[٧] من عمله في غيبته وبعده عنه، وهو غير متيقن بوصوله[٨] إليه.

---

(١) في البقية عدا م «السير».

(٢) في البقية عدا م، ج «تثنيه».

(٣) في ط، م «بالمسير».

(٤) الزيادة من الجميع وفي م «كل واحد منهم».

(٥) في أ «في العمل» وفي ط «بالعمل في علمه».

(٦) الزيادة من الجميع عدا م وفي ط «لم يشاهده».

(٧) في البقية عدا ج «كحال من عمل في غيبته».

(٨) في ط «وحوله».

وقوله : «وَيُصَحِّحُ هِمَّةَ القَاصِدِ» أي ويصحح له صفاء هذا العلم همته ، ومتىٰ صحت الهمة علت وارتفعت. فإن سفولها[١] ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهي كالنار تطلب الصعود والارتفاع مالم تمنع.

أعلى الهمم

وأعلىٰ الهمم : همة اتصلت بالحق طلباً وقصداً. وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحاً. وهذه همة الرسل وأتباعهم. وصحتها : بتجريدها[٢] ، من انقسام طلبها ، وانقسام مطلوبها ، وانقسام طريقها؛ بل توحد مطلوبها بالإخلاص ، وطلبها بالصدق ، وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذي نصبه الله دليلاً. لا من نصبه هو دليلا له[٣].

ولله الهمم! ما أعجب شأنها[٤]. وأشد تفاوتها. فهمة متعلقة بمن فوق العرش. وهمة حائمة حول الأنتان والحش. والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسنه. والخاصة تقول : قيمة المرء ما يطلبه. وخاصة الخاصة تقول : قيمته همته[٥] إلىٰ مطلوبه.

وإذا أردت أن[٦] تعرف مراتب الهمم ، فانظر إلىٰ همة ربيعة[٧] بن كعب

---

(١) في البقية عدا ج ، م «سقوطها» وبعدها في م «ودناءتها من عللها».

(٢) في البقية عدا م ، ج ، ق «بتمييزها».

(٣) في ط «دليلاً لنفسه».

(٤) في م «ما أعلىٰ».

(٥) في ط «همة المرء».

(٦) سقط من م «أن» و «مراتب».

(٧) هو كعب بن مالك بن يعمر أبو فراس الأسلمي وكان من أهل الصفة ولم يزل مع النبي ﷺ

الأسلمي - وقد قال له رسول الله ﷺ : «سلني» - فقال : «أسألك مرافقتك في الجنة»[١] وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه، أو يواري جلده.

وانظر إلىٰ همة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه[٢] مفاتيح كنوز الأرض فأباها[٣]. ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه. فأبت له[٤] تلك الهمة العالية : أن يتعلق منها بشيء مما سوىٰ الله ومحابه. وعرض عليه أن يتصرف بالملك، فأباه. واختار التصرف بالعبودية المحضة. فلا إله إلا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفس تحملها، وخالق همم لا تعدو همم[٥] أخسِّ الحيوانات.

إلىٰ أن قبض فخرج من المدينة فنزل في بلاد أسلم علىٰ بريد من المدينة وبقي إلىٰ أيام الحرة ومات بالحرة سنة ٦٣ رضي الله عنه. انظر : الإصابة ٢/ ٢٠٢ و ٢٠٣ والتاريخ الكبير ٣/ ٢٨٠.

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة باب فضل السجود والحث عليه ١/ ٣٥٣ (٤٨٩) وغيره.

(٢) في ح «له» بدل «عليه».

(٣) نص الحديث كما جاء في البخاري في كتاب الجنائز باب الصلاة علىٰ الشهيد ٢/ ٩٤ عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلىٰ علىٰ أهل أحد صلاته علىٰ الميت ثم انصرف إلىٰ المنبر فقال : «إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلىٰ حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

(٤) في م «منه» وبعدها في ب «تلك الهمة العلية».

(٥) في الأصل «لا تعتد» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

فصـل

الدرجة الثانيـة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : صَفَاءُ حَالٍ ، يُشَاهَدُ بِهِ شَوَاهِدُ التَّحقِيقِ ، وَتُذَاقُ بِهِ حَلاَوَةُ المُنَاجَاةِ ، وَيُنسَىٰ بِهِ الكَونُ»(١).

هذه الدرجة إنما كانت أعلىٰ مما قبلها لأنها همة حال. والحال ثمرة العلم ، ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم المثمر له. وعلىٰ حسب شوب العلم يكون شوب الحال. وإذا صفا الحال : شاهد العبد - بصفائه - آثار الحقائق. وهي الشواهد فيه ، وفي غيره ، وعليه ، وعلىٰ غيره. ووجد حلاوة المناجاة. وإذا تمكن في هذه الدرجة : نسي الكون وما فيه من المكونات.

وهذه الدرجة تختص(٢) بصفاء «الحال» كما اختصت الأولىٰ بصفاء «العلم».

و«الحال» هو تكيف القلب وانصباغه بحكم الواردات علىٰ اختلافها ، والحال يدعو صاحبه إلىٰ المقام الذي منه جاء(٣) الوارد ، كما تدعوه رائحة البستان الطيبة إلىٰ دخوله والمقام فيه. فإذا كان الوارد من حضرة صحيحة - وهي حضرة الحقيقة الإلهية(٤) ، لا الحقيقة الخيالية الذهنية - شاهد السالك

---

(١) منازل السائرين ١٠٣ وفيه «تشاهد».

(٢) في ح «مختصة».

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «الذي جاء منه الوارد».

(٤) أي علىٰ حد تعبيرهم.

بصفائه شواهد التحقيق، وهي علاماته : و «التحقيق»[1] هو حكم الحقيقة، وتأثر القلب والروح بها، و «الحقيقة»[2] ما تعلق بالحق المبين سبحانه. فالله هو الحق. و«الحقيقة» ما نسب إليه وتعلق به. و«التحقيق» تأثر[3] القلب بآثار الحقيقة. ولكل حق حقيقة[4]، ولكل حقيقة تحقيق يقوم بمشاهدة الحقيقة.

قوله : «وَيُذَاقُ بِهِ حَلاوَةُ المُنَاجَاةِ» المناجاة: مفاعلة من النجوىٰ. وهي[5] الخطاب في سر العبد وباطنه. والشيخ ذكر في هذه الدرجة ثلاثة أمور.

أحدها : مشاهدة شواهد التحقيق. الثاني : ذوق حلاوة المناجاة. فإنه متىٰ صفا له حاله من الشوائب، خلصت له حلاوته من مرارة الأكدار. فذاق تلك الحلاوة في حال مناجاته. فلو كان الحال مشوباً مكدراً لم يجد حلاوة المناجاة. والحال المستندة إلىٰ وارد تذاق به حلاوة المناجاة : هو من حضرة

---

(١) وهو عندهم كما قال الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٤، التحقيق : شهود الحق في صور أسمائه التي هي الأكوان فلا يحجب المحقق بالحق من الخلق ولا بالحق عن الخلق. وقال في اللمع ٤١٣، والتحقيق: تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده وطاقته.

(٢) وقال الطوسي في اللمع ٤١٣ «والحقيقة اسم والحقائق جمع الحقيقة ومعناه وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدي من آمن به، فلو داخل القلوب شك أو مخيلة فيما آمنت به حتىٰ لا تكون به واقفة وبين يديه منتصبة لبطل الإيمان».

(٣) في أ، غ، ح «بأثر».

(٤) «ولكل حقيقة» ساقطة من ق، وفي م بعدها «تحقيق يقوم بشاهد» وفي الأصل «تقوم بمشاهد» والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٥) في البقية عدا م «وهو».

الأسماء والصفات بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم «الودود» - مثلاً - وكشف له عن معنىٰ[١] هذا الاسم، ولطفه، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل[٢] من حضرة هذا الاسم مناسباً له. فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذه مناجاة، لا أحلىٰ منها ولا أطيب، بحسب استغراقه في شهود معنىٰ هذا الاسم. وحظه من أثره.

اسم الودود

فإن «الودود» إن كان بمعنىٰ المودود - كما قال البخاري في صحيحه[٣] «الودود» الحبيب - واستغرق العبد في مطالعة صفات الكمال. التي تدعو العباد[٤] إلىٰ حب الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبده بمقتضاها: ما ذكره الشيخ من هذه الأمور الثلاثة وغيرها.

وكذلك[٥] إن كان بمعنىٰ «الواد» وهو المحب: أثمر له مطالعة ذلك حالا تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنياً كريماً جواداً عزيزاً قادراً، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غني بالذات عن كل ما سواه. وهو - مع ذلك - يود عباده

(١) في ط و أ «معاني».

(٢) في ط زيادة «له».

(٣) تقدم في المرتبة الخامسة من مراتب المحبة ص٢٨٢٠.

(٤) في البقية عدا م «العبد.

(٥) في م «ولذلك» وفي ط بعدها «إن كان اسم فاعل بمعنىٰ الواد وهو المحب أثمرت له».

ويحبهم[١]، كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها، وخلوصها من دم التعطيل، وفرث التمثيل. فتخرج المعرفة من بين ذلك فطرة خالصة سائغة للعارفين. كما يخرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

والأمر الثالث: قوله: «وَيُنسَىٰ بِهِ الكَونُ» أي ينسىٰ الكون بما يغلب علىٰ القلب[٢] من اشتغاله بهذه الحال المذكورة. والمراد بالكون: المخلوقات. أي فيشتغل بالحق عن الخلق.

فصل

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: صَفَاءُ اتِّصَالٍ. يُدرِجُ حَظَّ العُبُودِيَّةِ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُغرِقُ نِهَايَاتِ الخَبَرِ فِي بِدَايَاتِ العِيَانِ، وَيَطْوِي خِسَّةَ التَّكَالِيفِ فِي عَينِ الأَزَلِ**»[٣].

في هذا اللفظ قلق[٤] وسوء تعبير. يجبره حسن حال صاحبه وصدقه، وتعظيمه لله ورسوله. ولكن أبىٰ الله أن يكون الكمال إلا له سبحانه. ولا ريب

---

(١) في ط زيادة «ويتودد إليه بإحسانه إليهم وتفضله عليهم».

(٢) في البقية عدا م «علىٰ قلبه».

(٣) منازل السائرين ١٠٣ وفيه «ويغرق نهايات» و«عز الأزل» وفي ط «ويغرق».

(٤) في م «بشع».

أن بين أرباب الأحوال وأصحاب[1] التمكن تفاوتاً عظيماً. وانظر إلىٰ غلبة الحال علىٰ الكليم لما شاهد آثار[2] التجلي الإلهي علىٰ الجبل ، كيف خر صعقاً؟ وصاحب التمكن[3] - صلوات الله وسلامه عليه - لما أسري به ورأىٰ: ما رأىٰ لم يصعق ولم يخر؛ بل ثبت فؤاده وبصره.

ومراد القوم بالاتصال والوصول : اتصال العبد بربه ، ووصوله[4] إليه. لا بمعنىٰ[5] اتصال ذات العبد بذات الرب ، كما تتصل الذاتان إحداهما بالأخرىٰ. ولا بمعنىٰ انضمام إحدىٰ الذاتين إلىٰ الأخرىٰ[6] والتصاقها بها. وإنما مرادهم بالاتصال والوصول : إزالة النفس والخلق من طريق المسير[7] إلىٰ الله. ولا يتوهم[8] سوىٰ ذلك. فإنه عين المحال. فإن السالك لا يزال سائرا إلىٰ الله تعالىٰ حتىٰ يموت. فلا ينقطع سيره إلا بالموت. فليس في هذه الحياة وصول يفرغ معه السير وينتهي. وليس ثم اتصال حسي بين ذات العبد وذات الرب. فالأول :

---

(١) في ط زيادة «بين».

(٢) في غ «لما شاهده آثار».

(٣) في ح «التمكين».

(٤) في غ «والوصول».

(٥) في أ ، ب ، ح ، غ «لا معنىٰ» في الموضعين.

(٦) في أ ، ب ، ح ، غ ، ج «بالأخرىٰ».

(٧) في البقية «السير» وقبلها «الطريق» ساقطة من م.

(٨) في البقية عدا ج ، م «ولا تتوهم».

تعطيل وإلحاد. والثاني : حلول واتحاد. وإنما حقيقة الأمر : تنحية النفس والخلق عن الطريق. فإن الوقوف معهما[١] : هو الانقطاع. وتنحيتهما هو الاتصال.

بيان ضلال أهل وحدة الوجود والتحذير من الألفاظ المجملة

وأما الملاحدة القائلون بوحدة الوجود ، فإنهم قالوا : العبد من أفعال الله ، وأفعاله من صفاته. وصفاته من ذاته. فأنتج لهم تركيب[٢] هذا التركيب : أن العبد من ذات الرب. تعالىٰ الله وتقدس عما يقولون علواً كبيراً.

وموضع الغلط : أن العبد من مفعولات الرب تعالىٰ ، لا من أفعاله القائمة بذاته. ومفعولاته آثار أفعاله. وأفعاله عن[٣] صفاته القائمة بذاته ، فذاته سبحانه مستلزمة لصفاته وأفعاله. ومفعولاته منفصلة عنه ، تلك مخلوقة محدثة. والرب تعالىٰ هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله.

فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها. فإنها أصل البلاء. وهي مورد للصديق[٤] والزنديق. فإذا سمع الضعيفُ المعرفة والعلم بالله[٥] لفظَ «اتصال وانفصال ، ومسامرة ، ومكالمة ، وأنه لا وجود في الحقيقة إلا وجود الله ، وأن وجود الكائنات خيال ووهم ، وهو

---

(١) في أ «معها هو الانقطاع وتنحيتها».

(٢) «تركيب» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «من».

(٤) في البقية عدا م «الصديق».

(٥) في م «بأنه لفظ» و «الله» ساقطة.

بمنزلة وجود الظل القائم بغيره» فاسمع منه ما يملأ الآذان[1] من حلول واتحاد وشطحات.

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها. وأرادوا بها معاني صحيحة في أنفسها. فغلط الغالطون في فهم[2] ما أرادوه. فنسبوهم إلىٰ إلحادهم وكفرهم. واتخذوا كلماتهم المتشابهة ترْساً لهم وجنة، حتىٰ قال قائلهم:

ومنك بَدَا حبٌّ بعزٍّ تمازجا بنا ووصالا كنتَ أنتَ وصَلتَه
ظَهرْتَ لمن أبقيتَ بعد فنائه فكان[3] بلا كون لأنك كُنتَه

فيسمع الغر «التمازج [والوصال» فيظن أنه][4] سبحانه نفس كون العبد، فلا يشك أن هذا هو غاية التحقيق، ونهاية الطريق فنرجع[5] إلىٰ شرح كلامه.

قوله: «يُدرِجُ حَظَّ العُبُودِيَّةِ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ».

المعنىٰ الصحيح، الذي يحمل عليه هذا الكلام: أن من تمكن في قلبه شهود الأسماء والصفات، وصفا له علمه وحاله: اندرج عمله جميعه

---

(١) في ج «الأذن».

(٢) «في فهم» ساقطة من أ، ب، غ وبعدها في ط «ونسبوهم» وم «فنسبوهم إلىٰ اتحادهم».

(٣) في ط «وكان».

(٤) في الأصل «التمازج والله سبحانه» والزيادة من الجميع وسقط «فيظن» من م، ج، ق.

(٥) في ط «ثم لنرجع».

وأضعافه وأضعاف أضعافه في حق ربه تعالىٰ ورآه في جنب حقه أقل من خردلة بالنسبة إلىٰ جبال الدنيا. فسقط[1] من قلبه اقتضاءُ حظّه من المجازاة عليه. لاحتقاره له، وقلته عنده، وصغره في عينه.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم[2] بن القاسم حدثنا صالح[3] عن أبي عمران[4] الجوني عن أبي الجلد[5] «أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود: يا داود أنذر عبادي الصديقين فلا يعجبن بأنفسهم، ولا يتكلن علىٰ أعمالهم. فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب، وأقيم عليه عدلي إلا عذبته، من غير أن أظلمه. وبشر عبادي الخطائين: أنه لا يتعاظمني ذنب: أن أغفره، وأتجاوز عنه»[6].

---

(١) في م «فسلط» وب «فيسقط».

(٢) أبو النضر هاشم بن القاسم بن مسلم بن مقسم الليثي البغدادي، خرساني الأصل ولقبه قيصر، سمع من شعبة جميع ما أملىٰ في بغداد، روىٰ له إسحاق بن راهويه وأبو بكر النضر وأحمد بن حنبل وغيرهم مات سنة ٢٠٧ وله ٧٣ سنة. انظر: تهذيب التهذيب ١١/ ١٨- ١٩، وتقريب التهذيب ٢/ ٣١٤.

(٣) أبو الفضل صالح بن بشير بن سلمة الطبراني روىٰ عن أبي النضر هاشم بن القاسم، ومكي بن إبراهيم وكثير بن هشام وهو صدوق. انظر: الجرح والتعديل ٤/ ٣٩٦.

(٤) أبو عمران عبدالملك بن حبيب الأزدي أو الكندي الجوني مشهور بكنيته رأىٰ عمران بن حصين وأنساً ـ رضي الله عنهم ـ وروىٰ عنه عون وشعبة. قال ابن حجر: من الرابعة، توفي سنة ٢٨هـ وقيل بعدها. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٥١٨، التاريخ الكبير ٥/ ٤١٠، الحلية ٢/ ٣٠٩ - ٣١٨، صفة الصفوة ٣/ ٢٦٤ و ٢٦٥.

(٥) أبو الجلد حيلان بن فروه قال عنه صاحب الحلية: «كان للكتب المنزلة حافظاً وبمواعظ الأنبياء وأحوالهم واعظاً...» الحلية ٦/ ٥٤-٥٩.

(٦) ذكره أحمد في الزهد ٩٢.

وقال [الإمام](١) أحمد : وحدثنا سيار(٢) حدثنا جعفر حدثنا ثابت البناني قال: «تعبد رجل سبعين سنة. وكان يقول في دعائه : رب اجزني بعملي. فمات فأدخل الجنة. فكان فيها سبعين عاماً. فلما فرغ وقته ، قيل له : اخرج ، فقد استوفيت عملك. فقلب أمره : أي شيء كان في الدنيا أوثق في نفسه؟ فلم يجد شيئا أوثق في نفسه من دعاء الله ، والرغبة إليه. فأقبل يقول في دعائه : رب سمعتك - وأنا في الدنيا - وأنت تقيل العثرات. فأقل اليوم عثرتي. فترك في الجنة»(٣).

وقال أحمد [بن حنبل](٤) : حدثنا هاشم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الجلد قال : «قال موسىٰ : إلهي ، كيف أشكرك ، وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازيها عملي كله؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : أن يا موسىٰ الآن شكرتني»(٥).

فهذا المعنىٰ الصحيح من اندراج حظ العبودية في حق الربوبية.

وله محمل آخر صحيح أيضا : وهو أن ذات العبد وصفاته وأفعاله وقواه

(١) في ط «وقال» والزيادة من الجميع عدا م ، ق ، ج.

(٢) أبو سلمة سيار بن حاتم العنزي وهو صدوق له أوهام من كبار التاسعة مات سنة ٢٠٠هـ أو قبلها. انظر : تقريب التهذيب ١/ ٣٤٣ ، والجرح والتعديل ٤/ ٢٥٧ ، وجعفر هو جعفر بن سليمان الضبعي ، وثابت البناني تقدمت ترجمته ص٢٧٦٤.

(٣) ذكره الإمام أحمد في الزهد ١٢١.

(٤) الزيادة من الجميع عدا ح ، ق.

(٥) الزهد للإمام أحمد ص٨٥.

وحركاته : كلها مفعولة للرب ، مملوكة له ، ليس يملك العبد منها شيئاً؛ بل هو محض ملك الله. فهو المالك لها ، المنعم علىٰ عبده بإعطائه إياها. فالمال ماله، والعبد عبده ، والخدمة مستحقة عليه بحق العبودية (1) وهي من فضل الله عليه(2). فالفضل كله لله ، ومن الله ، وبالله.

قوله : «وَيَعرِفُ نهَايَاتِ الخَبَرِ فِي بِدَايَاتِ العيَانِ» الخبر : متعلق الغيب «والعيان» متعلق الشهادة. وهو إدراك عين البصيرة لصحة الخبر ، وثبوت مخبره. ومراده بـ «بِدَايَاتِ العيَانِ» أوائل الكشف الحقيقي الذي يدخل منه إلىٰ مقام الفناء. ومقصوده : أن يرىٰ المشاهد (3) ما أخبر به الصادق بقلبه عياناً قال الله تعالىٰ : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ : ٦] ، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد : ١٩] فقابل من (4) رأىٰ بعين قلبه أن ما أنزل إلىٰ رسوله هو الحق بمن هو أعمىٰ لا يبصر ذلك وقد (5) قال النبي ﷺ في مقام الإحسان :

---

(١) في م «لحق العبودية» وفي ط «بحق الربوبية».

(٢) في أ زيادة "فالكل من فضل الله".

(٣) في البقية «الشاهد».

(٤) في البقية عدا م ، ج ، ق «فقد قال من - وفي ط أفمن - رأىٰ بعين قلبه أن ما أنزل إلىٰ رسوله هو الحق كمن هو أعمىٰ».

(٥) «وقد» ساقطة من البقية عدا ج ، م ، ق.

«أن تعبد الله كأنك تراه»(١)، ولا ريب أن تصديق الخبر واليقين به يقوىٰ(٢) حتىٰ يصير للقلب بمنزلة المشاهد بالعين. فصاحب هذا المقام: كأنه يرىٰ الله سبحانه فوق سماواته علىٰ عرشه، مطلعاً علىٰ عباده ناظراً إليهم، يسمع كلامهم. ويرىٰ ظواهرهم وبواطنهم.

وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي. ويكلم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويدبر أمر المملكة. وأملاكه صاعدة إليه بالأمر (٣)، نازلة من عنده به. وكأنه يشاهده، وهو يرضىٰ ويغضب. ويحب ويبغض، ويعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويثني علىٰ أوليائه بين ملائكته، ويذم أعداءه.

وكأنه(٤) يشاهد يديه الكريمتين، وقد قبضت إحداهما السموات السبع، والأخرىٰ الأرضين السبع. وقد طوىٰ السموات [السبع] (٥) بيده كما يطوىٰ السجل علىٰ أسطر الكتاب.

وكأنه يشاهده سبحانه وقد جاء لفصل القضاء بين عباده وأشرقت الأرض بنوره. ونادىٰ - وهو قائم علىٰ عرشه (٦)- بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٩٦٩.

(٢) في البقية عدا ج، م، ق «القلب حتىٰ يصير الغيب بمنزلة».

(٣) «إليه» ساقطة من م.

(٤) في ط زيادة «يشاهده».

(٥) الزيادة من البقية عدا ج، م، ق وبعدها في البقية «بيمينه».

(٦) في البقية عدا ج، م، ق: «وهو مستو علىٰ عرشه» وبعدها «بصوت» ساقطة من م.

من قرب : «وعزّتي وجلالي ، لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم»[(١)].

وكأنه [يسمع][(٢)] نداءه لآدم : «يا آدم ، قم. فابعث بعث النار»[(٣)] بإذنه الآن ، وكذلك[(٤)] نداؤه لأهل الموقف : ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥] «وماذا كنتم تعبدون؟»[(٥)].

وبالجملة[(٦)] فيشاهد بقلبه ربا عرفت به الرسل ، كما عرفت [به الكتب][(٧)] ، ودينا دعت إليه الرسل. وحقائق أخبرت بها الرسل. فقام شاهد ذلك بقلبه كما قام شاهد ما أخبر به أهل التواتر - وإن لم يره - من البلاد والوقائع. فهذا إيمانه يجري مجرىٰ العيان ، وإيمان غيره فمحض التقليد[(٨)].

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ١٠٤ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٣ وقال : رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة وقد ضعفه جماعة ، وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به وبقية رجاله ثقات.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) رواه البخاري في التفسير باب وترىٰ الناس سكارىٰ ٥/ ٢٤١ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب قوله : يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ١/ ٢٠١ (٢٢٢).

(٤) في م «وكان». »

(٥) الحديث «ما كنتم تعبدون» رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ : ﴿وجوه يومئذ ناظرة﴾ ٨/ ١٧٩ - ١٨٤ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ١/ ١٦٧-١٧١ (١٨٣).

(٦) في ج «فيشاهده».

(٧) الزيادة من الجميع عدا م.

(٨) في ط «تقليد العميان».

قوله : «وَيَطوِي خِسَّةَ التَّكَالِيف» ليت الشيخ عبر عن هذه اللفظة بغيرها. فوالله إنها لأقبح من شوكة في العين ، وشجىً في الحلق. وحاشا التكاليف أن توصف بخسة ، أو تلحقها خسة [١]. وإنما هي قرة عين ، وسرور قلب ، وحياة روح. صدر التكليف بها عن حكيم حميد. فهي أشرف ما وصل إلىٰ العبد من ربه ، وثوابه عليها أشرف ما أُعطاه العبد[٢].

نعم لو قال : «يطوىٰ ثقل التكاليف ويخفف أعباءها» ونحو ذلك [٣]. كان أولىٰ ولولا مقامه من الإيمان والمعرفة ، والقيام بالأوامر لكنا نسيء به الظن. والذي يحتمل أن يصرف كلامه إليه وجهان :

أحدهما : أن الصفاء - المذكور في هذه الدرجة - لما انطوت في حكمه الوسائط والأسباب. واندرج فيه حظ العبودية في حق الربوبية : انطوىٰ[٤] فيه رؤية كون العبادة تكليفاً. فإن رؤيتها تكليفاً خسة من الرائي؛ لأنه رآها بعين [أنفته] [٥] وقيامه بها ، ولم يرها بعين الحقيقة. فإنه[٦] لم يصل إلىٰ مقام «فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي» [٧] ولو وصل إلىٰ ذلك لرآها

---

(١) «خسة» ساقطة من ب.

(٢) في ط «الله للعبد» وفي أ ، ب ، غ ، ج «للعبد».

(٣) في ط زيادة «فلعله».

(٤) في ط «انطوت».

(٥) الزيادة من الجميع عدا ج ومعنىٰ أنف : استكبر أو كره. انظر المصباح المنير ٢٦.

(٦) في الأصل «فإن» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٧) يشير إلىٰ حديث فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وقد تقدم ص٢١١.

بعين الحقيقة، ولا خسة فيها هناك ألبتة. فإن نظره قد تعدىٰ من قيامه بها[1] إلىٰ قيامها بالقيوم الذي قام به كل شيء. فكان لها وجهان:

أحدهما: هي به خسيسة. وهو وجه قيامها بالعبد، وصدورها منه.

والثاني: هي به شريفة. وهو وجه كونها بالرب تعالىٰ [وأوليته][2] أمراً وتكويناً وإعانة. فالصفاء يطويها من ذلك الوجه خاصة.

والمعنىٰ الثاني، الذي يحتمله كلامه: أن يكون مراده: أن الصفاء يشهده عين الأزل، وسبق الرب تعالىٰ، وأوليته لكل شيء. فتنطوي في هذا المشهد أعماله. التي عملها ويراها خسيسة جدّاً بالنسبة إلىٰ عين الأزل. فكأنه قال: تنطوي أعماله، وتصير[3] - بالنسبة إلىٰ هذه العين - خسيسة جداً لا تذكر؛ بل تكون في عين الأزل هباء منثوراً، لا حاصل له[4].

فإن «الوقت» الذي هو ظرف التكليف متلاشىٰ[5] جدّاً بالنسبة إلىٰ الأزل. وهو وقت خسيس حقير، حتىٰ كأنه لا حاصل له. ولا نسبة له إلىٰ الأزل والأبد في مقدار الأعمال الواقعة فيه. وهي يسيرة بالنسبة إلىٰ مجموع ذلك

---

(١) «بها» ساقطة من أ، ب، ح، غ.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في أ، غ «وتكون».

(٤) في البقية عدا م «لها».

(٥) في البقية عدا م «يتلاشىٰ».

الوقت الذي هو يسير جداً. بالنسبة إلىٰ[1] مجموع الزمان الذي هو يسير جداً بالنسبة إلىٰ عين الأزل.

فهذا أقرب ما يحمل عليه كلامه مع قلقه. وقد اعتراه فيه سوء تعبير. وكأنه أطلق عليها الخسة لقلتها وخفتها وصغرها[2] بالنسبة إلىٰ عظمة المكلف[3] وما يستحقه. والله أعلم.

* * *

(١) سقط من أ من هنا إلىٰ قوله «عين الأزل».

(٢) «وصغرها» ساقطة من البقية عدا ج، ق، م.

(٣) في ط زيادة «بها».

فصل

[ومنها السرور]

منزلة السرور

قال صاحب المنازل :

«بَابُ السُّرُورِ ، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨]»[١].

تصدير [هذا][٢] الباب بهذه الآية في غاية الحسن. فإن الله تعالىٰ أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته. وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم ، محسن بر كان[٣] فرحه [بمن]أوصل ذلك إليه : أولىٰ وأحرىٰ.

تفسير قوله تعالى : ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾

ونذكر ما في هذه الآية من المعنىٰ. ثم نشرح كلام المصنف.

فقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والحسن ، وغيرهم : «فضل الله» الإسلام. و «رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أخص من «فضله» فإن فضله الخاص : عام علىٰ أهل الإسلام ، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض. فجعلهم مسلمين بفضله وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ

(١) منازل السائرين ١٠٤.

(٢) الزيادة من غ.

(٣) في ج «كان بر» وفي ط «يكون» والزيادة من الجميع.

تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص : ٨٦]، وقال أبو سعيد الخدري : «فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلنا من أهله»(١).

قلت : يريد بذلك. أن ههنا أمرين.

أحدهما : الفضل في نفسه.

والثاني : استعداد المحل(٢) لقبوله ، كالغيث يقع(٣) علىٰ الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل ، وقبول المحل له. والله أعلم.

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب ، ونيل المشتهىٰ. فيتولد من إدراكه حالة تسمىٰ الفرح والسرور. كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب. فإذا فقده : تولد من فقده حالة تسمىٰ الحزن والغم. وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٥٧] ولا شيء أحق أن يفرح(٤) به من فضلٍ ورحمةٍ تتضمن الموعظة ، وشفاء الصدور من أدوائها

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٥/ ٣٤٧ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٥٢٤ ، وانظر أيضاً ما تقدم في تفسير الطبري ١٥/ ١٠٥-١١٠ ، والدر المنثور ٤/ ٣٦٧ و ٣٦٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٨.

(٢) سقط من أ ، ب ، غ من هنا إلىٰ قوله «المحل له».

(٣) «يقع» ساقطة من م.

(٤) في ط «العبد به من فضل الله ورحمته التي».

بالهدىٰ[1] والرحمة. فأخبر سبحانه: أن ما آتىٰ عباده من الموعظة التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغيّ، والسفه وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوىٰ إحساسها [بها][2] عند المفارقة للدنيا. فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من الهدىٰ[3] الذي يتضمن ثلج الصدر[4] باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. و«الرحمة» التي تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير مما[5] يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به. ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو كطيف[6] خيال زار الصب في المنام. ثم[7] انقضىٰ المنام.

---

(١) في الأصل وم «والهدىٰ» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في م «هو الهدىٰ» وفي ط «من ربها الهدىٰ».

(٤) في البقية عدا ج، م، ق «الصدور».

(٥) في ط: «من كل ما».

(٦) في البقية عدا م «وهو طيف» وقد تقدم معناه ص٢٧٣٩.

(٧) «ثم» ساقطة من ج.

وولىٰ الطيف. وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء «الفرح» في القرآن علىٰ نوعين. مطلق ومقيد [1].

أقسام الفرح في القرآن

فالمطلق: جاء في الذم.كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص : ٧٦]، وقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود : ١٠].

والمقيد : نوعان أيضاً. مقيد بالدنيا ينسي صاحبه فضلَ الله ومنّته. فهو مذموم كقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤].

والثاني : مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضاً : فضل ورحمة بالسبب ، وفضل بالمسبب. فالأول : كقوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، والثاني : كقوله : ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٧٠].

فالفرح بالله ، ورسوله [2] ، وبالإيمان ، والسنة ، والعلم ، والقرآن : من أعلىٰ مقامات العارفين. قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ

---

(١) المطلق : هو المتناول لواحد لابعينه باعتباره حقيقة شاملة لجنسه. والمقيد : هو المتناول لمعين أو لغير معين موصوف بأمر زائد علىٰ الحقيقة الشاملة لجنسه. ابن قدامة وآثاره الأصولية القسم الثاني ص٢٥٩ و٢٦٠ ، وانظر المسودة في أصول الفقه ص١٣٠-١٣٢ ، والتعريفات ص٢٧٢و ٢٨٠.

(٢) في ط «وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن».

زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد : ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل علىٰ تعظيمه عند صاحبه، و محبته له، وإيثاره له علىٰ غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله(١): علىٰ قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لايُفْرِحه حصوله(٢) ، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

الفرق بين الفرح والاستبشار

والفرق بينه وبين الاستبشار : أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله ، والاستبشار : يكون به قبل حصوله. إذا كان علىٰ ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٧٠].

و «الفرح» صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالىٰ بأعلىٰ أنواعه وأكملها ، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرح(٣) الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها ، واليأس من حصولها.

والمقصود : أن «الفرح» أعلىٰ أنواع نعيم القلب(٤) ، ولذته وبهجته. والفرح

---

(١) في ط زيادة «له».

(٢) في ط زيادة «له».

(٣) في ط «فرحة».

(٤) «القلب» ساقطة من م.

والسرور نعيمه. والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضىٰ به. فإن الرضىٰ طمأنينة وسكون واستراحة [1]. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فرحٍ راض. وليس كل رَاضٍ[2] فَرِحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن ، والرضىٰ ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه ، إلا إذا[3] كان مع العجز عن الانتقام. [والله أعلم][4].

فصـل

قال صاحب المنازل :

«السُّرُورُ : اسمٌ لاستِبْشَارٍ جَامِعٍ. وَهُوَ أَصفَىٰ مِن الفَرَحِ؛ لأَنَّ الأَفرَاحَ رُبَّمَا شَابَهَا الأَحزَانُ. وَلِذَلِكَ نَزَلَ القُرآنُ بِاسمِهِ فِي أَفرَاحِ الدُّنيَا فِي مَوَاضِعَ ، وَوَرَدَ اسمُ السُّرُورِ فِي مَوضِعَينِ مِنَ القُرآنِ فِي حَالِ الآخِرَةِ» [5].

«السرور»[6] والمسرة : مصدر سره سروراً ومسرة. وكأن معنىٰ سَرَّه : أثَّرَ في

---

(١) في البقية عدا ج ، م ، ق : «وانشراح».

(٢) «ليس كل راض» ساقطة من ق.

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «إن».

(٤) الزيادة من البقية عدا ج ، م.

(٥) منازل السائرين ١٠٤ وفيه «في الموضعين في القرآن» و «اسم» ساقطة من البقيـة عدا م ، ج ، ق.

(٦) السـرور : في اللغة هـو الفرح ضـد الحزن. انظر : مختـار الصحاح ٢٩٥ ، والمفردات في غريب القرآن ٢٢٨.

أسارير وجهه. فإنه تبرق منه أسارير الوجه. كما قال شاعر العرب :

وإذا نظرتَ إلىٰ أسرَّةِ وجهِه برقتْ كبرق العارض المتهلِّل[1]

وهذا كما يقال «رأسه» إذا أصاب رأسه ، و «بطنه وظهره» إذا أصاب بطنه وظهره ، و«أمه» إذا أصاب أم[2] رأسه.

وأما الاستبشار : فهو استفعال من البشرىٰ. والبشارة : هي أول خبر صادق سار.

و«البشرىٰ» يراد بها أمران. أحدهما : بشارة المخبِر. والثاني : سرور المخبَر. قال الله تعالىٰ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٤] ، فسّرت «البشرىٰ» بهذا[3] وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت[4] وأبي الدرداء عن النبي ﷺ : «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترىٰ له»[5].

ويقصد به كما قال الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ٣٣١ : «ابتهاج في الباطن يظهر به تهلل ونظرة في الظاهر».

(١) هو لأبي كبير الهذلي. انظر شرح أشعار الهذليين ص١٠٧٤ ، وتاج العروس ١٨/ ٣٨٦ ، وقد ذكره المؤلف أيضاً في روضة المحبين ٢٤٢.

(٢) «أم» ساقطة من ق.

(٣) في غ : «وبهذا».

(٤) هو الصحابي الجليل عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر الخزرجي الأنصاري أحد نقباء الأنصار ، شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ، توفي ـ رضي الله عنه ـ بالرملة وقيل : ببيت المقدس سنة ٣٤هـ وعمره ٧٢ سنة. انظر : أسد الغابة ٣/ ٥٦-٥٧ (٢٧٨٩).

(٥) الحديث رواه ابن جرير في تفسيره بعدة طرق ١٥/ ١٢٤-١٣٥ ، ورواه أحمد في المسند

وقال ابن عباس[1] : «بشرىٰ الحياة الدنيا : هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرىٰ من الله ، وفي الآخرة : عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلىٰ الله ، تزف كما تزف العروس ، تبشر برضوان الله».

وقال الحسن : هي الجنة. واختاره الزجاج[2] والفراء[3]. وفسرت بشرىٰ الدنيا بالثناء الحسن ، يجري له علىٰ ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح.

فالثناء : من البشرىٰ. والرؤيا الصالحة من البشرىٰ[4] ، وتبشير الملائكة

٥/ ٣١٥ و ٦/ ٤٤٥ ، وابن ماجه في كتاب تعبير الرؤيا ، باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترىٰ له ٢/ ١٢٨٣ (٣٨٩٨) ، والترمذي وحسنه في كتاب الرؤيا باب قوله : ﴿ لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا ﴾ ٤/ ٥٣٤ و ٥٣٥ (٢٢٧٣ و ٢٢٧٥) ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني : الحديث بمجموع طرقه صحيح ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٣٩١ و ٣٩٢ (١٧٨٦).

(١) انظر : ما سيذكره المؤلف وزيادة في تفسير البغوي ٤/ ١٤٠ و ١٤١ ، والدر المنثور ٤/ ٣٧٤ - ٣٧٨ ، وتفسير الطبري ١٥/ ١٢٤-١٤٢.

(٢) الزجاج : هو إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج أبو إسحاق كان فاضلاً ديناً حسن الاعتقاد وله مصنفات منها كتاب معاني القرآن وغيره ، توفي سنة ٣١١ ، انظر : الأعلام ١/ ٣٣ والبداية والنهاية ١١/ ١٤٨ و ١٤٩ ، وانظر قوله في كتابه معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٦.

(٣) الفراء : أبو زكريا يحيىٰ ين زياد بن عبدالله بن منظور المشهور بالفراء الكوفي نزيل بغداد مولىٰ بني سعد ، شيخ النحاة واللغويين والقراء ، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو ، توفي في بغداد أو بطريق مكة سنة ٢٠٧هـ. انظر : الأعلام ٩/ ١٧٨ ، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٦١ ، وانظر قوله في كتابه معاني القرآن ١/ ٤٧١.

(٤) «من البشرىٰ» ساقطة من ق.

له[1] عند الموت من البشرىٰ. والجنة فأعظم[2] البشرىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين[3] بشرىٰ سارة «تؤثر فيه نضارة وبهجة»، وبشرىٰ محزنة تؤثر فيه بسوراً وعبوساً. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور، وإذا قيّدت كانت بحسب ما تقيد به.

قوله: «وَهُوَ أَصفَىٰ مِنَ الفَرَحِ» واحتج علىٰ ذلك «بِأَنَّ الأَفرَاحَ رُبَّمَا شَابَهَا أَحْزَانٌ» أي ربما مازجها ضدها. بخلاف السرور.

فيقال: والمسرات ربما شابها أنكاد وأحزان. فلا فرق.

قوله: «وَلِذَلِكَ نَزَلَ القُرآنُ بِاسمِهِ فِي أَفرَاحِ الدُّنيَا فِي مَوَاضِعَ».

يريد: أن الرب[4] تعالىٰ نسب الفرح إلىٰ أحوال الدنيا في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:

(١) «له» ساقطة من ج.

(٢) في البقية عدا ج، م، ق «والجنة من أعظم».

(٣) «نوعين» ساقطة من م.

(٤) في البقية عدا م «الله».

١٠]. فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة؛ بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة، أو مقارنة، أو لاحقة، ولا تتجرد الفرحة؛ بل لا بد من ترحة تقارنها، ولكن قد(١) تقوىٰ الفرحة علىٰ الحزن فينغمر حكمه [وألمه](٢) مع وجودها. وبالعكس.

فيقال: و(٣)نزل القرآن أيضا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وقوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، فلا فرق بينهما من هذا الوجه الذي ذكره.

قوله: «**وَوَرَدَ اسمُ السُّرُورِ فِي القُرآنِ فِي مَوضِعَينِ فِي حَالِ الآخِرَةِ**».

يريد بهما: قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، والموضع الثاني(٤): قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

فيقال: وورد السرور في أحوال الدنيا في موضع علىٰ وجه الذم. كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣].

---

(١) «قد» ساقطة من ق.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م و «مع» ساقطة من ق.

(٣) في ط زيادة «قد».

(٤) «الموضع الثاني» ساقطة من م.

فقد رأيت ورود كل واحد من «الفرح» و «السرور» في القرآن بالنسبة إلىٰ أحوال الدنيا وأحوال الآخرة. فلا يظهر ما ذكره من الترجيح.

بل قد يقال: الترجيح للفرح؛ لأن الرب تعالىٰ يوصف به، ويطلق عليه اسمه [1]، دون «السرور» فدل علىٰ أن معناه أكمل من معنىٰ السرور [2]، وأمر به في قوله: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس: ٥٨]، وأثنىٰ علىٰ السعداء به[3] في قوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، فعدل إلىٰ لفظ «السرور» لاتفاق رؤوس الآي. ولو أنه ترجم الباب بباب الفرح، لكان أشد مطابقة للآية التي استشهد بها. والأمر في ذلك قريب. فالمقصود أمر وراء ذلك[4].

درجات السرور

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ: عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: سُرُورُ

---

(١) أي من باب الإخبار لا أنه من الأسماء الحسنىٰ. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه بدائع الفوائد ١/ ١٦١: «ويجب أن يعلم هنا أمور أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالىٰ أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا». وقد يقصد ابن القيم بقوله: (ويطلق عليه اسمه) أي اسم الفرح علىٰ أنه صفة له.

(٢) سقط من ق من هنا إلىٰ قوله في الآية «وسروراً» وفي ط «وأمر الله».

(٣) «به» ساقطة من ب، ح، غ.

(٤) وهو شرح كلام صاحب المنازل. وبعدها في ق «فيقال».

ذَوقٍ ، ذهَبَ بِثَلاثَةِ أَحزَانٍ : حُزنٌ أَورَثَهُ خَوفُ الانِقطَاعِ ، وَحُزنٌ هَاجَتهُ ظُلمَةُ الجَهْلِ ، وَحُزنٌ بَعَثَتهُ وَحشَةُ التَّفَرُّقِ»[1].

لما كان «السرور» ضد الحزن[2] لا يجامعه : كان مذهبا له. ولما كان سببه : ذوق الشيء السَّار. فكلما[3] كان الذوق أتم : كان السرور به[4] أكمل. وهذا السرور[5] يذهب ثلاثة أحزان.

الحزن الأول : حزن أورثه خوف انقطاع. وهذا حزن المتخلفين عن ركب الجنة [6] ، ووفد المحبة.

فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب ، وهذا الوفد. وهم الذين ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾

---

(١) منازل السائرين ١٠٤ ، وفيه «وحزن أغشيته وحشة التفرق» وفي غ سقط «في هذا الباب» وفي ح «التفرقة» بدل «التفرق».

(٢) في ط زيادة «والحزن».

(٣) في أ ، ب ، ح ، غ «فإن كلما» وفي ط «فإنه كلما».

(٤) «به» ساقطة من م.

(٥) «السرور» ساقطة من ج.

(٦) في البقية عدا م «ركب المحبين» وفي ج «ركب المحبة». والركب : مأخوذ من الركوب أي ركوب الدابة وعرف براكب الإبل والركب من العشرة فما فوق. والوفد : من الوفادة والقدوم والمراد به من يقدم علىٰ الرئيس. انظر : المصباح المنير ص٢٣٦ و ٦٦٦ ، والمفردات في غريب القرآن ص٢٠٢ و ٥٢٨ ، ومختار الصحاح ص٢٥٤ و ٧٢٩ و ٧٣٠ ، وتفسير غريب الحديث ص١٠٦ و ٢٦٠.

[التوبة : ٤٦] ، فثبط عزائمهم وهممهم[1] : أن تسير إليه وإلىٰ جنَّتِه. وأمر قلوبهم أمراً كونيا قدريّاً. أن تقعد مع القاعدين المتخلفين[2]. فلو عاينت قلوبهم - حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد ، وقد غمرتها الهموم ، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم ، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها ، وقد غابت عنها المسرات[3]. ونابت عنها الأحزان - لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم. وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذوق التصديق[4] طعم الوعد - الذي وعد به علىٰ لسان الرسول - فلا يعقله ظن. ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية - كما تقدم - فيباشر [قلبه][5] حقيقة قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا

---

(١) في أ ، ب «عن المسير».

(٢) في ط زيادة «عن السعي إلىٰ محابه»

(٣) في الأصل «وبانت» والمثبت كما في البقية لموافقة الضمير بعدها.

(٤) في ج «فيذيق التصديق» وفي البقية عدا م ، ق «فيذيق الصديق» وكلامه هنا هو من كلام الهروي كما أشار إليه بقوله الآتي «كما تقدم» وقد تقدم ذلك ص٢٩٥٣-٢٩٥٤ في منزلة الذوق ونص كلامه في منزلة الذوق قال «فصل : قال : وهو علىٰ ثلاث درجات : الدرجة الأولىٰ : ذوق التصديق طعم العدة : فلا يعقله ظن ، ولا يقطعه أمل ، ولا تعوقه أمنية» وقال في أثناء شرحه لهذا الكلام : وكأن الشيخ يقول : الذائق بالتصديق طعم الوعد لا يعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب ، ويحبس عزيمته عن الجد فيه.

(٥) الزيادة من الجميع.

حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص : ٦١] وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر : ٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٣] وأمثال هذه الآيات.

قوله : «**وَحُزنٌ هَاجَتهُ ظُلمَةُ الجَهْلِ**». **هذا الحزن الثاني**[1] : **الذي يذهب به**[2] سرور الذوق وهو حزن ظلمة الجهل.

ظلمة الجهل ونور العلم

والجهل نوعان جهل علم ومعرفة. وهو مراد الشيخ ههنا ، وجهل عمل وغي. وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب. فكما[3] أن العلم يوجب نوراً وأنساً. فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة. وقد سمىٰ الله تعالىٰ «العلم» الذي بعث به رسوله نوراً، وهدىٰ وحياةً. وضده[4]: ظلمةً وموتاً وضلالاً. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ

---

(١) سقط من أ ، ب ، غ ، ح من هنا إلىٰ قوله «والجهل نوعان».

(٢) «به» ساقطة من ط.

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق «كما».

(٤) في ط زيادة «وسمىٰ».

كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال : ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء : ١٧٤] ، وقال : ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ : ٥٢] ، فجعله «روحاً» لما يحصل به (١) من حياة القلوب والأرواح. ونوراً لما يحصل به من الهدىٰ والرشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن : ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور : ٣٥].

ومثل حال من فقد هذا(٢) النور : بمن هو في ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده

---

(١) سقط من م من هنا إلىٰ قوله : «من الهدىٰ».

(٢) «هذا» ساقطة من ق ، وفي ق ، ح ، ج ، ب «النور كمن».

لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نـور.

الحزن الثالث : حزن بعثته وحشة التفرق. التفرق [١] هو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن ممُضٌّ [٢] علىٰ فوات جمعية القلب علىٰ الله ولذتها [٣] ونعيمها. فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل ، لم يكن لها نسبة إلىٰ لذة جمعية القلب [٤] علىٰ الله ، وفرحه به ، وأنسه بقربه ، وشوقه إلىٰ لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك. ولله در القائل [٥] :

أيا صاحبي أما ترىٰ نارَهم ... فقـال : تريـني ما لا أرىٰ
سقاك الغرامُ. ولم يسـقني ... فأبصرتُ مالم أكن مبصرا [٦]

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة ، ونكد التشتّت ، وغبار

---

(١) «التفرق» الثانية ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) «ممض» ساقطة من م ، وفي ج «محض» ومعنىٰ ممض : أي متعب موجع ، انظر : مختار الصحاح ٦٢٦ ، والمصباح المنير ٥٧٥.

(٣) في البقية عدا م «ولذاتها».

(٤) في ط «قلبه».

(٥) «در» ساقطة من م ودر: أصله من در اللبن أي كثر ، ويقال في الذم لا در دره أي لا كثر خيره، ويقال في المدح لله دره أي من باب الدعاء له والثناء عليه بقوله أو عمله. انظر : مختار الصحاح ٢٠٢ ، والمصباح المنير ١٩١ ، والمفردات في غريب القرآن ١٦٦ .

(٦) انظر : ديوان الشريف الرضي ١/ ٥١٦.

الشعث[١] لكفىٰ به عقوبة ، فكيف؟ وأقل عقوبته : أن يبتلىٰ[٢] بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم. فتصير أوقاته - التي هي مادة حياته لا قيمة لها - مستغرقة في قضاء حوائجهم ، ونيل أغراضهم. وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال علىٰ الله ، والجمعية عليه ، والأنس به[٣]. ثم آثر علىٰ ذلك سواه. ورضي بطريقة بني جنسه ، وما هم عليه. ومن له أدنىٰ حياة في قلبه[٤]ونور. يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق. كما تستغيث الحامل عند ولادتها.

ففي القلب شعث ، لا يلمه إلا الإقبال علىٰ الله. وفيه وحشة ، لايزيلها إلا الأنس به[٥] في خلوته.

وفيه حزن : لا يذهبه إلا السرور بمعرفته. وصدق معاملته.

وفيه قلق : لا يسكِّنه إلا الاجتماع عليه ، والفرار منه إليه.

وفيه نيران حسرات : لا يطفئها إلا الرضىٰ بأمره ونهيه ، وقضائه ومعانقة الصبر علىٰ ذلك إلىٰ وقت لقائه.

---

(١) الشعث : هو الانتشار ، والأشعث مغبر الرأس ، انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٧٨ ، وتفسير غريب الحديث ١٣٣ ، ومختار الصحاح ٣٣٩.

(٢) في م ، غ «يبلىٰ» و م «تبلىٰ».

(٣) في أ ، غ ، ب «والأنس به» ساقطة وكتب عنها «الأفضل».

(٤) في ب زيادة «هي مادة حياته» وهي غير مناسبة هنا ، وقد تقدمت قبل قليل. وبعدها في ط : «ونور فإنه يستغيث».

(٥) «به» ساقطة من ح.

وفيه طلب شديد : لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة : لا يسدُّها إلا محبته ، والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا بما (١) فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً (٢).

فالتفرق يوقع وحشة الحجاب. وألمه أشد من ألم العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين : ١٥ ، ١٦] ، فاجتمع عليهم عذاب الحجاب. وعذاب الجحيم.

و«الذوق» الذي يذهب وحشة هذا التفرق : هو الذوق الذي ذكره الشيخ في قوله : «ذَوقُ الإرَادَةِ طعمَ الأُنسِ. فَلاَ يَعلَقُ (٣) بِهِ شَاغِلٌ ، وَلاَ يُفسِدُه عَارِضٌ ، وَلاَ تُكَدِّرُه تَفرِقَةٌ».

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : سُرُورُ شُهُودٍ. كَشفَ حِجَابَ العِلمِ ، وَفَكَّ رِقَّ التَّكلِيفِ ، وَنَفىٰ صِغَارَ الاختِيَارِ» (٤).

يريد : أن العلم حجاب علىٰ المعرفة. فشهود كشف ذلك الحجاب ، حتىٰ

(١) في البقية «وما».

(٢) «أبداً» ساقطة من ج ، ق.

(٣) في ق «يتعلق» وبعدها «به» ساقطة من ب. وقوله هذا تقدم في الدرجة الثانية من منزلة الذوق، ص٢٩٥١ وانظر منازل السائرين ٩٩.

(٤) منازل السائرين ١٠٤ وفيه «التكلف» و «حجاب» ساقطة من أ.

يفضي القلب إلىٰ المعرفة : يوجب سروراً.

و«العلم» عند هذه الطائفة : استدلال. و «المعرفة» ضرورية. فالعلم : له الخبر ، والمعرفة : لها العيان. فالعلم عندهم حجاب علىٰ المعرفة ، وإن كان لا يوصل إليها إلا بالعلم. فالعلم[1] كالصوان لما تحته ، هو حجاب. عليه ولا يوصل إليه إلا منه.

ومثال هذا : أنك إذا رأيت في حومة[2] ثلج ثقبا خالياً. استدللت به علىٰ أن تحته حيوانا يتنفس ، فهذا علم. فإذا حفرته ، فشاهدت[3] الحيوان. فهذه معرفة.

قوله : «وَفَكَّ رِقَّ التَّكلِيفِ» عبارة قلقة ، غير سديدة. و«رق التكليف» لا يُفك [4] إلىٰ الممات. وكلما تقدم [5] منزلا شاهد من رق تكليفه مالم يكن شاهده [6] قبل. فرق التكليف : أمر لازم للمكلف ما بقي في هذا العالم.

---

(١) في ط «والعلم لها كالصوان لما تحته» و «فالعلم» ساقطة من ق ، و «كالصوان» ساقطة من م وفي البقية «إلا بالعلم إليه كالصوان لما تحته».

والصوان : مأخوذ من الصيانة ، ويطلق أيضاً علىٰ نوع من الحجارة السود التي إذا مستها النار فقع تفقيعاً وتشقق. انظر : لسان العرب ١٣/ ٢٥٠ و ٢٥١ ، ومختار الصحاح ٣٧٤.

(٢) في م ، ب «في كومة» والحومة : أي الكثير والعظيم. انظر : لسان العرب ١٢/ ١٦٢ ، ومختار الصحاح ١٦٤.

(٣) في البقية عدا ق ، م ، ج «وشاهدت».

(٤) في أ ، ب ، غ ، ج «لا ينفك» وبعدها «إلىٰ» ساقطة من أ.

(٥) في ط زيادة «العبد».

(٦) في ط زيادة «من».

والذي يوجه(١) عليه كلامه : أن السرور بالذوق - الذي أشار إليه - يعتق العبد من رق التكليف ، بحيث لا يعده تكليفاً؛ بل تبقىٰ الطاعات غذاء القلب(٢) ، وسروراً له ، وقرة عين في حقِّه ، ونعيماً لروحه. يلتذ(٣) بها ، ويتنعم بملابستها أعظم مما يتنعم بملابسة الطعام والشراب ، واللذات الجسمانية. فإن اللذات الروحانية القلبية أقوىٰ وأتم من اللذات الجسمانية. فلا يجد في أوراد العبادة كلفة. ولا تصير تكليفاً في حقِّه. فإن ما يفعله المحب الصادق ، ويأتي به من خدمة(٤) محبوبه : هو أَسَرُّ شيء إليه. وألَذُّه عنده. ولا يرىٰ ذلك تكليفاً ، لما في التكليف : من إلزام المكلف بما فيه كلفة ومشقة عليه. والله سبحانه إنما سمىٰ أوامره ونواهيه : «وصية ، وعهداً ، وموعظة ، ورحمة» ، ولم يطلق عليها اسم «التكليف» إلا في جانب النفي كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ووقوع «الوسع» بعد الاستثناء من «التكليف» لا يوجب وقوع الاسم عليه مطلقاً. فهذا أقرب ما يُؤَوَّلُ به كلامه.

علىٰ أن للملحد ههنا مجالاً. وهو أن هذه الحال : إنما هي لأقوام انتقلت(٥)

---

(١) في البقية عدا أ ، م «يتوجه».

(٢) في البقية «غذاء لقلبه».

(٣) في ط «يتلذذ».

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق «في خدمته».

(٥) في ب «انقلبت».

عباداتهم من ظواهرهم إلىٰ بواطنهم. وانتقل حكم أورادهم إلىٰ وارداتهم. فاستغنوا بالواردات عن الأوراد ، وبالحقائق عن الرسوم ، وبالمعاني عن الصور. فخلصوا من رق التكليف المختص بالعلم ، وقاموا بالحقيقة التي يقتضيها الحكم(١). وهكذا الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل.

قوله : «وَنَفَىٰ صِغَارَ الاخْتِيَارِ» يريد به(٢) : أن العبد متىٰ كان مربوطاً باختياراته ، محبوساً في سجن إراداته ، فهو في(٣) ذل وصغار. فإذا وصل إلىٰ هذه الدرجة : انتفىٰ عنه صغار الاختيار ، وبقي من جملة الأحرار.

فيا لها(٤) عبودية أوجبت حرية ، وحرية كملت عبودية. فيصير واقفا مع ما يختار الله له ، لا مع ما يختاره هو لنفسه ؛ بل يصير مع الله بمنزلة من لا اختيار له البتة. فمن كان محجوبا بالعلم عن المعرفة : نازعته(٥) اختياراته ، ونازعها. فهو معها في ذل وصغار. ومتىٰ أفضىٰ إلىٰ المعرفة ، وكشف له عن حجابها : شهد(٦) البلاء نعيماً ، والمنع عطاء ، والذل عزاً ، والفقر غنىٰ. فانقاد باطنه

---

(١) يقصد الشيخ بهذا الكلام ما قاله العفيف التلمساني في شرحه لكتاب المنازل ، وانظر قوله في شرحه ٢/ ٤٦٩.

(٢) «به» ساقطة من م.

(٣) «في» ساقطة من البقية عدا ب ، ط.

(٤) في ط «زيادة» من «وفي ق بعد» عبودية» «وجبت حرية كملت».

(٥) في ب «ونازعته».

(٦) في البقية عدا م ، ج ، ق «شاهد».

لأحكام المعرفة، وظاهره لأحكام العلم.

علىٰ أن للملحد ههنا مجالاً، قد جال فيه هو وطائفته. فقال: هذا يوجب الانقياد لأحكام المعرفة (١)، والراحة من أحكام العلم. وقد قيل: إن العالم يسعطك الخل (٢) والخردل. والعارف ينشقك المسك والعنبر.

قال: ومعنىٰ هذا: أنك مع العالم في تعب. ومع العارف في راحة؛ لأن العارف يبسط عذر العوالم والخلائق. والعالم يلوم. وقد قيل: من نظر إلىٰ الناس بعين العلم مقتهم. ومن نظرهم (٣) بعين الحقيقة عذرهم (٤).

فانظر ما تضمنه هذا الكلام الذي ملمسه ناعم. وسمُّه قاتل (٥)، من الانحلال عن الدين. والراحة من أحكام العبودية (٦). وعذر اليهود والنصارىٰ، وعباد الأوثان، والظلمة والفجرة، وأن أحكام الأمر والنهي - الواردين علىٰ ألسن الرسل - للقلوب بمنزلة من يسعط (٧) الخل والخردل. وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة

---

(١) في ط زيادة «والتخلص».

(٢) الخل: ماء حمض من عصير العنب وغيره. والخردل: نبات معروف ويطلق علىٰ اللحم المقطع قطعاً صغيرة واللحم الوافر. انظر: لسان العرب ١١/ ٢٠٣ و ٢١١، والقانون في الطب لابن سيناء ص٣١٦ و ٣٢٣ و ٣٢٤.

(٣) في ط «نظر إليهم».

(٤) انظر قول التلمساني هذا في شرحه المنازل ٢/ ٤٧٠.

(٥) في ط «وسمه زعاف قاتل من الانحلال عن الدين ودعوىٰ الراحة».

(٦) في البقية عدا ج، م، ق «حكم العبودية» وبعدها في ط «والتماس الأعذار لليهود».

(٧) «من» ساقطة من ط.

للخلائق ، والوقوف معها ، والانقياد لحكمها : بمنزلة تنشيق المسك والعنبر.

فليهن الكفار والفجار والفساق : انتشاق هذا المسك والعنبر ، إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها.

ويا رحمة الأبرار(١) المحكِّمين لما جاء به الرسول من كثرة سعوطهم بالخل والخردل.

فإن قوله : هذا يجوز وهذا لا يجوز. وهذا حلال، وهذا حرام. وهذا يرضي الله، وهذا يسخط الله(٢) : خل وخردل ، عند هؤلاء الملاحدة. وإلا فالحقيقة تشهدك الأمر بخلاف ذلك. ولذلك إذا نظرت ـ عندهم ـ(٣) إلىٰ العالم بعين الحقيقة : عذرت الجميع. فتعذر من لامه(٤) الله ورسوله أعظم الملامة.

ويا لله العجب! إذا كانوا معذورين في الحقيقة ، فكيف يعذب الله سبحانه المعذور. ويذيقه أشد العذاب؟ وهلا(٥) كان الغني الرحيم أولىٰ بعذره من هؤلاء؟

نعم(٦). العالم يلوم بأمر الله. والعارف يرحم بقدر الله. ولا يتنافىٰ عنده اللوم

---

(١) في ط «للأبرار».

(٢) في البقية «يسخطه».

(٣) «عندهم» ساقطة من ق وبعدها في ط «إلىٰ الخلق».

(٤) في ط «من توعده الله ورسوله أعظم الوعيد وتهدده أعظم التهديد».

(٥) في الأصل «وهذا» والمثبت كما في البقية لمناسبته للتعجب قبله.

(٦) في ط «العالم الناصح يلوم بأمر الله والعارف الصادق يرحم».

والرحمة. ومن رحمته : عقوبة من أمر الله بعقوبته. فذلك رحمة له وللأمة. وترك عقوبته زيادة في أذاه وأذىٰ غيره. وأنت مع العالم في تعب يعقب كل الراحة ، ومع عارف هؤلاء [1] : في راحة تعقب كل تعب وألم ، كما ذكر الإمام[2] أحمد في كتاب الزهد له [3] : أن المسيح كان يقول : «علىٰ قدر ما تتعبون ههنا تستريحون هنالك. وعلىٰ قدر ما تستريحون ههنا تتبعون هنالك»[4]. فالعالم يحذرك ، ويمنعك الوقوف حتىٰ تبلغ المأمن. وعارف الملاحدة يريحك[5] من كد السير ومئونة السفر ، حتىٰ تؤخذ في الطريق.

فصل

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : سُرُورُ سَمَاعِ الإِجَابَةِ . وَهُوَ سُرُورٌ يَمْحُو آثَارَ الوَحْشَةِ ، وَيَقْرَعُ بَابَ المُشَاهَدَةِ ، وَيُضحِكُ الرُّوحَ »[6].

---

(١) في ط «هؤلاء الملاحدة : في راحة وهمية : تعقب كل تعب وخيبة وألم».

(٢) «الإمام» ساقطة من م.

(٣) «له» ساقطة من البقية عدا ج.

(٤) «هنالك» ساقطة من ق ولم أجد ما ذكر المؤلف في كتاب الزهد للإمام أحمد ١١٩ ، عن عيسىٰ - عليه السلام - بهذا النص وفيه : «أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وأن مرارة في الدنيا حلاوة في الآخرة...». وما ذكره المؤلف أورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٠٦ قال : «أخرج أحمد عن وهب بن منبه قال : قال عيسىٰ للحواريين : بقدر ما تنصبون ههنا...».

(٥) في ط «يوهمك الراحة» بدل «يريحك» وبعدها في البقية عدا م «المسير».

(٦) منازل السائرين ص١٠٤ و ١٠٥.

قيد الشيخ السماع : بكونه «سماع إجابة» فإنه السماع المنتفع به ، لا مجرد سماع الإدراك. فإنه مشترك بين المجيب[1] والمعرض. وبه تقوم الحجة. وينقطع العذر. ولهذا قال أصحابه[2] ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣ ، والنساء : ٤٦] وقال النبي ﷺ لليهودي - الذي سأله عن أمور من الغيب - «**ينفعك إن حدثتك؟ قال : أسمع بأذني**»[3].

وأما سماع الإجابة : ففي مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٧] أي مستجيبون لهم . وفي [مثل][4] قوله : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة : ٤١، ٤٢] أي : مستجيبون له. وهو المراد. [وهذا المراد][5] بقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي أجاب -حَمْدَ-[6] من حمده. وهو السمع الذي نفاه الله عمن لم يرد به خيراً كقوله [7] : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لجعلهم[8] يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنىٰ

---

(١) في أ، غ «المحب».

(٢) في ط زيادة «الله عن».

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الحيض باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما ١/ ٢٥٢ (٣١٥).

(٤) الزيادة من م.

(٥) الزيادة من البقية عدا م ، ج ،ق.

(٦) في ط زيادة «الله».

(٧) في ط «في قوله».

(٨) في م «وجعلهم» ثم سقط منها إلىٰ قوله «مستجيبون لما سمعوه».

لأفهمهم. وعلىٰ هذا : فالمعنىٰ[1] لأسمع قلوبهم. فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق : أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيرا لأفهمهم ، وجعلهم مستجيبين[2] لما سمعوه وفهموه.

والمقصود : أن «سماع الإجابة»[3] هو سماع انقياد القلب ، والروح ، والجوارح ، لما سمعته[4].

قوله : «وَهُوَ يَمحُو آثَارَ الوَحشَةِ» يعني : يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام. فإنه علىٰ قدر ذلك[5] : تكون الوحشة. وزوالها إنما يكون بالانقياد التام.

وأيضاً : فإنه يبقىٰ علىٰ أهل الدرجة الثانية[6] آثار. وهم أهل كشف حجاب العلم. فإنه إذا كشف[7] عنهم حجاب العلم ، وأفضوا إلىٰ المعرفة : بقيت

---

(١) في ط زيادة «يكون».

(٢) في ط «ولجعلهم يستجيبون».

(٣) في الأصل كرر هنا من قوله «أن كلا الأمرين إلىٰ قوله لما سمعوه وفهموه».

(٤) في ط زيادة «الأذنان» وانظر في تفسير الآية زاد المسير ٣/ ٢٥٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٦٢ و ٤٦٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ و ٣٤٤.

(٥) في ط «علىٰ قدر فقد» وفي البقية عدا م ، ج «علىٰ فقد ذلك».

(٦) في ج «علىٰ الدرجة الثالثة».

(٧) في ط «فإنهم إذا انكشف» و «العلم» ساقطة من ج.

عليهم بقايا من آثار ذلك الحجاب. فإذا حصلوا في هذه الدرجة زالت(١) عنهم تلك البقايا.

وقد يوجه كلامه على معنىً آخر ، وهو : أنه إذا دعا ربه سبحانه. فسمع ربه دعاءه سماع(٢) إجابة ، وأعطاه ما سأله ، على حسب مراده ومطلبه ، أو أعطاه خيراً منه : حصل له(٣) بذلك سرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد. فإن للعطاء والإجابة سروراً وأنساً وحلاوة وللمنع وحشة ومرارة. فإذا تكرر منه الدعاء ، وتكرر من ربه سماع إجابته(٤) لدعائه : محا عنه آثار الوحشة. وأبدله بها أنساً وحلاوة.

قوله : «وَيَقرَعُ(٥) بَابَ المُشَاهَدَةِ».

يريد - والله أعلم - مشاهدة حضرة الجمع التي يشمر إليها السالكون عنده. وإلا فمشاهدة الفضل والمنة : قد سبقت في الدرجتين الأولتين. وانتقل المشاهد لذلك إلى ما هو أعلى منه. وهو مشاهدة الحضرة المذكورة.

قوله : « وَيُضحِكُ الرُّوحَ » يعني : أن سماع الإجابة يضحك الروح ،

---

(١) في ط زيادة «عنهم».

(٢) في ب «سمع».

(٣) «له» ساقطة من م.

(٤) في ط «وإجابة».

(٥) في الأصل «ويعرج» وهو خطأ والمثبت كما في البقية.

لسرورها بما حصل لها من ذلك السماع. وإنما خص «الروح» بالضحك : ليخرج به سروراً يضحك النفس والعقل والقلب. فإن ذلك يكون قبل رفع الحجاب الذي أشار إليه ، إذ محله النفس. فإذا ارتفع و محا الشهود رسم النفس بالكلية : كان الإدراك حينئذ بالروح [١]. فيضحكها بالسرور.

وهذا مبني علىٰ قواعد القوم في الفرق بين أحكام «النفس» و «القلب» و«الروح»[٢].

و « الفتح» عندهم نوعان : فتح قلبي ، وفتح روحي. فالفتح القلبي : يجمعه علىٰ الله ويلمّ شعثه. والفتح الروحي : يغنيه عنه ، ويجرده منه [٣] ، وبالله التوفيق.

* * *

(١) في ح «فيضحك السرور الروح» وط «فيضحكها بالسرور».

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٣/ ٤-٦.

(٣) في أ ، ب ، ع «فيه» وانظر معاني الفتح في معجم اصطلاحات الصوفية ١٥٢ و ١٥٣. ومنه كل ما يفتح علىٰ العبد بعد ما كان مغلقاً عليه.

فصل

[ومنها منزلة السر]

قال صاحب المنازل :

«(بَابُ السِّرِّ)(١). قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود : ٣١] أَصحَابُ السِّرِّ : هُم الأَخفِيَاءُ ، الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِم الخَبرُ» (٢).

أما استشهاده بالآية ، فوجهه : [أن](٣) أتباع الرسل ، الذين صدقوهم ، وآثروا الله والدار الآخرة علىٰ قومهم وأصحابهم(٤) : أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته ، والإيمان به ، خفي علىٰ أعداء الرسل ، فنظروا إلىٰ ظواهرهم. وعَمُوا عن بواطنهم. فازدروهم واحتقروهم(٥). وقالوا للرسول : «اطرد هؤلاء

---

(١) السر : في اللغة : ما يكتم وهو خلاف الإعلان. انظر : المصباح المنير ٢٧٣ ، ويقصدون به كما قال الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ٣٣٣ قال : وحقيقته في هذا القسم : سر الولاية الذاتية عند الفناء عن رسوم الصفات البشرية.

وفي التعريفات للجرجاني ١٥٦ قال : السر : لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة.

(٢) منازل السائرين ١٠٥.

(٣) الزيادة من الجميع عدا ح.

(٤) في ط زيادة «قد».

(٥) في ب «واستحقروهم» وبعدها في غ «وقالوا للرسل».

عنك حتى نأتيك ونسمع منك»[1] وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، فقال نوح لقومه : ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود : ٣١] ، قال الزجاج : المعنى إن كنتم تزعمون أنهم[2] اتبعوني في بادي الرأي وظاهره ، فليس عليَّ أن أطلع على ما في نفوسهم[3]. فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره ، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله[4]. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية : أن الله أعلم بما في[5] أنفسهم ، إذ أهلهم لقبول دينه وتوحيده ، وتصديق رسله. فالله سبحانه حكيم. يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام : ٥٣] ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٧/ ٩٣ ، ٩٢ والطبري في تفسيره ١١/ ٣٧٤ و ٣٧٥ ، وأبونعيم في الحلية ١/ ٣٤٦ و ٤/ ١٨٠ ، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢١٧ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣ و ٢٤ رواه أحمد والطبراني وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح غير مردوس وهو ثقة. وحسنه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢) في ط زيادة «إنما».

(٣) في ط «أنفسهم» وسقط من ح من هنا إلى قوله «إلى الله».

(٤) انظر : تفسير هذه الآية في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٠٣ ، تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٢ و ٣٠٣ وزاد المسير ٤/ ٧٦ ، وانظر قول الزجاج في كتابه معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٩.

(٥) في البقية عدا م ، ق ، ج «يعلم ما في أنفسهم».

فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدىٰ والحق ، وحرمه[١] رؤساء الكفار ، وأهل العزة منهم والثروة. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا علىٰ عطاء الآخرة. فأخبر سبحانه : أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسرٍّ عنده[٢] : من معرفة قدر النعمة ، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر. فلا يؤهل[٣] لهذا العطاء.

قوله : «**أَصحَابُ السِّرِّ : هُم الأَخفِيَاءُ الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِم الخَبَرُ**».

قد يريد به : حديث سعد بن أبي وقاص[٤]. حيث قال له ابنه : أنت ههنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فقال إني : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[٥].

وقد يريد به : قوله ﷺ : «**رب أشعث أغبر ، مدفوع بالأبواب لا يؤبه له ، لو**

---

(١) في ح «وحرمت».

(٢) في ج ، ح «السر».

(٣) في ط زيادة «كل أحد».

(٤) هو الصحابي الجليل سعد – واسم أبي وقاص – مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة وأمه حمنة ، وهو ثالث من أسلم وأول من رمىٰ بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتاً ، توفي سنة ٥٦هـ.

انظر : الإصابة ٣/ ٨٣ و ٨٤ (٣١٨٧) ، وصفة الصفوة ١/ ٣٥٦-٣٦١ ، وحلية الأولياء ١/ ٩٢ – ٩٥.

(٥) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقاق الباب الأول ٣/ ٢٢٧٣ (٢٩٦٥).

أقسم علىٰ الله لأبره»[1]، وقوله في الحديث الآخر - وقد مر به رجل - فقال «ما تقولون في هذا؟ فقالوا: هذا حري، إن شفع: أن يشفع، وإن خطب: أن ينكح. وإن قال: أن يسمع لقوله. ثم مر به آخر، فقال ما تقولون في هذا؟ فقالوا: هذا حري. إن شفع أن لا يشفع، وإن خطب: أن لا ينكح. وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال النبي ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»[2].

فصـل

قال: «وَهُم ثَلاَثُ طَبَقَاتٍ: الطَّبَقَةُ الأُولىٰ: طَائِفَةٌ عَلَتْ هِمَمُهُم، وَصَفَتْ قُصُودُهم. وَصَحَّ سُلُوكُهم. وَلَمْ يُوقَفْ لَهُم عَلَىٰ رَسمٍ. وَلَمْ يُنسَبُوا إِلَىٰ اسمٍ. وَلَمْ تُشر إِلَيهِم بِالأَصَابع. أُولَئِكَ ذَخَائِرُ الله حَيثُ كَانُوا»[3].

ذكر لهم ثلاث صفات ثبوتية. وثلاثاً سلبية.

الأولىٰ: «عُلُوّ هِمَمِهِم» وعلو الهمة: أن[4] لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء[5]. ولا ترضىٰ بغيره بدلاً منه. ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الضعفاء والخاملين ١/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب فضل الفقر ٧/ ١٧٨ وفيه تقديم «وإن خطب» علىٰ «إن شفع» وجملة.

(٣) منازل السائرين ١٠٥، وفيه «علىٰ ثلاث درجات الطبقة الأولىٰ». وفي البقية عدا م «وهم علىٰ ثلاث».

(٤) في ج «بأن».

(٥) في ط زيادة «سواه».

به ، والفرح والسرور والابتهاج به ، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية. فالهمة العالية علىٰ الهمم : كالطائر العالي علىٰ الطيور. لا يرضىٰ بمساقطهم. ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم. فإن «الهمة» كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها. وكلما نزلت[1] قصدتها الآفات من كل مكان. فإن الآفات قواطع وجواذب ، وهي لا تعلو إلىٰ المكان العالي فتجتذب منه. وإنما تجتذب من المكان السافل. فعلو همة المرء : عنوان فلاحه. وسفول همته : عنوان حرمانه.

العلامة الثانية : «صَفَاءُ القَصْدِ» وهو خلاصة من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده. فصفاء القصد : تجريده لطلب المقصود له لا لغيره. فهاتان آفتان في القصد. إحداهما : أن لا يتجرد لمطلوبه. الثانية : أن يطلبه لغيره لا لذاته.

وصفاء القصد : يراد به العزم الجازم علىٰ اقتحام بحر الفناء عند الشيخ ومن وافقه علىٰ أن الفناء غاية.

ويراد به : خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالىٰ؛ بل يصير القصد مجردا لمراده الديني الأمري. وهذه طريقة من يجعل الغاية : هي الفناء عن إرادة السِّوىٰ. وعلامته : اندراج حظ العبد[2] في حق الرب تعالىٰ. بحيث يصير حظّه هو نفس حق ربه عليه. ولا يخفىٰ علىٰ[3] البصير الصادق علوّ هذه

---

(١) في أ ، ب ، غ ، ح «قربت».

(٢) في أ ، ب ، ح ، غ «العبودية».

(٣) «علىٰ» ساقطة من ق.

المنزلة ، وفضلها علىٰ منزلة «الفناء» وبالله التوفيق.

العلامة الثالثة : «صِحَّةُ السُّلُوكِ» وهو سلامته من الآفات والعوائق والقواطع. وهو إنما يصح بثلاثة أشياء :

أحدها : أن يكون علىٰ الدرب الأعظم (١) ، النبوي المحمدي ، لا علىٰ الجواد الوضعية ، والرسوم الاصطلاحية. وإن زخرفوا لها القول ، ودققوا لها الإشارة ، وحسنوا لها العبارة. فتلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

الثاني : أن لا يجيب علىٰ الطريق داعي البطالة والوقوف والدَّعة.

الثالث : أن يكون في سلوكه ناظرا إلىٰ المقصود. وقد تقدم بيان ذلك(٢).

فبهذه الثلاثة يصح السلوك. والعبارة الجامعة لها : أن يكون واحدا لواحد ، في طريق. واحد فلا ينقسم طلبه ولا مطلوبه. ولا يتلون طريقه(٣).

وأما الثلاثة السلبية التي ذكرها. فأولها : قوله : «**وَلَمْ يُوقَفْ لَهُمْ عَلَىٰ رَسْمٍ**»

يريد : أنهم قد انمحت رسومهم. فلم يبق منها ما يقف عليه واقف.

وهذا كلام يحتاج إلىٰ شرح. فإن «الرسم» الظاهر المعاين : لا يمحي ما دام

---

(١) في ط زيادة «الدرب» وبعدها «النبوي» ساقطة من م.

(٢) انظر : ٣/ ١٤١-١٤٨ «أول منزلة الصفاء» وانظر أيضاً ١/ ١٣١ و ٢/ ١٠٧ و ١٠٨ و٢٧٩ و٣٧٣ و ٣/ ٩٨.

(٣) في البقية عدا ق ، م ، ج «ولا يتلون مطلوبه» وانظر إيضاح ذلك في الإحالة السابقة.

في هذا العالم. ولا يريدون[1] محو هذا الرسم. وهم مختلفون فيما يعبر بالرسم عنه.

فطائفة: قالت: الرسم ما سوىٰ الحق سبحانه. ومحوه: هو ذهاب الوقوف معه، والنظر إليه، والرضىٰ به، والتعلق به.

ومنهم: من يريد بالرسوم[2]: الظواهر والعلامات.

وهذا أقرب إلىٰ وضع اللغة. فإن رسم الدار: هو الأثر الباقي منها الذي[3] يدل عليها. ولهذا يسمون الفقهاء وأهل الأثر ونحوهم «علماء الرسوم»؛ لأنهم - عندهم -[4] لم يصلوا إلىٰ الحقائق؛ بل اشتغلوا عن معرفتها بالظواهر والأدلة. فهذه الطائفة التي أشار إليها: لا رسم لهم[5] يقفون عنده؛ بل قد اشتغلوا بالحقائق والمعاني عن الرسوم والظواهر.

وللملحد ههنا مجال. إذ عنده: أن العبادات والأوامر والأوراد كلها رسوم. وأن العباد: وقفوا علىٰ الرسوم. ووقفوا هم علىٰ الحقائق[6].

ولعمر الله إنها لرسوم إلهية أتت علىٰ أيدي رسله. ورسم لهم: أن

---

(١) في البقية عدا م، ج، ق «ولا يرون».

(٢) في البقية عدا م «بالرسم» وقد تقدم التعريف بالرسم ص٢٥٦٣.

(٣) «الذي» ساقطة من ج، ق، ح.

(٤) «عندهم» ساقطة من ق، ج.

(٥) في غ، ح «لها».

(٦) انظر شرح التلمساني للمنازل ٢/ ٤٧٤ و ٤٧٥.

لا يتعدوها، ولا يقصروا عنها. فالرسل قعدوا علىٰ هذه الرسوم يدعون الخلق إليها. ويمنعونهم(١) من تجاوزها، ليصلوا إلىٰ حقائقها ومقاصدها. فعطلت الملاحدة تلك الرسوم. وقالوا: إنما المراد الحقائق. ففاتتهم الرسوم والحقائق معاً، ووصلوا لكن إلىٰ الحقائق الإلحادية الكفرية ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤]، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

فأحسن ما حمل عليه قول الشيخ ـ رحمه الله ـ «وَلَمَ يَقِفُوا مَعَ رَسْمٍ»: أنهم لم ينقطعوا بشيء سوىٰ الله عنه. فكل ما قطع عن الله لم يقفوا معه. وما أوصلهم إلىٰ الله لم يفارقوه، وكان وقوفهم(٢) معه.

وقد يريد بقوله: «لَمَ يُوقَفْ لهُم عَلَىٰ رَسمٍ» أنهم – لعلو هممهم – سبقوا الناس في السير. فلم يقفوا معهم. فهم المفردون السابقون. فلسبقهم لم يوقف لهم علىٰ أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخر عنهم أين سلكوا؟ والمشمر بعدهم: قد يرىٰ آثار نيرانهم علىٰ بعد عظيم، كما يرىٰ الكوكب(٣)، ويستخبر من(٤) رآهم [وأين رآهم؟] فحاله كما قيل:

---

(١) ق، ج «ويمنعون».

(٢) في ق «وقوفه».

(٣) في غ «الكواكب».

(٤) في ط «ممن رآهم: أين رآهم» والزيادة من الجميع.

أسائل عنكم كل غاد ورائح وأومي إلىٰ أوطانكم وأسلم(١)

العلامة الثانية : قوله : «وَلَمَ يُنسَبُوا إِلَىٰ اسمٍ» أي لم يشتهروا باسم [يعرفون به](٢) عند الناس من الأسماء التي صارت أعلاما لأهل الطريق.

وأيضاً ، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد ، يجري عليهم اسمه. فيعرفون به دون غيره من الأعمال. فإن هذا آفة في العبودية (٣). وهي عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة : فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها. فإنه مجيب لداعيها علىٰ اختلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم. فلا يتقيد برسم ولا إشارة ولا اسم ولا زيٍّ(٤) ولا طريق وضعي اصطلاحي؛ بل إن سئل عن شيخه؟ قال : الرسول. وعن طريقه؟ قال : الاتباع.

وعن خرقته(٥)؟ قال : لباس التقوىٰ. وعن مذهبه؟ قال : تحكيم السنة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢ ، والكهف : ٢٨] وعن رباطه و[عن](٦) خانكاته؟ قال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

---

(١) القائل ابن القيم انظر متن القصيدتين النونية والميمية ٢٥٣.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) سقط من م من هنا إلىٰ قوله «المطلقة» وسقط من ح «وهي عبودية».

(٤) في ط «ولا بزي».

(٥) في ج ، م «حرفته» وخرقة التصوف : هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إراداته ويتوب علىٰ يده. معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٨.

(٦) الزيادة من أ ، غ ، ج. ومعنىٰ رباطه : من الرباط وأصله مأخوذ من المرابطة واللزوم والمواظبة

﴿ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النور : ٣٦] وعن نسبه؟ قال :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم [١]

وعن مأكله ومشربه؟ قال : «ما لك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها. ترد الماء. وترعىٰ الشجر ، حتىٰ تلقىٰ ربها» [٢].

واحَسرتَاه تقضَّىٰ العمر وانصرَمَتْ ساعاتهُ بين ذلِّ العجزِ والكَسَلِ

والقومُ قد أخذوا دربَ النَّجَاةِ وقد سَارُوا إلىٰ المطلبِ الأَعلىٰ علىٰ مَهَلِ

العلامة الثالثة : قوله : «**وَلَمَ يُشِر إلَيهِم بِالأَصَابِعِ**» [٣] يريد : أنهم - لخفائهم عن الناس - لم يعرفوا بينهم ، حتىٰ يشيروا إليهم بالأصابع. وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ : «**لكل عامل شِرة ولكل شرة فترة. فإن**

علىٰ الأمر. والمقصود به هنا : دار وبيت الصوفية المتشابهون بالقصد والحال. انظر : الخطط المقريزية ٢/ ٤٢٧.

والخانكاة : ويقال الخانقاة ، بالقاف والكاف كلمة أعجمية : دار الصوفية وتجمع علىٰ خوانق وقد يعبر عنها بالرباط. وقد يفرق بينهما فيكون الرباط مكان عبادة الفقراء دون كفالة أحد ، والخانقاة : أن يتكفل برعايتها شخص وقد يكون هو الذي أنشأها. انظر : منادمة الأطلال ٢٧٢ ، والخطط ٢/ ٤١٤.

(١) القائل هو نهار بن توسعه . انظر شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٦٣ ، والشعر والشعراء ٢٧١.

(٢) استعار لهذا المعنىٰ حديث ضالة الإبل ، وهو في البخاري في كتاب اللقطة ٣/ ٩٣ ، ٩٢ وفي مسلم ٢/ ١٣٤٦ (١٧٢٢).

(٣) سقط من م إلىٰ قوله «وفي الحديث».

صاحبها سدد وقارب فارجوا له. وإن أشير إليه بالأصابع : فلا تعدوه شيئاً» فسئل راوي الحديث ما[1] معنىٰ «أشير إليه بالأصابع»؟ فقال «هو المبتدع في دينه. الفاجر في دنياه».

وهذا موضع يحتاج إلىٰ تفصيل. فإن الناس إنما يشيرون بالأصابع إلىٰ من يأتيهم بشيء. فبعضهم يعرفه وبعضهم لا يعرفه. فإذا مر : أشار من يعرفه إلىٰ من لا يعرفه. هذا فلان. وهذا قد يكون ذمّاً له[2]، وقد يكون مدحاً. فمن كان معروفا باجتهاد، وعبادة وزهد، وانقطاع عن الخلق، ثم انحطّ عن ذلك، وعاد إلىٰ حال أهل الدنيا والشهوات وإذا[3] مر بالناس أشاروا إليه، وقالوا : هذا كان[4] علىٰ طريق كذا وكذا، [ثم][5] فتن وانقلب. فهو[6] الذي قال في الحديث : «فلا تعدوه شيئاً» لأنه انقلب علىٰ عقبيه. ورجع بعد الشرة إلىٰ أسوأ فترة.

وقد يكون الرجل منهمكا في الدنيا ولذاتها. ثم يوقظه الله لآخرته. فيترك ما هو فيه، ويقبل علىٰ شأنه. فإذا مر أشار الناس إليه بالأصابع. وقالوا : هذا

---

(١) في ط «عن» والحديث تقدم تخريجه بلفظ : «إن لكل عامل» ص٣٠٢١ .

(٢) «له» ساقطة من ج، ق.

(٣) في البقية عدا م، ج، ق «فإذا».

(٤) «كان» ساقطة من ح، ب.

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) في البقية «فهذا» وفي ط بعد «الحديث» زيادة «عنه».

كان[1] مفتوناً. ثم تداركه الله. فهذا كانت شرته في المعاصي. ثم صارت في الطاعات. والأول: كانت شرته[2] في الطاعات. ثم فترت وعادت إلىٰ البدعة والفجور.

وبالجملة: فالإشارة بالأصابع إلىٰ الرجل: علامة خير وشر، ومورد هلكه[3] ونجاة. والله الموفق.

قوله: «**أُولَئِكَ ذَخَائِرُ اللهِ حَيثُ كَانُوا**» ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويدخره[4] لمهماته، ولا يبذله لكل أحد. وكذلك ذخيرة الرجل: ما يدخرهُ لحوائجه ومهماته. وهؤلاء - لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار إليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلىٰ اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ أو زيٍّ - كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة. وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات. فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيّد بها[5]. ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة. هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب

---

(١) «كان» ساقطة من ح، ب.

(٢) «شرته» ساقطة من ح، ج، ب، م.

(٣) في البقية عدا م، ج، ق «هلاكه ونجاته».

(٤) في ب، ط «يذخره» بالذال وكذلك الثانية بعدها.

(٥) في ح، ج «والتعبد».

والإرادة. والمسير[١] إلىٰ الله. وهم - إلا الواحد بعد الواحد - مقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود[٢].

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال[٣] : مالا اسم له سوىٰ[٤] «السنة». يعني : أن أهل السنة ليس لهم اسم ينتسبون[٥] إليه سواها.

فمن الناس : من يتقيد بلباس لا يلبس غيره. أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره ، أو مشية لا يمشي غيرها ، أو زيّ[٦] وهيئة لا يخرج عنها ، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها. وإن كانت أعلىٰ منها ، أو شيخ معين لا يلتفت إلىٰ غيره. وإن كان أقرب إلىٰ الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون ، وعن الظفر بالمطلب الأعلىٰ مصدودون [عنه][٧]. قد قيّدتْهُم العوائد والرسوم ، والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة[٨]. فأصبحوا عنها بمعزل ، ومنزلتهم منها أبعد منزل. فترىٰ أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة ، وتفريغ

---

(١) في البقية «والسير».

(٢) «القيود» ساقطة من غ.

(٣) «فقال» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٤) في الأصل «عن» والمثبت من بقية النسخ وهو الأقرب للمعنىٰ.

(٥) في البقية عدا ق ، م ، ج «ينسبون» وبعدها «سواها» ساقطة من م.

(٦) في ط «أو بزي هيئة لا يخرج عنهما».

(٧) في البقية عدا ج ، م ، ق «عن الظفر بالمطلوب» والزيادة بعدها من الجميع عدا م.

(٨) في البقية عدا ج ، م «فأضحوا».

القلب. ويعد العلم قاطعاً له عن الطريق. [فإذا ذكر له الجهاد كان أشد نفوراً عنه](١)، فإذا ذكر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: عدَّ ذلك فضولاً وشراً. وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك: أخرجوه من بينهم. وعدّوه غيراً عليهم. فهؤلاء أبعد الناس عن الله. وإن كانوا أكثر إشارة إليه. [والله أعلم](٢).

فصل

قال: «الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ: طَائِفَةٌ أَشَارُوا عَن مَنزِلٍ، وَهُمْ فِي غَيرِهِ. وَوَرَّوا بِأَمرٍ، وَهُم لِغَيرِه. وَنَادَوا عَلَىٰ شَأْنٍ، وَهُمْ عَلَىٰ غَيرِهِ. فَهُم بَينَ غَيرةٍ عَلَيهِم تَستُرُهُم، وَأَدَبٍ فِيهِم يَصُونُهُم، وَظَرفٍ يُهَذِّبُهُم»(٣).

أهل هذه الطبقة استسروا اختياراً وإرادة لذلك، صيانة لأحوالهم، وكمالا في تمكنهم(٤). فمقاماتهم عالية، لا ترمقها العيون، ولا تخالجها(٥) الظنون، يشيرون إلىٰ ما يعرفه المخاطب من مقامات المريدين السالكين، وبدايات السلوك. ويخفون ما مكنهم فيه الحق سبحانه وتعالىٰ، من أحوال المحبة

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ط.

(٢) في ج «أكثرهم» وبعدها «إليه» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق والزيادة من الجميع.

(٣) منازل السائرين ص١٠٥ و١٠٦ وفيه «وهم علىٰ غيرة بين غيرة عليهم» وفي م بعدها سقط إلىٰ «هذه الطبقة».

(٤) في م «في أعمالهم ومقاماتهم عالية».

(٥) في البقية عدا م، ج، ق «تخالطها».

ومواجيدها، وآثار المعرفة وتوحيدها. فهذه هي «التورية» التي ذكرها.

فكأنهم يظهرون للمخاطب: أنهم من أهل البدايات. وهم في أعلىٰ المقامات. يتكلمون معهم في البداية والإرادة(١) والسلوك، ومقامهم فوق ذلك. وهم محِقُّون في الحالين. لكنهم يسترون أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

وبالجملة: فهم مع الناس بظواهرهم. يخاطبونهم(٢) علىٰ قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل إليه عقولهُم فينكر(٣) عليهم. فيحسبهم المخاطب مثله. فالناس عندهم. وليسوا هم عند أحد.

قوله: «أَشَارُوا إِلَىٰ مَنزِلٍ، وَهُم فِي غَيرِهِ» يعني: يشيرون إلىٰ منزل «التوبة، والمحاسبة» وهم في منزل «المحبة، والوجد، والذوق» ونحوها.

وقد يريد: أنهم يشيرون إلىٰ أنهم عامة، وهم خاصة الخاصة. وإلىٰ أنهم جهال، وهم العارفون بالله. وأنهم مسيئون، وهم المحسنون.

وعلىٰ هذا: فيكونون من الطائفة الملامتية(٤)، الذين يظهرون ما لا يمدحون عليه. ويسرون ما يحمدهم الله عليه. عكس المرائين المنافقين. وهؤلاء طائفة أهل الملامة

(١) في ج «البدايات والإرادات».

(٢) سقط من م إلىٰ قوله «بما لا تصل».

(٣) في ط، ح «فينكرون» وبعد «عليهم» في ج «فيجيبهم».

(٤) في أ، ب، ح، ج «الملامية» وقد تقدم التعريف بهم ص٢٦٢٥.

معروفة. لهم طريق[1] معروفة. تسمىٰ «طريق أهل الملامة» وتسمىٰ[2] «الطائفة الملامتية» ويزعمون: أنهم يحتملون ملام الناس لهم علىٰ ما يظهرونه من الأعمال. ليخلص لهم ما يبطنونه من الأحوال. ويحتجون بقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهم عاملون علىٰ إسقاط جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس. لما رأوا المغترين - المغتر بهم - من المنتسبين إلىٰ السلوك، يعملون علىٰ تربية[3] نفوسهم، وتوفير جاههم في قلوب الناس[4]. فعاكسهم هؤلاء، وأظهروا بطالة وأبطنوا أعمالاً. وكتموا أحوالهم جهدهم. وينشدون في هذه الحال[5]:

فليتك تحلوُ والحياةُ مريرة ... وليتك ترضىٰ والأنامُ غِضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ
[إذا صحَّ منك الودُّ يا غاية المنىٰ ... فكل الذي فوق التراب ترابُ][6]

(١) «لهم طريق معروفة تسمىٰ» ساقطة من ق، وفي البقية عدا ج «طريقة» في الموضعين.

(٢) في الجميع «وهم» بدل «تسمىٰ».

(٣) في ط «تزكية».

(٤) في غ «فعاكسوهم».

(٥) في أ، ب، غ، م «هذا».

(٦) الزيادة من البقية عدا ج، م، ق والقائل هو أبو فراس. انظر: ديوانه ٢٧.

قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق[1] حدثنا سفيان[2] عن منصور[3] عن هلال[4] بن يساف. قال : كان عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول : «إذا كان صوم أحدكم. فليدهن لحيته ، وليمسح شفتيه ، حتىٰ يخرج إلىٰ الناس ، فيقولون : ليس بصائم»[5].

ولهذا قال بعضهم : التصوف ترك الدعاوي ، وكتمان المعاني. وسئل الحارث بن أسد[6] عن علامات الصادق؟ فقال : أن لا يبالي أن يخرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس علىٰ اليسير

---

(١) هو عبدالرزاق بن همام بن نافع أبو بكر مولىٰ حمير اليماني ، سمع الثوري وابن جريج ، وهو ثقة حافظ عمي في آخر عمره فتغير وكان يتشيع توفي سنة ٢١١هـ. انظر : تقريب التهذيب ١/ ٥٠٥ ، وتهذيب التهذيب ٦/ ٢٧٨ - ٢٨١ ، والتاريخ الكبير ٦/ ١٣٠.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري نسبة إلىٰ ثور أحد أجداده ولد سنة ٩٧هـ وهو ثقة حجة ثبت توفي بالبصرة سنة ١٦١. انظر : الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٦/ ٣٧١ - ٣٧٤ ، والبداية والنهاية ١٠/ ١٣٤.

(٣) أبو عتاب منصور بن المعتمر السلمي الكوفي سمع زيد بن وهب وأبا وائل ، وروىٰ عنه سليمان التميمي والثوري توفي سنة ١٣٢هـ وكان من أثبت الناس. انظر : التاريخ الكبير ٧/ ٣٤٦ ، وتقريب التهذيب ٢/ ٢٧٦ و ٢٧٧.

(٤) هو هلال بن يساف ويقال ابن أساف الأشجعي الكوفي أدرك علياً وروىٰ عن الحسن بن علي وأبي مسعود الأنصاري وغيرهم. قال ابن معين : ثقة وقال العجلي كوفي تابعي ثقة. انظر : تهذيب التهذيب ١١/ ٧٦ و ٧٧ والتاريخ الكبير ٨/ ٢٠٢.

(٥) الزهد للإمام أحمد ٧٤.

(٦) هو الحارث المحاسبي وقد تقدمت ترجمته وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢١٣.

من عمله.

وهذا يحمد في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل، ويقبح من آخر[١]؛ فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهارُه، ولا نقص عليه فيه. ولا ذم من الله ورسوله، ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنىٰ وكتم [الفقر][٢] والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض. وأظهر النعمة وكتم البليّة. فهذا كله من كنوز البر[٣]. وله في القلب تأثير عجيب. يعرفه من ذاقه. وشكىٰ رجل إلىٰ الأحنف بن قيس[٤]، شكاة فقال: يا ابن أخي، لقد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة، فما أخبرت به أحداً.

وأما الحال التي يذم فيها: فأن يظهر مالا يجوز إظهاره. ليسيء الناس به[٥] الظن، فلا يعظمونه. كما يذكر عن بعضهم: أنه دخل الحمام، ثم خرج وسرق ثياب رجل، ومشىٰ رويداً. حتىٰ أدركوه. فأخذوها منه وسبّوه. فهذا حرام لا يحل تعاطيه. ويقبح أيضا من المتبوع المقتدىٰ به ذلك. بل وما هو دونه؛ لأنه

(١) في ج «ويحسن في حال ويقبح في أخرىٰ».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في البقية عدا ج، م، ق «الستر».

(٤) هو الضحاك وقيل صخر بن حصين التميمي السعدي، والأحنف لقب له. أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، مات سنة ٧٢هـ وقيل ٦٧هـ وقيل غير ذلك. انظر: البداية والنهاية ٨/ ٣٢٦ و ٣٢٧، وصفة الصفوة ٣/ ١٩٨ - ٢٠٠، وانظر: قوله في صفة الصفوة ٣/ ٢٠٠.

(٥) «الناس» ساقطة من ج وفي البقية عدا م، ق «به الناس».

يغر الناس، ويوقعهم في التأسي بما يظهره [١].

فالملامتية نوعان: ممدوحون أبرار، ومذمومون جهال. وإن كانوا في خفارة صدقهم.

فالأول [٢]: الذين لا يبالون بلوم اللوّام في ذات الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فأحب الناس إلىٰ الله: من لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان عمر بن الخطاب لا تأخذه في الله لومة لائم.

والنوع الثاني المذموم: هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعا من محرم [٣] أو مكروه. ليكتم بذلك حاله. وقد قال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» [٤].

---

(١) في ط زيادة «من سوء» وبعدها في ج «فالملامية».

(٢) في ط «فالأولون» وانظر قوله فيما سيأتي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٢٠.

(٣) في ب «ومكروه».

(٤) حديث: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قالوا وكيف يذل نفسه. قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيقه**» أخرجه الترمذي في الفتن باب (٦٧) ٤/ ٥٢٣ (٢٢٥٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في الفتن باب قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم**﴾ ٢/ ١٣٣٢ (٤٠١٦)، وأحمد ٥/ ٤٠٥ والحديث حسنه الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٧٢ (٦١٣)، وصحيح ابن ماجه ٢/ ٣٦٩ (٣٢٤٣).

فلنرجع إلىٰ شرح كلام الشيخ.

فقوله [1] : «أَشَارُوا إِلَىٰ مَنزِلٍ. وَهُم فِي غَيرِهِ» مثاله : أنهم يتكلمون في «التوبة والمحاسبة» ، وهم في منزل «المحبة والفناء».

وقوله : «وَوَرَّوا بِأَمرٍ. وَهُم لِغَيرِهِ» التورية أن يذكر لفظا يفهم به المخاطب معنىٰ ، وهو يريد غيره. مثاله : [أن][2] يقول أحدهم : أنا غني. فيوهم المخاطب[3] أنه غني بالشيء. ومراده : غني بالله عنه. كما قال [4] :

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنىٰ العالي عن الشيء لا به

ويقول[5] : ما صح لي مقام التوبة بعد. ويريد : ما صحت لي التوبة عن رؤية التوبة. ونحو ذلك.

قوله : «وَنَادَوا عَلَىٰ شَأنٍ. وَهُم عَلَىٰ غَيرِهِ» أي عظموا شأنا من شئون القوم ، فيدعوا [6] الناس إليه. وهم في أعلىٰ منه. وهذا قريب مما قبله.

---

(١) في البقية عدا ج «قوله».

(٢) الزيادة من الجميع عدا ج ، ق.

(٣) في ط زيادة «له».

(٤) في البقية عدا م «قيل» وانظر هذا البيت في مفتاح دار السعادة ١/ ٤٢٩ ، وانظر : كلام المؤلف وشرحه لهذا البيت في طريق الهجرتين ١/ ٦١ و ٨١.

(٥) في ط زيادة «أن» وفي ج «ويقولون».

(٦) في البقية «ودعوا».

قوله : «فَهُم بَينَ غَيرَةٍ عَلَيهِم[١] تَستُرُهُم» أي يغار الحق سبحانه عليهم ، فيسترهم عن الخلق. ويغارون علىٰ أحوالهم ومقاماتهم. فيستترون[٢] عن رؤية الخلق لها. كما قيل :

أَلِف الخمول صيانة وتسترا فكأنما تعريفه أن ينكرا
وكأنه كَلِف الفؤاد بنفسه فحمته غيرته عليها أن ترىٰ

قوله : «وَأَدَبٍ فِيهِم يَصُونُهُم ، بِهَذَا يَتِمُّ أَمرُهُم».

وهو أن يقوم بهم أدب يصونهم عن ظن السوء بهم ، ويصونهم عن دناءة الأخلاق والأعمال. فأدبهم صوان علىٰ أحوالهم[٣] ، فهمته العلية ترتفع به. وأدبه يرسو به إلىٰ التراب. كما قيل :

أبلج سهل الأخلاق ممتنع يبرزه الدهر وهو يحتجب
إذا ترقت به عزائمه إلىٰ الثريا رسا به الأدب

فأدب المريد والسالك : صوان[٤] له. وتاج علىٰ رأسه.

قوله : «وَظَرفٍ يُهَذِّبُهُم» التهذيب : هو التأديب والتصفية. و «الظرف» في هذه الطائفة : أحلىٰ من كل حلو. وأزين من كل زين. فما قرن شيء إلىٰ شيء

---

(١) «عليهم» ساقطة من غ ، ح ، ب.

(٢) في ط «فيسترون أحوالهم عن رؤية».

(٣) «فأدبهم صوان علىٰ أحوالهم» ساقطة من ق.

(٤) في ج ، م ، ق «صون» والتي قبلها في ج أيضاً «صون».

أحسن من ظرف إلىٰ صدق وإخلاص. وسر(١) مع الله وجمعية عليه. فإن أكثر من عني بهذا الشأن تضيق نفسه وأخلاقه عن سوىٰ ما هو بصدده. فتثقل وطأته علىٰأهله وجليسه. ويضن عليه ببشره(٢)، والتبسّط إليه، ولين الجانب له. ولعمر الله إنه لمعذور، وإن لم يكن في ذلك بمشكور. فإن الخلق كلهم أغيار. إلا من أعانك علىٰ شأنك، وساعدك علىٰ مطلوبك.

فإذا تمكن العبد في حاله - وصار له إقباله علىٰ الله(٣)، وجمعيته عليه ملكة ومقاماً راسخاً - أنس بالخلق وأنسوا به. وانبسط إليهم وحملهم علىٰ ضلعهم(٤) وبطء سيرهم. فعكفت القلوب علىٰ محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الثقيل(٥) ولو بلغ في الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب. ويدفع عن صاحبه من الشر(٦). ويسهل له ما توعر علىٰ غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء. وما ثقل أحد علىٰ قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك(٧). وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترىٰ

---

(١) في أ، ب، غ، ح «وبر».

(٢) في أ، ب، غ، ح «ببشرته».

(٣) في البقية عدا ج، م، ق، غ «وصار له إقبال علىٰ الله وجمعيته عليه».

(٤) الضلع: الميل والثقل. انظر: مختار الصحاح ٣٨٢، والمصباح المنير ٣٦٣.

(٥) في البقية عدا م «الكثيف».

(٦) في ج «البشر» وم «الشرور» وبعدها في ب «ويسهل عليه ما يعسر».

(٧) في ب «هنالك».

الصادق : فيها من أحلىٰ الناس، وألطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع. وصار روحانيّاً سمائياً ، بعد أن كان حيوانيّاً أرضيّاً. فتراه أكرم الناس عشرة ، وألينهم عريكة(١) ، وألطفهم قلباً وروحاً. وهذه خاصية(٢) المحبة. فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة : أن لا يظهر أحدهم علىٰ جليسه بحال ولا مقام. ولا يواجهه إذا لقيه بالحال؛ بل بلين الجانب ، وخفض الجناح ، وطلاقة الوجه. فيفرش له بساط الأنس ويجلسه عليه. فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة. وسئل محمد بن علي القصاب(٣) - أستاذ الجنيد - عن التصوف؟ فقال : أخلاق كريمة. ظهرت في زمان كريم من رجل كريم(٤) مع قوم كرام.

وبالجملة : فهذه الطريق لا تنافي اللطف والظرف(٥) ، والصلف - بل هي أصلف شيء ولكن ههنا دقيقة قاطعة. وهي الاسترسال مع هذه الأمور. فإنها

---

(١) العريكة : الطبيعة ، يقال فلان لين العريكة إذا كان سلساً مطاوعاً منقاداً قليل الخلاف والنفور. انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٢٢ ، ومختار الصحاح ٤٢٨.

(٢) في ط «خاصة».

(٣) هو أبو جعفر محمد بن علي القصاب أستاذ الجنيد ، توفي سنة ٢٧٥هـ. انظر : تاريخ بغداد ٣/ ٦٢ ، واللمع ٤٥.

(٤) سقط من ط «من رجل كريم» وانظر قوله في اللمع ٤٥ ، والرسالة القشيرية ٢٨٠.

(٥) الظرف : البراعة وذكاء القلب أو الحسن والأدب أو الكياسة وهي ضد الحمق. والصلف : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك. انظر : مختار الصحاح ص٣٦٧ و ٣٦٨ و ٤٠٣ و ٥٨٥ ، والمصباح المنير ص٣٨٤ و ٥٤٥.

أقطع شيء [1] للمريد والسالك. فمن استرسل معها قطعته. ومن عاداها بالكلية وعرت عليه طريق سلوكه. ومن استعان بها أراحته في طريقه. وأراحت غيره [2] به. وبالله التوفيق.

فصل

وأهل هذه الطبقة، أثقل شيء عليهم: البحث عن ما جرايات [3] الناس، وطلب تعرف أحوالهم. وأثقل ما علىٰ قلوبهم: سماعها. فهم مشغولون عنها بشأنهم. فإذا اشتغلوا بمالا يعنيهم منها [4] فاتهم ما هو أعظم عناية لهم. وإذا عد [5] غيرهم الاشتغال بذلك، وسماعه من باب الظرف والأدب، وستر الأحوال: كان هذا من خِدَع النفوس وتلبيسها. فإنه يحط الهمم العالية من أَوْجِها إلىٰ حضيضها. وربما يعز عليه أن يحصل همة أخرىٰ يسعد بها إلىٰ موضعه الذي كان فيه. فأهل الهمم والفطن الثاقبة [6] لا يفتحون من آذانهم

---

(١) «شيء» ساقطة من ق.

(٢) في ط «أو أراحت غيره» وبعدها «به» ساقطة من ح.

(٣) كذا في الأصل وق وفي ج عن ما أجريات» وفي م «عن أمور» وفي البقية «عما جريات» والجرايات جمع جريرة «وهي الجناية والذنب.انظر النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٥٨، وتفسير غريب الحديث ٥٤.

(٤) «منها» ساقطة من م.

(٥) في أ، غ «وعد» وب «وجد».

(٦) في ج «الباقة» وبعدها في م «أرادادتهم» بدل «آذانهم».

وقلوبهم طريقاً إلىٰ ذلك، إلا ما تقاضاه الأمر. وكانت مصلحته[1] أرجح. وما عداه فبطالة وحطّ مرتبة.

فصل

الطبقة الثالثة

قال: «وَالطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ: طَائِفَةٌ أَسَرَهُم الحَقُّ عَنهُم. فَأَلَاحَ لَهُم لَائِحاً أَذهَلَهُم عَن إِدرَاكِ مَا هُم فِيهِ. وَهيَّمَهُم عَن شُهُودِ مَا هُم لَهُ[2]. وَضنَّ بِحَالهم عَلَىٰ عِلمِهِم بِمَعرِفَةِ مَا هُم بِهِ. فَاستَتَرّوا عَنهُم، مَعَ شَوَاهِدَ تَشهَدُ لَهُم بِصِحَّةِ مَقَامِهِم، عَن قَصدٍ صَادِقٍ يُهيّجُه غَيبٌ، وَحُبٌّ صَادِقٌ يَخفَىٰ عَلَيه عِلمُه، وَوَجْدٌ غَرِيبٌ لاَ يَنكَشِفُ لَهُ مُوقِدُه. وَهَذَا مِن أَدَقِّ مَقَامَاتِ أَهلِ الولاَيَةِ»[1].

أهل هذه الطبقة: أحق باسم «السر» من الذين قبلهم. فإنه - إذا[3] كانت أحوال القلب، ومواهب الرب التي وضعها فيه سرّاً عن صاحبه. بحيث لا يشعر هو بها شغلا عنها بالعزيز الوهاب سبحانه. فلا يتسع قلبه لاشتغاله به وبغيره؛ بل يشتغل بمجريها ومنشئها وواهبها عنها - فهذا أقوىٰ وجوه السر؛ بل ذلك أخفىٰ من السر. و[من][4] أعظم الستر والإخفاء: أن يستر الله سبحانه

---

(١) في م، غ، ب، ح «وبانت مصلحته وما عداه».

(٢) منازل السائرين ١٠٦، وفيه: «معرفة ما هم»، «من قصد»، «يخفىٰ عليهم علمه»، «من أرق»، وفي ط: «بحالهم عن علمهم ما هم» وبعدها في الأصل و م: «فيه»، والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٣) «إذا» ساقطة من أ، ب، غ، ح.

(٤) الزيادة من الجميع.

حال عبده عنه [١] ويخفيه منه رحمة به ولطفا. لئلا يساكنه، وينقطع به عن ربه. فإن ذلك خلعة من خلع الحق. فإذا سترها صاحبها وملبسها عن عبده. فقد أراد به أن لا يقف مع شيء دونه. وقد يكون ذلك الستر لما شغل[٢] به العبد من[٣] مشاهدة جلال الرب تعالىٰ، وكماله وجماله. أعني مشاهدة القلب لمعاني تلك الصفات، واستغراقه فيها.

تفضيل مقام البقاء على مقام الفناء

وعلامة هذا الشهود الصحيح: أن يكون باطنه معموراً [٤] بالإحسان، وظاهره معموراً بالإسلام. فيكون ظاهره عنواناً لباطنه. مصدقاً لما اتصف به، وباطنه مصححاً لظاهره. هذا هو الأكمل عند أصحاب الفناء.

وأكمل منه: أن يشهد ما وهبه الله له ويلاحظه، ويراه من محض المنة، وعين الجود. فلا يفنىٰ بالمعطي عن رؤية عطيته. ولا يشتغل [بالعطية][٥] عن معطيها. وقد أمر الله تعالىٰ بالفرح بفضله ورحمته. وذلك لا يكون إلا برؤيته وملاحظته [٦]، وأمر بذكر نعمته[٧] وآلائه. فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

---

(١) «عنه» ساقطة من ط وبعدها في البقية عدا ج، م، ق: «ويخفيه عنه».

(٢) في البقية عدا ج، م، ق: «مما يشتغل».

(٣) في ط: «عن».

(٤) في ط، م الأولىٰ: «معموراً» والثانية: «مغموراً» و ج: «مغموراً» في الموضعين.

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) في ط: «إلا برؤية الفضل والرحمة وملاحظتها».

(٧) في البقية عدا م، ج: «نعمه».

عَلَيْكُمْ ﴾ [فاطر : ٣]، وقال : ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف : ٦٩]، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة : ٢٣١].

فلم يأمر سبحانه بالفناء عن شهود نعمه(١) فضلا عن أن يكون مقامه(٢) أرفع من مقام شهودها من محض(٣) فضله ومنته.

وقد أشبعنا القول في هذا فيما تقدم(٤). ولا تأخذنا فيه لومة لائم، ولا تأخذ أرباب الفناء في ترجيح الفناء عليه لومة لائم.

فقوله : «أَسَرَهُم الحَقُّ عَنهُم» أي شغلهم به عن ذكر أنفسهم. فأنساهم بذكره ذكر نفوسهم(٥). وهذا ضد حال الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. فإن أولئك لما نسوه [أنساهم](٦) مصالح أنفسهم التي لا صلاح لهم إلا بها. فلا يطلبونها. وأنساهم عيوبها(٧)، فلا يصلحونها. وهؤلاء أنساهم حظوظهم بحقوقه، وذكر ما سواه بذكره. والمقصود : أنه سبحانه أخذهم إليه. وشغلهم

---

(١) في البقية عدا ج، م، ق : «نعمته».

(٢) في ط : «مقام الفناء».

(٣) «محض» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

(٤) انظر : الفصل الثاني من منزلة الوقت ص٣٠٢٤، ٣٠٣٦، ٣٠٤٤ .

(٥) سقط من ق من هنا إلىٰ قوله : «أنفسهم».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) في ط : «عيوبهم».

به عنهم.

قوله : «وَأَلَاحَ لهُم لائِحاً أَذْهَلَهُم عَن إِدْرَاكِ مَا هُم فِيهِ».

«ألاح» أي أظهر ، والمعنىٰ : أظهر لهم من معرفة جماله وجلاله لائحاً ما لم تتسع قلوبهم بعده لإدراك شيء من أحوالهم ومقاماتهم. وهذا رقيقة من حال أهل الجنة ، إذا تجلّىٰ لهم سبحانه ، وأراهم نفسه. فإنهم لا يشعرون في تلك الحال بشيء من النعيم. ولا يلتفتون إلىٰ سواه ألبتة. كما صرح به في الحديث [1] في قوله: «فلا يلتفتون إلىٰ شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه».

والمعنىٰ أن هذا اللائح الذي ألاحه سبحانه لهم ، أذهلهم عن الشعور بغيره.

قوله : «وَهَيَّمَهُم عَن شُهُودِ مَاهُم لَهُ» يحتمل أن يكون مراده. أن هذا اللائح هيمهم عن شهود ما خلقوا له. فلم يبق فيهم اتساع للجمع بين الأمرين. وهذا – وإن كان لقوة الوارد – فهو دليل علىٰ ضعف المحل. حيث لم يتسع القلب معه لذكر ما خلق له. والكمال : أن يجتمع له الأمران.

ويحتمل أن يريد به [2] : أن هذا اللائح غيّبهم عن شهود أحوالهم التي هم لها في تلك» الحال. فغابوا بمشهودهم عن شهودهم ، وبمعروفهم عن معرفتهم ، وبمعبودهم عن عبادتهم. فإن «الهائم» لا يشعر بما هو فيه ، ولا

---

(١) في البقية عدا م زيادة «الصحيح» والحديث تقدم تخريجه ص٢٩٦٠ بلفظ : «إنهم إذا رأوه» وهو ليس في الصحيح وعلىٰ هذا فالزيادة غير مناسبة.

(٢) سقط من أ : «أن يريد به» و «به» ساقطة من م.

بحال نفسه. وفي الصحاح: الهيام كالجنون من العشق [١].

قوله: «وَضَنّ بِحَالهم عَلَىٰ عِلمِهِم» [٢]، أي بخل به [٣]. والمعنىٰ لم يمكن علمهم أن يدرك حالهم، وما هم عليه.

قوله: «فَاستَتَرُّوا عَنهُم» أي اختفوا حتىٰ عن أنفسهم. فلم تعلم نفوسهم كيف هم؟ ولا تبادر بإنكار [٤] هذا، تكن ممن لا يصل إلىٰ العنقود، فيقول: هو حامض.

قوله: «مَعَ شَوَاهِدَ تَشْهَدُ لهُم بِصِحَّةِ مَقَامِهِم».

يريد: أنهم لم يعطلوا أحكام العبودية في هذه [٥] الحال. فيكون ذلك شاهدا عليهم بفساد أحوالهم؛ بل لهم - مع ذلك - شواهد صحيحة. تشهد لهم بصحة مقاماتهم. وتلك الشواهد: هي القيام بالأمر، وآداب الشريعة ظاهراً وباطناً.

---

(١) انظر: مختار الصحاح ٧٠٤، وقد تقدم بيان معنىٰ الهيام ص٢٩٣٠.

(٢) في ط: «عن علمهم» وبعدها في غ: «أن يحل» وفي ح: «أي يحل به والمعنىٰ لم يكن».

(٣) قال الفقي في تعليقه علىٰ المدارج ٣/ ١٨٤: «ما ينبغي أن يطلق هذا في جانب الله الكري» وأقول: لعل ابن القيم ـ رحمه الله ـ يقصد بذلك الإنسان الذي ضن بحاله عن علمه فتستر في نفسه عن مواهب نفسه فلم يمكن علمه أن يدرك حاله. وانظر هذا المعنىٰ في التمكين في شرح منازل السائرين ٢٦٩.

(٤) في غ: «بالإنكار».

(٥) في ق: «هذا».

قوله : «عَن قَصدٍ سَابِقٍ ، يُهيّجُه غَيبٌ».

يجوز أن يتعلق هذا الحرف وما بعده بمحذوف ، دل عليه الكلام. أي حصل[١] لهم ذلك عن قصد صادق. أي لازم ثابت. لا يلحقه تلون «يهيجه غيب» أي أمر غاب[٢] عن إدراكهم هيج لهم ذلك القصد الصادق.

قوله : «وَحُبٌّ صَادِقٌ يخفَىٰ عَلَيهِ مَبدَأُ عِلْمِهِ» أي هم لا يعرفون مبدأ ما بهم. ولا يصل علمهم إليه. لأنهم لما لاح لهم ذلك اللائح استغرق قلوبهم. وشغل عقولهم عن غيره. فهم مأخوذون عن أنفسهم مقهورون بواردهم.

قوله : «وَوَجدٌ غَرِيبٌ لاَ يَنكَشِفُ لِصَاحِبِه مُوقِدُه»[٣].

أي لا ينكشف لصاحب هذا الوجد السبب الذي أهاجه له. وأوقده في قلبه، فهو لا يعرف السبب الذي أوقد[٤] نار وجده.

قوله : «وَهَذَا مِن أَدَقِّ مَقَامَاتِ أَهلِ الولاَيَةِ» جعله دقيقاً لكون الحس مقهوراً مغلوباً عند صاحبه ، والعلم والمعرفة لا يحكمان عليه ، فضلا عن الحس والعادة.»

وحاصل هذا المقام : الاستغراق في الفناء. وهو الغاية عند الشيخ.

---

(١) في ق : «يحصل».

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق : «غائب».

(٣) في المنازل كما تقدم : «لا ينكشف لهم موقده».

(٤) في ط ، أ ، ب : «أوجد».

والصحيح : أن أهل الطبقة الثانية أعلىٰ من هؤلاء ، وأرفع مقاماً ، وهم الكمّل. وهم أقوىٰ منهم. كما كان مقام رسول الله ﷺ ليلة الإسراء أرفع من مقام موسىٰ يوم التجلّي. ولم يحصل لرسول الله ﷺ من الفناء ما حصل لموسىٰ ، وكان حب امرأة العزيز ليوسف أعظم من حب[1] النسوة. ولم يحصل لها من تقطيع الأيدي ونحوه ما حصل لهن. وكان حب أبي بكر لرسول الله ﷺ أعظم من حب عمر وغيره. ولم يحصل له عند موته من الاضطراب والغشىٰ والإقعاد ما حصل لغيره. فأهل البقاء والتمكن : أقوىٰ حالا وأرفع مقاما من أهل الفناء. وبالله التوفيق.

* * *

(١) «حب» سقط من ق.

فصـل

[ومنها النَّفس] (١)

قال صاحب المنازل :

منزلـة النَّفَس «بَابُ النَّفَسِ ، قَالَ اللهُ سُبحَانَه : ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأعراف : ١٤٣]»(٢). وجه إشارته بالآية : أن «النفس» يكون (٣) بعد مفارقة الحال ، وانفصاله عن صاحبه. فشبه الحال بالشيء الذي يأخذ صاحبه فيغته ويغطه (٤) حتىٰ إذا أقلع عنه تنفّس نفساً يستريح به ، ويستروح إليه (٥).

قال : «وَيُسَمَّىٰ النَّفَسُ نَفَساً لِتَرَوُّحِ المُتَنَفِّسِ بِهِ»(٦).

---

(١) الزيادة من الجميع عدا ج ، ق ، م.

(٢) منازل السائرين ١٠٦.

(٣) في ج : «تكون».

(٤) الغت والغط والغطس واحد : وهو الغمس والعصر الشديد حتىٰ يبلغ الجهد والمشقة. كما يجد من يغمس في الماء قهراً. انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٤٣ ، والفائق في غريب الحديث ٣/ ٤٨.

(٥) «إليه» ساقطة من البقية عدا ج ، ق ، م.

(٦) في ق : «وسمي» و ج : «التنفس» والنفْس : بسكون الفاء هي الروح وتطلق علىٰ الدم؛ لأن فيه بقاؤها ، وقد تطلق ويراد بها عين الشيء أو الإنسان نفسه. والنفَس : بفتح الفاء واحد الأنفاس وهو نسيم الهواء. انظر : مختار الصحاح ص٦٧٢ ، ٦٧٣ ، والمصباح المنير ٦١٧. ويقصد بالنفس هنا كما قال الكاشاني في معجم صطلاحات الصوفية ١١٤ : النفس : ترويح

«التنفيس» هو الترويح. يقال : نفَّس الله عنك الكرب : أي أراحك منه. وفي الحديث الصحيح : «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**»(١).

وهذه الأحرف [الثلاثة](٢) وهي النون والفاء وما يثلثهما - تدل حيث وجدت علىٰ الخروج والانفصال. فمنه «النفل» ؛ لأنه زائد علىٰ الأصل خارج عنه. ومنه : النفي والنفس والنفر(٣) ، ونفقت الدابة. ونفست المرأة ، ونفست : إذا حاضت ، أو ولدت. فالنفس : خروج وانفصال يستريح به المتنفس.

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. وَهِيَ تَشَابُهُ دَرَجَاتِ الوَقْتِ**».

وجه الشبه بينهما : أن الأوقات تعد بالأنفاس فدرجاتها(٤) كدرجاتها.

القلوب بلطائف الغيوب وهو للمحب الأنس بالمحبوب. وقال ٣٣٥ : وهو يشابه الوقت لكونه حيناً مخصوصاً بما حدث فيه؛ لكن النفس يمتاز عن الوقت بأنه حين تروح بحال فالنفس حقيقته.

وقال الطوسي في اللمع ٤٢٤ : النفس روح من ريح الله المسلطة علىٰ نار الله تعالىٰ ، وكذلك التنفس. وانظر : الرسالة القشيرية ص٨٦ و ٨٧ ، والتعريفات ٢٩٨.

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه في الذكر والدعاء باب في فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر ٣/ ٢٠٧٤ (٢٦٩٩) وغيره.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في ط : «النفر والنفي والنفس».

(٤) سقط من ط : «فدرجاتها».

وأيضا فالوقت ، كما قال هو «حين وجد صادق» [1] فقيد الحين بالوجد. والوجد بالحين [2]. وقال في هذا الباب «هو نفس في حين استتار» فقيَّد النفس بالحين وبالوجد. وقيد به الوقت. فهو معتبر بهما.

وأيضا فالوقت والنفس لهما أسباب تعرض للقلب بسبب حجب مطلوبه عنه [3] أو مفارقة حال كان فيها [4] ، فاستترت عنه. فبينهما تشابه من هذه الوجوه وغيرها.

درجات النفس

الدرجة الأولى

قال : «وَالأَنفَاسُ ثَلاثَةٌ : نَفَسٌ فِي حِينِ استِتَارٍ مَملُوءٍ مِن الكَظمِ ، مُتَعَلِّقٍ بِالعِلْمِ. إِنْ تَنَفَّسَ تَنَفَّسَ بِالأَسَفِ ، وَإِن نَطَقَ نَطَقَ بِالحُزنِ. وَعِندِي : هُوَ مُتَوَلِّدٌ مِن وَحْشَةِ الاستِتَارِ. وَهِيَ الظُّلْمَةُ الَّتِي قَالُوا : إِنَّهَا مَقَام» [5].

فقوله : «نَفَسٌ فِي حِينِ استِتَارٍ» أي يكون له حال صادق [6] ، وكشف صحيح. فيستتر [7] عنه بحكم الطبيعة والبشرية ولا بد. فيضيق بذلك صدره. ويمتلئ

---

(١) انظر فيما تقدم بداية منزلة الوقت ص٣٠٢٤.

(٢) في ط : «بالصدق».

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق : «حجبه عن مطلوبه».

(٤) في م بدل : «كان فيها» «فارقتها».

(٥) منازل السائرين ١٠٧ وفيه : «معلق بالعلم» ، «نفس المتأسف» ، «نطق بالحرب» ، «هو يتولد».

(٦) في ب : «صافي».

(٧) في م : «فتسير».

كظما بحجب ما كان فيه واستتاره عنه[١]. لأسباب فاعلية وغائبة[٢]، سترد عليك إن شاء الله. فإذا تنفس في هذه الحال فتنفسُه تنفسُ الحزين المكروب.

قوله : «**مَمْلُوءٍ مِن الكَظْمِ**» الكظم [٣] : هو الإمساك. ومنه : كظم غيظه ، إذا تجّرعه وحبسه ، ولم يخرجه.

قوله : «**مُتَعَلِّقٌ بِالعِلمِ**» يريد: أن ذلك النفس متعلق بأحكام العلم[٤] الظاهر، لا بأحكام الحال. وذلك هو البلاء الذي تقدم ذكر الشيخ [له][٥]. وهو بلاء العبد بين الاستجابة لداعي العلم وداعي الحال.

وإنما كان ذلك نفس مكظوم : لخلوّه - في هذه الحال - من أحكام المحبة التي تهوّن الشدائد ، وتسهّل الصعب ، وتحمل الكَلَّ[٦]. وتعين علىٰ نوائب الحق. وتعلقه بالعلم - الذي هو داعي التفرق - فإن كرب المحبة : ممزوج

---

(١) «عنه» ساقطة من البقية عدا ج ، م ، ق.

(٢) في ط : «وغائيه».

(٣) «الكظم» ساقطة من ق.

(٤) «العلم» ساقطة من الجميع.

(٥) الزيادة من الجميع. وما أشار إليه المؤلف تقدم في منزلة الوقت في الحديث عن المعنىٰ الثاني ص٣٠٣٦، وانظر أيضاً فيما تقدم الدرجة الثانية للوقت ص٣٠٤٤. وانظر أيضاً : الدرجة الثانية في منزلة التهذيب والتصفية وأيضاً منزلة الرياضة.

(٦) الكلّ : الثقل من كل ما يتكلف ويطلق أيضاً علىٰ العيال وعلىٰ اليتيم. انظر : مختار الصحاح ٥٧٦ ، والمصباح المنير ٥٣٨ والنهاية ص٨٠٠.

بالحلاوة. فإذا خلا من أحكامها إلىٰ أحكام العلم : فَقَدَ تلك الحلاوة. واشتاق إلىٰ ذلك الكرب. كما قيل :

ويشكو(1) المحِبُّون الصبابةَ ليتني   تحملتُ ما يلْقَون من بينهم وحدي
فكان لقلبي لذةَ الحبِّ كلهـــا   فلم يلقها قبلي محب ولا بعـــدي

قوله : «إِنْ تَنَفَّسَ تَنَفَّسَ بِالأَسَفِ».

«الأسف» الحزن. كقوله تعالىٰ عن يعقوب : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٨٤] ، و«الأسف» الغضب كما في قوله(2) تعالىٰ : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] ، وهو في هذا الموضع : الحزن علىٰ ما توارىٰ عنه من مطلوبه ، أو من صدق حاله.

قوله : «وَإِن نَطَقَ : نَطَقَ بِالحُزنِ» يعني : أن هذا المتنفس(3) إن نطق نطق بما يدل علىٰ الحزن علىٰ ما توارىٰ عنه ، فمصدر تنفسه ونطقه : حزنه علىٰ ما حجب عنه.

قوله : «وَعِندِي : أَنَّه يَتَوَلَّدُ مِن وَحْشَةِ الاستِتَارِ»(4).

---

(١) في ج ، ق : «تشكي» و أ ، ب ، غ : «يشكي» وفي آخر البيت الثاني في ب : «محب قلبي» وقد ذكر المؤلف هذين البيتين في روضة المحبين ص٢٤ و ١٦٦ ، وقال : قال شاعر الحماسة. وانظر أيضاً : الجواب الكافي ص١٢٩ و ١٦٨.

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق : «كقوله».

(٣) في غ ، ح : «التنفس» وبعدها في ط : «إن نطق بما يدل».

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق هنا تقديم ما سيأتي وهو قوله : «والحجب وكأن الاستتار بسبب السبب فيتولد السبب».

يريد : أن هذا «الأسف» وإن أضيف إلىٰ الاستتار والحجاب فتولده : إنما هو من الوحشة [١] التي سببها الاستتار والحجب ، وكأنَّ الاستتار عنده سبب السبب فيتولد الأسف [٢] من تلك الوحشة المتولدة من الاستتار. وهذا صحيح. فإنه لما كان مطلوبه [٣] مشاهداً له ، وحال محبته وأحكامها قائماً به : كان نصيبه من الأنس علىٰ قدر ذلك. فلما[٤] توارىٰ عنه مطلوبه وأحكام محبته استوحش لذلك. فتولد «الحزن» من تلك الوحشة.

وبعد ، فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب. ليس له سبب سواه. وإن تولد من حصول مكروه ، فذلك المكروه : إنما كان ذلك[٥] لما فات به من المحبوب[٦] فلا حزن إذاً. ولا هَمَّ ولا غَمَّ ، ولا أذىٰ ولا كرب إلا في مفارقة المحبوب. ولهذا كان حزن الفقر والمرض ، والألم والجهل ، والخمول والضيق[٧] وسوء الحال ونحو ذلك : علىٰ فراق المحبوب ، من المال ، والوجد والعافية ، والعلم ، والسعة ، وحسن الحال. ولهذا جعل الله سبحانه مفارقة

---

(١) في غ ، ح : «الوجهه».

(٢) في البقية عدا م : «السبب».

(٣) «مطلوبة» ساقطة من ج.

(٤) في ط : «فإنه لما».

(٥) في م : «لذلك» وفي البقية «كذلك».

(٦) سقط من أ ، ب ، غ ، ح إلىٰ قوله : «ولهذا كان».

(٧) في أ ، غ : «في الضيق».

المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالىٰ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤]. فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلىٰ محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

و«الاستتار» المذكور لا يكون إلا بعد كشف وعيان. والرب تعالىٰ يستر عنهم ما يستره رحمةً بهم، ولطفاً بضعيفهم، إذ لو دام له حال الكشف لمحقه؛ بل من رحمة ربه به أن يرده[1] إلىٰ أحكام البشرية، ومقتضىٰ الطبيعة.

وأيضاً ليتزايد طلبه. ويقوىٰ شوقه. فإنه لو دامت له تلك الحال: لألفها واعتادها. ولم يقع منه موقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي[2]؛ ولا موقع الأمن من الخائف[3]، ولا موقع الوصال من المهجور. فالرب تعالىٰ واراها عنه ليكمل فرحه ولذته وسروره بها.

وأيضا فليعرفه سبحانه قدر نعمته بما أعطاه وخلع عليه. فإنه لما ذاق مرارة الفقد: عرف حلاوة الوجود. فإن الأشياء تتبين بأضدادها.

وأيضاً فيعرفه[4] فقره وحاجته وضرورته إلىٰ ربه، وأنه غير مستغن عن

---

(١) في البقية عدا م: «رده».

(٢) في أ، ب، غ: «في ذلك القلة» والغلة: أشد العطش والصادي هو: العطشان. انظر: مختار الصحاح ص٣٦٠ و ٤٧٩.

(٣) في أ، غ، ب: «للخائف».

(٤) في ط: «فليعرفه» في المواضع الثلاثة كما سيأتي.

فضله وبرِّه طرفة عين. وأنه إن قطع[1] عنه إمداده فسد بالكلية.

وأيضاً فيعرفه أن ذلك الفضل والعطاء ليس لسبب من العبد ، وأنه عاجز عن تحصيلها بكسب أو اختيار ، وأنها مجرد موهبة وصدقة. تصدق الله بها عليه. لا يبلغها عمله ، ولا ينالها سعيه.

وأيضاً فيعرفه عزّه في منعه ، وبرّه في عطائه ، وكرمه وجوده في عَودِه عليه بما[2] حجب عنه. فينفتح[3] علىٰ قلبه من معرفة الأسماء والصفات - بسبب هـذا الاستتار والكشف بعده -[4] أمور غريبة عجيبة. يعرفها الذائق لها ، وينكرها من ليس من أهلها.

وأيضاً فإن الطبيعة والنفس لم تموتا ، و[5] تعدما بالكلية. ولولا ذلك لما قام سوق التكليف والامتحان[6] في هذا العالم؛ بل قهرتا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة. والمقهورالمغلوب لا بد أن[7] يتحرك أحياناً - وإن قلت- ولكن حركة أسير مقهور ، بعد أن كانت حركته حركة أمير مسلط.

---

(١) في ط : «وأنه إن انقطع».

(٢) «بما» ساقطة من ق.

(٣) في أ ، ب ، غ ، ح ، ج : «فيستفتح» وفي م بدل «علىٰ قلبه» «عليه».

(٤) في ب : «بعد أمور عجيبة غريبة» وبعدها «لها» ساقطة من ق.

(٥) في ط زيادة «لم» وفي م مكان «تموتا وتعدما» بياض.

(٦) في البقية عدا م ، ج ، ق : «الامتحان والتكليف».

(٧) «أن» ساقطة من ق.

فمن تمام إحسان الرب إلىٰ عبده، وتعريفه قدر نعمته: أن أراه في الأحيان(١) ما كان حاكما عليه، قاهراً له. وقد تقاضىٰ(٢) ما كان يتقاضاه منه أولاً. فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليّه، ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي علىٰ طاعتك.

وأيضاً فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلىٰ نفسه(٣)، أو عمله أو حاله. كما قيل: إن ركنت إلىٰ العلم: أنسيناكه. وإن ركنت إلىٰ الحال: سلبناك إياه. وإن ركنت إلىٰ المعرفة: حجبناها عنك. وإن ركنت إلىٰ قلبك: أفسدناه عليك.(٤) فلا يركن العبد إلىٰ شيء سوىٰ الله ألبتة. ومتىٰ وجد من قلبه ركوناً إلىٰ غيره: فليعلم أنه قد أحيل علىٰ مفلس؛ بل معدم. وأنه قد فتح له باب مكر(٥). فليحذر [من] ولوجه. والله المستعان.

قوله: «وَهِيَ الظُّلْمَةُ الَّتِي قَالُوا: إِنَّهَا مَقَام».

---

(١) في البقية عدا ج، م، ق: «الأعيان».

(٢) في الأصل، ج، ق، م «يتقاضاه» والمثبت أنسب للمعنىٰ.

(٣) في غ: «علىٰ نفسه» وبعدها في ق: «وعمله» وفي م: «أو عمله» ساقطة.

(٤) في البقية عدا ج، م، ق: «الباب مكراً» والزيادة بعدها من م.

قال المؤلف في كتابه الفوائد ١٩٧: «من كلام الشيخ علي: قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم: لا تبد فاقة إلىٰ غيري فأضاعفها عليك» ثم ساق كلاماً طويلاً ومنه ما ذكره هنا وزاد عليه غيره.

(٥) في البقية عدا ج، م، ق: «الباب مكراً» والزيادة بعدها من م.

يعني : أن وحشة الاستتار[1] ظلمة. وقد قال قوم : إنها مقام.

ووجهه : أن الرب سبحانه يقيم عبده[2] بحكمته فيها ، لما ذكرناه من الحكم والفوائد ، وغيرها مما لم نذكره.

فبهذا[3] الاعتبار تكون مقاماً. ولكن صاحب هذا المقام : أنفاسه أنفاس حزن وأسف ، وهلاك وتلف ، لما حجب عنه من المقام الذي كان فيه.

والشيخ كأنه لا يرىٰ ذلك مقاماً. فإن المقامات هي منازل في طريق المطلوب فكل أمر أقيم فيه السالك ، من حاله الذي يقدمه إلىٰ مطلوبه : فهو مقام. وأما وحشة الاستتار : فهي تأخّرٌ في الحقيقة لا تقدُّم. فكيف تسمىٰ مقاماً؟ بل هي ضد المقام.

ومما يدل علىٰ أن وحشة الاستتار ليست مقاماً : أن كل مقام فهو تعلق بالحق سبحانه علىٰ وجه الثبوت[4] ، وحقيقته : بأن يكون العبد بالمقيم[5] لا بالمقام. وأما حال الاستتار : فهو حال انقطاع عن ذلك التعلق المذكور.

والتحقيق في ذلك : أن له وجهين. هو من أحدهما : ظلمة ووحشة. ومن

---

(١) في م : «وجه الاستتار».

(٢) «عبده» ساقطة من م.

(٣) في م ، ج : «فهذا».

(٤) في ح : «الثواب» وبعدها في ط : «وحقيقته بأن».

(٥) في م : «بالنعم» بدل «بالمقيم».

الثاني : مقام. فهو باعتبار الحال وباعتبار نفسه ليس مقاماً. وباعتبار المآل[١] وما يترتب عليه ، وما فيه من تلك الحكم والفوائد المذكورة : فهو مقام. وبالله التوفيق.

فصل

قال[٢] : «**وَالنَّفَسُ الثَّانِي : نَفَسٌ فِي حِينِ التَّجَلِّي وَهُوَ نَفَسٌ شَاخِصٌ عَن مَقَامِ السُّرُورِ إِلَىٰ رَوحِ المُعَايَنَةِ ، مَمْلُوءٌ مِن نُورِ الوُجُودِ ، شَاخِصٌ إِلَىٰ مُنقطعِ الإِشَارَةِ**»[٣]. النفس الثاني

هذا النفس أعلىٰ من الأول. فإن الأول في حين استتار وظلمة. وهذا نفس في حال تَجَلٍّ ونور[٤]. وحين التجلّي : هو زمان حصول الكشف ، و«التجلي» مشتق من الجلوة. قيل : وحقيقته إشراق نور الحق[٥] علىٰ قلوب المريدين.

فإن أرادوا إشراق نور الذات : فغلط [٦] منهم. ولهذا قال من احترز منهم عن

(١) في أ ، ح : «الحال».

(٢) «قال» ساقطة من ح.

(٣) منازل السائرين ١٠٧.

(٤) في ط : «ونوره».

(٥) «الحق» ساقطة من م ، والتجلي كما عبر عنه الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٣ ، هو : ما يظهر للقلوب من أنوار الغيوب. وانظر : التعريفات ٧٨.

(٦) في ط زيادة : «شنيع».

ذلك «إشراق نور[1] الصفات».

فإن أرادوا أيضاً إشراق نفس الصفة : فغلط[2]. فإن التجلي الذاتي والصفاتي لا يقع في هذا[3] العالم. ولا تثبت له القوىٰ البشرية.

والحق : أنه إشراق نور المعرفة والإيمان. واستغراق القلب في شهود الذات المقدسة وصفاتها استغراقاً علمياً. نعم هو أرفع من العلم المجرد لأسباب.

منها : قوّتُه. فإن المعارف[4] والعلوم تتفاوت.

ومنها : صفاء المحل ونقاؤه من الكدر المانع من ظهور[5] العلم والمعرفة فيه.

ومنها : التجرد عن الموانع والشواغل.

ومنها : كمال الالتفات والتحديق نحو المعروف المشهود.

ومنها : كمال الأنس به[6] والقرب منه ، إلىٰ غير ذلك من الأسباب التي

---

(١) «نور» ساقطة من ق.

(٢) في ط زيادة : «كذلك».

(٣) «هذا» ساقطة من ق.

(٤) في ق : «المعاني».

(٥) في ق : «المانع وظهور».

(٦) «به» ساقطة من أ ، ب ، ح ، غ.

توجب للقلب شهوداً وكشفاً وراء مجرد العلم.

قوله : «وَهُوَ نَفَسٌ شَاخِصٌ عَن مَقَامِ السُّرُورِ» أي صادر عن مقام السرور. و«الشخوص» الخروج ، يقال : شخص فلان إلىٰ بلد كذا : إذا خرج إليه.

والمقصود : أن هذا «النفس» صدرعن سرور وفرح ، بخلاف الأول. فإنه صدر عن ظلمة ووحشة أثارت حزناً. فهذا «النفس» صدر عن سماع الإجابة الذي يمحو آثار الوحشة.

قوله : «إِلَىٰ رَوحِ المُعَايَنَةِ» هو بفتح الراء. وهو النعيم والراحة التي تحصل بالمعاينة ، ضد الألم والوحشة الحاصلين في حين الاستتار. فهذا «النفس» مصدره السرور. ونهايته [1] رَوح المعاينة. صادر[2] عن مسرّة ، طالب لمعاينة[3].

وأصح ما يحمل عليه كلام الشيخ ، وأمثاله من أهل الاستقامة في «المعانية» أنها تزايد العلم حتىٰ يصير يقيناً. ولا يصل [أحد][4] إلىٰ عين اليقين في هذه الدار. وإن خالف في ذلك من خالف. فالغلط من لوازم الطبيعة. والعلم يميز بين الغلط والصواب.

---

(١) في م : «وغايته» بدل «ونهايته».

(٢) في ق : «الصادر».

(٣) في ط : «المعاينة».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

وقد أشعر كلام الشيخ ههنا بأن (١) «التجلي» دون «المعاينة» ، فإن «التجلي» قد يكون من وراء ستر رقيق وحاجز لطيف. و «الكشف» و «العيان» هو الظهور من غير ستر ، فإذا كان مسروراً بحال التجلي كانت أنفاسه متعلقة بمقام «المعاينة» الذي هو فوق مقام «التجلي» ولهذا جعله شاخصا إليها.

قوله : «**مَمْلُوءٌ من نُورِ الوُجُودِ**» يريد : أن هذا النفس مملوء من نور الوجود ، و «الوجود» عنده : هو حضرة الجمع. فكأنه يقول : هذا النفس منصبغ مكتس (٢) بنور الوجود. فإن صاحبه لما تنفس به : كان في مقام الجمع والوجود.

قوله : «**شَاخِصٌ إِلَىٰ مُنقَطِعِ الإِشَارَةِ**» [لما كان قلبه مملوءاً من نور الوجود ، وكان شاخصاً إلىٰ المعاينة ، مستفرغاً بكليته في طلبها : كان شاخصاً إلىٰ حضرة الجمع ، التي هي منقطع الإشارة] (٣) عندهم. فضلاً عن العبارة. فلا إشارة هناك ، ولا عبارة ، ولا رسم؛ بل تفنىٰ الإشارات ، وتعجز العبارات ، وتضمحلُّ الرسوم.

---

(١) في ق : «أن».

(٢) في ج : «ملتبس».

(٣) الزيادة من الجميع.

[فصـــل][1]

النَّفس الثالث

قوله : «وَالنَّفَسُ الثَّالِثُ : نَفَسٌ مُطَهَّرٌ بِمَاءِ القُدسِ. قَائِمٌ بِإِشَارَاتِ الأَزَلِ. وَهُوَ النَّفَسُ الَّذِي يُسَمَّىٰ : بِصِدْقِ النُّورِ»[2].

«القدس» الطهارة ، والتقديس : التطهير والتنزيه. ومراده «بالقدس»[3] ههنا : الشهود الذي يفنىٰ الحادث الذي لم يكن ، ويبقىٰ القديم الذي لم يزل. فكأن صفات الحدوث عندهم : مما يتطهر منها بالتجلي المذكور. فالتجلي يطهر العبد منها. فإنه ما دام في الحجاب. فهو باق مع إنّيته وصفاته. فإذا أشرق عليه نور التجلي طهّره من صفاته وشهودها[4] ، وتوسيطها بينه وبين مشهوده الحق[5].

وحاصل كلامه : أن هذا «النفس» صادر عن مشاهدة الأزل ، الماحي للحوادث ، المفني لها. فهذا «النفس» مطهّر بالطهر المقدس عن كل غير[6] ،

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م.

(٢) منازل السائرين ١٠٧ ، وفيه : «صدق النور».

(٣) قال الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ص٩٤ و ٩٥ : «ماء القدس : العلم الذي يطهر النفس من دنس الطباع ونجس الرذائل أو الشهود الحقيقي بتجلي القديم الرافع للحدث ، فإن الحدث نجس».

(٤) سقط من م إلىٰ قوله : «وشهودها».

(٥) في ح : «شهود الحق».

(٦) في ط : «غين» وفي البقية عدا ج ، ق (عين).

وعن ملاحظة كل مقام؛ بل هو مستغرق بنور الحق، وآثار الحق تنطق عليه، كما قال النبي ﷺ: «إن الله ضرب الحق علىٰ لسان عمر وقلبه»(١).

وقال ابن مسعود: «ما كنا نُبعِد أن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر»(٢)، وهذا نطق غير النطق النفساني الطبيعي. ولهذا سمىٰ هذا(٣) النفس «بصدق النور» [لصدق](٤) شدة تعلقه بالنور، وملازمته له.

قوله: «قَائِمٌ بِإِشَارَاتِ الأَزَلِ» أي هذا «النفس» منزه مطهر عن إشارات الحدوث. قد ترحل عنها. وفارقها إلىٰ إشارات الأزل. ويعني «بإشارات الأزل» أنه قد فني في عيانه(٥) الذي شخص إليه من لم يكن، وبقي من لم يزل. فصارت أنفاسه من جملة إشارات الأزل.

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه في المقدمة باب فضل عمر بلفظ: «إن الله وضع الحق» ١/ ٤٠ (١٠٨) وكذا أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تدوين العطاء ٣/ ٨٧ (٢٩٦٢) وورد بإبدال (ضرب) بـ(جعل) وقد رواه الترمذي في كتاب المناقب ٥/ ٦١٧ (٣٦٨٢) وقال: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأحمد ٢/ ٥٣، وابن حبان في صحيحه ٩/ ٢٢، والحاكم في المستدرك ٣/ ٨٧، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقه. والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ص١٠٧ رقم (١٧٠٨) وحسنه محقق مجموعة التوحيد ٢/ ٥٨٠.

(٢) تقدم تخريجه في منزلة السكينة بلفظ: «كنا نتحدث» ص٢٧٣٢.

(٣) «هذا» ساقطة من ح.

(٤) الزيادة من البقية عدا ج، م، ق.

(٥) في الأصل «عنانه» و ج: «عن عيانه» والمثبت كما في البقية.

ولم يرد الشيخ : أن أنفاسه تنقلب أزلية. فمن هو دون الشيخ لا يتوهم هذا؛ بل أنفاس الخلق متعلقة بمن لم يكن. وهذا نفسه[1] متعلق بمن لم يزل.

وبعد ، فللملحد ههنا مجال؛ لكنه في الحقيقة وهم باطل وخيال.

وفي قوله : «**يُسَمَّىٰ بِصِدْقِ النُّورِ**» لطيفة. وهي أن السالك يلوح له في سلوكه «النور» مراراً. ثم يختفي عنه ، كالبرق يلمع ثم يختفي. فإذا[2] قوي ذلك النور ودام ظهوره : صار نوراً صادقاً.

قوله : «**فَالنَّفَسُ الأَوَّلُ : لِلعُيُونِ سِرَاجٌ. وَالثَّانِي : لِلقَاصِدِ مِعْرَاجٌ. وَالثَّالِثُ : لِلمُحَقِّقِ تَاجٌ**»[3].

أي **النفس الأول** : سراج في ظلمة السلوك ، لتعلقه بالعلم ، كما تقدم[4]. والعلم سراج يهتدىٰ به في طرقات القصد. ويوضح مسالكها. ويبين مراتبها : فهو سراج للعيون.

والنفس الثاني : للقاصد معراج. فإنه أعلىٰ من الأول؛ لأنه من نور المعرفة الرافعة للحجاب.

---

(١) سقط من أ ، غ : «بمن لم يكن وهذا نفسه».

(٢) في الأصل : «ثم» بدل «فإذا» والمثبت كما في البقية لمناسبة السياق.

(٣) منازل السائرين ١٠٧ ، وفيه : «للغفور» بدل «للعيون» والنفس الثاني... والنفس الثالث «وقوله : «والثاني» ساقطة من م.

(٤) عند قوله : «والأنفاس ثلاثة».

والنفس الثالث : للمحقِّق تاج؛ لأنه نفس مطهر من أدناس الأكوان ، ومتصل بالكائن قبل كل شيء ، والمكون لكل شيء ، والكائن بعد كل شيء. فهذا تاج لقلبه (١) ، بمنزلة التاج علىٰ رأس الملك.

فالنفس(٢) الأول : يُؤَمِّن السالك من عثرته.

والثاني : يوصله إلىٰ طلبته. والثالث : يدله علىٰ علو مرتبته. والله أعلم.

* * *

(١) «لقلبه» ساقطة من أ ، غ ، والتاج : هو ما يلبسه الملوك علىٰ رؤوسهم مما يصاغ من الذهب والجوهر. انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ١٩٩ ، ومختار الصحاح ٨٠.

(٢) في البقية عداج : «والنفس».

فصل

[منزلة الغربة] (١)

قال شيخ الإسلام : « (بَابُ الغُرْبَة) قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية [هود : ١١٦]».

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب : يدل علىٰ رسوخه في العلم والمعرفة ، وفهم القرآن. فإن الغرباء في العالم : هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله : «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبىٰ للغرباء. قيل : ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس» (٢). وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن بن

---

(١) منازل السائرين ١٠٨ ، والغربة والاغتراب في اللغة : البعد عن الوطن ، وعن الأهل والوحدة. انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٤٨ و ٣٤٩ ، ومختار الصحاح ٤٧٠ ، وفي اصطلاحهم كما قال ابن العربي في الفتوحات المكية ٤/ ٢٨٩ : «اعلم أن الغربة عند الطائفة يطلقونها ويريدون بها مفارقة الوطن في طلب المقصود ، ويطلقونها في اغتراب الحال ، فيقولون في الغربة الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه ، والغربة عن الحق غربة عن المعرفة من الدهش». وانظر : معجم اصطلاحات الصوفية ٣٣٧.

(٢) الحديث إلىٰ قوله : «فطوبىٰ للغرباء» أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ١/ ١٣٠ ، ١٣١ (١٤٥ و ١٤٦) وبالزيادة المذكورة رواه أحمد في المسند ٤/ ٧٣ و ٧٤ ، والطبراني في الكبير ٨/ ١٢٥، والأوسط ٣/ ٢٥٠، والصغير ١/ ١٨٣ ، والبيهقي في الزهد ص١١٤ (١٩٩) ، وقال محققه سنده ضعيف ، وقال الهيثمي

مهدي[1] عن زهير[2] عن عمرو بن أبي عمرو[3] - مولىٰ المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب[4] عن النبي ﷺ قال: «طوبىٰ للغرباء» قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «الذين يزيدون إذا نقص الناس»[5].

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً لم ينقلب علىٰ الراوي لفظه

في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨١، رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة.

(١) أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري الثقة الثبت الحافظ قال ابن المديني: ما رأيت أعلم منه. من التاسعة مات سنة٩٨هـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٤٩٩، وحلية الأولياء ٩/ ٣ - ٦٣.

(٢) أبو المنذر زهير بن محمد التميمي العنبري سمع من ابن عقيل وغيره، وسمع منه ابن مهدي وغيره توفي سنة ١٦٢هـ. انظر: تقريب التهذيب ١/ ١٦٤، والتاريخ الكبير ٣/ ٤٢٧ و ٤٢٨، والجرح والتعديل ٣/ ٥٨٩ و ٥٩٠.

(٣) هو عمرو بن أبي عمرو، واسمه ميسرة مولىٰ المطلب بن عبد الله بن حنطب روىٰ عن أنس بن مالك ومولاه المطلب وعكرمة وغيرهم توفي سنة ٤٤هـ، انظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٧٢ و ٧٣، والتاريخ الكبير ٦/ ٣٥٩.

(٤) هو المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي روىٰ عن عمر وزيد بن ثابت وعائشة وغيرهم وعنه ابناه عبد العزيز والحكم ومولاه عمرو بن أبي عمرو. قال عنه ابن حجر في التهذيب: صدوق كثير التدليس والإرسال من الرابعة. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ٢٥٤، وتهذيب التهذيب ١٠/ ١٦١ و ١٦٢.

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ. وإنما بلفظ: «قال: أناس صالحون في أناس سوء كثير» وسيذكره المؤلف بعد قليل.

وهو[1] «الذين ينقصون إذا زاد الناس» فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقىٰ إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش[2] عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبىٰ للغرباء»**. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **«النزاع من القبائل»**[3]. وفي حديث عبدالله بن

---

(١) في أ، ب، غ، ح: «وهم».

(٢) أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي الكوفي الحافظ قال عنه ابن حجر في التقريب: ثقة حافظ عارف بالقراءة ورع ولكنه يدلس. مات سنة ١٤٨هـ. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٣٣١، وحلية الأولياء ٥/ ٤٦ -٦٠، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٦ - ٢٤٨.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن باب بدأ الإسلام غريباً ٢/ ١٣٢٠ (٣٩٨٨)، والدارمي في كتاب الرقاق باب أن الإسلام بدأ غريباً ص٧٠٧ و ٨٠٨، وأحمد ١/ ٣٩٨، والغرباء للآجري ص١٧ ومسند أبي يعلىٰ ٨/ ٣٨٨ (٤٩٧٥)، وابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٢٣٦ (١٦٢١٣) وقال الألباني عن هذا الحديث بعد نقله لتصحيح البغوي لهذا الحديث وبعد كلامه عن أبي إسحاق السبيعي. قال: فأنا متوقف في صحته بعد أن كنت تابعاً في تصحيحه برهة من الزمن غيري، والله أعلم. سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٦٩ و ٣٧٠ (١٢٧٣) وهذه الزيادة ضعفها الشيخ سلمان العودة في رسالته الماجستير (غربة الإسلام) ص٢٨ لاختلاط أبي إسحاق وتدليسه وهو (عمرو بن عبد الله الهمذاني السَّبيعي) وانظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٥٦ - ٥٩ (١٠٠) وقد تقدمت الترجمة لأبي إسحاق ولكن باسم (إبراهيم بن مسلم العبدي أبو إسحاق الكوفي) وهو متكلم فيه أيضاً.

- والنزاع من القبائل: هم جمع نازع ونزيع وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته أي بَعُدَ

عمرو(١) قال: قال النبي ﷺ - ذات يوم، ونحن عنده -: «طوبىٰ للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»(٢).

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل(٣) حدثنا محمد بن مسلم(٤) حدثنا عثمان

وغاب. النهاية في غريب الحديث ٥/ ٤١، وانظر الإحالة السابقة علىٰ ابن ماجه.

(١) هو الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أسلم قبل أبيه وهو واحد من علماء الصحابة وعبادهم توفي بمصر وقيل بالشام سنة ٦٥هـ وهو ابن ٧٢ سنة.
انظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٤/ ٢٦١ - ٢٦٨، والإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١١١ و ١١٢.

(٢) الحديث رواه أحمد ٢/ ١٧٧ و ٢٢٢، والطبراني في الأوسط ٩/ ١٤ (٨٩٨٦) والزهد لابن المبارك ص٢٦٧ (٧٧٥) والغرباء للآجري، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٢: رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير، ثم قال: وله في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح. وقال الشيخ سلمان العودة في رسالته غربة الإسلام ص٣٦ بعد دراسته لأسانيده: (فالحديث حسن لذاته إن شاء الله).

(٣) أبو سهل الهيثم بن جميل البغدادي الحافظ نزل بالشام، وروىٰ عن محمد بن مسلم الطائي ومالك وغيرهما، وروىٰ عنه أحمد و محمد بن المثنىٰ وغيرهما، مات سنة ٢١٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب ١١/ ٨٠ و ٨١، والتاريخ الكبير ٨/ ٢١٦.
* تنبيه: في الزهد لأحمد - المطبوع - بدل الهيثم بن جميل (الهيثم بن حميد).

(٤) هو محمد بن مسلم بن سويس - علىٰ خلاف في ضبطها - الطائفي، روىٰ عن إبراهيم بن ميسرة وعمرو بن دينار وغيرهما وروىٰ عنه ابن المبارك والهيثم بن جميل وغيرهما. قال عنه ابن حجر: (صدوق من الحادية عشر) انظر: تقريب التهذيب ٢/ ٢٠٧، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٩٣ و ٣٩٤، والتاريخ الكبير ١/ ٢٢٣ و ٢٢٤.

ابن عبدالله[1] عن سليمان بن هرمز[2] عن عبدالله بن عمرو[3] قال: «إن أحب شيء إلىٰ الله تعالىٰ الغرباء» . قيل : ومن الغرباء؟ قال : « الفرارون بدينهم. يجتمعون إلىٰ عيسىٰ ابن مريم - عليه السلام - يوم القيامة»[4].

الغرباء وأنواع الغربة

وفي حديث آخر : «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبىٰ للغرباء». قيل : ومن الغرباء ، يا رسول الله؟ قال : «الذين يحيون سنتي ويعلمونها الناس»[5].

---

(١) هو عثمان بن عبد الله بن أوس بن أبي أوس واسمه حذيفة الثقفي ، روىٰ عن جده وعمه وسليمان بن هرمز وغيرهم ، وعنه عبدالله بن عبد الرحمن الطائفي ومحمد بن مسلم وغيرهما. قال ابن حجر : مقبول من الثالثة. انظر : تهذيب التهذيب ٧/ ١١٨ ، والتاريخ الكبير ٦/ ٢٣١ و ٢٣٢ ، وتقريب التهذيب ٢/ ١١.

(٢) هو سليمان بن هرمز وقيل : سليم بن هرمز روىٰ عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة، وروىٰ عنه عثمان بن عبد الله بن أوس ومحمد بن مسلم. انظر : تهذيب التهذيب ٧/ ١١٨ ، والتاريخ الكبير ٤/ ١٣٠ و ١٣١ ، والجرح والتعديل ٤/ ٢١٣.

(٣) في ط زيادة : «عن النبي ﷺ».

(٤) الزهد للإمام أحمد ص٩٨ و ١٨٧ ، والزهد لابن المبارك ص٥٣١ و ٥٣٢ (١٥١٣) والبخاري في التاريخ الكبير ٤/ ١٣٠ و ١٣١ ، والزهد للبيهقي ص١١٦ (٢٠٤) وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥ ، والحديث ضعيف ، انظر : رسالة (غربة الإسلام) ص٣٧ و ٣٨.

(٥) رواه القضاعي في مسند الشهاب ٢/ ١٣٨ ، وآخره (ويعلمونها عباد الله) والبيهقي في الزهد ص١١٧ (٢٠٥) وأبو نعيم في الحلية ٢/ ١٠ ، والترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ٤/ ١٨ (٢٦٣٠) بلفظ : (الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي) وقال : هذا حديث حسن صحيح.

وقال نافع بن مالك(١) : «دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلىٰ بيت النبي ﷺ ، وهو يبكي. فقال له عمر : ما يبكيك ، يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال : لا. ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي ﷺ ، وأنا في هذا المسجد. فقال : ما هو؟ قال : «**إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدىٰ. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة**»(٢).

الغرباء الممدوحون

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جداً : سُمُّوا «غرباء» فإن أكثر الناس علىٰ غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس

---

(١) هو نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي حليف بني تيم من قريش ، المدني أبو سهيل عم مالك بن أنس سمع أباه وعمر بن عبد العزيز وروىٰ عنه الزهري ومالك بن أنس وغيرهما. قال ابن حجر : ثقة من الرابعة ، انظر : تقريب التهذيب ٢/ ٢٩٦ ، والتاريخ الكبير ٨/ ٨٦ ، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٣٦٦.

(٢) تقدم تخريج حديث : «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**» ص٣١١٠ ، والحديث بهذا اللفظ والسند رواه الآجري في كتابه الغرباء ص٥٢ ، وروي أيضاً بأسانيد أخر أكثرها عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه كما أن الحديث له روايات مختلفة في أوله وفي التقديم والتأخير لقوله : «**الأخفياء الأتقياء**» ، والحديث رواه ابن ماجه بلفظ مقارب في كتاب الفتن باب من ترجىٰ له السلامة من الفتن ٢/ ١٣٢٠ ، ١٣٢١ (٣٩٨٩) والطبراني في الكبير ٢٠/ ١٥٤ ، والأوسط ٥/ ١٦٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٤٨ ، والقضاعي في مسند الشهاب ٢/ ٤٧ و ٢٥٢ ، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤ ، ٤/ ٣٢٨ ، وقال : صحيح ولا يحفظ له علة. وقال أيضاً : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام(١) غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء. وأهل السنة -الذين يميزونها من الأهواء والبدع- فهم غرباء. والداعون إليها(٢)، الصابرون علىٰ أذىٰ المخالفين : لهم(٣) أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً ، فلا غربة عليهم ، وإنما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هي الغربة الموحشة ، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم [كما قيل] (٤) :

فليس غريباً من تناءت دياره ... ولكن من تنأين عنه غريب

ولما خرج موسىٰ هارباً من قوم فرعون انتهىٰ إلىٰ مدين (٥) ، علىٰ الحال التي ذكر الله. وهو وحيد غريب خائف جائع. قال : «يا رب وحيد مريض غريب. فقيل له : يا موسىٰ ، الوحيد : من ليس له مثلي أنيس. والمريض : من ليس له

---

(١) في أ ، غ ، ح سقط قوله : «أهل الإسلام» وفيها : «في الناس».

(٢) «إليها» : ساقطة من ق.

(٣) في البقية عدا م ، ق ، ج : «هم».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م ، والقائل هو امرئ القيس. انظر ديوانه ٧٩ وفيه : (ولكن من وارىٰ التراب غريب).

(٥) مَدْيَن : مدينة قوم شعيب - عليه السلام - علىٰ بحر القُلزُم محاذية لتبوك بين المدينة والشام علىٰ نحو ست مراحل وهي أكبر من تبوك وقيل هي اسم قبيلة وسميت بمدين بن إبراهيم - عليه السلام -. انظر : معجم البلدان ٥/ ٧٧ و ٧٨ ، والخطط المقريزية ١/ ١٨٦ و١٨٧.

مثلي طبيب. والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة»(١).

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله ﷺ بين هذا الخلق. وهي(٢) الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها(٣). وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «بدأ غريباً» [وأنه «سيعود غريباً كما بدأ»](٤) وأن «أهله يصيرون غرباء».

الأول: الغرباء الممدوحون

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون [قوم](٥) غيرهم، ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً(٦). فإنهم لم يأووا إلىٰ غير الله تعالىٰ، ولم ينتسبوا إلىٰ غير رسوله ﷺ ولم يدعوا إلىٰ غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم(٧): «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج منا إليهم اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده»(٨).

---

(١) لم أجده.

(٢) في م: «بين» بدل «وهي».

(٣) «أهلها» ساقطة من م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا قوله: «كما بدأ» فهي من أ، ب.

(٥) الزيادة من الجميع عدا ق، ج، م، وسقط من ط: «غيرهم».

(٦) «الله» ساقطة من م.

(٧) «لهم» ساقطة من ح، م، ب.

(٨) تقدم تخريجه ص٣٠٧٦ بلفظ: «وماذا كنتم تعبدون» وفي البخاري ومسلم: «ما كنتم تعبدون».

فهذه «الغربة» لا وحشة علىٰ صاحبها؛ بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس ، وأشد ما يكون وحشه[1] إذا استأنسوا ، فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجَفَوه. وفي حديث القاسم[2] عن أبي أمامة[3] عن النبي ﷺ قال : «**إن أغبط أوليائي عندي : لمؤمن. خفيف الحاذ ، ذو حظّ من صلاته، أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافاً ، وكان مع ذلك غامضا في الناس. لا يشار إليه بالأصابع ، وصبر علىٰ ذلك حتىٰ لقي الله ، ثم حلّت منيته ، وقلّ تراثُه ، وقلّت بواكيه**»[4].

---

(١) في البقية عداح ، ب ، م ، ق : «وما تكون وحشته».

(٢) أبو عبد الله القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي مولىٰ عبد الرحمن بن خالد بن يزيد بن معاوية القرشي الأموي سمع أبا أمامة وروىٰ عنه العلاء بن الحارث وكثير بن كثير مات سنة ١١٢هـ. انظر : تقريب التهذيب ٢/ ١١٨ ، والتاريخ الكبير ٧/ ١٥٩.

(٣) أبو أمامة صُدَىٰ بن عجلان بن وهب بن عمرو الباهلي من قيس عيلان صحابي مشهور سكن الشام ومات بها سنة ٨٦هـ. انظر : الجرح والتعديل ٤/ ٤٥٤ ، وتقريب التهذيب ١/ ٣٦٦ ، والتاريخ الكبير ٤/ ٣٢٦ و ٣٢٧.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب من لا يؤبه له ٢/ ١٣٧٩ (٤١١٧) ، وأحمد ٥/ ٢٥٢ و ٢٥٥ ، والترمذي في كتاب الزهد باب ماجاء في الكتمان والصبر عليه٤/ ٥٧٥ (٢٣٤٧) وقال : هذا حديث حسن وضعفه الألباني في : مشكاة المصابيح٣/ ١٤٣٣(٥١٨٩) وفي ضعيف الجامع (١٣٩٧) ومعنىٰ خفيف الحاذ : أي خفيف الحال أو خفيف الظهر من العيال. انظر : الإحالة السابقة علىٰ ابن ماجه.

ومن هؤلاء الغرباء : ما ذكرهم[1] أنس في حديثه عن النبي ﷺ : «رب أشعث أغبر. ذي طمرين لا يؤبه له. لو أقسم علىٰ الله لأبره»[2].

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل[3] عن النبي ﷺ قال : «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟» قالوا : بلىٰ ، يا رسول الله. قال : « كل ضعيف أغبر ، ذي طمرين لا يؤبه له. لو أقسم علىٰ الله لأبره»[4] ، وقال الحسن : «المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها ، ولا ينافس في عزِّها ، للناس حال ، وله حال. الناس منه في راحة ، وهو من نفسه في تعب»[5].

---

(١) في ط : «من ذكرهم».

(٢) الحديث تقدم تخريجه ص٣١١١.

(٣) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي العالم في الحلال والحرام روىٰ الحديث عن النبي ﷺ وشهد المشاهد كلها ، توفي - رضي الله عنه - بالطاعون في الشام سنة ١٧ أو ١٨ للهجرة وقد عاش ٣٤ سنة ، وقيل غير ذلك ، انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٠٦ و١٠٧ ، وسير أعلام النبلاء ١/ ٤٤٣ - ٤٦١.

(٤) رواه بلفظه الآجري في كتابه الغرباء ص٤٣ وجاء في بعض الروايات : «كل ضعيف متضعف» وفي أخرىٰ : «مستضعف» رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٣٣ ، وابن ماجه في كتاب الزهد باب من لا يؤبه له ٢/ ١٣٧٨ (٤١١٥) وحكم عليه الألباني بالضعف ، انظر: ضعيف سنن ابن ماجه ص٣٣٨ (٨٩٦) وقال الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء : (سنده جيد من حديث معاذ) انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٣٠٥ ، والطمر : هو الثوب الخلق. انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٣٨

(٥) انظر : قوله في البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢٧٢ ، ومحاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص٧٦ (٧٨).

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ : التمسك بالسنة ، إذا رغب عنها الناس(١). وترك ما أحدثوه ، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد. وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلىٰ أحد غير الله ورسوله ، لا شيخ ، ولا طريقة ، ولا مذهب ، ولا طائفة؛ بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلىٰ الله بالعبودية له وحده ، وإلىٰ رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون علىٰ الجمر حقاً ، وأكثر الناس - بل كلهم - لائِمٌ لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق : يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنىٰ قول النبي ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**»(٢) أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض علىٰ أديان مختلفة. فهم بين عباد أوثان، وعباد(٣) نيران، وعباد صلبان(٤) ، ويهود وصابئة(٥) وفلاسفة. فكان الإسلام في أول ظهوره غريباً.

---

(١) في ج : «إذا رغب الناس عنها».

(٢) في الأصل و ج ، م ، ق : «أنهم النزاع من القبائل» والمثبت كما في البقية وهو نص الحديث.

(٣) «وعباد» ساقطة من البقية عدام ، ق ، والوثن : هو الصنم ، وقيل : هو ما عبد من دون الله من حجر علىٰ غير صورة ، انظر : كتاب الأصنام ٥٣ ، ومختار الصحاح ٧٠٩.

(٤) في ط زيادة : «وصلبان».

(٥) **الصابئة** : جمع صابئ من صبأ أي خرج من دين إلىٰ دين ، وقد ذكر في تعريفهم أكثر من عشرة أقوال منها : أنهم فرقة من أهل الكتاب ، ومنها : أنهم قوم يعبدون الملائكة. ومنها : أنهم قوم باقون علىٰ فطرهم ولا دين لهم. انظر : مختار الصحاح ٣٥٤ ، والملل والنحل ٢/ ٥ ، وتفسير ابن كثير ١/ ١٠٦ ، ١٠٧.

وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ورسوله غريباً في حَيِّه [وقريته] (١) وقبيلته. وأهله وعشيرته.

وكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعاً من القبائل [بل] (٢) آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم. ودخلوا في الإسلام. فكانوا هم الغرباء حقاً. حتىٰ ظهر الإسلام وانتشرت دعوته، ودخل [الناس] (٣) فيه أفواجاً. فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتىٰ عاد غريباً كما بدأ؛ بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - (٤) اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جداً. وأهله غرباء (٥) بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً (٦)، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. لا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ﷺ؟ فإن نفس ما جاء به: يضاد أهواءهم [ولذاتهم] (٧)، وما

---

(١) الزيادة من: م.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط زيادة: «هو».

(٥) في ط زيادة: «أشد الغربة».

(٦) «قليلة جداً» ساقطة من أ، ب، غ.

(٧) الزيادة من الجميع.

هم عليه من الشبهات [١] التي هي منتهىٰ فضيلتهم وعلمهم [٢] ، والشهوات التي هي غاية[٣] مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلىٰ الله علىٰ طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء[٤] الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شحَّهم ، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ : **«مروا بالمعروف. وانهوا عن المنكر. حتىٰ إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوىٰ متبعاً ، ودنياً مُؤْثَرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه. ورأيت أمراً لا يد لك به ، فعليك بخاصة نفسك. وإياك وعوامهم. فإن وراءكم أيام صبر الصابر فيهن كالقابض علىٰ الجمر»**[٥]. ولهذا جعل له[٦] في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه -: أجر خمسين من الصحابة. ففي سنن أبي داود والترمذي[٧] - من حديث أبي ثعلبة الخشني [٨] - قال : «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) في ط زيادة : «والبدع» وبعدها : «منتهىٰ» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق : «وعملهم».

(٣) في البقية عدا ج ، م ، ق : «غايات».

(٤) في م : «من هؤلاء».

(٥) وبنحوه الحديث الآتي وسيأتي تخريجه.

(٦) في ط : «للمسلم الصادق».

(٧) هو سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر أو عمران أحد أئمة الحديث ، وهو صاحب السنن المعروفة ولد سنة ٢٠٢هـ وتوفي سنة ٢٩٨هـ انظر : تهذيب التهذيب ٤/ ١٦٩ - ١٧٣ (٩٨).

(٨) هو صحابي مشهور اختلف في اسمه واسم أبيه علىٰ أقوال كثيرة والأشهر منها جرثوم بن

ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] فقال : «بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتىٰ إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مُؤْثَرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن من ورائكم أيام الصبرِ الصبرُ فيهن مثل قبض علىٰ الجمر. للعامل فيهم أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله ». قلت : يا رسول الله ، أجر خمسين منهم؟ قال : «أجر خمسين منكم»(١). وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس ، والتمسك بالسنة بين ظلم(٢) أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن ، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه ، وفقهاً(٣) في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه(٤) ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات،

ناشر وكان ممن نزل الشام توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٧٥هـ وقيل غير ذلك. انظر : حلية الأولياء ٢/ ٢٩ - ٣١ ، والبداية والنهاية ٩/ ١١ و ١٢.

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة المائدة ٥/ ٢٥٧ (٣٠٥٨) وقال : هذا حديث حسن غريب ، وأبو داود في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ٤/ ٥١٢ (٤٣٤١) وابن ماجه في كتاب الفتن باب قوله تعالىٰ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ ٢/ ١٣٣٠ و ١٣٣١ (٤٠١٤) وابن حبان في صحيحه ١/ ٣٠١ و ٣٠٢ (٣٨٦) والحديث ضعفه الألباني وتكلم عن ثلاثة من رجال إسناده ، وقال : بأن الحديث يخالف المعروف في تفسير الآية. وهو قوله ﷺ : «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك أن يعمهم بعقابه». انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٩٤ و ٩٥ (١٠٢٥).

(٢) في ط : «ظلمات» و «بين» ساقطة من ق ، وفي أ : «آرائهم وأهوائهم».

(٣) في الأصل : «وفقه الله» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٤) في أ ، غ ، م : «ورأىٰ».

وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه علىٰ قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به. وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان[١] الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه[٢]. فأما إن دعاهم إلىٰ ذلك، وقدح فيما هم عليه: فهناك[٣] تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجِلِه.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع. غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، [٤] لفساد طرقهم. غريب في نسبته، لمخالفة نسبهم[٥]، غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم علىٰ ما لا تهوىٰ أنفسهم[٦].

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد[٧] مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين قوم[٨] جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلىٰ الله ورسوله

---

(١) في ط: «زيادة: » سلفهم من».

(٢) في ح: «متبوعهم وإمامهم».

(٣) في البقية عدا م، ق، ج: «فهنالك».

(٤) في ط زيادة: «الضلال».

(٥) في ب، ح، ج: «نسبتهم».

(٦) في أ، ب، غ، م: «لأنه لا يعاشرهم علىٰ ما تهوىٰ أنفسهم».

(٧) في ط زيادة: «من العامة».

(٨) «قوم» ساقطة من البقية عدا م، ج، ق.

بين دعاة إلىٰ الأهواء والبدع، آمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

فصل

النوع الثاني من الغربة

غربة مذمومة: وهي غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق. فهي غربة بين حزب الله[1]، وإن كثر أهلها فهم غرباء علىٰ كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة علىٰ كثرة مؤنسهم، يعرفون في أهل الأرض، ويخفون علىٰ أهل السماء.

فصل

النوع الثالث: غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم

وهي الغربة عن الوطن. فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء. فإنها ليست لهم[2] بدار مقام. ولا هي الدار التي خلقوا لها. وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**»[3]، وهكذا هو نفس الأمر؛

(١) في ط زيادة: «المفلحين».

(٢) «لهم» ساقطة من أ، غ.

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» ٧/ ١٧٠.

[لأنه][1] أمر أن يطالع ذلك بقلبه[2]، ويعرفه حق المعرفة ولي من أبيات في هذا المعنىٰ:

وحي علىٰ جنات عـدن فإنهـا منازلك الأولىٰ وفيها المخيـم
ولكننا سبي العدو فهـل تـرىٰ نعود إلىٰ أوطاننـا ونسلـم
وأي اغتراب فوق غربتنا الـتي لها أضحت الأعداء فينا تحكم
وقد زعموا أن الغريبَ إذا نَـأَىٰ وشطت به أوطانـه ليس ينعـم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة من العمر إلا بعـدها[3] يتألـم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً، وهو علىٰ جناح سفر. لا يحل عن[4] راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو[5] مسافر في صورة قاعد [وقد قيل][6]:

ومَا هَـذه الأيّـامُ إلا مَراحِـل يحثُّ بها دَاعٍ إلىٰ الموتِ قَاصِـدُ
وأَعجبُ مِن ذا[7] لو تأمّلْتَ أنهَا منازلُ تُطوَىٰ والمُسَـافِرُ قَاعِـدُ

---

(١) الزيادة من الجميع وعبارة م: «لكنه».

(٢) «بقلبه» ساقطة من م.

(٣) في البقية عدا م «بعد ما»، وانظر هذه الأبيات عدا الأخير منها في كتاب حادي الأرواح ص٧ و ٨، والقصيدة الميمية المطبوعة في كتاب أربح البضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة ص٦٤ و ٦٥.

(٤) «عن» ساقطة من ح.

(٥) «فهو» ساقطة من ق.

(٦) الزيادة من البقية عدا ج، م.

(٧) في البقية: «شيء» بدلاً من «من ذا» وانظر: هذين البيتين في كتاب بصائر ذوي التمييز ٤/ ١٢٨.

فصل

قال صاحب المنازل:

«الاغْتِرَابُ: أَمرٌ يُشَارُ بِهِ إِلىٰ الانفِرادِ عَن الأَكْفَاء»[1].

يريد: أن[2] كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه، فإنه غريب بينهم، لعدم مشاركه، أو قلته[3].

درجات الغربة

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الغُربَةُ عَن الأَوطَانِ، وَهَذَا الغَرِيبُ مَوتُهُ شَهَادَةٌ، وَيُقَاسُ لَه فِي قَبرِهِ مِن مَدْفَنِه إِلىٰ وَطَنِهِ، وَيجْمَعُ يَومَ القِيَامَةِ إِلَىٰ عِيسَىٰ بنِ مَريمَ»[4].

الدرجة الأولى

لما كانت «الغربة» هي الانفراد. والانفراد إما بالجسم، وإما بالقصد والحال[5]، وإما بهما كان الغريب غريب جسم، أو غريب قلب وإرادة وحال، أو غريباً بالاعتبارين.

قوله: «وَهَذَا الغَريبُ مَوتُه شَهَادَةٌ» يشير به: إلىٰ الحديث الذي روىٰ[6] عن

---

(١) منازل السائرين ١٠٨ وفي غ، ح: «علىٰ الأكفاء».

(٢) «يريد أن» ساقطة من ق.

(٣) في أ، غ، ح، ب، م: «لعدم مشاركته أو قلته» وفي ط: «أو لقلته».

(٤) منازل السائرين ١٠٨، وفيه: «من متوفاه» وفي م: «يوم القيامة» بدل: «في قبر».

(٥) «والحال» ساقطة من م.

(٦) في البقية: «يروىٰ».

هشام بن حسان (١) عن ابن سيرين (٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «موت الغريب شهادة» (٣) ولكن هذا الحديث لا يثبت. وقد روىٰ بطرق لا يصح منها شيء. قال الإمام أحمد: هذا حديث منكر.

وأما قوله: «وَيُقَاسُ (٤) لَهُ فِي قَبرِهِ مِن مَدفَنِهِ إِلَىٰ وَطَنِهِ» فيشير به (٥): إلىٰ ما

---

(١) أبو عبد الله هشام بن حسان الأزدي الفردوسي البصري، روىٰ عن حميد بن هلال والحسن البصري وابن سيرين وغيرهم توفي سنة ١٤٧هـ أو ١٤٨هـ. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ٣١٨، وتهذيب التهذيب ١١/ ٣٢ - ٣٥.

(٢) هو أبو بكر محمد بن سيرين مولىٰ أنس بن مالك ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان - رضي الله عنه - وكان ثقة مأموناً إماماً كثير العلم توفي - رحمه الله - سنة ١١٠هـ.

انظر: طبقات ابن سعد ٧/ ١٩٣ - ٢٠٦، وصفة الصفوة ٣/ ٢٤١ - ٢٤٨، وحلية الأولياء ٢/ ٢٦٣.

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز باب ما جاء فيمن مات غريباً ١/ ٥١٥ (١٦١٣) بلفظ: «موت غربة شهادة» ورواه الآجري في كتابه الغرباء ص٧٠ و ٧٢، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٥٨ و ٢٤٦، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٨٨، وقال: في هذا رواية من غير هذا الوجه شبيهة بهذه في الضعف. وقال ابن الجوزي في كتابه العلل المتناهية ٢/ ٤٠٨ - ٤١٠: (هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ قال أحمد بن حنبل: هو حديث منكر). وانظر: الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ٢٢١، وتمييز الطيب من الخبيث ص١٩٦ (١٤٩٦) وكشف الخفاء ٢/ ٢٩٠ (٢٦٦٥) وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني وقال: موضوع ١/ ٤٢٥ و ٤٢٦ (٤٢٥).

(٤) في أ، ع، ح، ب: «فيقاس» وبعدها في ق: «عليه» بدل: «له».

(٥) «به» ساقطة من م.

رواه عبدالله بن وهب[1] : حدثني حيي بن عبدالله[2] عن أبي عبدالرحمن الحُبُلي[3] عن عبدالله بن عمرو قال : توفي رجل بالمدينة - ممن ولد بالمدينة- فصلىٰ عليه رسول الله ﷺ. فقال : « **ليته مات في غير مولده** » . فقال رجل : ولم يا رسول الله؟ فقال : « **إن الرجل إذا مات قيس له من مولده إلىٰ منقطع أثره في الجنة** »[4]. رواه ابن لهيعة[5] عن حيي بهذا الإسناد. وقال : وقف رسول

(١) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري الفقيه ولد سنة ١٢٥هـ وتوفي سنة ١٩٧هـ. انظر : تهذيب التهذيب ٦/ ٧١-٧٤ (١٤٠) وطبقات ابن سعد ٧/ ٥١٨.

(٢) هو حيي بن عبد الله بن شريح المعافري المصري روىٰ عن أبي عبد الرحمن الحبلي وروىٰ عنه عبد الله بن وهب وهو صدوق يهم توفي سنة ١٤٨هـ. انظر : التاريخ الكبير ٣/ ٧٦ ، وتقريب التهذيب ١/ ٢٠٩.

(٣) في ط والبقية عدا ج ، ق : «البجلي» وهو : عبد الله بن يزيد المعافري أبو عبد الرحمن الحبلي المصري روىٰ عن عبد الله بن عمرو وغيره ، وروىٰ عنه حيي بن عبد الله وغيره وتوفي في أفريقية ودفن بباب تونس سنة ١٠٠هـ. انظر : التاريخ الكبير ٥/ ٢٢٦ و٣/ ٧٦ ، وتقريب التهذيب ١/ ٤٦٢ و ٢٠٩ ، وتهذيب التهذيب ٦/ ٧٤.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز باب ما جاء فيمن مات غريباً ١/ ٥١٥ (١٦١٤) وابن حبان في صحيحه ٤/ ٢٥٧ و ٢٥٨ ، وأحمد ٢/ ١٧٧ ، والنسائي في كتاب الجنائز باب الموت بغير مولده ٤/ ٧ ، والآجري في الغرباء ص٦٩ ، قال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٤ : (رواه النسائي واللفظ له وابن ماجه وابن حبان في صحيحه)، وحسنه الألباني انظر: صحيح ابن ماجه ١/ ٢٦٩ (١٣٠٩).

(٥) رواية ابن لهيعة في المسند والغرباء للآجري. وابن لهيعة هو : أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي قاضي مصر، روىٰ عن الأعرج وغيره، وروىٰ عنه ابن وهب وغيره،

الله ﷺ علىٰ قبر رجل بالمدينة. فقال : « يا له لو مات غريباً » . قيل : وما للغريب منا يموت بغير أرضه؟ فقال : « ما من غريب يموت بغير أرضه ، إلا قيس له من تربته إلىٰ مولده في الجنة» [1].

قوله : «وَيجُمَعُ يَومَ القِيَامَةِ إِلَىٰ عِيسَىٰ بنِ مَريَمَ» يشير إلىٰ الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا القاسم بن جميل[2] حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبدالله بن أوس [3] عن سليمان بن هرمز عن عبدالله بن عمرو [قال : قال رسول الله ﷺ][4] : «أحب شيء إلىٰ الله : الغرباء » . قيل : وما الغرباء ، يا رسول الله؟ قال : «الفرارون بدينهم. يجتمعون إلىٰ عيسىٰ بن مريم يوم القيامة»[5].

وأكثر المحدثين يفرقون في الرواية عنه قبل احتراق كتبه سنة ١٧٠هـ وبعد احتراقها ، وكان مولده سنة ٩٦هـ ومات سنة ١٩٤هـ.

انظر : الجرح والتعديل للرازي ٥/ ١٤٥ - ١٤٩ ، والمجروحين لابن حبان ٢/ ١١ و ١٤ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٢٣٧ ، ٢٣٩.

(١) بهذا اللفظ رواه الآجري في الغرباء ٧٠.

(٢) هذا خطأ والصواب الهيثم بن جميل وقد تقدم هذا الإسناد قريباً ص٣١٦٠ ، وكان فيه الهيثم ابن جميل.

(٣) في ط : «ابن عبدالله بن إدريس» وهو خطأ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) تقدم تخريجه ص٣١٦١ بلفظ : «إن أحب شيء».

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : غُربَةُ الحَالِ. وَهَذَا مِن الغُرَبَاءِ الَّذِينَ طُوبَىٰ لَهُم. وَهُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ فِي زَمَانٍ فَاسِدٍ ، وَبَينَ قَومٍ فَاسِدِينَ ، أَو عَالِمٌ بَينَ قَومٍ جَاهِلِينَ ، أَو صِدِّيقٌ بَينَ قَومٍ مُنَافِقِينَ»[1].

يريد بالحال ههنا : الوصف الذي قام به ، من الدين والتمسك بالسنة. ولا يريد به «الحال» الاصطلاحي عند القوم. والمراد به: العالم بالحق ، العامل به، الداعي إليه.

وجعل الشيخ «الغرباء» في هذه الدرجة ثلاثة أنواع : صاحب صلاح ودين بين قوم فاسدين. وصاحب علم ومعرفة بين قوم جهال. وصاحب صدق وإخلاص بين أهل كذب ونفاق. فإن صفات هؤلاء وأحوالهم تنافي صفات من هم بين أظهرهم. فمثل هؤلاء بين أولئك كمثل الطائر الغريب بين الطير[2] ، والكلب الغريب بين الكلاب.

و«الصديق» هو الذي صدق في[3] قوله وفعله، وصدق الحق بقوله وعمله[4].

(١) منازل السائرين ١٠٨.

(٢) في البقية عدا ج ، ق ، م ، «كمثل الطير الغريب بين الطيور».

(٣) «في» ساقطة من ق.

(٤) في م : «وفعله» بدل «وعمله».

فقد انجذبت قواه كلها للانقياد لله ورسوله[1]، عكس المنافق الذي ظاهره خلاف باطنه[2]، وقوله خلاف عمله.

فصل

قال: « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: غُربَةُ الهِمَّةِ. وَهِيَ غُربَةُ طَلَبِ الحَقِّ. وَهِيَ غُربَةُ العَارِفِ؛ لِأَنَّ العَارِفَ فِي شَاهِدِه غَرِيبٌ. وَمَصحُوبُه فِي شَاهِدِه غَرِيبٌ. وَمَوجُودُه فِيمَا يَحمِلُه عِلمٌ، أَوْ يُظهِرُه وَجْدٌ، أَوْ يَقُومُ بِهِ رَسْمٌ، أَو تُطِيقُهُ إِشَارَةٌ، أَوْ يَشْمَلُهُ اسمٌ غَرِيبٌ. فَغُربَةُ العَارِفِ: غُربَةُ الغُربَةِ؛ لِأَنَّه غَرِيبُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ»[3].

إنما كانت هذه الدرجة أعلىٰ مما قبلها؛ لأن الغربة[4] الأولىٰ غربة بالأبدان، والثانية: غربة بالأفعال والأحوال، وهذه الثالثة: غربة بالهمم. فإن همة العارف حائمة حول معروفه، فهو غريب في أبناء الآخرة، فضلاً عن أبناء الدنيا. كما أن طالب الآخرة: غريب في أبناء الدنيا.

قوله: «لأَنَّ العَارفَ فِي شَاهِدِه غَرِيبٌ» شاهد العارف: هو الذي يشهد

---

(١) في البقية عدا م، ق، ج: «ولرسوله».

(٢) في ج زيادة: «وقوله خلاف باطنه» والأولىٰ عدمها لعدم مناسبتها.

(٣) منازل السائرين ص١٠٨ و ١٠٩، وفيه: «لأنه غريب الدنيا وغريب الآخرة» وفي البقية عدا الأصل و م، ق، ج: «لا يحمله علم» وفي غ بعدها: «أن يظهره».

(٤) «الغربة» ساقطة من م.

عنده(١) وله بصحة ما وجد، وأنه كما وجد، وبثبوت ما عرف، وأنه كما عرف.

وهذا الشاهد: أمر يجده من قلبه(٢). وهو قربه من الله، وأُنسُه به، وشدة شوقه إلىٰ لقائه، وفرحه به. فهذا شاهده في سرِّه وقلبه، وله شاهد في حاله [وعلمه](٣) وعمله، يصدق هذا الشاهد الذي في قلبه.

وله شاهد(٤) في قلوب الصادقين، يصدق هذين الشاهدين. فإن قلوب الصادقين لا تشهد بالزور ألبتة. فإذا خفي عليك شأنك وحالك، فاسأل عنك قلوب الصادقين تشهد(٥) فإنها تخبرك عن حالك.

قوله: «وَمَصحُوبُه فِي شَاهِدِه غَرِيبٌ» مصحوبه في شاهده: هو الذي يصحبه فيه من العلم والعمل(٦) والحال. وهو غريب بالنسبة إلىٰ غيره ممن لم يذق طعم هذا الشأن؛ بل هو في واد وأهله(٧) في واد.

وقوله: «وَمَوجُودُه فِيمَا(٨) يَحمِلُه عِلْمٌ... إلىٰ آخره».

---

(١) «عنده» ساقطة من ق وبعدها في الأصل، أ: «بصحبة» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٢) في ق: «في قلبه» وفي غ: «قبله» وبعدها: «وهو» ساقطة من م.

(٣) الزيادة من م.

(٤) «وله شاهد» ساقطة من م.

(٥) «تشهد» ساقطة من الجميع.

(٦) في ق: «من العمل والعلم».

(٧) في ح: «وهم».

(٨) في البقية عدا ج، م، ق: «لا يحمله» وبعدها: «علم» ساقطة من م.

يريد بموجوده : ما يجده في شهوده وجداناً ذاتياً حقيقياً في هذه المراتب المذكورة؛ لأن الشهود يشملها كلها حالة المشاهدة.

فأما ما يحمله العلم : فهو أحكام العلم التي متىٰ انسلخ منها انسلخ من الإيمان. وموجوده في هذه المشاهدة(١) في هذه الحال : هو إصابته(٢) وجه الصواب ، الذي أراده الله ورسوله بشرعه وأمره. وهذه الإصابة غريبة جداً عند أهل العلم؛ بل هي متروكة عند كثير منهم. فليس الحلال إلا ما حلله(٣) من قلدوه ، والحرام ما حرمه ، والدين ما أفتي به. يقدم علىٰ النصوص ، وتترك له أقوال الرسول (٤) والصحابة وسائر أهل العلم.

قوله : «أَو يُظهِرُهُ وَجْدٌ» الوجد : يظهر أموراً ينكرها من لم يكن له ذلك الوجد ، ويعرفها من كان له ، وهذا [«الوجد»] (٥) إن شهد له العلم بالقبول وزكاه : فهو وجد صحيح. وإلا [فهو](٦) وجد فاسد ، وفيه انحراف.

والمقصود : أن ما يظهره وجدُ هذا العارف بالله ، وأسمائه وصفاته ،

---

(١) في الأصل : «المشاهد» والمثبت كما في البقية ، لمناسبة ما قبله وهو قوله : «ما يجده في شهوده» وسقط من غ و ح قوله : «وهذه المشاهدة».

(٢) في ج : «إجابته» بدل «إصابته».

(٣) في ط : «أحله» وبعدها : «من قلدوه» ساقطة من ق.

(٤) «الرسول» ساقطة من ج ، ب ، م ، ق.

(٥) الزيادة من البقية عدا م.

(٦) الزيادة من البقية عدا ج ، م ، ق.

وأحكامه : غريب علىٰ غيره ، بحسب همّته ومعرفته وطلبه.

قوله : «يَقُومُ بِهِ رَسمٌ» الرسم : هو الصورة الخَلْقية وصفاتها وأفعالها عندهم. والذي يقوم به هذا «الرسم» هو الذي يقيمه من تعلق اسم «القيوم» به. فإن «القيوم» هو القائم بنفسه ، الذي قيام كل شيء به ، أي هو المقيم لغيره. فلا قيام لغيره بدون إقامته له [١]. وقيامه هو بنفسه لا بغيره.

ويحتمل أن يريد به معنىً آخر. وهو ما يقوىٰ رسمه علىٰ القيام به. فإن وراء ذلك مالا يقوىٰ رسم العبد علىٰ إظهاره ، ولا [٢] القيام به. وهذا أظهر المعنيين من كلامه [٣]. وسياقه إنما يدل عليه. ولهذا قال بعد ذلك «أو تطيقه إشارة» أي تقدر [٤] علىٰ إفهامه وإظهاره إشارة. فتنهض الإشارة بكشفه.

ثم قال : «أَو يَشمَلُه اسمٌ» [٥] يعني : أو تناله عبارة.

فذكر الشيخ خمس مراتب. الأولىٰ : مرتبة حمل [٦] العلم له. الثانية : مرتبة

---

(١) «له» ساقطة من م ، وانظر هذا الكلام في كتاب اشتقاق أسماء الله للزجاجي ص١٠٥ - ١٠٨ ، والمقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ لأبي حامد الغزالي ١١٧ ، وشرح أسماء الله الحسنىٰ لسعيد القحطاني ١٥٧.

(٢) «لا» ساقطة من م.

(٣) في ب : «في كلامه».

(٤) في ط : «لا تقدر».

(٥) في البقية عدا ج ، م ، ق : «رسم».

(٦) في الأصل «حلم» وهو خطأ وبعدها : «له» ساقطة من م وكذلك التي بعدها.

إظهار الوجد له. الثالثة : مرتبة قيام الرسم به. الرابعة : مرتبة إطاقة الإشارة له[١]. الخامسة : مرتبة شمول العبارة له.

ومقصوده : أن موجود[٢] العارف أخفىٰ وأدقُّ من موجود غيره. فهو غريب بالنسبة إلىٰ موجود سواه[٣]. وأخبر : أن موجوده في هذه المراتب غريب. فكيف بموجوده الذي لا يحمله علم ، ولا يظهره وجد ، ولا يقوم به رسم ، ولا تطيقه إشارة ، ولا تشمله عبارة؟ فهذا أشد غربة.

قوله : «فَغُربَةُ العَارِفِ : غُربَةُ الغُربَةِ» و«الغربة»[٤] أن يكون الإنسان بين[٥] أبناء جنسه غريباً ، مع أن له نسبة بهم[٦].

وأما غربة الغربة[٧] : فلا يبقىٰ معها نسبة بينه وبين أبناء جنسه إلا بوجه بعيد؛ لأنه في شأن والناس في شأن آخر. فغربته غربة الغربة.

وأيضا فالصالحون غرباء في الناس ، والزاهدون غرباء في الصالحين ، والعارفون غرباء في الزاهدين.

---

(١) «له» ساقطة من ق.

(٢) في غ : «وجود».

(٣) «سواه» ساقطة من م.

(٤) «الغربة» ساقطة من م.

(٥) في الأصل : «من» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٦) في ط : «نسباً» وفي البقية بعدها عدا م ، ق ، ج : «فيهم».

(٧) في البقية عدا غ ، م : «المعرفة» وفي هامش أ : «لعلها غربة».

قولـه : «لأَنَّـه غَريـبُ الـدُّنيَا - وَغَرِيـبُ[1] الآخِـرَةِ». يعنـي : [2] أبنـاء الـدنيا لا يعرفونه؛ لأنه ليس منهم ، وأهل الآخرة - العباد الزهاد - لا يعرفونه؛ لأن شأنه وراء شأنهم. هممُهـم [3] متعلقـة بالعبـادة. وهمَّتُـه متعلقـة بـالمعبود ، مـع قيامـه بالعبادة. فهو يرىٰ الناس ، والناس لا يرونه. كما قيل :

تستَّرتُ من دهري بظلِّ جناحِـه   فعيني ترَىٰ دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسميَ مـا دَرَتْ   وأين مكاني ما عَرَفْـن مكـاني[4]

* * *

(١) «وغريب» ساقطة من م.

(٢) في ط زيادة : «أن».

(٣) في البقية عدا م ، ق ، ج : «همتهم».

(٤) القائل أبو نواس في ديوانه ٤٦٩ ، وانظر : البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٨ ، وانظر : شرح البيتين في طريق الهجرتين ٣٤٧.

فصل(١)

[منزلة الغرق]

قال صاحب المنازل(٢):

منزلة الغرق

« (بَابُ الغَرَقِ(٣)) قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] هَذَا اسْمٌ يُشَارُ بِهِ فِي هَذَا البَابِ إِلَىٰ مَن تَوَسَّطَ المَقَامَ، وَجَاوَزَ حَدَّ التَّفَرُّقِ»(٤).

وجه استدلاله بإشارة الآية: أن إبراهيم ﷺ لما بلغ(٥) - هو وولده - في المبادرة إلىٰ الامتثال، والعزم عل إيقاع الذبح المأمور به: ألقاه الوالد(٦) علىٰ جنبه في الحال، وأخذ الشفرة، وأهوىٰ إلىٰ حلقه - أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفني بأمر الله عنهما - فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم

---

(١) «فصل» ساقطة من ح.

(٢) في البقية عدا ج، م، ق: «قال شيخ الإسلام».

(٣) الغرق في اللغة: الرسوب في الماء. انظر: مختار الصحاح ٤٧٢، والمفردات في غريب القرآن ٣٦٠. وفي اصطلاح الصوفية: هو توسط مقام الولاية لاستيلاء المحبة، والانغمار في غمار المقت، والاستغراق في بحر الحكمة. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٣٩.

(٤) منازل السائرين ١٠٩.

(٥) في ط زيادة: «ما بلغ».

(٦) في الأصل: «الولد» والمثبت كما في البقية وبعدها في ج: «علىٰ جنبيه» وفي البقية عدا م، ق: «جبينه».

علىٰ الله. وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

وقوله : «فَلَمَّا أَسْلَما» أي استسلما وانقادا لأمر الله. فلم يبق هناك منازعة ، لا من الوالد ولا من الولد؛ بل استسلام صرف ، وتسليم محض.

وقوله : ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه علىٰ جبينه ، وهو جانب(١) الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم ، وتلك(٢) هيئة ما يراد ذبحه.

وقوله : «تَوَسَّطَ المَقَامَ» لا يريد به مقاما معيناً. ولذلك أبهمه ولم يقيده. و«المقام» عندهم : منزل(٣) من منازل السالكين. وهو يختلف باختلاف مراتبه. وله بداية وتوسط ونهاية. فـ «الغرق» المشار إليه : أن يصير في وسط المقام.

فإن قيل : «الغرق» أخص بنهاية المقام من توسطه؛ لأنه استغراق فيه بحيث يستغرق(٤) قلبه وهمه. فكيف جعله(٥) الشيخ توسّطاً فيه؟

قلت : لما كانت همة الطالب - في هذه الحال - مجموعة علىٰ المقصود. وهو معرض عما سواه. قد فارق مقام التفرقة ، وجاوز حدَّها إلىٰ مقام الجمع. فابتدأ في المقام - وأوَّلُ كل(٦) مقام : يشبه آخر الذي قبله - فلما توسط فيه

---

(١) في م : «حاجب» وفي المفردات في غريب القرآن ٨٧ : «جانب».

(٢) في ط زيادة : «هي».

(٣) «منزل» ساقطة من م.

(٤) في الأصل : «يستفرع» والمثبت كما في البقية ، وفي غ ، ح : «يستغرقه».

(٥) في م : «يجعله».

(٦) في م : «وأول كل مقام منه أخبر الذين قبله».

استغرق قلبه وهمّه وإرادته، كما يغرق من توسط اللجَّة [1] فيها قبل وصوله إلىٰ آخرها.

درجات الغرق

الدرجة الأولى

قوله: «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: استِغرَاقُ العِلمِ فِي عَينِ الحَالِ، وَهَذا رَجُلٌ قَد ظَفَرَ بِالاستِقَامَةِ، وَتحَقَّقَ فِي الإِشَارَةِ، فَاستَحقَّ صِحَّةَ النِّسبَةِ**»[2].

هذه الدرجة التي بدأ بها: هي أول درجاته؛ [لأن الرجل][3] قد يكون عالما بالشيء ولا يكون متصفاً بالتخلق به واستعماله. فالعلم شيء والحال شيء آخر[4]. فعلم العشق، والصحة، والشكر، والعافية غير حصولها والاتصاف[5] بها. فإذا غلب عليه حال تلك المعلومات صار علمه بها كالمغفول [6] عنه. وليس بمغفول عنه؛ بل صار الحكم للحال.

فإن العبد يعرف الخوف من حيث العلم، ولكن إذا اتصف بالخوف،

---

(١) اللجة: يقصد بها المؤلف لجة البحر: وهو معظمه وتردد أمواجه. انظر: المفردات في غريب القرآن ٤٤٨، ومختار الصحاح ٥٩٢.

(٢) منازل السائرين ١٠٩.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في غ، أ، ح: «واحد» بدل «آخر».

(٥) في الأصل: «والاتصال» والمثبت كما في البقية وهو الأولىٰ.

(٦) في البقية عدا ج، ق، وكذا ط: «كالمعقول عنه وليس بمعقول» والمثبت هو الصواب لقوله فيما بعد: «واستغرق علمه في حاله فلم يذكر علمه» أي كأنه مغفولاً عنه.

وباشر [1] قلبه : غلب عليه حال الخوف والانزعاج ، واستغرق علمه في حاله. فلم يذكر علمه لغلبة حاله عليه.

ومن هذه حالُه قد ظفر بالاستقامة؛ لأن العلوم إذا أثمرت الأحوال : كانت عنها الاستقامة في الأعمال ، ووقوعها علىٰ وجه الصواب ، وتحقق صاحبها في الإشارة إلىٰ ما وجده من الأحوال ، ولم تكن إشارته عن تخمين [2] وظن وحسبان ، واستحق اسم النسبة - في صحة العبودية - إلىٰ الرحمن عز وجل كقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢ ، والإسراء : ٦٥] وقوله : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وقوله : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان : ٦] ، وقوله : ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الزخرف : ٦٨].

والمقصود : أن هذا قد انتقل من أحكام العمل بالعلم [3] وحده إلىٰ أحكام العمل بالحال المصاحب للعلم. فهو عامل بالمواجيد [4] الحالية ، المصحوبة بالعلوم النبوية. فإن انفراد العلم عن الحال تعطيل وبطالة ، وانفراد الحال عن

---

(١) في ط زيادة : «الخوف».

(٢) «تخمين» ساقطة من م.

(٣) «بالعلم» ساقطة من ط.

(٤) المواجيد : عرفها القشيري في الرسالة ٦٢ ، بأنها : ثمرات الأوراد ، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج ٣/ ٢٣٠ : (مكاشفة الحال هي المواجيد التي يجدها السالك بوارداته حتىٰ يبقىٰ الحكم لقلبه وحاله) وانظر فيما تقدم: منزلة الوجد. وانظر فيما سيأتي منزلة الوجود.

العلم : كفر وإلحاد. والأكمل : أن لا يغيب عن شهود العلم بالحال ، وإن استغرقه الحال عن شهود العلم ، مع قيامه بأحكامه : لم يضره.

قوله : «**وَهَذَا رَجُلٌ قَد ظَفَر بِالاستِقَامَةِ**» أي هو علىٰ محجة الطريق القاصد إلىٰ الله ، الموصل إليه ، و «الظفر» هو حصول الإنسان علىٰ مطلوبه.

قوله : «**وَتحَقَّقَ فِي الإِشَارَةِ**» أي إشارته إشارة تحقيق. ليست كإشارة صاحب البرق الذي يلوح ثم يذهب.

قوله : «**فَاستَحَقَّ صِحَّة النِّسبَةِ**» لأنه لما استقام ، وصح حاله بعلمه[١] ، وأثمر علمه حاله : صحت نسبة العبودية له. فإنه لا نسبة بين العبد والرب إلا نسبة العبودية.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : استِغرَاقُ الإِشَارَةِ فِي الكَشفِ ، وَهَذَا رَجُلٌ يَنطِقُ عَن مَوجُودِهِ ، وَيَسِيرُ مَع مَشهُودِهِ ، وَلاَ يحُِسُّ بِرُعُونَةِ رَسمِهِ**»[٢].

إنما كانت[٣] هذه الدرجة أرفع مما قبلها؛ لأن صاحب الدرجة الأولىٰ غايته: أن يشير[٤] إلىٰ ما تحققه ، وإن فارقه. وصاحب هذه الدرجة : قد فني عن

---

(١) في البقية عدا ج ، م ، ق : «بعمله» وبعدها في ح : «وأثمر عمله».

(٢) منازل السائرين ص١٠٩ و ١١٠ ، وفي ج ، ق : «ويسير مع شهوده».

(٣) في غ ، ب : «إنما هذه الدرجة كانت».

(٤) في ج : «يسير».

الإشارة، لغلبة توالي نور الكشف عليه. فاستغراق الإشارة في الكشف: هو ارتفاع حكمها فيه. فإن الإشارة - عندهم - نداء علىٰ رأس البعد [1]، وبوح بمعنىٰ الغاية. وقد ارتفعت العلل عن صاحب هذه الدرجة، فاستغرقت إشارته في كشفه، فلم يبق له [2] إشارة [في الكشف]، وإنما ترتفع الإشارة لاستغراق الكشف لها. إلا أن صاحب هذه الدرجة فيه بقية من روعونة رسمه. فلذلك قال: «**وَلاَ يُحَسُّ بِرُعُونَةِ رَسْمِهِ**» ورعونة الرسم: هي التفاته إلىٰ إنِّيته.

وقوله: «**وَهَذَا رَجُلٌ يَنطِقُ عَن مَوجُودِهِ**». أي لا يستعير ما يذكره من الذوق والوجد من غيره. ويكون لسانه ناطقاً به علىٰ حال غيره وموجوده. فهو ينطق عن أمر هو متصف به، لا وصاف له.

قوله: «**وَيَسِيرُ مَع مَشهُودِهِ**» [3] هو بالسين المهملة. أي يسير إلىٰ الله عز وجل عن شهود وكشف، لا مع حجاب وغفلة. فهو سائر إلىٰ الله بالله مع الله.

---

(١) في الجميع عدا م: «العبد» وبعدها في الجميع: «وبوح بمعنىٰ العلة».

والإشارات: كما قال ابن القيم - رحمه الله - في المدارج ٢/ ٤١٦: «هي المعاني التي تشير إلىٰ الحقيقة من بعد ومن وراء حجاب، وهي تارة تكون من مسموع، وتارة تكون من مرئي، وتارة تكون من معقول، وقد تكون من الحواس كلها» وانظر أيضاً: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٤٤.

(٢) في م: «لها» والزيادة بعدها من البقية عدا ج، م، ق.

(٣) في الأصل، ق، م، ح: «مع شهوده» والمثبت كما في البقية وهو كذا في المنازل.

قوله : «وَلاَ يُحِسُّ بِرُعُونَةِ رَسْمِهِ» الرسم - عندهم - هو ذات العبد التي تفنىٰ عند [1] الشهود. وليس المراد بفنائها : عدمها من الوجود العيني؛ بل عدمها من الوجود الذهني العلمي. هذا مرادهم بقولهم «فني من لم يكن. وبقي من لم يزل».

وقد يريدون به معنىٰ آخر. وهو : اضمحلال الوجود المحدث ، الحاصل بين عدمين ، وتلاشيه في الوجود الذي لم يزل ولا يزال.

وللملحد ههنا مجال يجول فيه. ويقول : إن الوجود المحدث لم يكن له حقيقة، وإن الوجود القديم الدائم وحده هو الثابت ولا وجود لغيره ، لا في ذهن ، ولا في خارج. وإنما هو وجود فائض علىٰ الدوام علىٰ ماهيات معدومة[2]. فتكتسي بعين وجوده بحسب استعداداتها [3]. والمقصود : شرح كلام الشيخ.

والمراد «برعونة الرسم» ههنا : بقية تبقىٰ من صاحب الشهود ، لا يدركها لضعفها وقلتها ، واشتغاله بنور الكشف عن ظلمتها [4]. فهو لا يحسُّ بها.

---

(١) في غ ، ح : «عن الشهود».

(٢) في ح : «مذمومة» وبعدها في م : «فيكتسب».

(٣) انظر قول التلمساني في شرحه للمنازل ٢/ ٥١٧ و ٥٦٩ - ٥٧٣.

(٤) في م : «طلبها».

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : استِغرَاقُ الشَّوَاهِدِ فِي الجَمعِ. وَهَذَا رَجُلٌ شَمِلَتْهُ أَنوَارُ الأَوَّلِيَّةِ. فَفَتَحَ عَينَهُ فِي مُطَالَعَةِ الأَزلِيَّةِ. فَتَخَلَّصَ مِنَ الهِمَمِ الدَّنِيَّةِ»(١).

إنما كان(٢) هذا «الاستغراق» عنده أكمل مما قبله : لأن الأول استغراق كاشف(٣) في كشف. وهو متضمن لتفرقة ، وهذا استغراق(٤) عن شهود كشفه في الجمع. فتمكن هذا في حال جمع همَّته مع الحق ، حتىٰ غاب عن إدراك شهوده ، وذكر رسومه ، لما توالىٰ عليه من الأنوار التي خصَّه الحق بها في الأزل. وهي أنوار كشف اسمه «الأول» ففتح عين بصيرته في مطالعة الاختصاصات الأزلية ، فتخلص بذلك من الهمم الدنية ، المنقسمة بين تغيير(٥) مقسوم ، أو تفويت مضمون ، أو تعجيل مؤخر ، أو تأخير سابق أو نحو ذلك.

وقد يراد «بالهمم الدَّنيَّة» تعلقها بما سوىٰ الحق سبحانه ، وما كان له. وعلىٰ هذا فاستغرقت(٦) شواهده في جمع الحكم وشموله.

---

(١) منازل السائرين ١١٠ ، وفيه : «وفتح عينه».

(٢) في ق زيادة : «ضد» وهو خطأ.

(٣) في ب : «إشارة في كشف».

(٤) في أ ، غ : «الاستغراق».

(٥) في م : «تعيين» وبعدها في الأصل : «أو تقريب» والمثبت كما في البقية لموافقة المعنىٰ.

(٦) في ط : «فاستغراق».

وقد يراد به معنىً آخر. وهو : استغراق شواهد الأسماء والصفات في الذات الجامعة لها. فإن الذات جامعة لأسمائها وصفاتها. فإذا استغرق العبد في حضرة الجمع غابت الشواهد في تلك الحضرة.

وأكملُ من ذلك : أن يشهد كثرة في وحدة ، ووحدة في كثرة ، بمعنىً(١) : أنه يشهد كثرة الأسماء والصفات في الذات الواحدة ، ووحدة الذات مع كثرة أسمائها وصفاتها.

وقوله : «فَفَتَحَ عَينَهُ فِي مُطَالَعَةِ الأَزَلِيَّةِ» أي (٢) : نظر بالله لا بنفسه. واستمد من فضله وتوفيقه ، لا من معرفته وتحقيقه. فشاهد سبق الله سبحانه لكل شيء وأوليته قبل كل شيء. فتخلص من همم المخلوقين المتعلقة بالأدنىٰ. وصارت له همة عالية متعلقة بربه الأعلىٰ. تسرح في رياض الأنس به (٣) ومعرفته. ثم تأوي إلىٰ مقامها(٤) تحت عرشه ، ساجدة له ، خاضعة لعظمته ، متذللة لعزته ، لا تبغي عنه حولاً ، ولا تروم به بدلاً.

* * *

---

(١) في ج : «يعني» وفي البقية عدا ج ، م ، ق : «أن يشهد».

(٢) «أي» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) «به» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح ، م.

(٤) في البقية عدا م ، ق ، ج : «مقاماتها» وبعدها في ق : «تحت العرش».

فصل

[منزلة الغَيْبَة]

قال صاحب المنازل:

«(بَابُ الغَيبَةِ) قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]»[١].

وجه استدلاله بإشارة الآية: أن يعقوب ﷺ لما ابتلي[٢] قلبه بحب يوسف - عليه الصلاة والسلام - وذكره: أعرض عن ذكر أخيه، مع قرب عهده بمصيبة فراقه. فلم يذكره مع ذلك. ولم يتأسف عليه، غيبة عنه بمحبة يوسف، واستيلائه علىٰ قلبه. ولو استدل بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] لكان دليلاً أيضاً. فإن مشاهدته في تلك الحال غيَّب عنهن[٣]

---

(١) منازل السائرين ١١٠، والغيبة: في اللغة من الغيب وهو كل ما غاب عنك. انظر: مختار الصحاح ٤٨٥، والمصباح المنير ٤٥٧، ٤٥٨.

وفي اصطلاح الصوفية هي كما قال الطوسي في اللمع ٤١٦: غيبة القلب عن مشاهدة الخلق بحضوره ومشاهدته للحق بلا تغيير ظاهر العبد.

وقال الكاشاني في اصطلاحات الصوفية ٣٤١ هي: غيبة السالك عن رسوم العلم لقوة نور الكشف.

(٢) في البقية: «امتلأ».

(٣) في ط: «عن النسوة».

السكاكين وما يقطع(1) بهن، حتىٰ قطعن أيديهن ولا يشعرن. وذلك من قوة الغيبة.

درجات الغيبة

[قال الشيخ: «[الغَيبَةُ](2) - الَّتِي يُشَارُ إِلَيهَا فِي هَذَا البَابِ - عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ.

الدرجة الأولى

الأُولَىٰ: غَيبَةُ المُرِيدِ(3) فِي تخَلُّصِ القَصْدِ عَن أَيدِي العَلاَئِقِ، وَدَرَكِ العَوَائِقِ، لِالْتِمَاسِ الحَقَائِقِ»(4).

يريد غيبة المريد عن بلده ووطنه وعاداته، في محل تخليص القصد وتصحيحه، ليقطع بذلك العلائق. وهي(5) ما يتعلق بقلبه وقالبه وحسِّه من المألوفات. ويسبق العوائق(6)، حتىٰ لا تلحقه ولا تدركه.

وقوله: «لِالْتِمَاسِ الحَقَائِقِ» متعلق(7) بقوله: «غَيبَةُ المُرِيدِ» أي هذه الغيبة لالتماس الحقائق. فإن «العوائق» و«العلائق» تحول بينه وبين طلبها وحصولها لمضادتها لها.

و«الحقائق» جمع حقيقة، ويراد بها: الحق تعالىٰ وما نسب إليه. فهو

---

(١) في البقية عدا ج، م، ق: «وما يقطعن».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) سقط من م إلىٰ قوله: «عن بلده».

(٤) منازل السائرين ١١٠، وفيه: «التي يشار بها... الدرجة الأولىٰ... في مخلص القص».

(٥) في غ، ح: «وهو».

(٦) في م: «السوابق».

(٧) في غ: «متعلقة» وسقط من ق إلىٰ قوله: «فإن العوائق» وفي م: «العلائق والعوائق».

الحق، وقوله الحق ، ووعده الحق ، ولقاؤه حق ، ورسوله حق ، وعبوديته وحده حق ، وعبودية ما سواه باطل [١]. فكل شيء ما خلا الله باطل.

والمقصود : أن المريد إذا [٢] لم يتخلص قصده في مطلوبه عما يعوقه من [٣] الشواغل ، أو يدركه [٤] من المعوقات : لم يبلغ إلىٰ مقصوده. ولم يصل إليه ، وإن وصل إليه فبعد جهد شديد ومشقة ، بسبب تلك الشواغل [٥]. ولم يصل القوم إلىٰ مطلبهم إلا بقطع العلائق ، ورفض الشواغل.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : غَيبَةُ السَّالِكِ عَن رُسُومِ العِلمِ ، وَعِلَلِ السَّعيِ ، وَرُخَصِ الفُتُورِ» [٦].

يريد : أنه ينتقل [٧] عن أحكام العلم إلىٰ أحكام الحال. وهذا كلام فيه إجمال. فالملحد يفهم منه : أنه يفارق أحكام العلم ، ويقف مع أحكام الحال. وهذا زندقة وإلحاد.

---

(١) في البقية عدا م ، ق ، ج : «الباطل» وبعدها : «شيء» ساقطة من غ.

(٢) في البقية : «إن».

(٣) في غ ، م «عن».

(٤) في ط : «أو ما يدركه من المعوقات لم يبلغ مقصوده».

(٥) سقط من م ، غ ، أ إلىٰ قوله : «فصل».

(٦) منازل السائرين ١١٠.

(٧) سقط من م إلىٰ قوله : «من أحكام» وفي ط : «عن أحكام العلم إلىٰ الحال».

والموحد يفهم منه : أنه ينتقل من أحكام العلم وحده إلىٰ أحكام الحال المصاحب للعلم. فإن العلم الخالي عن[1] الحال : ضعف في الطريق. والحال المجرد عن العلم : ضلال عن الطريق. ومن عبدالله بحال مجرد عن علم لم يزدد من الله إلا بعداً.

قوله : «وَعِلَلِ السَّعي» يعني : أن السالك يغيب عن علل سعيه وعمله[2]. وهذه العلل عندهم : هي اعتقاده أنه يصل بها إلىٰ الله ، وسكونه إليها ، وفرحه بها ورؤيتها. فيغيب عن هذه العلل.

ومراده بغيبته عنها[3] : إعدامها حتىٰ لا تحضره ، لا أنه يغيب عنها وهي موجودة قائمة. نعم إذا اعتقد أن الله يوصله إليه بها ، ويفرح بها من جهة الفضل والمنَّة ، وسبق الأوليَّة ، لا من جهة الاكتساب والفعل : لم يضره ذلك؛ بل هذا أكمل. وهو في الحقيقة سكون إلىٰ الله ، وفرح به. واعتقاد أنه هو الموصل لعبده إليه بما منه وحده ، لا بحول العبد وقوته. فهذا لون وهذا لون.

والحاصل : أنه إذا انتقل عن أحكام العلم المجرد إلىٰ أحكام الحال المصاحب للعلم غابت عنه علل السعي.

وكذلك تَغِيبُ عنه «رخصُ الفتور» فلا ينظر إلىٰ عزيمة السعي. ولا يقف

---

(١) «الخالي عن» ساقطة من م.

(٢) في م : «وعلمه».

(٣) «عنها» ساقطة من م.

مع رخص الفتور. فهما آفتان للسالك. فإنه إما أن يجرد عزمه وهمَّه(١) فينظر إلىٰ ما منه، وأن همته وعزيمته تحمله وتقوم به. وإما أن يترخص برخصة(٢)، تفتر عزمه وهمّته. فكمال جده وصدقه وصحة طلبه: يخلصه من رخص الفتور، وكمال توحيده، ومعرفته بربه ونفسه: يخلصه من علل السعي.

فصل

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: غَيبَةُ العَارِفِ عَن عُيُونِ الأَحْوَالِ وَالشَّوَاهِدِ، وَالدَّرَجَاتِ فِي عَينِ الجَمْعِ**»(٣).

إنما كانت هذه الدرجة عنده أعلىٰ علىٰ طريقته في كون الفناء غاية الطالب.

وهذه الدرجة هي غيبته عن خيرات ومقامات بما هو أكمل منها، وأشرف عنده. وهو حضرة الجمع.

ومعنىٰ: «**غَيبَتِهِ عَن عُيُونِ الأَحْوَالِ**» هو(٤) أن لا يرىٰ الأحوال ولا تراه. فلذلك استعار لها عيوناً؛ لأن الأحوال تقتضي واجداً(٥) وموجوداً ووجداناً. وهذا ينافي الفناء في حضرة الجمع. فإن الجمع يمحو [أثر](٦) الرسوم. وقد

(١) في ط، م: «همته».

(٢) في ط: «برخص».

(٣) منازل السائرين ١١١، وفيه: «في حصن الجمع».

(٤) «هو» ساقطة من م.

(٥) في البقية عدا م، ق، ج: «وجداً».

(٦) الزيادة من الجميع عدا م، ق، ج.

عرفت مراراً(١) أن هذا ليس بكمال ، ولا هو مطلوب لنفسه. وغيره أكمل منه.

وأما «غَيبَتهُ عَن الشَّوَاهِدِ» فقد يريد بها : شواهد المعرفة وأدلتها. فيغيب بمعروفه عن الشواهد الدالة عليه في الخارج وفي نفسه.

وقد يريد بالشواهد : الأسماء والصفات ، والغيبة عنها بشهود الذات. ولكن هذا ليس بكمال ، ولا هو أعلىٰ من شهود الأسماء والصفات؛ بل هذا الشهود هو شهود المعطلة المنكرة(٢) لحقائق الأسماء والصفات. فإنهم ينتهون في فنائهم إلىٰ شهود ذات مجردة.

ومن ههنا دخل الملاحدة القائلون بوحدة الوجود ، وجعلوا شهودَ نفس الوجود المجرد - عن التقيدات(٣) ، وعن سائر الأسماء والصفات - هو شهود الحقيقة. [تعالىٰ الله عن كفرهم وإلحادهم علوّاً كبيراً](٤) ، وشيخ الإسلام؛ بل وأهل الإسلام براءٌ من هؤلاء(٥) وشهودهم.

ومراد أهل الاستقامة بذلك : أنه يشهد الذات الجامعة لجميع معاني

---

(١) «مراراً» ساقطة من ق. وانظر ما أشار إليه المؤلف فيما تقدم في مدارج السالكين ١/ ١٤٦ - ١٦٩ ، ٣/ ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) في ط : «المنكرين».

(٣) في البقية عدا م ، ق ، ج : «التقييدات» وانظر قول التلمساني في شرحه للمنازل ٢/ ٥٠٠.

(٤) الزيادة من البقية عدا م ، ق ، ج ، وبعد «شيخ الإسلام» سقط من ط «بل وأهل الإسلام» وعبارة م : «بل هو وأهل الإسلام».

(٥) في ط : «ومن».

الأسماء الحسنىٰ، والصفات العُلَىٰ. فيغيبه شهوده لهذه الذات المقدسة عن شهود صفة أو اسم.

فالشواهد: هي الأفعال الدالة علىٰ الصفات المستلزمة للذات، وشواهد المعرفة: هي الأدلة التي حصلت عنها المعرفة. فإذا طواها الشاهد من وجوده، وشهد أنه ما عرف الله إلا به، ولا دل عليه إلا هو: غابت(١) شواهده في مشهوده، كما تغيب معارفه في معروفه.

وبكل حال فما عرف الله إلا بالله، ولا دل علىٰ الله إلا الله، ولا أوصل(٢) إلىٰ الله إلا الله، فهو الدال علىٰ نفسه بما نصبه من الأدلة. و(٣)الذاكر لنفسه علىٰ لسان عبده. كما قال النبي ﷺ: «إن الله قال علىٰ لسان نبيه: سمع الله لمن حمده»(٤) وهو المحب لنفسه بنفسه، وبما خلق من عبيده الذين يحبونه، والشاكر لنفسه بنفسه(٥)، وبما أجراه علىٰ ألسنة عبيده وقلوبهم وجوارحهم من ذكره(٦). فمنه السبب. وهو الغاية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

---

(١) في ط زيادة: «عنه» وبعدها في ج، ح: «شواهده في شهوده».

(٢) في أ، غ، ب: «وحل».

(٣) في ط زيادة: «وهو».

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الصلاة باب التشهد في الصلاة ١/ ٣٠٣ - ٣٠٥ (٤٠٤).

(٥) في أ كرر: «وبما خلف من عبيده».

(٦) في ب: «وذكره» وفي ط بعدها زيادة: «وشكره».

وللملحد ههنا مجال ، حيث يظن : أن الذاكر والمذكور والذكر ، والعارف والمعروف والمعرفة ، والمحب [1] والمحبوب والمحبة : من عين واحدة. لا بل ذلك هو العين الواحدة ، وأن الذي عرف الله وأحبه هو الله نفسه ، وإن تعددت مظاهره. فالظاهر فيها واحد ، ظهر بوجوده العيني فيها. فوجودها عين وجوده. ووجوده فاض عليها [2]. وهذا أكفر من كل كفر ، وأعظم من كل إلحاد.

والموحدون يقولون : إنما فاض عليها إيجاده لا وجوده. وظهر فيها فعله؛ بل أثر فعله ، لا ذاته وصفاته [3]. فقامت به فقراً إليه واحتياجاً. لا وجوداً وذاتاً ، وأقامها بمشيئته وربوبيته ، لا بظهوره فيها.

ولقد لحظ ملاحدة الاتحادية أمراً اشتبه عليهم فيه [4] وحدة الموجد بوحدة الوجود ، وتوحيد الذات والصفات والأفعال بتوحيد الوجود ، وفيضان جوده بفيضان وجوده؛ فوحدوا الوجود ، وزعموا أنه هو المعبود ، فصاروا عبيد الوجود المطلق الذي لا وجود له في غير الأذهان ، وعبيد الموجودات الخارجة في الأعيان ، فإن وجودها عندهم : هو المسمَّىٰ بالله ، تعالىٰ الله عن هذا الإلحاد الذي

---

(١) «والمحب» ساقطة من م ، وانظر : شرح المنازل للتلمساني ٢/ ٥٠٠ و ٥٠١.

(٢) «عليها» ساقطة من م.

(٣) في ط : ولا صفاته.

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق : «في» بدل «فيه» وبعدها في غ ، ح : «وحدة الموجود». وفي م سقط بعد قوله : «بوحدة الوجود» إلىٰ قوله : «وفيضان وجوده» وسقط من ق قوله : «بفيضان وجوده».

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم : ٩٠]، وسبحان من هو فوق سماواته علىٰ عرشه، بائن من خلقه بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

أين حقيقة المخلوق من الماء المهين، من ذات رب العالمين، أين المكوَّنُ من تراب، من ربِّ الأرباب؟ أين الفقير بالذات، إلىٰ الغني بالذات، أين وجود من يضمحل وجوده ويفوت، إلىٰ حقيقة وجود الحي الذي لا يموت؟ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر : ٢٢-٢٤].

* * *

فصل

[منزلة التمكن]

قال صاحب المنازل :

«(بَابُ التَّمَكُّن)قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠]»[1]. منزلة التمكن

وجه استدلاله بالآية : في غاية الظهور. وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة المشغولات[2] ، ولا بمخالطة أصحاب الغفلات ، ولا بمعاشرة أهل البطالات؛ بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه ، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم : ٦٠] فمن وفَّىٰ الصبر حقَّه ، وتيقَّن أن وعد الله حق : لم يستفزَّه المبطلون ، ولم يستخفه الذين لا يوقنون. ومتىٰ ضعف صبره أو يقينه - أو كلاهما - استفزه هؤلاء. واستخفه هؤلاء. فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه. فكلما ضعف ذلك منه : قوي جذبهم له. وكلما قوي صبره ويقينه : قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

(١) منازل السائرين ١١١.

(٢) في ط : «الشواغل».

فصل

قال الشيخ: «التَّمَكُّنِ»: فَوقَ الطُّمَأْنِينَةِ. وَهُوَ الإِشَارَةُ إِلَىٰ غَايَةِ الاسْتِقْرَارِ»(١).

«التمكن» هو القدرة علىٰ التصرف في الفعل والترك. ويسمىٰ «مكانة» أيضاً، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٥ والزمر: ٣٩].

وأكثر ما يطلق في اصطلاح القوم: علىٰ من انتقل إلىٰ مقام «البقاء» بعد «الفناء» وهو الوصول عندهم. وحقيقته: ظفر العبد بنفسه. وهو أن تتوارىٰ عنه أحكام البشرية بطلوع شمس الحقيقة، واستيلاء سلطانها. فإذا دامت له هذه الحال - أو غلبت عليه - فهو صاحب تمكين.

---

(١) منازل السائرين ١١١، وفيه: «وهو إشارة».

والتمكن في اللغة: من المكن وهو الموضع والمكان ويطلق علىٰ القوة والشدة والقدرة وعلىٰ القدر والمنزلة. انظر: المصباح المنير ٥٧٧، والمفردات في غريب القرآن ٤٧١، ومختار الصحاح ٦٣٠ و ٦٣١.

قال في معجم اصطلاحات الصوفية ٣٤٣: التمكن: استقرار السالك في مقام الولاية باجتماع صحة الانقطاع عما سوىٰ الحق مع نور الكشف، وصفاء الحال عن العلم، فلا يعارضه العلم، ولا يفارقه الحال، ولا يزاحمه الغير، ولا يسلب عنه الشوق. وفي التعريفات ٩٦ قال: التمكين: هو مقام الرسوخ والاستقرار علىٰ الاستقامة... - أي بخلاف التلوين: الذي فيه الانتقال من منزلة إلىٰ منزلة - وانظر أيضاً: الرسالة القشيرية ٧٨.

قال صاحب المنازل : «**التَّمَكُّنُ : فَوقَ الطُّمَأنِينَةِ. وَهُوَ إِشَارَةٌ**(١) **إِلَىٰ غَايَةِ الاستِقْرَارِ**» إنما كان فوق «الطمأنينة» لأنها تكون مع نوع من المنازعة. فيطمئن القلب إلىٰ ما يسكنه ، وقد يتمكن فيه وقد لا يتمكن؛ ولذلك(٢) كان «التمكن» هو غاية الاستقرار ، وهو تَفَعُّلٌ من المكان. فكأنه قد(٣) صار مقامه مكاناً لقلبه قد تبوأه منزلاً ومستقراً.

درجات التمكن

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : تَمَكُّنُ المُرِيدِ. وَهُوَ أَن يَجتَمِعَ لَهُ صِحَّةُ قَصْدٍ يُسَيِّرُهُ ، وَلمعُ شُهُودٍ يحمِلُهُ ، وَسَعَةُ طَرِيقٍ تُرَوِّحُهُ**»(٤).

الدرجة الأولى

«المريد» في اصطلاحهم : هو الذي قد شرع في السير إلىٰ الله. وهو فوق العابد ، ودون الواصل. وهذا اصطلاح بحسب حال السالكين. وإلا فالعابد مريد ، والسالك مريد(٥) ، والواصل مريد. فالإرادة لا تفارق العبد ما دام تحت حكم العبودية.

وقد ذكر الشيخ للتمكن في هذه الدرجة ثلاثة أمور : «صحة قصد ، وصحة علم ، وسعة طريق» فبصحة القصد : يصح(٦) سيره ، وبصحة العلم : تنكشف له

---

(١) في ط : «الإشارة».

(٢) في ج : «وكذلك».

(٣) «قد» ساقطة من ق.

(٤) منازل السائرين ١١١ ، وفيه : «تجتمع... وتسيره» وفي م : «بسيره».

(٥) «مريد» ساقطة من م.

(٦) في ق : «صح».

الطريق. وبسعة الطريق : يهون عليه السير. وكل طالب أمرٍ من الأمور [١] فلا بد له من تعين مطلوبه. وهو المقصود ، ومعرفة الطريق الموصل إليه ، والأخذ في السلوك. فمتىٰ فاته واحد من هذه الثلاث : لم يصح طلبه ولا سيره. فالأمر دائر بين مطلوب يتعيَّن إيثارُه علىٰ غيره ، وطلب يقوم بقلب[٢] من يقصده ، وطريق يوصل إليه.

فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده : تعين مطلوبه. وإذا[٣] بذل جهده في طلب ربه[٤] صحَّ له طلبه. وإذا تحقَّق باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه : صح له طريقه. وصحة القصد والطريق موقوفة علىٰ صحة المطلوب وتعينه[٥].

فحكم القصد يتلقىٰ من حكم المقصود. فمتىٰ كان المقصود أهلا للإيثار : كان القصد المتعلق به كذلك. فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وتمام العبودية : أن يوافق الرسول في مقصوده وقصده وطريقه. فمقصوده: الله وحده. وقصده تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه. وطريقه : اتباع ما أوحي إليه. فصحبه أصحابه[٦] علىٰ ذلك حتىٰ لحقوا به. ثم جاء التابعون لهم بإحسان،

---

(١) «من الأمور» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا ق ، ج ، م : «بقصد».

(٣) في ط : «فإذا» وكذا ما بعدها : «فإذا تحقق».

(٤) في البقية : «طلبه».

(٥) في ب : «وتعيينه».

(٦) في البقية عدا م : «الصحابة».

فمضَوا علىٰ آثارهم.

ثم تفرقت الطرق بالناس ، فخيار الناس : من وافقه في المقصود والطريق. وأبعدهم من[1] الله ورسوله: من خالفه في المقصود والطريق. وهم أهل الشرك بالمعبود[2] ، والبدعة في العبادة. ومنهم من وافقه في المقصود ، وخالفه في الطريق. ومنهم من وافقه في الطريق وخالفه في المقصود.

فمن كان الله مراده [3] ، والدار الآخرة : فقد وافقه في المقصود. فإِنْ عَبدَ اللهَ بما أمر به[4] علىٰ لسان رسوله: فقد وافقه [في الطريق][5]. وإن عبده بغير ذلك : فقد خالفه في الطريق.

ومن كان مقصوده من أهل العلم ، والعبادة ، والزهد : الدنيا والرياسة[6] فقد خالفه في المقصود. وإن تقيد بالأمر.

فإن لم يتقيد به ، فقد خالف[7] في المقصود والطريق.

إذا [8] عُرف هذا ، فقول الشيخ : «تمَكُّنُ المُرِيدِ : أَنْ يَجْتَمِعَ لَهُ صِحَّةُ قَصدِ

(١) في البقية عدا ج، م ، ق: «عن الله ورسوله» وبعدها في ب: «خالفهم في الطريق والمقصود».

(٢) في ج : «بالعبودية» وفي م : «في المعبود».

(٣) في البقية عدا ج ، م : «مراده الله» وفي ج : «الله ورسوله».

(٤) في ط : «به أمر».

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) في ط : «والزهد في الدنيا : الرياسة» وفي البقية عدا ج ، م ، ق : «الزهد في الدنيا والرياسة».

(٧) في البقية عدا ج ، ق : «خالفه».

(٨) في البقية عدا ج ، م ، ق : «فإذا».

تُسَيِّرُهُ» إشارة إلىٰ صحة القصد.

وقوله: «وَلمعُ شُهُودٍ يحَمِلُهُ» إشارة إلىٰ معرفة المقصود، وقوة اليقين به[١]. فيحصل لقلبه كشف يحمله علىٰ سلوكه. فإن السالك إذا كشف له عن مقصوده - حتىٰ كأنه يعاينه - جدَّ في طلبه، وذهب[٢] عنه رخص الفتور.

وقوله: «وَسَعَةُ طَرِيقٍ تُرَوِّحُهُ» إشارة إلىٰ صحة طريقه. وذلك بأمرين: بسعتها حتىٰ لا تضيق عليه، فيعجز عن سلوكها. وباستقامتها حتىٰ لا يزيغ عنها إلىٰ غيرها. فإن[٣] طريق الحق واسعة مستقيمة، وطرق[٤] الباطل ضيقة معوجة. وهذا يدل علىٰ رسوخ الشيخ في العلم. ووقوفه مع السنة، وفقهه في هذا الشأن.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: تمَكُّنُ السَّالِكِ. وَهُوَ أَن يجَتَمِعَ لَهُ صِحَّةُ انقِطَاعٍ، وَبَرقُ كَشْفٍ، وَصَفَاءُ حَالٍ»[٥].

---

(١) «به» ساقطة من الجميع عدا ق، ج، م.

(٢) في ط: «ذهب».

(٣) في م: «فالطريق».

(٤) في م، ب: «وطريق».

(٥) منازل السائرين ١١١، وفيه: «أن تجتمع» وفي الأصل و م: «وضياء حال» والمثبت كما في البقية والمنازل.

هذه الدرجة أتم مما قبلها. فإن تلك تمكن في تصحيح قصد الأعمال. وهذه تمكن في حال[1]. والتمكن في الحال أبلغ من التمكن في القصد.

ويريد بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأغيار، وتعلقه بالشواغل الموجبة للأكدار. ومع ذلك فقد[2] حصل لقلبه «برق كشف» يجعل الإيمان له كالعيان. ومع ذلك فحاله مع الله صاف من معارضات السوء[3]. فلا يعارض كشفَه شبهةٌ. ولا همَّتَه إرادةٌ؛ بل هو متمكن في انقطاعه وشهوده في حاله[4].

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: تَمَكُّنُ العَارِفِ. وَهُوَ أَن يَحْصُلَ فِي الحَضْرَةِ فَوقَ حُجُبِ الطَّلَبِ. لَابِساً نُورَ الوُجُودِ**»[5].

«العارف» فوق السالك. ولا يفارقه السلوك، لكنه مع السلوك قد ظفر بالمعرفة. فأخذ منها اسماً أخص من اسم السالك. وهكذا الشأن في سائر المقامات والأحوال. فإنها لا تفارق من ترقىٰ فيها، ولكن إذا ترقىٰ إلىٰ مقام[6] أخذ اسمه. وكان أحق به مع ثبوت الأول له.

---

(١) في ط زيادة: «التمكن».

(٢) في البقية عدا ج، ق، م: «قد».

(٣) في ط: «السوىٰ».

(٤) في البقية: «وحاله».

(٥) منازل السائرين ١١٢.

(٦) في البقية عدا ج، ق، م: «في مقام».

و «الحضرة» يراد بها حضرة (١) الجمع. وعندي: أنها حضرة دوام المراقبة والتمكن من مقام الإحسان. فهذه (٢) حضرة الأنبياء والعارفين.

وأما حضرة الجمع - التي يشيرون إليها - فكل فرقة تشير إلىٰ شيء. فأهل «الفناء» يريدون حضرة جمع الفناء في توحيد الربوبية. وأهل الإلحاد: يريدون حضرة جمع (٣) الوجود في وجود واحد، وطائفة من السالكين يريدون حضرة جمع الأسماء والصفات في ذات واحدة.

وإذا فسرت بحضرة دوام المراقبة والتمكن في مقام الإحسان كان ذلك أحسن وأصح. وصاحب هذه الحضرة - لدوام مراقبته - قد انقشعت عنه حجب (٤) الغفلات، ولم تشغله عن تلك الحضرة الشواغل(٥) الملهيات.

وقوله: «فَوقَ حُجُبِ الطَّلَبِ» يعني: أن العارف قد ارتفع عن مقام الطلب للمعرفة إلىٰ مقام حصولها. والطالب للأمر دون الواصل إليه. فالطالب بعد في حجاب طلبه. والعارف قد ارتفع فوق حجاب الطلب بما شاهده(٦) من الحقيقة، فالطالب شيء، والواجد شيء.

---

(١) «حضرة» ساقطة من ق، وقد تقدم التعريف بالجمع والجمعية ص٢٨٥٣.

(٢) في البقية عدا ج، ق، م: «هذه».

(٣) سقط من م إلىٰ قوله: «الأسماء والصفات».

(٤) في البقية: «سحب».

(٥) «الشواغل» ساقطة من م.

(٦) في غ، ب: «كما شاهده» وفي ح: «لما».

وهذا كلام يحتاج إلىٰ شرح وبيان. فإن الطلب لا يفارق العبد، ما دامت أحكام العبودية تجري عليه. ولكن هو منتقل[١] في منازل الطلب. ينتقل من عبودية إلىٰ عبودية، والمعبود واحد لا ينتقل عنه. فكيف[٢] تجرد المعرفة عن الطلب؟

هذا موضع زلَّت فيه أقدام، وضلَّت فيه أفهام، وظن المخدوعون المغرورون: أنهم قد استغنوا بالمعرفة عن الطلب، وأن الطلب وسيلة والمعرفة غاية، ولا معنىٰ للاشتغال بالوسيلة بعد الوصول إلىٰ الغاية.

فهؤلاء خرجوا عن الطريق[٣] بالكلية، بعد أن شمَّروا في السير فيها. فرُدُّوا علىٰ أدبارهم، ونكصوا علىٰ أعقابهم، ولم يفهموا مرادَ أهل الاستقامة بذكر «حُجُبِ الطَّلَبِ».

فاعلم أن كل ما منك حجاب علىٰ مطلوبك. فإن وقفت معه فأنت دون الحجاب، وإن قطعته إلىٰ تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب. فطلبك وإرادتك وتوكلك، وحالك وعملك: كلُّه حجاب. إن وقفت معه، أو ركنت إليه. وإن جاوزته إلىٰ الذي أنت به وله، وفي يديه، وتحت تصرفه ومشيئته. وليس لك[٤] ذرة واحدة إلا به ومنه. ولم تقف مع طلبك وإرادتك[٥]: فقد

---

(١) في ط: «ولكنه متنقل».

(٢) في ط زيادة: «يمكن».

(٣) في البقية عدا ج، م، ق: «الدين».

(٤) في الأصل: «ذلك» والمثبت كما في البقية لاستقامة المعنىٰ.

(٥) في البقية عدا ج، م، ق: «في إرادتك».

صرت(١) فوق حجاب الطلب.

ففي الحقيقة : أنت حجاب قلبك عن ربك. فإذا كشفت الحجاب عن القلب أفضىٰ إلىٰ الرب ، ووصل إلىٰ الحضرة(٢) المقدسة.

وقولنا : «إذا كشفت الحجاب» إخبار عن محل العبودية ، وإلا فكشفه ليس بيدك. ولا أنت الكاشف له. فإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو.

ومن أعظم الضر : حجاب القلب عن الرب ، وهو أعظم عذاباً من الجحيم، قال تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المطففين : ١٥ ، ١٦].

وقوله : «لابِساً نُورَ الوُجُودِ» المعنىٰ الصحيح من هذه اللفظة : أن «نور الوجود» هو(٣) نورُ ظَفَرِه بإقبال قلبه علىٰ الله ، وجمعِ همِّه عليه ، وَقيامِه بمراد ربِّه(٤) عن مراد نفسه. فصار واجداً لما أكثر الخلق فاقد له. قد لبس قلبه نور(٥) ذلك الوجود ، حتىٰ فاض علىٰ لسانه وجوارحه ، وحركاته وسكناته. فإن نطق علاه النورُ ، وإن سكت علاه النور.

---

(١) في م : «ضرب» وهو خطأ.

(٢) «الحضرة» ساقطة من م.

(٣) «هو» ساقطة من ط.

(٤) في البقية عدا ق : «وفنائه بمراده» وفي ج : «وفنائه بمراد ربه».

(٥) في ق : «نور قلبه».

وأخص من هذا : أنه قد فاض علىٰ قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات. فصار لقلبه من معرفتها والإيمان بها ، وذوق حلاوة ذلك : نوراً خاصاً غير مجرد نور العبادة ، والإرادة والسلوك. وإياك أن تلتفت إلىٰ غير هذا ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل : ٩٤].

وليس مراد الشيخ بالوجود ما يريده المتكلمون والفلاسفة ، ولا ما يريده الاتحادية الملاحدة. وإنما مراده به : الوجدان بعد الفقد. كما يقال : فلان واجد ، وفلان فاقد. والله أعلم.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمـة

الحمد لله وحده ، أحمده وأشكره علىٰ نعمه ، بفضله وكرمه وإحسانه ، فله الحمد والثناء المتكرر.

وأسأله سبحانه أن يحفظنا فيما بقي - كما حفظنا فيما مضىٰ - وأن يجعل خير أعمالنا آخرها ، وخير أيامنا يوم نلقاه ، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله إنه قريب مجيب ، وأصلي وأسلم علىٰ من لا نبي بعده ، سيدنا محمد ﷺ إمام المتقين ، وصفوة خلق الله أجمعين ، وعلىٰ آله وصحبه ومن اقتفىٰ أثره ، واتبع سنته إلىٰ يوم الدين.

أما بعد :

فقد تبين لي من خلال تحقيق هذا الكتاب ودراسة هذه المسائل نتائج مهمة منها ما يلي :

١ - أن هذا الكتاب الذي قمت بالمشاركة في تحقيقه وهو : كتاب مدارج السالكين ، جدير بالاهتمام والنشر؛ لما حواه من مباحث قيمة ومتنوعة ، وهو دليل علىٰ غزارة علم مؤلفه ـ رحمه الله ـ.

٢ - أن العبارات المجملة ، والتي يستخدمها بعض علماء المسلمين سبب في وقوع التنازع عليها بين أهل الحق وأهل الباطل ، حيث أن كل فريق يفسرها علىٰ ما يعتقده سواء من حق أو باطل ، كما هو ظاهر في بعض عبارات الهروي ـ رحمه الله ـ.

٣ - أن كتاب مدارج السالكين مع ما فيه من بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة ، إلا أنه يضم ويبيِّن كلمات كثيرة ، ومصطلحات عجيبة كالذوق ، والجمع ، والكشف ، والحال ، والفناء والاصطلام ونحو ذلك.

٤ - أن الإحسان أعلىٰ مراتب الدين ، وأن له مقامان أحدهما أعلىٰ من الآخر وهما مقام المشاهدة ومقام الإخلاص.

٥ - أن من الطوائف من أبطل الدعاء ، وقال بأنه لا فائدة فيه احتجاجاً بالقدر ، وطائفة أخرىٰ قالوا : بل بنفس الدعاء يُنال المطلوب ، فهو موجب لحصوله ، وأن الحق بين هاتين الطائفتين وهو : أن الدعاء سبب من الأسباب.

٦ - عموم التطير حيث يتطير المتطير بالطيور والحيوانات والنبات بل والإنسان وحتىٰ من نفسه أحياناً.

٧ - أن التطير سبب في حصول زلات ومخالفات كثيرة سواء علىٰ نفس المتطير من حيث اعتماده علىٰ غير الله ووقوعه في الوساوس ونكد العيش ، أو علىٰ نفسه وغيره من ظهور مخالفات عديدة ، قد تترتب علىٰ التطير ، كالذهاب إلىٰ من يدعي علم الغيب من الكهنة والعرافين والسحرة ، وكثرتهم وانتشارهم بسبب ذلك.

وفي ختام هذا البحث أوصي نفسي وإخواني - بعد تقوىٰ الله تعالىٰ - ببعض الوصايا التي أرجو أن يعم النفع بها ومنها :

١ - تكثيف الدروس العلمية العامة لنشر عقيدة السلف ، وبيان الدين ،

والحرص علىٰ الإكثار منها في المساجد والجامعات والمدارس.

٢ - الحرص علىٰ إلقاء الكلمات اليسيرة ، والمناسبة في أي فرصة سانحة، للتذكير بالدين ، وبيان الحق ، والتنبيه علىٰ المخالفات والتحذير منها.

٣ - الاهتمام بكتب علماء المسلمين ، والتي تبيِّن عقيدة أهل السنة والجماعة ، وترد علىٰ أهل الزيغ والضلال ، وذلك بتحقيقها ونشرها علىٰ نطاق واسع.

وأخيراً فلا أدعي أنني أتيت علىٰ جميع المطلوب بتمامه ، ولكن بذلت جهدي في تحقيق ذلك ، فإن أصبت فمن الله وفضله وتوفيقه ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان. واللهَ أسألُ أن يعفوَ عني وعن زلاتي ، وأسأله أن يسددني لما فيه الحق والصواب ، وأن يهديني إلىٰ الصراط المستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. والله أعلم

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *